

دكتور حُسَيْن مُؤنس

فجر الأندلس

دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي
إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ - ٧٥٦ م)



الدار السعودية
للنشر والتوزيع

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم
النبيين :

وبعد ، فإن الحاجة ماسة الى تاريخ عام للأندلس منذ الفتح الاسلامى
الى نهاية مملكة غرناطة ، مع دراسة لأحوال المسلمين الذين تخلفوا فيه
بعد ذلك ، وما كان للأندلس الاسلامى المجيد من آثار باقية بعيدة المدى
فى تاريخ الحضارة الانسانية .

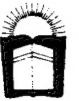
وقد بدأت هذا الكتاب ، الذى أقدمه اليوم للقراء ، على نية أن
أسد به هذا الفراغ ؛ ولكنى لم أكد أمضى فى الدراسة حتى تبينت أن
الايجاز الذى تتطلبه التواريخ العامة يخفى معظم جوانب الجمال فى
تاريخ هذا الفردوس الاسلامى المفقود ، اذ أنه كان قطرا فريدا فى بابه
فى دولة الاسلام : أهله مزاج من عناصر أوروبية وأخرى شرقية ،
وحضارته ثمرة تزاوج فكرى بين الشرق والغرب على نحو قل أن نجد
له مثالا فى بلد آخر من بلاد الاسلام ، وتاريخه لهذا عميق عريض ،
تفرد كل ناحية منه بخصائص ومميزات جديرة بالبحث والتأمل
والاعجاب ، وهذه الخصائص لا تستبين الا بالدرس المستأنى الصبور
الذى يتعرض للمشاكل ويحاول حلها ، ويقف عند النواحي الغامضة
ويجتهد فى أن يجليها ، ولا يستطرد عن العسير الى اليسير ، ولا يقنع

(٥)

الطبعة الثانية

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

حقوق الطبع محفوظة



الدار السعودية
للنشر والتوزيع

جدة

الإدارة : البغدادية - عمارة الجوهرة
تليفون : ٦٤٣٢٨٢١ / ٦٤٣٤٠٤٣ / ٦٤٣٤٢٥٥
تلكس : ٤٠٤٣٥١ - نشر
ص.ب : ٢١٤٥١ / ٢٠٤٣ ، ب.برقية : نشر دار
المترجمات : طريق مكة المكرمة - شرق المطبات القديمة
الكتابات : ١ - شارع الملك عبد العزيز ، تليفون : ٦٤٧٨٧٢٣
٢ - شارع فلسطين ، مركز الزمان ، تليفون : ٦٦٠٨٩٦٤

الذمائم : الشارع العام ، ص.ب : ٨٩٩
تليفون : ٨٣٢٣٥١٥ / ٨٣٣٥٥٢٠

من التأريخ بالسرد والاسترسال . ولهذا فقد نزعنا عن التأريخ العام الى الدراسة المفصلة لعصر واحد من عصور تاريخ الأندلس ، هو عصر الولاة من قبيل الفتح العربى الى قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن ابن معاوية الداخل .

وربما بدا للقارىء أننى ذهبت مع التفصيل الى مداه ، حينما أنفقت قرابة السبعمئة صفحة فى دراسة تاريخ خمس وأربعين سنة ، ولكنى أعتقد رغم ذلك أن هذه السنوات لازالت فى حاجة الى مزيد من التفصيل ، وكل فصل من فصول هذا الكتاب حقيق بأن يوقف عليه كتاب كامل ، ولدينا المادة التاريخية لذلك .

وقد تبينا من تجاربنا فى دراسة تاريخنا الاسلامى أن السبب الأكبر فيما يشوبه من غموض ، وفيما يفضى بالكثير ممن تعرضوا للكتابة فيه الى الزلل ، هو اهمال دراسة العصور الأولى ، وهى عصور قيام الدولة والمجتمع الاسلاميين وتكوّن العناصر التى قامت عليها الدولة واستقرار الأسس التى استقام عليها المجتمع ، سواء أكانت هذه العناصر بشرية أم تنظيمية ، سياسية وإدارية أم فكرية تتصل بالانتاج العقلى والفنى . وإذا لم تظهر هذه العصور بحقها من العناية ، وإذا لم تدرس على الأصول التى ينبغى أن تقوم عليها الدراسات ، لم يؤمن الزلل فيما يكتب بعد ذلك من تواريخ العصور التى تليها ، وهذا ظاهر فيما بين أيدينا من كتب فى تاريخ الاسلام العام أو تأريخ أقطاره : معظمها سرد واسترسال مع السهل الميسور من تسجيل الحوادث ، وسير مع تيار تاريخى لا يعرف اتجاهه ولا مبتداه أو منتهاه .

ولهذا ، فقد رأيت فيما يتصل بتاريخ الأندلس أن أبدأ من حيث

ينبغى أن يكون البدء ، وأن أتتبع بكل ما وصل الى من مادة تاريخية غزيرة ، وأن أتعرض للمشاكل وأحاول حلها على قدر ما تعين عليه المراجع والأصول . ويرى القارىء ذلك بصورة خاصة فيما كتبت عن عناصر السكان وأصول التنظيم الإدارى والمالى ، وقد اقتضانى ذلك أن أرجع بالأشياء الى أصولها البعيدة الخافية فى ليل الزمان الطويل ، وربما تتبعتها فى تطورها عشرات السنين بعد العصر الذى يعينى فى هذا الكتاب ؛ ولم يكن من ذلك مفر ، فإن ظواهر التاريخ لا تظهر من الأرض ، بل تنبع من أصول وتمضى فى خطوط تحددها الظروف والأحداث . وقد وصلت فيما تعرضت له من مشاكل الى حلول أرجو أن تعين العاملين على تاريخ الأندلس خاصة والاسلام عامة فيما يتولون من دراسات .

وعلى أساس من النتائج التى انتهت اليها فى هذا البحث ، أرجو أن أستطيع الوفاء بما وعدت به من كتابة تاريخ عام للأندلس الاسلامى المجيد .

ولابد أن أوجه الشكر فى هذا التقديم اليسير الى الصديقين الأستاذين مصطفى عبد المجيد صالح وحسن ايرانى ، فقد تفضل الأول بالاشراف على الطبع ، وشاء طموح الثانى — كناشر حريص على سمعة الكتاب العربى — أن يخرج الكتاب فى هذا الثوب الجميل . والله أسأل أن يوفقنا الى ما فيه خير الاسلام والعرب والمسلمين .

مصطفى مؤنس

مدريد ، مارس ١٩٥٩

الفصل الأول

إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي

وخلفه في قيادة القوط الغربيين ومن معهم من شرادم المتبربرين أطاوولف ، فجرى على منواله وأنزل بإيطاليا بلاء شديداً ، ثم اتجه بجموعه نحو غالة ، وعبر إلى إسبانيا وأخذ ينازع من استقر فيها من القوط الشرقيين ومن معهم من السوييف والوندال ، واضطرت الدرة آخر الأمر إلى مهادنة أطاوولف وإقراره في الجزء الجنوبي من غالة في الإقليم المحيط بتولوز (طولوشة) سنة ٤١٦ - ٤١٨ م .

وكانت جماعات القوط الشرقيين المستقرة في إسبانيا في ذلك الحين قليلة العدد ، وكان مقامها في الزاوية الشمالية الشرقية جنوبي جبال البرت (التي تعرف خطأ بالبرانس) ، أما السوييف والوندال فكانوا أكثر عدداً ، وكانوا قد استقروا في الركن الشمالي الغربي فيما يعرف بجليقية وأشتورياس (أو أشتريس) ، وكانت الدولة قد سمحت لهم بالاستقرار في هذه النواحي في سنة ٤١١ ، واشترطت عليهم أن لا يغيروا على ما جاورهم من البلاد ، ولكنهم لم يراعوا هذا الشرط وروعوا بقية الجزيرة الأندلسية وجنوبي غالة بغاراتهم . وكان الوندال مسيطرين على شرق الجزيرة ووسطها ، ولم يكونوا أحسن حالا من السوييف والآلان ، فجعلوا هم الآخرون يغيرون على جنوبي غالة وحوض الرون ، وما زالت هذه الجموع المتبربرة تشتد في أعمال التخريب حتى كادت تقضي على كل أثر للاستقرار والحضارة في الجزيرة الإيبيرية كلها .

فلما أقرت الدولة أطاوولف وأصحابه القوط الغربيين جنوبي غالة سلطوهم على طوائف المتبربرين التي تسكن إسبانيا ، فأعلنوا عليها حرباً شعواء وارتد الآلان إلى مواقعهم الأولى وانحصروا على الساحل الشمالي المطل على خليج بسكاي ، وانحصر السوييف في الركن الشمالي الغربي الأقصى من شبه الجزيرة واستقروا هناك وانقطع شرهم . وحاول الوندال المقاومة ، ولكن القوط الغربيين تغلبوا عليهم وأزاحوهم نحو الجنوب ، فأقاموا قليلاً في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة المعروف بولاية بيطي (بيتيكا) الإغريقية القديمة ، وكانت لا تزال تحتفظ إلى ذلك الحين بآثار جليلة من الحضارة اليونانية

١ - القوط في أواخر القرن الرابع الميلادي : استطاع القوط الغربيون الغربيون في أواخر بقيادة ألاريك أن يسيطروا على مصائر القسم الغربي من أيامهم الدولة الرومانية ، ذلك أن الإمبراطور تيودوسيوس كان قد وصل إلى عرش الإمبراطورية معتمداً على تأييدهم وتأييد من انضم إليهم من طوائف المتبربرين من الآلان والهون وبقايا الوندال ، فجعل يملكهم على أهل البلاد الأصليين من الرمان ، حتى إذا توفي تيودوسيوس سنة ٣٩٥ كان ألاريك قائد القوط الغربيين قد أصبح أقوى شخصية في وسط أوروبا وجميعاً . وكان إمبراطور الجزء الغربي من الدولة الرومانية « هونوريوس بن تيودوسيوس » قد عهد في قيادة جيوشه إلى وندال ماهر هو ستليخو ، وكان ألاريك يحسده وينازعه ويود لو حل محله ، وكان ستليخو يعرف أطماع ألاريك ومن معه من القوط الغربيين ويحاول أن يدفع عن الدولة شره وشرهم ، ولكن هونوريوس تخلى عن قائده واتهمه بالخيانة وأعدمه في سنة ٤٠٨ ، وبهذا أزال من وجه ألاريك القوة الوحيدة التي كانت قميئة أن تحول بينه وبين إيطاليا لو أراد غزوها ، ولم يكذب ألاريك أن جمع جنده وتحرك نحو الغرب ، وخاف هونوريوس شره فغادر روما وتحصن في رافنا في شمالي إيطاليا ، وأخذ ألاريك يهاجم روما المرة بعد المرة وأهلها يدافعونه عن أنفسهم بالمال مرة وبالخند مرة أخرى ، فولكنهم انتهوا آخر الأمر إلى الهزيمة ، فاقترح ألاريك ومن معه من القوط الغربيين المدينة الخالدة سنة ٤١٠ ، وأصبح غرب أوروبا جميعه تحت رحمته ، فأخذ يخرب شمالي إيطاليا تخريباً سيئاً ، ولم ينقذ إيطاليا من مأساته إلا موته بعد ذلك بقليل (١) .

(١) FERDINAND LOT. *La fin du monde Antique et le début du moyen-âge*. (Paris, 1927) pp. 233-242.

المادية والفكرية ، وكان الوندال أجلاً فم يلبثوا أن قضوا على معظم ما وجدوا من آثار العمران والتحضّر في بيتيكا ، واضطر زعيمهم جيستريك — أمام ضغط القوط الغربيين المتصل — إلى العبور إلى إفريقية سنة ٤٢٩ ، بعد أن خرب أمهات مدائن بيتيكا العامرة مثل هسباليس (سبيليا — إشبيلية) وكرتاجو نوفا (قرطاجنة) وجاديس (جوادريكس — قادش) ومورجي (مرسية — مورثيا) وكردوبا (قرطبة — كوردفا) وغيرها ، وخلف هذا الإقليم العامر وراءه ياباً على عادة الوندال . وقد بلغ من عمق الأثر الذي خلفه الوندال في هذا الإقليم أن اختفى اسمه القديم « بيتيس » (الذي عرّبه العرب إلى « بيطى ») وأصبح يسمى من ذلك الحين قنندالوسيا ، إقليم الوندال ، وعنه أخذ العرب لفظ « الأندلس » الذي أطلقوه فيما بعد على شبه الجزيرة كلها (١) .

استقر القوط الغربيون في شبه الجزيرة ، وأخذوا يمتدّون في نواحيها شيئاً فشيئاً ، وظهر فيهم بعد أطاوولف زعيم قادر هو « واليا » (Valia) استطاع أن يقرر سلطانهم في نواحي الجزيرة كلها . ولم يكن جميع من تحت سلطانه من الجند قوطاً غربيين ، وإنما كانت فيهم أشنات من المتبربرين من كل جنس ، ولكنهم كانوا يدينون له جميعاً بالطاعة والولاء ، وكانت علاقته بالإمبراطورية علاقة التابع أو الفصّل ، فلما طمع إدواكر المتبربر في حكومة الجزء الغربي من الدولة الرومانية ، وأقره الإمبراطور البيزنطي زينون على حكومة إيطاليا في الرابع من سبتمبر سنة ٤٧٦ ، كان معنى ذلك زوال الدولة الرومانية الغربية من الوجود وتحلل جميع أتباعها من المتبربرين من الولاء لها ، وبهذا استقل القوط الغربيون بإسبانيا وأعلنوا أنفسهم ملوكاً غير تابعين لأحد ، وكان زعيمهم يوريك (Euric) قد اتخذ لقب الملك فعلاً قبل ذلك بنحو

(١) LÉVI-PROVENÇAL. *L'Espagne musulmane au Xe. siècle*, pp. 18-39.

THOMAS, W. ARNOLD. *The Preaching of Islam* (London, 1935) pp.

130-144.

تسع سنوات (سنة ٤٦٧) ، وهو يعد لذلك مؤسس دولة القوط الغربيين في إسبانيا ، وسنكتفي بأن نسميهم القوط وحسب من الآن فصاعداً (١) .

٢ - دولة القوط وكان يوريك قد حرص منذ صارت إليه زعامة القوط على أن يمد سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يبسطه على شبه الجزيرة في إسبانيا الإيبيرية كله ، ولم يتنازل إلى جانب ذلك عما كان لأسلافه

من الأقاليم شمال جبال البرت ، وكان الرومان يعتبرون جنوبي غالة وشمال إسبانيا وجزءاً كبيراً من غربها إقليماً واحداً ، فحرص يوريك أن تضم دولته هذا الإقليم الواسع إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ، ففتح إقليم لشدانية (لوزيتانيا-البرتغال) وقرر فيه سلطانه ، ومد حدود مملكته إلى الجنوب وأدخل فيها إقليم بيطي (الذي يعرف باسم بيتيكا) وولاية قرطاجنة الرومانية القديمة وهي الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة ، وتابع جهوده في شمال جبال البرت ، واستولى على آرل ومرسيليا ، وبهذا أصبحت دولته تمتد من أقصى الهضبة الفرنسية الوسطى إلى طرف إسبانيا الجنوبي ، وحكم شعبين كبيرين هما الغاليون الرومان (Gallo-romani) شمالي البرت والإسبان الرومان (Hispano-romani) جنوبيها . وكانا شعبين متحضرين يشغل معظمهما بالزراعة ، ويزيدان في العدد على القوط مرات عديدة ، وكان معظم أهلها مسيحيين كاثوليك ، يسيطر على نفوسهم قساوسة خاضعون لسلطان روما وأسقفها الكبير (٢) .

وكان القوط مسيحيين آريين ، أي أنهم كانوا لا يعتقدون في ألوهية المسيح ، ولا يعترفون للقساوسة بحق الوساطة بين الله والناس ، ولا يجعلون

(١) GEORGE YVER. *Euric, roi des Wisigoths (466-485) des Etudes d'Histoire*

du Moyen-âge dédiées à Gabriel Monod (Paris, 1896) pp. 11-46.

(٢) MANUEL TORRES. *Historia política del Reino de Tolosa en*

Historia de España de Menéndez Pidal (Tomo III. Madrid, 1940) pp. 70 Sqq.

BALLESTEROS, RAFAEL. *Histoire d'Espagne des origines à nos jours* (Paris,

1938) pp. 35-36.

للعدراء مكاناً ممتازاً في العقيدة ، وكان لهم أسلوب خاص في العبادة ، فلم يلبث السكان الأصليون من غالين وإيبيريين أن نفروا من حكمهم ، واجتهد القساوسة في تقوية شعور النفور هذا ، لأن القوط كانوا ينكرون عليهم أى سلطان روحى على الناس . واشتد هذا النفور مع الأيام بسبب ما كان القوط ينزلونه بالقساوسة من اضطهاد . وظل مركزهم بين رعاياهم مضطرباً مزعزعاً ، فلما نهض كلوفيس زعيم الفرنجة وأخذ يمد سلطانه نحو الجنوب سارع القساوسة لتأييده لأنه كان كاثوليكياً ، وانضم إليه الغال الرومانيون ، فاستطاع أن يزيح القوط إلى الجنوب ويجليهم عن إقليم طولوشة (تولوز) الذى ظلوا يحكمونه مدى طويلاً ، ثم انتصر عليهم انتصاراً حاسماً في فوييه (Vouillé) شتاءً يواتيه سنة ٥٠٧ وأجلاهم عن جل ما كان بيدهم من أراضي غالة . فلم يبق لهم إلا إقليم سبتانية المتاخمة لجبال البرت من الشمال ويمتد حتى نهر الرون وعاصمته نربونة (١) .

بهذا اقتصر سلطان القوط الغربيين على إيبيريا ، وأخذت علاقة شبه الجزيرة مع بقية العالم الأوروبي الواقع إلى الشمال تفتر . ولما كان القوط قد وحدوا شبه الجزيرة كله تحت سلطانهم فقد أخذت «إسبانيا» تظهر كوحدة سياسية وجنسية واحدة للمرة الأولى في التاريخ . وذلك أمر له خطره ، لأن الإغريق لم يعرفوا منها إلا الغرب وبعض الجنوب ، ولأن الرومان كانوا يقسمونها ولايات مختلفة لا علاقة بين بعضها وبعض : هى بتيكا في الجنوب وهسبانيا ترأكوننسيس* (إسبانيا الطركونية) وتشمل الوسط والشرق والشمال الغربى ، ولوزيتانيا وهى غرب الجزيرة وناربوننسيس* (ولاية نربونة) من

(١) GUERRA (A. FERNÁNDEZ). *Caida y Ruina del Imperio Visigótico-español*. Madrid, 1883.

MANUEL TORRES. *Las Invasiones y los Reinos germánicos de España en Historia de España* editada de RAMON MENÉNDEZ PIDAL. Tomo III. pp. 81-84.

حدود برشلونة إلى جبال الألب ، وكانت عاصمتها على أيامهم تراجونا (طركونة) جنوبى بركينو (برسينونا - برشلونة) (١) .

أما القوط فقد اعتبروا شبه الجزيرة كله بلداً واحداً . واتخذوا عاصمة لهم بلداً متوسطاً يقع في وسط شبه الجزيرة وهو « طليطلة » .

ولطليطلة موقع جغرافى سياسى هام تمتاز به عن طركونة عاصمة إسبانيا الرومانية وقرطبة عاصمة إسبانيا الإسلامية ، فهى على هضبة مرتفعة في وسط شبه الجزيرة تقريباً ، يستطيع الحاكم منها مراقبة البلد كله والاتصال بأطرافه على سبيل أسهل مما يستطيعه الحاكم المقيم بقرطبة . وهى تقع على صحرة عند منحني من منحنيات نهر تاجه . ولا يصل إليها العدو المهاجم إلا بمجهوداً

MANUEL TORRES. *op. cit.* pp. 112 Sq.

(١)

LEGENDRE, MAURICE. *Nouvelle Histoire d'Espagne* (Paris, 1938) pp. 66-67.

قسم الرومان إسبانيا أول الأمر إلى قسمين يفصل بينهما خط غير محدد بالضبط يمتد من النويره إلى قسطة Gástulo (Cazlona) في الأندلس . ثم قسمها أغسطس إلى ثلاث ولايات :

إسبانيا الشرقية . Tarraconensis

إسبانيا الجنوبية . Betica

إسبانيا الغربية . Lusitania

ثم أضاف كراكالا إلى هذه الولايات الثلاث ولاية جديدة تضم الشمال الغربى وتسمى (Gallaecia) أى إسبانيا الجليقية ، وعن هذا اللفظ أخذ العرب لفظ جليقية وسما به الطرف الشمال الغربى المسمى فى الإسبانية (Galicia) .

ولما أعاد دقلديانوس تنظيم الدولة الرومانية وقسمها إلى مديريات (Praefecturae) ، وقسم هذه إلى دوائر (Diocesis) ، وهذه بدورها إلى ولايات (provinciae) ، ضم إسبانيا إلى مديرية غاليا ، وجعلها دائرة تضم سبع ولايات :

Tarraconensis, Cartaginensis, Betica, Lusitania, Gallaecia, Balearica, Tingtana. أى أنه أضاف إليها جزائر البليار وجزءاً من إفريقية هو مرطانية الطنجية ، وستنل مرطانية الطنجية مرتبطة بإسبانيا حتى الفتح الإسلامى .

Cf : BALLESTEROS, RAFAEL. *Histoire d'Espagne*, pp. 28 Sq.

وانظر عن ذلك كله الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب ، وهو خاص بالتنظيم الإدارى والمالى .

بعد أن يعبر جبال قشتالة القاحلة في الشمال وإقليمى الإسترامادورا والمنشا القاحلين الموحشين في الجنوب ، ثم إن مركزها المتوسط يحفز الحاكم على تحقيق الوحدة وييسرها له ، لأنها موسطة البلاد وقلبها ، أما طركونة فبعيدة جداً عن الجنوب والغرب ، وقرطبة بعيدة جداً عن أشتريس وجليقية ولوزيتانيا ، ومن ثم ليس بغريب أن نلاحظ أن المسلمين لم يوقفوا إلى حكم البلاد كلها تماماً ، وأن أشتريس رجليقية لم تخضع لهم أبداً ، بل لم يدم سلطانهم على إقليم برشلونة ونواحي الغرب إلا خلال فترات قصيرة جداً^(١).

ولعل أظهر أثر لاستقرار القوط في طليطلة هو تحولهم إلى «إسبان» في وقت قصير ، في حين لم يصبح العرب إسباناً إلا بعد فترة طويلة ، لأن المقيم في طليطلة تنقطع الصلات بينه وبين ما يلي البرت وما يلي الزقاق ، ويتأقلم ويصبح إيبيريا ، أما المقيم في قرطبة فتظل أصلته بإفريقية وما يتصل بها من بلاد الشرق أوثق وأظهر من صلاته بجليقية وأشتريس ونواحي البرت ، وكان ذلك من أسباب الضعف الرئيسية في دول المسلمين في الأندلس^(٢).

استطاع القوط من عاصمتهم طليطلة أن يفتحوا شبه الجزيرة كله ، ولكن سلطانهم لم يستقر في البلاد أول الأمر بسبب ما ثار بينهم وبين أهل البلاد الإيبيريين من منازعات دينية وبسبب ما شجر بين أمرائهم من خلافات ، ولهذا ظلت البلاد طوال القرن السادس نهياً للحروب الأهلية وما ينجم عنها من الفوضى وسوء الحال . وقد لقي نفر من ملوك القوط مصارعهم في هذه الحروب ، وطمع ثيودوريك ملك القوط الشرقيين في عرش إسبانيا فغزاه وأقام حفيداً له على عرشها ، ولم يلبث أحد قواد القوط الغربيين الأقوياء أن ثار بهذا الدخيل وأعلن نفسه ملكاً على إسبانيا بفضل معاونة حربية أمده بها جستنيان إمبراطور بيزنطة في سنة ٥٥٤ وانضم إليه أهل البلاد من الإيبيريين

(١) تناولنا هذه الناحية في كتابنا: مقدمة جغرافية لتاريخ المسلمين في الأندلس ، وهو مطبع الآن بمديري

LEGENDRE, MAURICE. *Nouvelle Hist. d'Espagne*, (Paris, 1938) (٢)

الرومان الكاثوليكين ، واحتل المنطقة الواقعة بين الوادي الكبير و«جُكْر» (نهر شقر) ، وانفصل هذا الإقليم عن حكومة طليطلة .

وكان آخر ملوك القوط الآريين هو ليوفيجيلد (Liuvigild) (٥٦٨ - ٥٨٦) وكان محارباً مقداماً ظل يحارب الكاثوليكين طول حياته ، وخلفه ابنه ريكاريدو (Recaredo) فاستبان أنه لا صلاح لدولة القوط في هذه البلاد إلا إذا تخلى ملوكها عن الآرية ، ففعل ذلك وأعلنه في مجمع طليطلة الديني سنة ٥٨٧ : اعتنق الكاثوليكية هو وأهل بيته ، وتبعه الأمراء وكبار أهل المملكة ، وبهذا أصبحت الكاثوليكية هي الديانة الرسمية في إسبانيا من ذلك الحين . وهذا حادث خطير سيظل مؤثراً في التاريخ الإسباني كله ، فإن الكاثوليكية تأصلت في أهل البلاد مع الزمان ، وزادها قوة ميل الإسبان للتشدد في الإيمان والتعصب لكل ما يؤمنون به ، فأصبحت إسبانيا معقلاً من أمتع معاقل الكاثوليكية ، وكان لهذا أثر بعيد جداً في حياة الإسبان وفي مجرى تاريخهم كله^(١).

وأعقب هذا التحول إلى الكاثوليكية اعتبار اللاتينية اللغة الرسمية في البلاد ، وتوثق صلات إسبانيا بالبابوية ، وقد تفانى خلفاء ريكاريدو في الولاء للبابوية تفانياً شجع البابوات على بسط نفوذهم الديني - بل السياسي - في البلاد ، وبدأ يفد على البلاد هذا الفيض المتصل من قساوسة الكاثوليك ورجالهم ، وأصبحت طليطلة أسقفية يقيم فيها أسقف كبير يمثل سلطان البابا ونفوذه ، وأباه الشعب الروماني الإيبيري الذي لم يتخل عن الكاثوليكية بعد ذلك . ومن هنا نفهم السر في أن نفوذ أسقف طليطلة لم يقل في فترة من فترات التاريخ الإسباني المسيحي عن نفوذ الملوك ، إن لم يزد عليه في كثير من الأحيان . كان

MANUEL TORRES. *Las invasiones y los reinos germánicos de España* (١)

en *Historia de España de RAMON MENÉNDEZ PIDAL Tomo III.*

تحول القوط إلى الكاثوليكية الخطوة الفعالة الأولى لامتزاج الشعبين القوطي والإيبيري الروماني ، فقد ظلّا متباعدين ما اختلفت عقيدتهما الدينيتان ، فأما وقد اتفقا في العقيدة فقد انفتح الباب أمام الامتزاج ، ولكنه لم يتم إلا على صورة مصغرة جداً . لأن القوط حرصوا على أن يحتفظوا لأنفسهم بمركز الشعب الحاكم ، مما كان له أثر بعيد سبيء على مصير دولة القوط في إسبانيا .

وكانت الملكية القوطية انتخابية ، أي أن نفرًا من كبار أهل المملكة والأمراء كانوا يجتمعون بعد وفاة الملك لاختيار ملك من بين أظهرهم . فكان هذا النظام مدعاة لإثارة المنافسات بين الأمراء وكبار القوط . ومن ثم لا غرابة في أن يكون تاريخ القوط في إسبانيا سلسلة من المؤامرات والحروب والاعتقالات . ومهما حاول مؤرخو الإسبان - القدامى والحديثون - أن يقللوا من شأن هذه الاضطرابات ، رغبة منهم في الدفاع عن دولة القوط ، فإن الإنسان يستطيع أن يتتبع سلسلتها في سهولة ويسر . وأن يستبين أن العرب لو لم يتدخلوا في سنة ٧١١ ، في شئون الجزيرة ويضعوا نهاية لهذا العصر المضطرب لبلغ القوط بإسبانيا مبلغاً من السوء لا يسهل تصوره^(١) .

بيد أننا ينبغي أن نستثنى من سلسلة ملوك القوط نفرًا أجمع المؤرخون على أنهم كانوا قادرين خبيرين ، وأنهم قدموا للبلاد خدمات حربية وعمرانية بعيدة الأثر ، مثل ششبرت (Sisiberto ٦١٢ - ٦٢١) الذي أتم فتح شبه الجزيرة كله وشنداسقنتو (Chindaswinto ٦٤٩ - ٦٧٢) الذي ألغى التفرقة بين أجناس الشعب ، وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج فيه القانون الروماني القديم الذي كان قد سنه الملك ألياريك الثاني والقانون القوطي الذي وضعه يوريك . مما قرر السلام بين أهل المملكة وجنيتها مصاعب وخلافات شتى^(٢) .

(١) BALLESTEROS, RAFAÉL. op. cit. p. 37.

(٢) BALLESTEROS, RAFAÉL. op. cit. p. 37-39.

وقد أخذت الصور العربية لهذه الأسماء القوطية مما وجدته في المراجع العربية ، ولم تتحدث المراجع =

ولعل أكبر ملوك القوط هؤلاء واما (Wamba ٦٧٢ - ٦٨٠) فقد كان أميراً عظيم الهمة ، استطاع أن يقرر سلطانه فيما بقي للقوط من الممتلكات شمالي جبال البرت : قضى على ثورة خطيرة دبرها هلدريك كونت نيميه (نيم) ، وأخذ ثورة أخرى دبرها باولس أمير سبتمانية الانفصال بها ، وحكم البلاد كلها حكماً رشيداً حازماً فأحببه الناس والتفوا حوله ، وبلغ من

= العربية عن ملوك القوط كثيراً ، ولم تذكر منهم إلا واحداً أو اثنين ، ولكنها ذكرت أشخاصاً لهم أسماء هؤلاء الملوك خلال فترة الفتح ، فأخذت عنها هذه الصور . وهذه المراجع العربية هي الأخبار المجموعة ، ونفح الطيب (انظر فهارس الأعلام فيهما) ، ومرجعان عربيان : الأول مجهول المؤلف ، لم نعر إلا على فقرات منه مترجمة إلى اللاتينية والإسبانية ، والثاني عثرنا على ترجمتين إسبانية وبرتغالية لجزء منه :

١ - فتح الأندلس : المؤلف مجهول ، وقد نشره JOAQUIN DE GONZALEZ مع ترجمة إسبانية له تحت عنوان *Relación de la conquista de España y de sus emires* وقد استعمله سافدرا في دراسته عن فتح الأندلس .

ب - *La Crónica del Moro Rasis* ، وهو تاريخ الأندلس المشهور للرازي ، وقد ضاعت النسخة العربية لهذا الكتاب ، ولم نجد إلا فقرتين صغيرتين منه باللغة الإسبانية ، الفقرة الأولى تتناول جغرافية الأندلس ، وقد نشرها وعلق عليها وأثبت صحتها بشكوال دي جايانجوس ، راجع :

PASCUAL DE GAYANGOS. *Memoria sobre la Autenticidad de la Crónica denominada del Moro Rasis*; *Memorias de la Real Academia de la Historia*, tomo VIII, 1850

وأما القطعة التاريخية منها فلاتينية ، ولم تنشر إلا سنة ١٨٩٢ ، إذ ترجمها سافدرا إلى الإسبانية وألحقها بدراسته عن فتح المسلمين للأندلس . انظر :

D. EDUARDO SAAVEDRA. *Estudio sobre la invasion de los Arabes en España* (Madrid, 1892) ص ١٤٥ وما يليها . وقد كان جايانجوس قد تعرض لها وأثبت قيمتها التاريخية في تعليقاته على ترجمته لكتاب TICKNOR المسمى : تاريخ الأدب الإسباني (ج ١ ص ٥١٩) . وراجع كذلك تعليق سافدرا على الرازي وما بقى من كتابه في كتاب سافدرا الآنف الذكر ، ص ٨ وما يليها . وقد عثر الأستاذ LUIS F. LINDLEY CINTRA البرتغالي على نص صحيح لترجمة القسم الجغرافي من تاريخ الرازي إلى البرتغالية ونشره ، وترجمه ليثي پروفسال إلى الفرنسية :

Cf: LÉVI-PROVENÇAL. *La description de l'Espagne de Ahmad al- Razi*. Al-ANDALUS, 1953. fasc. I pp. 51-108.

تعلق الناس به أن أصبح اسمه وعصره أسطورة لا تخلو من المعجزات والخوارق ، ومن هذه الخوارق واحدة نسجلها لأن المؤرخين المغريين يسجلون مثلها لعبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية بعد ذلك بنحو ستة قرون ، وملخصها أن وامبا وقف بين يدي الأسقف في الكنيسة لكي يلبس التاج ، فبينما هو في هذا الموقف الرهيب إذا عمود من الدخان يتصاعد من رأسه تطير فيه نخلة من ذهب (١) .

وقد انتهى حكم وامبا نهاية لا تخلو من غرابة وطرافة ، فقد احتال عليه أحد حاسديه ودس له من سقاه جرعة مخدرة لم يلبث بعد أن شربها أن غاب في سبات عميق ، وحسبه الناس قد مات ، وهيثو ليواروه التراب ، فبينما هم في ذلك إذ عاد إلى رشده ، وبدلاً من أن ينهض لتأديب من ائتمروا به على هذا النحو الغريب ، ترك العرش للطامعين فيه ، وترهب وقضى بقية حياته في الدير .

وعندما اعتلى غيطشة (Witiza) (٢) العرش في نوفمبر سنة ٧٠٠ كانت الأمور قد اضطربت بسبب المؤامرات المتوالية التي كان كبار القوط يدبرونها ، ولما نستطيع أن نتعرف حقيقة أمر هذا الملك الذي سياعب أبناؤه دوراً عظيماً في التمهيد للفتح الإسلامي ، لأن النصوص الباقية عنه تعطينا صورة متناقضة عن شخصه وأسلوبه في الحكم ، مما حدا ببعض المؤرخين من أمثال

(١) ذكر الرازي الملك « وامبا » في صورة محرفة جداً هي Benete ، وإذا تصورنا أن هذا اللفظ يكتب بالعربية بنيه أو فنه عرفنا كيف حدث هذا التصحيف . وقد امتدحه الرازي وقال إنه كان ملكاً حسناً جداً وعادلاً جداً ، ولم تسجد إسبانيا قبله أو بعده بملك مثله ، لأنه لم يسيء إلى أحد ، ولم تعرف إسبانيا أقوى منه ولا أكثر ممة . راجع : SAAVEDRA. op. cit. apendice, p. 146.

(٢) هذه الصورة العربية لاسم ويتيزا محرفة هي الأخرى تحريفاً ظاهراً ، وقد رسمه الرازي هكذا : Acosta أكوستا . وقد أتى التحريف من أن ويتيزا تنطق بالإسبانية القديمة فِتْرِشَة أو فِتْرِشَة أو فِتْرِشَة . وهذه الصور تعطينا فِتْرِشَة وهي Acosta التي أوردتها الرازي وغيطة التي أوردتها مؤرخو العرب . وقد امتدحه الرازي كذلك وذكر أنه حاول أن يزيل مساوئ أبيه ، وأعطانا تفاصيل طيبة عن كفاحه مع كبار مملكته وشقائه بهم . راجع : SAAVEDRA. op. cit. apendice p. 147.

رديجو خيمينيث والأب ماريانا إلى جعله مسئولاً عن الفوضى التي أعقبت أيامه ويسرت للعرب القضاء على دولة القوط ، في حين تصدى دوزي وفرناندث جراً Guerra وتايالهان للدفاع عنه وتبرئته مما نسبته إليه بعض النصوص (١) .

والظاهر أن هؤلاء الأخيرين على حق ، لأن معظم النصوص الإسبانية تنفي عليه ، وتؤكد أن أعداءه ومنافسيه هم المسؤولون عما أصاب البلاد في أواخر عصره من فوضى واضطراب ، وأنه حاول جهده أن يصالح الأمور فعفا عن كان والده أخيكاً (٢) قد أساء إليهم ، ومال إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القوط ، فكرهه هؤلاء وعولوا على القضاء عليه وعلى حكمه ، فأخذوا يشيرون عليه في نواحي المملكة ، واستمر يحاربهم ويحيط كل مناوراتهم ، فلما علت به السن عجز عن أن ينهض لكل واثب به مدبر عليه ، وتآمر عليه أهله ، واستطاعت زوجته أن ترغمه على أن يعلن ابنه الصبي وقيله (أخيل Achila) وأقامه حاكماً على الولايتين الناربونية والطركونية تحت وصاية أخيه رخشندش (Rechesindo) (٣) ، وكان هذا الإعلان حافزاً للطامعين في العرش من كبار القوط إلى مضاعفة الجهد في التدبير على غيطشة ومحاولة القضاء عليه وعلى دولته ليمخلو لهم العرش يفعلون به ما يشاءون . ويبدو أنه لم يأل جهداً من جانبه في القضاء على كل محاولة يقومون بها ، لأن النصوص تحدثنا أنه

SAAVEDRA. op. cit. p. 25.

(١)

(٢) رسم الرازي هذا الاسم Abarca أباركا ، ومرد هذا التحريف إلى خطأ في الإملاء ، لأن نسخة الرازي التي بين يدينا أملت على رجل لا يعرف العربية ولا يحسن الكتابة بها (راجع ملاحظات جايانجوس وسافيرا التي سبقت الإشارة إليها) فكتب إبشقة بدلاً من إبشقة ، وعندما ترجمها الإسبان إلى الإسبانية عدلوا أبقة إلى أبرقة وهو اسم إسباني معروف ، وعلى هذا الرسم وردت في هذه النسخة الإسبانية من الرازي . راجع : SAAVEDRA. op. cit. apendice, p. 146.

(٣) هذا الرسم عن ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٤ ؛ وهو يثنى عليه . أما الرازي فيحمل عليه حملة عنيفة . SAAVEDRA. op. cit. apendice p. 146.

أما أخيل فيكتبه الرازي أبرقة ، وقد سبق تحليل ذلك .

عاقب تيودوفريدو دوق قرطبة بسمل عينيه ، ونفى ثائراً آخر اسمه بلايه من البلاط^(١) .

ويبدو كذلك أنه أساء الظن في اليهود ، فاضطهدهم وأوقع بهم في أواخر أيامه ، ولم يكن ذلك الاضطهاد بالجديد عليهم في أيام القوط ، لأن الواقع - كما سنرى - أنهم لاقوا منهم عسفاً بالغاً متصلاً ، وأن الفتح العربي لو لم يكن قد أدركهم وأبقى على من أبقى عليه ظلم القوط منهم لما بقي لهم في شبه الجزيرة الإيبيرية أثر . أهمهم غيطة بالتيدير عليه وبالتأمر مع من تسميهم النصوص الإسبانية « أهل ما وراء البحر Los transmarinos » ، وهو تعبير غير واضح ، لا يفهم إن كان المراد به أنهم راسلوا بربر إفريقيا أو يهودها أو العرب ، ولا يستقيم فرض من هذه الثلاثة ، لأننا لا نملك دليلاً واحداً على علاقة ما بين يهود إسبانيا وبربر إفريقيا قبل الفتح الإسلامي ، وأما يهود إفريقيا فكانوا وقتئذ في محنة ، لأن الحرب بين حسان بن النعمان والكاظمة في جبال الأوراس كانت إذ ذاك على أشدها ، وأما العرب فلا يعقل أن يكونوا قد راسلوا يهود إسبانيا وهم بعد لم يفتحوا المغرب الأوسط^(٢) .

(١) SAAVEDRA. *op. cit.* p. 29. وانظر المراجع المطاة .

(٢) هذه المسألة غير واضحة الوضع الكافي لأن النصوص القديمة لا تتحدث عنها بما فيه الكفاية ، فيقول لوقا التودي LUCAS DE TUY وهو من كتاب القرن الثاني عشر : iudalis immunitatum privilegia dedit (ج ١ فقرة ٣ من تاريخ العالم) ويقول : رديجو خيمينيث RODRIGO XIMÉNEZ :

revocavit iudeos et maiori immunitatis quam ecclesias privilegiis honoravit (I, III, cap, XVII)

ولا يشتم من أي من هاتين الروايتين ما يفهم منه اتهام لليهود بالخيانة أو التعاون مع يهود إفريقيا . وقد وردت عبارة التعاون مع « القوم الذين يسكنون فيما وراء البحر » في نص الخطاب الذي ألقاه أخيل في المجمع الكنسي السابع عشر ، وهي عبارة لا تكفي . ولا نعرف المراجع التي استند منها DOM VISSETTE معلوماته التي يوردها عن هذا الموضوع في كتابه *Histoire de Languedoc* ج ١ ، ص ٧٥٠-٧٥١ ، وعلى أي الأحوال فالثابت أن أخيل اضطهد اليهود .

ولسنا على أي حال بحاجة إلى البحث عن سبب لهذا الاضطهاد ، لأن الإسبان كانوا طوال تاريخهم من أقصى الناس على مخالفتهم في الدين ، وعلى اليهود خاصة . وكل ما يهنا هنا هو أن هؤلاء اشتد بهم الأمر خلال السنوات الأخيرة للفترة القوطية : حتى باتوا يرجون الخلاص عن أي سبيل . ويبدو أن غيطة رجع عن سياسته تلك في أخريات أيامه ، فأحب أن يرفع السمخط عن اليهود . وتحدث إلى كبار أهل الدولة فيما انتواه من العفو عنهم ، فلم يكذب رجال الكنيسة يسمعون بذلك حتى سخطوا عليه ، وأخذوا يغرون الناس به ، حتى اشتد عليه سخط الناس ، وتحدث أهل البلاد من الرومان الإيبيريين في الوثوب به أو معاونة أول ثائر عليه^(١) .

في هذا الظرف العصيب ، والبلد منشق على نفسه مفروق بين رجال الدين والملوك المسن والكبراء الطامعين . مات غيطة ميتة طبيعية في أواخر سنة ٧٠٨ أو أوائل ٧٠٩ . وكانت هذه الأحزاب كلها تنتظر فرصة موته لينقض بعضها على بعض . وكان أفراد البيت المالكة أنفسهم من أكثر الناس انقساماً وأشدهم ميلاً إلى الخلاف : ذلك أن غيطة ترك من بعده زوجاً أرمل طامعة في العرش ، وأخاً لا يقل عنها طمعاً هو أبته (Oppa) وكان أسقفاً لإشبيلية ، وثلاثة بنين هم : أخيل (رُسله عند المقرى وابن القوطية وصحته وقيله) وألمند (Olmundo) وأرطافازدُس أو أردبست (أرطباس ، أرطبان) ، وتضيف بعض الروايات شخصاً آخر سيلعب فيما يلي من الحوادث دوراً هاماً هو سيسبرتو (ششبرت ، سبرى : سبسة في النصوص العربية) وتزعم أنه كان أخاً لغيطة أو ابناً له ، ويذهب سافدرا إلى أنه لم يكن من العائلة وإنما من المتصلين بها وحسب^(٢) .

SAAVEDRA. *op. cit.* p. 30. (١)

SAAVEDRA. *op. cit.* pp. 30-33. (٢) وتقول الأخبار المجمعة إن أبناء غيطة

كانوا اثنين فقط : ششبرت (Siseberto) وأبته (Oppa) : ص ٨ .

ونص الرازي مضطرب هنا اضطراباً شديداً جداً بحيث لم نستطع الاعتماد عليه .

ويكتب ابن القوطية رُسله بدلاً من أخيل ، وقد جعله بعضهم رومولوس ، وذهب سافدرا إلى أنه تحريف من وقيلسه الذي هو أخيل .

ولم يرض نفر من كبار القوط بالخضوع لصبي مثلاً أخيلًا ، وتخوف كثير منهم من مطامع الوصي رخسندش واستبداده ، فامتنع من أقام منهم في طليطلة عن الطاعة ، واستقل بالأطراف والنواحي منهم من كان مقيماً في النواحي والأطراف ، ودارت رحى الحرب بين المتنافسين ، وتعذر على الملكة وابنها المقام في طليطلة فقرا منها . واستمرت هذه الفوضى نحو العام ونصف العام ، واستطاع الوصي أن يجمع نفراً كبيراً من الأنصار ، وتحجب إلى عامة أهل البلاد الرومان الإيبيريين من أهل المزارع والمدن واستطاع أن يكسبهم إلى جانبه . وبدأ لخصومه أنه مستطيع القضاء على الفتنة وإقرار الحق لذويه عما قريب ، فاجتمع منهم نفر واثلفوا ، واعتبروا أنفسهم « مجلس شيوخ وكبراء » له الحق في أن يقرر شئون دولة القوط كما يرى ، ثم اختاروا واحداً منهم اسمه رودريكو — أو رودريك أو رودريجو (للدريق) — وانتخبوه ملكاً خلفاً لغيطشة ، واستعدوا لنصرته والقضاء على منافسيه بحد السيف .

وتجمع النصوص كلها على أن هذه الجماعة التي بايعت للدريق كانت جماعة من كبار القوط وأعيانهم ، وأنهم أرادوا باجتماعهم هذا إنقاذ دولة القوط وتقويم ما وهى من بنيانها ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من أن رخسندش أراد أن يستعين بالإيبيريين الرومان ليثبت أمر أخيلًا ، استطعنا أن نستنتج من غير حرج أن المسألة لم تكن مجرد خلاف على العرش بين زعماء القوط ، بل كان فيها لون من ثورة أهل البلاد على القوط ورغبتهم في التخلص من كبرائهم ونبلائهم . ولعل هذا الاستنتاج يتيح لنا أن نقرر ما تحاول الكثرة الغالبة من مؤرخي الإسبان — قدامى ومحدثين — نفيه وإنكاره ، وهو أن دولة القوط لم تكن في نظر أهل البلاد دولة قومية ، بل ظلت في نظر غالبيتهم دولة أجنبية لى الناس في ظلهم كثيراً من الأذى ، وحاولوا الخلاص منهم مراراً متكررة^(١) .

(١) MANUEL TORRES. *Op. cit.* p. 135. ويشير سيمونيت إلى ذلك إشارة غير

واضحة وغير دقيقة ، فهو يقرر وجود حالة الثورة ورغبة الإيبيريين الرومان في الخلاص من القوط ، =

والخلاف شديد حول أصل للدريق هذا ، فمن قائل إنه كان زعيماً قوطياً كبيراً ذا علم بأمور الحرب والسلم ، ومن قائل إنه ينحدر من أصلاب ملكية ، وأن جده الملك شينداسفتنو ، ومن قائل إنه ابن تيود فريديو دوق قرطبة الذي كان غيطشة قد عاقبه على ثورته عليه بسمل عينيه . ومهما يكن من أمر فإن المراجع الإسبانية اللاتينية القديمة تجمع على أنه كان رجلاً قادراً ، وأنه كان قبل ادعائه العرش حاكماً لولاية بيتيكا ، وأن الذين بايعوه على العرش فعلوا ذلك في قرطبة عاصمة ولايته^(١) .

ولم يسر للدريق إلى طليطلة مباشرة بعد إعلانه نفسه ملكاً ، بل تربث بعض الوقت ليتيسر له جمع أنصاره وملاقاة رخسندش ورجاله في موقعة حاسمة ، وكان قد أعلن نفسه ملكاً في « ربيع سنة ٧١٠ » ، قبل الهزيمة المسماة عادة بهزيمة جوادا لیتی (وادی بکه) بعام ، وكان ذلك في السنة الخامسة من حكم الوليد في دمشق » ، كما يقول « النص اللاتيني المجهول المؤلف » ، ويذهب راوية آخر إلى أنه ذهب إلى بطليوس ، دون أن يذكر لنا السبب في الذهاب إلى ذلك البلد البعيد . والثابت أنه سار إلى طليطلة بعد أشهر من إعلان نفسه ملكاً على رأس جيش كبير فيه جلة قواد القوط ونبلائهم : وهزم رخسندش في واقعة حاسمة قتل فيها هذا الأخير وتفرق أتباعه . وأما أبناء غيطشة فلم يجدوا مفرأ من مغادرة البلاد فراراً من الغاصب ، ففروا إلى

= ولكنه — على عهده من الدفاع عن القوط ، لأنهم كاثوليكيون — يلقى التبعة كلها على الشعب وعدم تقديره لفضل ملوكه عليه . وهو يقرر بالطبع خيانة اليهود دون أن يحقق مراجع التهمة . انظر :

FRANCISCO JAVIER SIMONET. *Historia de los Mozarabes de España* (Madrid, 1897-1903) pp. 4 Sqq.

والمراجع المعطاة .

وراجع كذلك ص ١٠ وما يليها من نفس المرجع .

FERNANDEZ GUERRA. *Caida...* pp. 81. Sqq.

(١)

إفريقية وصادر لذريق أملاكهم معتبراً إياهم ثائرين على العرش ، واثقانون القوطي يقضى بمصادرة أملاك كل ثائر على العرش^(١) .

ويبدو أن لذريق ظل يخشى طيلة حكمه القصير عودة أبناء غيطشة إلى البلاد ومحاولتهم استعادة عرشهم بمساعدة أنصارهم الكثيرين ، ومن ثم حرص على أن ينفر الناس منهم بالمبالغة في تصوير أعمال أبيهم ومظالمه ، وأعاناه على ذلك القساوسة ، لأن غيطشة كان لا يحبهم إلى ما تصبو إليه نفوسهم من القضاء المبرم على اليهود ، ومن ثم لا غرابة في أن نجد عند معظم المؤرخين الإسبان اللاتين صوراً بغیضة جداً لهذا الملك وأولاده ، وما كانوا يدبرون للبلد وأهله من سوء ، وزاد هؤلاء المؤرخين إصراراً على هذه الآراء انضمام أولاد غيطشة للعرب ومعاونتهم في فتح البلاد . وقد تصدى نفر من المؤرخين الإسبان المحدثين للدفاع عن غيطشة وأبنائه ، وذهبوا في الدفاع عنهم إلى حد إنكار دورهم المعروف الثابت الذي قاموا به أثناء الفتح العربي ، واسننا نستطيع تفسير هذه النزعة عند المحدثين إلا بما يعرف عن الإسبان من مبالغة في التسمي بوطنهم وأهلهم ، وعداء بعضهم للفتح الإسلامي وكل ما يتصل به ، ورغبتهم في تنقية صفحات تاريخهم من كل ما يشتم منه راحة التعاون مع المسلمين^(٢) .

بيد أن هذا الدفاع عن غيطشة وأولاده ، والإصرار على تبرئة لذريق من كل عيب وتصويره في صورة بطل وطني جاهد العرب عن بلاده وبذل كل ما يملك لينجو ببلاده من خطرهم ، كل هذا الجهد لا يمنعنا من تعرف شخص لذريق وأحوال عصره تعرفاً معقولاً هو أقرب ما يكون إلى الصواب . فإن الظاهر الذي لا تستطيع المناقشة إخفاءه أن الرجل كان يشعر باضطراب الأمر عليه ، وأنه ظل حياته متخوفاً من وثبة تكون من أحد أعدائه

(١) SAAVEDRA. Op. cit. pp. 34 Sqq.

(٢) SAAVEDRA. Op. cit. p. 37. ويستثنى من ذلك بعض المؤرخين الإسبان المحدثين مثل : BALLESTEROS. *Histoire d'Espagne*. p. 45. وهو يورد هذه الحوادث في إيجاز شديد جداً .

الكثيرين ، لأن هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد غيطشة وحدهم ، بل كانوا في واقع الأمر جلة الشعب الإيبيري الروماني واليهود ، أي معظم أهل البلاد التي اقتحمها القوط عليهم^(١) .

ومصادق ذلك أن لذريق لم يكد الأمر يستقر له حتى مضى يرغم رجال الدين على إصدار قرارات يهتمون فيها غيطشة بكل شر ، ويصورونه للناس في صورة جبار ظالم أراد بالناس وبالكثينة كل أذى ، وأن لذريق لم ينهض إلا لإنقاذ الناس من شره وشر أولاده وكل من كان يلوذ بهم ، وقد أجاب رجال الدين طلبه . فحفلت قرارات مجامعهم الدينية في عصر لذريق بأسوأ الاتهامات لغيطشة وبنيه واليهود . ومصادق ذلك أيضاً أن لذريق قضى معظم

(١) SAAVEDRA. Op. cit. p. 37. وكلامه في هذه النقطة غامض غير واضح ، لأنه لا يستند إلى مراجع واضحة مفصلة ، وأهم مراجعه فرناندث جيررا في كتابه *Gaída y Ruina* ص ٨٢ وما بعدها . وهو مرجع حديث .

ويناهض هذا الرأي سيمونيت في تاريخ المستعربين ، ص ١٢ وما يليها . وسيمونيت إسباني كاثوليكي متعصب جداً لوطنه ودينه ، وذلك هو عيب كتاباته الكثيرة .

والصورة التي يعطينا إياها عن الحال أيام لذريق جديرة بأن نعرضها ، لأنها لا تخلو من نفع ، فهو يقول إن الشعب الإسباني وجد نفسه تحت حكم غيطشة وخلال السنوات الأخيرة من حكمه على الخصوص ، منتقلاً إلى حزبين كبيرين : حزب مناصر للملكية غيطشة القائمة ، ومن ثم فهو مؤيد من اليهود منصرف عن مصالح البلاد المعنوية والدينية ، وحزب ثان مناهض لذلك مهم بمصالح البلاد حريص عليها ، وكان هذا الحزب يميل إلى طرد اليهود من البلاد جملة ومناصرة الكاثوليك مناصرة تامة . فأما الحزب الأول فكان حزب الأرستقراطية القوطية ، ولم يكن أفراد الكاثوليك ولا آريين ، وإنما كانوا متشككين ملاحدة (كذا !) ومن كبار هذا الحزب أوباس (أبنة) أخو الملك وأسقف إشبيلية ، والنبله ششرت ورخشندش (وربما كانا أخوين للملك نفسه) . وأما رجال الحزب الثاني فكانوا طائفة من كبار القوط المؤمنين يؤيدهم معظم أهل البلاد من الإسبان الرومان ، وأهل الصلاح والدين من سكان الجزيرة كلها . وفي مقدمتهم تيودفريدو دوق قرطبة ، وخلفه في زعامة الحزب ردريجو (لذريق) وكان معه بلايو (بلاييه) الذي قدر له أن يعيد دولة القوط بعد ذلك

SIMONET. *Historia de los Mozarabes*, pp. 11-13.

وليس لدينا دليل واحد على صحة ما يذكره من أن بلايو هذا هو نفس بلايو الذي سيغر أمام العرب ويتحصن في جليقية ويعيد إنشاء دولة القوط .

SAAVEDRA. Op. cit. p. 29

أيام حكمه القصير يحارب النافرين عليه في كل ناحية ، وأنه قام بحملات متتابعة على البشكنس في الشمال ، وطوائف من النافرين في الشرق والجنوب ، ولسنا نعرف على وجه التحقيق من كان هؤلاء النافرون عليه في الجنوب ، وإن كان من المعقول جداً أن نزعهم أنهم كانوا أنصار أولاد غيطشة ، وسرى في أثناء الفتح العربي ما يؤيدنا في هذا الظن^(١) .

وربما كان من دلائل سوء الحال في عهد لذريق أنه كان في حاجة مستمرة ملحة للمال ، ولو كان قد حكم البلاد حكماً عادلاً منتظماً لما احتاج إلى إرهاب نفسه وإرهاب الناس ، لأن إسبانيا بلد غنى لا يحتاج إلا إلى الإدارة المنتظمة حتى يفيض بالخير على أهله وحاكميه ، ولو كانت البلاد هادئة في عصره لما اضطر إلى هذا الإرهاب ، ولكن البلاد كانت مضطربة في عصره لا يكاد يطيعه من نواحيها إلا إقليم صغير .

والغالب أن حاجة لذريق إلى المال هي التي دفعته إلى السطو على الذخائر الغالية التي كان ملوك القوط قبله قد كدسوها في كنيسة سان بيدرو وسان بابلو ، فقد جرت عادة كل ملك منهم أن يودع إحدى الكنيسيتين تاجه وبعض ذخائره ، وكانت هذه الذخائر مكدسة في حجرتين مقلقتين في الكنيسيتين ، فلما اشتدت حاجة لذريق للمال حدثته نفسه بأخذ بعض هذه الذخائر للانتفاع بها . وقد حذر القسيس من أن يفعل ذلك ، ولكنه لم يصنع ، ومضى ففتح مستودع الذخائر ، وبيد أنه ذهل من كثرة ما وجد من الذهب والجوهر ، وبيد كذلك أنه لم يجرؤ على أخذ شيء لأن رهبة المكان منعه من أن ينفذ ما أراد ، وتحدث الناس في ذلك وتناقلوه حتى أصبح أسطورة في أفواه الناس ، ورواها العرب على صورة لا تخلو من طرافة^(٢) .

(١)

SAAVEDRA. Op. cit. p. 47.

SIMONET. Op. cit. pp. 42 Sq.

(٢) SAAVEDRA. Op. cit. pp. 40-43. وقد أورد معظم مؤرخي المسلمين هذه الأسطورة ،

انظر نوح الطيب (طبعة الشيخ محي الدين عبد الحميد) ج ١ ص ٢٣١ وما بعدها .

وقد استطاع لذريق أن يقضى على كل أمل لأبناء غيطشة وأنصارهم بعد أن استمر يوالى غزوهم أشهراً متتابعة ، فلما ضاقت عليهم البلاد فكروا في ناحية يستنصرون بها على هذا الطاغية الذي غصبهم عرش أبيهم وشردهم في غير جنانية ، وكان العرب قد فتحوا المغرب الأقصى ووصلوا إلى الزقاق وانضم إليهم من البربر نفر كبير وأخذوا يتطلعون جميعاً إلى بلاد جديدة يفتحونها ويمدون رواق الإسلام إليها ، وتسامع أولاد غيطشة بهم فبعثوا الرسل إليهم يدعونهم إلى القدوم^(١) .

* * *

لم يغير القوط شيئاً كثيراً من أحوال المجتمع الإسباني في - نظرة في العصر الروماني : ظلت الأرستقراطية الرومانية القديمة على أحوال إسبانياتها عهداً من الغنى والسيطرة على الناس ، وظل الأحرار من حكم القوط^(٢) أهل المدن والتجار وأصحاب المزارع الصغيرة يعيشون تحت رحمة الأقوياء في حال هي وسط بين الحرية والرق ، وظلت بقية أهل البلاد رقيق أرض أو عبيداً يشقون في سبيل الأقلية الغنية المسيطرة . وقد اختلف الأغنياء مع القوط لكي يحتفظوا بأموالهم ، واستقر نفر كبير من هؤلاء في المزارع واشتغلوا بالزراعة ، وإن بقيت أغلبيتهم تقيم في المدن في معسكرات تعيش من إتاوات وضرائب فرضوها على الزراع وضعاف أهل المدن ، حتى ساء أمرهم كثيراً . ولم يكن القوط كثيرين ، ولم يكن بهم ميل إلى المشاركة في صناعة أو زراعة ، فظلوا غرباء عن البلاد في الغالب ، ولم يخلقوا فيها من الآثار ما يمكن مقارنته بما خلفه الفرنجة في فرنسا مثلاً^(٣) .

ولم تنعم البلاد في حكم القوط بنصيب كبير من الطمأنينة والرخاء ، لأن العصر كله كان عصر اضطراب وفوضى في أوروبا كلها ، لا في إسبانيا

(١)

SIMONET. Op. cit. pp. 12-13.

SAAVEDRA. Op. cit. p. 43.

(٢) درسنا هذه الناحية بتفصيل أوفى في الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب ، وهو خاص بالإدارة وشئون المال .

(٣)

DOZY. *Musulmans d'Espagne*, I, pp. 253 Sq.

وحدها . وانهارت في نواحي غرب أوروبا قواعد المجتمع الروماني الثابت القديم الذي كان يقوم على تقسيم الأرض بين الدولة وطائفة من كبار الأغنياء المقيمين في الريف ، ثم تأجيرها بعد ذلك للفلاحين يزرعونها ويؤدون عنها مالا ، وكان معظم الأرض تابعاً للدولة ، فكانت تزرعه بواسطة الفلاحين الأحرار أو العبيد ، فلما طال الزمن واستمر كل فلاح يزرع نفس القطعة من الأرض عاماً بعد عام نشأت بينه وبينها صلة هي أقرب ما تكون إلى صلة الملكية . فلما أقبل المتبربرون واستولوا على أراضي الدولة آلت إليهم أملاكها ، وبهذا تعرض حق هؤلاء الزراع الأحرار في أراضيهم للضياع ، وغضب المتبربرون من الكثير منهم أرضه واستقروا فيها وأجبروه على زراعتها كأنه عبد أو قن . ولجأ بعضهم إلى مالك غني مجاور تنازلوا له عن أرضهم في سبيل حمايتهم من الغاصبين المقبلين . وشاعت هذه الطريقة وعمت ، ونشأت عنها طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة البوتشلاري (buccellarii) أى طبقة المحميين . وكان القانون يعتبرهم أحراراً ، ولكن التزاماتهم حيال الأغنياء الذين كانوا يحمونهم جعلتهم في الواقع في مراتب التابعين والعبيد .

أقام القوط في إسبانيا حكومة عسكرية انتخابية ، يؤيدها الأشراف وملوك الأرض من القوط وأهل البلاد الأصليين على السواء (optiates) أو (proceres) ، واستمروا يدبرون شئون البلاد بنفس النظام الروماني القديم : ظلت البلاد مقسمة إلى أقاليم (provinciae) ومدن (civitates) ، وكان يحكم كل إقليم دوق ، وكل مدينة كونت (comes) ، وكان كل من هؤلاء الحكام يستعين بطائفة صغيرة أو كبيرة من الموظفين (tiumfadi) أو (centenarii) يقومون بما تحتاج إليه حكومة الناحية في النواحي المالية والقضائية والحربية . وكان هؤلاء الموظفون طبقات تختلف بحسب العمل الذي يقوم به كل منهم^(١) .

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES. *Instituciones (١) Economicas, Sociales y Politicoadministrativas de la Peninsula Hispanica durante los siglos V-VII en Historia de España*, III (Madrid, 1940) p. 205 Sqq.
BALLESTEROS. *Histoire d'Espagne*, p. 39.

وكان الملك يحكم مستبدّاً ، أى منفرداً برأيه ، يقضى في شئون البلاد كما يشاء . وكان له مجلس من النبلاء يساعده في كل شيء ، ولكن الملوك استبدوا بالأمر حتى لم يعد لهذا المجلس ظل من السلطان ، فكان الملوك يصدرون القوانين وينفذونها ويقضون في الأحكام بما يريدون ، وكان المفروض أن ينتخب الملك من بين هؤلاء النبلاء ، ولكن العادة جرت بأن يعتلي العرش أقواهم بحد السيف^(١) .

ولكن الدولة القوطية حوت في نظامها عنصراً طيباً كان له أثر حسن في سسير الأمور في دولة القوط ، ذلك هو « مجلس طليطلة » الذي كان يجتمع بين الحين والحين للنظر في أمور الدولة الكبرى . وكان أصل هذا المجلس دينياً . كان مجلساً من كبار القساوسة الكاثوليكين . يعقدونه للنظر في أمور كنيستهم ورعاياها ، فلما اعتنق الملوك الكاثوليكية في عصر ريكاريذ أصبح هذا المجلس رسمياً يدعو الملك لعقده ويخضره كبار رجاله . وأصبح مع الزمن مجلساً سياسياً دينياً : يتناول المسائل جميعاً : دينية وغير دينية ، ويصدر القوانين والأحكام في شتى القضايا ، ثم اتسع سلطانه وتناول القضاء وأصبح بذلك محكمة عليا ، وانتهى الأمر بأن انضم مجلس النبلاء إلى المجلس الديني وأصبحت مجلساً أعلى للدولة . وقد كان الملوك أول الساعين في توحيد المجلسين ، لأنهم أرادوا أن يزيدوا أحكامهم قوة ومهابة بالتصديق عليها من هذه الهيئة التي تضم كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية وكبار أهل الدولة^(٢) .

وقد كان لهذه المجالس تأثير أحسن ، فقد سن أعضاءها مع الزمن قانوناً شاملاً يضمن حريات الناس ويسوى بينهم جميعاً : قوطاً وإيبيريين ،

(١) BALLESTEROS. *Op. cit.* p. 39-40

(٢) BALLESTEROS. *Op. cit.* p. 40.

وهو المسمى (Fuero Juzgo) ^(١) ، وكان لتشريعاته الأخرى أثر طيب في تهذيب نفوس القوط وتهيئتهم للعيش المستقر والائتلاف مع أهل البلاد ، واستطاع رجاله كذلك الحيلولة بين الملوك وبين الاستبداد السيئ المطلق بشئون الرعية .

٦ - المجتمع الإسباني أيام خلال هذا العصر القوطي ، فعظم الإسبان شديداً العصبية القوط لهذا العصر ، يذهبون إلى أن الناس فيه كانوا يستمتعون برخاء ظاهر في كل ناحية من نواحي الحياة ، وأن الزراع والصناع كانوا في رفاهية لا يكاد الحكام يستوفونهم في شيء ، وأن موارد البلاد كانت في ازدياد ، وأن العصر على العموم كان عصر نهضة إسبانية مسيحية . وهم إنما يبالغون هذه المبالغة لكي يؤكداً للقارئ أن النهضة التي حدثت في ظلال الإسلام بعد ذلك لم تكن شيئاً جديداً على البلاد ، وأن فضلها لا يعود إلى المسلمين وحدهم ، وإنما كانت البلاد سائرة في طريقها على أي حال . ومن هؤلاء المؤرخين من يبالغ لكي يظهر للفرنسيين ومؤرخيهم أن إسبانيا كانت على وشك أن تصل إلى شأر الدولة الفرنجية في عهد الكارولنجيين لو لم يفتح العرب بلادها وبحلولها بينها وبين إدراك هذه الغاية ^(٢) .

أما حقيقة الحال فكانت بعيدة جداً عما يذهب إليه هؤلاء المؤرخون ، نعم إن الحال لم يبلغ من السوء هذا المبلغ الحزن الذي يصوره دوزي في كتابه ،

(١) عن اللاتينية Forum judicum (القانون القوطي) أي مجموع القوانين القوطية ، وقد تكون في مدى قرن ، وقد بدأ يوريك ، ثم أضاف إليه خلفه ألياريك الثاني مجموعة من القوانين الرومانية تسمى Breviarum وهو مختصر للقوانين التي كانت تطبق على الرومان ، ويمزى إلى شداستنو الفضل في مزج المجموعتين مما وتكوين مجموع متناسق ينطبق على الناس أجمعين . وهو مجموعة قانونية شاملة لها قيمة تشريعية عظيمة ، ولو طبقت على الناس لكانت سيرة القوط ، إسبانيا سيرة أخرى .

MAURICE LEGENDRE, *Nouvelle Histoire d'Espagne*. pp. 73. Sqq.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحات فيها .

ولكنه كان شيئاً على أي حال ، ولا يقارن بحال بما وصلت إليه البلاد من الرفاهية والرقى في عصور المسلمين . وذلك هو الرأي الذي يميل إليه المؤرخون المنصفون من الإسبان أنفسهم ، بعد أن تجلت مظاهر الحضارة الإسلامية الإسبانية ، وأصبحت أوضح من أن يمارى فيها أحد أو يفضل عليها نظاماً اجتماعياً مضطرباً كنظام المجتمع القوطي الإسباني قبيل الفتح العربي ^(١) .

طبعي ألا يستطيع القوط إنشاء مجتمع جديد خير من المجتمع الروماني القديم ، إذ لم يكن لهم هم أنفسهم نظام اجتماعي مقبول قبل أن يدخلوا الدولة الرومانية ويستقروا في أرضها ويستعبروا نظمها ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكونوا قد أنعشوا المجتمع الروماني المضمحل وأدخلوا عليه عناصر جديدة نشيطة توجهه توجيهاً جديداً .

وينبغي أن نقول أيضاً إن القوط كانوا أقل إنسانية ونظاماً من طوائف المتبربرين الأخرى التي استقرت في شبه الجزيرة حتى الوندال أنفسهم ، لأن لوندال كانوا لا يبهظون البلاد التي ينزلون فيها بتكاليف حكومة ضخمة تريد أن تستقصى كل شيء وتشبه بالرومان : كانوا يزيلون النظام القديم بمحاسنه ومساوئه ، أما القوط فقد احتفظوا بمساوئ هذا النظام ، وأضافوا إليه مساوئهم ، فعم ضررهم الجميع ، من المزارع الصغير والقرن الفقير إلى الغني صاحب الضياع ، ولم يتدخل الوندال أو السويش في مسائل الناس الدينية ، أما القوط فتدخلوا واضطهدوا مخالفهم ، كما رأينا ، فعم بلاؤهم الناس أجمعين ^(٢) .

وقد ذهب الراهب الراوية باولوس أوروزيوس إلى أن القوط قسموا الأرض وأحسنوا إلى الناس ، ولكن أوروزيوس كاتب كنسي ، ورجال الكنيسة لا يهتمون إلا بما يمس مصالحهم ، ولم تكن لهم عناية بشئون الناس

(١) DOZY. *Musulmans d'Espagne*, I, pp. 258-259.

(٢) DOZY. *Op. cit.* I, p. 258.

وصغارهم خاصة كالزراع وأهل المدن . ومن هذا القبيل ما يؤكدته رواية آخر من رواة هذا العصر هو سلفيان المرسيلي (Salvianus Marsallianus) من أن الناس كانوا يفضلون الفقر والحرية في عهد القوط على ظلم الرومان ، ولكن الغالب أن كلامه هنا منصب على حكم القوط الشرقيين ، لأنه عاش في كنفهم ، وكان القوط الشرقيون في واقع الأمر خيراً من القوط الغربيين بكثير . وينبغي أن نقرر هنا أن الرهبان كانوا راضين عن القوط بعد تحول هؤلاء إلى الكاثوليكية ، وكانوا ساخطين على الناس لأنهم لم يكونوا يراعون أشراط الدين ، بل بقي معظمهم غير مسيحيين . وتلك حقيقة لا ينبغي أن نهملها من الحساب ، إذ الواقع أن الإسبان لم يكونوا جميعاً مسيحيين في حكومة القوط ، بل ظل الكثير منهم وثنيين . وقد وجدهم المسلمون كذلك . وكان هذا مما يسر عليهم أمر كسبهم إلى الإسلام ، هذا على الرغم مما بذله نفر من قساوسة الكنيسة الكاثوليكية في تحويل الناس إليها . فقد قضى القس ماسونا (Masona) القوطى حياته كلها يبشر بالمسيحية في نواحي الغرب وإقليم ماردة على الخصوص ، وهو الذى أوصل المسيحية إلى السويش وإلى نواحي جليقية ، والراهب لياندرو (Leandro) وكان مبشراً كاتباً مؤرخاً ، وإليهما يرجع الفضل في ثبات المسيحية على التربة الإسبانية وما أدركته من تأصل في بعض النواحي ، حتى لم يستطع الإسلام إزالتها خلال قرون^(١) .

لم يعمل القساوسة شيئاً لتحسين حال الناس ، إذا استثنينا ماسونا ، فقد كان حبراً إنسانياً حقاً ، بل لم يحاول واحد منهم أن يعترض على ما كان الأغنياء يسرفون فيه من الاستبداد بالضعفاء والاستكثار من العبيد ، حتى إيزودور الإشبيلي نفسه على الرغم من علمه الواسع ونزعه الإنسانية ، لم ينكر البرق صراحة ، وإن كان قد قرر أن الناس كلهم متساوون أو يكادون أن يكونوا متساوين ، هذا في حين أننا نجد راهباً آخر هو إيزودور الثيبايدى (الصعيدى) يدهش من أن نصرانياً في مصر يقتنى عبداً ، وهذا في ذاته شعور جميل

جدير بالذكر ولكنه لم يقرن بأى جهد إيجابى من شأنه أن ينفع هؤلاء العبيد ، وكان عددهم كبيراً جداً ، كان الأغنياء يقتنونهم بالآلاف ، ويعاملونهم معاملة جافية كأنهم بعض المتاع ، وقد يئس هؤلاء المساكين من كل إنصاف من جانب الحاكمين أو من جانب رجال الدين ، وباتوا يترقبون فرصة الخلاص^(١) .

ولم يكن أوساط الناس ممن يسمون كورباليس (Curiales) من أهل المدن والصناع وأحرار الزراع أحسن حالا ، لأن ملوك القوط لم يافتوا إلى شيء يعود بالخير على عامة الناس . ولم يؤثر عنهم إنشاء قنطرة أو تعبيد طريق أو وضع قانون يخفف عن الناس مظالم الحكام أو يبعدهم في مأمن من الظلم والعدوان ، وقد كانوا هم أنفسهم أبعد الناس عن أى لون من هذا التفكير .

ويضاف إلى هذه المساوئ الاضطهاد الدينى بألوانه : اضطهاد القوط بالكاثوليك حينما كانوا آريين ، ثم اضطهادهم لليهود على النحو الذى رأيناه في أيام الدريق مما جعلهم يميلون إلى الخلاص من هذا الحكم البغيض ، وقد أهمهم القوط بالتأمر على سلامة الدولة مع قوم خارج إسبانياً ، لكى يبرروا عسفهم بهم ، والغالب أن رجال الدين الكاثوليك كانوا هم المحرضين على هذا الاضطهاد لأننا رأينا أنه من غير المعقول أن يحاول يهود إسبانيا الاتصال بيهود إفريقية في ذلك الحين .

وحينما تقادم العهد بالقوط في البلاد . وتمتعوا بخيرات الوفيرة مالت بهم نفوسهم إلى الدعة . وجعلوا يكادون أمور الحرب إلى عبيدهم ، حتى زاد عدد العبيد على عدد الأحرار في الجيش . ويبدو أن الحروب المتعددة بين ملوك القوط ونبلاتهم هى التى حفزت هؤلاء الملوك إلى الاستكثار من هؤلاء العبيد في الجيش ، لأن أعداد محاربى القوط القليلة توزعت بين الملوك

والثائرين ، وكانت كثرة العبيد في الجيش من أسباب ضعفه ، لأنهم كانوا سادحين على الدولة ينتظرون الفرصة للتخلي عنها وتركها لمصيرها^(١) .

ولا بد من إشارة قصيرة إلى حال الثقافة بألوانها في البلاد قبل الفتح الإسلامي ، فهذه هي الناحية الوحيدة التي سيجد المسلمون فيها أساساً طيباً يزيدون عليه . وقد كانت إسبانيا منذ فجر التاريخ بلد ثقافة وموطن علم وفن ، وضع الفينيقيون أساس ذلك كله وزاد عليه اليونان والرومان ، ثم أقبلت المسيحية فأنعشته وسارت به خطوات إلى الأمام ، ولعل في هذا بعض ما يفسر لنا سراً من أسرار الازدهار الفكري السريع الذي حققه المسلمون في إسبانيا . على قلة اتصالهم بمنايع الثقافة القديمة والوسيلة في العالمين الإسلامي والمسيحي .

تأصلت المسيحية في إسبانيا بأسرع مما تأصلت في غالة مثلاً ، ولم يكد القرن السادس يهل حتى كانت البلاد تفيض بالديور يقيم فيها الرهبان يدرسون ويتذاكرون ، والكنائس يقوم بأمرها قسس معنيون بالدرس مشغوفون بالكتابة والتأليف ، وقد أشرنا إلى القس القوطي ماسونا (توفي سنة ٥٧١ م) ونزعاته الإنسانية واجتهاده في تهذيب المتبريرين ونشر مبادئ الأخلاق المسيحية فيهم . ومن هذا الطراز القديس لياندرو المتوفى سنة ٦٠٣ م ، فقد كان دارساً مجتهداً ، وقد ترك لنا آثاراً فكرية طيبة : ومن آثاره رسالة مسيحية صوفية قريبة الشبه بكتابات القديس أوغسطين فيها زهد في الدنيا وترغيب في الكمال ، ومادتها مقتبسة من الإنجيل ولكنها طيبة جداً إذا عرفنا أنها كتبت في القرن السادس ، وأنه كتبها وهو منفرد بنفسه في نواحي ماردة ، وكانت إذ ذاك فقراً لا يسكنه إلا القليل^(٢)

وأكبر شخصيات هذا العصر مكاناً وأبقاها أثراً في مستقبل البلاد

(١) DOZY. *Musulmans d'Espagne*, I, p. 269.

(٢) M. LEGENDRE. *Nouvelle Hist. d'Espagne*, p. 77.

الثقافي هو القديس إيزودور الإشبيلي (ISIDORO DE SEVILLA) ولم يكن قوطياً وإنما من الإيبيريين الرومان ، ولم يكن كاتباً دينياً فحسب بل كان مصنفاً موسوعياً حاول أن يجمع في كتبه كل ما انتهى إليه من علوم اليونان والرومان معدلة تعديلاً مسيحياً ، وهو يعد من هذه الناحية من كبار الكتاب والمفكرين المسيحيين بل من آباء الكنيسة ، وكتابات تسلكه مع كتابات القديس أوغسطين في سلك واحد ، وأعظم كتبه وأبقاها كتاب أصول الكلمات (*Originum sive Etymologiarum*) . وربما وجدنا فيما يورده من أصول الكلمات أشياء أسطورية دينية لا يقبلها العقل ، ولكن الكتاب موسوعة أخلاقية تضم ثروة عظيمة من الأفكار اليونانية والرومانية وفلسفة المسيحية الأولى ، وهو يعالج في الأجزاء الثلاثة الأولى الفنون السبعة : النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك ، ثم يخص الطب بالجزء الرابع ، ويختص بالقانون والتاريخ الجزء الخامس ، ويجعل الجزء السادس للإنجيل وغيره من الكتب الدينية ، وهكذا يختص كل لون من المعارف الإنسانية بجزء ، حتى الفنون اليدوية كالنجارة والهندسة والموازين والمكايل والألعاب ، مما يجعل كتابه موسوعة غنية بكل غريب طريف ، تدل على أن جميع ألوان المعارف الإنسانية التي كانت معروفة في ذلك الحين كانت موجودة متداولة في إسبانيا ، وأن العرب حينما دخلوا البلاد وجدوا فيها تراثاً ثقافياً طيباً^(١) .

ونستطيع أن نذكر إلى جانب القديس إيزودور عدداً عظيماً من القساوسة

(١) أراد إيزودور أن ينشئ موسوعة تضم معارف عصره كلها وجعلها في ٢٠ جزءاً : الستة الأولى منها مقدمة والباقية تتناول أصناف العلوم والفنون المعروفة في عصره . وله مؤلفات تاريخية كثيرة ، منها كتاب عظماء الرجال (*Liber de viris illustribus*) والمُدونة (*Chronicon*) وتاريخ ملوك القوط (*Historia de Regibus Gothorum*) وتاريخ ملوك الوندال والسويث (*Historia de regibus Vandalorum et Suevorum*) انظر :

JUSTO PÉREZ DE URBEL. *Las letras en la epoca visigoda en Historia de España*, tomo III. *España Visigoda* (Madrid, 1940), pp. 401 Sqq.

هم الإسبان الأصليين بعد أن دخلوا المسيحية وتأثروا بأفكارها وفلسفتها ، فلا عجب أن ظهر في هذا القطر الثاني رجال من طراز إيزودور الإشبيلي وباولوس أوروزيوس ولياندرو ، لأن البلد كان قبل ذلك موطن حضارة فكرية وفلسفة باقية الأثر في عهد الرومان . لقد سبقت إسبانيا الإسلامية بقية العالم الإسلامي في نواح شتى من هذه الناحية ، كما ستسبق إسبانيا الإسلامية بقية العالم الإسلامي في نواح شتى من نواحي التفكير الإسلامي . ولعل مرد هذا إلى أثر هذا القطر البديع فيمن يقيم فيه ، وليس من وحى المصادفة أن يتواتر السبق والنبوغ في أهله من أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولعل إيزودور الإشبيلي قد أحسن فضل الوطن الإسباني على ما وصل إليه من ذكاء وعلم واقتدار فعبّر عن شكره لبلده في أسطر تفيض رقة وحناناً يقول فيها مناجياً إسبانيا :

« أي إسبانيا ! إنما أنت أجهل الأرضين انتي تمتد من أقصى الغرب حتى الهند ... إنك لأرض مباركة سعيدة بأمرائك ! إنك أم لشعوب عديدة ، وأنت ملكة الولايات أجمعين ... منك يقبس الغرب والشرق النور . وعلى أرضك يزدهر خصب الشعب القوطي المجيد ... » (١) .

والرهبان الذين تركوا مؤلفات شتى ، منهم باولوس أوروزيوس قس لوزيتانية ، ولم يكن إسباني الأصل وإنما كان صقلياً ، وهو من تلاميذ القديس أوغسطين أسقف بونه ، أخذ عنه العلم وتشبع بأرائه وهو لهذا يكتب على غراره : يهاجم الوثنية ويدعو إلى الله ، وقد حاول تقليد سنت أوغسطين في كتابه « مدينة الله » (Civitate Dei) ، ونلاحظ هذا التشابه في التاريخ العالمي الذي كتبه تحت اسم (Historiarum libri vii contra paganos) الذي يفسر فيه التاريخ تفسيراً دينياً مسيحياً ويصور العناية الإلهية توجه أعمال البشر والرسول يقولون الناس إلى أحسن مصير (١) .

أما ما عدا الآداب من الفنون . فإن القوط لم يخلقوا إلا ثروة معمارية فقيرة جداً ، ومن أمثلة هذا الطراز بازيليكية سان خوان دي بانيس التي بنيت في عصر رخشندش وجزء من كنيسة سان پادرو دي تاراسا وبعض عمد باقية في كنيسة سان بابلو دل كامبو في برشلونة ، وينسب بعض مؤرخي الفنون للعقد الخامس إلى القوط (٢) .

وخلاصة القول أن إسبانيا القوطية لم تكن شرّاً كلها كما يذهب بعض المؤرخين القرنسيين والعرب ، ولم تكن خيراً كلها كما يزعم الإسبان ، وإنما كانت جوانبها الاجتماعية ضعيفة جداً ، بل تعد امتداداً للعصر الروماني المضمحل . وذلك معقول ، لأن القوط أنفسهم كانوا قبائل متبديّة لا تملك من الأسس الاجتماعية ما يعينها على تنظيم بلد واسع كإسبانيا ومجتمع منشعب مختلف كمجتمعها الذي ضم أخلاطاً من كل صنف . وقد حاولوا أن يتخذوا مظاهر النظام السياسي الروماني فلم يوفقوا ، لأنهم كانوا أبعد من أن يفهموه أو يستطيعوا البناء عليه ، ولم يصب الناس من وراء ذلك إلا شر بالغ .

وأما الناحية الفكرية فكانت خيراً خالصاً ، لأن الذين قاموا بها كانوا

الفصل الثاني
فتح المغرب

ثورة كبرى : لقد انهار الحاجز المغلق إغلاقاً محكماً من كل ناحية ، الذى كان يفصل الشرق عن الغرب . ولو أننا قارنا هذه القفزة الواسعة نحو المجهول بثوراتنا - الفرنسية أو الروسية مثلاً - لبدت لنا هاتان الأخيرتان صغيرتين جداً ، فإذا دفعنا تطلعا إلى فهم الأسلوب الذى تمت به هذه الثورة الكبرى وإلى الإحاطة بتفاصيلها استبنّا أن الفتح العربى كان طويلاً جداً وعنيفاً جداً ، إذ قاومتهم البلاد مقاومة عنيدة^(١) .

هذه الملاحظة تعطينا فكرة واضحة عن طبيعة الفتح العربى للمغرب وعن ضخامة العمل الذى قام العرب به ومدوا خلاله رواق الإسلام بضعة آلاف من الكيلومترات ، من حدود مصر إلى المحيط الأطلسى . والثابت تماماً أن العرب لم يتصوروا اتساع المغرب الشاسع واختلاف شعوبه حيناً أقبلوا على فتحه ، وأنهم فتحوه جزءاً جزءاً : كل إقليم يؤدى بهم إلى الذى يليه حتى وصلوا إلى النهاية ، أما ما نجده عند بعض المؤرخين والجغرافيين من تصور صحيح للمغرب وأهله فقد كتب بعد تمام الفتح وإسلام المغرب بقرون^(٢) .

(١) E.F. GAUTIER. *Le passé de L'Afrique du Nord*. pp. 247-248. وبقيّة عبارة جوتييه فى هذا الصدد لا تقل عن هذه الفقرة أهمية ولا عمقاً ، فهو يقول مثلاً بعد استعراض سريع لخطوات الفتح العربى : « كان الفتح الفرنسى للجزائر طويلاً مؤلماً ، وكانت قيادته سيئة ، وليس لنا الحق فى أن نفخر به كثيراً . ولكن لتقارنه بالفتح العربى ، ولنفرض أنه بين سنتى ١٨٣٠ و ١٩٠٠ طرد الفرنسيون من البلاد طرداً تاماً ثلاث مرات ، وأنهم لم يحتفظوا فى أحسن هذه المرات إلا بالجزائر وضواحيها - مدينة الجزائر تقابل عندنا القيروان عند العرب - ، إذا استطعنا تصور ذلك أخذنا فكرة عما حدث أثناء الفتح العربى ... » .

ثم يورد بعد ذلك نصصاً لمؤرخى العرب وجغرافيتهم تصور صعوبة هذه البلاد وعتو أهلها ، وقد أوردت معظم هذه النصوص فى صلب البحث . (نفس المصدر ص ٢٤٩ وما يليها) .

(٢) مثل هذه القالة نسبها ابن عبد الحكم إلى عمرو بن العاص رواية عن عبد الملك ابن مسلمة عن ابن لحيمة عن ابن هبيرة عن أبي تميم الجيشانى ، قال : إن عمرو بن العاص بعث يستأذن عمر بن الخطاب فى فتح إفريقية ، فكتب إليه عمر : « لا ... إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لا يفرزها أحد ما بقيت ... » .

ومثل قول ابن عذارى : « تكتب حسان (بن النعمان) إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره -

٨ - فتح المغرب لم يدخل الشمال الإفريقى فى حوزة الإسلام بحرب واحدة بل بسلسلة من الحروب استمرت حوالى سبعين سنة متوالية ، بدأت ببعث استطلاعى قام به عقبة بن نافع فى ذى القعدة سنة ٢١ هـ (سبتمبر ٦٤٢) وانتهت بحملة موسى بن نصير الأخيرة الموقفة التى أخضع فيها المغرب الأقصى سنة ٩٠ هـ (سنة ٧٠٨ م) ، وقد لقى فيها العرب من الجهد والخسائر ما لم يلقوا مثله فى فتح إقليم آخر ، حتى شمال الهند نفسه^(١) .

يبد أننا لو قارنا هذا الجهد الذى بذله العرب بسعة البلاد التى تم فتحها ووعورة أراضيها واختلاف أجناسها ، لتبيننا أن العرب فتحوا هذه الأقطار المترامية بأيسر مما فتحها الرومان ، وأنهم وفقوا إلى إخضاعها توفيقاً لا يكاد يقارن به توفيق الرومان فى العصر القديم أو توفيق الفرنسيين فى العصر الحديث ، وأن خسائر العرب كانت أقل بكثير جداً من خسائر هؤلاء وأولئك . هذا فى حين كانت النتيجة التى وصل إليها العرب رائعة على غير مثال ، وقد علق جوتييه على ذلك بقوله : « لا زالت النتائج التى وصل إليها العرب (فى فتحهم الشمال الإفريقى) تدهشنا إلى الآن . لقد عرّب المغرب إلى حد كبير . وتحول إلى الإسلام تحولاً تاماً عميقاً ، وهذه نتيجة تدعو إلى الإعجاب ، ما فى ذلك شك ، ولم توفى إلى مثل هذه النتيجة حركة استعمارية (كذا) أخرى قامت على وجه الأرض ، ولنكرر القول أن هذا الفتح أحدث ، خلال القرن السابع .

(١) أوجزت فى الصفحات التالية فتح إفريقية اعتياداً على بحثى فى هذا الموضوع « فتح العرب للمغرب » - القاهرة سنة ١٩٤٧ ، والبحث الذى نشره ليلى بروثنسال « نص جديد عن فتح العرب للمغرب » فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد - مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ ، وتعليقنا على كلام بروثنسال ونص عبيد الله .

مر فتح العرب للمغرب في ستة أدوار (١) :

(١) الدور الأول : من أوائل الفتح في ذي القعدة سنة ٢١ هـ

(سبتمبر ٦٤٢) إلى نهاية ولاية معاوية بن حديج في أوائل سنة ٤٨ هـ
(سنة ٦٦٨ م) :

وفي خلالها غزا عمرو بن العاص برقة ، وكسب قبيلة لواتة الكبيرة إلى جانب المسلمين . بل أدخل بعض أهلها في الإسلام . فكان هذا أول كسب للإسلام فيما يلي حدود مصر غربا . واستفاد عمرو في أثناء ذلك بجهود عقبة بن نافع الفهري . وكان إذ ذاك قائداً صغيراً في جيشه . فبعثه إلى زويلة = بذلك ، وأن أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية كلما بادت أمة خلفتها أم ، وهم من اخلف والكثرة كسائمة النعم ... » .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١٧٣ .

ابن عذاري : البيان ، ج ١ ص ٢١ .

(١) اعتمدت في كتابة هذا الموجز لفتح العرب للمغرب على بحثي الخاص بهذا الموضوع (القاهرة ١٩٤٧) . وإليك أهم المراجع والصفحات التي اعتمدت عليها :

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (حقيقه شارل م . تورى سنة ١٩٢٢) ابتداء من ص ١٧٠ .

والبلادري : فتوح البلدان من ص ٢٢٤ .

والبكري : وصف إفريقية ص ١ ، ٢ وفي مواضع متفرقة أخرى ، لأنه يذكر ما يعرفه عن فتح المسلمين لكل بلد عند ما يذكره .

ورياض النفوس للالكبي (القاهرة ١٩٥١) ج ١ ، من ص ١ وما بعدها .

وابن الأثير : ج ٣ ، ابتداء من ص ١٠ .

وابن خلدون ج ٦ ، من ص ١٤٤ .

والنويري : نهاية الأرب ، (مخطوط بدار الكتب) من ص ١٦٣ .

وأبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ من ص ٧٦ .

والدباغ : معالم الإيمان ، ج ١ من ص ٤٠ .

وكل من هذه المراجع لا يختص بالفتح إلا بضع صفحات ، وسأكتفي هذه الإشارة عن ذكر المراجع بعد كل فقرة .

وفزان وودّان . وقد أقام عقبة في هذه النواحي الصحراوية المنعزلة نحو عشرين سنة يدعو للإسلام ويضرب لأهلها مثلا جديلا للمسلم الصحيح المتفاني في دينه ، واستطاع أن يكسب إلى صفته قلوب الكثيرين من أهلها ومعظمهم من نفوسة وإوالة ونفزاوة (أى من البئر . أى البربر الطواعن) ، فأما من أسلم منهم فسينضم إلى المسلمين منذ الساعة وسيكون له أثره في نجاح فتوحهم وتقدمها ، وأما من لم يسلم فقد أصبح صديقا للمسلمين يؤيدهم بالعون ويؤيدهم على الروم والبرانس (البربر المستقرين المتحضرين بالحضارة اللاتينية) .

وفي خلال هذا الدور وفق المسلمون إلى الانتصار الحاسم العظيم على الروم عند سببيلة في أوائل سنة ٢٨ هـ (٦٤٨ م) . وقد كانت لهذا الانتصار العظيم نتيجة واحدة : هو أنه كسر سلطان البيزنطيين كسرة لن يعود بعدها إلى ما كان عليه في البلاد قبل انتزع الإسلام . وسيحاول البيزنطيون العودة إلى البلاد والاتحاد مع البربر ومغالبة العرب ، ولكن كل محاولاتهم لن تزيد عن أن تكون محاولات قليلة الخطر عديمة النتائج . ولو أن عبد الله بن أبي سرح أقام في البلاد أو ترك فيها حامية لكان لانتصار سببيلة نتائج بعيدة حاسمة ، ولكنه عجل بالعودة لأسباب غير ظاهرة ، مكثفياً بمال عظيم جمعه من أهل البلاد . فكان على من أتى بعده أن يبدأ من جديد ، لأن انسحابه عفى على معظم النتائج التي كان المسلمون قد وصلوا إليها في البلاد .

(ب) الدور الثاني : ويمتد من سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ - ٦٧٠ م) إلى ٦٢ هـ

(٦٨١ م) ويشمل ولاية عقبة بن نافع الأولى وولاية أبي المهاجر دينار :

لم يقيم المسلمون بشيء حاسم في إفريقية بين سنتي ٢٨ و ٤٥ هجرية ، ذلك أن فتنة عثمان وما تلاها من الأحداث أوقفت نشاط التوسع الإسلامي في كل وجه ، نعم إن عثمان لم يقتل إلا سنة ٣٥ هـ (٦٥٤ م) ولكن السنوات الأخيرة من حكمه كانت سنوات اضطراب وشغب عليه ، وكان ولى مصر وقائد الفتوح في إفريقية هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح أحد المغضوب

عليهم من الناس في ذلك الحين ، فكان طبيعياً أن ينصرف فكره عن إفريقية ومواصلته الفتوح فيها منذ عودته من غزواته التي ذكرناها في سنة ٢٨ هـ (٦٤٧ م) .

فلما انتهت الفتنة واستقر الأمر لمعاوية عاد عمرو بن العاص إلى مصر سنة ٣٨ هـ (٦٤٨ م) واتجه ذهنه من أول الأمر إلى معاودة الغزو في إفريقية ، لأنها كانت ، في حسابه ، باباً مفتوحاً للكسب والمغانم . ولا نزاع في أن معاوية لم يكن راضياً عن هذه الحرية التي أباحها عمرو لنفسه ، لأن حملة عبد الله بن سعد وما عادت به من المغنم الوفير فتحت عينه على أهميتها ، وجعلته يفكر في فصلها عن مصر وإفرادها بوال خاص . فلما توفي عمرو سنة ٤٤ هـ (٦٦٥ م) ساحت له الفرصة ليحدث هذا التغيير الهام الذي يعين لنا تطوراً خطيراً في علاقة المغرب بالخلافة الإسلامية ، فن ذلك الحين أصبح المغرب ولاية مستقلة تابعة للخلافة رأساً ، وكان أول وال إسلامي عين على إفريقية معاوية بن حديج أحد كبار أنصار معاوية .

عجل معاوية بن حديج بالسير إلى مصر في سنة ٤٥ هـ (٦٦٦ م) فلم يكده يصل برقة حتى بلغه أن البيزنطيين عادوا فأرسلوا جيشاً إلى البلاد ، وأن قائد هذا الجيش قد طالب أهل إفريقية بأن يؤدوا له من المال بقدر ما أدوا للعرب ، فثار به الأهليون ، فعاد إلى بلاده ليعود بجيش قوى وفي نيته إرغام الأهلين على أن يؤدوا له ما طلب ، فوصل إلى قرطاجنة قبيل الوقت الذي عبر فيه معاوية بن حديج حدودها ومعه عشرة آلاف من العرب فيهم نفر كبير من الصحابة والتابعين ، من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير بن العوام وعبد الملك بن مروان وعدة من أشراف قريش ، ونفر كبير من جند مصر . ولم يكده الجيش يحطرحاله في إقليم قسْمُونِيَّة جنوبي قرطاجنة حتى تسمع بنزول الروم ، فتقدم نحوهم وعسكر في مكان يسمى القسْرَن ، ومن هناك أرسل عبد الله بن الزبير ليستطلع أحوال جيش الروم ،

فلم يكده هذا الأخير يشعر باقتراب العرب حتى تراجع إلى سوسة ، وأدركه عبد الله بن الزبير فيها وناوشه مناوشة خفيفة ، أقلع بعدها إلى صقلية ، واستولى المسلمون على سوسة . وأرسل معاوية سرية أخرى إلى جلولاء (Couloulis الرومية) استولت عليها وغنمت غنيمة متواضعة ، ثم سار بنفسه إلى بنزرت فاستولى عليها . ولا صحة لما يذكره بعض المؤرخين من أن معاوية بن حديج بعث سرية إلى صقلية . ولنا نستطيع اعتبار أعمال معاوية بن حديج فتوحاً ، وإنما كانت سرايا قليلة الأهمية لم تترك في البلاد أثراً يذكر

(ج) الدور الثالث : ولاية عقبة الأولى واختطاط القيروان (٤٩ -

٥٥ هـ - ٦٦٩ - ٦٧٥ م) :

٩ - اختطاط : وأما نشاط الفتح الصحيح فيعود من جديده بتولى عقبة القيروان ابن نافع قيادة الفتوح في المغرب سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ - ٦٧٠ م) وقد كان عقبة أقدم المسلمين عهداً بإفريقية وأعرفهم بأحوالها ، وكان في نفسه رجلاً شديد الإيمان تميل نفسه نحو نشر الدين لا إلى مجرد الفتوح والانتصارات وما وراء هذه من مكاسب . ويبدو أنه كان قد وضع في نفسه خطة طويلة للفتح ، ولهذا لم تكده ولاية إفريقية تؤول إليه حتى سارع بإنشاء مدينة للمسلمين ، اختطها في إقليم قسْمُونِيَّة جنوبي قرطاجنة ، ويغلب أنه لم يرد إنشاء مدينة بالمعنى المعروف وإنما معسكراً ، فقد قال : « وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها معسكراً ، وتكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر » ، وقد قضى عقبة في إنشائها نحو أربع سنوات (٤٩ - ٥٢ هـ / ٦٦٩ - ٦٧٥ م) فلم تكده المدينة تقوّم حتى بدأت « ولاية إفريقية » الإسلامية تظهر ، ولم يعد العرب مجرد غزاة يخرجون من مصر للغزو ثم يعودون إليها ، بل أصبحت العاصمة الجديدة مركزاً تخرج منه الغزوات وتنظم منه شؤون البلاد ، وهذا في ذاته تطور له معناه . واشتغل عقبة أثناء بناء المدينة في إرسال السرايا في كل وجه . فكانت نتيجة ذلك أن القبائل البربرية المقيمة في سهل تونس وفي

الحضاب المجاورة بدأت تشعر بقوة المسلمين ، واجتذبتهم المدينة الجديدة ، وأثرت فيهم شخصية عقبة القوية . فأتخذوا يقتربون من المسلمين وأسلم منهم نفر عظيم ، وبهذا نشأت في سهل تونس جماعة إسلامية بربرية . وكانت تلك خطوة حاسمة في تحويل المغرب إلى الإسلام . وزادها أهمية أن الكثيرين من هؤلاء البربر الذين أسلموا أخذوا ينظمون في جيوش المسلمين ويسرون معهم لإتمام فتح البلاد .

فلما أتم عقبة تأسيس « نقطة الارتكاز » وفيما هو يشرع يتخذ الأبهة للخروج للغزو الواسع النطاق . إذا معاوية بن أبي سفيان يفاجئه بالعزل سنة ٥٥ هـ (٦٧٤ م) نتيجة لسعائيات وإن مصر مسلمة بن مخلد . الذي كان يغار من عقبة ويحسده .

وأقام مسلمة على إفريقية أحد مواليه ديناراً أبنا المهاجر سنة ٥٥ هـ (٦٧٤ م) وكان مسلماً حسنًا وجندياً نشيطاً ، وكان أول قائد مسلم يقدر له أن يخرج من سهل تونس ليتوغل حضاب المغرب الأوسط ويهاجم القبائل البربرية في مواطنها الحصينة . وكانت أول كتلة بربرية قوية اصطدم بها هي كتلة أوربة أقوى قبائل البرانس في ذلك الحين . وكانت النصرانية قد انتشرت بين أفرادها . وكان رئيسها كسيلة بن كعزم الأوربي ، وكان رئيساً ذكياً قادراً . وقد استطاع أبو المهاجر أن يغزو مواقع أوربة في جبال الأوراس وأن يجتذب كسيلة إلى الإسلام ، فأسلم وتبعه نفر كبير من قومه في غزوة طويلة وصل فيها إلى تلمسان ، ثم هاجم قرطاجنة هجوماً قوياً سنة ٥٩ هـ ، ولم يرجع عنها إلا بعد أن تنازل الروم له عن شبه جزيرة شريك الواقعة جنوبي إقليم قرطاجنة ، فاحتلها المسلمون وضيقوا الحناق على عاصمة إفريقية البيزنطية .

(د) الدور الرابع : حملة عقبة الكبرى (٦٢ - ٦٤ هـ / ٦٨٢ - ٦٨٤ م)

وانتهت ولاية أبي المهاجر سنة ٦٠ هـ ، إذ عزله يزيد بن معاوية ورد عقبة إليها بعد أن طال غيابه عنها وطالت شكواه من حرمانه منها ، ثم عجل

بالخروج في غزوته الكبرى التي وصل فيها إلى المحيط ، ومن الغريب أن هذا الرجل القادر لم يحسن استغلال هذه الفرصة العظيمة التي أتاحت له ، فقد كان الروم في حالة من الضعف لا تأذن لهم بمقاومة المسلمين ، وكانت أوربة كلها إلى جانب العرب يقودها رئيسها كسيلة . بدأ عقبة فأساء معاملة كسيلة ونفّره رقومته من المسلمين ، ثم مضى في مغامرة طويلة المدى قليلة الأثر السياسي ، تذهب المراجع إلى أنه انتهى فيها إلى ساحل المحيط عند « إيغيران يطوف » ، ثم عاد إلى مصرعه عند تهودة على يد البربر ونفر من أحلافهم من الروم سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ - ٦٨٤ م) ، وقد استشهد مع عقبة في هذه الواقعة نفر كبير من رؤساء المسلمين فيهم أبو المهاجر دينار نفسه . فإذا تم ذلك لكسيلة فقد سار بمن معه من البربر فاحتل القيروان ، وتراجع من بقي من المسلمين إلى برقة يقودهم زهير بن قيس البلوي^(١).

بهذا خرجت إفريقية من أيدي المسلمين : وتراجعوا إلى برقة التي كان عمرو بن العاص قد فتحها منذ نحو أربعين سنة ، وكان على خليفة عقبة أن يبدأ العمل من جديد . ولكن الواقع أن هذه الهزيمة لم تكن قاضية على كل أثر للمسلمين في البلاد ، إذ أن إفريقية كانت تضم إذ ذاك جماعات إسلامية قوية في القيروان وحولها وفي بعض نواحي الأوراس ، وقد خضعت هذه الجماعات لكسيلة ولكنها ظلت تتربص فرصة عودة المسلمين ، ويبدو أن نزاعاً وقع بينه وبينهم ، لأن المراجع تصور لنا إفريقية خلال الفترة التي انقضت بين انسحاب المسلمين وعودتهم في حالة مضطربة .

(هـ) الدور الخامس : ولاية زهير بن قيس والقضاء على مقاومة

البرانس (٦٩ - ٧١ هـ / ٦٨٨ - ٦٨٩ م) :

عاد المسلمون إلى إفريقية بعد هذه الهزيمة بأربع سنوات - أي سنة ٦٩ هـ /

(١) انظر : حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) وليثي بروفنسال : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشر في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطبعة ، المجلد الثاني ١٩٥٤ ص ١٩٣ وما يليها .

٦٨٩ م - يقودهم زهير بن قيس البلوى الذى ظل هذه السنوات ينتظر المدد فى برقة ، وقد أبدى زهير مقدرته عظيمة خلال السنوات الثلاث التى قاد فيها جيوش المسلمين فى إفريقية : بدأ بحملة عنيفة على الروم قضت على كل أمل لهم فى معاودة الوقوف فى وجه المسلمين أو التحالف مع البربر ، ثم أسرع إلى كسيلة الذى كان متحصناً فى مَمَس ، فهزمه وقتله فى معركة حامية «كسرت شوكة البرانس وقضت على مقاومتهم ، وقضت على ما كان معقوداً بينهم وبين الروم من تحالف على العرب وتعاون على طردهم» . وبهذا قضى هذا القائد الماهر خلال هذه الفترة القصيرة على عنصرين من أشد عناصر المقاومة ، وهما الروم والبربر البرانس أى المستقرين فى السهل الساحلى المتأثرين بالحضارة البيزنطية والمسيحية ، وبقيت ضربة أخرى توجه إلى القبائل المتبدية (البُترية) لكى يمكن القول بأن المسلمين قد قضوا على كل عناصر المقاومة الجدية فى المغرب .

قاد جيوش الإسلام المظفرة فى هذا الدور الخطير من أدوار الفتح رجل لا يقل قدرة ولا أهمية عن عقبة بن نافع أو زهير بن قيس ، وهو حسان بن النعمان . وكان زهير قد استشهد عند برقة ، تربص له الروم على طريق العودة بعد هزيمتهم وهزيمة أحلافهم ، وكان قتلهم زهير قد أنعش فى نفوسهم الآمال فى عودة إفريقية إليهم ، وأرسل الإمبراطور ليونتيوس مدداً صغيراً إلى قرطاجنة قويت به نفوس من بها من الروم ، فكان على حسان خليفة زهير أن يبدأ العمل من جديد كما بدأه زهير .

(و) الدور السادس : القضاء على مقاومة البُتر وإتمام فتح المغرب

(٧٦ - ٨٥ هـ / ٦٩٥ - ٧٠٥ م) :

فطن عبد الملك بن مروان إلى أن إفريقية لن تفتح فتحاً كاملاً ثابتاً إلا إذا سار إليها جيش كبير حسن الإعداد . وواتته الظروف على إرسال هذا

الجيش ، إذ كانت ثورة ابن الزبير قد قضى عليها ، ولهذا وضع تحت تصرف حسان جيشاً كبيراً حسن العدة يبلغ عدد جنوده أربعين ألفاً . وسار حسان إلى إفريقية بعد أن رسم لنفسه خطة واضحة : كان يعرف أن القادة قبله كانوا ينفقون معظم وقتهم وجهودهم فى أعمال حربية ثانوية تفرق قواهم وتحول بينهم وبين أن يقوموا بعمل حاسم يقضى على مقاومة البربر أو الروم . جعل حسان الروم وجهته الأولى ، وكان يعرف أن ما بقى لهم من القوة فى قرطاجنة شئ صغير لا يستطيع مواجهة العرب ، ولكنه كان يستطيع مضايقتهم وشل حركتهم وإحباط مساعيهم فعول على مهاجمتهم فى قرطاجنة والقضاء عليهم القضاء الأخير ؛ وقد ألح فى حربه لقرطاجنة ومن فيها وثابر على ذلك حتى استبان لمن فيها من الروم أن لا نجاة إلا بالهرب وترك البلاد جملة ، « فركبوا مراكبيهم ، وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ، ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب » ، وبهذا قضى حسان على عش المقاومة هذا بعد أن ظل شجى فى حلق المسلمين نحو ثلاثين سنة ، ولو قد أرادوا القضاء عليه سنة ٢٧ هـ لفعلوا ، ولكن الأمر كان يحتاج إلى رجل فى قدرة حسان وبعد نظره . ثم مضى حسان يهاجم الروم فيما عسى أن يعرفه من مراكزهم الباقية ، وأبدى فى ذلك نشاطاً مشكوراً .

ثم عاد ليتوجه بكل قواه نحو مركز المقاومة الآخر وهم البربر البُتر ، وكانوا قد تجمعوا حول امرأة لقبها العرب بالكاهنة ، ويغلب أن اسمها كان « داهية بنت مانية بن تيمان » ملكة جبل أوراس ، وكانت على جانب عظيم من المهارة والقدرة ، فجمعت حول رايها نفراً غفيراً من البربر الرحل « فيهم بنو يفرن ، ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر » ، وكانت هى تنتسب إلى قبيلة جيرة ، ويذهب المؤرخون إلى أن هذه القبيلة كانت يهودية ، وهذا أمر لا يستبعد وإن كان يفتقر إلى ما يثبتته .

ولم تكن الكاهنة ثائرة على العرب من أول الأمر كما يفهم من النصوص ،

وإنما كانت مطمئنة بمقامها في جبل أوراس ترقب الحوادث ، فلما رأت حسان يقضى على الروم ويتقدم نحو بلادها سارعت فجمعت من استطاعت جمعه من رجالها ، وانتظرت في « باغاية » على مدخل الجبال ، فلما اقترب حسان منها تراجعت حتى ثبتت عند نهر نينى على مقربة من موضع قسنطينة الحالية . وثبتت الكاهنة ومن معها للعرب ثباتاً عظيماً ، بل شدت عليهم حتى هزمهم بعد أن قتلت منهم عدداً كبيراً ، وتقهقروا أمامها فتبعتهم حتى أخرجتهم من إفريقية جملة ، وبهذا خرجت هذه البلاد عن يد العرب مرة أخرى بعد ما تكبدوه من جهد وتضحية ، وأرادت الكاهنة أن تقطع أمل العرب من هذه البلاد ، فأمرت رجالها فخرّبوا ما استطاعوا تخريبه من مظاهر العمران .

أضر هذا العمل بالكاهنة وقضيتها ضرراً بالغاً ، لأنه غير عليها نفوس الناس ، وجعلهم يرون أن العرب خير من هذه الرئيسة على كل حال ، فهم لا يخربون ما يدخلونه من البلاد هذا التخريب الذريع . وانتبه الروم الفرصة فعادوا في سفن ودخلوا قرطاجنة ، وطرّدوا من كان بها من المسلمين . وأقام حسان في برقة خمس سنين حتى أرسل له عبد الملك بن مروان المدد ، فتحرك إلى إفريقية من جديد سنة ٨١ هـ (٧٠١ م) .

لم يكد حسان يطل على سهل تونس حتى تسارع نفر عظيم من البربر والأفارقة فانضم إليه ، فعظم جمعه وسار للقاء الكاهنة ، ويبدو أنها أحست ضعف أمرها وقرب نهاية شأنها ، فأخذت تراجع متوغلة في جبال أوراس ، وبعثت ولديها ليستأمنًا حسان ، فأمنهما وولى كلا منهما على ستة آلاف ممن استأمن من البربر والأفارقة ، ثم لقيت العرب عند « بئر الكاهنة » وانهزمت . وهكذا قضى العرب على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردمهم ، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذى احتوى وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ، ولم يبق أمام العرب بعد ذلك إلا « غبار قبائل » كما يقول جوتييه ، ثم سار حسان نحو قرطاجنة وطرّد الحامية التي كانت قد استقرت فيها بقيادة البطريق يوحنا .

١٠ - اختطاط تونس
ولم يطمئن حسان من ناحية الروم ، ورأى أن سقوط قرطاجنة في يديه لا يمنع الروم من العودة إلى أى مكان آخر من الساحل ، فعول على إنشاء ميناء إسلامي جديد على مقربة من قرطاجنة ، ليشرف منه على البحر ويحول بين الروم وبين الاقتراب ، وبهذا نشأت « تونس » . ولم تزد في عهد حسان عن محرس صغير به بعض المساجد والمباني ، ولكن إنشاءها سيتم على يد عبد الله بن الحبحاب بعد ذلك بثلاثين سنة ، فتصبح ثغر إفريقية الكبير ، ويتكون فيها أسطول عظيم يغزو المسلمون به صقلية وجنوبي إيطاليا بل جنوبي فرنسا ، ويمهدون به السبيل للسيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط .

* * *

١١ - تنظيم الجليدة ، « فدون الدواوين وصالح على الخراج » ، وكتبه ولاية إفريقية
على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية ، وقسم البلاد خططاً : لكل قبيلة خطة ، وفرض على القبائل أن يقدموا للمسلمين عدداً من الجنود يحاربون معهم . ويبدو أن البربر أقبلوا على الإسلام في حماس ، فعمرت بهم جيوش المسلمين في المغرب من ذلك الحين ، وكان حسان بعيد النظر فسوى بين العرب والبربر في قسم الفىء ، ثم أقام العمال على نواحي الإدارة من خراج وزكاة وجند : وأرسل الخليفة قاضياً للقبروان أسوة بغيرها من العواصم الإسلامية الكبرى ، وبهذا تم فتح المغرب وتنظيمه . ونستطيع القول أن حسان صاحب الفضل الأول في ذلك كله ، فقد دخل البلاد سنة ٨١ هـ فوجدها مضطربة ثائرة ، ووجد أمر الإسلام فيها مشفياً على لزوال ، وغادرها سنة ٨٦ هـ (٧٠٦ م) ولاية إسلامية هادئة منظمة ، بل تركها وأهلها مقبلون على الإسلام إقبالا عظيماً ، ويكفى أن نلاحظ أن معظم الجيش الإسلامي في إفريقية كان من البربر حتى تتضح لنا هذه الناحية .

ولو امتدت ولاية حسان لجنى المغرب على يديه كثيراً من الخير ، لأنه

كان كما رأينا رجلاً مخلصاً نشيطاً بعيد النظر ، ويبدو أن صفاته تلك أوقعته في خلاف مع عبد العزيز بن مروان عامل مصر للوليد بن عبد الملك ، وكان عبد العزيز يرى نفسه صنو الخليفة ويطلق يده في الأمور كما يشاء دون نظر صادق لصالح الرعية ، وكانت نفسه معلقة منذ زمن بإفريقية ، فلم يزل يضايق حسان ويلاحيه حتى أخافه وجعل استمراره في العمل غير ميسور ، فاعتزل هذا الرجل القدير العمل في أوائل سنة ٨٦ هـ (٧٠٦ م) والمغرب في أشد الحاجة إليه .

وسارع عبد العزيز فأقام على إفريقية وليه وأقرب رجاله ١٢ - موسى بن إليه موسى بن نصير ، وكان من أقدر رجال الدولة الأموية نصير يتولى وأذكاهم ، وإن كنا لا نستطيع مقارنته بحسان بن النعمان من أمور المغرب (١) حيث النزاهة والإخلاص والعناية بصالح الدولة والرعية : فبينما كان حسان ينظر إلى صالح الأهلين ويسعى في تمكين سلطان الدولة والإسلام على نفوسهم بالعدل والخير ، كان موسى يحسب أن المسألة مسألة حروب وغنائم وكفى . فكان همه منذ تولى منصراً إلى القيام بغزوات يعود منها بالمغرم الوفير والسبي الكثير ولا يهتم بعد ذلك بما كانت تثيره هذه الضربات من الحفيظة وسوء الظن في نفوس أهل البلاد ، وسنلاحظ فيما نتناول من شئون المغرب في سياق هذا البحث أن شيئاً كثيراً من سوء الظن بالعرب قد انغرس

(١) اعتدت في كتابة هذا الجزء على المراجع السابق ذكرها ، ولم أجد حرجاً في الاعتماد على التفاصيل الهامة التي وردت في كتاب الإمامة والسياسة لأبي حنيفة الدينوري (طبعة القاهرة ، ج ٢ ص ٩٦ وما يليها) .

وواضح جداً أن الكلام الخاص بموسى بن نصير وأعماله في ذلك الكتاب مستق من مراجع صحيحة ، فالتشابه بينه وبين ابن عذاري ظاهر جداً يصل إلى الحرفية في بعض الأحيان ، ولا معنى للاستثناء عن معلومات هامة كهذه مجرد أن دوزى شك في صحة الكتاب كله .

وقد ناقش رأى دوزى وأثبت أصالة ما ورد في كتاب الإمامة والسياسة عن موسى بن نصير الدكتور محمود علي مكي في مقال نشره في المجلد الخامس من صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديره . وقد ذهب في هذا المقال إلى أن هذا الجزء من كتاب أبي حنيفة الدينوري مأخوذ من كتاب ضاع لمعارك النصيرى .

في قلوب البربر نتيجة لسياسة موسى بن نصير ومن بعده حتى أصبح من العسير اقتلاعه ، وأن سوء الظن هذا ظل يستشري مع الزمن حتى فصل بين العرب والبربر جلة ، وانتهى كما سنرى بانفصال المغرب عن مركز الخلافة ، وانحراف الكثيرين من أهله إلى مذاهب ثورية انقلابية تسمى صفورية تارة وخارجية تارة أخرى ، وما هي في الواقع إلا خوف وكراهية تأصلا في نفوس البربر بسبب إسراف موسى ومن جاء بعده من ولاية بني أمية في غزو البربر .

ويبدو أن إسراف موسى في غزو القبائل البربرية دون سبب أو مبرر ظاهر هو شعوره بأن عبد الملك بن مروان يسعى الظن به ويتوقع أن ينهب أموال الولاية الجديدة كما نهب أموال البصرة . وكان عبد العزيز يشد أزره ، ويود لو أثبت أنه خير من حسان بن النعمان وغيره من رجال عبد الملك ، فضى يذرع البلاد من شرقها إلى غربها ويرمى نواحيها وقيائها بأبنائه عبد الله وعبد العزيز ومروان وكبار رجاله من أمثال عياش بن أخيل وموسى بن عياض بن عقبة والمغيرة بن أبي بردة وزُرعة بن أبي مدرك . ولم يكن أهل المغرب بحاجة إلى هذه الغزوات حتى يطيعوا ويقبلوا على الإسلام ، فقد كان معظم القبائل قد ركن إلى الهدوء في ظل الفاتحين الجدد ، وأقبل الكثيرون من البربر ينضمون للمسلمين ويشتركون معهم في حروبهم عن طوعية ورضى .

ولم يكن موسى ليتوخى النواحي المضطربة أو القبائل الثائرة ليغازيها ، بل كان يتوخى المطمئنين فينزل بهم على غرة ، والظاهر أن عيوناً له كانت تجوس النواحي وينهون إليه أخبار القبائل ومن يمكن أخذه على غرة منها ، فنحن نقرأ في أخباره : « أن الجواسيس أتوا موسى فقالوا له : إن صنهجة بغرة منهم وغفلة ، وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون براحاً ، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان وألفين من المطوعة ومن قبائل البربر وخلف عياشاً على أثقال المسلمين ... فسار موسى حتى غشى صنهجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون فقتلهم قتل الفناء ، فبلغ سبيهم يومئذ مائة ألف

رأس (كذا) ومن الإبل والبقر والغنم والخيول والحراث والثياب ما لا يحصى . ثم انصرف قافلاً إلى القيروان ، وهذا كله في سنة ثمانين (كذا) . ولسنا نفهم سبباً آخر لمثل هذه الغزوة غير الطمع في المغنم ، بل حدث أن غزا كتامة واشتد في أذاها ، فسارع رجالها يؤكدون له طاعتهم وحسن ولائهم ، فأصر على أن يسىء الظن بهم ، ومضى يواتر الغزو عليهم وأصر على قتل رهاقهم ، حتى انكشفت له براعتهم على نحو لا يقبل الشك ، فانصرف عنهم بمغنم وافر . لهذا نحن لا نسمى أعمال موسى بن نصير في المغرب فتوحاً ، لأن الفتح تم على يد حسان ، وكان موسى قديراً على الاستيثاق من طاعة من بقى خارج الطاعة من القبائل ، أو من بعد مكانه منها كأهل السوس الأدنى ، بوسائل أخرى غير هذا الغزو العنيف . بيد أن هذه الغزوات لم تكن شراً خالصاً ، بل هي أحدثت في الغرب رجّة كبرى أفادت بسببها القبائل وتنهت إلى هذا العصر الجليدي الذي بدأ في حياة بلدهم ، وملك الروع معظمهم فسارعوا إلى المسلمين يدخلون في الطاعة ويعتقون الإسلام ، ورأى الكثيرون منهم ما يجنيه مواطنوهم الذين يسلمون وينضمون إلى جيوش المسلمين من الخير والغنم ، فأقبل الكثيرون منهم ينضمون إلى جيوش المسلمين آفاقاً ، ولا يكاد الواحد منهم يسلم حتى يسير مع الجيش الفاتح يغزو معه ويغنم معه . ووافق ذلك مزاج القبائل البربرية المتبديّة ، وجمعها مع العرب صفات البداوة والفطرة والنشاط وحب القتال ، فازدادت جيوش المسلمين في إفريقية زيادة سريعة مطردة لا نكاد نجد لها شبيهاً في أية ناحية أخرى من نواحي الدولة الإسلامية إذ ذاك . وكان لا بد لابن نصير أن يجلّ هذه الآلاف مجالاً للغزو والنشاط وإلا صعب عليه ضبطها ، فضى هذا الرجل الموفق يقود الجيوش وتقوده الجيوش ، مضى يفتح ويسترسل في الغزو حتى أدرك من ذلك غاية لم تكتب إلا للقلائل جداً من قادة المسلمين .

توجه موسى بضرباته في كل ناحية ، وبدأ بتوجيه حملة نحو سبوما ، ويبدو أن طوائف البربر التي اشتركت في حرب عقبة بن نافع سنة ٨٧ هـ

(٧٠٢ م) وقتله عند تهودة كانت تسكن على مقربة من هذه المدينة البربرية ، وقد قاد هذه الحملة عياض وعثمان وأبو عبيدة من أبناء عقبة بن نافع ، فانتقموا للمقتل أبيهم من أهل البلد ومن حوله انتقاماً شديداً . ثم أعقب ذلك بسلسلة من الحملات على هوارنة وزناتة وكتامة ، وقضى على ما عسى أن يكون قد اختلج في نفوسها من تفكير في الثورة والاستخفاف بالحكام كما كان الحال أيام البيزنطيين . ولما كان موسى يهتم اهتماماً عظيماً بمسألة الأسرى والمغنم . فقد كان أهل البلاد يسارعون بالإسلام افتداء لأنفسهم من الأسر . وبهذا جعلت أعداد عظيمة من أهل هذه القبائل تسلم وتقبل على القيروان طلباً للاشتراك في الفتوح والغزوات . ومن هنا لا غرابة في أن نسمع أن موسى أرسل بعد ذلك بقليل جيشاً عظيماً عاتته ١٧٠٠٠ من العرب و ١٢٠٠٠ من البربر لفتح السوس الأقصى ، وأن هذا الجيش وصل إلى نهر درعة وعاد بطاعة أهله ، وكانت تلك هي أول مرة في التاريخ يصل فيها فاتح أجنبي إلى هذه النواحي الداخلية النائية من بلاد إفريقية ، ومن هناك اتجه بهذا الجمع نحو طنجة فافتتحها وترك عندها حامية عظيمة يقودها مولاة طارق بن زياد ، وعهد إليه بالعمل على نشر الإسلام فيما يجاور طنجة من بربر غمارة وبرغواطة . وعسكر طارق بمن معه من المسلمين على ساحل بحر الزقاق ، وبدأت أنظارهم تتجه نحو إسبانيا في العدوّة الأخرى .

ويبدو أن ميدان إفريقية ضاق بنشاط موسى وقواده وجنوده ، لأن ابن عذارى يحدثنا — رواية عن ابن القطان — عن حملة إلى صقلية ، غزا المسلمون فيها سرقوسة وعادوا موقرين بالغنائم .

وعاد موسى إلى القيروان مخلفاً طارق بن زياد ومن معه بموضعهم هذا . وعلم طارق أن ميناء سبتة على مقربة منه ، فبدأ يتحرك نحوها وهناك وجد شخصية غريبة غامضة يتحدث عنها المؤرخون كثيراً ، ولا تزيد كثرة الحديث إلا إمعاناً في الغموض ، تلك هي شخصية يليان .

الفصل الثالث
فتح الأندلس

أنه روى وبعضها الأخير يزعم أنه بربري من غمارة ، ولكنها جميعاً تنفق على أنه كان صاحب سببة وما حولها ، وأن سلطانه كان عظيماً على من كان يحاوره من البربر - من غمارة وبرغواطة على الخصوص - وأن صلات من النود والولاء كانت تربطه بالذريق ملك الأندلس^(١) .

وقد حقق دوزي وكوديرا وسافدرا شخصية يُلَيَّان . فأثبت دوزي وجوده فعلاً بعد أن كان بعض العلماء قد ذهبوا إلى أنه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب^(٢) . وأكمل سافدرا عمل دوزي وزادنا علماً بشخصية يُلَيَّان وأصله والدور الذي قام به هو وأولاده^(٣) .

(١) يتحفظ ابن عبد الحكم في تحديد علاقة يُلَيَّان بالذريق فيقول إنه « كان يؤدي الطاعة إلى نذريق صاحب الأندلس » ولا يقول شيئاً عن أصله أو جنسه . وكذلك الأخبار المجموعة تكفى من صفته بأنه « عالج » وأنه كان يحكم « مداين على شط البحر فيها عمال صاحب الأندلس قد غلبوا عليه وعلى ما حولها ، وكان رأس تلك المدينة مدينة يقال لها سبنة ، وكان عليها وعلى من حولها من المداين عالج يسمى يُلَيَّان » ، مما يفهم منه أن يُلَيَّان كان عاملاً من عمال لذريق . ويصفه ابن خلدون بأنه رومي ، ويذهب ابن عذارى إلى أنه قوطي . ويلقبه ابن الأثير بالطريق ، أي أنه يقرر أنه كان رومياً .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ج ١ ص ٢٠٤ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ص ٨٩ .

أخبار مجموعة ، ص ٤ .

ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ١٨٤ .

ابن عذارى : اليان ، ج ١ ص ٢١١ .

(٢) انظر : DOZY. *Recherches* (3 éd.) I pp. 57 Sqq.

وراجع عنده عبارة ليزودور الباجي التي تذكر يُلَيَّان ووظيفته ذكراً محرفاً يصعب منها استكشاف حقيقة أمره .

(٣) SAAVEDRA. *Estudio*, pp. 48 Sqq. وقد ذهب سافدرا إلى أنه فارسي الأصل

وأنه من الأزارقة، وقد استنتج ذلك من أن يُلَيَّان خلف ولداً اسمه بسلوكايش أسلم بعد الفتح العربي وحسن إسلامه ، وبلكايش اسم من أسماء الفرس الأزارقة ، بل ذهب إلى أنه من كونيسابور كبرى مدائن أديابين (Adiabene) ، وتقع كونيسابور بين تكريت وأربلاص ، وإليك سلالة يُلَيَّان بعد الفتح بحسب ما تذكره الروايات الإسلامية :

١٣ - مقدمات الفتح
أقام طارق زمن معه من جند العرب والبربر على الساحل المغربي عند طنجة وما حولها . وأخذت أعدادهم تزداد مع الزمن ، وبدأت أنظار طارق تتطلع إلى ميدان جديد يشغل فيه هذه القوى العظيمة التي كانت تحت يده . وقد كان موسى بن نصير يشغل قواه قبل ذلك في مغازاة القبائل البربرية واجتياح أرضها والغنم منها ، ولكن طارقاً لم يكن ليستطيع أن يفعل ذلك . لأنه بربري الأصل من جهة ، ولأنه كان عميق الإيمان لا يرضى أن يضع السيف في قوم لم يعرض عليهم الإسلام بالحسنى . ويبدو أن من معه من الجند بدأوا يلفتون نظره نحو الأندلس وما هي عليه من ضعف وما تضمه من عيون الثروة ، ولا نزاع كذلك في أن أنظاره بدأت تتجه نحو حصن سبنة الذي عجز المسلمون عن الاستيلاء عليه مرتين : في المرة الأولى كان يقردهم عقبة بن نافع وفي المرة الثانية موسى بن نصير ، وظل هذا الحصن كالصخرة البارزة تقوم في وجه العرب في منتصف الطريق^(١) .

١٤ - يُلَيَّان
هنا تجمع الروايات العربية كلها على قيام شخصية غربية بأمر سبنة في ذلك الحين : تلك هي شخصية يُلَيَّان . واختلفت المراجع حول يُلَيَّان هذا اختلافاً عظيماً . فبعضها يزعم أنه قوطي وبعضها يزعم

(١) راجع عن هاتين المحاولتين : ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٤ ص ٤٢ .

والنويري : نهاية الأرب ورقة ٧٠ ب .

وابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ١٨٥ .

والأخبار المجموعة ، ص ٤ .

وابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٤ .

ونستطيع أن نقرر - اعتماداً على أبحاث دوزى وسافدرا - أن الإقليم الذى كان يحكمه يليسان ، وهو مرطانية الطنجية (Mauretania Tingitana) كان فى ذلك الحين تابعاً للدولة البيزنطية لا لإسبانيا القوطية ، وأن يليان كان يقوم حاكماً عاماً (Exarcus) لهذه الناحية من قبل الإمبراطور البيزنطى ، وأنه بدأ ولايته فى سن صغيرة ، وأقام فى هذه الناحية زمناً طويلاً ، ولما كانت مرطانية الطنجية بعيدة كل البعد عن بيزنطة ، ولما كانت أمور الدولة البيزنطية فى ذلك الحين مضطربة اضطراباً لا يمكنها من الإشراف على ولاياتها القريبة فضلاً عن البعيدة : فقد تحرر يليان من سلطان الدولة وأصبح كالحاكم المستقل فى هذه الناحية . وإذا انقطعت عنه الإمدادات من الدولة فقد بدأ يوثق علاقاته بمن جاوره من قبائل البربر حتى كسب ودها وأصبح كالزعيم لها ، حتى اختلط الأمر على الناس وحسبوه بربرياً .

عرف العرب يليان أول مرة عند وصول موسى بن نصير إلى إقليم طنجة سنة ٨٩ هـ (٧٠٩ م) على رجة التحقيق ، أما ما يذهب إليه ابن الأثير من أن عقبة أتى يليان سنة ٦٣ هـ (٦٨٣ م) وأنه نزل على حكم عقبة فأمر مشكوك فيه ولا تؤيده أية رواية أخرى . وكان ملك إسبانيا فى ذلك الحين غيطة . وكان الرد معقوداً بينه وبين يليان ، ولهذا حرص هذا الأخير على صرف عقبة عن إسبانيا وتوجيهه نحو البربر ، فلما انصرف موسى إلى القيروان وخلف طارقاً على طنجة وما جاورها ، أحسن يليان خطر المسلمين وضغطهم عليه وبدأ يصانعهم ، وعمل على كسب ود طارق بن زياد أمير طنجة واتصلت بينهما الأسباب . ولما نعلم شيئاً عن الأساس الذى قام السلام عليه بين الجانيين ، وكل ما نعرفه هو أن طارقاً حاول الاستيلاء على سبتة فلم يستطع

= يليان ← بلكايش ← عبد الله ← الحكم ← سايان ← أيوب (توفى سنة ٣٢٦) ← سايان (توفى سنة ٣٧٩) ← أحمد (توفى سنة ٣٨٨) .

وقد اشتهر الثلاثة الأخيرون بصدق الإسلام وسعة العلم .

ويلاحظ القارئ أن آراء سافدرا فيما يتصل بأصل يليان فيها تكلف كثير .

فاكتفى بمودة صاحبها ، وكان طارق - كما سنرى - رجلاً سياسياً بعيد النظر ، فلهذا صادق يليان ليستعين به على إخضاع من تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون^(١) .

وفى هذه الأثناء كان الذريق قد قام بثورته وعزل غيطة وقتله وتولى مكانه ، ولما كان يليان حليفاً لغيطة فقد حاول أن ينزل الأندلس أثناء القتال بين الجانيين معيناً لحليفه ، ولكن أنصار الذريق ردوه إلى بلاده منهزماً فعاد يليان إلى بلده سبتة وتحصن فيه ولبث يرقب الحوادث .

فلما قتل غيطة وتفرق أتباعه فر بنوه نجا بأنفسهم ، والخلاف شديد بين المؤرخين حول الوجهة التى اتخذوها بعد تفرق دولتهم ، فيذهب نفر إلى أنهم عبروا إلى إفريقية وأقبلوا يستعينون بالعرب على إدراك ثأرهم من قاتل أبيهم^(٢) . ولكن المراجع العربية - فيما عدا ابن القوطية - لا تذكر

(١) راجع بحثى دوزى وسافدرا السابق الإشارة إليهما ، ونص الأخبار النجمية يؤيد ما يذهب إلىه .

ويفهم من قول ابن عبد الحكم : « فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهاديا » أن طارقاً تفضل إلى مقدار الخير الذى يستطيع أن يجنيه من صداقة رجل قادر مثل يليان فاجتهد فى كسب رده ، ولا يعقل أن يكون طارق قد لطف يليان ليتق شره ، بل ليفيد منه فيما هو أهم من سبتة ، وربما جاز لنا أن نستنتج من ذلك أن أنظار طارق كانت متجهة نحو الأندلس ، وأنه اجتهد فى كسب ود يليان ليفيد منه فى تحقيق أمنيته هذه .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٥ .

(٢) ينفرد المؤرخ سبستيان بالقول بأن أولاد غيطة عبروا إلى إفريقية وذهب يستعدون العرب على الأندلس ويزينون لهم فتحها ، وهذا نص روايته :

Witizano defuncto, Rudericus a Gothis eligitur in regno. Filii vero Witizani, invidia ducti eo quod Rudericus regnum patris eorum acceperat, callide cogitantes, Missos ad African. mittunt, Saracenos in auxilium petunt, eosque navibus adfectos - Hispaniam intromittunt.

شيئاً من ذلك ، بل تذهب إلى أنهم كانوا صغاراً حينما وقع لأبيهم ما وقع ، وأنهم تفرقوا في البلاد حيناً ثم صالحوا الذريق واستقروا في أمانه وقد انطوت قلوبهم على كراهية الغاصب ، وأن العرب لم يكادوا ينزلون الأندلس ويسيرون لحرب الذريق حتى سارع أولاد غيطشة وأتباعهم فتركوا صفوف القوط وانضموا للعرب أثناء الموقعة ، وأن فعلتهم هذه كانت قاصمة الظهر لجيش القوط .

ويغلب أن في هذه الرواية بعض المبالغة ، لأن تصرف العرب مع أولاد غيطشة بعد تمام الفتح لا يدل على أن العرب كانوا مدينين لهم بفضل كبير كهذا ، وكل ما حدث هو أن أبناء غيطشة هؤلاء تقدموا إلى المسلمين بعد انتصارهم يطالبون بشيء من ضياع أبيهم ، فأعطاهم المسلمون جزءاً كبيراً منها كسباً لودهم . وقد أحسن المسلمون بذلك إحساناً عظيماً ، لأن أبناء غيطشة أصبحوا من ذلك الحين من أخلص الأنصار لهم ، بل لم يلبث بعضهم أن أسلم وحسن إسلامه . وعلى هذا نستطيع أن نقرر من غير حرج أن أولاد غيطشة لم يخرضوا العرب على غزو البلاد بل انتظروا حتى تم انتصارهم فانضموا إليهم وجعلوا أنفسهم أدلة للمسلمين على عورات الأندلس ، والغالب أنهم حسبوا أنهم يستطيعون الاستعانة بالعرب على إدراك ثأرهم من قاتل أبيهم ، لأنهم كانوا يظنون أن العرب إذا أقبلوا إلى الأندلس لم يلبثوا أن ينصرفوا عنها لأنهم لا يطلبون من فتوحهم غير الغنيمة . ولكن العرب خيبوا ظنونهم وهبطوا البلاد بقوة كبيرة ، ولم يكده العرب يلقون القوط حتى قضوا على قوتهم القضاء المبرم . وظهر أنهم ماضون في فتح البلاد بنية إدخالها في حوزة الدولة الإسلامية ، فلما استبان أبناء غيطشة ذلك تقدموا إلى العرب يطلبون الأمان مع من تقدم ، وأكرمهم العرب وردوا عليهم شيئاً من أملاك أبيهم .

= ولو أيد مؤرخو العرب هذا الرأي لقبلاء ، ولكن سياستيان ينفرد به ولا يذكر ما يؤيده .

SEBASTIAN, C. 3.

DOZY. *Recherches* (3 ed.) I pp. 68-69.

فإذا لم يكن أبناء غيطشة هم الذين استدعوا العرب إلى الأندلس ، فما الذي حدا بهؤلاء إلى العبور ومحاولة فتحها في وقت لم تكن أقدارهم فيه قد ثبتت في المغرب الأقصى ؟ ما الذي شجع طارق بن زياد وموسى بن نصير على الخروج في هذه المغامرة الكبرى التي كان من الممكن أن تجر على المسلمين شراً كبيراً ؟ ما الذي شجعهم على الخروج إلى شبه الجزيرة الإيبيرية الواسع في قوة قليلة لا تزيد على السبعة آلاف ، وهم يعرفون أن المغرب - وهو أضعف من إسبانيا بكثير - لم يتم فتحه إلا ببضعة جيوش يبلغ أقلها أضعاف هذه الآلاف السبعة التي سار بها طارق ؟

١٥ - فتح هنا تذهب أغلبية المؤرخين إلى أن العرب لم يفكروا في فتح الأندلس فتحاً كاملاً والاستقرار فيه من أول الأمر وأنهم ما كانوا يطلبون إلا بعض الغنيمة ثم يعودون إلى إفريقية ، وأن غزوتهم للبلاد أخذت طابعاً آخر بعد انتصار طارق هذا الانتصار الحاسم الذي لم يكن منتظراً عند وادي لكه ، ويعتمد هذا النفر من المؤرخين على ما ورد في المراجع العربية من أن موسى غضب على طارق وعاقبه على الاستمرار في الفتح خلافاً لما كان قد أمره به ، وقد روى ذلك ابن عذارى عن ابن القطان (١) .

وربما بدا هذا الرأي صحيحاً لأول وهلة ، لأن خروج طارق إلى الأندلس بهذا العدد القليل لا يدل على أنه كان ينوى غزو البلاد وفتحها فتحاً كاملاً ،

(١) ابن عذارى : البيان ، (طبعة كولان وبروفنسال ، لايدن ١٩٥١) ج ٢ ص ١٣ - وتجميع الروايات العربية كلها على أن موسى خاطب طارقاً بما يفهم منه أنه كان قد أمره بمجرد غزو البلاد والغنم منها ثم العودة ، وقد استعان المستشرقون - والإسبان منهم خاصة - بهذه العبارات ليحكموا على الغزو العربي بأنه كان مجرد مغامرة .

راجع مثلاً :

DOZY. *Recherches* (3 éd.) I, Etudes sur la conquête de l'Espagne par les Arabes. pp. XV Sqq.

IBIDEM. *Musulmans d'Espagne*, I.

وإنما هو مجرد الاستطلاع . ولكننا لو ذكرنا الأسلوب الذى جرى عليه العرب فى فتح مصر والمغرب مثلاً للاحتفاظ أن التقديم للفتوح بقوة صغيرة تعقبها الإمدادات كان أسلوب العرب فى الفتح : يرسلون عدداً صغيراً ويكونون على الأهبة لإتباعه بالإمدادات إذا لزم الأمر ، وقد حدث هذا فى الأندلس بالفعل ، إذ أسرع موسى لعون طارق بخمسة آلاف من الجنود . وأما غضب موسى على طارق فسببه أن موسى خشى أن يكون طارق قد تهور وغامر بالمسلمين أكثر مما ينبغى ، وربما يكون قد حسده على ما نال من التوفيق وما أدرك من المغنم ، وكان موسى على ما نعرف غير مجرد من الحمد أو الشره إلى المغنم .

لم يكن فتح الأندلس إذن مجرد مغامرة صادفها التوفيق فكان لها ما بعدها ، وإنما كانت من أول الأمر فتحاً مديراً جرى فيه المسلمون على أسلوبهم الذى ذكرناه فى فتح البلاد ، ومن أدلة ذلك ما ورد فى « الأخبار المجموعة » من أن موسى كتب إلى الوليد يخبره بدعوة يليان إياه لفتح الأندلس « فكتب إليه أن نخضها بالسرايا حتى تختبر [ها] ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديده الأهوال » ، فكتب إليه أنه ليس ببحر وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر : فكتب إليه : « وإن كان ! فاختبره بالسرايا » ، مما يدل على أن موسى كان قد قرر الفتح وعرف من شأن الأندلس ما شجعه على المضي فيه ، ولهذا كتب إلى الخليفة يستأذنه ، ولو كان أراد مجرد الغزو للغنيمة ثم العودة لما كتب يستأذن ، ثم إن قول الخليفة له : « اختبره بالسرايا » يفهم منه أنه يوافق على الغزو وإنما يأمر موسى أن يستوثق لجنود المسلمين قبل أن يبدأ العمل (١) .

ومن دلائل ذلك أن طارقاً وموسى سارا فى بلاد الأندلس منذ اللحظة الأولى سيرة من قدر كل شىء قبل الشروع فى العمل : سار طارق قدماً

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥ - ٧ .

وابن عذارى : يليان ، ج ٢ ص ٦ .

من مدينة لمدينة حتى انتهى إلى طليطلة ، ولو كان يرجو مجرد الغارة والغنيمة لعاد بعد أن وقعت فى يده مدينة أو مدينتان وامتلأت يده وأيدى أصحابه من الغنيمة .

وتجمع المراجع العربية كلها على أن يليان هو الذى دعا موسى لغزو الأندلس وكشف له عوراتها وهون عليه أمرها (١) . وتجعل المراجع لذلك قصة مخصصة أن يليان كان قد أرسل ابنته إلى قصر الذريق لتأدب وتنشأ فيه أسوة بغيرها من بنات سروات القوط فى ذلك الزمان ، وأن الذريق بصر بالفتاة وطمع فيها ونال منها ، فكتب إلى أبيها يخبرها ، فأحفظه ذلك على الذريق ، ودفعه إلى التفكير فى الانتقام منه ، فاتصل بطارق وأخذ يزين له فتح الأندلس ويحرضه عليه حتى وفق لما أراد ، ثم جعل نفسه وأتباعه أدلاء للعرب فى الأندلس يدلونهم على طرقها وبلادها ومواضع الضعف فيها (٢) .

(١) انظر مثلاً : ابن عذارى ، ج ٢ ص ٦ . وليس فى هذه الرواية أية إشارة إلى قصة ابنة يليان .

(٢) لا حاجة بنا إلى الإشارة إلى مواضع هذه القصة فى مراجعنا العربية ، لأنها متواترة فيها جميعاً من غير استثناء .

أما المراجع اللاتينية فلم تعرف هذه القصة إلا منذ سنة ١١١٠ ، إذ ورد ذكرها لأول مرة فى مرجع إسباني لاتيني هو « تاريخ راهب سيلوس » ذكرها بحيلة على صورة قريبة الشبه بما تذكره الروايات العربية .

وليس إلى الشك سبيل فى أن العرب لم يخترعوا هذه القصة اختراعاً ، ولكننا لا نستطيع مع الأسف الوقوف على أصلها . وقد ذهب سافدرا إلى أنه من الممكن أن يكون يليان قد أرسل نفراً من أهله إلى طليطلة ليأمنوا فيها حيناً بدأ العرب حصار سبتة وتهديدها ، وأن ذلك قد يكون أصل القصة ، وأيد رأيه هذا بأن ابن خلدون وسان يدرو بسكواك يفهمان إلى أن الذى اعتدى على ابنة يليان كان غيطشة لا الذريق ، لأن غيطشة كان صديقه كما قلنا أما الذريق فلم يكن ، ومن غير المعقول أن يكون يليان قد أرسل ابنته لتأدب فى قصر ملك بينه وبينه عداوة . وقد ذهب الأستاذ سافدرا إلى أننا حتى لو قبلنا هذه القصة فأننا لا نستطيع أن نجعلها سبب عبور العرب إلى الأندلس ، لأن مثل هذا الاعتداء لم يكن ينظر إليه إذ ذاك بالاشتراك الذى ننظر به إلى مثله الآن .

ولم يذكر مؤرخ عربي واحد لابنة يليان اسماً ، وتذكرها المراجع اللاتينية بين سنتي ١١١٠ -

ولسنا نريد أن نقف طويلاً عند هذه القصة ، فقد تكون صحيحة وقد

= و ١٣٠٠ من غير اسم كذلك ، حتى اخترع لها PEDRO DEL CORRAL اسماً حول سنة ١٣٠٠ .
ولسنا نعرف من أين أتى بـدرو بهذا الاسم ، وإن كان المظنون أنه ابتكره جرياً على عادته في اختراع
أسماء لمن لا يجد له اسماً من شيوخه التاريخية ، وهذا الاسم هو « لا كافا » (La Cava) .
وكافا اسم مدينة إيطالية على مقربة من سالرنو في ملكة نابل ، ولما كان ألفونسو الخامس ملك إسبانيا
قد غزا نابل وزار بعض جنوده مدينة كافا ، فقد عاد الجند يحملون هذا الاسم وتسمى به نقر من
الإسبانيات في ذلك العهد .

يبد أن عالماً إسبانياً هو MIGUEL DE LA LUNA خرج على الناس في سنة ١٥٨٩
بتفسير عربي لهذا اللفظ : ذهب إلى أنه مأخوذ عن اللفظ العربي « قبة » ، وذكر أن قصاص
الأندلسيين كانوا يسمون ابنة يليان به في العصور الإسلامية ، ولزمها هذا الاسم بعد ذلك ، واحتج
لذلك بأن لوقا اللودي ذكر الفتاة بهذا الاسم في « تاريخ الدنيا » (Cronicon Mundi) . وحقيقة
يوجد الاسم في بعض النسخ ، ولكنه لا يوجد في النسخ المخطوطة بصحتها ، مما يؤيد القول بأن
النساخين أضافوا هذا الاسم من عندهم فيما بعد .

أما قصاص الإسبان وواضعو الأغاني الشعبية فقد سمو هذه الفتاة فلورنده Florinda
ولزمها هذه التسمية في كتب الإفاصيص والأشعار جميعاً ، وذهب البعض إلى أن هذا الاسم صحيح وأنه
مخفف من الاسم القوطي فلوريندا (Floresinda) .

ومهما يكن من الأمر قصة ابنة يليان قليلة الأثر في التاريخ وإن كانت عظيمة الأثر في الفن
والأدب ، وهي بهذا أحسن حظاً من صاحبتها « ابنة المقوقس » و« ابنة جرجير » والاثنتان من
اختراع قصاص العرب ، ولا يبعد أن تكون قصة ابنة يليان من اختراع قصاص العرب كذلك .

Cronicon Silense, N. 15.

SAAVEDRA. Estudio ..., pp. 58-59.

SAAVEDRA FARJADO. Corona Gótica, cap. XXIX.

PEDRO DEL CORRAL. Cronica del Rey Don Rodrigo.

MIGUEL DE LA LUNA. Historia Verdadera del rey Rodrigo

ويظن أن هذا الكتاب الأخير مترجم عن كتاب عربي يسمى مؤلفه أبا القاسم طريف بن
طارق (ABULCACIN TARIF ABEN TARIQUE) من شهدوا الفتح (كذا) لأن هوامش
النسخة الإسبانية تحمل عبارات وألفاظاً عربية ، ولكن البحث التاريخي يشكك في أن أبا القاسم هذا
من شهدوا الفتح أو حتى من القدماء ، لأن بعض ألفاظه مثل « مخزن » حديث لم يستعمله أهل المغرب
إلا في زمن متأخر . وقد اعتمد على هذا الكتاب الأخير شاعران كبيران هما :

تكون من اختراع القصاص . ولسنا نحتاج إليها لكي نعلل دخول العرب
الأندلس تعليلاً معقولاً ، فقد كان ذلك الدخول هو الأمر الوحيد المنتظر
في الظروف التي سادت المغرب خلال السنوات التي سبقت الفتح . فقد رأينا
طارقاً يقيم على الزقاق ومعه عدد عظيم من الجند العربي والبربري يتطلع
معظمهم إلى الفتح والجهاد . وكان يليان إلى جوارهم يوجس خيفة منهم ،
فقد كان المسلمون قد حاولوا فتح مملكته سبته ، وكان موسى بن نصير قد
رجع عنه بعد أن أتى « عنده عدة وقوة ونجدة ليست تشبه ما قبلها فلم يقطعهم ،
فرجع عنهم إلى طنجة ، وجعل يبحث ما حوكم بالمغاورة فلم يقطعهم » (١) .
مما ينهم منه أن المسلمين لم يدعوا يليان حادثاً مطمئناً في بلاده ، ومن الطبيعي
أن يلهجاً يليان في مثل هذه الظروف إلى صرفهم عن نفسه ، وكان طارق
كما رأينا قد صافاه بعد ذلك وصادقه (٢) . وكان جند طارق من البربر
يعلمون عن الأندلس شيئاً كثيراً ، ولا بد أن نفوسهم كانت تنازعهم إلى
تغييراته ومغامراته . ومن الطبيعي في مثل هذا الظرف أن تولد فكرة فتح الأندلس .

ويذهب سافيرا إلى أن يليان ذهب للقاء موسى تنفيذاً لمؤامرة دبرها
مع أبناء غيطشة وأنصاره . ولسنا نعرف كيف ذكر سافيرا ذلك في صيغة
التأكيد ، مع أن المراجع جميعاً تختلف حوله اختلافاً شديداً ، ولا يتضح وجه

LOPE DE VEGA في *Posterior Godo de España*.

WASHINGTON IRVING . *Legends of the Conquest of Spain*.

وقد نسب بـدرو دل كورال هذه الأسطورة إلى أحمد بن محمد الرازي المؤرخ .

وانظر عن لفظ فلورندا :

LEMBKE. *Geschichte von Spanien*, I, 256.

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤ - ٥ .

(٢) يقول ابن عبد الحكم في هذا : « وكان يليان يؤدي الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس .

وكان لذريق يسكن طليطلة ، فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهاديا ... »

انظر : فتوح ... ص ٢٠٥ .

بغيطشة وقتله ، وعلى عدم ذكر إيزودور المثلث بأن نصه الذي بين أيدينا مضطرب ، سقطت - أو حذفت - منه عبارات ، وغيرت مواضع عبارات أخرى . ويؤيد رأيه هذا بأن إيزودور يقول في موضع آخر إن لذريق فجأ المملكة المضطربة وحاول أن يستبد بمجلس الشيوخ^(١) ، ومن هنا يكون من الجائز أن نقول إن هذا الحادث المحزن الذي يشير إليه إيزودور إنما هو قتل لذريق لغيطشة ، لأن هذا الحادث روع أنصار غيطشة وفرقهم في البلاد بين قتيل وهارب يطلب النجدة حيث استطاع ، بل ذهب دوزى إلى أن « نبلاء القوط » الذين أشار إليهم إيزودور إنما هم أبناء غيطشة وإخوته ، وأن إيزودور لم يذكره صراحة لأنه كان أمراً مشكوكاً فيه أيام الفتح ، وأنه لم يتضح على وجه الصحة والتحقيق إلا فيما بعد^(٢) .

ويقول سياستيان السلمنتي : « فلما انهزم غيطشة ، أقام القوط لذريق ملكاً ، فلأ الحسد - في الحقيقة - أولاد غيطشة من أن يغصبهم لذريق مملكة أبيهم ، فدبروا أمرهم بمهارة ، وأرسلوا رسلاً إلى إفريقية يرجون العرب المساعدة ، وقدموا لهم سفناً عبروا عليها إلى إسبانيا^(٣) . وهذه عبارة تكمل رواية إيزودور وتفسر غامضها تفسيراً معقولاً ، فلو جمعنا الروايتين معاً لحاز لنا أن نقرر أن الذي حدث هو أن لذريق بعد أن قتل غيطشة تتبع آله وأنصاره

(١) نص عبارة إيزودور :

Rudericus tumultuose regnum hortante senatu invadit

DOZY. *Recherches*, (30^e éd.) I. pp. 65 Sqq.

(٢)

Witizano defuncto, Rudericus a Gothis eligitur in regno. Filii vero (٣)

Witizani, invidia ducti eo quod Rudericus regnum patris eorum acceperat, callide cogitantes, Missos ad Africam mittunt, Saracenos in auxilium petunt, eosque navibus advectos Hispaniam intromittunt.

وفي الفقرة الأخيرة مخالفة لما تتفق عليه الرواية الإسلامية من أن السفن التي عبر عليها المسلمون كانت ليليان .

الحق في هذه المسألة إلا إذا درسنا من جديد العبارات القليلة التي بين أيدينا عن الأحوال في طليطلة خلال الأشهر التي سبقت هذه الأحداث التي نرويها^(١).

يشير إيزودور الباجي في حوادث سنة ٧١٠ إلى «حادث مخزن (suprafata) clades) وقع بطليطلة ، واضطر كثيراً من نبلاء القوط إلى الهجرة من إسبانيا فلتشردوا في كل ناحية^(٢) . ولم يذكر لنا إيزودور ما هو هذا الحادث المحزن ، وذهب دوزى إلى أن إيزودور يشير بذلك إلى قتل لذريق لغيطشة معتمداً في ذلك على عبارة صريحة لابن عذارى تذكر أن لذريق ثار

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 54-55. وسياق رواية سافدرا قصصى في هذا الجزء من تاريخه القيم ، فهو يذكر كيف أن يليان كان رجلاً ماهراً أريباً ، اجتمع فيه عقل البيزنطى وشجاعة الإيراني وثبات الإفريقى ، وأنه رأى أن يبعث إلى طارق وفداً يرأسه رجل من كبراء أتباعه يسمى أخيلداً يسطو لطارق مظلمتهم وصوروا له سوء حالهم بعد الذي أصابهم من لذريق وغدره ، وأن نفس طارق تأثرت بهذا الكلام فبعث الرسل إلى موسى في القيروان ، وأن هذا قدر خطورة المسألة ، فأرسل الرسل إلى دمشق ليسيطلبوا المسألة للخليفة على إوجعها ويقنعوه بضرورة الإذن لموسى في فتح الأندلس ، وأنهم عادوا من دمشق بالإذن المطلوب ، فسارع موسى في تنفيذه ، وأحب أن يستوثق من صدق نية هؤلاء القوم فطلب إليهم أن يسلموه رهائن من لديهم يكونون عنده .

وهذا كله كلام يحتاج إلى إثبات ، أما أخيلداً هذا فقد ورد ذكره في ابن عذارى ، ويذهب سافدرا إلى أن شخصاً يسمى بهذا الاسم قد وجد في هذا الطرف فعلاً ، وأنه كان حاكم طنجة أو كوتها ، وقد ذكره رودريجو خيمينث ونسب إليه نفس البور الذي تنسبه الروايات الإسلامية إلى يليان نفسه .

RODRIGO XIMÉNEZ DE RADA (ARZOBISPO DE TOLEDO). *Historia de rebus hispaniae*, i, iii, cap. 18, 20.

(٢) هذا نص عبارة إيزودور :

Huius temporibus Witiza decrepito iam patre pariter regnat; qui in aera DCCXXXIX suprafatae cladis non ferentes exitium, per Hispaniam e palatio vagitant, quā de causā propriā morte decesso iam patre, florentissime suprafatos per annos Regnum retemptat, atque omnis Hispania, gaudio nimio freta, alacritur lactatur.

بالأذى ففروا يطلبون النجاة ، وكان أبناء غيطشة في مقدمة الفارين ، وسواء أكان هؤلاء الأبناء قد عبروا إلى إفريقية بأنفسهم ليطلبوا عون العرب أم اختفوا في بعض نواحي جنوبي إسبانيا وأرسلوا من أنفسهم رسلا يبسطون للعرب أحوال إسبانيا ويدعونهم لغزوها ويهونون عليهم أمر هذا الغزو ، فإن الحقيقة التي تخلص لنا من هذا كله هي أن أولاد غيطشة وأقرباءه اتصلوا بالمسلمين في إفريقية ودعواهم إلى غزو البلاد ، ووضعوا أنفسهم - بطبيعة الأمر - تحت تصرفهم التسهيل هذا الغزو وتهوينه .

وتؤيدنا المراجع العربية في هذا الرأي . فهي تذهب إلى أن آل غيطشة مالأوا العرب من أول الأمر ، وأنهم دبروا الغدر بلذريق واتفقوا على أن يتخونوه يوم المعركة الفاصلة مع العرب^(١) - وهو ما حدث فعلا - وبهذا ادركوا ثأرهم منه واستعادوا بعض ما ضاع منهم ، لأن العرب - وإن كانوا لم يعيدوا الأمر إلى بيت غيطشة ، إلا أنهم « أمضوا لأبناء غيطشة ضياع أبيهم » وكانت شيئا كثيرا ، وأقاموا نفرا آخر من آل بيت غيطشة في وظائف كبرى كما سنرى .

فإذا كان آل غيطشة هم الذين اتصلوا بالعرب ودعواهم إلى غزو البلاد فما هو الدور الذي قام به يليان ؟ يبدو أنه كان رسول آل غيطشة لدى المسلمين ، لأنه - كما رأينا - كان من أنصار غيطشة وأصحابه ، وقد ساءت له ولأبيه لذريق وتخوف أن يصيبه منها شر ، وكان من صالحه أن يعمل على إزالة ماكهة والتخلص منه . وكان المسلمون جيرانه ، وليس إلى الشك سبيل في أنه فكر في أن توجيه

(١) يجمع المؤرخون المسلمون على ذلك ، انظر على الخصوص :

ابن القوطية : افتتاح الأندلس ص ٣ .

الأخبار المجموعة ، ص ٨ .

فتح الأندلس : ص ٦ - ٧ .

نظرهم نحو الأندلس^(١) يصرفهم عنه ويؤمنه من ناحية جندهم الكثير الذي كان يتجمع عند طارق بن زياد في طنجة ، ولا يستبعد أن يكون أخيرا - حاكم طنجة الذي سبقته الإشارة إليه - كان من مؤيدي يليان في هذا التفكير ، ولا يستبعد أن يكون هو الذي تفاهم معهم ، لأنه كان قد أسلم بالده للمسلمين ودخل في ذمتهم . وكانوا يعتبرونه تابعا من أتباعهم .

وتذكر الروايات العربية أن يليان لم يكن بمخاطبة طارق ١٦ - بدء الفتح في الأمر ، بل تكلف مشقة الذهاب للقاء موسى في القيروان ، لإقناعه بمسألة فتح إسبانيا والتحدث إليه في الخير الذي يعود عليه . إذا سارع رعب إلى الأندلس واغتنم فرصة غياب لذريق مع خيرة جنده في حملة حربية نحو بنيانة أقصى شالي شبه الجزيرة . ويبدو أن خروج لذريق في هذه الحملة هو الذي دعا يليان إلى الذهاب إلى موسى على عجل وإظهاره على الفرصة السانحة ، وربما جاز أن نستنتج من تعجيل يليان بالذهاب إلى موسى أن فكرة الاستنجاد بالمسلمين كانت قد اختتمت في ذهنه وعول على إنفاذها رغبة منه في التخلص من لذريق خصمه وخصم صديقه غيطشة . ويذهب سافدرا إلى أن يليان

(١) يفهم من هذا أن ابن عذارى وصاحب الأخبار المجموعة أصرح من غيرها في هذا الصدد ، فهما يذهبان إلى أن يليان سعى إلى المسلمين بنفسه وحرص على تحريضهم على غزو الأندلس ، بل يذهب الأخير إلى أن يليان « عقد لنفسه ولأصحابه عهدا رضيهم وأطمان إليه » ثم وصف له الأندلس ودعا إليها . وهذه رواية يفهم منها - على إيجازها - ثلاثة أمور :

١ - أن قصة ابنة يليان لم تكن السبب المباشر لدعوة بنيان المسلمين لغزو الأندلس .

٢ - أن يليان سعى لصحبة العرب حتى عقد معهم عهدا أطمان إليه .

٣ - فإذا تم له ذلك دعاهم لفتح الأندلس .

الأخبار المجموعة ، ص ٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤ - ٩ . هذا والتفاصيل التي يوردها ابن عذارى عن يليان كثيرة ذات قيمة ، وقد درجها دوزي في الفصل الذي عقده ليليان في بحثه عن مراجع العرب للأندلس ، انظر « الأبحاث » ، ج ١ .

ذهب تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع أبناء غيطة وأنصاره، وليس لدينا دليل على صحة هذا الفرض إلا عبارة سياستيان المسلمتي التي ذكرناها، وهي عبارة لا تجد ما يؤيدها إلا في كلام ابن القوطية^(١).

رحب موسى بيليان وما عرضه عليه، لأنه كان بطبعه ميالا للفتوح والغزوات، وكان من الطبيعي أن يتشكك في صحة المعلومات التي أدنى بها بيليان إليه، فطلب إليه أن يقوم بسرية في جنوبي الأندلس، وإنما أراد موسى بذلك أن يتأكد من أن بيليان عدو للدريق لا يخشى الإغارة على بلاده، ويرى بعينه رد الفعل الذي يحدثه مثل ذلك العمل^(٢)، وقد قام بيليان فعلا بغارة سريعة عاد بعدها محملا بالغنائم والسبي، فتشجع موسى وقرر العمل.

ولم يكن موسى ليستطيع الشروع في عمل خطير كهذا دون أن يستأذن فيه الخليفة الوليد بن عبد الملك، فكتب إليه يستأذنه، فتردد عبد الملك وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه في أرض مجهولة، فكتب إلى موسى يأمره أن يخبر بلاد الأندلس بسرية صغيرة قبل أن يغامر بجيش كبير^(٣). فانتدب واحداً من كبار أتباعه هو أبو زرعة طريف بن ملوك، ويغلب أنه عربي، ويبدو أنه كان رجلاً قادراً حازماً، لأنه سيقوم فيما بعد بدور خطير في تاريخ المغرب^(٤).

(١) انظر: ابن القوطية: افتتاح، ص ٣.

فتح الأندلس، ص ٤.

(٢) ويقول ابن عبد الحكم: «... فقال طارق (بيليان) لا أطمئن إليك حتى تبعث إلى برهينة، فبعث إليه بابنته - ولم يكن له ولد غيرها - فأقرها طارق بتلمسين، واستوثق منهما، ثم خرج طارق إلى بيليان، وهو بسبقة على المجاز...» - فتوح، ص ٢٠٥.

(٣) ابن عذارى: البيان، ج ٢ ص ٥.

فتح الأندلس، ص ٥.

(٤) يذهب بعض المراجع إلى أن طريف كان من أهل اليمن، وتختلف بعد ذلك، فيزعم بعضها أنه كان من النخع، ويذهب البعض الآخر إلى أنه من مكنافير، ولم نعد نسمع عن طريف هذا بعد-

عبر طريف إلى الأندلس في قوة صغيرة من أربعائة راجل ١٧ - أبوزرعة ومائة فارس، وقد قدم لهم بيليان أربعاً من السفن عبروا بها، طريف يقود بها
استطلاعاً ونزل المسلمون في جزيرة صغيرة تسمى بالوماس (Palomas)

على مقربة من الموضع الذي ستقوم فيه بلدة ستحمل اسم طريف (جزيرة طريف Tarifa) من ذلك الحين، وخفت قوة من أنصار بيليان وأبناء غيطة لعونهم، وقامت بحراسة المعبر حتى تم نزولهم على الأرض الإيبيرية، وكان ذلك في رمضان سنة ٩١ (يوليو سنة ٧١٠ م). ومن ذلك الموضع قام طريف وأصحابه بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل غنموا فيها مغائم كثيرة وسبياً عديداً، وعاد طريف بمن معه، وبعث إلى موسى في القيروان بنصبيه من الغنيمة والسبي، فتشجع موسى وأخذ يستعد لإرسال حملة عظيمة تقوم بالفتح الحقيقي^(١).

ندب موسى لهذا العمل الجليل رجلاً من خيرة جنده، ١٨ - حملة هو طارق بن زياد. ولما نعلم شيئاً موثقاً فيه عن طارق
طارق بن زياد قبل قيامه بقيادة جيش المسلمين في فتح الأندلس^(٢)

= هذه السرية الموفقة التي قام بها مستظلاً أحوال الأندلس المسلمين، ولكنه يظهر مرة أخرى مسرح الحوادث في المغرب، ويلعب دوراً خطيراً في الثورة التي قام بها ميسرة البربري البرغواطي في المغرب الأقصى، والتي كانت أول حركة خارجية قام بها المغرب على المسلمين. ويقول ابن عذارى (٥/٢) إنه بربري.

(١)

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 64.

(٢) يسميه ابن خلدون: طارق بن زياد الليثي. (انظر المقرئ، ج ١ ص ١٤٣) ويذهب بعض المراجع إلى أن طارقاً ربما كان فارسي الأصل، اعتماداً على ما يقوله الرازي: «فدعا (موسى) مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد بن عبد الله فارسي هذاني، وقيل إنه ليس بمولى موسى، وإنما هو رجل من صكف وقيل مولى لهم، وقد كان عسكره بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكاراً شديداً. وقيل إنه بربري من نفزة...» - نقله المقرئ: النسخ، ج ١ ص ١٥٩. انظر: ابن عذارى: البيان، ج ٢ ص ٦.

الأخبار المجموعة، ص ٦.

والترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة قام بها إميليو لافونست إلى ألكانتر، ص ٥، وهو يترجم هذه العبارة: un persa de Hamadan.

CE: LÉVI-PROVENÇAL. Histoire de l'Espagne Musulmane, (1^{re} éd.) I, 14.

ولكن الغالب أنه بربري من نفرة ، ويبدو أن أباه زيادا قد أسلم أيام عقبة وحسن إسلامه ، وخلفه ابنه هذا فدخل في خدمة ولاية المسلمين ، ويبدو أنه كان صغير السن حينما عهد إليه موسى بهذه المهمة الكبرى ، لأننا لم نسمع به قبل ذلك في أي فتح من فتوح موسى على كثرتها وتواترها ، ولو كان قديم عهد بالقيادة لسمعنا عنه قبل ذلك . والغالب أنه كان من المقربين الخالصين لموسى لأنه تخطى غيره من كبار العرب الذين كانوا يقودون الجند في أيامه مثل زُرعة بن أبي مدرك وعياش بن أخيم وطريف بن ملوك والمغيرة بن أبي بردة وغيرهم كثيرون ، وعهد إليه في قيادة أخطر عمل حربي قام به إلى الساعة . ويبدو أن موسى كان عظيم الثقة في أمانته ، لأنه وكل إليه أمر هذه الحملة مع ما كانت تعيد به من المغام ، فأحب موسى أن يعهد فيها إلى رجل ثقة مأمون عنده لا يطمع فيها ولا يتحدث بأمرها على الحقيقة عند العرب والخلفاء .

ومن غريب الأمر أن الجيش الذي أرسله موسى كان بربرياً صرفاً أو يكاد ، وهذه هي أول مرة نسمع فيها أن قائداً إسلامياً عهد في عمل حربي خطير كهذا إلى قائد غير عربي وجند غير عرب في الغالب ، ولكن موسى مع ذلك احتزز للأمر فأرسل مع طارق عدداً من كبار الجند من العرب وموالي الأمويين ، مثل عبد الملك بن أبي عامر المعافري ومغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك وعلقمة الخمي وهو عربي صرف . وكان في الجيش عدد من كبار محاربي البربر ممن سمنمع عنهم كثيراً فينايل ، مثل مونوسة البربري ، ويبدو أن موسى يعتمد أن يختارهم من خيرة جنده لأننا ستراهم يقومون بما عهد إليهم فيه في دقة وقدرة تبعثان على الإعجاب .

وكان الاتفاق قد تم بين موسى ويليان على أن يكون هذا الأخير رأسه ألداء للمسلمين ومعينين لهم في أعمال الحملة ، وتعهد يليان كذلك بأن ينقل المسلمين إلى الأندلس على سفن من عنده ، وكانت سفن يليان التي تصلح لمثل هذا العمل قليلة لا تزيد على أربع ، فلم يكن بد من نقل المسلمين عبر

المضيق على دفعات ، وأن يقيم من يعبر منهم ساكناً في خفية عن أهل الشاطئ حتى يتم جواز الجيش كله .

تم عبور المسلمين في ربيع سنة ٧١١ م ، وتذهب المراجع الإسلامية إلى أن العبور كان في رجب من سنة ٩٢ هـ ، ولكننا لا نعرف الشهر الذي عبروا فيه على وجه التحقيق^(١) ، وتجمع المسلمون عند الجبل الذي سيعرف من ذلك التاريخ بجبل طارق ، واجتهد طارق في أن يحصن هذا الموضع تحصيناً طيباً ليتخذ منه حصناً يحمي به المسلمون إذا حدث ما لم يكن منتظراً^(٢) ، ولم يكدر فرغ من ذلك حتى بعث عبد الملك بن أبي عامر في فرقة مختارة من الجند سارت بجنداء الساحل شمالاً بغرب فاستولت على قرطاية Carteya-Torre de Cartagena ، ثم انحدرت نحو الجنوب واستولت على بلدة الجزيرة الخضراء في مقابل جبل طارق ، وبذلك أصبح مضيق جبل طارق كله في يد المسلمين ، وعهد طارق إلى يليان ومن معه من الجند حراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم منتظر . وأمن المسلمون أن يعبر أحد إلى

(١) تجمع المراجع العربية كلها - بما فيها الطبري - على أن عبور المسلمين كان في ربيع الثاني سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) ، ولو أخذنا بما يقوله الرازي (في ابن عذاري) س أن طارقاً نفسه وصل الأندلس في آخر فوج من أفواج العبور في الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ لكان في إمكاننا أن نستنتج أن المسلمين بدوا العبور في آخر ربيع الثاني (ابن عذاري : البيان ، ج ٢ ، ص ٧) .

ويقول ابن حيان في «المقتبس» (ج ١ ص ١٥٥) أن العبور كان لسبع خلون من ربيع الأول سنة ٩٢ .

ويقود مؤرخي العرب في ذلك الملك ألفونسو الكاستو (الظاهر) في تاريخه ، فيجعل العبور سنة ٦٤٩ بحسابه وهي تعادل سنة ٧١١ بالحساب الجريجوري (España Sagrada, XXXVII, 312). ويجعله إيزودور الباجي في السنة السادسة من خلافة الوليد ، وهي سنة ٩٢ هـ .

(٢) يميل المؤرخون المحدثون إلى القول بأن طارقاً عمد إلى السفن التي عبر عليها فأحرقها لكي يقطع كل أمل لجنوده في العودة إلى إفريقية وليدفعهم إلى الاستبسال في القتال ، ولم يذكر تلك الواقعة من القسما إلا الإدريسي وهو من رجال القرن الثاني عشر الميلادي (كتب جغرافيته سنة ١١٥٤) ولهذا نشك في صحة هذا الخبر ؛ ثم إن طارقاً لم يكن يستطيع إحراق السفن لأنها لم تكن ملكه بل كانت ليليان .

مركزهم الأول عند جبل طارق فيهدد مراكزهم وطريق مواصلاتهم مع إفريقيا^(١).

ولم يكده المسلمون يطمنون في مركزهم هذا حتى هاجمهم جماعة من أنصار لذريق يقودها قائد يسميه ابن عذارى «بنج»^(٢) وتسميه المراجع الإسبانية بَنَشُو وبَنَشُو، فقتلوا عليها من غير كبير مشقة، ولم ينج من جندها إلا واحد يسميه الرازي بِلَسِيَّاسَن (Williesindo-Beliasin) أسرع إلى معسكر لذريق في أقصى الشمال عند بنبلونة وأنبأه بخبر نزول العرب البلاد، فسارع لذريق نحو الجنوب واحتل قرطبة وأخذ يستعد للسير نحو الجنوب للقاء العرب^(٣).

(١)

SAAVEDRA, Estudio ... p. 65.

(٢) كتب ابن عذارى هذا الاسم «بنج» من غير شكل، ونقله الأسقف ردريجو «بنج» (Eneco)، وجعله سافدرا «بَنَشُو» (Bancho)، وورد في تاريخ إسبانيا العام Cronica general de España في صورة إنشيجو (Inego) وفي الترجمة الإسبانية للرازي شَنَجُو (Sancho). وقد خلط ابن قتيبة بينه وبين تدمير، أما بلياسن فلم يرد ذكره إلا عند الرازي وعنه أخذه سافدرا وجعله Wiliesindo.

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ص ١٠ .

Cf.: Cronica del Moro Rasis, apud. SAAVEDRA. Op. cit. p. 149.

وفهرس الأسماء في تاريخ إسبانيا العام .

(٣) كان لذريق قد توجه إلى الشمال في أوائل ربيع ٧١١ لصده هجوم قام به نفر من الفرنجة على بعض نواحي نهر (نفار)، وقد ذهب سافدرا إلى أن هجوم هؤلاء الفرنجة إنما كان بتحريض من بليان وحزب غيطشة، وقد أرادوا بذلك إشغال لذريق في ناحية ثانية تيسيرا للأمر على العرب، وقد اعتمد سافدرا في ذلك على عبارة اللوقا دي توى يقول فيها :

"Julianus callide incitavit Francos ut expugnarent Hispaniam citeriorem ..."

Cf.: LUCAS DE TUY. Cronicon Mundi, L. III. p. 70.

SAAVEDRA. Op. cit. p. 65.

وقال المقرئ إن الذي أنبأ لذريق نبأ العرب هو تدمير، وكان بليان قد استخلفه على الأندلس، وليس لدينا ما يثبت ذلك.

انظر : النفع ، ج ١ ص ١٤٩ .

ويبدو أن نية طارق كانت السير مباشرة إلى قرطبة عاصمة إقليم بيطلي (بيتيس)، لأنه سار بجذاء الساحل حتى أدرك جزيرة طريف، ومن ثم اتجه إلى الشمال في سهل قليل الارتفاع، ومر بين جبلي سيليا دل بابا وسييرا دل رتين واقترب من بحيرة الخنادق (لاخاندا) الواسعة التي تحصر بينهما وبين سييرا دل رتين سهلا متسعا بعض الاتساع حصينا، لأن البحيرة تحميها من ناحية والجبل من ناحية أخرى، واستمر حتى أدرك نهر البرباط الذي يخترق بحيرة لاخاندا، وكانت بهذا الموضع في هذه الأيام بليدة صغيرة زالت الآن ويسمىها العرب بكَّه، ولهذا سموها هذا النهر وادى بكه، وحرفه بعضهم إلى لكَّه أو وادى لكَّه. وقد أساء الراوية الإسباني رودريجو درادا نقل هذا اللفظ فنقله ليته ورادى ليته، ومن هنا نشأت هذه التسمية الخاطئة التي سيقع فيها كل المؤرخين الإسبان بعده، فسموا هذا الموضع الذي دارت عنده المعركة الحاسمة بين العرب والإسبان جواداليت (Guadalete)^(١).

وهنا عرف طارق عن سبيل عيونه أن لذريق سائر إليه في جنده .

(١) هذا هو رأى سافدرا في أصل هذا اللفظ وصوره المختلفة التي ورد بها في النصوص، وقد ذكر جايانجوس في تعليقاته على ترجمة نفع الطيب أن هذا النهر كان يسمى عند القدماء Chrysos، وأورد كذلك صيغا أخرى لاسم هذا النهر هي : وادى لد، وادى لكَّه : عند ابن الخطيب

Vadilac, Vadileke, Wadalak عند لذريق الطليطلي (Rodericus Toletanus)

Gaudalede عند كوند

Leke في الصورة الإسبانية للرازي .

ثم أتبع ذلك برأى طريف، وهو أنه وجد عند فلورث في الجزء التاسع من España Sagrada ص ٥٣ تفسيرا للفظ جواداليت ملخصه أن العرب سموها نهر كريسوس بهذا الاسم ومعناه « وادى السرور » بسبب ما أصابوا من السرور والراحة عنده، ثم استنتج من ذلك أن العرب لا بد قد سمو هذا النهر وادى اللذة أو وادى لذة، فكان هذا هو أصل هذه الصور كلها .

Cf.: GAYANGOS. The Hist. of the Moh. Dyn. in Spain, I. p. 524.

SAAVEDRA. Op. cit. p. 68-69.

وقد قرأ بروفنسال الاسم وادى لكَّه وقال إن هذا اللفظ تحريف للفظ Lago-Lacus البحيرة، والمتصور هنا بحيرة الخندق (Lajanda). وهذا التفسير هو أقرب التفسير إلى الصحة .

وأنه وصل إلى قرطبة واستقر بها قليلاً ، ثم تقدم جنوبيها وضرب معسكره عند شذونة (Medinasidonia) واستعد للموقعة في سهل البرباط على مقربة من قرية (Casas Viejas) الحالية . وتقدر المراجع جيشه بمائة ألف ، وربما كان في هذا التقدير مبالغة . ولكن الذي لا شك فيه أن عدة جيشه كانت تزيد على عدة جيش المسلمين أضعافاً كثيرة . وأن عدد الفرسان فيه كان عظيماً .

ورأى طارق أن العدد الذي معه لا يكاد يكفي للقاء جيش ضخم كجيش لذريق : فبعث يطلب المدد من موسى ، فمجل موسى بإرسال خمسة آلاف من خيرة جنده يقودهم طريف بن ملوك وفيهم عدد عظيم من العرب ، فأدركوا طارقاً قبيل اللحظة الحاسمة ، وقويت بهم نفسه ونفوس من معه . والغالب أن جزءاً عظيماً من هذا المدد كان من الفرسان ، لأن المراجع تحدثنا أن قوة طارق الأولى كانت كلها من الرجالة . في حين أننا سنرى للمسلمين قوة يسيرة من الخيل في المعركة الحاسمة (١) .

ويبدو أن سير المسلمين الموفق في البلاد إلى هذه اللحظة قد أنعش الآمال في أنفس أعداء لذريق ، فانضم منهم إلى المسلمين نفر عظيم أعانواهم بالقوة والرأى (٢) : وتسامع بذلك نفر من جند لذريق الغاضبين عليه فبدأت نفوسهم

(١) يذهب سافدرا - اعتماداً على المراجع النصرانية - أن عدة جيش طارق بلغت قبل المعركة ٢٥ ألفاً بسبب من انضم إليهم من النصارى من أنصار غيطشة وأعداء لذريق ومن أهل البلاد . فإذا كانت عدة من مع طارق من المسلمين اثني عشر ألفاً ، فإن عدة من انضم إليهم من النصارى كانت ثلاثة عشر ألفاً ، أي أكثر من الجيش نفسه . وهذا أمر مستبعد ، بيد أن هذا لا يمنعنا من القول بأن بضعة آلاف من النصارى من القوط وأهل البلاد انضموا إلى الجيش الإسلامي .

Cf.: *Cronicón Silense*, no. 16.

RODRIGO XIMÉNEZ Arzobispo de Toledo (i.iii, c. 20)

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ص ١١ .

الرازى في المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ١٦٢ .

ويفهم من رواية المقرئ أن الذي دبر الخيافة لم يكن أبناء غيطشة وأخويه فقط ، وإنما نفرا كبيراً من القوط كانوا غضاباً على لذريق .

تحدثهم بتخونته وتركه لمصيره إذا اشتبك مع المسلمين في القتال ، ويقال إن ششبرت وأبنته أخوى غيطشة كانا على رأس هذا الفريق الذي عول على الخيانة . وأمهما انتظرا اللحظة المواتية ليتدخلا عن لذريق : ويتركاه يلقي جزاءه على ما فعل بغيطشة (١) .

ويبدو أن لذريق كان يشعر بما يدور حوله ، وكان يدرك أن نفراً من جنده يدبر الخيانة ، فأحب - قبل أن يلقي المسلمين - أن يتعرف ما لديهم من القوة . فبعث طليعة من فرسانه لتناوشهم ، فلم يكذب المسلمون يرونها حتى انقضوا عليها . انقضاضاً فوكت هاربة . وأنبأت لذريق بحال العرب وما هم عليه من الحسنة والتشوق للقتال ، فكاد يسقط في يديه (٢) .

وبدأ اللقضاء بين الجانبين يوم الأحد الثامن والعشرين من ١٩ - معركة رمضان سنة ٩٢ هـ (٣) (التاسع عشر من يوليو سنة ٧١١) وادي البرباط ، ١٩ على وادي برباط على مقربة من شذونة ، واستمرت المعركة يوليو سنة ٧١١ طول ذلك اليوم وحمى وطيسها في اليوم التالي ، وأظهر البربر الذين أتى بهم بليان قدرة عظيمة على القتال ، فقد كان انتقاها من خيار غماره وأحسن تدريبهم على الأسلوب البيزنطي . وكان طارق قد قدم نفراً من السودان بين يدي جيشه . ليتلقوا بما عرف عنهم من الصبر والثبات دفعة الجيش القوطي الأولى (٤) . وأظهر فرسان القوط قدرة عظيمة في أوائل المعركة ،

(١) انظر : ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٣ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٨ .

الأخبار المجموعة ، ص ٦ .

(٢) الرازي : برواية المقرئ - نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٣) الرازي : برواية المقرئ - نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٤) لم يذكر هؤلاء السود من المؤرخين المحدثين إلا سافدرا ، مع أنهم قاموا بدور خطير جداً في الفتح ، وسيكون لهم دور حاسم فيما وقع بين العرب بعد ذلك من الحروب في الأندلس ، وسننبه إلى ذلك في حينه .

وثبتوا لضغط العرب والبربر والسودان ، وكان قواد الفرسان من أعداء لذرير الغاضبين عليه ، ويبدو أن يليان ورجاله كانوا نشيطين طوال المعركة ، يخذلون الناس عن لذرير ويصرفونهم عنه ، مؤكدين لهم أن العرب لم يقبلوا إلى هذه البلاد للفتح والاستقرار ، بل للقضاء على لذرير والظفر بالغنيمة ، وأنهم إن خلدوا لذرير اليوم صفت لهم الأندلس بعد ذلك . ولم يلبث أثر هذا الكلام أن ظهر بين جنود لذرير - وكان كثير منهم كارهاً له ناقماً عليه - فلم يلبث فرسانه - وهم خيرة جنده - أن خرجوا من المعركة وتركوه لمصيره^(١) . وكان ذلك كافياً ليقوع التوضي في جيش لذرير : فاضطرب نظامه ولاذ من بقي منه بالفرار وأسيف المسلمين في أفضيتهم . وقد قتل من القوط في ذلك اليوم عدد عظيم . ولم يعثر لذرير على أثر ، وتذهب المراجع العربية إلى أنه أراد أن يعبر البرباط على عجل ففرق فيه ولم يعثر المسلمون إلا على خفيه^(٢) . ولكنه لم يمت في هذه المعركة كما سئى ، وسبقوهم بالمرور خطير فيها بعد . وقتل فيها أيضاً ششبرت ، وكان ممن تخلى عن لذرير طمعاً في الغنيمة والسلامة ! وأصاب المسلمون من هذه الواقعة غنائم لا تكاد تخصي ،

(١) تجمع المراجع العربية على ذلك ، وتؤكد أن خيانة لذرير وسط المعركة إنما وقعت بناء على تدبير سابق بحكم بين آل غيطشة والعرب . وقد ناقش سافدرا هذا الموضوع ، وانتهى إلى أن الذي قام بترتيب المؤامرة كانا أخوي غيطشة وهما أبه ، وششبرت ، وكان أحدهما على خيل لذرير في هذه المعركة . وقد تعجب سافدرا من أن لذرير يعهد في أمر هام كهذا لواحد من أعدائه ، ولكن فاته أن بعض المراجع العربية تذكر أن لذرير سمى في الصلح مع آل غيطشة قبل المعركة الحاممة ، وهذا واضح من قول ابن القوطية : « فلما دخل طارق بن زياد الأندلس أيام الوليد بن عبد الملك ، كتب لذرير إلى أولاد الملك غيطشة - وقد ترعرعوا وركبوا الخيل - يدعهم إلى مناصرتهم وأن تكون أيديهم واحدة على عيهم ... » .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢ - ٣ .

(٢) لا يقطع ابن عذارى بموت لذرير ، ويكتفى بقوله : « ولم يعرف لذرير موضع ولا وجدت له جثة ، وإنما وجد له خف مقضض ، فقالوا إنه غرق ، وقالوا إنه قتل . والله أعلم » .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

ولعل أكثر ما يهمننا منها هي الخيل ، فقد غنم المسلمون خيلاً كثيرة حتى لم يبق منهم راجل . وقد قتل من المسلمين ثلاثة آلاف ، وبقي منهم تسعة آلاف زادهم النصر حماسة ، فأسرع بهم طارق نحو قرطبة تقدمهم هذه الشرذمة الباسلة من السود التي أبلت في هذه المعركة بلاء طيباً^(١) .

ولم يكد خبر هذا الانتصار يصل إفريقية « حتى أقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقيشر ، فلحقوا بطارق » ففاض سيل البربر على الأندلس ، وأخذوا يستقرون في النواحي المفتوحة . وتضخم جيش المسلمين إلى حد يصعب معه تقديره بعد هذه الراقعة ، وأسلم الآراء هو أن نقول إن جيش المسلمين تضخم تضخماً عظيماً . ورأى طارق أنه لن يستطيع السير بهذا الجحفل اللجب دفعة واحدة ، قال إلى تفريقهم في بعوث صغيرة يبعثها إلى النواحي .

وأعقب هذا الانتصار اضطراب في شئون الأندلس كلها ، « وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجلال » كما يقول الرازي^(٢) . وحسب حزب غيطشة أن الفرصة قد سحنت لإعلان واحد منهم ملكاً مكان الطاغية المهزوم^(٣) ، وفعلوا بذلك

(١) فتح الأندلس ، ص ٧ .

الرازي ، برواية المقرئ - نفح الطيب ، ج ١ ص ١٦٣ . وهو يقول إن طارقاً قسم الغنائم على ٩٠٠٠ من المسلمين ، أي أن هؤلاء هم الذين سلموا وقتل الباقون .

(٢) رواه المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٣) يقول رديجو الطليطلي :

... et rex Rodericus, cum esset magnanimus, antequam fugeret, permetteret se occidi, et eo mortuo, posset eis regnum perditum provenire ...

RODERICUS TOLETANUS. *De Rebus Hispaniae*, Lib. III cap. 20

Cf.: SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 76.

والرازي إشارة هامة تؤيد هذا الرأي . قال إن يليان قال لطارق : « قد فضضت جيوش القوم -

وقيلة (أخيلا) جهداً كبيراً لكي يستصدر من مجلس طليطلة قراراً باعتباره ملكاً ، ولكن الأمر لم يستقر له لأن الشائعات كانت تملأ الجو بأن لذريق لم يقتل . وعمل هؤلاء الغيطيشيون من جهة أخرى على تشجيع طارق على الاستمرار في الفتح حتى يتم لهم الانتصار الخقق . وأما يليان فقد ثبت بقواته في ناحية الجزيرة الخضراء^(١) .

ولو عمل طارق بأمر موسى لكان من الواجب أن يعود إلى إفريقية بعد هذا النصر كما عاد عبد الله بن أبي سرح إلى مصر بعد نصر سبيطلة ، ولكن طارقاً كان أبعد نظراً من عبد الله بن أبي سرح ، ووجد أن الأبواب قد فتحت أمامه فلا معنى لتركها والعودة إلى إفريقية ، فضى مسرعاً نحو استجة ليعبر شليل من مخاضتها في طريقه إلى قرطبة ، ويبدو أن عدداً عظيماً من بقايا جيش لذريق كان قد تحصن فيها لأن طارقاً لقي فيها مقاومة عنيفة ، واحتاج إلى عون يليان الذي خف إليه مسرعاً . ويبدو أنه استبان كثرة من مع طارق وصعوبة الاستفادة منهم جميعاً في حملة واحدة ، فنصح به بأن يفرق جنده في بعوث جانبية . فقال له : « قد فتحت الأندلس ، فخذ من أصحابي أدلاء ففرق معهم جيوشك وسر معهم إلى مدينة طليطلة » . ففرق جيوشه من استجة^(٢) .

ولم يلبث حاكم البلد أن أسلمه صالحاً ودخل في طاعة المسلمين^(٣) ،

= ورعوا ، فاصد ليضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة ، ففرق جيوشك معهم في جهات البلاد ، واعد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولى رأيهم .
ما يدل على أن كبار القوط كانوا يدبرون شيئاً في عاصمتهم ، وأن يليان نصح طارقاً بالإسراع إلى طليطلة رأساً ليتدارك الأمر .

انظر : المقرئ - فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٣) فتح الأندلس ، ص ٨ .

وانفتح أمامهم طريق قرطبة وطليطلة . ولو قائد غير طارق لاتجه نحو قرطبة وأنفق وقتاً طويلاً في الاستيلاء عليها ، ولكنه كان قد علم بعض ما كان يدور إذ ذاك في طليطلة ، وعرف أن الظروف لا تسمح بانفاق الوقت في الحصول على مدائن جنوبي الجزيرة كقرطبة وغرناطة ومالقة ، فعجل بارسال مغيب الرومي في قوة كبيرة إلى قرطبة ليشغل من فيها عن قطع طريق عودته ، ثم مضى بمعظم جيشه مسرعاً نحو طليطلة ليصل إليها قبل أن يحكم أنصار لذريق الدفاع عنها ، وقبل أن يدبر أنصار غيطشة أمراً لا يكون في صالح المسلمين .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن طارقاً أرسل في هذا الوقت حملة فتحت جنوب شرق الأندلس وكبار مدائنه مثل مالقة وغرناطة وأوريولة ، ولكن ذلك غير صحيح ، لأن المسلمين لن يفتحوا هذه النواحي إلا في ولاية عبد العزيز ابن موسى ، ولا يستبعد أن يكون قد بعث سرايا صغيرة إلى هذه النواحي وغيرها لجرد الاستطلاع لا للفتح . وكان الجند عنده قد كثروا ففرق أعداداً منهم مع جماعات من رجال يليان يدلونهم على الطريق ، وربما كان يليان صاحب هذه الفكرة^(١) .

وكان جيش المسلمين يزداد عدة في الطريق بمن كان ينضم إليه من الغاضبين على الذريق وعهده ، وانضم إليه كذلك عدد من اليهود الذين استقبلوا أخبار انتصار المسلمين على القوط استقبال الظمان للماء^(٢) ، فقد كان حالهم معهم كما رأينا سيئاً جداً ، ولا نزاع في أن طارقاً أؤد فائدة كبيرة من هذه الجماعات من الإيبيريين واليهود التي انضمت إليه ، فقد وجد فيهم الأدلاء الذين يقودونه في هذه الأباطح القسيحة التي لم يكن المسلمون يعرفون عنها شيئاً ، وهكذا أسعد المسلمون بأكثر مما كانوا ينتظرون ، وسار هذا

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٠ .

المقرئ : فتح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

القائد المجرد طارق يقود هذه الجماعات من العرب والبربر والموالي والسود والإيبيريين واليهود قاصداً طليطلة عاصمة القوط .

٢٠ - احتلال طليطلة
عبر طارق الوادي الكبير عند منسجبار (Manjibar) وسار في الطريق القديم الذي كان يعرف في عهد الرومان باسم طريق هانيبال^(١)، ودخل طليطلة من غير مقاومة تذكر ، واستولى على الكنوز الزاخرة التي وجدها في قصور القوط وفي كنيسة طليطلة الكبيرة بوجه خاص ، ولم يسبب المؤرخون المسلمون في شيء مما وقع للمسلمين في فتحهم كلها مثلما أسهبوا في صفة المذبح المحلى بالجواهر الذي اغتنمه المسلمون في هذه الكنيسة الجامعة ، فقد سموه مائدة سليمان بن داود ، وذهبوا إلى أن هذه المائدة كانت من زبرجد خالص ، ومن المحقق أن هذا المذبح كان درة من درر الفن ، محلى بأتم ما لدى القوط من الذهب والجواهر ، وأن وقوعه في يد المسلمين أثار بينهم دهشة كبرى^(٢) .

(١) يذكر المقرئ أن طارقاً سار إلى طليطلة في الطريق المار بجيستان ، وهذا يأذن لنا في القول بأنه اتبع طريق هانيبال الروماني ، لأنه كان طريقاً معموماً إذ ذاك ، وفيه تمر الآن سكة حديد الأندلس .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

Cf.: SAAVEDRA. Op. cit. 79.

(٢) يذهب معظم المؤرخين المسلمين إلى أن طارقاً غنم هذه التحفة الثمينة في «مدينة المائدة» ، وهذه المدينة هي في الغالب قلعة هنارس (Acala de Henares) . وهي بالطبع ليست مائدة سليمان بن داود عليه السلام (إن كانت لسليمان مائدة) ، وهي ليست كذلك بمائدة أصلاً ، إذ لا يعقل أن يتم القوط بصناعة «مائدة» بهذه الفخامة، ولكن الغالب أنها مذبح الكنيسة الجامعة في طليطلة ، إذ لم تكن في قلعة هنارس إذ ذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود هذا المذبح الفخم بها . ويفهم ذلك من عبارة صريحة لابن حيان يقول فيها : «وهذه المائدة المنو عنها المنسوبة إلى سليمان النبي عليه السلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسية منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس ، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال ، صاغوا منه الآلات الفضة من الموائد والكراسي وأشياها من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيام المناسك ، ويصفونها على المذابيح في الأعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت -

وقد وجد المسلمون المدينة شبه خالية لأن أهلها انتشروا عنها طالبين الحرب حينما علموا بمقدمهم ، حتى أسقف البلد سنندرد وكبار ساوسة الجمع الطليطلي فضلوا ترك البلد ينحى من بناه وتوجهوا إلى روما . ولم يشغل طارق بالغنائم والذخائر وإنما مضى قدماً حتى أدرك وادي الحجارة ، واستمر صاعداً حتى أدرك بلدية تسميها المراجع العربية «المائدة» على مقربة من قاعة هنارس^(١) ، وكان الصيف قد انقضى وأقبل أكتوبر ومعه برد الخريف ، ففضل طارق وأصحابه العودة لكي يقضوا الشتاء في طليطلة ، وكانت الغنائم قد أثقلت العسكر إلى حد عظيم . ويستبعد أن يكون طارق قد سار إلى أمايا (Amaya) واشترقة (Astorga) في ذلك الحين كما يزعم بعض المؤرخين^(٢) ،

= تلك المائدة بطليطلة بما صيغ في هذه السبيل... وبقيّة العبارة تدل صراحة على أن تلك المائدة إنما كانت لمذبح كنيسة طليطلة .

ولسنا نعلم كيف وجده المسلمون في قلعة هنارس ، اللهم إلا إذا افترضنا أن قساوسة طليطلة حاولوا الفرار به لفخامته ولقداسه ، ولم يستطيعوا التقدم به أكثر من ذلك الموضع ، وذلك فرض يؤيده أن المؤرخين لا يحدوثونا بغنيمة كبيرة من تصور ملوك القوط في طليطلة ، بما يفهم منه أن رجال القصور قد حلوا معهم أحسن طرفها حينما أغلواها لاقترب المسلمين .

ووصف هذه المائدة لا يمكننا على أي حال من تصور هيئتها تصوراً صحيحاً ، إذ أن ابن عبد الحكم وصاحب الأخبار المجموعة وابن عذاري والمقرئ وصاحب فتح الأندلس يتفقون في وصفها اتفاقاً حقيقياً ، فهي عندهم «كانت من زبرجدة خضراء ، حافاتها وأرجلها منها» ، والغالب أنهم يريدون أنها كانت محلاة بالزبرجد الأخضر . أما عن حجمها فإن صاحب الأخبار المجموعة يوقننا في حيرة شديدة ، لأنه يقول تارة : «ولها ثلثائة رجل وخمسة وسبعون رجلاً» ! ويقول تارة أخرى : «... وعمل لها سفط من خوص فأدخلها فيه» .

انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٧ ، ١٩ .

ابن عذاري : البيان ، ص ١٤ .

ابن حيان برواية المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

فتح الأندلس : ، ص ٩ .

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 79-80.

(١)

(٢) انظر : ابن حيان عند المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

لأن الشتاء كان قد اقترب . وكان الإجهاد قد نال من المسلمين وثقلوا بالغنائم . والأرجح أنه قام بحملاته نحو هذين البلدين القاصيين بعد ذلك بزمان ليس بالقصير .

٢١ - فتح قرطبة
وأما مغيث الرومي ومن معه من الرجال - ولم يكن عددهم كبيراً - ففتح قرطبة - فقد أخذوا يقتربون من قرطبة حتى أدركوا الضفة اليسرى من الوادى الكبير مقابل قرطبة ، وكانت القنطرة التى تصل الشاطئين مؤهلة فى ذلك الحين ، فاضطر المسلمون إلى الانتظار حتى تسنح الفرصة المناسبة للعبور . ولشوا حينئذ مترصدين مختبئين فى غابة بين قريقتي شقندة (Secunda) وطرسيل (١) على الضفة اليسرى للوادي الكبير ، وأخذوا من مخبئهم هذا يستطلعون أخبار البلد قبل أن يعبروا النهر إليه ويهاجموه . وكان أهل قرطبة كارهين لأمر القوط عامة وللذريق خاصة لأن القوط كانوا يختصمون أنفسهم بالجزء الغربى من البلد . وتركوا جزءه الشرقى للأهلين . كما كان الرومان قبلهم يفعلون (٢) . وأقاموا سوراً بينهم وبين الأهلين حتى لا يقرب هؤلاء مساكنهم كأنهم منبوذون ، وكان البلد حصيناً يدور عليه سور من الحجر المضخم . ولكن الظاهر أنه كان متداعياً فى بعض أجزائه لأن العرب سينفذون من ثغرات فيه . وكان من حسن حظ العرب أن الجزء الذى كان يقابل القنطرة هو الجزء الذى كان الأهلون من الإيبيريين الرومان يسكنونه ، وفيه الكنيسة الجامعة (الكاتدرائية) التى استصحب جامع قرطبة الكبير فيما بعد . ولم يصحب على المسلمين الاتصال بنفر من الأهلين واستطلاع أخبار البلد منهم ، وجمعونه هؤلاء استطاعوا عبور الوادى الكبير فى ليلة غزيرة المطر من ليلى أغسطس (٣) ، عبروا فى مواجهة باب القنطرة أو باب الصورة .

(١) يسمى هذا الموضع اليوم El Campo de la Verdad . أما عن طرسيل فانظر تعليق سافدرا فى كتابه المذكور آنفاً ، ص ٨١ ، هامش ٢ .

(٢) SAAVEDRA. Op. cit. p. 82.

(٣) يقول الرازى : «وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً، وقد أغفل حرس =

نسبة إلى تمثال أسد كان قائماً على مقربة من السور وظل قائماً أيام المسلمين ، وجعل مغيث وأصحابه يدورون حول السور يلتمسون ثغرة فيه يدخلون منها .

ولم يكن من العسير على المسلمين أن ينفذوا إلى داخل البلدة من هذه الناحية ، إما من ثغرة دلم عليها واحد من أهل البلد أو بتسلى السور . ولم يكذب نفر من المسلمين يجتمع داخل البلد حتى اندفعوا إلى الباب ففتحوه ليدخل بقية إخوانهم (١) ، وحدثت فى البلد هيجة أفاق على أثرها حامية البلد من القوط ولم يكن عددها يزيد على ٤٠٠ فارس ، وكانت مقيمة مع الحاكم فى الجزء الغربى الذى سيعرف أيام المسلمين بالمدينة أو القصبه (يسمى اليوم لاقيليا = المدينة) ، وكان الحاكم مقياً وحده فى قصر منيف من الضاحية التى ستعرف أيام المسلمين بربض الوراقين . فأسرع إلى حاميته ، ولم يمهله العرب أن فاجأوه ، ففر بجنده إلى كنيسة قريبة تسمى كنيسة القديس أنيسكلو (San Acisclo) (٢) وتحصن فيها ، وأقام المسلمون حولها محاصرين إياها . واستمر الحصار قرابة الثلاثة أشهر ، حتى استطاع المسلمون قطع الماء عن المحصورين ، وكان يجرى إلى الكنيسة فى مجرى تحت الأرض ، فلم يفتن إليه المسلمون ، حتى اكتشفه رجل من السود ممن كانوا مع المسلمين (٣) . وقد

= المدينة احتراق السور، فلم يظهرها عليه، ضيقاً بالذى نالهم من المطر والبرد، فرجل القوم حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً ... » .

المقرى : نفح الطيب : ج ١ ، ص ١٦٤ .

(١) الرازى برواية المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(٢) يسمى صاحب الأخبار المجموعة هذه الكنيسة شنت أجليح ، وقد ورد فى تقويم قرطبة لعريب الذى نشره دوزى أن هذه الكنيسة هى سان أنيسكلو بالمعجمة .

انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٢ وهامش ١ من ص ٢٥ من الترجمة الإسبانية .

وانظر كذلك : سافدرا ، المصدر المشار إليه ، ص ٨٥ ، هامش ١ .

(٣) راجع أخبار ما وقع لهذا الأسود على يد الإسبان والقوط ، فقد وقع فى يدهم وحسبوه مصبوغاً فحاولوا إزالة لونه بالغسل والحك حتى أعتوه ! ثم تركوه يمضى غير مقدرين أنه عين عليهم ، =

صبر هؤلاء المحصورون صبراً طويلاً رغم قطع الماء عنهم ، ولم يستسلموا إلا بعد أن جهدوا جهداً عظيماً ، وبذهب الرازي إلى أن مغيثاً أوقد النيران في الكنيسة حتى ماتوا حرقاً . ونحن نستبعد ذلك ، لأن الكنيسة ظلت بعد ذلك في أيام المسلمين زمناً طويلاً وليس فيها للنار أثر^(١) . وأراد قائد المحصورين الهرب ، فخرج يشتد على جواده ، فتبعه مغيث وحده ، وخرج الرجل من البلد وأفضى إلى ضاحية قطايبة وكاد ينجو ، لولا أن عثره جواده ، فجلس على ترسه مستأسراً حتى أدركه مغيث وأسره ، وكان هو القائد الوحيد الذي أخذ أسيراً من كبار قواد القوط ، وقد سلمه مغيث لطارق ، واحتفظ به هذا لينذهب به إلى الخليفة ، ونازعه فيه موسى بن نصير فيما بعد ، فلما اشتد النزاع بينهما عليه أخرج مغيث سيفه وقتله .

أما بقية الحامية فقد قتلت عن آخرها عند باب الكنيسة التي اعتصمت فيها ، فسميت هذه الكنيسة من ذلك الحين كنيسة الأسرى . واحتل مغيث قصر الحاكم القوطي^(٢) ، الذي سيصبح فيما بعد مقام الأمراء والخلفاء ، بعد أن يعدل وتضاف إليه أجزاء كثيرة . وقد ترك المسلمون كنيسة الأسرى لنصارى قرطبة فظلت أكبر كنائسهم في عاصمة الأندلس الإسلامية طالما بقيت المدينة في حوزة الإسلام ، ثم عهد إلى اليهود فجعلهم بعض حرس المدينة ، « استئانة إليهم دون النصارى للعداوة بينهم » ، كما يقول الرازي^(٣) .

= فلما مضى إلى المسلمين أظهرهم على مجرى الماء . ولما نعرف إن كنا نقبل هذه القصة أو لا نقبلها ، لأننا لا نكاد نصدق أن الإسبان لم يكونوا قد رأوا أسود حتى الساعة .

الرازي - في المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

(١) الرازي ، نفس المصدر والصفحة .

(٢) في هذا يقول صاحب الأخبار المجموعة : « ودخل مغيث بلاط قرطبة فاخطفه » .

وبالبلط هو القصر ، عن palatium اللاتينية كما هو معروف .

انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٢ .

(٣) الرازي ، في المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

وقد لاحظنا أن المسلمين كانوا لا يفتحون في الأندلس بلداً إلا جعلوا بعض حرسه وحاميته من يهوده ، ولا يعلى هذا إلا بأن اليهود قد وقفوا إلى جانب المسلمين وأعانوهم من أول الفتح في كل مرحلة من مراحلها . وهذا أمر طبيعي ، لأن اليهود كانوا يقاسون على يد القوط بلاء شديداً . فلم يكادوا يرون المسلمين مقبلين حتى انضموا إليهم وآزروهم ، فجزاهم المسلمون بذلك . وللرازي في هذا عبارة تستحق التسجيل لا لأهميتها للفتح وحده ، بل للتاريخ الأندلسي عامة : « وصار ذلك لهم سنة متبعة في كل بلد يفتحونه : أن يضموا يهوده إلى القصة مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضى معظم الناس لغيرها ، وإذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح »^(١) .

وهنا ، وبعد أن فتح المسلمون عاصمة البلاد وكسروا قوات لذريق وقضوا على كل أمل له أو لأنصاره في العودة إلى الحكم ، تقدم أبناء غيطشة إلى طارق يطلبون إليه الوفاء بما وعدهم من الكرامة وحسن الجزاء . ويبدو أنهم كانوا يؤملون أن ينسحب طارق وجند المسلمين معه من البلاد مكتفين بما أصابوا من الغنيمة ، فيعود آل غيطشة إلى ما كانوا فيه من الملك والسلطان ، فلما خيب طارق رجاءهم وأظهر أنه أقبل إلى البلاد للفتح الثابت ونشر الإسلام سقط في أيديهم ، ووجدوا أن لا مندوحة لهم عن القناعة بما يمنحهم المسلمون إياه . ووجد طارق أنهم لا يستحقون أكثر من ضياع أبيهم . وهي كثيرة ، فأمضاها لهم . ويبدو أنهم استقلوها وطعموا في المزيد ، ولم يستطع طارق إجابتهم إلى ما سألوا ، فاستأذنوه في المسير إلى موسى بن نصير في إفريقية ، وسألوه الكتابة إليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهد ففعل . فلما بلغوا موسى أقر طارقاً على ما فعل ، بعد أن قرأ كتابهم واستوثق من صدق معاونتهم للمسلمين ، ويبدو أنهم ألخوا على موسى في الزيادة ، لأنه - على قول الرازي - أحاطهم على الخليفة نفسه^(٢) فأقر عهد موسى وطارق . وليس لدينا ما يؤيد

(١) الرازي ، عند المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

(٢) الرازي ، برواية المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

ذهابهم إلى دمشق ، ونحن أميل إلى القول بأن موسى بعث إلى الوليد بالمسألة كلها ، فلم يفعل أكثر من أن أقر عهد أميريه ، وعاد الأمراء آخر الأمر إلى الأندلس قانعين بما أصابوا ، ولم يكن شيئاً قليلاً ، إذ أعطاهم المسلمون ثلاثة آلاف ضيعة — هي بعض ما كان لأبيهم الملك غيطشة — فأصاب كل منهم ألفاً : أخذ ألمند ألف ضيعة في الغرب واستقر في إشبيلية ، وأخذ أرتباس ألفاً في وسط الأندلس واستقر في قرطبة ، وأصاب أخيل (وقلة) ألفاً في شرق الأندلس وفضل الإقامة في طليطلة في ظلال المسلمين ، وبهذا كان الفتح الإسلامي خيراً عظيماً عليهم وعلى بيتهم المهضوم .

وتذهب الرواية الإسلامية إلى أن موسى بن نصير لم يكده عبور ٢٢ - يسمع بأخبار ما وفق إليه مولاه طارق من الفتح حتى أكل قلبه الحسد ، وقرر أن يذهب إلى الأندلس بنفسه ليعاقبه ويفتح بنفسه فتوحاً أعظم من فتوحه . وعلى الرغم من أن موسى لم يكن بعيداً عن الغرور والحسد والطمع ، فإننا نستبعد أن يكون هذا الشعور أو ما يماثله هو الذي دفعه إلى العبور إلى الأندلس ، ثم إن طارقاً كان بطبعه رجلاً متواضعاً قديراً ، وكان قد فتح هذه الفتوح كلها باسم مولاه وأميره . وكان يوقفه على الأخبار أولاً بأول . فقد كان المسلمون قد استوثقوا لأنفسهم من ميناء جبل طارق والجزيرة الخضراء ، وكانت السفن رائحة غادية ، ولا يعقل أن يكون موسى قد ظل جاهلاً بما يفعله طارق حتى وصل هذا إلى طليطلة وما وراءها ، وقد رأينا طارقاً يبعث أبناء غيطشة إلى موسى يستشيريه في أمرهم . وإنما المعقول أن يكون موسى قد شعر بأن المسلمين قد استرسلوا أكثر مما ينبغي ، وأن خطوط مواصلاتهم في شبه الجزيرة الواسعة في خطر ، فقد بقيت مدائن الشرق والغرب جميعاً لم تفتح ، وكان لا بد من فتحها وإلا تعرض المسلمون للخطر إذا شاء القوط في أوريوة أو إشبيلية مثلاً السير إلى استجة أو شادونة وفصل الجيش الإسلامي في الشمال عن الحامية الصغيرة التي كانت في قرطبة ، وقطع الجيش والحامية معاً عن موانئ الاتصال بافريقية .

ولو قرأ الإنسان روايات هؤلاء المؤرخين في شيء من الرواية لاستبان أن بعض عباراتها يدل على تناقضهم ، فيذهب ابن حيان مثلاً إلى أن موسى « تنكب الجبل الذي حله طارق . ونزل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى . فلما احتل الجزيرة الخضراء قال : ما كنت لأسالك في طريق طارق رلاً أقفوا أثره . فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يلمان : نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه . ونالك على مداين هي أعظم خطراً وأوسع غناً من مداينه . لم تفتح بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى . فليء سروراً » . وهذه عبارة إن دلت على شيء فعلي بعد نظر موسى من ناحية ، وعلى شرهه إلى الغنائم من ناحية أخرى ، ولكنها لا تدل على الحسد بحال . فأما بعد النظر فلأنه وقد أقبل مع هذا الجيش الكبير من المسلمين : لم يكن من الشك في شيء السير به في بلاد ومدائن قد فتحت فعلاً ، إنما الحكمة في استخدامه في فتح بلاد لم تفتح بعد . وأما الشره إلى المغام فظاهر . لأن موسى قد سره أن يسير به الأدلاء إلى مدن أغنى من مدن طارق وأكثر منها مالا . وليس للحسد في مثل هذا الموضع مكان ، لأن طارقاً . مهما كان الحال . مولاه وتابعه ، وباسمه يفتح والحسابه يغنم (١) .

لم يذهب موسى للقاء طارق وتأديبه . وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلفها طارق دون فتح . فلما تم له ذلك سار إليه واتفق في طليطلة على مقربة من طليطلة . وقد أظن بعض المؤرخين في وصف ما وقع بين الرجلين عند هذا اللقاء ، فيذكر ابن عبد الحكم أن موسى شد وثاق طارق « وحبسه وهم بقتله » لولا تدخل مغيث الرومي . وكان طارق قد كتب إليه من محبته يرجوه أن يسرع بخبر ما وقع له إلى الخليفة الوليد ، فذهب مغيث إلى موسى وحذره أن يسير إلى طارق ، ثم ذهب مغيث — كما سنرى — إلى دمشق وأبلغ الوليد الأمر ، فكتب هذا يهدد موسى ويدهمه

للمثول بين يديه ، فخاف موسى وأطلق طارقاً ، ثم لم يلبث أن عاد ليؤدى عند الخليفة حساباً عسيراً على ما فعل (١) . ولا نرى إلا تفسيراً واحداً لانفراد ابن عبد الحكم من بين المراجع الموثوق فيها بهذه الرواية : هو أنها كانت معروفة في المشرق مجهولة عند أهل الأندلس . وأما وجودها في المشرق فرجعه على أغلب الظن إلى مغيث الرومي ، فقد كان محققاً على موسى مولعاً بالكيد له ، لأنه كان يرى أنه مولى الوليد وأنه أولى بولاية الأندلس كما سئرى ، فانتزح فرصة ذهابه إلى المشرق لإبلاغ الوليد أخبار انتصارات المسلمين ، وأخذ يباليغ في مساعات موسى ويختلق عليه ، حتى لقد أنكر عليه كل فضل في الفتح كما يرى من رواية ابن عبد الحكم الآتفة الذكر ، وانتشرت قالاته بين أهل قصر الخليفة وبين أهل المشرق ، وسجلها المؤرخون المشرقيون الذين يمثلهم ابن عبد الحكم في هذه الناحية .

وأما الأندلسيون ، وهم أخرى بأن يعرفوا مثل هذا الخبر على صحته لأن أخبارهم أخذت عن ناس حضروا بأنفسهم هذه المواقف ، فلا يعرفون إلا أن موسى « وضع السوط على رأس طارق ووثبه » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة ، وقد كان مستظيماً أن يقول : إن موسى ضرب طارقاً بالسوط بدلاً من قوله : « وضع السوط على رأسه » فقط .

ثم إن الرجلين لم يلبثا أن تعاونا ، فترك موسى طارقاً على قيادة جيشه وسار كل منهما في اتجاه ، متعاونين متساعدين ، ولو كان ما ذكره عبد الحكم صحيحاً ، لما حدث ما سنراه من اشتراك الرجلين الكامل في العمل . وهذا واضح من قول ابن حيان : « قالوا : ثم إن موسى اصططح مع طارق ، وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه » (٢) .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٠ .

(٢) ابن حيان ، عند المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

وعندنا أن ابن حيان أصبح من ابن عبد الحكم في هذا الموضع ، وهو لم يذكر شيئاً عن ضرب موسى لطارق أو سجنه ، وكل ما يذكره هو أن موسى وبخ طارقاً على مخالفته أمره ، ثم لم يلبث الود أن عاد بينهما ، وظل طارق أوثق رجال موسى وصاحب مقدمته . ولو كان موسى « مغيطاً » على طارق إلى هذا الحد الذي يزعمه ابن عبد الحكم ، فكيف لم يستدعه إليه إلا بعد أن أتم فتح ماردة ، مع أنه — أى موسى — أقام على هذا الفتح بضعة أشهر ؟ ثم كيف طلب إليه أن يخرج للقائه في طلبيرة فقط وقد كان مستظيماً استدعاه إلى أبعد من ذلك ؟

الواقع أن موسى كان يعمل مع طارق من أول نزوله الأندلس ، وأن خروج طارق للقاء موسى عند طلبيرة لم يكن لمجرد اللقاء بل لغرض آخر حررى سنعرفه . وقد أتم الرجلان الفتح معاً على أحسن ما يكون الرجال تعاوناً ، وعادا إلى المشرق فلم نسمع أن طارقاً وقف يشكو موسى بين يدي الخليفة . ولو كانت بينهما هذه الخصومة لسمعنا لها صدى — ولو خافتنا — في المشرق بعد أن عادا معاً .

وللمقرئ رواية تؤيدنا في هذا المذهب ، إذ يقول : « ... ولما سمع موسى بن نصير بما حصل من النصرة لطارق عبر إلى الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له : يا طارق ، لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلاتك بأكثر من أن يبيعك الأندلس ، فاستبجه هنياً مريباً ، فقال له طارق : أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط ... » (١) .

كل ذلك يحملنا على الظن بأن الرواية التي تصور القائدين المسلمين العظميين متعاضدين إنما مرجعها إلى مغيث الرومي ، وللمقرئ عبارة تؤيدنا في هذا أيضاً ، فهو يقول من غير سند ظاهر : « ولما قفل موسى بن نصير إلى المشرق وأصحابه ، سأل مغيثاً أن يسلم إليه العليج صاحب قرطبة الذي كان

(١) نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٥١ .

واقراً مباركة ابن حيان ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

في أسرهِ . فامتنع عليه وقال : لا يؤديه للخليفة سوى ، وكان يدل بولائه من الوليد ، وهجم عليه موسى فانتزعه منه ، فقيل له : إن سرت به حياً ادعاه مغيث ، والعلاج لا ينكر قوله . ولكن اضرب عنقه ، ففعل . فاضطغنها عليه مغيث . وصار إلماً مع طارق الساعى عليه . مما يفهم منه أن الخلاف كان واقعاً بين موسى ومغيث ، وأن مغيثاً كان يضطغن على موسى ويتربص به الدوائر . وأنه كان يدل بولائه من الخليفة ، يظن أن هذا يجعله في موضع ممتاز . ولما كان موسى بطبعه رجلاً فخوراً مزهواً بنفسه وبمكانه من عبد العزيز ابن مروان ومن يزيد بن المهلب ، فانه من الطبيعي ألا يرضى عن مغيث وأن تقع الحفوة بينهما . ولم يحدثنا المؤرخون بما قال مغيث للخليفة في زيارته الأولى ، ولكنهم يقولون إنه حينما عاد مع طارق وموسى بعد الفراغ من الفتح « سبق إليه — أى إلى سليمان بن عبد الملك — طارق ومغيث بالشكية منه ورمياه بالخيانة ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلاج صاحب قرطبة . وقال له إنه قد غل جوهراً عظيماً القدر أصابه لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله . فلما وافى سليمان وجده ضغيئاً عليه ... » (١) .

ومما يؤيدنا في ذلك الرأي أيضاً أن مغيثاً هذا — الذى يزعم أنه ذهب منتصفاً لطارق — لم يكذب بسمع أن الخليفة يريد تعيين طارق عاملاً على الأندلس بعد موسى حتى مضى يخوفه منه ويصده عن إنفاذ هذا الغرض ، لأنه كان يطمع لنفسه في ذلك في الغالب . ويبدو كذلك أن الخليفة استبان كذب حديثه فلم يعطه الولاية التى رجا ، فعاد إلى الأندلس كما خرج منها ، بل ترك سليمان ابن عبد الملك الأندلس في يد عبد العزيز بن موسى (٢) .

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

(٢) انظر : ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠ .

الأخبار المجهولة ، ص ١٩ .

ابن عذارى ، ص ١٨ .

وهو يروى قصة موسى أول الأمر برواية يتفق فيها مع غيره من الأندلسيين ثم يقول : وقيل إنه ضربه أسواطاً كثيرة ... الخ ، مما يدل على أنه يشك في هذه الرواية .

ولا شك في أن يليان كان على اتصال دائم بموسى ، وأنه تلقاه في الأندلس وسار معه كما سار مع طارق ، ولا نزاع كذلك في أن يليان هو صاحب الفضل فيما يبدو من تكامل فتوح طارق وموسى ، فان الإنسان إذا نظر إلى فتوح هذا وفتوح ذاك حسب أنها دبرت جميعاً بأحكام من أول الأمر . والحقيقة أن يليان وأصحابه تولوا إرشاد موسى إلى خير الطرق التى يستطيع بها إكمال ما بدأ به مولاه ، وبهذا تكامل العملان وتم بهما إخضاع شبه الجزيرة الإيبيرية على أحسن وجه .

ويبدو كذلك أن موسى إنما عبر إلى الأندلس بناء على استغاثة وجهها إليه طارق ، ولا يثبتنا عن هذه الاستغاثة إلا صاحب « الإمامة والسياسة » (١) ، ولكننا نقبلها لأنها تفسر لنا السبب في عبور موسى في ذلك الوقت بالذات . ولو كان موسى قد عبر مع عدد قليل من الجند لقلنا إنه عبر من تلقاء نفسه لكى يرى نتيجة ما وصل إليه قائده طارق ، ولكنه عبر في جيش تزيد عدته على جيش طارق بكثير ، وتخبر الأجناد الذين صاحبه تخير المقبل على عمل خطير .

والواقع أن الظروف كلها كانت تحتم إسرعه وتجعلنا أميل إلى قبول رواية ابن قتيبة في استغاثة طارق بموسى ، فقد كان المسلمون قد ساروا في البلاد شروطاً بعيداً دون أن يستوثقوا من سلامة مواصلاتهم بالجزيرة الخضراء وإفريقية ، ولم يكن بيدهم من المعاقل الكبيرة إلا قرطبة ، وكانت طوائف من القوط مفرقة في البلاد تستطيع أن تنقض على جماعات العرب القليلة المفرقة على طول الخط الطويل من جبل طارق إلى طليطلة وما يليها .

وكان يليان يقيم معظم الوقت بالجزيرة الخضراء يؤمن ظهور المسلمين ، وكان قد فرق كثيراً من جنوده مع المسلمين في كل ناحية ، وأحسن في مقامه

(١) « قال : وكتب طارق إلى مولاه موسى : إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ،

فالغوث الغوث ! » .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

هذا أن القوط يتجمعون ويدبرون شيئاً ، وشعر بحاجته وحاجة المسلمين إلى عون جديد وإلا ساءت العاقبة^(١) . ويبدو أنه أفضى إلى طارق بشيء من هذا ، لأن الرازي يذكر أن طارقاً رجاء أن يكتب إلى موسى ليعجل العبور^(٢) . ويؤيدنا في ذلك الظن ما يذكره الرازي من أن طارقاً أقام — بعد عودته من سيره إلى مدينة المائدة — في طليطلة لا يكاد يصنع شيئاً^(٣) ، ولوقد وجد عند نفسه من القوة ما يعينه على فعل شيء لفعل ، ولكن من معه من الجند كانوا قد أجهدوا إجهاداً عظيماً ، وكانت المقاومة في نواحي البلاد قد بدأت ترفع رأسها ، ففضل المقام حيث هو ، وكتب إلى موسى يستغيث به .

وحينما وطئت قدم موسى الأندلس خف يليان للقائه خفوف المنتظر المترقب ، وعقد معه مجلساً للتشاور في الأمر^(٤) . فلو لم تكن الأحوال مضطربة مخوفة لما كانت هناك حاجة إلى المجلس والمشاورة ، ولما سار موسى إلى طليطلة قادماً ليلقي طارقاً وليحاسبه على ما فعل ، كما تذهب المراجع . وبدلنا خط سير موسى واتجاهه إلى إشبيلية على أن يليان قد نبهه إلى خطورة ترك هذا المقل الخطر في أظهر المسلمين دون فتح .

عبر موسى إلى الأندلس في رمضان سنة ٩٣ هـ — يونيو ٧١٢ م ، واستصحب معه ثمانية عشر ألفاً من خيرة جنده ، جلهم من العرب وفيهم

(١) SAAVEDRA. Op. cit. p. 92.

(٢) يقول الرازي في النسخة الإسبانية التي بين أيدينا :

"et embió luego à rogar à Don Juliano que le diese pasaje..."

Cf.: GAYANGOS. La Crónica del Moro Rasis, n. 7.

(٣) يقول الرازي :

"... oyó decir que folgaba en Toledo et que non se trabajaba à otra cosa..."

Cf.: GAYANGOS. Op. cit. n. 8.

(٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص ٢١٣ من ترجمة دوزي .

عدد عظيم من القيسية واليمنية ومعهم أتباعهم ومواليهم ، وكان فيهم كذلك عدد طيب من التابعين وكبار العرب جعلهم موسى في فرقة واحدة عليها محمد بن أوس^(١) . وكان هؤلاء العرب الذين ذهبوا مع موسى هم الجماعة الكبيرة الأولى من مهاجري العرب إلى الأندلس ، يعرفون عند المؤرخين بطالعة موسى ، وستكون لهم الصدارة بين مسلمي الأندلس زمناً طويلاً ، وسيكون لهم أثر عظيم حاسم في سير الأمور .

ولم تصل هذه الآلاف الكثيرة إلى الأندلس دفعة واحدة ، بل كان موسى قد قسمهم فرقاً بحسب قبائلهم وأصولهم ومراتبهم ، وكان لكل جماعة راية . فلما عبر انتظروهم في مكان على مقربة من الجزيرة الخضراء ابتنى فيه مسجداً ، وأخذت الرايات تند عليه في ذلك الموضع ، فعرف الموضع والمسجد بمسجد الرايات ، وظلّا عامرين قروناً طويلة .

نزل موسى في الجزيرة الخضراء عند موضع قريب من جبل طارق سمي مرسى موسى ، ثم عجل بالسير إلى شذونة (Medina Sidonia) ومنها

(١) انظر : الضبي : بغية الملتبس ، ص ٥١ .

المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٦ — ١٧٧ .

وقد تحدث الرازي عن هؤلاء التابعين في شيء من الإفاضة ، وذكر أنه دخلها صحابي واحد هو المنذر الإفريقي ، سمي الإفريقي لأنه سكن إفريقية .

أما التابعون فهم : موسى بن نصير ، وعمل بن رباح التميمي ، وحيوة بن رجاء التميمي . وقيل إن رابعهم هو حنش بن عبد الله الصنعائي (صنعاء الشام) .

وقد قتل هؤلاء من الأندلس بقول موسى ، إلا أن أهل سرقسطة يزعمون أن حنشاً مات عندهم ولم يقلل إلى المشرق ، وقبره لديهم مشهور يتبركون به . ويضيف إليهم بعضهم خامساً هو : عبد الرحمن الحبلي واسمه عبدالله بن يزيد ، وسادساً : هوشيان بن أبي جيلة مولى بني عبد الدار ، وكان في ديوان مصر ، فبعثه عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها ، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس ، وبلى ذلك تفصيل طيب عن هؤلاء التابعين .

الرازي ، عند المقرئ ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

وانظر عن هذا الموضوع أيضاً أقوال ابن بشكوال وابن سديد وابن حبيب والحجاري في :

المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٢ — ١٨٣ .

سار إلى قرمونة ورعواق (Alcalá Guadaira)^(١) فاستولى عليهما ، وبهذا أمنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة ، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة وشذونة ورعواق وقرمونة وامتجة وقرطبة في يد المسلمين ، وأصبح في إمكان موسى أن يتجه نحو الغرب ليفتح إشبيلية كبيرة مدائن شبه الجزيرة بعد طאיطة إذ ذاك .

٢٣ - فتح إشبيلية سقطت إشبيلية في يد المسلمين بعد بضعة أشهر من الحصار والقتال ، ويدعو أن أهل البلد ومن فيها من اليهود سارعوا بفتح الأبواب حينما طال القتال واشتد ، وأما الحامية القوطية فانسحبت إلى لبلة على مصب وادي آنة ومنها إلى أكشوبنة (Sta. Maria de Faro = Ossonoba) ثم إلى باجة ، وهناك أراحت تنتظر الحوادث . وترك موسى في البلدة حامية قليلة معظمها من البربر واليهود ، ثم سار قاصداً ماردة متتبعاً طريقاً رومانياً قديماً كان يصل البلدين ، واستولى في الطريق على بلد يسمى لقسنت^(٢) سلم له أهله دون مقاومة فسموا لذلك « موالى موسى »^(٣) .

(١) ورد اسم هذه المدينة في المراجع العربية بصيغ مختلفة : رعوان ، زعواق ورعواق ، وقد أثبت لافونيت ألكانترا أن الرسم الصحيح لهذه التسمية العربية هو رعواق ، وأنها هي قلعة جواديرا (Alcalá de Guadaira) ، انظر : LAFUENTE ALCANTARA. *Ajbar Machmua*, índice geográfico, p. 256 ولم يرد ذكر فتح قرمونة قبل إشبيلية إلا في نفع الطيب رواية عن ابن حيان وفي الأخبار المجموعة ، وقد كادت تستعصى على موسى لولا أنه لجأ إلى حيلة نصحه بها من معه من الأدلاء من أنصار بليان ، إذ تسربوا إلى داخل البلد في هيئة المستأمنين ، ثم غافلوا أهل البلد وفتحوا أبوابه للمسلمين .

انظر : ابن حيان عند المقرئ ، ج ١ ، ص ١٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٦ .

(٢) قال ابن القوطية : « ثم قصد من إشبيلية إلى لقنت إلى الموضع المعروف بفتح موسى في أول لقنت إلى ماردة » - افتتاح الأندلس ، ص ٩ .

ولا يعقل أن تكون لقنت هذه هي لقنت المعروفة في جنوب الشاطئ الغربي لجزيرة . وقد قرأها سافيرا لقسنت^(٢) أو لاكانتوس وقرر أنها عين كانتوس (Fuente de Cantos) .

Cf. : SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 94 et note 2

(٣) فتح الأندلس : ص ١١ ، وانظر تعليق JOAQUIN DE GONZALEZ بخصوص

هذه العبارة ، ص ٩٣ من الترجمة .

٢٤ - فتح ماردة فلما أدرك موسى ماردة وجعلها أحصن وأقوى مما ظنها ، فقد كان أنصار لذريق والهاربون من فلول القوط قد تجمعوا فيها لأنها بلد بعيد صعب المنال وعر المسالك ، فأقام موسى محاصراً للبلد بقية الصيف والشتاء التالي ، ولم يسلم البلد إلا في الثلاثين من يونيو ٧١٣ م (١ شوال سنة ٩٤ هـ) بعد قتال طويل هلك فيه نفر كبير من حامية البلدة بسبب كمائن أخفاها موسى في مقاطع الصخر أمام مخارج البلد ، وقد هلك أثناء محاولات نقب السور نفر من المسلمين سقطت عليهم دبابة كانوا قد اختفوا تحتها لينقبوا طبقة من السور مبنية من شيء يشبه الأسمنت الصلب كان يسمى (Argamasa)^(٢) . ولم يسلم أهل البلد إلا بعد أن عاهدهم موسى على « أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليها لها » . وهي شروط سيكون لها أثر في تحديد العلاقة بين المسلمين والأهالي فيما بعد^(٣) .

يذهب سافيرا إلى أن فتح المسلمين لإسبانيا دخل في دور جديد أثناء فتح موسى لماردة ، « لأن حراسة الحصون لم يعد يعهد فيها إلى اليهود . ولم يعد أهل البلاد يفتحونها من الداخل للمسلمين ، ولم يعد المسلمون يبعثون البلاد ويأخذونها من حكامها فجأة ، وتلك كلها دلائل على أن لونا من

(١) أورد ابن حيان هذا اللفظ بنصه مخروفاً فكتبه « الاشنة ماشة » .

ابن حيان ، عند المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) وردت هذه العبارة الهامة عن ذلك الاتفاق في الأخبار المجموعة ونفع الطيب للمقرئ . وقد أورد هذان الكتابان تفاصيل هامة عما فعله المسلمون حتى استطاعوا الاستيلاء على هذا الحصن الهام . ومن ذلك قصة المسلمين الذين استشهدوا تحت الدبابة التي كانوا يختبئون تحتها لنقب سور البلد ، وذكر أن هذا الموضع يسمى إلى وقتها « برج الشهداء » لهذا السبب ، وهي ملاحظة هامة . ويذكر أن كذلك حيلة موسى مع أهل ماردة وتلوينه شعره من أبيض إلى أحمر إلى أسود إرهاباً لهم ، وهي قصة مستبعدة الحدوث .

انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٨ .

ابن حيان ، في نفع الطيب للمقرئ ، ج ١ ، ص ١٧١ .

القطيعة قد وقع بين الأهالي والمشاركة . أما سبب هذا التغير ، فهو أن موسى — في مسيره من الجزيرة الخضراء إلى ماردة — رأى بعينه سوء حال الشعب (الإسباني) ورأى كذلك أن الملك لم يكن قادراً على جمع جيش محترم ، وأن مجلس الشيوخ لم يكن يستطيع الاجتماع للتشاور في الأمر ، وأن أنصار غيطشة لم يكن يؤيدهم إلا نفر لا يملكون عادة للحرب أو قدرة على إدارة الحكومة . هنا بدأت فكرة « ضم » الأندلس لتلور في رأسه ، بدأ يفكر في تملك ما فتحه » (١) .

أى أن المسلمين قد قاموا بما قاموا به في الأندلس حتى الساعة وهم يشعرون أنهم يقومون بغارة يعودون إلى بلادهم بعدها ، حتى إذا استبان موسى ذلك كله في مسيره من الجزيرة إلى ماردة تغير رأيه ، وأخذ يعمل على الفتح الثابت الدائم ، أى على ضم الأندلس إلى دولة الخلافة ، وأن هذا التفكير غير نفوس أهل البلاد — الذين كانوا يؤازرون المسلمين إلى هذه الساعة على اعتبار أنهم مغربون يطلبون المغنم لا غير ، أو حلفاء يريدون القضاء على دولة الطاغية لذريق ورد الأمر لأهله — فلم يعودوا يؤازرونهم ، ولم يعودوا يفتحون لهم أبواب المدن ويدلونهم على ثغرات أسوارها ويتقصون معهم على حكام القوط ، بل بدأوا يعادونهم ويقفون منهم موقفهم من أى فاتح معتد يريد ببلادهم سوءاً .

وليس في سياق الحوادث ما يؤيد سافدرا في هذا الزعم ، لأن الواقع الذى لا شك فيه هو أن المسلمين نزلوا الأندلس من أول الأمر على نية الفتح الثابت الدائم ، وأن طارقاً كان يسير في البلاد ليدخلها في حوزة الإسلام ، لا ليغنم منها ثم يعود ، ولا ليعين فريقاً من أهلها على فريق . ولا يستبعد أن يكون نفر من الإسبان وأنصار غيطشة ممن ساعدوا المسلمين من أول الأمر قد انتهبوا — بعد فوات الوقت كما رأينا — إلى أن المسلمين يفتحون البلاد

لضمها إلى دولة الخلافة ، للاقسام غنائم الفتح معهم ، فأخذوا بأسنون بعد فوات الفرصة على ما كان منهم ، لأن إيزودور الباجي يقول في هذه المناسبة :
... pace fraudifica male diverberans (n. 36, v. 864) ... pacem nonnullae civitates ... iam coactae proclamitant, atque suadendo et irridendo astu quodam fallit (١) .

ويؤيد سافدرا رأيه هذا بما حدث بعد فتح ماردة من أن « عجم أهل إشبيلية تحيلوا على من بها من المسلمين ، وجاءوا من مدينة يقال لها لبله ومدينة يقال لها باجة ، فقتلوا من بها من المسلمين ، قتل فيها ثمانون رجلاً . فقدم فلهم على موسى بن نصير بماردة ، فلما فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش إلى إشبيلية فافتتحها ورجع » (٢) . حقيقة أن هذا هو أول انقلاب من أهل البلاد على المسلمين ، ولكن من أين استدلت سافدرا على أن الذين قاموا بهذا العمل كانوا من الإسبان ولم يكونوا من فلول القوط المهزومة التي كانت تتجمع في نواحي الغرب : وأن هؤلاء إنما جروؤا على الانتقاض على من بإشبيلية من المسلمين حينما استبان لهم قلة عددهم وابتعاد إخوانهم المسلمين عنهم ؟ .

نظن أن هذا الفرض الأخير أقرب إلى الصحة ، لأن عبارة ابن حيان وصاحب الأخبار المجموعة تدل على أن الذين غدروا بالمسلمين لم يكونوا من أهل إشبيلية أو لبله أو باجة ، فلو أن هذا هو الذى حدث لذكر المؤرخان أن أهل لبله وباجة ثاروا أيضاً ، إذ لا يعقل أن يسيروا إلى إشبيلية للاشتراك في ثورتها وهم أنفسهم خاضعون ، ثم إن عبد العزيز بن موسى لم يعاقب أهل

(١) ISODORO PACENSE. *Cronicón*, §36 apud LAFUENTE ALCANTARA, (١)

Ajbar Machmua, apendice pp. 147-148.

وقد أيد سافدرا رأيه هذا بفقرتين : الأولى من « مدونة البلدة » (*Cronicón Albeldense*) يقول فيها : « ثم ثارت بين القوط والعرب بصورة مستمرة حروب استمرت سبع سنوات » (نفس المصدر ص ١٦٣) والثانية عن تاريخ راهب سيلوس (*Cronicón Silense*) فقرة ١٧ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ١٨ .

البلد بعد أن أخذ الثورة : وتركهم على حالهم وأقام معهم فيها ، ولو كان لهم ضلع في الحادث لرأينا لذلك أثراً في معاملته لهم . ولا يستقيم الأمر إلا إذا فرضنا أن الذين فعلوا ذلك هم نفر من القوط ، من حاميات البلاد التي فرت منها عند اقتراب المسلمين وعادت إليها بعد ذهاب الجيش الإسلامي عنها . تحاول استعادتها أو الانتقام من المسلمين .

فلما فرغ عبد العزيز من أمر الثائرين في إشبيلية سار إلى لبلة وباجة^(١) ، وربما إلى أكشونة : ليطرد منها من عسى أن يكون قد تجمع بها من القوط . ثم ترك في هذه البلاد جميعاً حاميات إسلامية لتؤمنها من أى تدبير يقوم به القوط . وبدلنا نص من المقرى على أن حامية باجة كانت قوية . وأن قائدها كان قائداً عربياً معروفاً ، هو عبد الجبار قائد ميسرة موسى وجد بنى زهرة أحد بيوت إشبيلية التي سيكون لها شأن^(٢) .

وأقام موسى شهراً في ماردة يرتب أمورها ويريح جنده بعد هذا العناء الذى تكلفوه في فتح هذا البلد ، ومن الواضح أنه أحس أن عناصر المقاومة في هذه الناحية كانت أقوى مما لقي المسلمون في بلاد الأندلس إلى الآن . وأنه عرف أن فلول القوط — وأنصار الذريق خاصة — كانوا يتجمعون في هذه النواحي الجبلية الوعرة ظناً منهم أن المسلمين لن يصلوا إليها ، واستعداداً للهروب إلى نواحي قشتالة واسترامادورة إذا ما وطئت أقدام المسلمين هذه النواحي من غرب الأندلس ، لأن سير الفتح الإسلامى سيطوئ وسيصطدم بعقبات في هذه الناحية بعد أن كان يسير سيراً ذلولاً دون عقبة ظاهرة . وقد رأينا القوط في إشبيلية وليلة وباجة كيف « تجالَب فسأهم » من هذه النواحي كما يقول ابن عذارى ، ولاحظنا أن فتح ماردة كلف موسى من أمره عسراً .

(١) ابن عذارى: البيان ، ج ٢ ، ص ١٧ .

(٢) المقرى : نفع الطيب ، ترجمة جايانجويس ، ج ٢ ، ص ١١ .

وأنه لم يفتحها إلا بحيلة ، وأن المسلمين خسروا فيها خسائر لم يخسرها في قرطبة أو إشبيلية أو حتى طليطلة ، وعلة ذلك أن فلول القوط كانت تتجمع في هذه النواحي الوعرة من كل جانب .

فإذا صح ذلك ، كان مسير طارق للقاء موسى بعد فراغ هذا الأخير من فتح ماردة أمراً معقولاً ، لأن الإنسان يتساءل : ما الذى أخر طارقاً عن الخروج للقاء موسى حتى هذه اللحظة ، مع أن موسى كان في أشد الحاجة إلى العون أثناء حصار ماردة وكفاحه أهلها ؟

ولا يفسر هذا إلا بأن موسى رأى أن مقام طارق بطليطلة يؤمنه من عمل يقوم به قوطها ، فلما فرغ من أمر ماردة وأراد السير نحو طليطلة أحس أن الطريق طويل مخوف بالخاف ، لأن فلول القوط كانت « تتجالب » وتتجمع في هذه النواحي . فلما وجدت موسى يأخذ في الطريق رأت الفرصة سانحة لاعتراضه ومنازلته في معركة خطيرة الشأن كما سنرى . وهذا هو السبب الذى حفز طارقاً إلى المسير للقاءه . ولا يعلل سكوت طارق عن الذهاب إلى مولاة طيلة أشهر الشتاء رغم وجوده على مقربة منه ، إلا بأن موسى نفسه لم يطلب إليه المجيء إلا في هذه اللحظة ، حينما أحس ببعض ما كان يدبر حوله في هذه النواحي الفسيحة المجهولة للمسلمين .

والواقع أن حركة كبيرة كانت تدور حول جيوش المسلمين الغازية بين وادى آنة ونهر التاجة في ذلك الحين ، فقد كان الذريق قد تراجع بمن بقي له من فلوله وتحصن بهم في شعاب الهضبة ، مما يلى وادى آنة إلى الشمال في جبال سيرا دفرانثيا على أبواب قشتالة الجديدة واسترامادورة في السهل الفسيح الذى يحيط بسلمنقة ، ولبنوا هناك يتحينون الفرصة للانقضاض على جيوش المسلمين . ولم يكن موسى ليستطيع السير من ماردة إلى طليطلة وهؤلاء في ظهره ، بل كان لا بد له من القضاء عليهم ، ولهذا استدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة ، فسار طارق نحو مائة وخمسين ميلاً

وانتظر مولاه في وادي الأروكامبو (Arrocampo) في مكان يسمى المعسر (Almaraz) بين التاجة ونهر التيتار (١).

وأما موسى فقد سار في طريق روماني قديم يصل ماردة وسلمنقة بجذاء نهر سيحمل من ذلك الحين اسمه ، وهو فالموثا (Valmuza) أي نهر موسى (٢). وظن لذريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت في المسلمين لتوسطهم هذا الطريق الطويل وبعدهم عن أي مركز يستطيعون طلب المعونة منه ، وانقضوا على جيش موسى في ناحية يسمونها بعض مؤرخي المسلمين « السواقي » وهي

(١) يقول هذا الرأي سافدرا وتؤيده فيه أقوال كثيرة لمؤرخين إسبان ونفر قليل من مؤرخي المسلمين ، وهو في الواقع أقرب الآراء إلى الصحة في صدد نهاية لذريق . فإن المسلمين لم يقتلوه في واقعة وادي لكه ، وتكتفي المراجع بالقول بأنه اختفى أو غرق . وسيرى القارئ في سياق الحديث أن هذا الرأي يصحح الوقائع أكثر مما يصححها القول بموته أو اختفائه من ميدان التاريخ عقب لقائه المسلمين أول مرة .

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 98 sqq.

(٢) وتعيين اتجاه موسى على هذا النحو يعيننا على تحديد المكان الذي التقى فيه بطارق على وجه التقريب ، والمراجع العربية مختلفة حول هذه النقطة أشد الاختلاف ، فابن عذارى مثلاً يقول : « اتفق الأكثرون على أن التقاءهما كان على طليطلة ، وذكر الطبري أنه كان على قرطبة ، وذكر الرازي أن طارقاً خرج من طليطلة لما بلغه مسير موسى إليه ، فلقاه بمقبرة من طليطلة .. » وإشارة الرازي تدل على أن اللقاء تم على مقربة من هذا البلد الأخير . وقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة أن اللقاء وقع في ناحية يسمونها « ناند » من غير نطق ، ويمكن قراءتها نايه أو تايتر اعتماداً على عبارة أوردتها ردريجو أسقف رادا في تاريخه : iuxta rivum qui Teitar dicitur ولما كانت بعض المراجع الإفرنجية تقول بأن اللقاء وقع عند ناحية تسمى Almaraz - وهو لفظ عربي الأصل يرجح أن أصله « المعرض » ، وهو مكان على مقربة من طليطلة على نهر التيتار - فإننا نستطيع القول بأن اللقاء بين القائد المسلمين الكبيرين وقع هناك .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٨ .

RODERICUS TOLITANUS. De rebus Hispaniae, I, III, cap. XXIV

Cf.: SAAVEDRA. Op. cit. p. 98.

(Segoyuela de los Cornejos) على مقربة من تاماميس (Tamames) (١)، فانقض عليهم المسلمون وثبتوا لهم حتى أفنواهم عن آخرهم ، وقتل لذريق نفسه ، قتله مروان ابن موسى بن نصير ، فشهدت هذه البقعة مصرع آخر ملوك القوط ، وقد حمل أتباعه رفاته بعد ذلك ودفنوها في فيزيو . وظل قبره هناك معروفاً حتى زمان ألفونسو الكبير ، فقد ورد في حواريات هذا الملك أنه رأى قبر لذريق وقرأ عليه لوحة تقول : هنا يرقد لذريق ملك القوط

(Hic requiescit Rudericus rex gothorum)

ومن الغريب أن هذه الواقعة التي أهلها المؤرخون إهمالاً شبه تام كانت الأساس الذي دارت حوله الملاحم الإسبانية التي نشأت فيما بعد حول لذريق آخر ملوك القوط ودفاعه عن بلاده .

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط في هذه الواقعة الحاسمة الأخيرة قد شجع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين ، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ووثبوا بها ، فاضطر موسى إلى

(١) لم يذكر هذه الواقعة من المؤرخين المسلمين إلا الرازي (في الترجمة الإسبانية) وفتح الأندلس المجهول المؤلف ، وقد ذكر هذا المرجع الأخير أن الموضع الذي وقع فيه اللقاء الأخير يسمى « السواقي » في نسخة و « السواقي » في نسخة أخرى ، وأما الرازي فيسمى هذه الواقعة La batalla de Saguyue ، وهو لفظ قريب جداً من لفظ السواقي . أما مقتل لذريق على يد مروان ابن موسى فلم يذكره إلا ابن قتيبة في الإمامة والسياسة . انظر :

Fragments inédits de la chronique llamada del MORO RASIS, apud SAAVEDRA. Op. cit. apendice 145 sqq.

فتح الأندلس ، ص ٨ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٧٦

ولاشك في أن تسمية الرازي لهذا الموضع بـ Saguyue كانت الأصل الذي أخذ عنه المؤرخون الإسبان وقصاصهم اسم هذا الموضع ، فقد كتبه « فرناندو جنزالد » في قصيدته الطويلة عن لذريق Sangonera ، وكتبه « ردريجو كارو » سانجويلا .

Cf.: FERNANDO GONZALEZ, *El Ultima Rey Godo*, Copla 79.

RODRIGO CARO, *Antigüedades y principado de Sevilla*, f., 122 v.

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 100 sq.

فتحتها من جديد ودخلوها دخول الظاهر (١). ويذهب المؤرخ الإسباني مودستو لافونتي إلى أن أفراد حزب غيطشة كانوا يؤملون - بعد مقتل لذريق - أن يقيمهم المسلمون ماركاً على البلاد ، ولكن موسى خيب ظنهم حينما أعلن بعد دخوله مباشرة أن البلاد كلها لخليفة المسلمين في دمشق ، ولم يجد أبناء غيطشة بداً من الرضوخ للأمر الواقع ، فسكنوا قانعين بما منحهم موسى من أملاك أبيهم وما شرفهم به من عظيم المكانة (٢). فاستقر أخيراً (وَقِيلَ) في طليطلة وعاش آمناً في ظلال المسلمين ، وخلفه ابنه أَلْبَرُو (أَلْفَارُو) ثم حفيده حفص الذي أصبح فيما بعد قاضياً للنصارى . وأما أَرطَباس فقد استقر في قرطبة مكرماً معزراً وأصبح له بين المسلمين مكان مرغى ، واحتفظ بالقب « قومس » وورثه عنه ابنه أبو سعيد . وأما أَلْمُسْنَدُ فقد اختار المقام في إشبيلية رَأَجِب ابنة هـى سارة ، عاشت كريهة حتى أيام عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ، وابنين هاجر أحدهما إلى الشمال وبقي أحدهما في بلاد المسلمين ليحظى بمكان رفيع . وأصبح أسقف المستعربين جميعاً فيما بعد . وكافاً موسى أبة (Oppas) أخوا غيطشة - الذي طالما ساعد المسلمين رعايتهم - بتعيينه أسقفاً لطليطلة ، وانظروا أن جمهور النصارى لم يرض عن هذا التعيين لأن إسبانياً آخر هو « أوربانو » لم يلبث أن خلفه في هذا المنصب الكبير سنة ٧١٩ م (٣).

٢٥ - أول عملة - ولم يكن موسى يستقر في طليطلة حتى سارع بضرب عملة إسلامية في ذهبية ليُدفع منها رواتب الجند الذين كانوا معه ، ولستنا نعلل الأندلس ضرب موسى لهذه العملة الذهبية - التي كانت في ذلك الحين من حق الخليفة وحده - إلا بأن الخليفة كان قد خوله هذا

(١) فتح الأندلس ، ص ١٢ .

(٢) MODESTO LAFUENTE. *Historia general de Espana*, II, 479.

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤ - ٥ .

DOZY. *Recherches*, I, p. 79

El cronicon Silense, n. 20

SAAVEDRA. *Op. cit.*, pp. 104-105

الحق في إفريقية فأباحه لنفسه في الأندلس ، لأنها كانت معتبرة في نظره أرضاً مفتوحة تابعة لإفريقية ، وكان المسلمون يتعاملون خلال هذه الفترة القصيرة في إسبانيا بالعملة الإفريقية التي ضربها موسى قبل ذلك سنة ٩٠ هـ . وقد رسمت هذه الدنانير الذهبية الجديدة على هيئة العملة الإفريقية : كانت لاتينية عربية ، ففي ناحية منها كتب « محمد رسول الله » يحيط به النص التالي باللاتينية على هيئة دائرة :

In nomine Domini. non Deus nisi Deus. Solus Sapiens. non Deo similis Alius

وفي الناحية الثانية نجمة ذات ثمان أذرع كتب حولها باللاتينية :

Solidus feritus in Spania

وبلى ذلك تاريخ سكها وهو سنة ٩٧ هـ (١).

وضرب موسى كذلك عملة برنزية صغيرة لاتينية الكتابة .

ثم بعث موسى برسولين إلى الخليفة الوليد ينهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختياره على التابعي علي بن رباح ، وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين من عمره ، ومغيث الرومي فاتح قرطبة . ويبدو أن مغيثاً كان حانقاً على موسى لشيء في نفسه ، أو لأنه ساءه أن ينسب فضل الفتح كله إلى نفسه مغفلاً ببيان ما قام به هو وما قام به طارق ، فلم يأل جهداً في تنقص موسى وتشويه سمعته ، فكان لكلامه أسوأ الأثر على مصير موسى فيما بعد (٢).

SAAVEDRA. *Op. cit.*, pp. 106-107.

(١)

LEVI-PROVENÇAL. *Hist. De l'Esp. Mus.*, pp. 20-21.

والمراجع المذكورة هناك .

(٢) المقرئ : فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

ويسبب ابن عبد الحكم - على غير عادة - في تفصيل ما فعل موسى بطارق ، وما فعله مغيث من عون طارق والإسراع إلى الخليفة لإنقاذه . ولستنا نفهم سبباً لهذا الإسهاب إلا أن تكون أخبار كهذه قد شاعت وتداولها الناس في المشرق ، ولما كان مغيث هو الوحيد الذي أتيح له الحديث إلى الخليفة ، فلا يستبعد أن يكون صاحب هذه الشائعات . ورواية المقرئ تؤيدنا في هذا .

٢٦ - السيرة نحو الشمال
فلما اطمأن موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد أخذ يستعد للسيرة نحو الشمال لإكمال فتح شبه الجزيرة، ويذهب المؤرخون إلى أن نيته انقضت إذ ذاك على التصعيد واختراق جبال البرت وغالة وأوروبا كلها ليصل إلى القسطنطينية من الغرب^(١). وليس لدينا دليل واحد نستطيع أن نؤيد به هذه الأقوال، ونستبعد أن يكون موسى قد فكر في أمر خيالي عسير التحقيق كهذا. وكل الذي نعرفه أن موسى جمع أجناده حينما انقضى الشتاء وسار بهم في اتجاه الشمال الشرقي ليفتح حوض الإبرو وما فيه من مدائن. وكان معه طارق وجماعة من كبار جنده، وتقدم الجيش محمد بن إلياس المغيلي أحد قادة البربر مع طائفة قليلة استولت على وادي الحجارة دون كبير جهد^(٢).

ويبدو أن ما لقيه المسلمون من الشدة عند مازدة والسواق، وما دهمهم من ثورة أهل طليطلة مال بهم إلى الشدة، فزاهم في غزوتهم هذه أميل إلى العنف مما كانوا قبل ذلك، فبينما كان طارق يحتل المواقع احتلالاً سلمياً فيؤمن أهلها ولا يكاد يستبيح لنفسه إلا ما كان من أملاك القوط أو أملاك الكنيسة، نسمع من الآن فصاعداً عن نهب البلاد وإحراقها ورعب أهلها وخروجهم منها على وجوههم. ويبدو كذلك أن هذا كان نتيجة لسياسة

(١) يذكر المقرئ أن موسى حينما أدرك هذا الموضع القاصي من شمال الأندلس وأشرف جنده على البحر الأخضر (المحيط الأطلسي) وجبال البرت، فكر في اختراقها والاستمرار في الفتوح، وأنه «كان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلد إفريقية، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يصل بالناس إلى الشام مؤيلاً أن يتخذ مخترقه بتلك الأرض طريقاً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من الشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً». ولنا نستطيع تحقيق قالة كهذه، وكل ما نستطيع استنتاجه منها هو أن الوليد لو لم يكن قد استدعاه وألح في استدعائه لآتم فتح جليقية - كما يذكر المقرئ - أو لاخترق جبال البرت وأفضى إلى غالة. أما ما يزعمه المقرئ من وصوله إلى نهر الرون (ردونه - من Rodanus) فأمر غير صحيح، وسنرى فيما بعد أن المؤرخين وضعوا كثيراً من أعمال الفاتحين المسلمين من أقي بعد موسى في حملته تلك ونسبوها إليه.

المقرئ: نفع الطيب، ج ١، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٢) شهاب الدين القاسي برواية المقرئ: نفع الطيب ترجمة جايانجوس، ج ١، ص ٥٣٣.

موسى، وقد عرفناه شديداً قاسياً عظيم الميل إلى المغامرات والأسرى والسبايا. وقد بلغ من إصراره في هذا الوجه أن العرب أنفسهم - وعلى رأسهم الخليفة - أنكروا عليه هذا المسلك. فلم يلبث الخليفة أن استدعاه ليمناقشه الحساب فيما يفعل.

ولم تكلد طلائع المسلمين تشرف على سرقسطة حتى رعب أسقفها بنيسيو (Bencio) ومن معه من الرهبان، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخائر. فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولا يؤمنهم ويعطيهم عهده. فسكنت مخاوفهم واستقروا ودخل المسلمون البلد بعد قتال لا يذكر^(١). ولم يكن المسلمون يستقرون في البلد حتى قام التابعي حنش بن عبد الله السبائي الشنعائي بإشياء مسجماً منيئة. وقد قدر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية منارة للإسلام وأهله في هذه النواحي^(٢).

ثم أعقب موسى ذلك باحتلال سرقسطة ووشقة ولاردة وطركونة. وأحب أن يتابع سيره نحو البرت. ولكن جنده روعوا لما شاهدوه من فقر هذه النواحي وقلة عمرانها. ثم إن أهلها كانوا يتكلمون اللغة البسكية فوقعت من العرب موقعاً غريباً. وظنوا أنهم لا يتكلمون^(٣). واستوحش الجنود من هذه الناحية وأبدوا رغبتهم في العودة. وانضم إليهم التابعي حنش الصنعائي. وأخذ موسى يحاول إقناعهم بضرورة الاستمرار^(٤).

(١) ISODOR PACENSE. *Cronicon*, n. 36. versos 871-873.

(٢) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص ١١١.

الضبي: بغية المتوس، ص ٢٦٣.

المقرئ: نفع الطيب، ج ٢، ص ٤.

(٣) «... وفتح بلاد البشكنس وأوغل في بلادهم حتى أقي قوما كالبهايم، وغزا بلاد

الإفرنج...».

ابن عذارى: البيان، ج ٢، ص ١٨.

(٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ١٣٧.

وفي ذلك الحين وصل مغيث الرومي عائداً من دمشق ومعه أمر لموسى وطارق بأن يشخصا إلى دمشق ، وأحس موسى بما وراء هذه الدعوة : وعرف أن مغيثاً مولى عبد الملك بن مروان لا بد أن يكون قد تقرب عليه شيئاً ، ولكن ذلك لم يصرفه عن المضي في إتمام هذه الغزوة التي صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة ، وأحب أن يسترضى مغيثاً حتى يدعه يمضي في إكمال فتح البلاد ، فعرض عليه أن يمنحه نصف ما يغنم من البلاد التي سيفتحها في هذه المهلة ، ومنحه القصر الذي كان يسكنه حاكم قرطبة في الجزء الشرقي منها ، فقبل مغيث وظل هذا القصر يعرف فيما بعد ببلات مغيث^(١) . فإذا اطمان موسى إلى ذلك فقد تابع سيره في قشتالة القديمة (Castilla la vieja) ليتم فتحها وليؤمن طليطلة من غدر أى عدو للمسلمين يكون فيها^(٢) . واستقر رأيه على أن يتسم بجيش المسلمين قسمين : قسماً يسير به هو ، وقسماً يسير به طارق .

عهد موسى إلى طارق في السير نحو جبال كنتشبرية ، فبدأ طارق بمهاجمة البشكنس غربي الإبرو فلم يجد صاحب الناحية « فورتون » (Fortunius) بداً من الدخول في طاعة المسلمين بل اعتنق الإسلام ، ومنه تسلسل « بنوقسى » أصحاب الثغر الأعلى الذين سئلوا كثيراً على طول تاريخ المسلمين في الأندلس^(٣) ثم تابع طارق سيره ، واستولى على أمايا واشترقة وليون^(٤) .

٢٧ - أقصى ما وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية للإبرو في إقليم قشتالة ، وصلت إليه فتوح فأطاعه معظم من مر بهم من رؤساء هذه الناحية . وقد لقي المسلمين في إسبانيا بعض المقاومة عند قرية تسمى المراجع بارو - أو بازو -

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٢) SAAVEDRA. Op. cit. pp. 113-114.

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦٣ .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٢٨ . وقد جعل هذا المرجع فتح هذه الحصون الثلاثة في سنة ٧١١ ، وهو خطأ واضح ، وقد بيناه في حينه .

في مقاطعة فالبادوليد (بلد الرايد) الحالية^(١) ، ولم يلبث أن تغلب عليها وسار متابعاً فتوجه . وبدلاً من أن يعرج على اشترقة ليلتقي فيها بجيش طارق ، انحرف إلى الشمال واخترق باب تارنا (Tarna) وسار متابعاً مجرى نهر النالون (Nalón) ثم حط رحاله عند قلعة يسميها المقرئ لك* (Lucus Asturum الرومانية و Maria de Lugo اليوم) غير بعيد من أوبيشت (Oviedo) ، وما زال بها حتى سواها بالتراب وفر من كان بها إلى مكان قاص من الشاطئ يسمى الصخرة (Picos de Europa) . ثم سار بنفسه حتى بلغ خيخون (Gijón) وأقر فيها حامية ، وجعلها حصناً لما فتحه من البلاد في هذه النواحي البعيدة ، ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة بلاي (Peña de Pelayo)^(٢)

فإذا أدركت خيل موسى البحر من الشمال فقد أحس أنه فتح شبه الجزيرة كله ولم يعد هناك معنى للاسترسال في السير ، وكان موسى يترك في كل قلعة يفتحها حامية من المسلمين ، فتفرق جنده وطال السير بمن بقي معه منهم ، ونال منهم الجهد فالت نفوسهم إلى العودة ، فاكتفى موسى بوصوله إلى خيخون

(١) كتبها المقرئ بارو وبازو ، وقد ظن بعضهم أن المراد بذلك فيزيو (Viseu) ولكن نظرة على الخريطة تدل على أنه من العسير أن يصل موسى إلى فيزيو من هذه الناحية في هذا الوقت القصير . وقد حقق موقعها سافداً وقرر أن المراد بها فلياباروز (Villabaruz) وهذا تكون صحة الاسم الذي أورده المقرئ باروز .
نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

SAAVEDRA. Op. cit. p. 117.

(٢) هكذا وصل المسلمون إلى أقصى نقطة من أشتريس أدركوها في أيام موسى في دفعة الفتح الأول ، وإليك عبارة المقرئ بهذا الصدد نوردها لأهميتها : « ... ومضى معه (أى مع مغيث) حتى بلغ المغارة فافتتح حصن بازو وحصن لك* ، فأقام هناك وبعث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي على البحر الأخضر ، فلم تبق كنيسة إلا هدمت ولا ناقوس إلا كسر ، وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزيرة وسكنت العرب المفاوز ... » .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ص ١٧٤ - ١٧٥ .

SAAVEDRA. Op. cit. p. 117.

وأز مع العودة غير عالم أن نفراً كبيراً من القوط قد تراجعوا أمامه واحتموا في نواحي أشتريس وجليقية . وكان المسلمون يحسبون أنهم قضوا على القوط حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون رجلاً^(١) . والواقع أن من بقي من القوط إذ ذاك كان قليلاً . ولو لم يشتغل العرب بعد ذلك بحروب ومنازعات قبلية فيما بين أنفسهم لاستطاعوا الالتفات إلى هذه البقية الباقية من الأرض والناس . ولكنهم شغلوا بأمور أنفسهم كما سئرى . فاستطاعت هذه الحفنة القوطية أن تظمئن في هذه النواحي القاصية القاحلة ؛ وأن تنمو لتتهدد في المسلمين كل فرصة تسنح . وكانت معظم الحاميات التي خلفها المسلمون من البربر . وكان أكبرها حامية استقرت في شيوخون على الغالب يقومها زعيم بربرى سيكون له شأن ، هو « مونوسة » .

فإذا انتهى موسى في فتوحه إلى هذا الحد انقضى فقد كان لا بد أن يعود . لا إلى طليطلة أو قرطبة فقط . بل إلى دمشق رأساً . فقد كان مغيث رسول الخليفة يتعجله . وكان الوليد معجلاً عليه لا يريد أن يتمهل حتى لتذهب الروايات إلى أنه بعث إليه رسولا آخر اسمه أبو نصر لقيه في « لك » فأخذ بعنان فرسه وأمره بالعودة . وذلك أمر مستبعد . لأن مغيثاً وصل وموسى في سرقسطة في أوائل الربيع . ولما تنقضى على وصوله ثلاثة أشهر . ولا يتفق أن يكون الخليفة قد استطال هذه المدة القصيرة فأرسل يتعجل . وربما كان « أبو نصر » هذا كنية لمغيث كما يظن جايانجوس^(٢) .

أخذ موسى في طريق العودة في أواخر سنة ٩٥ هـ (منتصف صيف ٧١٤م) وكان مغيث قد خف لقائه : فالتقيهما بنواحي ليون . وهناك أدركهما طارق عائداً من أشربة . وساروا جميعاً فاخترقوا فنج موسى (Valmuza) في طريقهم إلى طليطلة . ولم يتم موسى في طليطلة شيئاً وإنما مضى مجدداً حتى دخل قرطبة ولقي فيها نفراً من كبار جنده . ثم مضى إلى إشبيلية حيث ركب

(١) عيسى بن أحد الرازي برواية المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ٦٧١ - ٦٧٢ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

البحر ومعه طارق ومغيث وكبار الجند في ذى الحجة سنة ٩٥ هـ ، وكان معهم يليان . وتذهب المراجع إلى أنه اصطحب معه ثلاثين ألف رأس من الأسرى ، وهذا أمر لا يصدق ، نظراً لما يحتاجه مثل هذا العدد العظيم من العدة حتى يمكن نقله هذه المسافة الطويلة من الأندلس إلى دمشق ، والغالب أن عدداً قليلاً جداً من هؤلاء رافق موسى في رحلته ، وأما الباقي فقد ترك في المزارع يزرعها . ونكاد نتفق مع ابن قتيبة الذي يذكر أن موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط . ألبسهم أفخر الثياب وسار بهم في موكبه ليدل على عظم الفتح الذي قام به . وكان موسى ميالاً إلى مثل هذه المظاهر^(١) .

٢٨ - عودة - بارح موسى الأندلس في ذى القعدة سنة ٩٥ هـ (سبتمبر ٧١٤) موسى وطارق إلى ووصل مصر في السابع من ديسمبر . وبلغ دمشق في السادس عشر من يناير سنة ٧١٥ م أي قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً .

وكان سليمان بن عبد الملك قد أحسن باقتراب منية أخيه فكتب إلى موسى يأمره بأن يترث حتى يصل بعد موت عبد الملك . فتقول الذخائر التي كان يحملها معه إلى سليمان . ولكن موسى لم يشأ أن يترث . ووجد الحجى في أن يسير سيره العادي . فإن وصل والوليد حتى كانت الغنائم له . وإلا فهي لمن يخلفه بالحق والعدل . وكان ركب موسى في عودته ركب قائد مظفر أوسع الله عليه في الخير والمغانم . فكان لا يلقى أحداً إلا أعطاه شيئاً . ولستنا نعلم على وجه التحقيق من أي مال كان يعطى ، ولكن الذي نعلمه أن أحداً من الفاتحين المسلمين لم يبلغ هذا المبلغ من السخاء وكثرة الهبات^(٢) .

وصل موسى دمشق قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً ، فأذهل الناس بما أتى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٣ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

الرازي : (في الجزء الإسباني الذي نشره جايانجوس) رقم ١٤ .

فتح الأندلس ، ص ١٩ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٥٨ وما بعدها .

به من الخيرات والمغانم ، بل يجمع المؤرخون على أن أحداً من الفاتحين المسلمين لم يعد بغنائم تشبه - بعد فتح فارس (١) - غنائم موسى . ولكن الظاهر أن قالب الوليد كان متغيراً على موسى تغيراً لا سبيل إلى إصلاحه ، فلم يحسن لقاءه ، ثم لم يلبث أن لقي ربه وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضباً على موسى لما كان منه معه . ولهذا كان طبيعياً أن لا ينتظر موسى خيراً كثيراً . وأن يدرك أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر .

بيد أننا نستبعد صحة ما يبالغ فيه المؤرخون من أفاعيل سليمان بموسى : نعم إن مغني الرومي لم يدخر وسعاً في تشويه سمعة الفاتح العظيم ، وصحيح أن قالاته لقيت قبولا من آذان أوى الأمر في عاصمة الخلافة ، ولكن الإنسان يستبعد ما يقال من أن سليمان كان يقيم موسى في الشمس حتى يكاد يغمى عليه من شدة التعب والجهد . أو أنه ألزمه أن يطوف بالقبائل محروساً يستجديها ما لا يفتدى به نفسه . حتى لقد كان يستجدي الدرهم والدرهمين « فيفرح بذلك ليدفعه إلى الموكلين به فيخففون عنه من العذاب » (٢) . لأن سليمان لو كان قد أنزل بموسى هذه المساءات لما ترك ولديه واليين على إفريقية والأندلس ، ولأن موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلب وزير سليمان ابن عبد الملك وصاحب الأمر في دولته . وكل ما نستطيع قبوله هو أن سليمان أهمل موسى وتركه في زوايا النسيان ، وما نظن أن رجلاً كهذا كان يمكن عقابه بأقصى من ذلك ، فقد فتح الفتوح ومصر الأمصار وكان حقيقاً بأن يعود إلى ما فتح لينضمه أو ليزيد فيه . ولا نزاع في أن موسى كان على نية مواصلة الفتح إذا عاد ، فحرم مسلمو الأندلس من هذه القوة الدافعة التي وصلت إلى شاطئ خليج بسكاية في عام وبعض عام ، وأصاب أبقايا القوط الفرصة التي كانوا في أشد الحاجة إليها ليستريحوا بعد طول جهد ، وليستعدوا للصراع الطويل مع المسلمين من جديد (٣) .

(١) المقرئ : ج ١ ، ص ٧٧ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

(٣) انظر تفاصيل ذلك في نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

خرج موسى من الميدان وعاش بقية حياته في ظلال النسيان لا نكاد نسمع من أخباره شيئاً ، ولا تحدثنا المراجع بشيء عنه بعد ذلك حتى موته بعد ذلك بقليل سنة سبع وتسعين أو تسع وتسعين وهو في طريقه إلى الحج في رفقة سليمان (١) . وإذا عرفنا أن سنه كانت قد تجاوزت الثمانين عند وفاته لتبيننا أن الرجل كان قد قارب الثمانين حين عاد من الأندلس ، فلا يستبعد أن يكون سليمان قد لاحظ سنه العالية فاستحسن أن يخليه من العمل وأن يبي ابنه مكانه في إفريقية والأندلس فبقى الفاتح العظيم في صحبة الخليفة حتى مات في ركابه كما رأينا .

ومهما يكن الجزاء الذي لقيه موسى على يد سليمان ، فإن الإنسان لا يسهه إلا أن يقرر أن الخلافة لم تعرف فضله ولم تجزه الجزاء الذي كان يستحقه . فقد فتح للإسلام فتوحاً تضعه في الصف الأول من رجال الإسلام الأول ، وكانت له سياسة وقدرة تدفع الإنسان إلى أن يقرر في غير تردد أن هذا الرجل هو واضع أساس ما أدركه المسلمون من سلطان وحضارة في غرب البحر الأبيض المتوسط ، لأن فتح الأندلس كان أمراً لا بد منه حتى يطمئن المسلمون على فتوحهم في الشمال الإفريقي ، ولو لم يفتح الأندلس لاستمر المغرب الإسلامي مهدداً بجموع النصرانية . هذا إلى ما كان لهذا الفتح الأندلسي في ذاته من القيمة والأثر مما يغني عن كل حديث .

قال المقرئ : « ... فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يترحم عليه . وإن فعل سليمان به وبولده ، وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذي تركه نائباً عنه بالأندلس - وقد جرى به من أقصى المغرب - بين يديه ، من وصاته التي تعد عليه طول الدهر ، لا جرم أن لم يمتعه الله بعده بملكه أو بشبابه » (٢) .

(١) وتختلف الروايات حول ذلك الموضوع ، فيذهب الحجازي وابن بشكوال أن موسى توفي بوادي القرى في أسوأ حال .

انظر المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٨١ .

وتصمت الرواية الإسلامية كذلك عن طارق صمتاً كاملاً ، ولنا نفهم لهذا سبباً إلا ما يقال من أن مغنياً وشي به هو الآخر وخوف الخليفة منه . وكان هذا يريد أن يوليه الأندلس بعد موسى . والحق أن مغنياً الرومي أساء إلى قائديه إساءة كبرى ، وربما كان دافعه إلى ما اقتراه على طارق هو طمعه في ولاية الأندلس ، ولكنه على كل حال لم يفز من ذلك بشيء . لأنه عاد إلى الأندلس فيما بعد ليعيش في « بلاطه » وأملاكه ، ولكن ينجب بنين سيكون لأحفادهم شأن عظيم في تاريخ الأندلس الإسلامي (١) .

وإذا كنا لا نأسف كثيراً على حرمان موسى من ثمرات فتوحه . لأنه في الواقع قد استمتع من هذه الثمرات بما فوق الكفاية . فان المؤرخ لا يسعه إلا أن ينظر بعين الأسف إلى هذه الحجب الكثيفة التي أسدلت على بقية حياة طارق ، هذا المسلم الإفريقي المحيد الذي لا تسجل الرواية الإسلامية عنه إلا خيراً . ولكن إهمال المؤرخين أمره لم يحرمه من نصيبه من الخلود . فقد أرادت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة من الأندلس وطعناً قدماءه . وأن تنتقل هذه التسمية بصيغتها العربية محرفة تحريفاً بسيطاً إلى اللغات الأوروبية جميعاً ، وتريد المقادير كذلك أن تكون هذه البقعة بالذات من المواضيع التي سيشغل ذكرها الناس على مر العصور ، لأسباب وعلى صورة لم تكن تدخل في حساب طارق ، فلا يزال الناس من ذلك الحين يتحدثون عن جبل طارق أو جبر التار . ويدفعهم هذا الذكر إلى البحث عن طارق وأخباره .

لم ترق عودة موسى وطارق نشاط المسلمين في الأندلس . فقد بق فيه نفر من الأجناد استمروا يواصلون العمل لإكمال الفتح ما بدأوا به . فتذكر الأخبار المضمرة أن سنة ٩٥ هـ شهدت فتح كثير من بلاد الأندلس على يد المسلمين دون أن تذكر هذه البلاد . ويذكر

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

جايانجوس : ترجمة نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

ابن الفرضي أن نعمان بن عبد الله الحضري عاد إلى الأندلس بعد مرافقته موسى إلى دمشق ، واشترك في الجهاد ومات في سبيل الله ، واستمر التابعيان على ابن رباح وحش الصنعاني في سيرهما بجند المسلمين نحو الشمال حتى فتح الله عليهما بنبلونة في أواخر سنة ٩٥ هـ (٧١٤ م) . ويذكر ابن خلدون أن المسلمين افتتحوا برشلونة بعد ذلك بقليل ، دون أن يستطيع التأكد من صحة أخبار هذه الفتوحات (١) .

وكان ينبغي أن نقف بقصة الفتح عند هذا الحد ، لأن ولاية عبد العزيز ابن موسى تبدأ عصر الولاة الذي سنتناوله في الفصل التالي . ولكن بقيت من الأندلس نواح واسعة في الشرق لا بد من استقصاء أخبار فتحها أو دخولها في طاعة المسلمين حتى نستطيع القول بأننا قد فرغنا من أخبار فتح المسلمين للأندلس تماماً .

كان عبد العزيز بن موسى قائماً نشيطاً ، فقد كانت له يد طويلة في فتوح إفريقية . وقد رأيناه ملازماً أباه مشاركاً إياه في كل عمل قام به في الأندلس ، ثم رأيناه بعد ذلك يقود جيشاً سار إلى إشبيلية ليخمد ثورتها التي قام بها أهلها على المسلمين في سنة ٧١٣ م . وأقام عبد العزيز بعد ذلك في هذه الناحية مواصلاً الفتوح في نواحي الغرب ، ففتح يابرة وشنترين وقلمرية خلال سنة ٧١٤ في الغالب .

ولم يكد عبد العزيز يستقر في ولاية الأندلس حتى نشط لإخضاع جنوب شرقي شبه الجزيرة الذي لم يصل إليه أحد من المسلمين حتى ذلك الحين ، وكان عبد العزيز قد استقر برجال حكمته في إشبيلية ، فظل هذا البلد عاصمة للأندلس الإسلامي طوال حكمه (٢) .

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٢٩ و ج ١ ، ص ١٠٩ ، ٢٥٦ .

المقرئ : نفع الطيب ، ترجمة جايانجوس ، ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) ذكر المقرئ في نفع الطيب سبب استقرار عبد العزيز في إشبيلية واتخاذها عاصمة له ، وهو رغبته في أن يظل على اتصال مستمر بإفريقية ، وكانت إشبيلية ميناء كبيراً يسع السفن الكبيرة ، ولم يكن جبل طارق كذلك .

٣٠- تدمير بدأ عبد العزيز بفتح مالقة (١) التي أسلمها حاكمها إلى المسلمين دون كبير عناء ، ثم قصد غرناطة ، ويقال إن حاميتها كانت من اليهود ففتحوها للمسلمين أبوابها دون مقاومة (٢) ، ثم اتجه عبد العزيز إلى إقليم مرسية حيث كان يحكم قائد قوطي يسمى تدمير (Teodomiro) ويذهب سافداً إلى أنه ابن (Ergobado) (٣) أحد كبار قواد غيطشة ، وإلى أن تدمير هذا كان رجلاً نصرانياً حسن العقيدة وأنه كان مثقفاً استطاع بفضل علمه أن يكسب احترام المسلمين بل احترام الخليفة نفسه حينما سار إليه فيما بعد ليشاركه في طاعة المسلمين من أول الأمر ، دون أن يسلم ، وأنه قاد جماعة من المسلمين سارت لفتح استجة (٤) ، ولكن الغالب أن الرازي أخطأ في ذلك لأنه يذكر أن المسلمين ساروا بعد ذلك لفتح أوريوالة (Orihuela) التي كانت إذ ذاك عاصمة إقليم مرسية وكان فيها مقام تدمير ، والغالب عندنا كذلك أن تدمير

(١) يذهب المقرئ أن مالقة فتحت أيام موسى ، وأنه أرسل ابنه عبد الأعلى في بعث حاصرها وكادت تستعصى عليه لولا أن حاكمها وقع في يد المسلمين نتيجة لعدم حرصه فلم تلبث المدينة أن سلمت . وهذه تفاصيل طريقة : غير أننا نستبعد أن تكون مالقة قد فتحت في أيام موسى وعلى يد ابنه هذا ، لأننا نعرف أن هذه الحملة قادها عبد العزيز بن موسى بنفسه عقب رحيل أبيه .

المقرئ : نفع الطيب : ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٢) أحمد الرازي : روى ذلك ابن الخطيب . انظر :

CASIRI. *Bibliotheca*, II p. 105.

(٣) قال الضبي في بغية الملتمس إن اسم تدمير كان تدمير بن غبدوش ، ويؤيد أحمد بن أنس السعدي ذلك في «نظم المرجان» ، ويقول سافداً بأنه لا بد أن يقرأ غوبادوش أوجوبادوش Gobados ، وأن هذا الاسم هو Ergobados وكان من أسماء القوط المشهورة المتداولة .

الضبي : بغية الملتمس : ص ٢٦٩ و ٣٣٧ و ٤٠٠ .

SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 87.

(٤) إيزودور الباجي ، رقم ٣٨ .

(٥) الرازي ، طبعة جايانجوس ، ص ٤ .

لم يفعل شيئاً لمقاومة المسلمين ، مثله في ذلك مثل غيره من أنصار غيطشة ، وبقي مكانه يرقب الحوادث حتى سار إليه المسلمون بقيادة عبد العزيز في أول ولايته سنة ٩٥ هـ على ما روينا (١) .

فلما اقترب عبد العزيز وجنوده من بلاده تخوف وفكر في أن يحتفى منهم ، وتذهب المراجع النصرانية إلى أنه استطاع رد جيوش المسلمين مهزومة مرتين (٢) ، أما المراجع العربية فتكتفي بقصة - موضوعة في الغالب - تدل على ذكاء تدمير وفطنته ، فتذكر أنه احتال على المسلمين ليحصل منهم على شروط حسنة ، « فأمر النساء فنشرن شعورهن وأعطاهن القصب وأوقفهن على سور المدينة ، وأوقف معهن بقية من بقي من الرجال في وجه الجيش حتى عقد على نفسه ، ثم هبط بنفسه كهيئة الرسول ، فاستأمن فأمّن ، فلم يزل يراوض أمير ذلك الجيش حتى عقد على نفسه الصلح وعلى أهل بلده ، فصارت تدمير صلحاً كلها ليس منها عنوة قليل ولا كثير ، وعاملهم على ترك أمواله في يديه ، فلما فرغ أبرز لهم اسمه وأدخلهم المدينة ، فلم يروا فيها أحداً عنده مدفع ، فندم المسلمون ومضوا على ما أعطوه ... » (٣) . ولستأ نستطيع أن نقبل هذه القصة على علاقتها ، ولستأ نستطيع كذلك أن نقر المراجع اللاتينية على ما تذهب إليه من هزيمة تدمير للمسلمين مرتين متواليتين (٤) ، وليس من المعقول كذلك أن تدمير سالم دون مقاومة أصلاً ، لأنه لو كان فعل ذلك لما حرص المسلمون على إعطائه شروطاً خاصة . وكل ما نستطيع قوله هو أن تدمير كان صديقاً للمسلمين من أول الأمر ، لأنه كان من أنصار غيطشة

(١) وانظر أيضاً : SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 88-89.

(٢) SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 127.

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ١٣ .

ابن عذارى : البيان ، ص ١٣ .

(٤) انظر مثلاً : إيزودور الباجي ،قرة ٣٨ أسطر ٩٧٠ - ٩٧٣ .

الكارهين للدريق وأمره^(١) ، وربما حسب أن المسلمين تاركوه وشأنه ، وربما يكون قد تفاهم مع موسى أو طارق على شيء من ذلك ، فلما وجد عبد العزيز يسير إليه ويقترب من بلاده أبدى من المقاومة ما أشعر المسلمين أن بلاده لن تفتح من غير عناء ، وكان المسلمون مجتهدين بعد هذه الحروب المتصلة . وكانوا يودون لو فرغوا من هذا الكفاح المتصل حتى تنأج لهم الفرصة لتنظيم شؤون البلاد . فانهز الفرصة وأقبل يفاوض المسلمين في شروط التسليم ، واستطاع أن يحصل على ما ضمن له بقاء شيء من السلطان في بلاده . وإن كانت الشروط نفسها لا تختلف في كثير من معاهدات الصلح الكثيرة التي عقدها المسلمون في ذلك العصر .

وقد احتفظت لنا المراجع بنص هذا الصلح على خلاف ما فعلت بالكثير من أمثاله : أورد الضبي نصه العربي وأورد الرازي صورة إسبانية منه وترجمه ميخائيل الغزيري إلى اللاتينية ، وأثبتته في فهرسه المعروف للمخطوطات العربية في الإسكريال ، وهذه هي الوثيقة نقلا عن الضبي :

« نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبيد العزيز بن موسى التميمي ابن عبدوش :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز إلى تدمير

أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه . ولا أحداً من النصاري عن أملاكه . وأنهم لا يقتلون ولا يسبون . أولادهم ولا نسباؤهم . ولا يكبرهون على دينهم . ولا تحرق كنائسهم ما تعبد (كذا . وصحها تقيده) وما نصصح . وأن الذي اشتد عليه أنه صانع على سبع مائة : (١) يفهم هذا من قول بعض المؤرخين إن طارقاً بعث تدمير في جيش ففتح استرجه :

أوريولة وبسنتشيلة ولقنت رمولة وبسنتسرة وأنسة ولورقة^(١) ، وأنه لا يأوى لنا عدواً ، ولا ينحون لنا أمناً ولا يكتم خبراً علمه ، وأنه عليه وعلى أصحابه دينار كل سنة . وأربعة أمداد قصب ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلا ، وأربعة أقساط نخل ، وقسط غسل ، وقسط زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كتب في رجب من سنة أربع وتسعين من الهجرة .

شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي . وحبيب بن عبيدة النهري رعبد الله بن ميسرة النهمي ، وأبو قائم الهندي^(٢) .

لو أخذنا بظاهر نص هذه الوثيقة لقلنا إن عبد العزيز اعترف بتدمير بالاستقلال في نواحيه ، وأن موقف هذا الأخير من المسلمين كان موقف المعاهد الذي يدفع الجزية . فلم يكن للمسلمين حق دنحول بلاده ولا التدخل في شؤون إدارتها . ولم تكن المنطقة التي عاهد عليها الرجل بالصغير ولا القليلة الأهمية . لأن المداين السبع التي عاهد عليها ترسم صليماً يضم في محيطه كل جنوب شرقي شبه الجزيرة . فكيف يتفق أن يسلم المسلمون في هذا الجزء

(١) هذه المدن السبع التي عاهد عليها تدمير هي :

أوريولة وهي Orihuela

بلنتلة ، وقد وردت في الرازي Valencia وهو خطأ ، وأوردها الغزيري Valentola . وقد أثبت سافدرا أن قرية قديمة بهذا الاسم كانت توجد على مقربة من بلدة Alcantarilla الحالية على خمسة كيلو مترات من مرسية ، وأن النهر الذي بهذه البلدة الأخيرة كان يسمى في القديم وادي فالنتيلية وقد تحول مع الزمن إلى Guadalentin

لقنت ، وهي Alicante

رمولة ، وهي Mula

بسنتسرة ، وهي Begastro بلدية على مقربة من Cehegin

أنه ، وهي Anaya على مقربة من دير San Ginés القديم المهدم في إقليم مرسية .

لورقة ، هي Lorca

راجع الملاحظات القيمة التي أوردها سافدرا . ص ١٢٨ - ١٢٩ والهوامش .

(٢) انظر : الضبي : بنية الملتص ، ص ٢٥٩ .

الرازي : الترجمة الإسبانية ، فقرة ١٢ .

اُخام من البلاد دون حرب ، ونجرد أن تدمير ضمن لم الجزية وعاهدكم على الصدق والصلح معهم ، مع أنهم كانوا مستطيعين أن يأخذوا الإقليم كله كما أخذوا بقية شبه الجزيرة ؟

لا نستطيع أن نفهم ذلك الصلح إلا على تفسير واحد ، وهو أن الأمان انصب على المدائن السبع وحدها دون الإقليم ، ولم تكن هذه المدائن كبيرة إذ ذاك بل كانت حصوناً ، فأقر المسلمون تدمير على ملكيتها على أن يؤدي عن أهلها الجزية (١) . ودليلنا على ذلك أن العرب سيتوغلون في جنوب شرق الجزيرة وسيستقرون في بعضها دون حرج ، ثم إن العهد لم ينص على أن هذه الشروط تسرى على أولاد تدمير من بعده ، أي أنها كانت له وحده طول حياته ، فكأن عبد العزيز أقر هذا الرجل المصادق للمسلمين على بعض بلاده التي كان يملكها تأكيداً لودعه وتسكيناً لخواطر من كان يعيش فيها من النصارى .

ولا محل إذن لما يزعمه بعض مؤرخي الإسبان من أن تدمير تصدى للعرب وأرقتهم خارج حدود إقليمه كله ، وأنه أقام هناك كالأمر المخالف مخالفة اللد للند . ولم يخسر المسلمون بهذا شيئاً . لأن جنوب شرقي الأندلس

(١) اختلف سافدرا وبروفنسال حول المراد بعبارة : « وأن الذي اشترط عليه أنه صالحي على سبع مدائن ... » الواردة في ذلك العهد ، فترجمها سافدرا :

«... y queda libre en las siete ciudades de ...»

أي أن المسلمين تمهدوا له بأن يتركوه حراً في هذه المدائن السبع .

وأما بروفنسال فقد ترجمها هكذا :

« La paix lui est accordée moyennant la remise des sept villes suivantes... »

والترجمان فيما نرى غير دقيقين : فإن المراد من أن الرجل صالحي على هذه المدائن السبع هو أنه سلم بأنها دخلت في طاعة المسلمين دون حرب ، ولكنهم لم يحتلوا بل اكتفوا بالعهد الذي أخذوه على صاحبها ، وبما تعهد به من سداد ما على أهلها من الجزية ، فهم لم يتركوه حراً كما يقول سافدرا ولم يتسلموا البلاد منه كما يقول بروفنسال ، وإنما اعترف الرجل بأن البلاد للمسلمين وأقام كالكاتب عنهم فيها يحكمها باسمهم .

Cf.: SAAVEDRA. Op. cit. p. 129.

LEVI-PROVENCAL. Histoire de L'Espagne Musulmane, I, p. 28.

وترجمة سافدرا لهذه الوثيقة مليئة بالأخطاء ، وفيها زيادات .

لم يظل خارجاً عن سلطانهم بل دخل في طاعتهم أسيرة بغيره من نواحي شبه الجزيرة ، ولأن تدمير كان في « ذمة » المسلمين شأنه في ذلك شأن غيره من النصارى الذين دخلوا في طاعة المسلمين إذ ذاك . وكان موقفه منهم موقف مالك إقطاعي من صاحب البلاد كلها : له سلطان شبه مطلق على النواحي التي يشمها إقطاعه ، ويظل في هذا الإقطاع ما ظل على الطاعة والصدق وما أدى الواجبات الإقطاعية من مان ومساعدة وقت الحرب وغير ذلك (١)

بقيت ملاحظة صغيرة عن تاريخ هذه المعاهدة الواردة في نصها ، فقد جعل بعض المؤرخين ذلك في سنة ٩١ هـ وذهبوا إلى أنها تمت في عهد طارق بن زياد ، وجعلها بعضهم سنة ٩٢ هـ . وهذان فرضان غير معقولين ، فإن الوثيقة صريحة بأنها عقدت على يد عبد العزيز ، وأنه عقدها بصفته عامل الأندلس ، ولو كان عقدها في حكومة أبيه لأشير إلى ذلك في صلبها . فإذا صح ذلك كان من الميسور أن نشك في التاريخ الذي تورده الوثيقة في نصها . ففي تذكر رجلاً سنة ٩٤ هـ ، ورجب هذا يقع في أبريل سنة ٧١٣ م ، فلو ذكرنا أن عبد العزيز فتح في هذه الغزوة - وقبل وصوله إلى بلاد تدمير - حصنين كبيرين هما غرناطة ومالقة . ولا بد كذلك أن شيئاً من الوقت قد ضاع في المحادثات مع تدمير حتى تم الاتفاق معه : إذا حسبنا لذلك كله ثلاثة أشهر كان من الضروري أن يكون عبد العزيز قد خرج بهذه الغزوة في يناير أو أوائل فبراير على أكثر تقدير ، وهذا وقت لم تجزم العادة بالخروج للغزو فيه في تلك العصور . وأسلم الآراء في هذا الموضوع هو أن نضع تسليم تدمير - وهو آخر حلقة من حلقات فتح المسلمين للأندلس - في أوائل سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) لأن موسى لم يبرح البلاد إلا في ذي قعدة سنة ٩٥ هـ .

* * *

(١) هذا واضح من قول إيزودور الباجي :

Theudimer, qui in Hispaniae partibus non modicas Arabum intulerat necesse et diu exagitatis, pacem cum eis foederat habendam. Cf.: no. 38.

وقد ورد النص في الضمائم إلى الحقها لافورني الكانترا بترجمته للأخبار المجموعة ، ص ١٤٩

هكذا تم فتح الأندلس بعد حرب عنيفة وجهد متصل دام أربع سنوات. إلا أشهراً : بدأ الفتح في رجب سنة ٩٢ هـ وانتهى في أوائل سنة ٩٦ هجرية ، وقد فتح المسلمون خلال تلك السنوات القلائل هذه الجزيرة الضخمة من أقصى الجنوب إلى جبال البرت رشاطي البحر في الشمال ، ومن مالقة وطركونة في الشرق إلى قلمرية وأشبونة في الغرب . واستولوا فيها على سهول الجنوب وعلى مرتفعات قشتالة ونواحي الجوف (استرامادوره) القاحلة . ولم يغادروا بلداً عظيماً أو حصناً هاماً إلا رفعوا عليه راية الإسلام وأدخلوه في حوزة الدولة الإسلامية الكبرى . ولو لم تكن البراهين ثابتة على تمام الفتح في هذه المدة القصيرة لما صدقه أحد . لأن شبه الجزيرة الأندلسية قطر عسير فسيح لا يسهل على أحد فتحه أو إخضاعه . وقد وفق العرب إلى ذلك في نظام وسياسة ينبغي أن نسجلهما لمن قاموا به .

ومهما بلغ المؤرخ من الثناء على طارق فإنه لا يستطيع وفاء حقه ، ولو فكر الإنسان في الأمر لحظة لاستخرج من حياة طارق وأعماله سرّاً من أسرار قوة الإسلام وناحية من نواحي امتيازها . فطارق هذا رجل مغربي بربري لم يكن ليصبح - بغير الإسلام - إلا قائداً خاملاً لجماعة من البربر منسيين في ركن من أركان الأطلس ، فجاء الإسلام فجعل منه قائداً فاتحاً وسياسياً محمكاً يقود الجيوش ويفتح الأمصار ويوقع المعاهدات في قدرة وكياسة جديرتين بالإعجاب . فلو لم يكن للإسلام من أثر إلا تكوين أمثال هذا الرجل واستنهاض قومه للعمل الجليل لكفاه ، فكيف وقد بث الإسلام هذا الروح في كل مكان أظلمته رايته . وكيف وقد فعل هذا في أقصر وقت ، وحققه على أتم وجه !

الحق أن فتح المسلمين للأندلس معجزة في ذاته ، إذ لا يصدق المرء وهو يتتبع أخبار هذا النجح أن الذين كانوا يقومون به بهذا النظام وبهذا النظر البعيد إنما كانوا بربراً لم يسبق لهم عهد بالنظام ولا الجيوش ولا المعاهدات . الحق أن الإسلام قد خطا بمعتقديه خلال القرن الأول بضعة قرون للأمم ،

وهذا تاريخ الرومان في إفريقية : لم يوقفوا إلى تحضيرها على نحو يقارب ما فعله الإسلام - ولو من بعيد - بعد بضعة قرون ، فما بالك وقد فعل الإسلام ذلك في نحو نصف قرن ؟

ولو ذكر الإنسان أن موسى أكمل عمل طارق . وأن عبد العزيز أكمل عمل الاثنين ، لاستبان أن العرب ساروا في فتح هذه البلاد على خطة محكمة لم يكن من الميسور وضع أحسن منها : فقد قضى على المقاومة واحتلت العاصمة في أول وثبة ، ثم اتجهت المهمة إلى إخضاع كبريات مدن الغرب ، ثم احتل المسلمون إقليم سرقسطة وتبعوا فلول المقاومة في معاقبتها في الشمال والشمال الغربي ثم فتحوا أقصى الغرب ، وختم العمل بفتح الجنوب الشرقي . ولو أن مجلساً للحرب من كبار العسكريين اجتمع ليضع خطة لفتح البلاد لما وفق إلى خير من ذلك . وتلك ناحية ينبغي أن لا تغيب عن ذهن الإنسان وهو يدرس هذا الفتح ، لأنها في الواقع تدل على نبوغ حربي عند هؤلاء المسلمين الأولين .

الفصل الرابع
عَصْرُ الْوَلَاةِ

حملاته ، إنما فتح الأندلس البربر وجند إفريقية وجند مصر^(١) ، وكانت الأعطيات تدفع من مال إفريقية ، وهذه ظاهرة ينفرد بها الفتح الأندلسي بين غيره من فتوح المسلمين : لقد وقع للخلافة كالغنيمة الباردة من غير جهد أو مثونة أصلاً .

٣٢ - لم تنعم الخلافة شيئاً مادياً من فتح الأندلس ، إنما غنمه الذين قاموا بفتحها وحدهم : ففي حين أننا نجد الخلافة تهتم - إذا ما تم فتح بلد - بإرسال عامل يقوم بشؤون الإدارة ، وعامل آخر يشرف على الجبايات وتنظيم الأموال والسير على حقوق الدولة المركزية . وترسل قاضياً ينظم القضاء ويقيم العدل باسم الخلفاء ، وبينما نرى سبل الأموال ينثال على خزائن الخلفاء في دمشق من كل ناحية فتحها المسلمون : من فارس إلى حدود النوبة وسواحل المحيط الأطلسي . وبينما يحرق المؤرخون أشد الحرص على أن يذكروا لنا مقادير الجبايات ونظمها في كل ناحية ، إذا بنا نجد الخلافة لا تكاد تولي هذا القطر العظيم ولو جانباً يسيراً من العناية التي يستحقها : فهي لم ترسل إليه من أول الأمر والياً خاصاً به بل تركته نحو تسع سنين تحت تصرف عامل إفريقية يتصرف في شؤونه كما يريد^(٢) ، وهي لم ترسل إليه

(١) لم يشر مرجع واحد إلى أن الوليد بن عبد الملك بعث إلى موسى بجيش أو بمدد ، ويذكر الرازي - عن الواقدي عن موسى بن رباح عن أبيه - أن موسى خرج « في عشرة آلاف من إفريقية » ، ويقول صاحب فتح الأندلس أن موسى « دخل الأندلس ومعه ثمانية عشر ألفاً من قریش والعرب ووجوه الناس » .

انظر ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٥ .

فتح الأندلس ، ص ١٠ .

(٢) ترك موسى بن نصير ابنه عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس حينما عاد إلى المشرق في صفر سنة ٩٥ هـ (أكتوبر - نوفمبر ٧١٣ م) وخلفه أيوب بن حبيب اللخمي ، وقد أقامه جند الأندلس على أنفسهم ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي وقد عينه محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان ابن عبد الملك . وكان أول وال أقامته الخلافة هو السمع بن مالك الخولاني ، أقامه عمر بن عبد العزيز في رمضان سنة ١٠٠ (مارس - أبريل سنة ٧١٩ م) ولم تزد ولايته عن عامين وبضعة أشهر ، إذ خلفه عبد الرحمن بن عبد الله النافق في ذي الحجة سنة ١٠٢ هـ .

٣١ - لم تتكلف فتح المسلمون خلال القرن الحزري الأول بلاد العرب كلها لثلاثة جهات : العراق وفارس والشام وجزءاً من آسيا الصغرى ومصر والشمال خاصة في سبيل الإفريقي وشبه الجزيرة الإيبيرية . ولكنهم لم يتكلفوا في فتح قطر نبح الأندلس من هذه الأقطار مؤونة هي أيسر مما تكلفوه في فتح هذا القطر الأخير . فقد سيرت الخلافة الجيوش نحو كل قطر من هذه الأقطار وألقت في ميادينها بآلاف العرب وأمدتهم بالمؤن والأعطيات ، ولم يتم الفتح في معظم هذه النواحي من غير معارك دامية هلك فيها آلاف العرب وانكسرت فيها جيوشهم مراراً عديدة ، واتي فيها نفر من كبار القواد حتوفهم كما رأينا في فتح المغرب . فأما الأندلس فقد احتمل البربر صدمته الأولى . وهلك منهم في واقعة وادي البرباط وحدها ثلاثة آلاف . وأقبل العرب بعد ذلك مع موسى يسيرون في البلاد الهوي لا يكادون يلقون عند ما يعترضهم من البلاد من المقاومة ما يتناسب مع أهمية هذه البلاد ، ولا تكاد ناحية تعجب قوماً منهم حتى يحطوا رحالهم فيها ويستوطنوها دون حاجة إلى حاميات أو إقامة حصون ، وما زالوا حتى انتشروا في شبه الجزيرة كله ، واستقرت جماعات منهم في نواحي الشمال على مقربة من خليج بسكاية ، وجماعات أخرى في أقصى الشمال شرقاً وغرباً^(١) بل طمعت بهم الآمال إلى ما وراء إسبانيا من بلاد غالة فانساحوا في بطائعها يفتحون ويستقرون .

ولعلنا لاحظنا أن الخلافة لم تتكلف في سبيل ذلك جهداً خاصاً : لم يجيش الأمويون جيشاً واحداً لفتح الأندلس ، ولم يخرجوا من خزائهم درهماً لإعداد

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

عاملاً على المال يخصى نواحيه وأهله ويخمس النواحي ويقرر مقادير الخراج والجزية والحباية : ويقرر ما ينبغي أن ينفق في البلاد وما ينبغي أن يحمل إلى دار الخلافة . وهي لم تكن كذلك بتنظيم القضاء في الأندلس من أول الأمر ، بل جعلت ذلك من شؤون الولاة : يعينون القضاة أو لا يعينونهم كما يشهرون^(١) . وإنه لمن الغريب حقاً أن نلاحظ أن المراجع لا تذكر — ولو مرة واحدة — أن شيئاً من المال قد أرسل من الأندلس إلى المشرق^(٢) ، بل إننا لن نخرج من بحثنا إلا بنتيجة واحدة ينبغي أن نقررها حتى يتكشف لنا ما ينقصها : وهي أن الأندلس لم يبعث إلى مركز الخلافة شيئاً من ماله أو من جبايته أصلاً .

وذلك في ذاته وضع غريب . ويزيد في غرابته أن الأندلس كان بلداً غنياً عظيم الجباية . وأن الخلفاء كانوا يعلمون مقدار غناه بسبب ما يحمله إليهم غزاته من غنائم وطرفة . ولست أشك في أننا سنظل زماناً طويلاً لا نفهم السر الذي جعل الخلافة تنفضي على هذا النحو من التهاون في شؤون الأندلس ، ولسنا نستطيع أن نرد ذلك إلى بعده عن مركز الخلافة . لأن الخلافة لم تحاول ولا مرة واحدة بسط سلطانها المؤكد عليه ، ولم تطالب مرة — ولو في شيء من البلبس — بتسليمها من أمواله وجباياته التي تحقق لها وفقاً للنظام المالية

(١) لم يعين خلفاء بني أمية على الأندلس إلا قاضياً واحداً هو يحيى بن زيد التجيبي ، عينه عمر بن عبد العزيز . أما غير يحيى من قضاة الأندلس قبل قيام الدولة الأموية الأندلسية فكان يعينهم ولاة الأندلس في الغالب ولاة إفريقية في النادر ، وكانوا يسمون قضاة الجند .

انظر الخشنى : قضاة ، ص ٢٧ .

النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٢ — ٤٣ .

ومقدمة الترجمة الإسبانية لقضاة قرطبة للخشنى .

(٢) يذكر ابن قتيبة في « الإمامة والسياسة » أن سليمان قرر على موسى ٤٠.٣٠٠.٠٠٠ دينار ذهباً غرامة ، ولسنا نعلم إن كان هذا المبلغ هو ما استحق للخلافة من خراج الأندلس في الفترة التي تولاهما موسى ، أو هو خراج الأندلس وإفريقية معاً ، أو هو نصيب الخلافة في منام موسى من الأموال . وهذه الإشارة — على اضطرابها وقلة جدواها — هي الوحيدة التي تتحدث عن مطالبة الخلفاء لأحد من ولاة الأندلس بمال .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة (طبعة القاهرة سنة ١٩٠٤) ج ٢ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .

والإدارية التي كانت تطبق في دقة في كل ناحية من نواحي الدولة الإسلامية الواسعة إذ ذاك .

ولسنا نستطيع كذلك أن نرد هذه الظاهرة إلى أن جند الأندلس كانوا يستنفدون أمواله كلها ، أو أن خراجها كان ينفق على الفتوح فيما وراءه من البلاد ، لأن الواقع أن جانباً عظيماً من عرب الأندلس لم يكرنوا جنوداً نظامياً تابعاً للديوان الجند في دمشق ، وأن عدد هؤلاء العرب لم يبلغ المبلغ الذي يستنفد أموال هذا القطر العظيم الغني . وأما الحروب فيما وراء البرت فقد كان معظم القائمين بها من المتطوعة الذين لا تفرض لهم أعطيات ، وكان ما يقع بين أيديهم من الغنائم من الوفرة بحيث لم يفكروا في مطالبة الدولة بأعطيات^(١) .

كل ذلك يلقي ضوءاً كاشفاً على حقيقة وضع القطر الأندلسي خلال الفترة التي تقع بين تمام الفتح وبين قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن ابن معاوية المعروف بالداخل سنة ١٣٨ هجرية (سنة ٧٥٦ م) فهو لم يكن ولاية تابعة تمام التبعية للخلافة المركزية كمصر أو كالشمال الإفريقي مثلاً ، ولم يكن كذلك قطراً مستقلاً تمام الاستقلال ، وإنما كان له وضع خاص بين بين : كان يكون جزءاً من الدولة الإسلامية مكملاً لإفريقية داخلاً في طاعة الخلفاء ، يخطب لهم على منابرهم ، ولم يزد سلطان الخلفاء فيه على هذا اللون الضعيف من ألوان التبعية إلا قليلاً كما سنرى ، وسنحاول فيما يلي من هذا الفصل أن نزيد هذا الأمر وضوحاً .

(١) يذهب بعض المؤرخين إلى أن جند المسلمين الذين كانوا يخرجون للحمولات فيما وراء جبال البرت بلغوا ثمانين أو مائة ألف في مواقع مثل طولوشة وبلاط الشهداء ، وتلك تقديرات مبالغ فيها ، إذ الواقع أن جند المسلمين لم يزد في هذه المناسبات عن ستين أو سبعين ألفاً أكثر من ثلاثة أرباعهم من البربر ، والربع — أي بين خمسة عشر وعشرين ألفاً — كانوا من العرب . هذا وقد كان العرب وحدهم هم أصحاب الحق في فروض الديوان ، أما البربر فلم يكن يفرض لهم رزق ، وسنرى أن ذلك سيكون من أسباب ثورة البربر على العرب .

٣٣ - هجرة العرب إلى الأندلس وسكناتهم نواحيه ، ولسنا نقصد بذلك جماعات العرب الفاتحة ، وإنما جماعات المهاجرين المسلمين الذين أقبلوا إلى الأندلس بعد الفتح واستقروا في نواحيه دون أن تحدثنا المراجع عنهم بشيء ينفع الغلة ، فقد رأينا أن عدد العرب الذين أقبلوا مع موسى لم يزد على ثمانية عشر ألفاً ، وسنلاحظ أن بضعة آلاف أخرى ستقبل خلال العشرين سنة التالية شيئاً فشيئاً ، وسنرى أن موجة أخرى لا يزيد عددها على عشرة آلاف ستقبل مع بلج بن بشر ، فإذا أخرجنا من ذلك أعداد من لقي مصارعه في فتح البلاد وما وراءها من نواحي غالة ، وأعداد من عاد إلى المشرق أو إلى إفريقية بعد الفتح ، لم نستطع أن نقدر من استقر في الأندلس من العرب بأكثر من خمسة وعشرين ألفاً .

ولكننا لا نكاد نمضي في استقصاء أخبار الأندلس حتى نجد موج بالعرب موجاً : نجد جماعات عربية ضخمة في نواحي قرطبة وإشبيلية والجزيرة الخضراء وتدمير وسرقسطة ، غير جباليات أخرى صغيرة في كل ناحية تقريباً ، وقد استعرض ابن غالب في « فرحة الأنفس » بعض هذه الجماعات العربية استعراضاً سريعاً مقتضباً يفهم منه أن عددهم كان يبلغ على الأقل أضعاف هذه الآلاف التي ذكرها المؤرخون^(١) .

فن أين أتى هؤلاء العرب ؟ وكيف بلغ من كثرتهم أنهم احتلوا معظم سهول البلاد حتى لم يبق للبربر غير القليل منها ، وسهول الأندلس واسعة لا يملؤها إلا مئات الآلاف ، فكيف أقبل إلى البلاد هؤلاء العرب الذين فاضت بهم الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ؟

لسنا نستطيع تفسير ذلك إلا إذا افترضنا أن تياراً من مهاجري العرب كان يتجه نحو الأندلس من أول الأمر ، ويؤيد ذلك قول الرازي بعد وصف

(١) راجع البيانات التي يقدمها المقرئ نقلاً عن « فرحة الأنفس » لابن غالب : نفع الطيب (القاهرة سنة ١٩٤٩) ج ١ ، ص ٢٧١ وما يليها .

معركة وادي لك : « وتسامع الناس من أهل بر العدو بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر فلهقوا بطارق . وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع . وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال »^(١) . وهي عبارة هامة تدل على أن اندفاع الناس نحو الأندلس كان عظيماً لا يكاد يعدله اندفاعهم نحو أى بلد آخر مما فتح الله على المسلمين في ذلك الحين .

ولم يفسر لنا الرازي عبارته تلك حتى نعرف نسبة العرب إلى البربر في هذه الجماعات المهاجرة . ولكننا نستطيع أن نقرر أن نسبة العرب وإن كانت قليلة إلا أن عددهم كان كثيراً . وأن جانباً عظيماً من هؤلاء استقر في الأرياف من أول الأمر على صورة جماعات قليلة في كل ناحية . وقد وضعت هذه الجماعات يدها على ما استطاعت من الأرض وأخذت تعمل على عمارته واستحياته مستعينة بالزرايع من الأهليين على نظام المزارعة الذي سأل عنه . وكانت الأحوال السياسية في المشرق سبباً من أسباب هجرة العرب

(١) الرازي برواية المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

ويبدو أن هذه العبارة تنصب في الغالب على البربر ، ولكن الذي لا شك فيه أن جماعات كثيرة من العرب اليمنية الكلبية ومن أهل المدينة كانت قد هاجرت بعد كربلاء والحرة إلى إفريقية والأندلس . راجع الإشارات عن ذلك عند :

اليقوي : كتاب البلدان ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

ابن خلدون : كتاب الغر ، ج ٣ ، ص ٢١ وما بعدها .

السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٩ وما يليها .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ٥٧ .

المسعودي : مروج الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٠٠ وما بعدها .

ابن الأثير : الخلة ، ص ٤٧ - ٤٩ .

P.H. LAMMENS, *Le Califat de Yazid Ier*, VIII-IX, pp. 114 sqq.

WEIL, *Geschichte der Chalifen*, I, p. 326 sqq.

DOZY, *Musulmans d'Espagne*, I, pp. 119 sqq.

وبعد المسألة رغم ذلك لا تزال غامضة جداً لقلّة وضوح المراجع .

إلى الأندلس : فقد هاجر الكثيرون جداً من أهل الحجاز من بلادهم إلى العراق وخراسان والشمال الإفريقي والأندلس عقب هزيمة عبد الله بن الزبير ، وهاجر كثير من الكلبيين بعد انتصار مروان بن الحكم واعتلائه عرش الخلافة ، وهاجر عدد عظيم من مصر إلى الأندلس بسبب ما تلا ذلك من أحداث (١) .

وأما البربر فكانت أعداد مهاجرهم تزيد على أعداد العرب أضعافاً ، وتذهب بعض التواريخ الحديثة إلى أن العرب استأثروا دونهم بخير النواحي ولم يتركوا لهم غير المضارب القاحلة في الشمال (٢) ، وهذا غير صحيح على إطلاقه ، لأن البربر انتشروا واستقروا من أول الأمر في كل ناحية ، وكانت غالبية هذه الأفواج الأولى من البربر المهاجرين من زناتة ، لأن الزناتيين كانوا أول البربر إسلاماً وانضماماً للعرب ، وكان طارق بن زياد منهم (٣) .

أخذت هذه الجماعات المسلمة - عربية وبربرية - تستقر في نواحي البلاد خلال فترة الولاة كلها ، وسنرى أثر ذلك في تطور الحوادث وفي تحول الأندلس إلى بلد إسلامي عربي الطابع في أقل من قرن .

* * *

(١) انظر الهامش السابق .

(٢) المسئول عن إذاعة هذه الفكرة دوزي ، وقد اعتمد على عبارة قصيرة جداً وموجزة لإيزودور الباجي (فقرة ٤٤) ولكننا سنرى أن الحوادث لا تؤيد هذا الرأي . صحيح أن العرب أساموا معاملة البربر وأذوهم كثيراً ، ولكنهم لم يختصوا أنفسهم بأحسن الأرضين ، لأن أرض الأندلس كانت من الوفرة بحيث تكفى جميع العرب عن سعة ، ويبقى للبربر بعد ذلك من الأرض ما فيه الكفاية في كل ناحية .

(٣) كان معظم البربر الذين أسلموا أول الأمر من زناتة . راجع :

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

البلادري : فتوح البلدان ، ص ٢٢٤ .

ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

ابن خلدون : كتاب البربر ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .

وفتح العرب للمغرب لصاحب هذا الكتاب ، ص ٢٨٢ وما بعدها .

٣٤ - ولاية أصبح عبد العزيز بن موسى بن نصير والياً على الأندلس عبد العزيز بن منذ مبارحة أبيه موسى البلد في صفر سنة ٩٥ هـ (أكتوبر - موسى نوفمبر سنة ٧١٣ م) ، ولسنا نعلم إن كان الخليفة سليمان ابن عبد الملك قد بعث إليه كتاباً يثبت في هذه الولاية ، وإن كنا نعلم في شيء من الثقة أنه أقره في ولايته سياسةً منه أو رضى عنه . وكان الأندلس في ذلك الحين تابعاً لإفريقية ، وكانت ولاية إفريقية بيدى مروان وعبد الله ابني موسى وأخوى عبد العزيز ، فليس إلى الشك سبيل في أنها أيداه على هذه الولاية .

ولا تكاد المراجع تذكر لعبد العزيز عملاً خلا ما ذكرناه من فتحه الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة ، ويبدو أن نفسه كانت طول الوقت مروعة ينتابها الخوف على مصير أبيه ومصير أسرته ، فالإلى السكون والانتظار والرقب ، وبهذا وحده نعلل سكوته عن العمل وقد عرفناه إلى ذلك الحين رجلاً نشيطاً مقدماً .

٣٥ - مقتل كانوا ساخطين عليه بل لأن نفرأ من بينهم كان شديد موسى التطلع والطموح ، تذكر المراجع منهم حبيب بن أبي عبيدة

ابن عقبة بن نافع الفهري حفيد عقبة بن نافع - وقد كان شخصية قلقة لا تكف عن السعي والتدبير كما سنرى - وزياد بن عذرة البلوي ، وزياد ابن نابغة التميمي ، وكانوا جميعاً من الظاهرين من جند موسى وكبار رجاله . وكان حبيب بن أبي عبيدة الفهري أكبرهم وأظهرهم ، وكان موسى قد أحلقه بابنه وجعله «وزيراً له ومعيناً» (١) كما يقول ابن عذارى ، ويبدو أن الخلاف بين هؤلاء القادة وعبد العزيز كان مستمراً «لأشياء نقيمها عليه» (٢) كما يقول الرازي .

فأما هذه الأشياء التي «نقيمها عليه» فهي علاقته بزوجه النصرانية

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

«أجلونا» التي تسميها المراجع العربية أيلُهُ (= أيلونا) أو أم عاصم . وكانت أيلونا قبل ذلك زوجاً للذريق فيما تذهب المراجع ، «وكانت قد صالحت على نفسها في وقت الفتح وباءت بالجزية ، فأقامت على دينها فحظيت عنده وغلبت على نفسه» (١) ، فزوجها وأقام معها في ناحية من كنيسة رُفَيْسَة في إشبيلية ، وكانت قد حوت إلى مسجد ، فكانت داره على هذا قريبة من موضع اجتماع المسلمين ومكان صلاتهم . ولو قد كان عبد العزيز ضعيفاً مترفاً كما يفهم من مراجعنا لاستطاع أن يسكن أحد قصور إشبيلية الحسان ، ولكنه كان في واقع الأمر رجلاً جاداً حريصاً على أن يكون على مقربة من رجاله . ويبدو أن أيلونا كانت على جانب عظيم من القوة والذكاء . لأنها لم تلبث أن ملكت زمام زوجها فتابعها في كثير مما أرادت . وتذهب المراجع إلى أنها علمت له تاجاً من الذهب والحرير وحملته على أن يلبسه . لأن «الملوك إذا لم يتزوجوا فلا ملك لهم» كما قالت ، وما زالت به حتى قبل أن يلبسه إذا خلا إليها ، «فبينما هو ذات يوم جالس معها والتاج على رأسه دخلت عليه امرأة كان قد تزوجها زياد بن نابغة التيمي من بنات ملوكهم . فعاينته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألا أعمل لك تاجاً ؟ فقال لها : ليس في ديننا استحلال لبسه ، فقالت : ودين المسيح إنه لعل رأس ملككم وإمامكم ، فأعلم بذلك زياد حبيب ابن أبي عبيدة ، ثم تحدثا بذلك حتى علمه خيار الحنسد ، فلم يكن لهم هم إلا كشف ذلك ، حتى رأوه عياناً ، فقالوا : قد تنصّر ! ثم هجموا عليه فقتلوه» (٢) .

ولسنا نعلم كيف فسر الجند لبسه التاج بأنه قد تنصّر ، هذا إذا كان قد لبسه أصلاً ، ولا كيف قال عبد العزيز إن لبس التاج ليس من الدين ، مع أن أشراف الدين ليس فيها ما يفهم منه ذلك ، ثم إن الرجل لم يلبسه كشارة من شارات الملك ، بل لبسه في خلواته مع أهل بيته . ولسنا نفهم كذلك كيف

(١) فتح الأندلس ، ص ٢١ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

ثار الجند هذه الثورة لمثل هذا الأمر وهم لم يكونوا يثورون على من يعيب الحمر ويقترب المحرمات منهم ، وقد كان جند الأندلس من أكثر الناس إسرافاً في هذه الأمور . ثم لماذا تكون زوجة زياد بن نابغة التيمي بالذات هي التي تكشف هذا الأمر ؟

إن سياق هذه القصة يدل على أنها ملفقة تلفيقاً ، وأنها وضعت لكي تستر الدوافع الحقيقية التي حفزت جند عبد العزيز على قتله .

وأما القول بأن الخليفة سليمان هو الذي أوعز بقتله فقول لا يجد ما يؤيده . لأن الخليفة لم يكن عاجزاً عن عزله إن أراد ، ولم يكن ليخشى ثورته بالجند لأن الجند كان مختلفاً عليه ، وليس بمعقول أن يكون حقد سليمان على عبد العزيز أشد من حقه على أبيه موسى .

ومصادق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن سليمان بن عبد الملك لما بلغه «مقتل عبد العزيز بن موسى شق ذلك عليه ، فولى إفريقية عبيد الله بن يزيد القرشي ، لا أدري لمن من قریش (يريد محمد بن يزيد مولى قریش والى إفريقية) ، وإلى إفريقية كان أمر الأندلس وطنجة وكل ما وراء إفريقية . وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبي عبيدة وزياد بن نابغة من قتل عبد العزيز ، بأن يتشدد في ذلك ، وأن يقفلهما إليه ومن شركهما في قتله من وجوه الناس . ثم مات سليمان ، فشرح عبيد الله بن يزيد والى إفريقية على الأندلس الحر بن عبد الله الثقفي ، وأمره بالنظر في شأن قتل عبد العزيز» (١) . مما يفهم منه صراحة أن الأمر دبر بغير علم الخليفة ، وأن له أسباباً أخرى لا تفصح المراجع عنها . وتؤيدنا رواية الأخبار المجموعة تلك فيما ذهبنا إليه آنفاً من أن الأمر دبره حبيب بن أبي عبيدة ونفر ممن كان معه من الجند ، وسرى أن حبيباً هذا سيظل طول حياته سبياً للمتعاب والقلاقل ، وأن مصيره لن يكون خيراً من مصير عبد العزيز .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٢١ - ٢٢ .

وأقرب التفسير إلى الصحة هو القول بأن المسألة كانت نتيجة لتدبير محكم بين محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان وبين حبيب بن أبي عبيدة ، ونفر من الجند ، وأن هؤلاء قرروا قتله دون الرجوع إلى سليمان في الأمر ، ومصداق ذلك ما يقوله صاحب فتح الأندلس : « ثم اجتمعوا على أيوب ابن حبيب اللخمي الذي قُتل عبد العزيز بمشورته » مما يدل بوضوح على أن الأمر تم في الأندلس بعد أن اشتدّ فيه الجند .

وكان سليمان قد أوصى يزيد بأن « يأخذ آل موسى بن نصير وكل من انتسبوا إليه حتى يقوموا بما بقي عليه وهو ثلاثمائة ألف دينار ولا يرفع عنهم العذاب ، فقبض على عبد الله وإلى القيروان فحبسه في السجن » ثم وصل البريد من قبل سليمان يأمره بضرب عنقه ... وحكى الواقدي ، قال : لما بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع الطاعة وخالف ، فأرسل إليه سليمان رسولا ، فلم يرجع . فكتب سليمان إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ووجه العرب سرا بقتله ، فلما خرج عبد العزيز إلى صلاة الصبح قرأ فاتحة الكتاب ، ثم قرأ سورة الواقعة ، فقال له حبيب : « حقت عليك يا ابن الفاعلة ! » وعلاه بالسيف فقتله ^(١) .

فن المعقول جداً أن يكون عبد العزيز قد تحدث بشيء من السخط على بني أمية بسبب ما أنزله سليمان بأبيه وأخيه وآله ، دون أن يصل به هذا السخط إلى حد الثورة وخلع الطاعة ، لأنه لو كان فعل هذا لأبعد حبيب بن أبي عبيدة عن معسكره ولاحتطاط منه على الأقل ، فلم يكذب خبر هذا الحديث يصل إلى محمد بن يزيد حتى أوعز إلى حبيب هذا ومن معه يغريهم به فغدروه على النحو الذي تصوره رواية الواقدي وتؤيده كل الروايات الأخرى فيه .

وتجمع المراجع على الثناء على عبد العزيز ، فهو عند أكثرهم من خيار الولاة ، ويؤكد الرازي أنه « ضبط سلطانها وسد ثغورها وافتتح مداين كثيرة ،

(١) انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

وفتح الأندلس ، ص ٢٣ .

إلا أن مدته لم تطل ... » . وإذا جاز أن نستنتج شيئاً من قصته مع أيلونا فهو أنه كان رجلاً تقياً لطيفاً حسن العشرة ، وأنه كان قادراً على تذوق الحياة .

يقول صاحب « فتح الأندلس » أن جند الأندلس اجتمعوا بعد قتل عبد العزيز « على أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت حبيب اللخمي موسى الذي قُتل عبد العزيز بمشورته » ، وهي عبارة هامة تكشف لنا عن بعض أسباب مقتل عبد العزيز . ولو أضفناها إلى رواية « الأخبار المجموعة » - التي ذكرناها آنفاً والتي تؤكد أن سليمان استاء حين بلغه خبر مقتل عبد العزيز وبعث يطلب إلى وائ إفريقية فحص المسألة وإرسال من اشتركوا فيها إليه - تبيننا أن القول بأن سليمان هو الذي حرص على مقتل عبد العزيز غير صحيح ، وأن الحادث كان من تدبير نفر من رجال العرب في الأندلس . فقد كان كبار الجند - وعلى رأسهم أيوب بن حبيب اللخمي هذا وحبيب بن أبي عبيدة وزباد بن عذرة البلوي وزباد بن نابغة التميمي - ناقلين على عبد العزيز ، فقتلوه ليمتثلوا الأمر واحد منهم وهو أيوب . ويبدو أنهم كانوا يحسبون أن سليمان سيرضى عن فعلتهم هذه ويقرهم على ما فعلوا ، ولكن سليمان لم يلبث أن أرسل يطلب عقابهم ، ولم يلبث أن عزل واليهم هذا وأقام غيره .

لم نزد ولاية أيوب عن ستة أشهر لم يفعل فيها شيئاً يذكر ٣٧ - نقل إلا نقله العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة ، ولا نزاع في أن العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة كانت أوفق من إشبيلية لحكم الأندلس ، لأن موقعها أوسط وأقرب إلى منازل جماعات العرب في الشرق والجنوب الشرق والجنوب . ولو أنهم انتقلوا إلى طليطلة لكان أحسن ، لأنها في وسط شبه الجزيرة تماماً ، وهي على أبواب الهضاب الشمالية والشمالية الغربية ، وصاحبها لا يجد صعوبة في إخضاع هذه النواحي ، أما قرطبة فبعيدة عنها جداً ولا تستطيع الحملات الصادرة منها الوصول إلى نواحي قشتالة وأشبليس

إلا بعد سير طويل مجهود . وقد ظلت إشبيلية عاصمة الأندلس الإسلامي أربع سنوات إلا قليلا ، ويبدو أن النية لم تنجح إلى الانتقال إلى قرطبة إلا في أواخر أيام عبد العزيز . وكانت جماعات كبيرة من العرب قد استقرت في إقليمها ، وظلت مقيمة فيه . بعد انتقال العاصمة إلى قرطبة ، وكان معظم هؤلاء العرب الذين استقروا في إقليم إشبيلية وكبار مدنه مثل وادي آش وشريش وشلطييش من هوازن وأسد وبكر بن وائل وإياد بن نزار ومراد وخولان ، وتكونت منهم مع الزمن جالية عربية قوية اختلطت بأهل البلاد ، وقامت لهم مع الزمن عصبية خطيرة كان لها فيما بعد مع أمراء قرطبة المروانيين تاريخ طويل حافل بالحروب والمنازعات .

وكان قد سكن قرطبة وإقليمها عدد عظيم من العرب ، بل كان ما يحيط بها من الأرباض أحفل أقاليم الأندلس بالعرب من أول الأمر ، وكان هؤلاء العرب المستقرون هناك من أصول شتى لا يكاد السلام يستقر فيما بينهم ، فكان انتقال الحكومة إليها سبباً في تورط العمال فيما عساه أن يشجر بين هذه القبائل من خلافات .

وكنا قد أشرنا إلى أن موسى بن نصير كان قد وهب مغنيًا الرومي القصر الذي كان حاكم قرطبة القوطي يعيش فيه في غرب المدينة ، فلما عاد موسى من فتوحه في الشمال ومر بقرطبة ورأى القصر استكثره على مغيث ، ورأى أنه أوفق ما يكون لعمال البلاد ، فصرف مغنيًا عنه وعوضه عنه داراً أخرى على مقربة من باب القنطرة مقابل التلمة التي دخل منها أصحابه حين افتتح قرطبة ، وكانت داراً شريفة ذات سق وزيتون وثمار ، ويقال لها « ألبسانة » كانت للملك الذي أسره وكان له فيها بلاط منيف ، فهي تسمى بالأندلس « بلاط مغيث » . وقد أدخل مغيث هذه الدار لتصبح قصر عمال قرطبة وأمراثا ، ويبدو أن أيوب حينما دخل البلد لم يسكنه .

وكانت ولاية الأندلس في ذلك الحين إلى عامل إفريقية . وكان عاملها كما ذكرنا محمد بن يزيد (ذو الحجة سنة ٩٧ هـ / أغسطس سنة ٧١٦ م - رمضان سنة ١٠٠ / مارس سنة ٧١٩ م) فلم التقى على يقر الجند على ما فعلوا من تولية أيوب بن حبيب وسارع فبعث الحر بن عبد الرحمن الثقفي والياً في ذي الحجة سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م .

ويبدو أن سليمان بن عبد الملك هو الذي حفزه على ذلك ، رغبة منه في عقاب من شاركوا في قتل عبد العزيز بن موسى ، ويبدو أن الحر كان قد توقع مقاومة من أيوب وأصحابه من المؤتمرين فاصطحب معه قوة صغيرة من أربعائة عربي من وجود عرب إفريقية ، ويبدو أنهم كانوا نخبة خفارة . فلم يستطع جند الأندلس لهم مقاومة ، وأسلموا لهم الأمر . وأصبح الحر والياً على البلاد . أقام الحر حاكماً للأندلس سنتين وثمانية أشهر . ولا تذكر المراجع له شيئاً غير سكنه قصر قرطبة الكبير واختطاطه إياه مقاماً للعمال من ذلك الحين .

وتوفي سليمان بن عبد الملك في العاشر من صفر سنة ٩٩ / ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧ م ، وخلفه عمر بن عبد العزيز ، فبدأ الأندلس في خلافته عهداً جديداً . شأنه في ذلك شأن إفريقية وبعض الولايات الإسلامية الأخرى ، بسبب ما امتاز به من الإخلاص في أمور المسلمين والعناية بشؤون دولته والحرص على تخير العمال الصالحين القادرين على النهوض بالمسؤوليات .

وقع اختيار عمر على رجل من أفاضل عرب إفريقية ليلى شؤون الأندلس وهو السمع بن مالك الخولاني ، وكان قد ظهر قبل ذلك في مناسبة لا تخلو من معنى ، يذكرها معظم روائنا : فيبتولون إن عادة خلفاء بني أمية كانت قد جرت بأن لا يدخلوا خزائنهم شيئاً مما يرسله الولاة من خراج ولاياتهم إلا إذا شهد عشرة من عدول الجند في الولاية بأن هذا المال هو المستصفي للخلال لبيت المال ، بعد دفع أعطيات الولاية والإنفاق على مصالحها وشؤونها . فلما أقبلت أموال إفريقية في أحد أعوام خلافة سليمان ، أقبل معها عشرة من العدول

٣٨ - عامل إفريقية يولى الحر ابن عبد الرحمن الثقفي على الأندلس

٣٩ - ولاية السمع بن مالك الخولاني

تخيرهم الوالي ، وفيهم إسماعيل بن عبيد الله والسمح بن مالك ، فمخلف الثمانية الآخرون على صحة هذا المال وحلاله ، وأما السمح وإسماعيل بن عبيد الله فأبيا أن يخلعا . وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً إذ ذاك ، فأعجبه عمل الرجلين وضمهما إلى نفسه وادخرهما إلى وقت يحتاج إليهما فيه . وهي رواية تدل على صحة ما كان يتم به ولاية إفريقية للأمويين من سوء التصرف في أموال البلاد ، وإرهاقهم أهلها بالمغارم والحبائبات ، والمبالغة في متادير ما يرسلونه إلى دمشق من الأموال والألطف (١) .

فلما صارت الخلافة لعمر بن عبد العزيز في العاشر من صفر سنة ٩٩هـ / ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧ م لم يقدم شيئاً على إصلاح ما أفسده من سبقه من الأمويين ، واشتغل بذلك عن أمور الأندلس عاماً وثمانية أشهر ، فلم تنح له الفرصة للنظر في شؤون المغرب والأندلس إلا في رمضان سنة ١٠٠هـ (أبريل - مايو سنة ٧١٩ م) . فأقام إسماعيل بن عبيد الله على إفريقية والسمح بن مالك على الأندلس .

٤ - عرب بن تذهب المراجع إلى أن عمر بن عبد العزيز كان يفكر في عبد العزيز يفكر إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها منهم ، إذ « خشي في إخلاء الأندلس تغلب العدو عليهم » كما يقول ابن القوطية (٢) ، أو « لانتقاعهم من العرب من وراء البحر عن المسلمين » كما يقول صاحب فتح الأندلس وصاحب الأخبار المجموعة (٣) . ولسنا نجد تفسيراً معقولاً لهذه النزعة من خليفة عرف بالحرص على نشر الإسلام وتوسيع رقعته ، لأن حال المسلمين في الأندلس كان في إقبال إلى ذلك الحين ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .

فتح الأندلس ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .

فتح الأندلس ، ص ٢٤ .

ولم يكن الأعداء قد نهضوا لهم على الوجه الخطر الذي سنراه فيما بعد ، ولم تكن فنن العصبية قد عصفت بهم وفرقتهم وأضعفتهم . وربما جاز تعليله بأن عمر لم يكن يعلم شيئاً عن عظمة الأندلس واتساع مداها وما كسبه المسلمون من فتحها وما يعود على الدولة الإسلامية من أسباب الخير والقوة من بقائها في أيديهم ، ولهذا تذكر المراجع أنه لما ولي السمح بن مالك طلب إليه « أن يكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها وبحرها » ، ولا يستبعد أن يكون أباح له إقفال المسلمين منها إذا وجد أنها لا تستحق عناء حكمها والمحافظة عليها ، فكتب إليه السمح « يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مداينهم ، وشرف معاقليهم » (١) ، فلما استوثق عمر من أهمية الأندلس وثبات أقدام المسلمين فيه أولاه من عنايته ما هو أهل له .

٤١ - ضبط أمر خراجها : وهو أمر لم يكن به واحد ممن سبقه من الخلفاء ، فانتدب المولى من ثقافته يسمى جابراً وبعثه في هذه المهمة (٢) . ولسنا نعلم الأساس الذي سار عليه جابر هذا في أداء مهمته تلك ، لأن النصوص تذكر أنه اهتم بتمييز أرض الصلح من أرض العنوة واستخراج خمس العنوة لكي يضمه إلى أرض الدولة ، فلم يخرج في الخمس إلا ريبضاً من أرباض قرطبة جعله مقبرة للمسلمين وأقر القرى بيد غنائمها . وهذه عبارة لا تفسر إلا بأن جابراً اعتبر قرطبة هي الناحية الوحيدة التي فتحت عنوة ، فأخذ خمسها للدولة ، وأما بقية الأندلس فاعتبره قد فتح صلحاً . ولما كنا نعلم أن معظم الأندلس قد فتح عنوة : الجنوب وأقاليم قرطبة وإشبيلية وماردة على الأقل ، فكيف لم يزد خمس ذلك كله على ريبض من أرباض قرطبة ؟ ثم ما معنى قولهم إنه أقر القرى في أيدي غنائمها ؟ على أي أساس تركها في أيديهم ؟ إن لفظ « غنائمها » هنا يسمح لنا بأن نفترض أن

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ - ١٣ .

الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

الحكومة المركزية اعتبرت ما فتح من بلاد الأندلس غنيمة لمن فتحوه ، فركت كل ناحية بأيدي من فتحوها واستقروا فيها . إننا نفترض ذلك مجرد افتراض ، ولا يمكننا إيراد على صورة مؤكدة ، لأن عبارات المراجع قليلة مبسرة غامضة ، ولا تعييننا بأية صورة على تبين النظام الذي وضعه المسلمون للأندلس .

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد تخير السمع بن مالك لفضله وأمره أن « يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق » ، وأن يخلص ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأهوارها...^(١) فكيف لم يدون للبلاد ديواناً ؟ انما رأينا حسان بن النعمان يسارع بذلك عقب تمام انتصاره على الكاهنة ، فكيف تنقضى إلى الآن أربع سنوات على تمام الفتح دون أن ينشأ للبلد ديوان ثابت يخصص كل شيء وينظم كل شيء ؟ الحق أن الأندلس ينفرد بهذا الوضع الغريب من بين ولايات الدولة الإسلامية جميعاً : لا نعرف إن كان قد أنشئ له ديوان ، ولا نعرف على أي أساس وزعت أرضه بين الفاتحين والدولة المركزية ، بل إننا لا نملك ولو فكرة يسيرة عابرة عن مقادير الجزية أو الخراج التي كانت تجبي منه ولو اسنة واحدة . الأندلس هو البلد الإسلامي الوحيد الذي ظل تابعاً لمركز الخلافة نيفاً وأربعين سنة دون أن يذكر المؤرخون ولو مرة واحدة مقدار جزية جبيت منه أو خراج أرسل منه في إحدى السنوات ، بل لم تسجل المراجع أن الأندلس أرسل إلى مركز الخلافة خراجاً ما ، أو جانباً من الجباية . وهذا وضع غريب في ذاته ، وسرى فيما يلي أن عدم ذكر هذه الشؤون المالية ليس مرده إلى إغفال المؤرخين أو سهوهم ، بل لأن وضع الأندلس في ذاته من أول الأمر كان غريباً لا يشبه في ذلك بلد إسلامي آخر .

ويبدو أن السمع كان ماضياً في تنظيم البلد وإحصاء أمواله . ولكن الظروف لم تمهله . لأن خلافة عمر بن عبد العزيز لم تطل ، وهو لم يول إلا بعد

أن انقضى منها نحو العام ، وكان عليه إلى جانب هذا العمل الإداري أن ينشط للغزوات في أحيائها ، وكان عظيم الرغبة في الجهاد ، فلم يلبث أن استشهد في طرسونة في يوم عرفة من سنة ١٠٢ هـ فلم تتح له فرصة استكمال العمل الإداري الذي بدأه .

ولعل هذا يأذن لنا في أن نفترض أن « البطحاء المعروفة بالربض » ، وهي التي خرجت في الخمس ، لا تعني إلا خمس إقليم قرطبة^(١) . لأنه — كما يقول ابن عذارى — لا يعقل أن يكون هذا الربض هو خمس الأندلس كله ، وأن الرجل كان على نية استقصاء الأمر في الأندلس كلها لو لم تدركه منيته ، وأنه إذا كان قد ترك القرى في أيدي أربابها فإنما فعل ذلك إلى أن يحين وقت ضبطها على أساس ثابت . لأنه لا يعقل أن يكون قد تركها في أيديهم هكذا طعمة لا يكادون يحاسبون عنها .

لم يكمل السمع بمضى في تنظيم شؤون البلاد من الناحية المالية حتى اجتمع له مبلغ كبير من المال . وكانت قنطرة قرطبة الرومانية التي كانت مقامة على الوادي الكبير للاتصال بنواحي جنوبي الأندلس قد تهدمت ، ولم يعد الناس يستطيعون العبور إلا في السفن . وكان العرب في أمس الحاجة إلى قنطرة مينة يستطيعون العبور عليها من الجنوب إلى عاصمتهم الجلباية ، فوجد السمع أن بناء هذه القنطرة هو أهم ما ينبغي أن ينفق فيه هذا المال المتجمع ، فكتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستأذنه في ذلك فأذن له . فقام السمع « ببنائها » فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر في معمر الأرض من حجارة سور المدينة . وكانت القنطرة القديمة موصولة الرقة بباب المدينة القبلي بها . وقد تصدعت هذه القنطرة في أيام الإمام عبد الرحمن الداخل^(٢) وسرى للمسلمين عناية عظيمة بهذه القنطرة التي ستكون ذات أهمية كبرى

(١) انظر : فتح الأندلس ، ص ٢٤ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٥ .

فى تاريخ البلاد السياسى والفكرى : لأنها كانت تصل العاصمة بجنوب الأندلس وبلاد الشرق جميعاً . ولأنها كانت من الجمال والبهاء بحيث كانت متميزة أهل قرطبة ومدار خيال شعراء الأندلس أجمعين .

وفى ربيع سنة ١٠٢ هـ (سنة ٧٢١ م) خرج السمع بالصائفة ليغزو فيما وراء البرت فاستشهد فى طرسونة فى يوم عرفة من العام نفسه . وسنحدث عن ذلك فى فصل خاص نكمل فيه أعمال المسلمين الحربية كلها فيما وراء البرت . وفى أثناء السنوات القليلة التى ذكرناها كانت العلاقات بين البربر والعرب فى إفريقية والأندلس تتطور على نحو سيكون له أثر حاسم فى مجرى الأمور فى البلدين خلال هذه الفترة وما تلاها ، وجدير بنا أن ندرس هذه الناحية بشىء من التفصيل .

الفصل الخامس صراع العرب والبربر

هما يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م) وهشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣ م) ، وفي عهدهما ظهر في البيت الأموي الانقسام والتفرق اللذان انتهيا بإضعاف البيت كله وذهاب ريحه . فقد كان يزيد بن عبد الملك مضرى الميول : أغضب يزيد بن المهلب وحواربه حتى قتله ، وتعقب اليمانية بألوان الأذى حتى نفروا منه ومالوا إلى أعدائه ، وامتألت نفوسهم بالثورة عليه . وعادت إليهم أحقاد مرج راحط وتحركت في قلوبهم ثاراتها (١) . وأقام على إفريقية يزيد بن أبي مسلم هذا . وكان من كبار القيسية . فلما قتل أقام مكانه بشر بن صفوان . وقوى جانب القيسية في بلاد الدولة الإسلامية كلها . فلما أقبل أخوه هشام بدا له أن يخفف من غلواء القيسية المضربة بقبض يده عنهم . ومن ثم أقام نفراً من كبار اليمانية الكلبيّة من أمثال خالد بن عبد الله القسري وأخيه أمد على الولايات . فأخذوا يضطهدون المضربة اضطهاداً رضى عنه الخليفة وإن لم يفعل فعلهما . ولهذا ترك بشر بن صفوان في ولايته ، لأن ميوله كانت كلبيّة يمنية ، وحينما توفى بشر بن صفوان سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٦ م كانت ميول الخليفة قد انحرفت بعض الشيء عن الكلبيّة اليمانية ومالت نفسه إلى إضعاف أمرها . وهذا أخذ يوى بعض القيسية كبار المناصب . فولى يوسف بن عمر الثقفي العراق . ونصر ابن سيار خراسان ، وعبيدة بن عبد الرحمن السلمي إفريقية . وكانوا جميعاً من غلاة القيسية . فأخذوا يضطهدون اليمانية الكلبيّة . حتى أبان ذكر النويري أن عبيدة بن عبد الرحمن السلمي لم يكده يصل إلى إفريقية حتى «أخذ عمال بشر ابن صفوان فحبسهم وتحمل عليهم ، وكان فيهم أبو الخطاب بن صفوان الكلبي» (٢)

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك . ج ٨ . ص ١٣٠ وما بعدها . ابن الأثير : الكامل . ج ٥ . ص ٢٣ وما بعدها . المسعودي : مروج الذهب . ج ٢ . ص ١٣٥ - ١٣٦ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح . ص ٢١٣ - ٢١٦ .
النويري : نهاية الأرب ، طبعة جيار ريمبرو ، ص ٣٣ .
وراجع تعليق فورنيل على هذه التغيرات العصبية في الفترة الأموية :

H. FOURNEL. Les Berbères, I. pp. 270-271.

انقضت أيام الخليفة التقى العادل عمر بن عبد العزيز واليه
٤٢ - خلافت المجتهدين إسماعيل بن عبيد الله والسمح بن مالك الخولاني ، وعاد العصبية الغرب الإسلامي إلى ما كان عليه أيام الخليفة سليمان ومن سبقه : عاد حكام إفريقية يستبدون بالأندلس ويولون عليه من الحكام من يشاءون . وعاد هؤلاء يصرفون أموره على الوجه الذي يحبونه . واتقد رأى الأندلس في الفترة بين سنتي ١٠٢ و ١١٢ حكاماً لا نكاد نذكرهم إلا اهتماماً ظاهراً بالخراب فيما وراء البرت . وانصرفاً ظاهراً إلى المنازعات العصبية العنيفة (١) .

كانت ولاية إفريقية خلال هذه الفترة كلها إلى رجلين من كبار رجال بني أمية ، هما يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكتبه (١٠٢ - ١٠٣ هـ / ٧٢٠ - ٧٢١ م) وبشر بن صفوان الكلبي (١٠٣ - ١٠٩ هـ / ٧٢١ - ٧٢٦ م) . وكانت خلافة المسلمين إلى اثنين من أشد الأمويين إغراقاً في العصبية القبلية ،

(١) هم عبد الرحمن بن عبد الله الغافق (من ذي الحجة سنة ١٠٢ إلى صفر سنة ١٠٣ / من يولي إلى أغسطس ٧٢١) وعنبسة بن سحيم الكلبي (من صفر سنة ١٠٣ إلى شعبان سنة ١٠٧ / ٧٢١ - ٧٢٦) ، وعذرة بن عبد الله الفهري (من شعبان سنة ١٠٧ إلى شوال سنة ١٠٧ / من يناير إلى مارس ٧٢٦) ، ويحيى بن سلامة العاملي (من شوال سنة ١٠٧ إلى ربيع الأول سنة ١١٠ / من مارس ٧٢٦ إلى يولييه ٧٢٨) ، وحذيفة بن الأحوص القيسي (من ربيع الأول سنة ١١٠ إلى شعبان سنة ١١٠ / من يولييه إلى ديسمبر ٧٢٨) ، وعثان بن أبي نعمة الخثعمي (من شعبان سنة ١١٠ إلى المحرم سنة ١١١ / من نوفمبر ٧٢٨ إلى أبريل ٧٢٩) ، وأفيثم بن عبيد الكلبي (من المحرم سنة ١١١ إلى ذي القعدة سنة ١١١ / من أبريل ٧٢٩ إلى فبراير ٧٣٠) .

انظر ابن عذاري : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٦ - ٢٧ .

والبحث الذي كتبه لافونتي إلى ألكانترا وذيل به ترجمته للأخبار المجموعة وحقق فيه ولايات عمال الأندلس .

LAFUENTE Y ALCANTARA; *Cronología de los gobernadores de España. Apéndice III de Ajbar Machmua*, pp. 220-242

هكذا أخذت عواصف العصبية تعصف بالدولة في القلب وفي الولايات ، ولم يقتصر الأمر على العال ورجال الدولة بل تعداه إلى عامة الناس ، لأن الجاليات العربية التي كانت قد هاجرت إلى الولايات واستقرت فيها لم تخرج عن أن تكون قيسية مضرية أو كلبية يمنية ، فإذا كان العامل قيسياً حان القيسية واضطهد الكلبية اليمنية وآذاها ، واشتبكت بينه وبينها الحروب ، وإذا كان كلبياً عسف القيسية وأنزل بها من البلاء شيئاً كثيراً . ومن هنا قامت الحروب بين العرب في الولايات ، وتخضبت أراضي الدولة الإسلامية من خراسان إلى أقصى الأندلس بدماء العرب ، وشغلهم هذه الخلافات في كل ناحية عما هو أهم منها وأولى بالعاية من الأمور .

ولم يشق بلد من بلاد المسلمين بهذه الخصومات كما شق بها المغرب والأندلس ، لا لأنها كانت فيهما أقصى وأعنف . بل لأن المغرب والأندلس كانا إلى ذلك الحين بمثابة الثغر الكبير لبلاد المسلمين عامة ، وكان لا بد لمن يقوم فيهما من العرب أن يكونوا كتلة واحدة يقظة ، وإلا نهض لهم العدو - الذي لم يقص عليه القضاء المبرم - واستعاد قوته ، وتحفز لقتالهم وهم في شغل عنه . وهذا هو الذي حدث بالفعل : شغل العرب بتصفية ثاراتهم القبلية العصبية عن بقايا القوط في الأندلس ، وعن إتمام إخضاع البربر في إفريقية ، فأصاب هؤلاء وأولئك فرصة كانوا في أشد الحاجة إليها ، واستطاعوا أن يستعيدوا ثباتهم وأن يمتكنوا أقدامهم في نواحيهم النائية ، ثم أخذوا يتقدمون على مهل متهززين الفرصة في هؤلاء العرب الذين شغلهم قيس وكلب عن القوط والنصرانية والثنية معاً .

وليس إلى الشك سبيل في أن هذه المنازعات العصبية وحدها هي السبب في نهضة قلول القوط وتقدمهم لمنازعة العرب هذه المنازعة الطويلة التي انتهت بخروج المسلمين من البلاد جملة ، وأنها هي السبب في ثورة بربر المغرب جميعه على العرب ، لأنها أتت في وقت حرج كان المسلمون أحق فيه بأن يبذلوا

قصارى جهدهم في إتمام فتح البلدين ، فعاقبهم عن ذلك واضطرب الأمر عليهم فيهما جميعاً .

٤٣ - فترة سيادة كانت ولاية يزيد بن أبي مسلم وبشر بن صفوان في الكلبين اليمنيين إفريقية كلبية يمنية صرفة . وقد عرف الكلبيون اليمنيون في المغرب بإسرافهم في العصبية على الموالي في كل ناحية ، وحسبنا والأندلس من ذلك الإشارة إلى سياسة الحجاج وعسفه موالى فارس . وكان يزيد بن مسلم تلميذه وكاتبه (١) ، فحسب أنه يستطيع أن يسير في البربر بسيرة الحجاج في أهل العراق وفارس (٢) . وأخذ يعسف البربر ويشدد في جمع أموالهم وسبي نسائهم . وكان شديد العناية بالإطاف الخلفاء وكسب قلوبهم بالهدايا . فصار يتخير أحسن نساء البربر ليعيثر بهن إلى الخليفة . وكان يأخذ المائة من الغنم ويذبحها ليأخذ فراءها العسل الصافي ويرسلها إلى دمشق . فربما ذبح مائة شاة دون أن يستخلص منها جلدأ واحداً سليماً ، فتغيرت نفوس البربر ، وبدأت قلوبهم تتحدث بالثورة عليه ، لأن البربر كالعرب قوم بدو لا يعرفون طاعة ولا ذلة (٣) .

٤٤ - مسئولية ليس إلى انشك سبيل في أن خلفاء بني أمية لم يكونوا ليرضوا عن سياسة يزيد بن أبي مسلم وبشر بن صفوان في الخلفاء عن أعمال إفريقية ، وأنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن الوسائل التي كانا عمالهم في المغرب يلجآن إليها في عسف البربر والاستبداد بهم . ومن دلائل ذلك أن يزيد بن عبد الملك لم يغضب حينما علم بقتل البربر واليه يزيد بن أبي مسلم ، وقال

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

أبو المحاسن : التجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢١ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ وما يليها .

النويري : نهاية الأرب ، ص ٢١ وما يليها .

إنه لم يرض عن عمله ، ثم أقر محمد بن أوس الأنصاري الذي أقامه أهل إفريقية على أنفسهم (١) .

وربما تبادر إلى الذهن أن الخلفاء كانوا يكلفون العمال أن يكثروا من الهدايا والألطاف . فكان العمال يضطرون لهذا إلى الإسراف في عسف الناس والاشتغال معهم . ولكن رواية لابن عذارى تدل على أن العمال يحملون أكبر جانب من المسؤولية في هذا ، وذلك حيث يقول : « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب . ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية ، فيبعثونهم البربريات المسديات . فلما أفضى الأمر إلى ابن الخبيبات مناهم بالكثير وتكلف لهم — أو كلفوه — أكثر مما كان ، فاضطروا إلى العسف وسوء السيرة » (٢) وهي رواية تدل على أن الخلفاء كانوا يستحبون طرائف إفريقية فقط . وأن العمال كانوا يتكلفون الإسراف في عسف الناس طلباً في المزيد من رضى الخلفاء .

وكان الكلبيون بطبعهم على جانب قليل من السياسة والكياسة . فأسرفوا في الأمر إسرافاً نفّر البربر ودفعهم إلى الثورة . وشجعهم على المضي في هذا العسف ما كان قائماً إذ ذاك بين العرب أنفسهم من عداوة

٤٥ - تورتر في ذاته . فإن بربر المغرب — على ما نعرف — ينقسمون إلى بربر وبرانس ، أو إلى بدو وحضر . فأما البربر فقد تسارعوا إلى الانضمام للعرب من أول الأمر واشتركوا معهم في فتح البلاد . ولولا مساعدة قبائل بربرية مثل لواتة ونفوسة وهوارة وبرغواطية (٣) . لما استطاع

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣) راجع النصوص الخاصة بانضمام هذه القبائل إلى المسلمين من أول الأمر في :

البلادري : فتوح ، ص ٢٢٤ .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

ابن خلدون : كتاب العبر ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .

وانظر لمؤلف هذا الكتاب : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٨٢ وما يليها .

العرب الوصول في المغرب إلى هذه النتيجة الباهرة التي وصلوا إليها بعد جهد طويل متصل . فلما انتصر العرب واستقرت أقدامهم في البلاد توقع البربر أن يعتبروهم مساوين لهم ، وأن يميزوهم عن البرانس الذين قاوموهم مقاومة عنيفة ولم يلقوا بيد الطاعة إلا بعد أن يثسوا من كل عون من ناحية البيزنطيين . ولكن العرب لم يفتنوا إلى ذلك ، ومضوا يعاملون البربر جميعاً معاملة واحدة ، واشتدوا عليهم جميعاً ، أصدقاء وغير أصدقاء ، أحلافاً وغير أحلاف . فتغيرت نفوس البربر - وزناتة منهم خاصة - وبدأوا يفكرون في الثورة على العرب عامة . ثم إن البربر - والبربر منهم خاصة - حملوا معظم عبء فتح الأندلس ، وقتل منهم في هذا السبيل آلاف ، في حين لم يفقد العرب إلا بضع مئات ، وكان نفر من قادة الفتح بربراً زناتيين مثل أبي زرعة طريف بن ملوك وطارق بن زياد . فلم يحسن العرب جزاء هذين ، بل أصاب موسى طارقاً بشر كبير ، ولم ينظر عرب الأندلس إلى بربرها نظراً للند . فأنكر البربر ذلك وبدأت نفوسهم تتغير .

وربما كان دافع عرب الأندلس إلى إساءة معاملة البربر هو خوفهم منهم ، فقد كان البربر في الأندلس أضعاف العرب عدداً . وكان العرب يشعرون أنهم أقلية ، وكان شعورهم بهذا يدفعهم إلى التحرز من البربر وإبعادهم عن الحكومة والسلطان ، فزاد ذلك في سخط هؤلاء . وكان البربر هم حرس الولاية المقربين إليهم ، وكان الولاية قبل يزيد بن أبي مسلم يميزونهم على البرانس ويتخذون منهم بطانتهم ، فلما جاء يزيد بن أبي مسلم أغفل هذه الناحية وأساء معاملة البربر وأراد امتنانهم وإذلالهم ، فنفرت نفوسهم منه ، وفقد العرب من ذلك الحين ولاء هذا الفريق القوي من بربر إفريقية . وسيكون لذلك أثر كبير في تطور الحوادث فيما بعد (١) .

(١) لاحظ قول ابن عبد الحكم : « ويقال : بل كان حرس يزيد بن أبي مسلم حين قدم البربر ليس فيهم إلا بربر ، وكانوا هم حرس الولاية قبله ، البربر خاصة ليس فيهم من البرانس أحد ، فخطب يزيد بن أبي مسلم الناس فقال : إني إن أصبحت صالحاً وثمت حرس =

٤٦ - الأفارقة - وكان في إفريقية - إلى جانب البربر والروم - نفر كبير من الأفارقة ، أى من الأجانب المستوطنين الذين طال مكثهم في البلاد حتى أصبحوا إفريقيين ، وكان معظم هؤلاء يسكنون المدن ومواقع الساحل . وكانوا على علائق حسنة مع الروم متأثرين بخضارتهم ، وكان فيهم كثير من النصارى . ولما أقبل العرب وأنشأوا يحاربون الروم وقف هؤلاء الأفارقة على الحياد بل أقبل نفر منهم على الإسلام ، وكانوا ينتظرون ألا يعتبرهم العرب روماً وألا يعسفوهم . ولكن العرب وضعوهم والروم في منزلة واحدة ، فاعتبروا الأفارقة موالي . وغنموا أراضيهم وأموالهم ، فانقلبوا أعداء لهم ، واتصلوا بزناتة ، وتفاهم الحيان على الثورة (١) .

٤٧ - دعاة الخارجية في المغرب - وزاد الحال حرجاً أن اشتداد بنى أمية مع العلويين والخوارج أزهبهم ونفروهم من الشام والعراق وجزيرة العرب ، ففضوا يلتمسون الأمان حيثما وجدوه . وفر منهم نفر كبير إلى المغرب حيث وجدوا أهله حائقين على الأمويين مستعدين للثورة عليهم ، فلم يكن أيسر على هؤلاء العلويين والخوارج من كسب هؤلاء البربر إلى صفوفهم ؛ ووجدت مذاهب الخارجية - الصفورية والأباضية خاصة - قبولا طيباً من البربر . وهكذا تهيأت في بلاد المغرب كلها الظروف لثورة عامة كبرى على الأمويين والعرب عامة .

ويُجمع مؤرخو المغرب على أن معظم من أقبل إلى إفريقية من هؤلاء

= في أيديهم كما تصنع الروم ، فأثم في يد الرجل اليمنى اسمه وفي اليسرى : حرسى ، فيعرفون بذلك عن غيرهم ، فأنفوا من ذلك ، ودب بعضهم إلى بعض في قتله . فتوح ، ص ٢١٤ . (١) يفهم من روايتين لأبي المحاسن والسلوى أن زعامة بربار طنجة في الثورة التي ستحدث عنها كانت إلى مسيرة المطهرى وعبد الأعلى بن جريج الإفريقى ، وكان مع كل منهما قومه ، مما يدل على أن الطائفتين اتفقتا على الوثوب بالعرب .

انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٨ .

السلوى : الاستقصاء ، ج ١ ، ص ٤٩ .

الدعاة كانوا من الصفورية والأباضية ، ولسنا نعلم بالضبط لماذا كان معظم دعاة الثورة في المغرب من هذين الفريقين من الخوارج ، ولا السبب في إقبال أهل المغرب عليهما خاصة . لأن مبادئ الفريقين ليست مما يجتذب البربر ، فهما أكثر الخوارج ميلا إلى المسالمة والتسامح مع المخالفين (١) ، بل الأباضية لا تحل قتال غير الخوارج من المسلمين ولا تستحل من الغنائم غير السلاح والخيول . والصفورية تكاد تكون أكثر مذاهب الخارجية اعتدالا ، والبربر على ما نعلم لا يميلون إلى الاعتدال في العقائد ، وسنرى من أحداث ثورتهم أنهم كانوا متطرفين لا يعرفون وسطاً . وربما كان الأحجى أن نشك في نسبة هذه الحركات إلى الصفورية والأباضية خاصة ، لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية ، ولسنا نجد على أى الأحوال في أخبار هذه الثورة الكبيرة دليلاً واضحاً على صفورية القائمين بالحركة أو أباضيتهم ، والأسلم أن نسميهم خوارج فحسب ، خوارج سياسيين لا دينيين .

ولصاحب « الأخبار المجموعة » رواية يفهم منها أن البواعث البعيدة لهذه الحركة كانت موضع خلاف بين المؤرخين القدماء أنفسهم ، وذلك حيث يقول : « وقد يقول من يطعن على الأئمة أنهم إنما خرجوا ضيقاً من سير عملهم ، وأن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجة في جلود الخرفان العسلية : فتذبح مائة شاة ، فربما لم يوجد فيها إلا جلد واحد . وهو قول البعض للأئمة : فان كانوا صدقوا ، فما بال التحكيم فشا فيهم ورفع المصاحف وحلق الرؤوس . اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان ، أصحاب عبد الملك بن وهب وزيد بن حصن ؟ ... » (٢) .

وظاهر أن صاحب هذا المجموع القيم من الأخبار يحاول الدفاع عن

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣١ - ٣٢ .

خلفاء بني أمية لأنهم أجداد أموية الأندلس ، وليس إلى الشك سبيل في أن عبارته هذه موجهة إلى نفر من معاصريه الذين كانوا يرمون خلفاء بني أمية بالظلم ويحملونهم مسئولية هذه الحركة الخطيرة .

ومهما يكن من الأمر فقد اجتهد دعاة الخارجية هؤلاء اجتهداً عظيماً في إثارة البربر ودفعهم إلى الوثوب بالعرب . ومن دلائل ذلك قول المالكي : « وكانوا - أي أهل إفريقية - يقولون : لا تخالف الأئمة بما تجنى العمال ، فقالوا - أي الدعاة الذين كانوا يخرضون البربر على الفتنة - لهم : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك ، فقالوا : حتى نخبرهم ! » .

« فخرج ميسرة في بضعة وعشرين رجلاً ، فقدموا على هشام ، فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا ويجنده ، فاذا غنمنا نفلهم ولم ينفلنا . ويقول : هذا أخلص لجهاذكم ! ... » . فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ، ونحن مسلمون ! فأجبتنا أن نعرف أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم . فكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزرائه ، وقالوا : إن سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه ، ثم رجعوا إلى إفريقية . وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن النفر ، فعرف أسماءهم ، فاذا هم الذين صنعوا ذلك « (١) » مما يدل على أن أهل إفريقية أنكروا هذه المعاملة السيئة من عمال الأمويين . وجعل هؤلاء الدعاة يدفعونهم إلى الثورة ويؤكدون لهم أن ذلك الظلم الذي ينزل بهم إنما مصدره الخلفاء أنفسهم . فأحب ميسرة - زعيم البربر - أن يتأكد من الأمر قبل أن يقدم على شيء . ففضي في وفد من أهل بلده إلى دمشق لبيسط ظلامته أمام الخليفة هشام ، فلم يستطيعوا مقابلته ، فعادوا ولا مندوحة لهم عن الثورة .

(١) ليس لدينا ما يؤيد ذهب ميسرة إلى المشرق ، ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الرواية أن زعماء البربر حاولوا بسط شكايهم أمام الخلفاء قبل أن يلجأوا إلى الثورة .

وكان الأندلس تابعاً لإفريقية في ذلك الحين ، فلا غرابة ٤٨ - العصبة أن تظهر فيه أصداء ذلك كله ، ولا غرابة في أن يكون لها العربية في الأندلس . جميعاً أسوأ الأثر على مصائر الإسلام فيه للأسباب التي ذكرناها .

أقام يزيد بن أبي مسلم وبشر بن صفوان الكلبيان اليمانيان على الأندلس عملاً يمينيين كليبيين هم عنبة بن سحيم الكلبي (صفر ١٠٣ - شعبان ١٠٧) وعندرة بن عبد الله الفهري (شعبان ١٠٧ - شوال ١٠٧) ويحيى بن سلامة العاملي (إلى ربيع الأول سنة ١١٠) . وقد حكم ثلاثتهم سبع سنوات (شوال ١٠٧ - ربيع الأول ١١٠) تعصبوا خلافاً لليسنية الكلبية وأوغروا صدور القيسية .

وكانت قيسية الأندلس موعرة الصدر بطبعها لا تحتاج إلى من يحرك نيران أحقادها ، لأن الكثيرين من أفرادها كانوا ممن حضر حروب الزيريين والمروانيين في المشرق ، بل كان منهم من حضر مرج راهط ورأى بعينه مصارع القيسية وأفول نجمها بهزيمة الزيريين ، وكانوا ينتظرون الفرصة ليسووا حسابهم القديم مع اليمينيين الكلبيين . فلم يكده هؤلاء الولاة الثلاثة يسرون في سياستهم اليمينية الكلبية حتى امتلأت قلوب القيسية ألماً وجاشت نفوسهم بالثورة ، وغدوا لا ينتظرون إلا الفرصة المواتية (١) .

وكان هؤلاء الكلبيون كغيرهم من اليمينيين ذوي شره إلى الأموال وعسف في جمعها ، وقد اشتد سخطهم معهم شدة خاصة ، فالزم التصاري في الأندلس بدفع جزية مضاعفة ، فتغيرت نفوس أهل البلاد وبدأ القلق يسودها من كل وجه (٢) .

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢٤ - ٢٥

DOZY, *Musulmans d'Espagne*, I. pp. 15, 599.

(٢) إيزيدور الباجي ، (فقرة رقم ٥٢) . واسمه الكامل ISIDORO PACENSE وهو مؤلف وهي يقال إنه كان أسقفاً لمدينة Pace أو Pax-Julia وهي الحالية من مدن البرتغال (باجه عند العرب) ينسب إليه تاريخ هام لإسبانيا اسمه :

... ..

= *Epitoma (epitome) Imperatorum vel Arabum Ephemerides atque Hispaniae Chronographiae sub uno Volumine Collecta.*

وهو يشمل تاريخ إسبانيا من أواخر العصر القوطي ، من نهاية حكم سبوت إلى نهاية حكم يوسف الفهري آخر عمال الأندلس للأمويين ، وهو يضم معلومات هامة عن الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية في المشرق خلال هذه الفترة . ولم يستطع البحث التاريخي الاهتمام إلى حقيقة إيزودور هذا أو إلى نسبة هذا الكتاب إليه ، ولهذا يفضل الكثيرون تسميته « بالتاريخ الطليطلي المجهول المؤلف El Anonimo Toledano » لأن مخطوطته وجدت في طليطلة . والذي لا شك فيه هو أن مؤلف هذا المجموع الفريد من الأخبار كان واحداً من رجال الدين الإسبان ، ولكنه يتنازع عن هؤلاء باعتدال في الرأي وبعد نمى عن العصبة الدينية التي نجدها عند غيره من مؤرخي إسبانيا من رجال الدين . وروايته تزودنا بمعلومات قيمة جداً عن خلفاء الأمويين بالمشرق وأعمال عمال بني أمية في إفريقية والأندلس . ويفهم من نص روايته ، ومن كتب أخرى معاصرة ، أنه كتب كتباً أخرى هي :

1.—*Epitome Regum Wisigothorum a tempore Recaredi principis.*

2.—*Epitome Temporum.*

(مختصر تاريخ العصور) - وفيه يتحدث بالتفصيل عن الحروب التي جرت بين البربر وكلثوم ابن عياض عامل هشام بن عبد الملك على إفريقية .

3.—*Epitome.*

يقص فيه أخبار الحروب بين بلج بن بشر ومن معه من الشامية وبقية عرب الأندلس .

4.—*Liber verborum dierum Saeculi.*

وهو يكمل فيه ذكر الأحداث التي فاتته ذكرها في كتبه السابقة . وكتابه الأول هو أهمها من غير شك ، وهو المشار إليه في التواريخ الأندلسية ، وهو الذي نقصده نحن في هذا البحث . وظاهر أن مؤلفه أراد أن يجعل منه صلة لتاريخ إيزيدور الإشبيلي SAN ISIDORO DE SEVILLA تجد نصه الكامل عند :

THEODOR MOMMSEN, *Auctorum Antiquissimorum*, tomus XI, *Cronica Minora*. (Saec. IV, V, VI, VIII) II, pp. 334-360 Berolini, 1893.

وفى :

FLOREZ, *Espana Sagrada*, pp. 283-307, *Isidori Pacensis Episcopi chronicon*.

ونشر أجزاء منه LAFUENTE Y ALCANTARA كلحق لترجمته الإسبانية للأخبار المجمعة ، ص ١٤٦ وما بعدها .

=

فلما تولى إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي^(١) وكان قيسياً ، انقلبت الآية وتوالت على الأندلس سنوات قيسية لقي الكلبون الجنيون خلالها بلاء شديداً ، قام بالأمر خلالها حذيفة بن الأحوص القيسي وعثمان بن أبي نسة الحثعمي ، والهيثم بن عبيد الله الكنانى ، ومحمد بن عبد الله الأشجعي ، واستمرت حتى سنة ١١١ هـ ، وقد اشتد الهيثم مع الجنيين شدة آثارهم ودفعهم إلى العصيان علانية ، وقد بلغ من شدته أن أنكر هشام عليه ذلك - رغم قيسيته - وعزله وعاقبه عقاباً صارماً^(٢) .

ومن عهد الهيثم هذا تبدأ في الأندلس خصومة القيسية والبنية الصريحة الخطرة ، التي سيكون لها أسوأ الأثر على مصير الإسلام في الأندلس خاصة والمغرب عامة .

= وانظر عنه :

RUDOLF SCHEVENKOW, *Kritische Betrachtungen ueber die lateiniscugeschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber*, 1894.

FRANCISCO JAVIER SIMONET, *Historia de los Mozarabes de Espana*, (Madrid 1867-1903) pp. 234, 599.

CESAR DUBLER, *Sobre la Cronica Arabigo-Bizantina de 741 y la Influencia Bizantina en la Peninsula Ibérica (Al-Andalus, vol. XI fasc. 2 Madrid-Grenada, 1956) pp. 283-349.*

(١) أثار وصول عبيدة بن عبد الرحمن إلى إفريقية اضطراباً كبيراً ، لأن السكليين كانوا قد اطمأنوا إلى السيادة في عهد سلفه بشر بن صفوان ، وكان معظم عرب إفريقية والأندلس كلبيين يمنيين كما ذكرنا ، وكان بشر قد ترك مكانه كلياً ، فلم يكده يستقر في الولاية حتى فاجأه هشام بعبيدة بن عبد الرحمن ، ودخل عبيدة القيروان فجأة ، كأنما كان يتوقع معارضة ومقاومة ، ولم يقدم شيئاً على عسف اليمين عسفاً جاوز الحد المؤلف .

انظر : ابن عذاري : البيان ، ج ١ ، ص ٣٦ .

ابن الأبار : الحلة السراء ، ص ٤٥٧ - ٤٩ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٠٨ ، ١٣٠ .

(٢) إيزيدور : فقرة ٥٧ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٦٨ ، ٧٤ .

بيد أننا ينبغي أن نذكر أن المسلمين كانوا معنيين خلال ذلك كله بالحروب فيما وراء البرتات ، فقد استمرت جهودهم بعد مقتل السمح بن مالك الخولاني ، ووصلت جيوش المسلمين في أيامهم إلى قريب من أفيانيون . وكانت أربونة عاصمة الهيم بن عبيد الكنافي يقيم فيها معظم وقته (١) .

ولسنا نجد ما نسجله في عهود هؤلاء الحكام القصيرة إلا ثورة بيلاييه زعيم فلول القوط في نواحي أشتريس ، وهي ثورة خطيرة تعين بدء المقاومة الإسبانية ، وقد وقعت في عصر عنبسة بن سحيم (٢) .

وفي صفر سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م أقام عبيد الله بن عبد الرحمن السلمي عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أميراً على الأندلس ، وكان عبد الرحمن من كبار رجال جند الأندلس ، وقد قضى حياته حتى ذلك الحين يغازي الأعداء فيما يلي البرتات ، وكان الجند قد أقاموه والياً على الأندلس قبل ذلك مدة لم تزد على شهرين قبيل قدوم عنبسة بن سحيم ، وكان عبد الرحمن شخصية أندلسية قضى معظم أيامه في نواحيها وفي الجهاد فيما يليها . فكان لولايته طابع خاص لا نلمحه عند أحد من سبقوه ، فقد كان هؤلاء مشاركة يقبلون على البلاد وهم لا يكادون يعرفون من أمرها شيئاً ، ولا يكادون يحملون إليها إلا عصبيتهم البينية أو القيسية ويزيلون الحال سوءاً . فأما عبد الرحمن فأندلسي لا يكاد يلقى بالاً إلى هذه الجاهلية العصبية ، ولا يكاد يلتفت إلا لإقرار الأمن في البلاد وموالاته الفتح فيما يليها (٣) .

(١) ابن عذاري : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩ . وانظر الفصل الثاني .

إيزودور : فقرة ٥٦ و ٥٧ .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٩ - ١٠ .

LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, I. p. 48.

(٣) عن عبد الرحمن الغافقي ، انظر : ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

ابن حيان برواية المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

أخبار مجموعة ، ص ٢٥ .

ابن عذاري : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٩٤ .

ISODORO PACENSE, *Cronicon*, cc. 56-63.

تجمع الروايات الإسلامية على الثناء على عبد الرحمن ، بل يذهب بعضها إلى القول بأنه أعظم ولاية الأندلس أجمعين وأكثرهم فضيلة وأشدهم إخلاصاً في القيام بما تفرضه الأندلس على واليها من الواجبات ، والواقع أن المراجع لم تبلغ في ذلك كثيراً ، فقد كان عبد الرحمن في واقع الأمر منظماً قادراً وجندياً بأسلاً ، وربما شاركه في إحدى هاتين الصفتين بعض من سبقه من ولاية الأندلس مثل السمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم ، ولكنه يمتاز عن هذين وغيرهما بأنه كان سلباً من نزعة العصبية التي أفسدت على معظم هؤلاء الحكام أعمالهم . وقد كان الرجل من غافق إحدى بطون كهلان البينية ، ولسنا نعلم اختيار عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي المتشدد إياه إلا بأن شخصية عبد الرحمن كانت من الظهور بحيث صرفت عبيدة عن التفكير في قيسيته التي أفسدت عليه الأمور زماناً (١) ، ويبدو أن عبد الرحمن كان يتمتع بمركز عظيم بين عرب الأندلس ، لأن ولايته لقيت الرضى من طوائفهم كلها بمنزلة وقيسية .

ولم يوفق عبد الرحمن في غزواته الكبرى التي أراد أن يفتح فيها غالة رغم ما حشد من عدة وما بذل من جهد ، واستشهد هو ونفر عظيم ممن كانوا معه عند بلاط الشهداء على مقربة من بواتيه في رمضان سنة ١١٤ هـ . ولا نزاع في أن ابن حيان قد بالغ حينما زعم أن أحداً من جيوش عبد الرحمن لم ينج من هذه الموقعة ، لأنه لا يعمل أن يقتل من المسلمين سبعون ألفاً ثم لا تضطرب الأندلس كلها . والواقع أن عدداً عظيماً من جنود عبد الرحمن عاد إلى الأندلس

(١) وكان عبد الرحمن الغافقي في خلاف دائم مع عبيدة بن عبد الرحمن ، ومصادق ذلك رواية لابن عبد الحكم يقول فيها بعد تفصيل أعمال عبد الرحمن في إحدى غزواته في بلاد الفرنجة : « وكان فيما أصاب رجل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فسكرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم سائر ذلك في المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة ، فغضب غضباً شديداً ، فكتب إليه كتاباً يتوعده فيه ، فكتب إليه عبد الرحمن : إن السباوات والأرض لو كانتا رتقاً ، لجلل الرحمن للمقتنين منهما مخرجاً . ثم خرج إليهم أيضاً غازياً فاستشهد وعامة أصحابه » .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٤٧ .

قبل الموقعة مستوحشاً من طول الشقة ، فلما فاجأه العدو الذاه في قلة فاستشهد وبعض من بقي معه .

كان هذه الخزيمة وقع شديد في نفس الخليفة هشام بن عبد الملك ، فقد أقبات إليه أخبارها بعد نشل أخيه مسلمة بن عبد الملك في اقتحام أسوار القسطنطينية بأربع عشرة سنة ، فأحس هشام أن سيوف المسلمين قد عجزت عن اقتحام معاتل المسيحية الكبرى في الشرق والغرب ، فساء ذلك ، وأخذ يفكر تفكيراً جاداً في علاج هذا الموقف ، وفي تقوية جبهة الإسلام من ناحية الغرب ، ويبدو أنه تخوف خطر الفرنج على مسلمي الأندلس بعد إذ استشعر توهمهم بعد هذه المعركة .

بدأ هشام فعزل عبيدة بن عبد الرحمن عن إفريقية في أواخر سنة ١١٤ هـ لأنه كان قيسياً مسرفاً في عصبية حتى لقد أثار اليمانية وكاد يوقع المغرب الإسلامي كله في فتنة عصبية كبرى ، واستبدل به قيسياً آخر كان يحسب أنه أهدأ منه نفساً وأقل عصبية . ذلك هو عبيد الله بن الحبحاب .

بدأ عبيد الله بن الحبحاب ولايته في إفريقية بدءاً حسناً ، ٤٩ - مصاعب وقد كان وفق في مصر ترفيقاً طيباً كعامل لخارجها^(١) ولكنه لم يستطع الحكم في المغرب أن يدرك في إفريقية ما أراد من الإصلاح وتهذيب النفوس ، بعد موسى بن نصير ذلك أن المغرب الإسلامي كان يجوز إذ ذاك أزمة سياسية واجتماعية حادة . ولا بد أن نعود بتاريخ المغرب سنوات إلى الوراء لتنتبع هذه الأزمة منذ مبادئها .

ذلك أن حكومة موسى بن نصير وابنيه عبد الله وعبد الملك من بعده في المغرب أضاعت على المسلمين ثمرات حكومة حسان بن النعمان وإصلاحاته ، فقد اشتد موسى وبنوه على البربر شدة نفرتهم وبغضت العرب إليهم ، وزاد

(١) ابن الأبار : الحلة السيرة (طبعة دوزي) ، ص ٣٢ .

ابن عذاري : البيان ، ج ١ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

الأمر سوءاً أن آل موسى احتضنوا بعض القبائل واعتبروا أفرادها موالى لهم وفضلوهم على غيرهم ، فأنار ذلك نفوس بقية القبائل ، وأخذ كثير من البربر يشعرون بأن الحكم العربي الحديدي ليس خيراً في كثير من الحكم البيزنطي المنقضي .

ولو استمر الأمر على ذلك بصورة مضطردة لانفجرت ثورة البربر في زمن مبكر جداً ، ولكن الأحوال هدأت بعد انقضاء أمر آل موسى فترة دامت أربع سنوات من ٩٧ - ١٠١ هـ / ٧١٥ - ٧٢٠ م بسبب اعتدال محمد ابن يزيد القرشي^(١) وإسماعيل بن عبيد الله اللذين توليا حكومة المغرب بعد آل نصير على ما ذكرناه^(٢) .

وقد بلغ من توفيق إسماعيل في إقرار السلام في البلاد أنه « لم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم »^(٣) كما يقول ابن عبد الحكم ، ولم يبالغ راويتنا الحليل كثيراً في ذلك ، فالواقع أن حسن سياسة إسماعيل وحرصه على نشر الإسلام قد كسبا للدين عدداً عظيماً جداً من البربر ، فلو قلنا إن ولايته ثبتت قدم الإسلام في إفريقية ما بالغنا ، لأن المغرب أصبح بعد ولايته بلداً إسلامياً يغلب على أهله الإسلام^(٤) .

وكان من سوء الحظ أن خليفته في ولاية المغرب لم يكن يقاربه في شيء

(١) المقرئ : خعلط (طبعة قبيط) ج ٢ ، ص ٦١ - ٦٣ .

« : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، طبعة فستغلند تحت عنوان :

WUESTENFELD, Abhandlung ueber die in Agypten eingewanderten arabische Stamme, Goettingen, 1847, pp. 39-40.

وهي ترجمة لكنيب المقرئ « : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ .

ابن خلدون (طبعة نوبل دي فرچير) ، ص ٨ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن ناجي : معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ١٥٤ - ١٥٦ .

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

من ذلك ، بل كان رجلاً يمينياً جافياً شديداً العصبيّة قليل الكياسة هو يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج ؛ وولاه يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ / ٧٢٠ - ٧٢١ م على ما ذكرنا . ومن غريب الأمر أن يزيد بن عبد الملك أحسبه عبد الله ابن موسى بن نصير ، وكان عبد الله قد عزّل عن المغرب وانتقل إلى المشرق في سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ م^(١) ، ولنا ندرى السبب في ذلك التصرف من يزيد ، وربما أراد منه أن يكون عبد الله - بما له من الخبرة بالبلاد والمعرفة بشؤونها - عوناً ليزيد بن أبي مسلم في شؤونهم ، ولكنه أخطأ التقدير ، لأن عبد الله كان موغز الصدر من بني أمية ينتظر الفرصة للاقتصاص منهم بما فعاوا بآله وبه هو نفسه .

ثم إن أنصار بني نصير لم يكادوا يعلمون بمجيء عبد الله حتى خرجوا يتلقونه مرحبين . يخسبون أيام عزهم قد عادت ، فساور الخوف نفس يزيد ابن أبي مسلم من هذه المكانة التي كانت لبني نصير ، وأدركته الغيرة مما رآه من منزلة عبد الله بن موسى في نفوس أهل البلاد ، فأحب أن يبغضه إلى نفوسهم . وأن يضعه في مركز حرج ، فطلب إليه أن يقوم بإعداد العطاء اللازم للجنود خمس سنين من ماله ، ثم أمره أن يلزم داره^(٢) ، وأعقب يزيد ذلك بالشدة البالغة مع موالى بني نصير من البربر ، فوضع يده عليهم ، واعتبرهم جزءاً من الخمس يتبع لبيت المال ويؤول لعامل المغرب ، وأحصى أموالهم وأولادهم ، وجعل نفراً من هؤلاء الموالى حرسه وبطانته ، وأراد أن يقضى على كل أثر لجاه بني نصير في إفريقية .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ ، ولا يؤيد ابن عبد الحكم في القول بهذا مؤرخ آخر ، ولسكننا نقبل روايته لأنها أقدم ما لدينا . ولم يتحدث أحد من المؤرخين المغربيين عن هذه الناحية بتفصيل يعيننا على تعرف الواقع .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٤ ؛ ولا يبعد أن يكون ذلك بإيعاز من يزيد ابن عبد الملك ، لأنه كان يعتقد - مثل أخيه سليمان - أن بني نصير اجتنبوا أموالاً جسيمة وأخفوها عن الدولة حتى لا تنقضاهم إياها .

ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان البلاء ، ولكنه لم يقصر هذا العسف على آل نصير ومواليهم ، بل توسع فيه حتى شمل به البربر أجمعين ، وأراد أن يسير في البربر بسيرة مولاة الحجاج في أهل العراق ، وفاته أن معظم من اشتد عليهم من البربر كانوا من البرّ وزناته ، أى من البربر الذين انضموا للعرب من أول الأمر وقدموا إليهم أخلص العون . ثم حفزه سوء الرأى إلى أن يتخذ قراراً كان فيه حتفه : قرر أن يشم حرسه البربر في أيديهم ، فخطب الناس فقال : « إني إن أصبحت صالحاً وشمّت حرسى في أيديهم كما تصنع الروم ، فأشم في يد الرجل اليمنى اسمه وفي اليسرى « حرسى » فيعرفوا بذلك من غيرهم »^(١) إسرائاً منه في الاستخفاف بالبربر وطلباً للون من الأنفة لم يعرفه العرب قبل ذلك . فتأثرت نفوس البربر لذلك ودبروا قتله . وكان عبد الله بن موسى بن نصير يؤلبهم عليه ويزيد نفوسهم ثورة واضطراباً . وبترحيضه قُتل يزيد بن أبي مسلم . اغتاله حرسه في سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م .

وأقام أهل إفريقية قاضيه المغيرة بن أبي بردة القرشي والياً حتى يأتيهم رأى خليفته يزيد بن عبد الملك^(٢) ، فلما بلغ يزيد نبأ مقتل يزيد بن أبي مسلم أمر عامله على مصر بشر بن صفوان أن ينهض إلى إفريقية ويخلّف مكانه أخاه حنظلة^(٣) ، فدخل بشر إفريقية في نفس العام الذى قتل فيه يزيد ،

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٤ . وراجع تعليق فورنل على ذلك :

cf : FOURNEL, *Les Berbères*, I. p. 271, note 8.

(٢) ولم يستقر المغيرة في الولاية إلا قليلاً ، لأن ابنه خوفه من أن يظن الخليفة أنه شارك في قتل يزيد بن مسلم إذا وجد والياً مكانه ، فاعتزل ، وولى أهل إفريقية مكانه محمد بن أوس الأنصاري ، وكان بتونس على غزو بحرهما ، فأرسلوا إليه فولوه أمرهم ، ثم عزله يزيد ببشر ابن صفوان .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٥ .

F. WUSTENFELD, *Die Statthalter von Egypten zur Zeit der Chalifen*; (٣)

Goettingen 1875

وكان أول ما فعله هو أن أخذ عبد الله بن موسى بن نصير فقتله (١) . وتبع أموال بني نصير بالاستقصاء وأنصارهم بالتعذيب ، وعزل عن الأندلس الحر ابن عبد الرحمن الثقفي وولى مكانه كليباً يمينياً هو عنبسة بن سحيم (٢) .

وظل بشر عاملاً على إفريقية بقية خلافة يزيد وجزءاً من ولاية هشام حتى توفي في شوال سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ - ٧٢٨ م واستطاع أن يهدئ أمورها بسبب ما أسرف فيه من استعمال القسوة البالغة (٣) ؛ ولم يسرف أحد من عمال بني أمية الكلبيين في العصبية لقومه كما فعل بشر ، فقد اشتد في ذلك شدة ملأت نفوس القيسيين عليه حقدًا ، وغدوا يترقبون موته بنافذ الصبر ، وكان هو نفسه يشعر بذلك ، ومن دلائل هذا ما يذكره المالكى من أن جارية من جوارى بشر قالت وهو يعاني سكرات الموت : « يا شامة الأعداء ! فقال لها : قولى للأعداء لا يموت ! » حتى لا يستطيعهم الفرح . وكان بشرًا خشي أن يقيم هشام على البلد رجلاً قيسياً بعده ، فترك عليها العباس بن باضعة الكلبي والياً ورجاً أن يثبته هشام في الولاية . ولكن هشام بن عبد الملك انتهر فرصة وفاته ليولى مكانه قيسياً هو عبيدة بن عبد الرحمن ، وقد وقع دخوله إفريقية على نفوس الكلبية موقع الصاعقة ، حتى أن رأسهم العباس بن باضعة خارت قواه ولم تحمله رجلاه حينما بلغه النبأ (٤) (١١٠ هـ / ٧٢٨ - ٧٢٩ م) .

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٣٦ .

ابن الأبار : الحلة السراء ، ص ٤٧ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٧ .

٥٠ - المغرب ولم يكن عبيدة بن عبد الرحمن على اقتداره وحسن رأيه بأحسن معاملة للبربر ممن سبقوه ، فقد أسرف في مغازاة من أبناء خلافة هشام بعد من قبائلهم وسبى نساءهم حتى ليقال إنه عندما يارح ابن عبد الملك إفريقية يريد المشرق سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ - ٧٣٣ م « كان (١٠٥-١٢٥ هـ) فيما خرج به من العبيد والإماء ومن الجوارى المتخيرة ٧٠٠ جارية ، وغير ذلك من الخصيان والخليل والدواب والذهب والفضة والآنية » (١) مما يدل على عسفه للناس وشدة معهم (٢) ، وكان إلى ذلك شديد الوطأة على كل من انتفى إلى آل نصير من العرب اليمنية والبربر الزناتية ، فأذى نفراً كبيراً منهم ، وكانوا من كبار أهل البلاد وأصحاب السلطان على نواحيهم (٣) . بيد أن عبيدة كان يشعر أن الحال في إفريقية لم يكن على ما يرام ، وأن ربح الثورة كانت تهب على البلاد ، بسبب سوء سياسته وسياسة من سبقه من ولاة إفريقية ، ولهذا سأل هشاماً أن يعفيه من الإمارة لغير سبب ظاهر ، فأعفاه ، وبارح إفريقية إلى المشرق بعد أن غل من المغرب من المال شيئاً كثيراً ، وبعد أن استبد بالبربر وباليمنية استبداداً بالغاً .

٥١ - عبيد الله وأقام هشام عامله على خراج مصر عبيد الله بن الحبحاب ابن الحبحاب الذى ذكرناه والياً على إفريقية والأندلس في ربيع الآخر سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م ، وبهذا أصبح هذا الرجل يحكم غرب الدولة الإسلامية كله من حدود مصر إلى جبال البرت ، وهي مساحة تزيد على نصف الدولة الإسلامية كلها . وكان بسط سلطان ابن الحبحاب على هذا النحو خطأ فادحاً ،

(١) نفس المصدر ، ص ٢١٧ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السراء (طبعة دوزى) ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٧ .

الأخبار المجموعة ص ٣١ - ٣٢ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٩ .

النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٣ .

السيوطى : تاريخ الخلفاء (طبعة القاهرة) خلافة هشام بن عبد الملك : ص ٤٨ - ٤٩ .

لأن الرجل كان رغم ثقافته الواسعة قيسياً مبالغاً في قيسيته (١) ، ثم إنه كان إلى ذلك بعيداً عن الكياسة وبعد النظر اللازمين لرجل توكل إليه أمور مثل هذا الملك الشاسع يفعل به ما يريد .

كان أول ما فعله عبيد الله هو أن قسم ولايته على بنيه وأنصاره : جعل ابنه إسماعيل على السوس ، وولى ابنه عبد الرحمن على مغازى السودان ، وجعل على طنجة رجلاً من أتباعه يسمى عمر بن عبد الله المرادى ، وجعل على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى : واحتفظ لنفسه بإفريقية لكي يكون في مكان قريب من المشرق يستطيع أن يدير منه ولاياته جميعاً (٢) .

وكان عبيد الله بن الحبحاب كغيره من القيسية شديد العصبية العربية لا يكاد يقيم لغير العرب وزناً ، فجعل يعسف البربر لا يكاد يخلد لشاعرهم ، وجعل كذلك يتبع من وجد من الثمنية لا يكاد يعفيهم من عذاب شديد . وامتد أذاه إلى أتباعهم ومواليهم وفيهم أنصار بنى نصير الغاضبون لما أصاب هذا البيت الكبير من الأذى على يد هؤلاء القيسيين ، وكان من هؤلاء رجل يسمى عبد الأعلى بن جرجس الإفريقى وكان أصله رومياً ، وكان مولى لابن نصير ، وكان قد كون لنفسه عصبية بربرية كبيرة في نواحي طنجة (٣) .

فإذا بلغ عسف القيسية ورئيسها في الغرب الإسلامى كله عبيد الله بن الحبحاب هذا المبلغ ، فقد بدأت أنفس البربر تتطلع إلى الخلاص ، ولو قد كان عبيد الله وعماله على شيء من بعد النظر لاستشعروا اضطراب النفوس في المغرب جميعه ، ولكنهم كانوا كما قلنا لا يكادون يحفلون بشاعر هؤلاء البربر ، حسبناً منهم أنهم لن يستطيعوا قبلكم شيئاً . ويبدو أن قضاء بن

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣ ص ٣٢ .

المقرئى : خطط (طبعة ثبوت) ، ج ٢ ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٧ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

الحبحاب على ثورة أهل مصر قبل ذلك قد هون في نظره شأن غيرهم من الشعوب التى كانت خاضعة لحكمه .

وبلغ من استخفاف ابن الحبحاب بالبربر أن أراد اعتبارهم جميعاً فيئاً للمسلمين ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، وكان الولاة قبله يقصرون هذا اللون التامى من المعاملة على من لم يسلم من البربر ، من استأمن منهم ومن لم يستأمن ، فأبى عبيد الله إلا أن يزيد الأمر سوءاً بوضع مسلمى البربر موضع العبيد الذين يملك المسلمون رقابهم ، ومضى في تنفيذ ذلك ، فكتب إلى رجاله بحصر خمس البربر واعتبارهم رقيقاً (١) . ولم يكن عبيد الله ليستطيع أن ينفر البربر ويسىء إليهم بأكثر من هذا ، ف هؤلاء قوم أسلموا ومنهم من اشترك في جيوش المسلمين غازياً واندرج اسمه في الديوان ، فكيف يعتبر بعد ذلك عبداً رقيقاً ؟

ولو اقتصرت المعاملة السيئة على البربر ونصارى الأندلس وحدهم لكان من الميسور تلافي الخطر إذا بقى العرب جميعاً يداً واحدة — وهم لم يكونوا قليلين في إفريقية والأندلس — ولكن ابن الحبحاب كان مسرفاً في قيسيته لا يكاد يعنى التمنيين من شر ، فتغيرت نفوسهم عليه ، ولما كان أكثر عرب البلاد يمنيين ، فقد وقف القيسيون بسبب سياسة رئيسهم ابن الحبحاب من أهل البلاد جميعاً — عرباً وغير عرب — موقف العدو ، وغدا هؤلاء لا ينتظرون إلا الفرصة الملائمة لينقلبوا على ابن الحبحاب والقيسية بل على العرب جملة .

ولم يكن الدعاة الذين تحدثنا عنهم ينتظرون فرصة هى أعظم من هذه ، فنفس أهل البلاد تغلى والعرب منقسمون على أنفسهم ، وليس أهون عليهم في مثل هذا الظرف من توجيه البربر وإرشادهم إلى طريق العمل . وسرى من حوادث الثورة التالية أنها كانت مرتبة مقدرة ، وأن أيدي محركيها من خوارج العرب كانت ظاهرة لا تحتاج إلى طويل بحث ، وأغلب الظن أن هؤلاء الخوارج وفقوا في إقناع البربر بأن الله لم يقصر حق القيادة والإمامة

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢٤ .

على العرب وحدهم ، بل جعله حقاً مطلقاً لكل مسلم صالح : وأنحكام العرب حادوا عن الطريق القويم ، وأنهم - أي البربر - إذا وثبوا بالعرب لم يكونوا في ذلك إلا منفذين لتعاليم الإسلام كما وردت في القرآن ، وسرى ذلك بوضوح حينما يعلن رئيسهم ميسرة نفسه إماماً ويتسمى بالخلافة : رُحيمًا يرفعون المصاحف على الأسننة كما كان خوارج المشرق يفعلون (١) .

ويبدو أن أعداد هؤلاء الدعاة من الخوارج كانت عظيمة في المغرب ، لأن الأمان عند قبائله وفي شعابه كان مضموناً لهم ، ولأن البربر كانوا ساطخين تتأجج نفوسهم بالثورة على العرب ، فكثرت جموع هؤلاء الخوارج إلى المغرب واختفواهم بين قبائل البربر ، ولم يلبثوا أن قلبوا المغرب كله رأساً على عقب . ولما كان هؤلاء الدعاة لا يستطيعون أن يقيموا في إفريقية أو في المغرب الأوسط لقرب هذه النواحي من مقام عامل بني أمية في القيروان ، فقد تحيروا لمقامهم ولدعواتهم نواحي المغرب الأقصى البعيدة : إقليم طنجة ونواحي السوس الأقصى بوجه خاص ، إذ كانت هذه النواحي موطن أكبر القبائل الزناتية وأكثرها استعداداً للثورة وهي برغواطة ومكناسة ، وانضمت إليها كذلك أعداد قليلة من مضمودة .

٥٢ - ميسرة : وكان في القيروان إذ ذاك رجل من قبيلة مططرة : يسمى وبدء الثورة في ميسرة ، ويتفق معظم المراجع العربية على تسميته بالحقير إقليم طنجة أو بالحقور ، وتذهب إلى أنه كان يبيع المساء في مساجد القيروان (٢) ، وليس ذلك بصحيح ، لأن ابن خلدون يؤكد أنه كان رئيس مططرة (٣) أو لعله كان ينسب إلى بيت كبير من بيوت هذه القبيلة ، ولأن

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

السكري : المسالك والممالك ، ص ١٣٤ .

التويري : نهاية ، ج ١ ص ٣٤ .

(٣) ابن خلدون : العبر (طبعة دي سلين) ، ج ١ ص ١٥٠ .

ما سبى من الأحداث يدل على أنه كان رجلاً ذا عصبية لما خطر لها ، والثابت أن ميسرة كان من رواد المجالس العلمية في مساجد القيروان ، وأنه كان ذكياً بعيد المطامع شديد الميل للمغامرة ، فوجدت مبادئ الخارجية الصفرية سبيلها إلى نفسه فاعتنقها ، وقرر في نفسه أن ينشرها في بلاده ، واتجه بهمه إلى مواطن مططرة في إقليم طنجة ، ففضى إلى هذه الناحية واندس بين جماعات قومه مططرة ، وأخذ يكسب لنفسه الأنصار ويؤايلهم على العرب وحكامهم ، فلم يلبث أن استألفهم إلى رأيه ، فرفعوا راية العصيان ، ولم تلبث الدعوة أن امتدت حتى شملت مكناسة ، فأقبلت بجموعها وانضمت إلى ميسرة وقومه (١) .

ولم تلبث برغواطة أن أعلنت الخروج يقودها داعية خارجي لا نكاد نعرف عنه شيئاً وهو طريف بن شمعون بن يعقوب بن اسحاق ومعه ابن له غلام يسمى صالحاً (٢) . وانضمت القبائل النائرة بعضها إلى بعض وجعلت تترقب الفرصة لإعلان الثورة والخروج على بني أمية ، وكان عامل طنجة لعبيد الله بن الحبحاب قيسياً شديداً للعصبية لقيس وللعرب هو عمر بن عبد الله المرادي ، ففضى يعسف البربر لا يكاد يحسب لشعورهم حساباً ، وكان ميسرة إذ ذاك نشيطاً في دعوته ، فأعانه جهل عمر بن عبد الله المرادي وسوء سياسته على كسب قلوب الناس .

ثم سنحت الفرصة لميسرة وأصحابه للخروج على العرب علانية ، ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب أرسل قائده حبيب بن أبي عبيدة سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م (٣) في حملة إلى صقلية ، وأصبحه خيرة جنده ، فمجل ميسرة وأصحابه ينهزون فرصة ابتعاد جند عبيد الله بن الحبحاب فيما وراء البحر ، فجمعوا أنصارهم . وتسارعوا نحو طنجة وواليا عمر بن عبد الله المرادي ، واستولى

(١) ابن خلدون : العبر (طبعة دي سلين) ، ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) السكري : المسالك والممالك ، ص ١٣٥ .

(٣) ابن خلدون : العبر (طبعة دي سلين) ، ج ١ ص ١٥١ .

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٨ .

ميسرة عليها وقتل المرادى ، وانضم إليه عبد الأعلى بن جريج الإفريقي ومن معه من الأفارقة وموأي بن نصير ، فأقامه والياً على طنجة ، ثم سار إلى نواحي السوس واستولى عليها ، وقتل واليها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ، وبهذا خرج المغرب الأقصى كله من يد الأمويين ، وتخرج مركز عبيد الله ابن الحبحاب في إفريقية وساء مركز المسلمين في الأندلس (١) .

وجمع عبيد الله بن الحبحاب نفراً من خيرة جنده وقوّد عليهم رجلاً من كبار عرب إفريقية هو خالد بن حبيب الفهرى ، وبعث إلى حبيب بن أبي عبيدة يتعجل عودته ، فلم يكذب يعود ، حتى بعثه ومن معه من الجند نيشدوا أزر خالد ، والتقى العرب بقوات ميسرة على مقربة من طنجة : فانهزموا وقتل منهم نفر عظيم ، وعاد ميسرة إلى مركزه في طنجة منصوراً ، ثم ادعى الخلافة وتسمى بها ، وبويع عليها (٢) . ويبدو أن النصر ذهب بصوابه . فأساء السيرة في جماعته ، فلم يلبثوا أن قتلوه وولوا مكانه واحداً من كبار رؤسائهم هو خالد بن حميد الزناتى ، وكان خيراً من ميسرة وأقدر (٣) (١٢٢ هـ / ٧٣٩ - ٧٤٠) .

وتخرج مركز ابن الحبحاب في إفريقية ، فبعث إلى عقبة بن الحجاج السلولى عامل الأندلس يطلب إليه الإسراع لِعونه بمن يستطيع من الجند ،

(١) انظر عن ميسرة : ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨-٢١٩

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٤-١٥

ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٣٩

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٤٢ .

ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، ج ١ ، ص ١٣٧ و ١٥١ .

(٢) التويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٤-٣٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

هنا يحاول فورنيل الدفاع عن ميسرة ، على عهده من امتداح كل ثائر على المسلمين ، ويبدو في هذه المناسبة افتعاله وتكلفه بصورة واضحة جداً :

cf : HENRI FOURNEL, *Les Berbères*, I. pp. 288-289.

فأسرع الرجل ، وحاول مهاجمة مواقع البربر في طنجة فلم يستطع ، وعاد أدراجة (١) .

٥٣ - هزيمة جيش ابن الحبحاب جيشاً آخر احتفل في تكوينه وجعل الأشراف أوائل فيه نفراً عظيماً من أشراف عرب إفريقية والظاهرين منهم ، سنة ١٢٣ هـ . ورمى بهم قوات خالد بن حميد الزناتى ، فلم يكذب هذا الجيش (٧٤٠ / ٧٤١ م) العربي - يقوده خالد بن حبيب الفهرى - يقارب طنجة

ويلقى البربر ويشدد القتال بينه وبينهم حتى فجأه خالد بن حميد من خلف بعسكر عظيم ، فانهزم بعض أصحاب خالد بن حبيب وكسره هو أن ينهزم ، فألقى بنفسه هو وأصحابه في أوار المعركة ، فقتل هو ومن كان معه ولم يسلم منهم أحد : « وقتل في هذه الموقعة حاة العرب وفرسانها ، فسميت وقعة الأشراف وانتقضت البلاد ومرج الناس ، واختلفت الأمور على عبيد الله ، فاجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم » (٢) . وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك فغضب غضبة « مضرية » لفظاً ومعنى ، وقرر إرسال جيش عربي عظيم إلى إفريقية ليؤدب البربر وينقضى على ثورتهم ، وعزل عبيد الله بن الحبحاب في جمادى الأولى سنة ١٢٣ / ٧٤٠ . وقد أصاب بعزله إياه ، لأن الرجل كان قد تهادى في سوء التصرف بعد هذه الهزيمة ، وكان دافعه الأول إلى ذلك الرغبة في الانتقام لمقتل ابنه إسماعيل (٣) .

ويبدو أن ابن الحبحاب شك في أن لعرب إفريقية بدأ في هذه الهزيمة ، فاتهم نفراً منهم بأنهم اتفقوا مع البربر والأفارقة على إيقاع الهزيمة بجيشه ، وكانت جماعة من هؤلاء العرب الإفريقيين تقيم في تلمسان يرأسها موسى بن

ISIDORI PACENCIS, *Chronicon; España Sagrada*, VIII. Cap. 61 (١)

in p. 302

(٢) التويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٥ .

(٣) « وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك ، فقال : أقتل هؤلاء الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من العرب ؟ قيل : نعم ! فقال : والله لأغضبن لم غضبة عربية » - نفس المصدر والصفحة .

أبي خالد ، أحد موالى معاوية بن حديج أحد كبار قادة العرب الذين ساهموا في فتح إفريقية بنصيب كبير ، وكان عامل تلمسان « وقد اجتمع عليه من تمسك بالطاعة ، فقبض عليه ابن الحبحاب وقطع رجله ويده » (١) ثاراً لمقتل ابنه إسماعيل فأثار على نفسه بذلك العرب الإفريقيين أجمعين ، ودفعهم إلى الخروج عليه صراحة ، واضطربت أمور البلاد كلها . وكان هذا - في الغالب - هو ما حدا بهشام بن عبد الملك إلى الإسراع في عزل ابن الحبحاب واستبدال غيره به (٢) ، وتم ذلك في جمادى الأولى سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م .

٤٥ - كلثوم بن استقر رأى هشام بن عبد الملك على أن يعهد في ذلك إلى عياض القشيري رجل من زعماء القيسية توسم فيه القدرة وبعد النظر وهو (٧٤١/١٢٣) كلثوم بن عياض القشيري ، ولم يكن هشام بأحسن حظاً في هذا الاختيار منه يوم عهد في إفريقية والأندلس إلى ابن الحبحاب : كان كلثوم بن عياض قيسياً شديداً الاعتداد بقيدته ، وكان في نفسه إلى جانب ذلك غرور جعله يظن أن البربر قوم لا حيلة لهم في الحرب ، وأنهم إذا كانوا قد انتصروا على عبدة بن عبد الرحمن وعلى عبدة الله بن الحبحاب ، فإنما يرجع ذلك إلى جهل هذين وقلة اقتدارهما . وكان الخليفة قد أوسع عليه في النفقة ، وأمر عمال مصر وطرابلس وإفريقية أن ينضموا إليه بكل ما يستطيعون من رجال ونخيل وعدة ، فزاده ذلك غروراً . خرج كلثوم بعدد عظيم من دمشق ومرّ بمصر فاستصحب عدداً من خيرة جندها وكذلك فعل بطرابلس وإفريقية . فاجتمع له جيش عظيم (٣) جعل على مقدمته قائد خيله باج بن بشر القشيري (٤)

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

التويري : نهاية الأرب ، ص ٣٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ - ٢٢٢ ويقال ان بلجاكان ابن أخيه : التويري ،

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ - ٢٢٢ ويقال ان بلجاكان ابن أخيه : التويري ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٥ وراجع تعليق فورتل على هذا الجيش :

H. FOURNEL, *Les Berbères* : I, p. 292.

وكان فارساً شهماً إلا أنه كان أشد غروراً وعصبية من كلثوم ، وجعل على رجاله ثعلبة بن ثوبة الجذامي ، وكان من غلاة القيسية كذلك .

ويبدو أن كلثوماً عول على القتال حتى الموت ، لأنه أوصى بأن يخلفه بلج في القيادة إذا أصابه شيء ، فإذا قتل بلج خلفه ثعلبة بن ثوبة .

٥٥ - العرب كان جنود إفريقية إذ ذاك مواقف للبربر بناحية طنجة الإفريقيين في انتظار المدد من دمشق ، وكانت نواة هؤلاء الجند جماعة

من العرب طال بهم المقام والعمل في إفريقية حتى أصبحوا يعتبرون أنفسهم أفارقة لا يطعنون إلى أحد من القادمين من المشرق ، مثلهم في ذلك مثل عرب الأندلس إذ ذاك : كانوا يعتبرون أنفسهم « أهل البلد » ويتسمون بالبلديين ، وقد تكونت جماعات العرب الأفارقة من جند العرب الأول الذين استقروا أثناء الفتح أو بعده فيما راقهم من نواحي المغرب ، وقد جرت عادة هؤلاء العرب أن يستقروا في النواحي بمن انضم إليهم أو صار في ولائهم من البربر ، فاعتبروا مواليتهم واندمجوا فيهم مع الزمن ، وبهذا كثرت جموع هؤلاء العرب الإفريقيين البلديين وأصبحوا قوة سياسية لها خطرهما . ولما كان هؤلاء العرب الأول هم الذين فتحوا البلاد ، فقد أصبحوا يعتبرون أنفسهم أصحابها وملوك نواحيها ، لا يكاد يحروّ غيرهم من غير قبائلهم على الاستقرار معهم فيها . ووفد إليهم من بلاد العرب طوائف من أبناء عصبيتهم وانضموا إليهم فاشتدت بهم سواعدهم ، ولما كان معظم من شارك في فتح إفريقية من العرب يمنيون فقد كثر جمع اليمنيين في إفريقية ، كما كثروا في الأندلس ، وانضمت إليهم جماعات من البربر الزناتية ، وأخذوا ينظرون للقيسيين خاصة نظرهم إلى عدو دخيل .

ويقتصر ابن عذاري في الجزء الأول من تاريخه على ذكر عدد الشامين في هذا الجيش وهم ١٢ ألفاً من الفرسان كان يقدم بلج بن بشر (البيان ، ج ١ ، ص ٣٨) ، ثم يذكر في الجزء الثاني أن عدة الجيش كله كانت ٣٠ ألفاً (البيان ، ج ٢ ، ص ٣٠) ويؤيده في ذلك ابن القوطية (افتتاح الأندلس ، ص ١٤) ، أما ابن حيان فيجعل عدة الجيش ٧٠.٠٠٠ (أورد تلك الرواية المقررة في نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٢) .

ومن هنا نفهم السر في هذا النفور العنيف الذي أظهره عرب إفريقيه البلديين عندما أخذ ولاية القيسيين يتعاقبون على إفريقية تصاحبهم جماعات قيسية قليلة تريد الاستقرار في البلاد. ولنصف إلى ذلك أن عدداً عظيماً من فاتحي إفريقية أنشأوا فيها أسراً من أهلهم وذريتهم، فأصبحت هذه الأسر مع الزمن ذوات جاه وسلطان بفضل من التف حولها من العرب والموالي والأتباع، وأصبحت لها رئاسة على جماعات العرب والبربر في النواحي التي استقرت فيها، ومن بيوت هذه الأسر بيت بنى عقبة بن نافع وكان أقواها وأعظمها، وبيت معاوية ابن حديج، وبيت بني نصير. وكان لهذه البيوت الثلاثة النصيب الأوفى من السلطان في إفريقية خلال العصر الأموي، بل صارت الأمور أخيراً إلى بيت عقبة بن نافع ممثلاً في شخص عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة^(١).

وكان هؤلاء العرب الأفارقة «البلديون» مقيمين بجماعات، كل جماعة في ناحية عليهم رئيس يقوم بشئون الإقليم لحساب عامل إفريقية في القيروان. وقد سجل المؤرخون لنا منهم جماعات قوية في طرابلس وسبترت وقابس والقيروان، ومن شخصيات هؤلاء العرب الإفريقيين في ذلك الحين: حبيب بن ميمون (سبترت) وعبد الرحمن بن عقبة الغفاري، ومسلمة بن سودة القرشي (القيروان) وصفوان بن أبي مالك (طرابلس) وسعيد بن بجرة الغساني (قابس) وحبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع. ويبدو أنه كان رأس هؤلاء العرب الأفارقة جميعاً، وكان مقياً إذ ذاك بجموع من هؤلاء العرب عند طنجة موافقاً لخالد بن حميد الزناتي زعيم البربر الثائرين وخليفة ميسرة^(٢).

(١) راجع تراجم عقبة بن نافع ورويفع بن ثابت الأنصاري ومعاوية بن حديج وربيعة ابن عباد الديلي وزيد بن الحارث الصدائي وأبي عبد الرحمن بن بسر بن أوطاة وأبي عبد الرحمن عبد الله بن زيد (الإفريقي) ومن بعده من التابعين في:

المالكي: رياض النفوس، ج ١، ص ٤١ وما يليها.

الديباغ: معالم الإيمان، ج ١، ص ٩٩ وما يليها.

(٢) ابن عبد الحسك: فتوح، ص ٢١٩ - ٢٢٢.

ولم تكن العلاقة بين هؤلاء العرب الأفارقة النازلين مدائن إفريقية وأريافها وبين البربر من أهل البلاد على ما يرام، لأن العرب جميعاً كانوا لا يطمثون إلى البربر بعد هذه الحرب الطويلة التي كانت بين الجانبين أيام الفتح. ولأن العرب الأفارقة كانوا يعدون أنفسهم سادة البلاد وأهلها، ولأنهم كانوا إلى ذلك عماد الحكام وولاتهم على النواحي، ففكرهم البربر لذلك وحملوهم تبعات مظالم هؤلاء الحكام، وكان من هؤلاء العرب البلديين قدامى معظمهم من اليمنيين منذ أيام موسى بن نصير وبنيه وجند غاليتهم من القيسية، وكان الفريقان متعادين كما لاحظنا^(١).

لهذا كان طبعياً أن تكون ثورة البربر في إقليم طنجة إيذاناً بثورة عامة جديدة من البربر جميعاً على من بين أظهرهم من العرب، سواء أكانوا من رجال الدولة وجنداً أو عرباً مستقرين مسالمين. ومن هنا فأننا لا نستطيع القول بأن هذه الثورة كانت في صميمها ثورة بربر على عرب، بل كانت فتنة عامة بين جماعات متنافرة، ولم يكن معظم المشتركين فيها يميلون إلى بني أمية، ولهذا فقد كانت الحركة في جملتها فتنة إفريقية عامة وثورة على بني أمية.

٥٦ - ثورة البربر وصل كلثوم بن عياض إفريقية، ولم يشأ أن يريح بالقيروان، على العرب في بل أراح ببليدة سببية على مقربة منها (شوال ١٢٣ / أغسطس طرابلس ٧٤١). ثم انصرف بجموعه إلى ناحية طنجة مخلفاً على

إفريقية عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ومسلمة بن سودة القرشي. فلم يكد

(١) تذكر المراجع في أخبار ولاية عبيد الله بن الحبحاب قصة تصور لنا هذا العداء بصورة واضحة، ملخصها أن عبيد الله لم يكد يلى إفريقية حتى قدم عليه عقبة بن الحجاج السلوي، وكان الحجاج - أبو عقبة - قد اعتق الحارث جد عبيد الله، أي أن بني الحارث - وهم بنو الحبحاب وغيرهم - كانوا موالي الحجاج السلوي وبني سلول، فقام ابن الحبحاب لعقبة وشرفه، فأنكر أولاده ذلك، وخشوا أن يحط من قدرهم في نظر عرب إفريقية، ولأموأ أباهم في ذلك. فانتظر ابن الحبحاب حتى اليوم التالي، فلما اجتمع الناس وعمر المجلس استقدم عقبة وأعلن إليه أمام الناس أنه وليه وخاطب أولاده مؤنباً إياهم على عقوقهم نحو الحجاج وبنيه، فخجل الأولاد من أنفسهم. وهذا يدل على أن أولاد عبيد الله كانوا يعتبرون أنفسهم عرباً أفارقة، أي من أصحاب البلاد، فكروا أن يسودهم هذا المشرق المقل وبحط من قدرهم، وهم في هذا يعبرون عن شعور العرب الأفارقة عامة نحو من كان يقبل من العرب، انظر: الأخبار المجموعة، ص ٢٦ - ٢٧.

يتعد عنها حتى نهض زعيم من زعماء زناتة يسمى عكاشة بن أيوب الفزاري - وكان من الخارجية الصفرية - فجمع جموعه بناحية قابس، وأرسل أخاه له في نفر من البربر، فحاصروا حبيب بن ميمون ومن معه من العرب في سبرت، وأقام محاصراً لهم حتى خف لنجدتهم صفوان بن مالك رأس عرب طرابلس، فانهزم البربر إلى قابس، وكان عرب القيروان قد علموا بالأمر وخفوا مع أميرهم مسلمة بن سودة إلى قابس لنجدة عرب هذه الناحية والقضاء على ثورة البربر، والتقى الجمعان بأحواز قابس، فانهزم العرب وعادوا مفلولين إلى القيروان حيث أقبل البربر يحاصرونهم بها^(١).

بهذا زاد مركز عرب إفريقية حرجاً : انهزمت قواتهم عند قابس وحاصروهم البربر في القيروان ، وانهزمت قواتهم عند طنجة قبل ذلك ، وأقام خالد بن حميد الزناتي مواقفاً لمن بقي منهم على نهر سيبو ، وأخذ يؤلب بقية البربر عليهم ويستعد لمعركة فاصلة جديدة بينه وبينهم .

٥٧ - الخلاف بين العرب الأفارقة وكلثوم بن عياض ومن معه
يقترّبون من طنجة ليلقوا البربر ، ولو قد كان كلثوم حسن السياسة لتودد إلى عرب إفريقية وكسب قلوبهم حتى يقف ومن معه من العرب جميعاً جبهة واحدة أمام الخطر الداهم ، ولكنه لقي القيسية هؤلاء العرب بمعاملة نفرتهم منه وصرفتهم عن عونه . وكان كما قلنا قديماً بجافياً شديداً الاعتزاز بنفسه : أنهف أن ينزل القيروان وأراح في سببية ، ثم تقدم نحو طنجة وبعث يأمر حبيب بن أبي عبيدة رأس عرب إفريقية بأن يقيم مكانه لا يصنع شيئاً حتى يقدم عليه . وكان بلج بن بشر على مقدمة كلثوم كما قلنا ، ولم يكن أقل عصبية ولا كبرياء من كلثوم . فلم يكذ بلقي عبيدة حتى أهانه وحقره ، وأعلن إليه أن الشامية قد عولت على المقام في إفريقية واتخاذها داراً ، فحز هذا في نفس الأفارقة وأخافهم على ما كان لهم من المكانة في البلاد^(٢) . وزادهم نفوراً من بني امية والشاميين عموماً .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ج ١ ، ص ٤١ .

وبعث حبيب بن أبي عبيدة إلى كلثوم يشكو إليه ابن أخيه ، فلم يلقي عنده إنصافاً كافياً ، فامتثلت نفس أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ونفوس من معه من العرب البلديين سخطاً على الشامية وخوفاً منهم . ثم وصل كلثوم إلى نواحي طنجة ولقي حبيباً ، فعامله نفس المعاملة التي عامله بها بلج قبل ذلك ، وتقدم أبو عبيدة بن عقبة (أبو حبيب) يريد نصيح كلثوم فرفض نصيحته وأهانته ، وبهذا انقسم العسكر العربي قبل المعركة إلى فريقين ينطوي أحدهما على اللدد نحو الآخر : فريق العرب الأفارقة على رأسهم أبو عبيدة بن عقبة وابنه حبيب بن أبي عبيدة وحفيده عبد الرحمن بن حبيب ، وفريق الشامية المقبلين وعلى رأسهم كلثوم بن عياض وبلج بن بشر ، فكان لهذا الانقسام أسوأ الأثر في مجرى الحوادث^(١) .

وكأنما أراد هشام بن عبد الملك أن يزيد الموقف تعقيداً ، فأمر كلثوم أن يسير وفق التوجيهات التي يرسمها له هرون القرني مولى معاوية بن هشام ومغيث الرومي مولى الوليد ، وقد أمره الخليفة بهذا بحجة أنهما أعرف ببلاد إفريقية ،^(٢) وكان أولى به أن يأمره بالاتفاق مع العرب الأفارقة ، لا بطاعة هذين الموليين اللذين سيزيدان الأمر تعقيداً وحرجاً . ويبدو أن هشاماً أراد أن يكونا رقيبين على كلثوم ، لأن الجيش الذي كان معه كان عظيمًا جدًا ، كانت عدته تبلغ السبعين ألفاً على قول بعض المؤرخين .

(١) يقول ابن عبد الحكم في وصف هذه الحالة النفسية التي سادت الجائنين : « وكان كلثوم حين خرج إلى البربر قد قدم بلج بن بشر القيسية على مقدمته في الخيل ، فلما قدم على حبيب ونفضه وأهان منزله ، ثم قدم كلثوم فتلقاء حبيب فهاون به أيضاً ، ثم خطب كلثوم للناس عن ديدبان له فطعن في حبيب وشتمه وأهل بيته ... » - ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ - بل بلغ من اضطراب النفوس أن دار القتال بين الجائنين قبل أن يلحقوا البربر ، ولم يستطع كلثوم إقرار السلام إلا بعد جهد . وكان بلج بن بشر من أكثر الناس عصبية لقيسيته ، وهو المشكوك عن كثير مما نزل بالعرب في إفريقية والأندلس من البلاد في ذلك الحين .

ابن عذاري : البيان ، ج ١ ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٢١ .

وليس أدل على ما كان بين الحيين من النفور من أن العرب البلديين كانوا يغلقون أبواب مدنهم إذا سمعوا بمقدم الشامية ، ويبدو أن بلجاً لم يدخر وسعاً في زيادة نفورهم ، فجعل يقول انه إنما أتى ليستقر بمن معه في إفريقية كما ذكرنا ، ولم يكن يستطيع أن يثير نفوس الأفارقة بأكثر من هذا ، لأن معظم من كان قد استقر في إفريقية إلى الآن كانوا يمنية كلبية ، وكان مجرد التفكير في إقرار بضعة آلاف من القيسية الشامية معهم في نواحيهم كافياً لإثارة نفوسهم وإذكاء نار العداوة فيها ، هذا إلى أن القيسية كانت فيهم جفوة وقلة كياسة وشدة في العصبية ، فكانوا لا ينزلون بلداً إلا أثاروا أهله - عرباً أو غير عرب - هكذا فعلوا في خراسان وفي شمال إفريقية وفي الأندلس .

٥٨ - هزيمة على هذه الحال التقى الجيش العربي مع البربر بقودهم العرب عند خالد بن حميد الزناتي عند بلدة تسمى بقدورة أو بقدورة بقدورة على مقربة من تاهرت قرب مصب نهر مَلُوِيَّة^(١) ، وقد رأى هرون الترمي ومغيث الرومي أن أعداد البربر عظيمة جداً ، وخافوا على العرب منها . فنصحوا كلثوماً بأن يضرب حول معسكره خنادقاً . ولكن الغرور ملأ نفس بلج ، وظن أنه إذا جال بخيله لم يلبث البربر أن يتفرقوا ، وغاب عنه أن البربر قوم ذوو جلد على الحرب وحيلة في الميدان ، فصنعوا أكياساً من الجلد ملأوها بالحجارة ، وأخذوا يقذفونها على رؤوس الخيل .

(١) بين المؤرخين خلاف حول مكان هذه الموقعة ، فيذهب الرازي إلى أنها كانت على نهر ملوية (روى ذلك ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ١٥٢) ، ويذهب ابن عذاري وابن خلدون إلى أنها كانت على نهر سبو (ابن عذاري : البيان ، ج ١ ، ص ٤٧ وابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ١٣٧) ، أما صاحب الأخبار المجموعة فيذهب إلى أن الموقعة كانت عند بلدة تسمى بقدورة أو بقدورة (الأخبار ، ص ٣١) ، وجعلها ابن التومانية بقدورة (بالفاء) - انظر الافتتاح ، ص ١٥ ، ولم نجد بلدة بهذا الاسم في هذه الناحية من إفريقية ، وربما كانت صحة الاسم بقدورة بالباء ، فقد ذكر ابن خلدون بلدة بهذا الاسم دون أن يحدد موقعها . وقد رجحنا رأي الرازي وابن خلدون راجع : العبر (طبعة دي سلين) ، ج ٣٥٤ . وانظر أيضاً :

FOURNEL, *Les Berbères*, I. p. 294 n. 1.

نفرت وروعت ، ولم يستطع الفرسان القتال عليها ، فأمرهم كلثوم أن يترجلوا ، ولم يكن البربر يرجون خيراً من ذلك ، فانقضوا على العرب وأحاطوا بهم ، وأعملوا فيهم السيوف ، وتبدت طلائع الهزيمة لكلثوم ، فخطب حبيب بن أبي عبيدة وعرض عليه قيادة الجيش ، فقال حبيب : قد فات الأمر ! ثم اشتد القتال وأحاط البربر بالعرب حتى كادوا يأتون عليهم أجمعين ، فلما رأى حبيب ذلك عزم على الاستشهاد وأوصى ابنه عبد الرحمن أن يلزم بلجاً ، وقاتل حتى قتل ، وهكذا أبدى هذا العربي الفهري من الشجاعة والبسالة ما يملك النفس ، وراح ضحية شدة القيسيين وعصبيتهم .

وكان بلج قد رفض أن ينزل عن جواده وبقي معه نحو عشرة آلاف ، فحملوا على البربر في عنف حتى اخترقوا صفوفهم ووصلوا خلفهم ، ثم استدار لهم البربر وكاثروهم حتى اضطروهم إلى الفرار ، ففروا - يتقدمهم بلج - في اتجاه طنجة . وأما بقية العرب فقد أحاط بهم البربر واشتدوا في قتلهم حتى قتل هرون ومغيث وحبيب بن أبي عبيدة وكلثوم نفسه ، وانتهت المعركة بهزيمة كبرى للعرب ، حتى ليؤكد المؤرخون أن ثلث هذا الجيش العربي الكبير قد قتل وأن ثلثه الآخر راح أسيراً ، وأما الباقون فقد تفرقوا فلولاً مهزومة لا تكاد تلوى على شيء بعد السلامة^(١) (١٢٤ هـ) .

انهزم بلج وأصحابه من الشامية إلى الغرب « واتبعهم أبو يوسف الذواري ، وكان طاغية من طواغيت البربر ، فأدركهم فقاتلهم ، فقتل أبو يوسف وانهزم أصحابه » (٢) واستطاعوا آخر الأمر أن يدخلوا سبتة ويتحصنوا بها ،

(١) ابن عبد الحسك : افتتاح ، ص ٢٢٥ .

ISIDORI PACENCIS, *Cronicon*, cap. 68-69.

الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٥ .

التويري : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٦ .

أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ .

(٢) ابن عبد الحسك : فتوح ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

وأقبل البربر يحاصرونهم ويهاجمونهم المرة بعد المرة ويحاولون الاستيلاء على هذا البلد منهم ، فلم يستطيعوا ، فلما يئسوا قطعوا الزروع حول الحصن ، وأقاموا مشددين الحصار حوله حتى عدم بلج وأصحابه الأقوات وماءت حالهم كثيراً .

وزادت ثورة البربر والخوارج في إفريقية عنفاً ، وقام من البربر في كل ناحية زعيم يقود مواطنيه في هذا الكفاح : قام أبو يوسف الهواري يقود بربر إقليم طنجة ويقاتل بلجاً ومن معه ، وتجمعت جموع عظيمة منهم في ناحية الزاب يقودها قائدان بربريان هما عكاشة بن أيوب الفزازي الصفرى الخارجي وعبد الواحد بن يزيد الهواري ، وأخذوا يستعدان للسير نحو القيروان ، فلما أتتا العدة سار عكاشة على طريق مجانة واقترب من القيروان وعسكر عند «القرن» ، وأما عبد الواحد فسار على طريق الجبال واقترب من القيروان وعسكر عند طُبنة ، وكان على مقدمة جيشه أبو قرة المغيلي^(١) . وكان أبو قرة من كبار زعماء الخوارج . وكان قد نادى بنفسه إماماً . وكان بربرياً مستعرباً من قبيلة مغيلة .

وكانت هزيمة «الأشراف» قد روعت هشاماً وملأت نفسه خوفاً من ناحية البربر ، كما رأينا ، ثم وقعت هذه الهزيمة عند بقدرورة فكانت ضعفاً على ابالة ، وأحس أن المسألة ليست باليسر الذي تصوره ، وأن الثورة إذا استمرت على هذا النحو فربما كانت نتيجتها خروج المغرب والأندلس جملة عن طاعة الخلافة ، فعجل بتخير نحو ثلاثين ألفاً من خيرة جنده بعثها إلى حنظلة بن صفوان عامله على مصر ، وأمره بالإسراع إلى إفريقية ، فوصل حنظلة القيروان بجنوده في ربيع الأول سنة ١٢٤ / ٧٤١م ، وأخذ يرسم الخطة للقضاء على هذه الثورة الخطرة . وكان هشام - رغم مرضه - دائم الاتصال بحنظلة وجيشه لتوجيههم والاطمئنان على مصيرهم ، وتحديثا المراجع أنه هو الذي رسم لحنظلة خطة

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .

النويري : نهاية الأرب ، ص ٣٧ .

العمل ، فنصحه بأن لا ينتظر حتى يجتمع الجيشان البربريان عليه ، وأن يعجل بحرب كل منهما على حدة^(١) .

وقد فعل حنظلة ذلك : خرج للقاء عكاشة ومن معه عند القرن ، فالتقى بهم وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً ، وقتلهم قتلاً ذريعاً . ويبدو أنه خسر عدداً عظيماً من جنده في هذه الوقعة ، لأنه عاد إلى القيروان بعدها ليستعد للسير إلى جمع البربر الثاني المعسكر على مقربة من طُبنة يقوده عبد الواحد بن يزيد الهواري وأبو قرة المغيلي .

يذكر النويري أن عبد الواحد كان في ثلاثمائة ألف^(٢) ، وظاهر أن تقديره هذا مبالغ فيه ، لأنه لو كان في هذا العدد العظيم حقاً لما استطاع حنظلة الانتصار عليه بالعدد القليل الذي كان معه ، ولكن الثابت أن حنظلة بذل أقصى جهده في الاستعداد لهذه المعركة الخطيرة الحاسمة ، وأنه تناسى قيسيته في هذه اللحظة الحاسمة ، وجمع العرب جميعاً ، أفارقة وغير أفارقة ، على لواء واحد للدفاع عن مصير العرب ومذهب السنة والجماعة في إفريقية «فأخرج مافي الخزائن من السلاح ، ونادى في الناس فكان يعطى لكل منهم درعاً وخمسين ديناراً ، فلم يزل يفعل ذلك حتى كثر عليه الناس ، فرد العطاء إلى أربعين ثم إلى ثلاثين ، ولم يقدم الا شاباً قوياً . فعبأ الناس طول ليلته ، والشمع حوله وبين يديه ، فعبأ في تلك الليلة خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل ، وأصبح وقدم للقتال ، وكسرت العرب جفون سيوفها ، والتقوا ، ولزم الرجال الأرض ، وجثوا على الركب ، وكان ذلك بمكان يسمى «الأصنام» على وادي نهر شلف جنوب غربي مدينة الجزائر الحالية ، واشتد القتال وصبر العرب صبر الفناء»^(٣) . وكان عكاشة قد أسر في القرن ، فأمر به

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٧ .

(٢) النويري : نهاية الأدب ، ج ١ ص ٣٧ .

(٣) وبعت حنظلة أبا الخطار والياً على الأندلس . وأمره أن يبعث إليه مدداً من جندها ،

حنظلة فقتل صبراً^(١)، وانتهت المعركة بانتصار العرب، وقتل فيها عبد الواحد، وانقسم ظهر الثورة وأخذت البلاد تهدأ، وكان ذلك سنة ١٢٥هـ / ٧٤٣م. ومات هشام قبل أن تصله أخبار هذا النصر، وخلفه الوليد بن يزيد، فأقر حنظلة على ولاية إفريقية، وساد السلام ربوعها أثناء خلافته القصيرة، لأن حنظلة كان معتدلاً في عصبيته، فأخذ عرب البلاد يطمئنون إلى مصيرهم، ولزم البربر السكون بعد هذه الهزائم القاسية. وكان انتصار حنظلة انتصاراً لمذهب السنة والجماعة، فمن ذلك الحين رجحت كفة السنة على الخارجية ولهذا يعتبر أهل السنة من المغاربة هذه المعركة معادلة لمعركة بدر الكبرى.

ولكن الأخبار لم تلبث أن وردت بمقتل الوليد بن يزيد في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ / أبريل ٧٤٤م، وكان الوليد شديد العصبية للقيسيين دائم الانتصار لهم، وكان مقتله ايذاناً بانتصار أعدائهم اليمانيين وعودتهم إلى السلطان. ولهذا ريع القيسيون في إفريقية عندما بلغهم النبأ، وخافوا أن ينقلب عليهم اليمانيون والبربر الزناتيون يؤازرهم الخليفة الجديد وأنصاره. فخرج إلى الشام نفر من كبارهم وجندهم، وبقي حنظلة في نفر قليل من القيسية^(٢).

ويبدو أنه لم يبق إلى شيء، لأن حال العرب في الأندلس لم يكن حسناً كما سنرى. عن معركة القرن والأصنام انظر: ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢٢١ - ابن القوطية: افتتاح، ص ١٥ - ابن عذاري: البيان، ج ١، ص ٤١ - الأخبار المجموعة، ص ٣٦ - ٣٧ - النويري: نهاية الأرب، ج ١، ص ٣٧؛ والنص الوارد هنا عن النويري. هذا والأصنام موضع كانت فيه آثار رومانية قديمة في ذلك الحين، وقد اختلف المؤرخون في تحديد مكانه، وأقرب آثارهم إلى النص هو ما يذهب إلى أن الأصنام تقع على ثلاثة أميال شمال القيروان على مقربة من جلولا. راجع: Fournel, *Berbères*, I. p. 300 n. 4.

(١) ابن عذاري: البيان، ج ١، ص ٤١.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ج ١، ص ٢٢٣.

٦٠ - ظهور ويبدو أن القيسيين كانوا على الحق فيما تخوفوا من انقلاب أمر عبد الرحمن اليمانيين عليهم، لأن رأس هؤلاء العرب الأفارقة البلديين، ابن حبيب عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع لم يلبث أن بادر إلى العمل.

كان عبد الرحمن مع بلج بن بشر في الطائفة التي انهزمت إلى سبتة عقب هزيمة الأشراف، إذ كان أبوه حبيب بن أبي عبيدة قد أمره بأن يلزم بلجاً، فلما انهزم بلج واجأ إلى سبتة. تركه عبد الرحمن ومضى إلى الأندلس ليلقى أميرها إذ ذاك عبد المات بن قطن القيرواني - اليماني مثله - وجعل يشرد على بلج وأصحابه ويخطف منهم. فلما تسامح بموت الوليد وخروج معظم القيسية إلى الشام عاد إلى إفريقية معجلاً، وجمع أصحابه الأفارقة وعسكر بهم في مكان يعرف بسبخة سجنوم في أوائل سنة ١٢٧هـ / ٧٤٥م^(١). وقرر أن ينتهز الفرصة ويخص إفريقية من القيسية جملة، فكتب إلى حنظلة ومن معه يطلب اليهم ترك القيروان وإخلاء البلاد، وأمرهم ثلاثة أيام. وشاء حنظلة أن يقاوم، ولكنه رأى قلة من معه. وبلغته أنباء اضطراب الأمر على الأموية في الشرق، فقرر ترك إفريقية والعودة إلى المشرق.

ويبدو أن حنظلة لم يقرر ذلك مختاراً بل مضطراً، فقد بدأ له من اختلاف عرب إفريقية عليه وتواطؤهم مع عبد الرحمن بن حبيب ما أخافه وزهده في المقام بهذه البلاد. فقد حدث، بعد انتصاره في موقعة القرن والأصنام أن أمر قائده على طرابلس معاوية بن صفوان أن يخرج لحرب نصر من الصفرية من نفاوة، فخرج اليهم وحاربهم وانتصر عليهم ولكنه

(١) النويري: نهاية الأرب، ج ١، ص ٣٩.

قتل في المعركة ، وأرسل بعد ذلك بقليل نفرا من وجوه العرب الى عبد الرحمن ليصالحوه وليردوه الى الطاعة ، فاستمالهم هذا بالأموال فاقبلوا على صاحبهم الذي أرسلهم ^(١) ، وضاعت الأمور بحنظلة ، واستبان أن أمر بني أمية كله الى زوال ، وطمع فيه عبد الرحمن بن حبيب ، فجمع أصحابه ومضى بهم الى القيروان .

٦١- عبد الرحمن واحتل عبد الرحمن بن حبيب القيروان واستقر بها أميراً ، ابن حبيب يحتل وصار الأمر في المغرب بعد هذا الكفاح الطويل للعرب الأفارقة القيروان البلديين بعد نزاع طويل مع البربر حيناً والعرب المشاركة القيسية حيناً آخر ، وكان ذلك في جمادي الآخرة سنة ١٢٧هـ / أبريل ٧٤٥م ^(٢)

كان انتصار عبد الرحمن بن حبيب وسيادته على إفريقية ٦٢- ختام النزاع ختاماً للنزاع بين القيسية واليمينية في إفريقية ، لا لأن بين القيسية واليمينية الفريقيين انتهى الى تفاهم والسلام بعد هذه المنازعات في إفريقية الخطرة ، بل لأن توالى الحروب مع البربر حيناً وبينهم وبين أنفسهم حيناً كان قد انتهى باضعاف العرب جميعاً في المغرب ، فلم يعد لديهم من القوة ما يمكنهم من طلب السيادة على هذه البلاد الواسعة . ثم ان زمان سيادة العنصر العربي في الدولة الإسلامية كان قد ولى بزوال الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية مكانها

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .

الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ - ٣٥ .

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤١ - ٤٣ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٤٣ .

ابن الأبار : الحلة البراء ، ص ٥١ .

بعد ذلك بسنوات (١٣٢هـ / ٧٤٩ - ٧٥٠) ، فلم يعد لعرب إفريقية - قيسية ويمينية - أي رجاء في أن تقف الدولة الى جانبهم وتؤيد هذا الفريق منهم أو ذاك على هذا النحو الذي جرى عليه خلفاء بني أمية .

ولم يكن انتصار عبد الرحمن بن حبيب انتصاراً للعنصر العربي في الواقع ، وانما كان انتصاراً لهذه الطائفة الإفريقية من العرب التي كانت زناتة تؤيدها وتشد أزرها وهي طائفة العرب البلديين ، ولهذا نستطيع القول أن انتصاره كان انتصاراً لزناتة من بعض الوجوه ، ومصادق ذلك أن الأمر لم يَصْفُ لعبد الرحمن بن حبيب شهراً واحداً بعد ولايته تلك ، فقد بايع لمروان بن محمد ، فلما قتل بايع لأبي جعفر المنصور ثم اختلف معه وخلع طاعته ، واستقل بأمره ، ولم يلبث النزاع أن دب بينه وبين من كان معه من العرب ، وانتهى الأمر بقتله على يد أخيه الياس بن حبيب سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م - ٧٥٦م . ولم يكن الياس بأحسن حظاً من أخيه ، لأن الحرب استعرت بينه وبين ابن أخيه حبيب ، وقتل بعد ستة أشهر ، وخلفه ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن الذي لجأ إلى بربر ورفجومة وكانوا خوارج وسار رئيسهم عاصم بن جميل وهو ابن اخت طارق بن زياد ودخل القيروان وقضى على بقية بني حبيب . ولم تدم ولايته أكثر من ثمانية عشر شهراً كلها حروب ومنازعات ، وانتهى أمره وأمر بيت حبيب كله في المحرم سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م .

وسنحت الفرصة لورفجومة إحدى قبائل البربر الزناتيين ، بعد ان دخل رجالها القيروان وسيطروا على إفريقية فترة قتلوا من العرب خلالها نفرا كثيراً ، ولم ينته أمرهم الا بعد أن أرسل أبو جعفر المنصور واليه على مصر محمد بن الأشعث في أربعين ألفاً : «ثلاثين ألفاً من أهل خراسان وعشرة آلاف من أهل الشام» كان فيهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي الذي صارت اليه الأمور كلها في المغرب في جمادي الآخرة سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥ - ٧٦٦م بفضل من كان معه في جيشه من الخرسانيين ،

وبفضل من انضم اليه من البربر^(١).

بيد أننا ينبغي أن نقرر أن ما ذكرناه من انتصار محمد بن الأشعث ومن آزره من العرب الأفارقة والبربر لم يكن ختاماً للفتنة الإفريقية والثورة على الشاميين، لأن حركات الخوارج الصفورية والأباضية استمرت بعد ذلك أشد ما تكون استعاراً وقوة. ولكي نفهم هذا حق الفهم نعود إلى تفصيل ما اجملنا من تاريخ عبد الرحمن حبيب وآله في إفريقية.

٦٣ - البربر ذلك أن الأمر لم يكد يستقر في القيروان حتى ظنت قبائل يستقلون بنواحيهم البربر أن أمر العرب قد ولى مع أمس الدابر جملة، وأنهم الآن في حل من أن يستقلوا بما يسيطرون عليه من النواحي، فقام في كل ناحية زعيم بربري وأعلن نفسه أميراً: قام عروة بن الوليد الصدي واستولى بجماعات من البربر على تونس، وأعلن أبو العطاء الأزدى استقلاله بطبيناس، واقتطع ثابت الصنهاجي وقومه باجه لأنفسهم وانضم اليه عبد الله بن سقرديد، وقامت جماعات من أباضية هواره يقودها عبد الجبار والحارث الهواريان واستولت على ناحية طرابلس وقتلوا عاملها بكر بن عيس القيسي^(٢)، وخاض عبد الرحمن بن حبيب وأخوه الياس من بعده مع هؤلاء الثائرين حروباً طويلة عنيفة استمرت سنوات.

ثم وقع الخلاف بين أفراد بيت بني حبيب أنفسهم، فتحارب بنو عبد الرحمن وبنو أخيه الياس، وتعصب لكل نفر منهم فريق من العرب الإفريقيين حتى اضطربت أحوال البلاد واشتعلت ناراً من جديد، وانتهى

(١) انظر التفاصيل في : ٥

النويري : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٠ - ٤٦ .

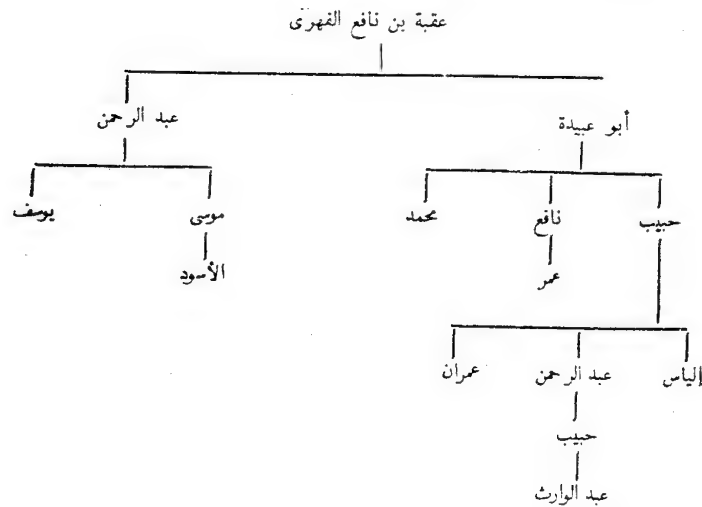
(٢) ابن عذاري : البيان ، ج ١ ، ص ٤٨ وما يليها .

ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

النويري : نهاية الأرب ، ص ٣٨ وما يليها .

الأمر بأحدهم وهو عبد الوارث قائد جند الياس وتمكن الياس من قتل أخيه عبد الرحمن بن حبيب، فهرب ابنه حبيب إلى ورفجومة إحدى بطون نفزة والاستعانة بها على إدراك ثار عم أبيه عبد الرحمن بن حبيب^(١)، فنصرته ورفجومة وشيخها عاصم بن جميل ثم وضع الخلاف بين عاصم بن جميل وحبيب وانتهى الأمر بموت هذا الأخير، وأصبحت هذه القبيلة الزناتية سيدها إقليم إفريقية. فعجل شيخها عاصم ابن جميل وكان خارجياً صغرياً بالمسير إلى القيروان، وخرج أبو كريب جميل بن كريب قاضيها للقاء ورفجومة يقودها عاصم وأخوه مكرم، فثبت لها ثباتاً

(١) إليك شجرة بيت عقبة بن نافع في إفريقية .



انظر :

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤

ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ١٠٩ وما يليها وص ١٣٠ وما يليها .

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥٠ وما يليها .

للنويري : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٠ - ٤٣ .

كريما بظواهر القيروان، ثم انهزم وهلك هو ومن بقي معه.

ودخلت ورفجومة القيروان في ذي الحجة سنة ١٣٥ / ٧٥٣م، وهكذا سقطت عاصمة المغرب الاسلامي في يد البربر الخوارج الزناتيين، فكان هذا الحادث ايذاناً بزوال سلطان العرب عن المغرب جملة، وبدأ بوضوح أن دولة الخلافة لا بد متخلية عن هذا القطر الفسيح راضية أو كارهة في القريب أو في البعيد: فقد اشتدت الخصومة السياسية بين اهل السنة والخوارج ولم يعد هناك سبيل لاصلاح النفوس، واختلف العرب على أنفسهم فضعف أمرهم وهانوا في نظر رعاياهم.

ولم يلعب بيت عربي في هذا الدور من تاريخ المغرب الاسلامي دوراً يقرب من الدور الخطير الذي لعبه بيت عبد الرحمن بن حبيب، فقد كان طموح هذا العربي القهري وتعصبه للعرب الافريقيين البلديين سبباً مشجعاً للخوارج على موالاة جهودهم، ولم يكن في نفسه بالرجل الثابت ولا القدير، وكان فيه ميل الى الظلم، فلم يلبث أن نفروا منه، ونهض له أخوه الياس فقتله واستبد بالأمر كما قلنا، فكان شراً من عبد الرحمن وأعتى، واختلط الأمر عليه ووثب به أبناء بيته، فلم يلبث أمر بني حبيب كلهم أن تفرق وضاع، وضاع معه سلطان العرب البلديين على البلاد، ولولم يتداركها الله بعد ذلك بسنوات قلائل بمحمد بن الأشعث ثم بالأغلب ابن سالم بن عقال لما عاد السلام إليها.

ثم ان دخول ورفجومة القيروان واستبدالها بشئون افريقية لم يكونا الا مظهراً لقوة الخوارج الصفرية وانتشار أمرهم انتشاراً هيباً لهم السيطرة على البلاد، وكانت سيادة هذه القبيلة شراً خالصاً على افريقية

وأهلها، لأن كراحتهم للعرب بلغت مبلغاً جعلهم يستبيحون كل محرم، وكانت دعوة الصفرية قد أتهمت ولما يتمكن الاسلام من نفوسهم بعد، فأضلتهم وأخرجتهم عن الاسلام جملة، ومن ثم لا غرابة في أنهم حينما دخلوا القيروان قتلوا من بها من قریش وساموهم سوء العذاب، وربطوا دوابهم في المسجد ١٤٠ هـ / ٧٥٧ - ٧٥٨ م^(١). فأثار عملهم هذا اخوانهم بربر نفوسة، وكانوا أباضية، فساروا يقودهم شيخهم أبو الخطاب، فأخرجوا ورفجومة من القيروان، وأتزلوا برجالها مذبحة مروعة وقضوا على سيطرتهم على افريقية.

ومن طريف ما يلاحظ أن أبا الخطاب بدأ عمله بخلع طاعة العباسيين على القيروان، ولم يتخير عربياً ليقمه في الامارة، وانما تخير رجلاً من أصل فارسي هو عبد الرحمن بن رستم، وكان خارجياً أباضياً شديد العصية لمبادئ الخارجية (١٤١ هـ / ٧٥٨ - ٨٥٩ م) ولم يستطع محمد بن الأشعث قائد المنصور دخول القيروان واعادة المغرب الى طاعة المشرق الا بعد حرب عنيفة وموقعة فاصلة مع نفوسة على مقربة من تورغة احدى قرى طرابلس (جمادى الأولى ١٤٤ هـ / يونيو ٧٦١ م)^(٢)، وقد هرب على أثرها عبد الرحمن ابن رستم الى أقصى المغرب الأوسط وتحصن بناحية جبل جزول عند تاهرت، وكانت هناك اذ ذاك بقايا حصن روماني فعمرها واستقر فيها يؤيده البربر الأباضية، وأعلن نفسه اماماً، وأثنى بذلك الدولة الرستمية، ولم يلبث أن سيطر على المغرب الأوسط كله^(٣).

(١) التويرى: نهاية الأرب، ج ١، ص ٤٤.

(٢) ابن عذاري: البيان، ج ١، ص ٦١.

التويرى: نهاية الأرب، ج ١، ص ٤٤ - ٤٦.

(٣) البيان المغرب، ج ٢، ص ٦١ وما يليها.

التويرى: نهاية الأرب، ج ١، ص ٤٤ - ٤٦.

وحذا حذوه بربري خارجي آخر هو أبوقرة المغيلي شيخ قبيلة بني يفرن وكان صفريا، فأعلن نفسه إماما في نواحي تلمسان. وهكذا استقلت كل جماعة من البربر في ناحية، ولم يبق للعرب الا سلطان ضئيل بقي لبعض المضرية في ظواهر القيروان، وظل من السيطرة بقي لجالية عربية صغيرة أخرى كانت تقيم على الطاعة في نواحي طينة وهذنة، ولم يهدأ أمر البلاد الا على يدي محمد بن الأشعث قائد العباسيين وبعد محمد بن الأشعث ولّى أبو جعفر المنصور على افريقية الأغلب بن سالم بن عقّال. وعندما قتل هذا في حربه مع الخوارج تولى أمر افريقية أبو حفص عمر بن قبيصة المهلبى وبدأ بذلك حكم المهالبة في افريقية. وقد استمر حكم المهالبة إلى سنة ١٨٠هـ ثم تولاهم هرثمة بن أعين ثم تولى أمر افريقية ابراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقّال الذي أقام دولته بسواعد بعض رجال العرب المشاركة تؤيدهم فرق من الجند الخرسانية وبعض القبائل الصنهاجية المنافسة للزناتية الخارجية سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م، وعلى يديه خرج المغرب عن طاعة الخلافة العباسية جملة.

كانت ثورات البربر على العرب إذن ختاماً لتبعية افريقية المطلقة على المغرب. فان دولة بني الأغلب تعتبر بداية لعصور استقلال افريقية عن الخلافة. ووقفت حدود افريقية الاغلبية السنية عند مجرى نهر شلف. أما غربي هذا النهر فقد قامت فيه دولة الخوارج الاباضية الرستمية التي سادت المغرب الاوسط

٦٤ - دولة بني وانتهزت جماعات من برابر مكناسة - إحدى بطون ضريسة مدرار في سجلماسة - فرصة ابتعادها عن القيروان وانشغال العرب بمنازعاتهم مع البربر ومع أنفسهم ليستقلوا بناحياتهم وليقيموا لأنفسهم دولة. كانت هذه البطون من نفوسة تسكن على منابع نهر ملوية عند الموقع الذي ستقوم فيه بلدة سجلماسة فيما بعد، وكانت هذه القبائل تسيطر على

قريتي تازا وتسول، وكانتا اذا ذاك من منازل الرعاة، فأقبل عليها في مراعيها رجل بربري ممن حج الى بيت الله الحرام وأخذ أصول الدين على فقهاء المدينة، واسمه أبو القاسم سَمَكُون وسول بن مَسْلان بن أبي ازول، ويبدو أنه كان قد مال الى ناحية الخارجية، فدعا النفوسيين الى مبدئه فانضموا اليه وتعصبوا له، ولم يلبثوا أن نقضوا طاعة الخلافة في سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧ - ٧٥٨م يقودهم شيخهم عيسى بن يزيد الأسود، ثم اتخذوا سجلماسة عاصمة لهم فامتدت وتمددت، ومات عيسى فخلفه ابنه اليسع وخلف هذا ابنه مدرار، وفي عهده قوى أمر هذه الدولة البربرية التي عرفت في التاريخ بدولة بني مدرار. وانما فصلت أمر نشوء هذه الدولة لأن ذلك يلقي ضوءا على التطور الباطني الذي كان يجري في المغرب الاسلامي ان ذاك، وواضح جدا أن دعاة الصفرية والخارجية أصحاب فضل كبير في نشر الاسلام في وادي المغرب الأقصى والسوس، كما رأينا في حالة هذا الداعية أبي القاسم سمكو، وكما سيحدث في حركات المرابطين والموحدين فيما بعد^(١).

٦٥ - رأى جوتييه وقد حاول ا.ف. جوتييه جغرافي المغرب ومفلسف تاريخه على في ثورات البربر مذهب الفرنسيين أن يدرس هذه الحركات الثورية ويلتمس لها أصولها البعيدة في تاريخ المغرب القديم وتكوينه الجنسي، فانتهى الى آراء لا بد من ايرادها في ختام هذا البحث^(٢). يرى جوتييه أن هذه الثورات هي أخطر حادث في تاريخ المغرب الاسلامي قبل الحركة

(١) راجع عن هذه الأحداث :

ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٦٠ وما يليها .

التويرى : نهاية الأرب ، ص ٤٤ وما يليها .

ابن خلدون : البر ، ج ١ ، ص ١٣٩ وما يليها .

(٢) E.F. GAUTIER, *Le Passé de l'Afrique du Nord*, pp. 260 Sqq.

الفاطمية. فلنعرض آراءه في تحليل أسباب هذه الحركات لأنها تكشف لنا في الواقع عن خصائص هامة ينفرد بها هذا التاريخ المغربي، وتلقى على الثورات الخارجية البربرية نفسها ضوءاً كاشفاً^(١).

يرى جوتييه أن هذه الثورة الخارجية في المغرب ان هي في الواقع الا الدوناتية التي روعت أمن المغرب النصراني من قبل. وتفصيل هذه الحركة الدوناتية في اجمال هو أن «دونات» أسقف كاز نوار احدى بلاد المغرب الأوسط أبى أن يعترف بصقليان (Cicilianus) بطريقاً لقرطاجنة، لأن من انتخبوه كانوا قسسا مشكوكا في صلاح عقيدتهم، فغضب عليه صقليان، وثارت بينهما الخصومة، وتعصب لكل منهما فريق، وانقسم نصارى افريقية شيعتين، شيعة صقليان، وشيعة الدوناتيين المنشقين أو الخارجين عليه.

والخارجية المغربية في نظر جوتييه، ليست في الواقع الا شيئا شبيها بالخارجية الدوناتية النصرانية، فالخوارج المسلمون لا يخالفون غيرهم من المسلمين في أمر من أمور العقيدة — كما تخالف البروتستنتية الكاثوليكية مثلاً — وانما يخالفونهم في عدم الاعتراف بخلافة معاوية،

(١) لم يبحث أحد هذه الحركة بمثل ما بحثها به جوتييه من العمق والشمول، وقد انتهى من بحثه إلى فظرية خاصة فر على أساسها تاريخ المغرب الإسلامي كله، وقد أخذها عنه جميع مؤرخي المغرب الفرنسيين، ولهذا رأيت أن أعرض لها في شيء من الاسهاب. وإليك مراجعته التي استند إليها في هذا البحث إتماماً للفائدة وتيسيراً للمراجعة:

أبو زكريا: تاريخ أبي زكريا، ترجمة وعلق عليه EMILE MASQUERAY (الجزائر ١٨٧٨)، ص ٦٧ وما يليها من المقدمة.

ابن خلدون: العبر، (ترجمة دي سلين) ج ١، ص ٢١٦ و ٢١٨، ج ٢ ص ١٢٥ وما بعدها.

ابن عذارى: البيان، ج ١، ص ٥١ وما يليها.

ابن الأثير: سوادث المغرب التي جمعها فانان Fagnan وترجمها إلى الفرنسية في كتاب Annales du Magreb et de l'Espagne، ص ٦٣.

ويقولون بأحقية على وأولاده في الخلافة (كذا!)، بالضبط كما كان الخلاف بين دونات وصقليان خلافاً حول شخص صقليان وحقه في البطريقية، والحركات الدينية الخطيرة — سواء في المغرب النصراني أو في المغرب الاسلامي — لم تنشأ عن آراء أو عقائد خامسة بل عن تعصب وانتصار لأشخاص، لأن أهل المغرب — كما يقول — لا يكادون يخفون للعقائد في ذاتها، ومدار الأمر كله عندهم هم الأشخاص.

وايمان البربر في رأى جوتييه يمتاز الى ذلك بتطرف بالغ وتمسك بالظواهر يجعلهم يعلقون أمر العقيدة كلها على فرع من فروعها، ويصرّون على ذلك اصراراً لا يكاد يقبل تنازلاً. وهذه كلها أمور نلاحظها في الدوناتية كما نلمسها في الخارجية: فقد كان الدوناتيون متعصبين لمبادئهم تعصباً أعمى لا يكاد يصدق، وكانوا ينتحرون جماعات في سهولة لا يكاد يتصورها العقل، أملاً في أن يغتنموا الشهادة ويرقوا الى السماء، بل بلغ بهم الأمر أن كان القلق يساورهم في بعض الأحيان حينما يعلمون أن لهم الحق في قتل أنفسهم واغتنام الشهادة على هذا السبيل «الهنين»، فكانوا يسألون أحد المارة أن يقتلهم بيده! وويل له اذا أبى! فأما عند خوارج المغرب المسلمين، فلم يصل الأمر الى حد اغتنام الشهادة بالانتحار، وانما هم كانوا يتهاقنون على القتال في سبيل العقيدة تهافت من لا يعنيه أمر حياته، نجد هذا واضحاً عنيفاً عند غلاتهم كالصفرين ومعتدلاً بعض الشيء عند معتدليهم كالأباضيين. هذا مع العلم بأن تفاني هؤلاء الآخرين في العقيدة كان يذهب بهم الى حد الغاء شخص الانسان الغاء تاماً أمام الخالق.

٦٦ - الدوناتية ثم يقول : ولقد أحسن ماسكراى حينما قال ان الخارجية والخارجية هي الدوناتية نقلت من اطار مسيحي الى اطار اسلامي ، ولا يهنا الاطار ولا الحادث الذي أثار الحركة في المسيحية أو في الاسلام بقدر ما تهنا الظاهرة ومغزاها الذي يتلخص في الحقيقة التالية : وهي أننا نجد عند المغاربة أنفسهم أسلوبا واحدا عميقا في الاحساس بالله وقوته ، وأنا نجد هذا الاحساس ظاهرا في صور مختلفة متتابعة ، فذلك غريزي عند هذا الجنس .

وهو - - أى جوتيه - لا يهتم لذلك بالناحية الدينية للموضوع - فهي في نظره حادث عارض - والمهم عنده هي الغايات والنزعات المادية التي تستتر دائما خلف ستار العقيدة ، ولقد طالما حاول الناس أن يصلوا الى المعنى السياسي والاجتماعي للحركة الدوناتية ، وقد وفقوا ، وليس بالعسير كذلك الوصول الى النزعات السياسية والاجتماعية التي أدت الى الثورة الخارجية .

ثم يقول ان ابن خلدون نفسه قد كشف عن هذه النزعات ببعد نظره وزكاته ، وذلك حيث قال : ان الخارجية انتشرت على عجل في البلاد وأصبحت سلاحا في يد أهل القتة يحاربون به الدولة ، وهو يقصد بالدولة هنا دولة الخلفاء التي يشلها العمال ، فهؤلاء الخارجيون كانوا يلتمسون الأنصار بين الطبقات الدنيا من البربر .

ويقول : ولم تكن الدوناتية في الواقع الا حركة بربرية سياسية اجتماعية أساسها ديموقراطية ، اذ كانت في الواقع ثورة شعبية قام بها فقراء الناس المستضعفون . ولبى أن الشعب الذي قام بحركة الخارجية لم يكن هو نفسه الشعب الذي قام بالدوناتية ، فقد تغيرت الأحوال بتغير الأزمنة

وانما كان عماد الحركتين هؤلاء الناس الذين كان تصوفهم صورة نظرية لحرمانهم من الخيرات الدنيوية ، وكان هذا التصوف يخفى خلفه - - بطبيعة الحال - - انفجارا هائلا لمطامع لم تسعفها الظروف بالتحقق .

وكانت الخارجية كذلك ثورة من البربر أهل البلاد على السادة الأجانب ممثلين هذه المرة في صورة الخلفاء المشاركة .

٦٧ - أى فريق ثم يمضى جوتيه يحلل عناصر الحركة الخارجية ، لأنه من البربر نهض لا يريد أن يكتفى بتسميتهم بربرا وكفى . بل يريد أن يعرف بعبء الحركة أى فريق من البربر نهض بعبء الحركة . ويقرر بوضوح أن الذين قاموا بالحركة كانوا في الغالب بربرا زناتيين . فقد انفجرت الثورة أول الأمر في طنجة خلف ظهور الجيوش الاسلامية الغازية في اسبانيا ، ثم لم يلبث لهبا أن وصل الى القيروان . وقد وقعت موقعة الأشراف على مجرى « شلف » ، ووقعت المعركة الثانية التي هلك فيها كلثوم بن عياض على نهر « سبو » ووقعت الثالثة التي انتصف فيها العرب لأنفسهم عند القرن على مقربة من القيروان سنة ٧٤٣ ، وأما الرابعة فقد كانت الى الشرق مما يلي ذلك ، وفيها استولى الخارجيون على طرابلس ، ثم تشهد بعد ذلك رد فعل عربى عنيف يقوم به عبد الرحمن ابن حبيب . أى أن الحوادث البارزة في الحركة كلها دارت حول طرابلس وتونس وتلمسان (بين سنتي ٧٤٣ - ٧٥٢) وفيما بين سنتي ٧٥٧ - ٧٥٨ ينتقل مركز الحركة الى القيروان ، فيستولى عليها برابر ورفجومة الخارجيون ويعيشون فيها فسادا ، ثم يطردهم عنها برابر آخرون ، ويستولون عليها .

ثم نهض العرب لحرب الخارجيين من جديد يقودهم محمد بن الأنث

ويحرز النصر في دسرت من نواحي طرابلس، ثم يسير إلى القيروان فيحتلها، ولكنه لا يوفق إلى النصر عند تلمسان التي ينتقل إليها مركز الحركة بفضل أبي قرّة البخراني (سنة ٧٦٥) ، ثم يعود الخارجيون فيستولون على طرابلس ، يحاصرون القيروان . ويطلب المؤرخون الحديث عن حصار الخارجيين لنبنة في إقليم همدنة ، ويذكرون أن عاملها عمر بن حنص ظل زمناً طويلاً محاصراً (سنة ٧٧٠) حتى لقي حتفه على أسوار القيروان (سنة ٧٧١) . ثم يستمر الأمر بين أخذ ورد بين العرب والخارجيين حتى ينتهي الأمر إلى يد بني الأغلب في سنة ٨٠١ ، فتهدأ أحوال البلد ويسودها السلام قدراً من الزمان . فمراكز الثورة هي طنجة ووادي سبب وإقليم تلمسان ووادي شلف وهمدنة وجنوبي تونس وطرابلس ، أى أنها تقع جميعاً في نطاق السهول والهضاب العالية ، أى في مواطن زناتة ، لقد وقعت الثورة كلها في أوطان زناتة على وجه التقريب .

ثم يمضى جوتييه مؤيداً رأيه ، فيذكر أن ابن خلدون وابن عذاري يؤكدان أن عبء الحركة الأولى حملته برغواطة (ويشير إلى أن برغواطة هذه قد كثرت بالقرآن فيما بعد ، وأقام رجالها في إقليم الشاوية دينا جديداً يخالف الاسلام) ، ومغيلة وهوارة وبني يفرن ، ويناقش النصوص مناقشة يخرج منها بأن قليلاً جداً من صنهاجة قد شاركوا في هذه الحركة ، وأنها لهذا ينبغي أن تعتبر حركة زناتية صرفة .

ثم يستطرد جوتييه استطراداً بعيداً يحلل فيه الحركة من الناحية الاجتماعية ، ولكننا نكتفي بهذا القدر الذي أوردناه لأنه يلقي ضوءاً كاشفاً على بعض العناصر التسمية في هذه الحركة البربرية الخطيرة ، وبهنا من كلامه قوله أنها كانت حركة زناتية ، وهذا معقول وطبيعي ،

فقد كانت زناتة قد أعانت المسلمين وانضمت إليهم من أول الأمر أملاً في أن تنصف بهم على الروم والنصارى والأفارقة وصنهاجة ، وأن تستعيد في ظلهم بعض ما فاتها في عهود هؤلاء ، ففاجأ العرب رجالها بهذا العنف الذي رأيناه ، فجنحت نفوسهم إلى الثورة . وبهنا كذلك قوله أن هذه الحركة طبيعة مركبة في النفس البربرية : فهي طبيعة تفتان وتصوف واستخفاف بالحياة . وبهنا كذلك اشارته إلى ناحيتها القومية ، فالواقع أن الذين قاموا بها كانوا ينكرون على العرب هذا التصرف المطلق في شؤون البلد . وبهنا أخيراً ربطه هذه الحركة بأمثالها في عهود الروم وسيره بالحركة إلى مطالع العهد الأغلبى .

٦٨ - الأحوال
في الأندلس
ونعود الآن إلى الأندلس . لم تكن الأحوال في الأندلس إذ ذاك بأحسن مما كانت عليه في المغرب . كانت هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء ومقتل عبد الرحمن الغافقي وخيرة رجاله في

رمضان سنة ١١٤ هـ / ٧٢٢م قد أوقعت البلد في أزمة كبرى ، ذلك أن اليمنيين وأحلافهم من المدنيين انتهزوا فرصة موت الغافقي واشتغال عامل إفريقية عنهم فأقاموا كبيرهم عبد الملك بن قطن بن تقيلة بن عبد الله الفهري في أول شوال سنة ١١٤ هـ ، ويبدو أن عبيدة بن عبد الرحمن عامل إفريقية أقر عبد الملك في ولايته لأن العلائق لم تكن طيبة بينه وبين أنصار عبد الرحمن الغافقي (١) .

٦٩ - عبد الملك
ابن قطن الفهري
لا تمدنا المراجع العربية بمعلومات وافية عن أعمال عبد الملك في ولايته الأولى ، ولكن إيزيدور الباجي يذكر أنه أساء السيرة وأذى المسلمين والنصارى معاً ، وأن من معه من

(١) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح ، آخر ص ٢١٦ وأول ٢١٧ .

عبيد الله بن الحجاب قد انصرف عنها وتولاها كلثوم بن عياض ، وشغل القيسية في إفريقية عن أبناء عمومته في الأندلس ، تضعف أمر عقبة ومن معه ، وبدأ اليمينيون ومن معهم من المدنيين وفيهم بعض أبناء الأنصار يتطلعون إلى السلطان من جديد ، وقد أمكنتهم الفرصة في أوائل سنة ١٢٣ هـ . إذ مرض عقبة وطال مرضه حتى أشفى على الموت ، والغالب أن اليمينيين ضغطوا عليه وأرغموه على إقامة عبد الملك بن قطن خليفة له إذا توفاه الله . وقد كان ، وعاد السلطان إلى ابن قطن ومن معه من اليمينيين والمدنيين^(١) .

٧ - انتقال والظاهر أن نقرا من دعاة الثورة البربرية الإفريقية خف إلى الثورة من إفريقية الأندلس ليشير بربرها على عربها . ولم يكن البربر في الجزيرة إلى الأندلس الأندلسية مطمئنين إلى العرب ، لأن هؤلاء الآخرين استبدوا دونهم بالسلطان ، مع أن معظم فضل الفتح يعود إلى البربر . ويذهب نفر من المؤرخين كذلك إلى أن العرب اختصوا أنفسهم بخير بقاع الأندلس ، ولم يتركوا للبربر غير القيافي والجبال القاحلة في الشمال والشمال الغربي^(٢) .

وليس ذلك صحيحا على إطلاقه ، لأن جماعات بربرية كثيرة كانت مستقرة في أخصب نواحي الأندلس في الجنوب والشرق والغرب ، بل كادت ناحية الجزيرة الخضراء أن تكون مقصورة عليهم لكثرة من نزلها من بطونهم وعشائرتهم ، ثم إن العرب لم يكونوا من الكثرة بحيث

اليمنية عاثوا في البلاد فسادا وأكثروا من الشغب والثورة عليه ، وأنهم شرهوا إلى الأموال شرها اضطر معه عبد الملك إلى عسف الناس عسفا أثار النفوس وأسخطها^(١) . فلما تولى عبيد الله بن الحجاب أمر إفريقية بعث على الأندلس مولاة عقبة بن الحجاج السلولى ، وكان رجلا قيسيا صالحا محبا للجهاد ، فوصلها وبدأ ولايته عليها في شوال سنة ١١٦ هـ . ٧٣٤ م^(٢) .

ويذكر إيزيدور الباجي أن عبد الملك بن قطن الفهري ومن معه من المدنيين حاولوا أن يعارضوا عقبة ويحدثوا عليه الشغب ، فاضطر إلى القبض على عبد الملك والقائه في السجن ، ثم نقل عددا عظيما من المدنيين إلى إفريقية لكي يهدأ البلد ويستريح من نزوعهم الدائم إلى السلطان والفوضى^(٣) .

ويبدو أن الأحوال استقرت لعقبة في الأندلس بعد ذلك فاستطاع أن يقوم بأمر البلاد « بأحسن سيرة وأجملها وأعظم طريقة وأعدلها »^(٤) . واستطاع كذلك أن ينصرف إلى الفتوح في صقلية وفيما وراء جبال البرت بقية أيام حكمه الذي طال سبع سنين^(٥) .

في ذلك الحين كانت ثورة البربر في إفريقية على أشدها ، وكان

(١) إيزيدور ، فقرة ٦٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٣) إيزيدور فقرة ٦١ ، ويراد بالمدنيين هنا جماعات من أهل المدينة المنورة من الأنصار هاجروا إلى الأندلس واستقروا فيها ، وأنشأوا لأنفسهم شيعة سياسية قوية ، وكانوا يؤازرون اليمينيين ويحتمون بهم .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٥) الأخبار المجموعة ، ص ٢٨ .

(١) إيزيدور الباجي ، فقرات ٦١ - ٦٣ . ويذكر ابن عذارى أن عقبة استخلفه (البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩) . ويذهب ابن عبد الحكم إلى أن عبيدة بن عبد الرحمن هو الذي رد عبد الملك إلى ولاية الأندلس (فتوح ، ص ٢١٧) . أما ابن القوطية فيؤكد أن عبد الملك ومن معه من اليمنية اجتمعوا على عقبة وخلصوه ، فهو يتفق مع إيزيدور في ذلك ، وقد أخذنا بروايتهم .

(٢) DOZY, Hist. des Musulmans d'Espagne I, p. 161

Recherches; I, pp. 118-119

يستطيعون الانفراد بكل سهول بلد عظيم واسع كالأندلس ، ثم ان الكثيرين منهم (أى من العرب) كانوا أهل جهاد مقيمين دوما في منطقة البُرت وما وراءها عند أربونة ، فلم تكن بقية العرب لذلك من الكثرة بحيث تستطيع احتلال سهول الأندلس الواسعة في الشرق والجنوب والوسط والغرب .

٧١ - مقدمات ثم ان المراجع تتحدث كذلك أن جماعات كبيرة منهم كانت ثورة بربر الأندلس قد استقرت في أقصى الشمال عند لاردة واسترقة و « المداين التي خلف الدروب » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة (١) أى في نواحي الهضاب الشمالية المجاورة لمواطن الاسبان النصراني في الشمال ، فتعليل ثورة البربر على العرب في الأندلس بأن هؤلاء استبدوا دونهم بخيرات البلد وحرموهم منها جميعا مبالغة لا تؤيدها المراجع ، فأما غضب البربر فسببه استبداد العرب بأمر الحكم واعتبارهم البربر شسعا محكوما لا ينبغي أن يترك له أى نصيب في الحكم أو في إدارة الأمور ، ولم يكن البربر يعتبرون أنفسهم بأقل من العرب دينا ولا كفاءة ولا فضلا ، فقد كانوا هم الذين حملوا معظم عبء الفتح ، وكان منهم طريف وطارق وهما صاحبا الفضل الأول فيما كسب الاسلام في الأندلس من نصر . ولم يقف الأمر عند مجرد الاستبداد بالأمر بل تعداه الى سوء المعاملة والاهانة ، فكان العرب يوقعون بهم أقصى العقوبات لأتفه الأسباب ، فاذا جرؤوا على الشكوى كان عقابهم أشد وأقصى (٢) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ وراجع ذلك المقال القيم الذي كتبه سيزار دوبلر عن منازل البربر في الجزيرة الأندلسية .

CESAR DUBLER, Ueber Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel, in Festschrift J. Jud. Zurich 1943.

DOZY, Recherches, I. p. 119

(٢) إيزيدور ، فقرة ٤٤ .

ثم ان استبداد القيسية بالأمر كان حريا أن ينفر البربر ، اذ كان القيسيون قوما ذوى عصبية شديدة ، لا يكادون ينظرون لغيرهم نظرتهم الى ناس مثلهم ، وقد رأينا موقفهم من اليمنية ومن البربر في افريقية ، وليس لدينا وثائق تدلنا على معاملتهم للبربر في الأندلس ، ولكن الأدلة كلها تدل على أنهم أساءوا معاملتهم ونفروا نفوسهم ، وكان اليمنيون أقرب الى نفوس البربر منهم ، لأنهم كانوا معظم الوقت مضطهدين مثلهم (١) . وهذا لا يسعنا من أن نقرر أن هؤلاء اليمنيين كانوا اذا وصلوا الى السلطان أفسدوا من أمره أشد مما كان القيسيون يفعلون ، لأن عيب القيسيين كان كبرياء وصلفا ، في حين كانت عيوب الكلبية اليمنية الظاهرة جشعا الى المال وميلا الى القوضى وعجزا عن التنظيم وحسن الادارة .

٧٢ - ثورة البربر طبعى اذن أن يبادر بربر الأندلس الى الثورة حينما تبلغهم في الأندلس أبناء ثورة أبناء عموماتهم واشتباكهم مع العرب في الحرب في افريقية . فيقول صاحب الأخبار المجموعة - وروايته على قصرها أكثر ما بين أيدينا تفصيلا - : « فقتضى أن بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدو على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا في أقطار الأندلس ، فأخرجوا عرب جليقية وقتلوههم ، وأخرجوا عرب أسترقة والمداين التي خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن الا فكتهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف الى وسط الأندلس الا ما كان من عرب سرقسطة وثرهم ، فانهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهج عليهم البربر » (٢) ... ويزيدنا صاحب فتح

(١) يفهم هذا من قول ابن القوطية مثلا : « وبقى عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين الشاميين ويتمصون لعبد الملك بن قطن الفهرى ، ويقولون لأهل الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا ! » - ابن القوطية ، افتتاح ، ص ١٧ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

الأندلس وضوحاً فيقول : « وتناولت البربر أيضاً بالأندلس على العرب الساكنين بجليقية وأسترقّة والمدائن التي خلف الدروب ، وقتلوههم وطردهم لكثرتهم هناك وقلة العرب » (١) ولا يزيدنا إيزيدور على ذلك كثيراً ، وإن كان يشير إلى أن العرب استبدوا بالبربر وآذوهم وعاملوهم معاملة قاسية ، فأسخطهم ذلك ودفع بهم إلى الثورة (٢) .

ولكن دوزي يضيف من عنده كثيراً ، فيزعم أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن الأرض ، ولم يتركوا للبربر غير النواحي القاحلة في الشمال ، ويمضى في المبالغة - على عهده - فيذكر أن بربر الأندلس تلقوا أخبار ثورة أبناء عمومته في العدوّة الإفريقية بقبول عظيم ، وأن دعاة خارجيين ذهبوا إلى الأندلس ليحضوا البربر على القيام على العرب واستئصالهم جملة ، فلم تلبث أن انفجرت ثورة دينية سياسية في إقليم جليقية امتدت إلى شمال الأندلس جميعه عدا إقليم سرقسطة ، ولنا نعلم من أين استقى هذا كله ، وليس بين أيدينا إلا ما أورده من النصوص (٣) .

ومهما يكن من الأمر فقد ثار بربر شمال الأندلس على عربها المقيمين في نواحي جليقية وأسترقّة والنواحي القاصية من أشتريس وبعض مناطق الغرب مثل ماردة وقورية وطلبيرة ، فأما إقليم سرقسطة فلم يجرؤ البربر فيه على الوثوب بالعرب ، لأن العرب هناك كانوا أكثر عدداً منهم . وأسرع من بقى من العرب في هذه النواحي بالهروب إلى وسط الأندلس (٤) ،

(١) فتح الأندلس ص ٣١ .

(٢) إيزيدور ، فقرة ٧٦ .

(٣) DOZY, Mus. d'Esp. I, p. 161.

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٣٩ .

فاذا انتصر البربر هذا النصر الأول فقد انتظمت قواهم في ثلاثة جيوش كبيرة : وجهة الأول طليطلة والثاني قرطبة والثالث الجزيرة الخضراء ليتصل بالبربر عبر المجاز . ومثل هذا الترتيب لا يمكن أن يصدر إلا عن قيادة واحدة نظمت صفوف الثائرين ورسمت لهم وجهة واضحة معينة ، لأن الاتجاه إلى الجزيرة الخضراء معناه محاولة قطع مواصلات العرب مع المشرق لحصرهم حصراً لا مخلص لهم منه ، وهذا أمر لا يصدر إلا عن رأس مفكر مدبر ، ويذهب دوزي إلى أن الثائرين اجتمعوا وانتخبوا من بينهم اماماً دون أن يذكر مرجعه في هذا القول (١) . ولكننا وجدنا في « فتح الأندلس » إشارة موجزة إلى وجود زعيم بربري يسميه « زقطرق » كان يرأس جماعة البربر التي كانت متوجهة إلى الجزيرة الخضراء والتي تجسعت في شذونه ، فلا يستبعد أن يكون هذا في الواقع رسماً محرفاً لاسم هذا البربري الذي قاد بربر الأندلس في الثورة كما قاد ميسرة بربر إفريقية (٢) .

تخرج مركز عرب الأندلس اذن ، ووجد عبد الملك بن قطن ومن معه من الكلية اليمنية أنهم لن يستطيعوا الثبات للبربر إلا إذا وصلتهم من المشرق امدادات . ولم يكن ذلك ميسوراً لأن ثورة البربر في إفريقية كانت على أشدها ، ثم انهم كليون يمينون وكان اليوم يوم القيسية المضرية .

(١) يقول صاحب الأخبار المجموعة في ص ٣٩ : « وكانت قد رأت البربر بالأندلس ، على أنفسهم ابن هدين » ؛ ولم نستطع قراءة هذا الاسم ، وظاهر أن المؤلف يريد أن يقول إن البربر اختارته رئيساً فقط لا إماماً ، والفرق بين الأمرين ظاهر ، إذ أن نص ابن القوطية يفهم منه أن الحركة سياسية ، أما كلام دوزي فيفهم منه أن الثورة كانت دينية أيضاً ، وانظر أيضاً : ابن حيان ، برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١١ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٣١ ، وهذه هي قراءة ناشر الكتاب ، ولم أستطع تحقيقها .

٧٣ - بلج بن وكان بلج ومن معه من الشامية القيسية محصورين في سبتة بشر ومن معه منذ عام ، وقد أجهدهم الحصار حتى أكلوا الدواب والجلود محاصرون في سبتة وأشرفوا على الهلاك (١) وكانوا لا يكفون عن الكتابة الى عبد الملك يستصرخونه ويستغيثون به ، فلم يسمع الى استغاثتهم ، لأنه كان يخشاهم على نفسه ، فهم قيسية شامية متعصبون وهو ومن معه كلييون يمينيون ، فتركهم لكي يهلكوا حيث هم (٢) ، وكان عبد الرحمن ابن حبيب -- كبير عرب افريقية الذي تحدثنا عنه -- قد نجا من معركة الاشراف -- وانهزم مع بلج وأصحابه الى سبتة ، ومن هناك عبر الى عبد الملك بن قطن الفهري مثله ، وجعل يحرضه على بلج وأسماعله ويخوفه منهم ، فزاده ذلك اصرارا على تركهم لمصيرهم (٣) . وبلغ من اسرافه في ذلك أن عربيا أندلسيا من لخم يقال له عبد الرحمن بن زياد الأحرم أشفق عليهم من التلف ، فبعث اليهم مركبين وشحنهما بالشعير والأدام ، فبلغ ذلك عبد الملك فغضب عليه وعاقبه أشد عقاب (٤) وساءت حال بلج وأصحابه . ولو لم يكن الربيع قد أقبل وأنبت الأرض بعض الخضرة والبقل لهلكوا (٥) ، ولكنهم اقتاتوا بذلك واستعانوا به على البقاء حتى واتتهم الظروف بالفرج من حيث لم يحتسبوا .

وزاد مركز عبد الملك بن قطن وعرب الأندلس حرجا مع الأيام ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٧ .

(٢) نفس المصدر والصفحة . وفتح الأندلس ، ص ٢١ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

ابن خلدون عند المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١١ .

(٥) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

ولم يجد لنفسه مخرجا الا أن يأذن لهؤلاء القيسيين المحصورين في سبتة في العبور الى الأندلس ، فأجابهم انى طلبهم بعد طول عناد ، واشترط عليهم أن يبارحوا الأندلس بعد القضاء على ثورة البربر مباشرة ، واشترطوا عليه بدورهم أن لا يفرقهم وأن يعيدهم الى افريقية جماعة واحدة ، وينزلهم في مكان يستطيعون منه العودة الى المشرق . وتم الاتفاق على ذلك . وأرسل اليهم عبد الملك سفنا عبروا بها الى الأندلس سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ بعد أن أعطت كل فرقة منهم عشرة من رجالها رهائن احتفظ بهم عبد الملك في جزيرة أم حكيم في مدخل الوادي الكبير (١) .

هكذا عبر بلج بن بشر القيسى ومن معه من القيسية ٧٤ - طالعة بلج الشامية الى الأندلس ، ولم يكن عددهم ليزيد على عشرة آلاف ولكنهم كانوا من غير شك نخبة من خيرة

فرسان الشامية القيسية . لقد أساء رئيساهم كلشوم وباج استعمالهم حتى هذه اللحظة وسيرتكبون من الأخطاء فيما بعد شيئا جسيما ، ولكنهم امتازوا بشجاعة عظيمة وذكاء بعيد ، وسينتهي بهم الأمر بالاستقرار في البلاد ، وسيكون لهم في تطور الأندلس الاسلامي أحسن الأثر حينما تستقر الأمور وتقوم الدولة الأموية .

ترك بلج وأصحابه الأندلس في حال من الجوع لا مزيد عليها ، وكانت ملابسهم قد بليت حتى كانوا يستترون بالدروع ، ونزلوا الجزيرة الخضراء ، « فوجدوا بها جنودا مدبوغة كثيرة ، فقطعوا منها المدارع ، ثم أقبلوا الى قرطبة ، فكسا ابن قطن خيارهم وأعطاهم كلهم عطاء . فلم يكن فيه ما يغنيهم ، واستقبلهم عرب بلد الأندلس وهم ملوك ، فكسا

(١) نفس المصدر ، ص ٣٨ - ٣٩ .

فتح الأندلس ، ص ٣١ .

كل رجل منهم من خيارهم خيار عشيرته ، وأفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبعوا » (١) . وهكذا آوى عرب الأندلس رجال هذه الطائفة القليلة من القيسية بعد أن تقاذفتهم البلاد والثوب منذ مبارحتهم مواطنهم الأولى في الشام منذ قرابة العامين . ولا نزاع في أن القيسية الأندلسية قد أحسنت استقبالهم واکرامهم على النحو الذى يصفه صاحب الأخبار المجموعة طمعا في أن تقوى بهم قلوبها . ومن ثم ليس بغريب أن نرى قيسية الأندلس تنهض لمنازلة الكلية اليمنية من جديد .

٧٥ - طالعة بلج ولم يكذب بلج وأصحابه يريحون بقرطبة حتى نهضوا للعمل تقضى على ثورة الذى أتوا من أجله وهو لقاء البربر والقضاء على ثورتهم . البربر في الأندلس كان أول ما ينبغى عمله هو القضاء على الجيش البربرى الذى كان متجها نحو الجزيرة الخضراء ليتصل بالثائرين في ناحية طنجة وسبتة ويقطع كل أمل لعرب الأندلس في أى عون يأتهم من المشرق ، ويبدو أن هذا الجيش البربرى كان أقوى جيوشهم الثلاثة وأكثرها نظاما ، وكان قد وصل كما رأينا إذ ذاك الى شذونة وعسكر عندها .

نهض بلج وأصحابه للقاء هؤلاء ، وانضم اليه نفر من عرب الأندلس البلديين ما بين قيسية ويمنية ، والتقى الجمعان على مقربة من شذونة « فلم يكن العرب فيهم الا نهضة حتى أبادوهم وأصابوا أمتعتهم ودوابهم فاكتسى أصحاب بلج وانتعشوا وأصابوا المغانم » (٢) . ولا نزاع في أن العرب كانوا مدفوعين في هذه المعركة بالرغبة في طلب الثأر من هؤلاء البربر الذين أذاقوهم الويل في إفريقية والأندلس طوال الحقبة الماضية . ثم

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣١ .

نهض بلج وعبد الملك بن قطن ومن معهما للقاء الجيش البربرى الذى كان متجها نحو قرطبة ، ولم يجدوا عناء كبيرا في هزيمته والقضاء عليه .

فأما الكتلة البربرية الثالثة التى كانت تحاصر طليطلة فيبدو أن أمرها كان أخطر من الكتلتين الأخريين بسبب الأعداد العظيمة التى تجمعت فيها . كانت جماعات بربرية غفيرة من بربر جليقية وأسترقية وماردة وقورية وطلبييرة قد انجملت من بلادها وانضمت إليها ، وأقبلت فحاصرت طليطلة ، وأقامت على الحصار أشهرا حتى اشتد الأمر بطليطلة وأهلها ، وكان بعض هذه الجماعات البربرية قد عبر التاجه وانحدر نحو الجنوب وحاول عبد الملك بن قطن أن يناجزها الحرب فلم يفلح . فلما تم له القضاء على الجيشين البربريين الآخرين عانى يد الشامية جمع رجاله وسار مع الشاميين للقاء البربر على مقربة من طليطلة ، فلما تسامع هؤلاء بمسيره إليهم حلقوا رؤوسهم اقتداء بميسرة ، « ولكى لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا » (١) ، مما يدل على شدة حماسهم ورغبتهم في النصر .

٧٦ - معركة دارت المعركة الحاسمة بين الجانبين عند وادى سليط وادى سليط (Guazaleta) وحمل أوارها ، لأن قلوب الجانبين كانت تفيض سخطا ، وأظهر الشاميون من الشجاعة والقدرة ما استطاعوا به القضاء على هذه الجموع البربرية والانتصار عليها ، « فلم ينج منهم الا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش في الأندلس فقتلوا البربر حتى أضفأوا جمرتهم » (٢) (أوائل ١٢٤ هـ منتصف ٧٤١ م) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ ، وادى سليط نهر يصب في التاجه من اليسار جنوبي طليطلة =

وفهم من هذه العبارة الأخيرة أن العرب بعد أن انتصروا على البربر هذا الانتصار الحاسم عند وادي سليط تعقبوهم في نواحي الجزيرة واشتدوا في ذلك شدة بالغة حتى ساء حالهم كثيرا .

٧٧ - المجاعة شغل العرب والبربر بهذه الحروب عن عمارة الأندلس ، وهجرة البربر إلى وكانت جموع كثيرة من هؤلاء البربر وأعداد قليلة من إفريقية العرب قد اشتغلت بفلاحة الأرض واستقرت فيها منذ سنوات الفتح الأولى ، وكان نفر آخر من العرب قد استقروا في عواصم الأرياف والقرى التي غنموها واشتغلوا بالاشراف على المزارعين من أهل البلاد ، فكان اشرافهم هذا من العوامل التي أسرعت بعمار الأرض بعد انتهاء فترة الفتح وما دار خلالها من حروب . فلما اشتغل العرب بالحروب فيما بينهم ، وغادروا مواقعهم ، واشتبكت الحرب العنيفة بينهم وبين البربر وانتصروا عليهم واشتدوا في الانتقام منهم ، خاف من بقى من البربر واضطربوا في مساكنهم ، وبدأت الرغبة تساورهم في ترك هذه البلاد ، التي كانوا يقيمون فيها على الخطر ، إلى بلادهم الأولى حيث يكونون أكثر اطمئنانا . فانصرف معظم هؤلاء البربر عن الزراعة وأخذوا يهجرون الأرض ، وكان العرب قد فعلوا ذلك قبلهم ، وهكذا أخذت المزارع والقرى تخلو من سكانها من العرب والبربر ، وأخذ الخير يقل في البلاد ، وتوالي ذلك سنوات فازدادت الحال سوءا .

= بقليل . وقد أشار الرازي في قطعة باقية من الترجمة الإسبانية لتاريخه إلى هذه الموقعة بقوله :

“er esta batalla fué en el termino de Toledo sobre el rio Calican.

انظر الفقرة ٢٤ ص ٨٨ في نهاية عمود ٢ من طبعة جاينجوس . ولم يستطع الناشر تحقيق هركالكان هذا .

ولم يتنبه العرب إلى ذلك لاشتغالهم بحروبهم مع البربر ومنازعاتهم بين أنفسهم . فانتهى الأمر بعد سنوات قلائل إلى مجاعة كبيرة لقلة المحاصيل ، وانضاف شر هذا البلاء الجديد إلى شر الحرب القائمة والفوضى السائدة وقلة الأمان ، فانعدمت الزروع وندرت المحاصيل ولاح شبح مجاعة خطيرة ظهرت بشكل حاد بعد أن انهزم البربر هزيمتهم النهائية عند وادي سليط . فلم تكد عشرة أعوام تنقضى على ذلك حتى قحطت البلاد وانتابها مجاعة عامة شديدة يتحدث عنها صاحب الأخبار المجموعة بقوله : « حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابة ، فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين (٧٤٨ م) هزمهم (أى يلاى زعيم الاسبان) وأخرج (يريد أخرجهم أى العرب) عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الخراج ، وقتل من قتل ، وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى استورقة ، حتى استحکم الجوع فأخرجوا أيضا المسلمين على استورقة وغيرها . وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين ، واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين ، وكانت اجازتهم من واد بكورة شذونة يقال له وادي برباط ، فتلك السنون تسمى « سننى برباط » ، فحفظ سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العدو ، إلا أن الجوع شملهم » (١) .

واشتدت المحنة وأصابت نواحي الأندلس كلها عدا إقليم سرقسطة الذى نجا منها بفضل مياهه وأنهاره وبفضل الجماعة العربية الكبيرة التى استقرت فيه . ويبدو أن المحنة كانت شديدة جدا ، لأن الكثيرين من العرب انجفلوا — كما رأينا — إلى النواحي التى توقعوا أن يجدوا فيها

خيرا ، وكان البربر أسوأ حالا ، لأن الهزائم فلت غربهم ، ولأن العرب تتبعوهم بالآذى في كل ناحية حتى ضاقت البلاد بهم ، وأحسوا العداوة والشر في الأندلس فأخذت جموع منهم تعود الى افريقية ليضمنوا بين أهليهم وعشائريهم ، فهاجروا الى افريقية أرسالا كثيرة .

٧٨ - زحف لا نزاع في أن عدد من هاجر من البربر كان عظيما جدا ، نصارى الإيبان لأن المؤرخين يحددوننا أن نواحي شمال الأندلس وغربه نحو اجنوب كادت تغلظ من أهلها المسلمين ، فإذا أضفنا الى ذلك أعداد من هلك من السكان - عربا وبربرا - بسبب المجاعة ، ومن انجفل منهم الى الجنوب والى الغرب والى اقليم سرقسطة ، استطعنا أن نعرف السبب فيما حدث من اتساع دولة النصارى الاسبان في جليقية وشتريس اتساعا مفاجئا بلغت به ضعف حجمها الأول بين سنتي ٧٥١ و ٧٥٣ (١٣٤ - ١٣٦ هـ) : ذلك أن الاقليم الواسع الواقع بين نهرى المنور والدويرو خلا من سكانه المسلمين في ذلك الحين ، فاستطاع النصارى أن يتقدموا ويحتلوا ما استطاعوا من هذه المساحة من غير جهد ، وكان يقودهم ملكهم ألفونسو الأول ، فاسترجع النصارى افراغه وأبورتو وقرى (١) ، وبذلك سيطروا على شمال الأندلس حتى الدويرو ، ثم تقدموا بعد ذلك في حذر فاستولوا على أشترقة وليون وسورة ولیدسما وسلمنقة وقورية . بل تذهب المراجع النصرانية الى أنهم استرجعوا ماردة نفسها ، وتوسعوا نحو الشرق فاحتلوا سلدانيا وسيمانتاس وشقوبية

(١) ظن بعض المؤرخين أن الصيغة العربية لفريو Viscu هي بازو الواردة في المقرئ ولكن سائرا أثبت خطأ ذلك (انظر المقرئ : فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٤) .

SAAVEDRA, Estudio sobre la invasion de los Arabes en España (Madrid, 1882)

وأفيلة وأوكا وأوسما وميراندا على نهر ابتره وسنيسيرو وأليسانكو على نهر ريوخه . وانحدرت حدود الأندلس الاسلامى الى الخط الممتد من قلمرية على المنديجو الى قورية وطليرة وطليلة على التاجة الى وادي الحجارة وطليلة وبنبلونة في الشمال الشرقى .

٧٩ - العرب وبهذا خسر المسلمون نحو ربع ما فتحوه من الأندلس يخشون ربح بسبب هذه الخصومات القبلية من ناحية وبسبب المنازعات الجزيرة بين العرب والبربر من ناحية أخرى ، وكان لهذا أسوأ الأثر على مستقبل الاسلام في الأندلس (١) .

٨٠ - الخصومة ولم تقف نتائج هذه الثورة المشنومة عند ذلك الحد ، بين العرب بل انها خلقت في نفوس العرب والبربر من الكراهة للحكم والبربر الأموي في دمشق سيظل قائما قرونا متوالية لا تكاد الايام تمحوه . كانت هذه الحرب الضروس حرب فناء بين الجانبين ، فلما انهزم الخوارج في افريقية والأندلس ظل بقايا خوارج البربر طوال القرون التالية يحسون الخوف من دولة الخلافة والكراهة لرجالها ، وقد انتهت الأمر بعد قرابة ثلاثة قرون باندماج العرب والبربر وقيام الشعب العربي المغربي . وأما في الأندلس فلم يقهر أحد من الجانبين الآخر ، لأن عودة الهجرة البربرية الى الأندلس بعد قيام الإمارة الأموية قوى جانب البربر الخوارج من جديد وأعادهم الى المقاومة ، فتقوت مراكزهم وأخذوا يناوئون العرب والأندلسيين مرة أخرى ، وسنرى ذلك بصورة واضحة أثناء الأزمة الكبيرة الأولى التي دامت طوال امارات محمد والمنذر وعبد الله ، وسنرى أثر هذه الخصومة واضحا بشكل خطر حاسم بعد سقوط الخلافة الأموية .

(١) انظر : BALLESTEROS : Historia de España y su influencia en la

historia universal, II, pp. 325 sqq. DOZY, Recherches, I, pp. 116 sqq.

يقول الرازي تعقيباً على هذه الحوادث التي ذكرناها: «ومن هذا وأشباهه قدمت العداوة بين بربر الوسط وعرب الأندلس، وتوارثها الأبناء الى يوم البعث، فبالعرب غزوا في بلادهم وبيأسهم سببت ذرايرهم وغنمت أموالهم حتى أدخلوا في الاسلام واضطروا اليه قهراً. قال: فلما رجع العرب الى بلادهم [في] المشرق، واستقر منهم الأقل [في] الأندلس ممن أراد الجهاد ورغب فيه، وكان البربر يومئذ أكثر منهم فيها لمجاورتهم بلادهم، لم تزل عداوة الأديان والغلبة تتجدد بينهم»^(١). وفي هذا الكلام مبالغة.

هكذا أسدل الستار على هذه الفتنة الافريقية الكبرى بعد حروب طويلة ودماء غزيرة. ولكن الأيام تكفلت بمحو آثار هذه العداوة، وبعد ان قامت الدولة الأموية الأندلسية بقليل لن نجد في الأندلس إلا اندلسيين ولكن اسوأ آثارها انها قللت من قوة المسلمين في مواصلة الفتوح في غالة وهي فرنسا. فقد كان من الممكن قبل هذه الثورة أن يستمر المسلمون في مغازاة ما لم يغزوه بعد من أنحاء الأندلس حتى يستولوا على شبه الجزيرة كلها، بفضل جموع البربر المهاجرة. أما الآن، وقد عادت هذه الجموع البربرية الى بلادها، وبعد أن هلك منها في الفتنة من هلك، فلم يعد من الميسور تعمير شبه الجزيرة كله بالمسلمين. وانفسح أمام الاسبان النصراني مجال النمو، وتجددت آمالهم في غزو بلاد المسلمين وليس يخفى على أحد أن الأندلس الاسلامي انما أُتِيَ من الشمال والغرب - حيث هاجر البربر - ولم يؤت من الشمال الشرقي حيث ظلت جماعات العرب والبربر مقيمة في اقليم سرقسطة.

(١) روى ذلك صاحب فتح الأندلس ، ص ٣٢ .

الفصل السادس القيسيّة واليمنيّة

مصادره الأولى واقتدر على قراءة هذه المصادر ، فوفق فيما فشل فيه مؤرخون لم يتأهلوا لهذا المطلب بأدواته اللازمة^(١) ، ووضع يده على الأصول التي ينبغي أن يؤخذ منها ذلك التاريخ ، ففتح بذلك الباب لمن جاء بعده .

وقد تقضى آراء دوزي مستشرقون لا يقارنونه تبجراً ، مثل يوليوس قلهاوزن واجناتس جولدتسيهر ، فأما الأول فلم يقره على ما ذهب إليه من المبالغة في تصوير ما كان بين العدنانية والتحتطانية^(٢) ، وأما جولدتسيهر فتعمق الأمر وبحث موضوع العدنانية والتحتطانية عامة ، وانتهى إلى أن البجاعة الغربيين أسرفوا وأكثروا في ذلك الموضوع دون سائر كاف من الأصول ، فإن العرب في الجاهلية وصدر الإسلام لم يقولوا أنهم ينقسمون إلى عرب شمال وعرب جنوب ، وإنما نشأ ذلك التقسيم بين العرب إلى شعبين متعادين خلال العصر الأموي ونتيجة لسياسة بنى أمية في

(١) مثال ذلك : MASDEU, *Historia Crítica de España*. (Madrid, 1805).

وقد تحدث في الجزء العشرين منه عن العرب في الأندلس

JOSE ANTONIO CONDE, *Historia de los Arabes en España*, Madrid, 1820.

وانظر نقد دوزي هذين المؤلفين في أبحاثه :

Recherches sur l'Histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen-Age (3e. éd. Leiden, 1881) vol. I. pp. 30 sqq.

وانظر نقد رامون مينندز بيدال لمعظم ما كتب في أوروبا في تاريخ إسبانيا الإسلامية في :

RAMON MENENDEZ PIDAL, *La España del Cid* (1 era ed. Madrid, 1929) tomo I. pp. 3 sqq.

(٢) انظر الترجمة العربية لكتاب

JULIUS WELLHAUSEN, *Das Arabische Reich und Sein Sturz*.

بمثوان : تاريخ الدولة العربية إلى نهاية العصر الأموي ، ترجمة الدكتور محمد عبد الحادي أبو رييدة ، القاهرة ١٩٥٧ .

٨١ - مؤرخو عندما نشر راينهاردت بيتر - آن دوزي كتابه المشهور الأندلس والعداء في تاريخ الأندلس - المعروف بـ «تاريخ مسلمي إسبانيا» - بين القيسية والبنية أدار ثلثه الأول على الحروب القبلية التي وقعت بين عرب الأندلس خلال عصر الولاة ، وبالنسبة في تصوير هذه الحروب حتى جعل العرب الذين استقروا في شبه الجزيرة شراد من أهل العصبيات لا هم لها الا الاقتتال فيما بين بعضها وبعض ، كأنهم كانوا منقسمين إلى شعبين متعادين لا تربط أحدهما بالآخر رابطة ، هما شعب عدنان وشعب قحطان ، لا يبالي أحدهما بشيء في سبيل القضاء على الآخر ، ومضى يصف في اسهاب الوقائع والأيام التي دارت بين الفريقين في نواحي الدولة الإسلامية عامة وفي الأندلس خاصة دون الالتفات إلى شيء آخر ، كأن تاريخ العصر الأموي لم يكن الا تاريخ الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب^(١) .

ومن هنا جاءت الصورة التي رسمها لعصر الولاة في الأندلس صرورة مشوهة لا تمثل الحقيقة التاريخية في شيء . ولكن ذلك التثوي لا يخلو من دلالة لها قيمتها . فقد كان دوزي أول من كتب تاريخاً للأندلس على منهج علمي صحيح ، وكان أول مؤرخ محدث التنس هذا التاريخ في

REINHARDT PETER-ANNE DOZY, *Histoire des Musulmans* (١)

d'Espagne (Leiden, 1861).

وقد لى الكتاب لأول ظهوره رواجاً عظيماً ، فأعيد طبعه وترجم إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية . ثم أشرف إيفاريسست ليق - بروفسال على طبعه طبعاً جديدة معدلة منقحة ظهرت في ثلاثة مجلدات سنة ١٩٣٢ .

الاستعانة بجماعة من العرب على جماعة وتقريب قوم دون قوم . فاذا قرب الخليفة الأموي قيسيا حظيت قبيلته وحاول أبناء عمومته أن يفيدوا من ذلك ، واذا قرب الخليفة شيخا كليبيا (أى يمينيا) سخطت القيسية صاحبة الخطوة أولا . وأخذ كل فريق يتعصب لأصحابه ويحمل على منافسيه ، فظهر هذا العداء بين العدنانية (أو المعدية) والقحطانية . وهو عداء أخذ أسماء شتى ، فهو في الشام خصومة الشام واليمن ، وفي خراسان عداء مضر وأزد اليمن ، وفي الأندلس صراع قيس و كلب . وفي أثناء ذلك الصراع مضى كل فريق يعتز على صاحبه بأعمال أجداده في الجاهلية ، ونسبوا لهؤلاء الأجداد من الوقائع ما لم يكن ، وهكذا رجع الناس بخصومة العدنانية والقحطانية إلى الوراء وتصوروا أن هذه الخصومة قديمة قدم الجاهلية ، وردد المؤرخون ذلك كأنه حقيقة واقعة (١) .

ويعيننا الآن أن نقول ان ما يحكيه مؤرخو الأندلس عن عداء قيس ويمين في الأندلس مبالغ فيه ، أو على الأقل مبالغ في تصويره بحيث يبدو وكأنه هو كل تاريخ الأندلس في عصر الولاة . وهذا هو ما نخرج به من كتابي الأخبار المصنوعة وافتتاح الأندلس مثلا ، وهما أكثر المراجع اسهابا في الكلام على عصر الولاة .

والحقيقة أنه كانت هناك بالفعل عداوة بين قيس ويمين في الأندلس ، وأصولها ترجع إلى ما كان بين هذين الحيين من صراع على السلطان في قلب الدولة الأموية ، وكان أحدهما اذا انتصر في مرحلة من مراحل النزاع اشتد على الآخر ، فهاجرت جماعات منه إلى الولايات ونفوس أفراد تفيض بالحق واللد ، وهناك تنضم إلى من تجده من أبناء

(١) انظر تعليقنا على هذا الموضوع على هامش الطبعة الجديدة التي قمنا بها لكتاب جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ، القاهرة سنة ١٩٥٧ .

عشيرتها ، فتتجمع كسُر القبائل ، وتتكون الجماعات القيسية والمضرية ، ويتجدد النزاع القبلي بصورة أعنف مما كان في قلب الدولة . حدث ذلك في خراسان والمغرب والأندلس وغيرها من الولايات .

ولكن العصبية لم تكن وحدها سبب النزاع القبلي في الأقاليم ، فقد كان هناك التنارع على المغانم والسلطان في الولايات ، وكانت هناك مصالح جديدة تختلف من ولاية لولاية ، ومن هنا كانت بعض القبائل تتناسى عصبيتها في سبيل كسب مادي وتنضم إلى قبيل غير قبيلها . وكانت هناك قبائل محايدة ، لا هي من قيس ولا هي من مضر ، وكانت تنضم إلى هذا الفريق أو ذاك بحسب ما تمليه عليها مصالحها . ومن ثم فقد كانت الأحزاب التي اضطرت في الأندلس خليطا من هذين الحيين في أغلب الأحيان ، ولكن كانت تغلب عليها صفة الأكثرية من جماعتها .

وقد رأينا فيما مر من الكلام طلائع الصراع بين القيسية واليمينية في الأندلس ، وكيف بدأ الحيان يتنازعان على السلطان ، ثم شغلتها عنه الثورة البربرية أو الفتنة المغربية .

فلما انتهت هذه الثورة خلا الجو لهما فعادا إلى النزاع ، وأسرفا فيه اسرافا جاوز كل حد ، حتى ضعف أمر العرب والاسلام في الأندلس وكاد أسرهما يتلاشى فيه جملة ، لو لم تتداركه العناية بعبد الرحمن الداخل .

٨٢- القيسية خرج عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمينية مظفرين تستبد بأندلس من المعركة العنيفة مع البربر ، كما خرج منها عبد الرحمن الأندلس ابن حبيب في إفريقية ، ولكنه لم يطعن على أمره ما دام بلج وأصحابه إلى جانبه ، وقد كان هؤلاء قيسية لا يقنعون بغير

الصدارة والقيادة ، ثم ان هذا النصر لم يتأت الا بسيوفهم ، فأقام عبد الملك خائفا منهم يترقب ، ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى أسرع يطالب حلفاءه بمبارحة الأندلس وفاء بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم ، فتلكأ هؤلاء حيناً ، فما كانوا ليتركوا هذا البلد الذى أقبلت عليهم النعمة فيه الا اذا أخرجتهم منه قوة . ثم ان عبد الملك لم يكن خالص النية نحوهم ، اذ اعتذر عن اعادتهم الى افريقية جماعة واحدة ، متعللاً بأنه لا يملك سفناً كافية لنقلهم وما جمعوا من خيرات وغنائم . وطلب بلج وأصحابه أن يبحروا من الجنوب الشرقى من ناحية تدمير (مرسية) حتى يستطيعوا العبور الى ناحية أخرى من افريقية يستطيعون الذهاب منها الى القيروان ، ولكن عبد الملك أصر على أن يبحروا من الجزيرة الخضراء ، وتعلل بأنه لا يستطيع نقل سفنه من هذه الناحية خوفاً من انتهاز البربر الفرصة والعبور الى الأندلس (١) .

٨٣ - بلج بن وليس الى الشك سبيل في أن عبد الملك لو وفى لهم بعهد بشريل أمور الأندلس لبحثوا عن تلة أخرى للبقاء في الأندلس ، فقد أصابوا فيه من الخير ما لم يكونوا يحلمون به ، فأما وقد بدأ هو بالعدوان - لسوء رأيه وقلة سياسته - فلم يعودوا يرون حرجاً في مناصبته العداء ومهاجمته ، ووثبوا به في أوائل ذى القعدة ١٣٣ هـ (٢٠ سبتمبر سنة ٧٤١ م) وخلعوه وأخرجوه من القصر وأقاموا أميرهم بلجاً والياً على الأندلس . وأقام عبد الملك شبه سجين في دارله بقرطبة تسمى دار ابن أيوب ، وأفلت ابنه

قطن وأمّية ، فلحق أولهما بأربونة حيث كان يقود جند المسلمين عبد الرحمن بن علقمة اللخمي وكان من أنصار عبد الملك بن قطن ، وجعلاً ينظران معا فيما عسى أن يصنعه ازاء هؤلاء القيسيين الذين لم يطمئن لهم جنب حتى أنزلوا اليمنية عن الامارة جملة . وأما أمّية ابن قطن فلحق بماردة حيث اجتمع عليه نفر من عرب الأندلس وبربرها وأخذوا يتحفزون للأخذ بثأرهم من بلج وأصحابه (١) .

أثار انتصار الشامية هذا ثائرة أهل البلد جميعاً : عرباً وبربراً وإسبانياً ، اذ اعتبرهم الجميع أجانب ينبغي اخراجهم على أية صورة . لم يقف العرب منهم موقف عربى من عربى بل موقف صاحب البلد من غاز أجنبي ، ولهذا نجد قدماء عرب الأندلس - يمنية وقيسية - يثرون على هؤلاء الشامية يداً واحدة ويحاولون اخراجهم . وتلك هى الفترة التى ظهر فيها التمييز بين ما يسمى بالبلديين والشاميين ، فأما البلديون فهم عرب طالعة موسى ومن أتى بعدهم من أرسال العرب ، وقد استقروا في البلد ورسخت جذورهم في نواحيها قرابة ثلاثين سنة ، وتوشجت بينهم وبين أهلها الأواصر ، وكان معظمهم يمنية ، واليمنية ذات ميل الى التعمير والاستقرار والهدوء ، فقويت الصلات بينهم وبين الأرض وأهلها . وأما الشاميون فهم هذه الجساعة التى أقبلت مع بلج ، ومعظمهم قيسية ، وقد نظر أهل البلاد اليهم على أنهم أجانب كما قلنا ، واجتمعت كلتهم على حربهم (٢) ، ولو لم يكونوا على جانب عظيم من الشجاعة والمهارة الحربية لذهبت

(١) الأخبار المجمعة ، ص ٤٠ - ٤١ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٣٢ .

المقرئ : ففتح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٣ ، ١٧ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

(١) الأخبار المجمعة ، ص ٤٠ - ٤١ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣١ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٨٩ .

المقرئ : ففتح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٣ .

ريحهم أو لاندمجوا في الآخرين . وكان من سوء حظ الأندلس أن يكونوا من خيرة العرب شجاعة وقدرة ، فطال البلاء بهم واستمرت الحرب بينهم وبين البلدين سجالات .

ويبدو أن عبد الرحمن بن علقمة اللخمي لم يحزم أمره على السير لحرب بلج وأصحابه الا حينما بلغه نبأ مقتل عبد الملك بن قطن القهري ، فجاشت نفسه ونفس حليفه قطن بن عبد الملك ومن معها من البلدين ومن التف حولهما من البربر وأهل البلد لطلب الثأر ، وساروا لحرب بلج ومن معه من القيسية . وأما مقتل عبد الملك فقد وقع بعد ولاية بلج بقليل : ذلك أن عامل عبد الملك على الجزيرة الخضراء أهمل في أمر رهائن القيسية الشامية الذين كانوا في جزيرة أم حكيم ، ولم يرسل اليهم الماء بانتظام ، وكان الماء يحمل الى هذه الجزيرة اذ لم يكن فيها ماء . فلما تولى بلج أسرع فأرسل من يفك أسر هؤلاء الرهائن ، فوجدهم على أسوأ حال من الاجهاد والعطش ، ووجد أن أحدهم — وهو غساني من أهل دمشق — قد مات عطشا ، فنهض اليسيون من أهل قرطبة يطالبون بلجا برأس عبد الملك فداء لابن عشيرتهم الغساني ، وتلكأ بلج اذ نفرت نفسه من قتل عبد الملك وهو شيخ قد عدا التسعين ، ثم ان مسئوليته عن موت الغساني لم تثبت ، فشك اليسيون في نوايا بلج وظنوه لا يهتم لثأرهم أو يعطف على عبد الملك لأنه من مضر مثله ، وكادت الفتنة تقع بينهم وبينه ، فلما لم يجد من الأمر بدا أباح لهم دمه ، فأخرجوه « وهو شيخ كأنه فرخ نعامة ، وهو ابن تسعين سنة أو أكثر ، حضر الحرة مع أهل المدينة ، ومنها فكل الى افريقية ، فأخرجوه ، وهم ينادونه : « يا فال ! فللت من سيوفنا يوم الحرة ثم عرضتنا (ل) أكل الكلاب والجلود طلبا بثأر الحرة ، ثم بع جند أمير المؤمنين ! » . ثم

قتلوه وصلبوا رفاته وعن يمينه خنزير وعن يساره كلب ، امعانا في الزراية والنكاية » (١) .

فلما بلغ ذلك عبد الرحمن بن علقمة اللخمي وقطن بن عبد الملك ومن معهما من العرب في اقليم أربونة ، ثارت في نفوسهم الحمية لطلب الثأر ، وساروا بجمعهم نحو قرطبة للقاء الشاميين وحربهم ، وثارَت العصية مرة أخرى في نواحي الأندلس كلها ، وتسارع اليسيون للانضمام الى عبد الرحمن بن علقمة ، وجمع بلج من استطاع جمعه من قيس ومن انضم اليهم من مواليهم من البربر ومن أهل البلد الاسبان . وطبعي أن يكون جمع اليمينية أضخم لأن معظم البلدين انضموا اليهم ، فيقال أن عددهم بلغ أربعين ألفا على قول ، ومائة ألف على قول آخر ، في حين لم يزد من مع بلج عن اثني عشر ألفا . وعسكر بلج وأصحابه في موضع يقال له أقوة برطورة على يريدين من قرطبة (٢) .

ولم يلبث عبد الرحمن ومن معه أن أقبلوا بجمعهم ، ووقع اللقاء بينهم وبين خصومهم ، ولم يعرف عرب الأندلس وقعة بينهم وبين أنفسهم أعنف ولا أحمى ولا أبعد أثرا من هذه ، لقد تفانى الجانبان في القتال وتساقط الآلاف منهم جرحى ، وحسب عبد الرحمن بن علقمة أنه يضع حدا لهذه المذبحة اذا قتل بلجا ، وكان عبد الرحمن أعظم مقاتلي الأندلس وأرماهم بالنبل ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٢ .

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٦ .

الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .

وانظر عن أقوة برطورة : المعجم الجغرافي الملحق بترجمة لافونتي ألكانترا للأخبار المجموعة ،

فسأل عن بلج فدلوه عليه ، ففوق نحوه سهامه ومضى نحوه على عجل وضربه بالسيف ضربتين أصابتا منه مقتلاً . ويبدو أن هجومه زرع الشامية عن مواضعها حتى خشي رجالها الهزيمة ، فتصدى له واحد منهم هو الحصين بن الدجن العقيلي قائد خيل جند قنشرين وثبت له وجعل يبعده ومن معه عن الميدان حتى انفرد به وشغله عن المعركة الدائرة ، وانتهاز البلجيون الفرصة فهجموا على بقية البلديين هجمة قصصوا بها ظهورهم وألحقوا بهم مقتلة شديدة . واستمر القتال أياماً ، ومات بلج بعد يومين متأثراً بجراحه ، فتولى قيادة الشاميين ثعلبة بن سلامة العاملي ، ورجحت كفة البلديين حيناً وانهزموا إلى ماردة حيث أقبلت جموع البلديين ومن معهم من البربر تحاصرهم ، وخاف ثعلبة الهزيمة ، فكتب إلى خليفته بقرطبة أن يخرج لمناجزة أهل البلد . وطال القتال ، وحضر عيد الأضحى ، فشغل به البلديون عن قتال الشاميين ، فانتهاز هؤلاء غرتهم ونهضوا فيهم نهضة أزالتهم عن مواضعهم وأنزلت بهم مذبحة وهزيمة عظمى ، وبهذا انتهى هذا الصراع العنيف بهزيمة ساحقة لليمنية والبلديين . وقد كانت الهزيمة ساحقة إلى درجة فلت غربهم وأضعفتهم وأخرجتهم من ميدان السياسة ومن القيادة ، ومن ذلك الحين أخذ معظمهم يتفرقون في نواحي البلاد ، ويشغلون بالزراعة والتجارة وما اليهما من أمور المعاش وشئون النشاط السلمي . ومن هنا أهمية هذه الموقعة في تاريخ البلاد الاجتماعي^(١) . ولم يستطع من بقى منهم في الميدان النهوض من جديد ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٥٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

وانظر عن ثعلبة بن سلامة :

الضبي : بنية الملتس ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ رقم ٦٠٦ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٣ - ١٤ .

الا حينما أقبل عبد الرحمن الداخل على ما سيأتى ذكره .
واقترب ثعلبة بن سلامة العاملي بمن معه من قرطبة يجر في ركابه من وقع في قبضته من كبار اليمنية وذرائعهم أسرى ، ونزل عند المصاراة^(١) من ظواهر قرطبة وعقد سوقاً لبيع هؤلاء الأسرى ، وقد أراد له لدد العداوة أن يبيعهم لمن ينقص لا لمن يزيد ! فجعل الناس ينقصون حتى بيع واحد من كبارهم بكلب وثان بعود ، واستمرت هذه المهزلة المبكية أياماً (٢)

٨٥ - مجيئ أبي فينما ثعلبة في ذلك اذا ضجة تتعالى من بعيد ، واذا موكب الخطار بن الحسام يقترب ، ونظر الجمع فاذا وال جديد للأندلس الكلبى يقبل ومعه وثيقة التعيين من حنظلة بن صفوان عامل إفريقية ، وهو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى ، بعثته العناية في هذه اللحظة لينقذ أسرى البلديين من هذا البلاء المهين الذى كان ثعلبة ومن معه من الشاميين يصرون على ائزاله بهم . وكان أبو الخطار « رجلاً من خيار أهل الشام من أهل دمشق ، فرضى به الشاميون والبلديون ، وأطلق الأسرى والسبى ، فسمى ذلك العسكر «عسكر العافية» ، وأفلت ثعلبة بن سلامة وعثمان بن أبى نسعة وعشرة من قواد الشام ، وأمن ابنى عبد الملك بن قطن ، فاستقامت حال الناس

(١) تقع إلى شمال قرطبة ، ويذكر لافوينتى ألكانترافى قاموسه الجغرافى الذى ذيل به ترجمته

للأخبار المجموعة أن موضعها كان موضع طاحونة زيت ، (المصاراة - المصرة = Almazara بالإسبانية)

انظر الترجمة الإسبانية ، ص ٢٤ هامش .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

بالأندلس ، وأنزل أهل الشام بالكور » (١) .

وبدأ أبو الخطار ولايته على الأندلس في ذلك اليوم من رجب سنة ١٢٥ هـ (مايو سنة ٧٤٣ م) . وصادف بدء ولايته ميلا عاما من مسلمي الأندلس الى المهادنة والسكينة بعد ما كان من شرور العصبية ، وكانت الحروب قد أنهكتهم وكادت تقنيهم حتى خشوا على أنفسهم غائلة نصارى الشمال ، وكانوا قد بعثوا الى حفظة وفدا منهم ييسط له سوء حال الأندلس ويرجوه أن يغيثها برجل فاضل يكف القتال ويقر السلام بين الجماعات المتعادية ، فتخير لهم أبا الخطار هذا وبعثه في اللحظة المناسبة على ما رأينا . وقد بدأ أبو الخطار ولايته بدءا حسنا فأمن أمة وقطن ابنى عبد الملك بن قطن ومن معها من اليمانيين والبلديين المروعين بعد هزيمتهم ، وأخرج من الأندلس نفرا من المسرفين في عصبيتهم

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ .

الضئ : بغية المتلمس ، ص ٢٦١ - ٢٦٣ رقم ٦٨٦ .

وقد آمدنا ابن القوطية بملاحظات طيبة عن ولاية أبي الخطار ، فقال إن شاماً حبيماً بلده ما فيه عرب الأندلس من افتراق وحروب شاور ابن أخيه العباس بن الوليد (يذكر ابن القوطية خطأ أنه أخوه) فنصح به بأن يعدل عن عدائه لليمنية القحطانية لكي يجذب قلوبهم ، فاستمع لنصيحته وولى حفظة بن صفوان الكلبي إفريقية وأمره بأن يولى ابن عمه أبا الخطار الأندلس فمضى أبو الخطار في نحو ثلاثين رجلا من الشأميين (من عرب إفريقية ، ويسمى ابن القوطية الطالعة الثانية من الشأميين) . وأراد أن يفاجئ عرب الأندلس ، فصار مستتراً وأخفى لواء الولاية الذي أعطاه لإياه حفظة في عيبة كانت معه ، فلما نزل بوادي شكوش واقرب من المكان الذي كان الفريقان يتحاربان فيه بقبل قرطبة ، رفع اللواء وأعلن نفسه للفريقين ، فتسارعا إليه كل يشكمن الآخر . فاشتد عليهم السمع والطاعة ، فأجابوا . وذكر له اليمانيون أنهم لا يحتملون الشأميين ولا بد من إخراجهم عنهم ، فطلب إليهم أن يمهله حتى يدخل قرطبة ويستريح ، ثم يفصل في أمرهم بالعدل ، فأجابوا . وقد بدأ أمره بإخراج ثعلبة بن سلامة العامل والوقاص بن عبد العزيز الكنانى وعثمان بن أبي نعمة الخثعمي من الأندلس إلى طنجة بإفريقية ، ثم ثنى بتفريق الشأميين في نواحي الأندلس على ما سيأتي بيانه .

انظر : افتتاح الأندلس ، ص ١٩ - ٢٠ .

من الشأميين وأعادهم الى إفريقية وفيهم ثعلبة بن سلامة ، وانتهى بعد تفكير الى ضرورة ابعاد الشامية القيسية عن قرطبة لكي يخلص من متاعبهم .

٨٦ - إخراج اقترح عليهم أبو الخطار أن ينتقلوا الى الأرياف الشأميين من قرطبة في الكور ، على أن يجعل لهم ثلث ما يجبي من لك الكور أهل الذمة في النواحي التي يختارون الإقامة فيها . ولم تفصل لنا المراجع هذا الاتفاق بأكثر من ذلك ، فلنسا نعلم ان كان استقرارهم في هذه النواحي معناه قيامهم بجباية أموالها واحتجاز الثلث لأنفسهم وارسال الثلثين الى قرطبة ، أو أن عمال والى الأندلس كانوا يجبون الخراج على العادة ويعطون ثلثه لهؤلاء العرب الشأميين . فان كان النظام الأول فمعناه أن أبا الخطار أقطعهم هذه النواحي مقابل أن يؤدوا ثلثي خراجها دون أن تتدخل الادارة المحلية في شئونهم أو شئون الاقليم ، وان كان الثاني فمعناه أن هذا الثلث الذي كان يعطى لهم كان معتبرا « عطاء » عن الخدمة العسكرية التي كانوا ملزمين بأدائها بصفتهم جندا رسميا مقيدا في الديوان . ولكن الغالب أنهم استقروا في هذه النواحي على النظام الأول ، أى « مقطعين » ، لأن شواهد الحوادث بعد ذلك تدل عليه صراحة ، ثم انه كان — كما سنرى — النظام السائد المتبع في الأندلس الى ذلك الحين (١) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ .

إيزيدور الباجي ، الجزء المنشور ذيلاً للأخبار المجموعة ، الفقرات من ٦٤ إلى ٦٧ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

المقرى : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١١ - ١٤ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٠٤ .

ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٨ - ١٩ .

DOZY, *Musulmans d'Espagne*, I. pp. 168-169

E. LEVI-PROVENCAL, *Histoire de l'Espagne Musulmane*, I. pp. 34-35.

حرص أبو الخطار ، وهو يقوم بذلك ، على ألا يمس حقوق البلديين ، وكان هؤلاء قد توزعوا فيما بينهم بعض نواحي الأندلس الخصبة على مثل هذا النظام من المقايضة : كان كثيرون منهم قد استقروا في أقاليم سرقسطة وأربونة وباجة واشبيلية ، فلم يشأ أبو الخطار أن ينزل هؤلاء الشّامين إلى جوارهم ، وقد أشار عليه بذلك أرتباس بن غيطشة شيخ نصارى الدّمة ، وكان مقيماً اذ ذاك في قرطبة متمتعاً بمقام كريم بين العرب وأهل جنسه وعند الولاة . ويبدو أنه كان مشيراً لهؤلاء ، يسألونه الرأى فيما يحزبهم من شؤون البلاد ، وهو بها أعرف ، وقد أشار على أبي الخطار بذلك ، وكان رأياً حسناً ، قبله الشّاميون ، فبادر أبو الخطار إلى اتفاده^(١).

أقر أبو الخطار كل جماعة من الشّامية آتية من جند بلد واحد في ناحية ، وكان جند مصر أكثرهم عدداً فأنزلهم في ثلاث نواح هي أو كسونة وباجة وتدمير (مرسية) ، وأنزل جند حمص في اشبيلية ، وجند فلسطين في شذونة ، وجند الأردن في ريثه (ناحية مالقة) ، وجند دمشق في البيرة ، وجند قنسرين في اقليم جيّان ، وبهذا تفرق هذا الجند المشاغب في نواح شتى متباعدة فهدأ أمرهم إلى حين ، وكان انزالهم بعيداً عن مواقع البلديين الأول سبباً في سكون هؤلاء واطمئنانهم لعدل أبي الخطار ، فأقاموا « على ما بأيديهم من أموالهم لم يتعرض لهم في شيء منها » . فلما وجد الشّاميون أنفسهم في بلاد « تشبه بلادهم ، و [في] توسعة ، سكنوا واغتبطوا وتمولوا »^(٢).

(١) ابن الخطيب : الإحاطة (طبعة محمد عبدالله عنان ، القاهرة ١٩٥٥) ، ج ١ ص ١٠٩ البيان المغرب (طبعة كولان وپروفسال ، ليدن ١٩٥١) ج ٢ ص ٢٣

DOZY, Recherches, I. pp. 79-80.

SIMONET, Historia de los Mozárabes de España. pp. III, 197-198.

E. LEVI-PROVENCAL, Hist. de l'Espagne Musulmane, p. 35. note I.

(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٧ .

فاستقر الكثير منهم في الأرض وأخذ يعمل فيها ، وشغلوا بذلك عن منازعات السياسة والعصية ، ولم يلبثوا أن كثرت أموالهم ، وكان في ذلك خير كثير للأندلس وأهله .

ولو قد استسر أبو الخطار على هذه السياسة العادلة لصلحت الحوَال وانتهد هذه العصبة البغيضة التي مزقت عرب الأندلس إلى ذلك الحين ثم ممزق ، ولكنه لم يلبث أن انحرف عن الجادة ومال إلى عصيته الكليية الينية ، وكان سبب ذلك مقتل صديق له عزيز عليه هو سعد بن جواس ، فاتهم الشّامية القيسية بقتله ، وأخذ يتحيفهم وينزل بهم ما يستطيع من الأذى^(١) ، فاستعرت نيران عصبيتهم من جديد ، وبدأ بوضوح أن الأندلس مشتعلة مرة أخرى بنيران هذه العصبة على صورة أشد مما رأى في سابق الأيام . وحدث أن معديا كنانيا من الشّامية اختلف مع كلبى فشكاه الكلبى إلى أبي الخطار ، فجار هذا في حكمه على المعدي (العدناني) ، فذهب إلى شيخ من كبار الشّامية يسمى الصمّيل بن حاتم بن شر - ويلقب بذي جوشن - يشكو له ما أصابه ، فمضى هذا إلى أبي الخطار . وكان أبو الخطار يتخوف الصمّيل ، لأن أمر القيسية كان قد انتهى إليه وفاقهم بالنجدة والسّخاء ، وتوجس منه أبو الخطار شراً .

فلما أقبل الصمّيل إلى أبي الخطار في شأن العدناني

٨٧ - ظهور انتهد أبو الخطار الفرصة وأحب أن يشفى بعض لد الصمّيل بن حاتم

نفسه منه ، فلكزه وشتمه وأمر جنده أن يضربوه ،

فضربوه حتى مالت عمامته من على رأسه ، فخرج وقلبه يتلظى بنيران

(١) الضبي : بنية المتنبس ، ص ٢٦١ .

الثأر ، وعاد الى داره بقبلى قرطبة فجمع كبار قومه وأخذ يشاورهم في السبيل التي يستطيعون بها أن يغسلوا هذه الالهانة ويدركوا ثأرهم من أبي الخطار واليمنية ^(١) .

وكان الصميل في ذاته شخصية غريبة جدا ، تكاد تعتبر في ذاتها نموذجا لهذا الطراز من العرب الذين دخلوا الاسلام بخيرهم وشرهم ، وظلوا فيه على حالهم لم يكد الأيمان يمس قلوبهم أو يغير منها شيئا ، وقد وصفه دوزى وصفا لطيفا لا بأس من ايراده لدقته : « لم يكن الصميل رجلا عاديا لا في الخير ولا في الشر ، وكانت نفسه بطبيعتها خيرة كريمة ولكنها كانت خاضعة لقوتين متكافئتين من الخير والشر ، متعالية حياشة عنيفة لا تنسى ثأرها . كانت نفسه مهياة تهية قوية ، ولكنها كانت جاهلة نشيطة خاضعة للفراسة يقودها الحظ كيف شاء ، كانت خليطا غريبا من الملكات المتعارضة أشد التعارض . كان يبدو نشطا مثابرا اذا ما استثيرت عواطفه ، فاذا هدأت ثورة نفسه بدا كسولا قليل الاكتراث . وكانت هاتان الخصلتان الأخيرتان أقرب الى طبعه . وكان كريما واسع العطاء ، وكانت تلك صفة يقدرها أصحابها أكثر مما قدروا غيرها ، وقد بلغ من كرمه أن شاعره كان يحرص ألا يزوره الا مرتين في العام ، مرة في كل عيد ، حتى لا يستنفد الصميل ماله ، اذ كان أقسم أن يهبه كل ما عنده مهما رآه . وكان لكل سيد عربي شاعره ، كما كان الحال عند سادة العشائر الاسكتلندية . ولم يكن الصميل مع ذلك رجلا متعلما ، اذ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ^(٢) ، على الرغم من غرامه بالشعر ، وبالشعر الذي يدور حول مديحه بوجه خاص ، وعلى الرغم من أنه كان

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٦ .

فتح الأندلس ، ص ٣٧ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

ينظم الأبيات منه بين الحين والحين ، وكان أصحابه يرون أنه أتى بعد زمانه ^(١) . بيد أنه كان خيرا بالحياة لا يكاد يفوته من وجوها شيء ، حتى أن أعداءه أنفسهم كانوا يقررون أنه نموذج كامل للأدب . وشخصية الصميل كانت استمرارا لهذا الطراز من أشرف العرب القدماء المسرفين في حبهم للحياة ، والذين لم يكونوا مسلمين الا بالاسم ، فقد كانت أخلاقه منحلة ، وكان لا يكاد يحفل لشيء من أشراف الدين : فكان يشرب الخمر على الرغم من نهى الدين عنها ، فكان يسرف في الشراب حتى لينام كل ليلة سكران ^(٢) . فأما القرآن فقد كان لا يعرف منه شيئا ، ولم يكن ليهتم بتعرف هذا الكتاب ، اذ أن مبادئه التي تدعو الى المساواة كانت تسس كبرياءه . ولقد خطريوما بمؤدب يؤدب الصبيان وهو يقرأ « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فقال الصميل : « نداولها بين العرب » فقال له المؤدب : « بين الناس » ، فقال الصميل : « وهكذا نزلت الآية ؟ » ، قال له : « نعم ! » ، قال الصميل : « والله انى أرى هذا الأمر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأراذل ! » ^(٣) . ولا نزاع في أن الكثيرين جدا ممن شارك في فتح الأندلس وساهم في هذه الحروب القبلية بضلع عظيم كان من هذا الطراز ، وهذا ما يفسر اسرافهم في حروبهم العصبية التي نحن بصدددها .

(١) إشارة إلى قول أربطاس للصميل في حديث له معه : « يا أبا جوشن ، إن أهل ديانك يخبروننا أن أديهم لم يأخذك ، ولو أخذك لم تنكر على برمن بررت » ، أى أن أدب الإسلام لم يؤثر في نفسه ، وظل جاهل الطبع والخلق والنزعات .

COZY, *Musulmans d'Espagne* (2ème éd-Layde, 1932) I p. 173-174

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧١ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

٨٨ - مزينة أبي فلما انتهى الصميل الى داره في عقدة الزيتون الخطار وولاية ثوابة قبلى قرطبة ، جمع من لقي من الشامية ومضى ابن سلامة العامل يستشيرهم فيما هو فاعل . وكان يحص قلة الشامية القيسية أمام الكثرة اليمنية الكلية التي كان أبو الخطار يرأسها ، فثاب له رأى في التقرب الى اللخمين والجذامين من اليمنيين وعرض الرياسة عليهم مقابل معاوته في حربه مع أبي الخطار ، وكان يوسف الفهرى شيخ اللخمين خائفا على أبي الخطار متلهفا على فرصة يشفى فيها لدد نفسه فاستصوب الشامية رأيه . ولم تكن القيسية اذ ذاك على اتفاق تام ، اذ كانت غطفان منحرفة في استجة ، لأن شيخها أبا العطاء كان يحسد الصميل على رياسته للقيسية دونه ، لهذا بادر الصميل بالتوجه الى استجة واسترضى أبا العطاء وكسبه الى جانبه ، ثم مضى الى مورور حيث كانت منازل جذام وشيخها ثوابة بن سلامة العامل . وبهذا جمع الصميل بنشاطه وذكائه عصبة قوية من قيس ولخم وجذام وغطفان ، واجتمع رجال هذه القبائل في شذونة وعولوا على السير الى قرطبة وعزل أبي الخطار (١) .

وعجل أبو الخطار بالخروج للقاء الشامية وهو لا يشك في الظفر ، ولم يكن يدري بما دبره الصميل من استمالة لخم وجذام واضعاف جبهة اليمنية ، وكان اللقاء عند وادي لكه الذى شهد الى اليوم من حروب المسلمين شيئا كثيرا . وقد تقاعس معظم الكلية عن قتال بنى عمومته

DOZY, *Musulmans d'Espagne*, I. pp. 173-174.

(١)

الأخبار المجمعة ، ص ٥٦ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ١٧ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٥٧ .

جذام ولخم ، ثم تركوا أبا الخطار في قلة وولوا مدبرين ، فلبث بعض الوقت حتى اضطر الى الفرار ، فاذا هو جاد في فراره يريد قرطبة وقع أسيرا في يد أعدائه ، فكبلوه بالحديد ، وتولى ثوابة بن سلامة العامل أمر الأندلس بحسب ما تم بين الصميل رأس القيسية الشامية وأبى العطاء رأس غطفان وثوابة هذا سيد لخم وجذام (رجب سنة ١٢٧ هـ / أبريل سنة ٧٤٥ م) (١) .

لم تدم ولاية ثوابة الا عاما وبعض عام ، ولم يحدث فيها من جليل الأمور الا محاولة أبي الخطار استعادة الولاية وجمعه قرا من اليمنية وسيره الى قرطبة ، وقد اندحر أبو الخطار وتبدد كل أمل له في الولاية ، واختفى من صفحات التاريخ الأندلسى بحيلة ماهرة دبرها هذا الرجل الماهر الصميل بن حاتم : حينما عسكر الجيشان وجها لوجه وأخذوا يستعدان للحرب ، انتهز الصميل فرصة هبوط الليل وبعث رجلا من معد وقف بمعسكر اليمنية وناداهم مؤكدا لهم أنه إنما يقول ما يقول حقنا للدماء لا خوفا من القتال ، وجعل يسفه أحلامهم في السير لنصرة أبي الخطار وحرب بنى عمومته من لخم وجذام ، ويذكرهم بأن القيسية لو كانت تريد قتل أبي الخطار لقتلته وقد كان بيدها بالأمس أسيرا ، وأنهم لا ينبغي أن يخشوا شيئا من ثوابة لأنه جذامى وجذام يمنية ، ففعلت هذه الكلمات فعلها في نفوس اليمنية الكلية وانقض معسكرهم وعادوا الى مواطنهم ، وهكذا فسد أمر أبي الخطار وضاع أمره ، واستطاع الصميل أن يكسب الموقف بذكائه وقدرته (٢) .

(١) الأخبار المجمعة ، ص ٥٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ .

وصفا الأمر لثوابه جينا ، ولكن ولايته لم تدم طويلا كما ذكرنا ، فقد عاجله الموت بعد عام من انتصاره الأخير على أبي الخطار . ولم يكد يختفى من الميدان حتى هب ابنه عمر يطالب بأن يخلفه في السيادة . ونهض لمنافسته يحيى بن حريث رأس جذام وأحد كبار العرب الذين كونوا هذا الحلف .

٨٩ - الصميل وكان الصميل يستطيع أن ينادى بنفسه أميرا ابن حاتم يمهّد على الأندلس في ذلك الحين ، لأنه كان بالفعل رأس الطريق ليوسف العصبة القائمة بالأمر ومصرف شؤون البلاد ، الفهرى ولكنه كان أذكى من أن ينفر أحلافه من اليمنية بمثل هذا العمل ، وكان لا يرضى كذلك أن يترك الأمر لأحد من المتنافسين مخافة أن يستبد به وبجماعته ، فضى يبحث عن شخص يرضاه اليمنيون ويأمن جانبه القيسيون ثم يكون الى ذلك ضعيفا سهل القيادة حتى يملك زمامه . وهداه البحث الى يوسف الفهرى سيد الفهرين في الأندلس ، وكان للفهرين مقام ممتاز عند العرب أجمعين اذ ذاك ، لأنهم ذؤابة قريش وكانت قريش في هذه المنازعات كلها حيادا لا تسرف في الميل الى فريق دون فريق ، وقد عجل الصميل بتثبيت أمر يوسف حتى يفسد على يحيى بن حريث سيد جذام مطامعه في الامارة . وكان يحيى شديد الكراهية للشامية ، وكان يقول : « لو أن دماء أهل الشام جمعت لى في قدح لشربتها » (١) ، فكره الصميل — وهو شامى قيسى — أن تصير الامارة اليه فيصيب قومه منه شر . فلما تم أمر يوسف

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٠ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

الفهرى سعى الصميل حتى أقام يحيى بن حريث عاملا على ربه ترضية لنفسه ولقومه (١) .

من ذلك اليوم أصبح أمر الأندلس في واقع الأمر بيد الصميل بن حاتم ، فقد كان يوسف الفهرى رجلا سهل القياد عالى السن ، فضى الصميل يصرف الأمر كما يشاء ، وكان كما لاحظنا رجلا كيسا واسع الحيلة ، فلم يعسر عليه قياد بقية الزعماء . وقد استطاع هذا الرجل أن يكسب ود من تحالف مع القيسية الشامية من معد ، فقوى أمره وأمر صاحبه الفهرى .

فاذا استقر الأمر للصميل على هذا النحو فقد بدأ يفكر في التخلص من يحيى بن حريث جملة ، وكان يحيى كما عرفنا شديد الكراهية للشامية وكان لا ينفك منازعا للصميل مهددا أمره . فبادر الصميل بعزله عن ولاية ريثه قبل أن تثبت قدمه ويشدد ساعده فيها . فلم يكد العزل يبلغه حتى نفر وقومه للحرب . وسعى حتى وضع يده في يد أبي الخطار سيد الكلية اليمنية الذى كان يعيش في قومه ببعض نواحي اشبيلية مهمل ضعيفا بعد هزيمته (٢) ، وهكذا اتفقت كلب كلها على محاربة الصميل ومن معه من قيس ، وشعر الصميل بالخطر وعرف أن يحيى فاعل به وبقومه الأفاعيل اذا قدر له النصر ، ولهذا عجل فاستنفر المعديّة القيسية

(١) يذكر صاحب الأخبار المجموعة أن النزاع على الولاية كان شديدا بين يوسف الفهرى ويحيى بن حريث وعمرو بن ثؤابة (يكتب ثؤابة بن عمرو خطأ) .
الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .

(٢) كانت قضاة قبل إجماع عرب الأندلس على يوسف الفهرى ، قد تمصبت لأبي الخطار وقام شيخها عبد الرحمن بن نعيم الكلبى فجعم مائى رجل وأربعين فارساً وهاجم قرطبة واستنقذ أبا الخطار ومضى به إلى كلب وأقره في ناحية إشبيلية .

الأخبار المجموعة ، ص ٥٨ .

كافة ، فتسارعوا اليه . وكان من لطف المقادير أن الدعوة الى الحرب لم تمس الا عرب جنوب الأندلس وحدهم ، فبقى أهل الشرق والشمال الشرقي والغربي في مواطنهم لم تحرك الدعوة منهم ساكنا ، ولهذا سينحصر الصراع المقبل في حدود ضيقة ، ولن يكون له من النتائج السيئة ما كان لما سبقه من الحروب التي أتينا عليها .

٩٠ - موقعة : وكان القتال بين الجانبين هذه المرة فريدا في بابه ، شقندة سنة ١٣٠ هـ يصفه صاحب الأخبار المجموعة بقوله (١) : « فلما رأيت قضاة ما يدعوا اليه ابن حريث أجبوا جمع كلمة اليمن كلها ، فأجابوا ابن حريث وقدموه . فأصفت يمن الأندلس حيرها وكندتها ومذجها وقضاعتها . واحتازت مضر وربيعة الى يوسف ، وربيعة بالأندلس قليل . فلحق خيار اليمن بابن حريث من كل جند ، وتجرع أهل البلد بتجرع أهل الشام ، ولحق خيار مضر بيوسف والصليل ، لا يعرض أحد لأحد : يخرج الجوار فيودع بعضهم بعضا حتى يلحق كل رجل بقومه (!) وهي أول حرب كانت في الاسلام بهذه الدعوة .. فزحف ابن حريث وأبو الخطار الى يوسف والصليل بقرية شقندة . وعبر يوسف والصليل النهر اليهما بمن معهما . فالتقوا حين صلاوا الصبح ، فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح . وثبتت الخيل وحميت الشمس . ثم تداعوا الى البراز ، فتنالوا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت (هكذا في النص والأصح تقصفت) ،

(١) وصف ابن القوتية هذه الموقعة وصفا موجزا .

انظر : الافتتاح ، ص ٢٠ .

وذكرها ابن عذاري ببعض التفصيل : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

ثم تقابضوا بالأيدى والشعور (!) لم يكن في الاسلام صبر مثله ، الا ما يذكر من صفين . ولم يكن القوم بكثير لا هؤلاء ولا هؤلاء ، وانما كانوا خيارا من الفريقين وكانوا متقاربين ، الا أن اليمن كانوا أكثر قليلا . فلما أعيا بعضهم بعضا توافقوا يضرب بعضهم وجوه بعض بالقسي والجعاب ، ويحشى (هكذا وصحتها يحشو) بعضهم التراب على بعض .. اذ قال الصميل ليوسف : ما وقفنا اذ خلفنا جندا نحن عنهم في غفلة ! قال : ومن هم ؟ قال : أهل السوق بقرطبة ! فرد اليهم يوسف مولاه خالد بن يزيد وصاحب [...] فأخرجهم منهم نحو من أربعمئة راجل معهم الخشب والعصى ومع قليل منهم السيف والمزراق ، فخرج الجزارون بسكاكينهم ، فجاءوا الى قوم موتى ، وقد مضت الظهر والعصر لم يصلوها لا صلاة خوف ولا أمن ، وقتلوا وأسروا بشرا كثيرا خيارا ، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأميرين . وكان ابن حريث لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أصحابه تغيب ودخل تحت سرير الرحي التي بموضع بيع الخشب ، فلما أسروا أبا الخطار وهموا بقتله قال : ليس على قوت ، ولكن عندهم ابن السوداء ابن حريث ! فدل عليه ، فأخرج وقتلا جميعا ، وكان ابن حريث يقول : لو أن دماء أهل الشام جمعت لي في قدح لشربتها ! فلما استخرج قال له أبو الخطار : يا ابن السوداء ! هل بقي في قدحك شيء لم تشربه ؟ (١) .

تلك كانت خاتمة أبي الخطار الذي أتى ليصلح الأمور فزادها سوءا ، وأراد أن يستنقذ اليمنية من استبداد القيسية ففقد حياته وحياة من

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٩ - ٦٠ .

ساروا معه . ودفع الينية الى وهدة من الهزيمة لن تنهض منها الا في ظلال عبد الرحمن الداخل وامارة قرطبة ، وأصبحت الأندلس من تاريخ تلك الواقعة تحت سلطان يوسف الفهري في الظاهر وسلطان الصميل بن حاتم في واقع الأمر .

٩١ - مأساة وأحب الصميل أن يشفى أحقاد نفسه ، فسار بالأسرى أسرى شقطة مصفدين وقعد لهم على باب جامع قرطبة ، وكان من قبل كنيسة القديس بيجنت (قِسْتُو - قَسْت) ، وجعل يقضى في أمرهم بالموت واحدا واحدا في لذة ووحشية واستخفاف يثير النفس ، فلما ضرب أوساط سبعين منهم ثارت نفس حليفه أبى العطاء شيخ جذام ، فقام ينهاه ، ولكن الرجل رده وقال له في نشوة الانتقام : « أقعد أبا عطاء ، فهذا عزك وعز قومك » ، ومضى في هذه المذبحة البشعة حتى لم يطق أبو عطاء الصبر ، وخشى أن يكون الصميل القيسي يسرف هذا الاسراف في التشفى من الينية رغبة منه في القضاء عليها ، وتحركت في أبى عطاء يمينته ، فقام الى الصميل يقول : « يا أعرابي ! والله ان تقتلنا الا بعداوة صِفَيْن ، لتكفَن أو لأدعون بدعوة شامية » ، وبهذا التهديد وحده خاف الصميل وكف عن هذا العمل البشع (١) .

٩٢ - المجاعة بعد هذا النصر الحاسم على من كانوا يناوئونها من تجتاح الأندلس الينيين ، وكان الصميل كما رأينا شخصية قوية بعيلة الطموح في حين كان يوسف الفهري رجلا مسنا في نفسه خمول ، فجعل الصميل يصرف الأمر من دونه . ويستبد به حتى سئم الرجل وفكر في

الخلاص من هذه الوصاية التي يفرضها عليه هذا القيسى القوى . فعرض عليه أن يقيمه حاكما على اقليم سرقسطة ، وقبل الصميل ذلك ، وكان اقليم سرقسطة موطن معظم الينيين ، فأراد يوسف أن يذلهم بهذا القيسى القح (١) . وكانت البلاد تعاني اذ ذاك مجاعة حادة لم يسلم من شرها الا اقليم سرقسطة بفضل مياهه وخيرات ، فكان ذلك مما مال بالصميل الى اطاعة أمر يوسف .

وأما أسباب هذه المجاعة فترجع الى هذه الحروب العنيفة التي وقعت بين العرب : شامية ويمنية ، وبين العرب والبربر . وقد رأينا أن هذه الحروب لم تكن قصيرة الأمد ولا محصورة الميدان ، وانما امتد شرها حتى شمل سكان البلاد جميعا وأقاليمها كلها ، وقد رأينا أن العرب انجفلوا من المواضع التي كانوا قد استقروا فيها في الوسط والشمال والغرب وخلفوها لا يكاد يشرف على عمارتها أحد ، وأقبل البربر في أعقابهم وهجروا مواقعهم البعيدة وساروا هم الآخرون الى الجنوب ، ثم انهزموا أمام العرب هذه الهزائم المتلاحقة ، وتبعهم هؤلاء بالأذى في كل ناحية حتى ضاقت بهم البلاد ، وأخذوا يهجرون الأندلس ويعودون الى مواطنهم الأولى في افريقية جماعات (٢) . هكذا فقدت النواحي أعدادا عظيمة ممن كان قد سكنها من العرب والبربر الذين كانوا يقومون على زراعتها وعمارها ، فلا غرابة أن تقل المحاصيل وتتعرض البلاد لخطر المجاعة . ثم ان هذه الحروب المتوالية بين العرب حينا وبين العرب والبربر حينا آخر قد دارت رحاها في الأقاليم الخصبة المزروعة في الجنوب والجنوب الشرقي ، فخرّب كثير من المزارع واضطرب أمر زراعتها ، وزادت المحاصيل قلة تبعا لذلك . واتهز النصارى الاسبان الفرصة وأخذوا ينحدرون الى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

(١) نفس المصدر ، ص ٦١ .

الجنوب واحتلوا المنطقة الواسعة الواقعة بين نهري دويره وتاجه وأخذوا يغازون المسلمين ، فانضاف الى الأندلس الاسلامى بلاء آخر جديد كانوا قد ظنوا أنهم استراحوا منه ^(١) ، واجتمعت العوامل كلها فزادت الأمر حدة ، واشتد الجوع وعظمت البلوى وانعدم الأمن حتى تقطعت الصلات بين النواحي ، وبلغ من الأمر أن صاحب الأخبار المجموعة يذكر أن يوسف القهرى احتاج مرة الى رسول يبعثه الى الصميل في سرقسطة فلم يجده ، اذ كان الرسل القادرون جميعا قد هلكوا ، وانقطعت المواصلات أو كادت بين قرطبة وسرقسطة ^(٢) .

دامت هذه الحال خمس سنوات من سنة ١٣١ هـ الى سنة ١٣٦ هـ / ٧٤٩ - ٧٥٥ م ، وكانت هذه السنة الأخيرة هى أقسامها واشدها ، مما أدى الى زيادة هجرة الناس الى افريقية .. « وانضم الناس الى ما وراء الدرب الآخر والى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين ، واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس الى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتلين ، وكانت اجازتهم من واد بكورة شذونة ، يقال له وادى يرباط ، فخفف سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العدو ، الا أن الجوع شملهم » ^(٣) . الى هذا الحال انتهى بمسلمى الأندلس تناحرهم بسبب العصبية وبسبب الرغبة في اذلال البربر والاستبداد بالأمر كله دونهم ، وستحدث عن ذلك بتفصيل أوفى حينما نتحدث عن مبادئ حركة الاسبان النصارى .

وقد سلم من هذه المجاعة الشديدة اقليم سرقسطة على ما قلناه ، لأن غربة أقاموا في مواضعهم لم يشتركوا في هذه الحروب الدامية

(١) DOZY, *Recherches*, I. pp. 116 Sqq.

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٨ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

الا بنصيب قليل ، ولأن من كان يسكنهم من البربر في هذا الاقليم أقعدته كثرتهم عن أن يشب بهم ، فلم تمتد نيران الحروب بين العرب والبربر الى اقليم سرقسطة ، وبقي الاقليم كله على حاله من الرخاء ووفرة الخير ، فلما وصله الصميل وجد قومه في سعة ، ووجد جماعات العرب الذين مستهم المجاعة في أقاليم أخرى يتوافدون اليه انتجاعا للخير ، وفتن الصميل الى أن يوسف انسا بعثه الى هذه الناحية لكي يذل أهلها من اليمنيين ، ولكي تنفع البغضاء بينه وبينهم ، فيشتغل بهم ويشغلوا به ويخلص الأمر ليوسف ، فعول على كسب قلوب أعدائه ، ففتح خزائنه ومضى يعطى بكتلتا يديه متناسيا عصبية القسيية لكن يفوت على يوسف غرضه . وكان الصميل داهية واسع الذكاء ، ساخرا من كل شيء ، لا يكاد يفعل أمرا عن ايمان . قال صاحب الأخبار المجموعة : « فلم يأتته صديق أوعدو فخرمه ، فازداد سؤددا ، وأقام بها أعوام الشدائد التى تتابعت » ^(١) .

٩٣ - يمنيون وأقام يوسف يدبر الأمر وحده في قرطبة بما يشورون على عرفناه فيه من الضعف وقلة الرأى ، وكان لا يحزبه الصميل في سرقسطة أمر الا بعث يسأل الصميل فيه ، فلما اشتدت المجاعة وعدم الرسل ساء أمره وبدأ الناس يتجهمون له . وكان في قرطبة اذ ذاك فتى من بنى عدى بن عبد الدار يسمى عامر بن هاشم ، وكان فارسا نجدا يلى الصوائف قبل ولاية يوسف والصميل ، فجعل يوسف يكيد له خوفا منه وغيره مما كان الفتى يتمتع به من عظيم المكانة ، وأحس هذا بما يدبر له الصميل فسارع بالكتابة الى المنصور

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

خليفة العباسيين يسأله توليته الأندلس وبعث سجل الولاية . وكان عامر يمينا ساء ما صنع يوسف والصميل باليمنية ، وخاف أن يفعل الصميل مثل ذلك يمين سرقسطة ، فأخذ يستعد للوثوب بيوسف وابنتى لنفسه حصنا كبيرا في منية بغربى قرطبة « فأغلق غلقة عظيمة كاد أن يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتنى بها بنيانا ينضم اليه ويغاور يوسف حتى يأتيه امداد الين ، وضعف سلطان يوسف حتى كان لا يركب معه خمسون رجلا من حشمه » (١) . ووقعت الوحشة بين الرجلين ، ولولا أن يوسف كان بطبعه جباناً مترددا لوقعت الحرب . ولكنه فضل أن يبدأ بسؤال الصميل رأيهِ ، فنصحه هذا بالتدبير عليه وقتله ، فلم يكد عامر يعلم بذلك حتى شعر بأن حياته أصبحت في خطر ، واتجه همه الى أن يقوم بعمل حاسم ازاء يوسف الفهرى وصاحبه الصميل (٢) .

كان الرجل يمينا كما قلنا ، ففكر في الالتجاء الى ناحية تكون لليمن فيها عزوة وكثرة ، ولم يكن في الأندلس أكثر يمينا من اقليم سرقسطة ، حيث أقام الصميل محاولا جهده استئلاف الناس والتجيب اليهم ، فكتب عامر الى زعيم من زعماء يمن سرقسطة يسمى الجباب (أو الججاب) بن رواحة بن عبد الله الزهرى الكلابى — وكان سيد بنى زهرة من كلاب يمت اليه بالقرابة — يعلمه بأن لديه سجل أبى جعفر المنصور ويدعوه الى معاونته للخلاص من سيادة القيسيين ، واستخفت الدعوة الزهرى فنهض مع عامر بنفر من قومه ، واجتمعت اليهما كذلك أعداد من اليمنية ، وسار جمعهم وحاصروا الصميل في سرقسطة (٣) .

(١) الأخبار المبيعة ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) الأخبار المبيعة ، ص ٦٥ .

ويبدو أن الخطر على الصميل كان شديدا لأنه بعث يستجد بن أمكنه الاستنجاد به من القيسية ، كتب الى جندى قنسرين ودمشق ، ويبدو كذلك أنهم تقاعسوا عنه ، لأنه ألح عليهم . وجعل يقول انه يجترىء منهم بالقليل ، فنهض لعونه سيد من كلاب يسمى عبيد الله بن على وجمع له عددا من قبائل كلاب ومحارب وسليم وهوازن ، وتقاعس من القيسية سيد جند قنسرين الحصين بن الدجن العقيلي وسيد جند دمشق سليمان ابن شهاب ، ولم ينهض للعون الا بنو عامر بن كلاب وشيخهم عبيد الله وبنو نمير وسعد وجميع قبائل هوازن وسليم بن منصور ثم تابعتهم غطفان . فلما اجتمعت معظم قيس على هذا النحو لعون الصميل شعر الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب أن قعودهما عن عونه ليس بضائر فنهضا بمن معهما . واجتذبت الدعوة كذلك أتباع بنى أمية ومواليهم في الأندلس ، وكان معظمهم مقيما في جند دمشق بناحية البيرة . فنهض زعمائهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت ، وكانوا من أنصار يوسف والصميل ، وبهذا تحركت قيس جميعها لغيث هذا الصميل الذى فعل بالأندلس الأفاعيل . بيد أننا لا ينبغي أن نبالغ في تقدير أعداد من نهض لعون الصميل ، فان كل طائفة لم تنهض اليه الا بضع مئات ، مما يدل على أن عرب الأندلس كانوا قد قلوا اذ ذاك قلة ظاهرة .

٤٤ - الحرب سارت هذه القوات لحرب اليمنيين ومن معهم من البربر بين القيسية الذين كانوا مقيمين على حصار سرقسطة ومن فيها والكلبية في سرقسطة من القيسية . وكان معظم هذه القوات من القيسيين لا تفكر الا فى القضاء على اليمنية ، وكان فيهم نفر من موالى بنى أمية كما قلنا ، ولم يكن هؤلاء الأمويون يفكرون فى أمر الصميل بقدر

ما كانوا يفكرون في أمر فتى من بنى أمية كان اذ ذاك مقبلاً في العدو
الأخرى بشاطيء إفريقية عند برابر نفزة ، وكان قد أرسل مولاه بدرا
الى الأندلس ليلقى هؤلاء الموالي الأمويين ويدعوهم الى أمره .

وصلت جموع القيسيين الى طليطلة ، ويبدو أنها استغرقت وقتاً
طويلاً في التجمع والسير ، فأمكن اليئنين الفرصة لتشنيد الحصار على
الصميل ومن معه حتى ساءت حالهم . وأقبلت رسلهم الى طليطلة تستحث
القيسين في سرعة السير ، فعجلوا بإرسال فارس منهم برسالة الى الصميل
تؤكد له اسراعهم اليه بالعون ، وتسأل الرجل بها بين فرسان عامر وزهرة
المحاصرين للصميل ، وربط الرسالة بحجر ثم ألقي بها الى المحصورين ،
ولم يكن فيها الا البيتان الآتيان :

تبشّرُ بالسّلامة يا جدارُ أتاك الغوث وانقطع الحصار
أتتك بنات أعوجٍ سلجَمات عليها الأكرمون وهم نزار

فناولهما الصميل لمن قرأهما له — فقد كان الرجل لا يقرأ —
فلم يكذ يسمع الأبيات حتى استبشر ونادى في قومه يعلمهم بالخبر ،
وسرى في نفوس المحصورين الفرح والحماس ، ونهضت همتهم بعد أن
كانوا قد أشرفوا على التسليم . وتسامع اليئنيون المحاصرون للصميل
بذلك فخافوا أن تنزل بهم الهزيمة اذا انتظروا حتى تقبل هذه الأمداد
القيسية ، ففرقوا ، وخلص الصميل من هذا الحصار دون مشقة أو قتال .
وأقبل القيسيون ومن معهم من الأمويين فاستقبلهم الصميل استقبال
الخير والسلامة ، « وأعطاهم العطاء الجزيل : أعطى خيارهم
خمسین ديناراً ، وأعطى غيرهم من الناس عشرة عشرة وشقة شقة خز ،

ثم أقبل معهم الى قرطبة . فلما فرغ الصميل وأصحابه من الاحتفال
بالنصر انتهب الأمويون الثلاثة الفرصة ليكسوا الصميل في أمر صاحبهم
عبد الرحمن بن معاوية « (١) .

وستقف هنا بأخبار هذه الفتن القبلية ريشاً نلقى نظرة على وجوه أخرى
من نشاط مسلمي الأندلس في ذلك العصر ، ولنلم بطواهر أخرى لا تقل
عنها أهمية بالنسبة لمستقبل الاسلام في الأندلس . سنتحدث عن الأعمال
العسكرية التي قام بها المسلمون فيما يلي شبه الجزيرة الايبيرية الى
الشمال من أرض أوروبا ، وسندرس ميلاد حركة المقاومة النصرانية في
شمال شبه الجزيرة وشمالها الغربي .

(١) عن هذه الحوادث انظر :

الأخبار المجموعة ، ص ٦٧ - ٦٩ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٣ - ٤٥ .

فتح الأندلس ، ص ٤٧ وما يليها .

ابن الأبار : الحلة السعراء ، ص ٤٥ - ٥٠ .

الفصل السابع
فتوح المسلمين في غالة

قبل أن تأخذ عليه الظروف سبيل ادراك هذه الغاية . فعبر نهر ابنره ومضى نحو الشمال الغربي دون أن يمر ببسبكتونة وغزا بلاد البشكتس فيها حتى أتى قوما كالبهائم — كما يقول ابن عذارى (١) — ثم اتجه نحو الشمال فأطاعه رؤساء جليقية وأساقفتها ، حتى اذا بلغ تلك (Lugo-Lucus Asturum) أدركه رسول ثان من قبل الوليد يأمره بالعودة الى دمشق ، فلم يستطع مخالفة الأمر هذه المرة . فكر راجعا وانضم اليه طارق واتجه جميعا نحو قرطبة ومنها الى المشرق (٢) وانتهى دوره في الفتوح الاسلامية بعد أن قام بدور يضعه في الصف الأول من الفاتحين المسلمين .

ولم يجد ابنه عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته القصيرة التي لم تزيد على سنتين وأشهر فراغا يمكنه من القيام بالغزو والفتح فيما خلا سيره الى ناحية تدمير ، وعقدته المعاهدة التي ذكرناها مع صاحبها تدمير ،

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٨ .

المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

وقد ذهب إيزيدور الباجي إلى أن موسى لم يفتح سرقسطة إلا بجد السيف ، فأنزل بأهلها من الولايات شيئا كثيرا : ذبحهم بالسيف وأشعل النار في البلد ، وقتل الشبان والأطفال الرضع بالحرايب ، وأنه نشر الخراب والجوع في المنطقة كلها . ولم تشر المراجع العربية إلى ذلك .

f : ISIDORO PACENSE : *Chronicon*, c. 38

CODERA, *Estudios*, VIII, p. 204

وذهب فيارود وكديندي إلى أن موسى أنزل بنواحي قطلونية (Cataluña) ونبرة (Navarra) وأرغون مساهات كثيرة لأن أهلها قاوموه مقاومة شديدة ، ولم يذكر المؤلفان من أين أخذاه هذه المعلومات ، وقد شك فيها كوديديا واعتبرها مبالغة مصدريها كوديدي

VIARDOT, *Hist. des Arabes et des Maures d'Espagne*, I, p. 52.

CODERA, *Estudios Criticos de historia árabe esqanola* (Segunda serie, Madrid, 1917)

وقتنا بالفتوح الاسلامية عند نهاية الأعمال العسكرية التي قام بها موسى بن نصير في نواحي سرقسطة وما يلي طليطلة الى الشمال الغربي وما يلي وادي الحجارة الى الشمال ، ولكننا لم نفصل أعماله في شمال سرقسطة لأنها أدخلت في باب فتوح المسلمين في منطقة البرت (١) وما وراءها .

يذهب بعض المؤرخين الى أن موسى وطارقا استوليا على برشلونة ثم عبرا جبال البرت وفتحوا أربونة وبنينون وواصلوا التقدم حتى بلغا ليون في فرنسا (٢) ، وهي الحد الأقصى لفتوحات موسى وطارق بحسب ما يذكره هؤلاء المؤرخون . وليس من الممكن أن يكون موسى وطارق قد عبرا البرت وصعدا مع نهر رُدانته (٣) . حتى بلغا ليون ، وليس بين أيدينا دليل واحد يؤيد مثل هذا الزعم . وأما فتوحهما في نواحي برشلونة والركن الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة فتحتاج الى شيء من الدرس حتى يتضح مداها على وجه قريب من الصحة .

يذهب مؤرخونا الى أن موسى حينما أتاه رسول الخليفة الوليد ابن عبد الملك — على ما ذكرنا — لم يتعجل العودة وانما دفعه ذلك الى الاسراع ومضاعفة الهمة في الغزو حتى يستكمل فتوح شبه الجزيرة

(١) جبال البرت أو البرتات هي المعروفة عندنا خطأ بالبرانس . والبرت هو اللغز اللاتيني Porta أي الباب أو الممر في الجبال ، ولهذا تسمى في العربية أيضاً بجبال الأبواب .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) رُدانته هي العينة العربية لاسم نهر الرون ، وهي مأخوذة عن اسمه اللاتيني Rhodanus

مدة ولايته ، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه افتتح مدنا وجصونا كثيرة ، ولكنهم لم يذكروا شيئا على وجه التحديد مما يدل على أن جهده في الفتوح أثناء ولايته كان قليلا جدا ^(١) .

ويبدو أن خليفته أيوب بن حبيب كان أكثر منه انصرافا إلى الغزو على الرغم من قصر ولايته . ولم يحدد لنا المؤرخون النواحي التي صرف إليها نشاطه ، ولكن الغالب أن جهوده وجهت نحو شمال شبه الجزيرة وشمالها الشرقي . ويذكر الأسقف ريمون ديريغو الطليطلي أن أيوب هذا هو الذي ابنتى البلد المعروف بقاعة أيوب (Calatayud) إلى الشمال الشرقي من طليطلة . وكان في موقعها حصن روماني قديم يسمى (Bilbilis) ^(٢) .

د - بدء الغزوات وتتفق المراجع على أن الحر بن مالك — خليفة أيوب — فيما وراء جبال كان رجلا ذا نشاط ملحوظ في الغزوات في غالة وما وراء البرتات ، ولم يذكر شيا مفصلا عنها إلا إيزيدور الباجي ، فقد أفرد فقرة خاصة للحر وأعماله . فذكر أنه غزا جنوبى غالة حتى أربونة عاصمة غالة النربونية (Gallia Narbonensis) وظل يغاور أهل هذه النواحي حتى اضطروا إلى طلب الملجأ فمنحهم إياه . ولكن أحدا من مؤرخي العرب أو الفرنجة لا يؤيد إيزيدور في ذلك ، ولهذا لا يمكننا التعميل على هذه التفاصيل الواردة في روايته تلك ^(٣) .

(١) ابن الأثير : ج ٥ ، ص ١٤٠ .

المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

CODERA, Op. cit. p. III.

(٢)

(٣) يقول إيزيدور الباجي عن غزوات الحر في غالة ، فقرة ٤٣ ، ص ١٥١ :

Hujus tempore Alaher per Hispaniam lacertos judicum mittit, atque debellando et pacificando pené per tres annos Galliam Narbonensem petit, et penlatim His-

٩٦ - السمع بن فلما أقام عمر بن عبد العزيز السمع بن مالك الخولاني مالك يصل إلى واليا على الأندلس (سنة ١٠٠ هـ / ٧٤٠ م) نشطت طرسونة . استشهاده عند طولوشة حركة الفتوح فيما وراء البرتات نشاطا عظيما ،

لأن السمع كان رجلا وثيق الإيمان جهم النشاط ، فلم يكذب يستقر في الولاية حتى بادر بالنهوض لحرب النصرانية فيما وراء البرتات ، فتوغل في غالة حتى أدرك طرسونة (Tarascon) واستمر في التقدم حتى وقف بأبواب طولوشة (Tolosa) . ويبدو أن نشاطه هذا روع أهل أقطانية (أكويتانيا) ، فنهض له دوقها وسار بجيشه حتى لقي السمع في موقعة عنيفة على مقربة من طولوشة . واشتد القتال بين الجانبين وصبر المسلمون صبرا كريما حتى قتلوا عن آخرهم كما يقول ابن حيان ، وقد استشهد السمع مع من استشهد في هذه الموقعة في يوم عرفة من سنة ١٠٢ هـ (١٠ يونيو سنة ٧٢١ م) ، ولم تستطع فلول الجيش الإسلامي العودة إلا بفضل ما أبداه أحد كبار الجند — وهو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي — من الجهد ، فقد أقامه العسكر رئيسا عليهم ، فبذل المهمة في جمع شتاتهم والتقهقر بهم حتى عاد إلى الأندلس . وكانت تلك هي ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى ، ولم تدم إلا أشهرا لأن عامل إفريقية

= paniam ulteriorem vectigalia censendo, ad Hiberiam citeriorem se subrigit, regnans, annos supra scriptos

وقد أخذ CENAT MONCAUT يقول إيزيدور وقرر أن الحر فتح أربونة، وجعل هذا الحادث سنة ١٠٦ هـ وهي أولى سنوات حكم السمع بن مالك . وقد نقل عنه ذلك مؤرخون محدثون كثيرون دون أن يفتنوا إلى ذلك الخطأ .

CENAT MONCAUT, Histoire des peuples et des états péninsulaires (3e. éd. - 1873)

I, 477.

استبدل به عنبسة بن سحيم الكلبى بعد هذه الكارثة بأشهر قلائل^(١).
 ٩٧ - عنبسة بن وقد قضى عنبسة السنوات الأربع الأولى من ولايته
 سحيم وحملته في تنظيم أمور الأندلس وتهديتها ، بعد الاضطراب
 الكبرى الذى وقعت فيه بسبب خلافات العصبية التى ذكرناها
 وبسبب هذه الكارثة التى أصابت السمع ورجاله ، ولكنه كان ذا حماس
 للفتوح ، فلم تكد الأمور تستقر شيئا حتى عجل بالنهوض للغزو في غالة
 فصعد مع نهر ردانة حتى أدرك قرقشونة (Carcassona) فحاصرها وشدّد
 الحصار حتى نزل المدافعون عن البلد على شروطه ، فنزلوا له عن البلد
 ونصف الاقليم المحيط به وتعهدوا برد أسرى المسلمين الذين كانوا في
 الحصن وبأن يدفعوا الجزية وأن يشتركوا مع المسلمين في حرب أعدائهم
 جنبا الى جنب ، ويضيف صاحب «مدونة مواسياك» أن عنبسة استولى
 بعد ذلك على نيمسة (Nimes-Noemansum) وأخذ رهائن أهلها
 وأرسلهم الى برشلونة ، مما يفهم منه ضمنا أن برشلونة كانت اذ ذاك
 في يد المسلمين وأنهم اتخذوها حصنا ومركزا يصدرون منه للغزو فيما وراء
 البرتات .

(١) الأخبار المجمعّة ، ص ٣٤ .

المقرى ، ج ١ ، ص ١٤٩ - ج ٢ ، ص ٩ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

وتذكر المراجع العربية أن هذه الهزيمة وقعت عند طرسونة ، والأصح أن يقال إنها كانت عند
 طرسكونة (Tarascon) على مقربة من طولوشة عند مصب الرون ، وقد ذهب إلى هذا الرأي سافدرا
 معتقدا على ما ذكره إيزيدور الباجى من أن السمع استشهد عند طولوشة في موقعة حامية بينه وبين دوق
 أكويتانية . وقد ذهب إيزيدور إلى أن هزيمة المسلمين كانت قاصمة .

ISIDORO PACENSE, *Chronicon*, c. 44.

يقرر صاحب مدونة مواسياك كذلك أن هزيمة السمع ومقتله كانا عند طولوشة

Chronicon Moissiacense. app. 4. p. 165.

ثم واصل عنبسة سيره حتى أدرك مجرى نهر ردانة . ويبدو أنه
 وجد الطريق أمامه خالية ، فسار مسرعا ، دون أن يلتقى مقاومة ، وصعد
 مع النهر حتى أدرك نهر الساءون ، ودخل اقليم بورجونيا واستولى
 على أوتون (Autùn-Augustodunum) ونهبها وأحرقها .

ويذهب بعض المؤرخين الى أن حملة عنبسة لم تقف عند هذا الحد
 « بل نهب مدينة أوزة (Uzès) وقيين وعاثت في نواحي فالانس ،
 ووصلت الموجة حتى ليون وماكون وشالون . وهناك تفرعت فرعين ،
 سار الأول نحو ديجون وبيز (Bèze) ولانجر (Langre) ، واتجه الثانى
 صوب أوتون مرة أخرى . ولم يقف تيار هذه الحملة الا قرب بلدة
 سانس (Sens) على بعد ثلاثين كيلو مترا جنوبى باريس ، لأن ايون
 (Ebbon) أسقف سانس تصدى للمسلمين وأوقف تقدمهم .

وعاد عنبسة بمن معه من الجند محملين بالغنائم بعد أن وصلوا الى
 قلب غالة ، وغزوا حوض الرون كله وتخطوا نهر اللوار وأصبحوا على
 مسافة قصيرة من السين نفسه . وقد تم ذلك كله خلال سنتى ١٠٦ -
 ١٠٧ / ٧٢٥ - ٧٢٦ .

وطبيعى أن تثير هذه الغارة العنيفة المخاوف في نواحي غالة كلها :
 ارتفعت معظم الدوقيات الجنوبية والوسطى ، وشعرت مملكة الفرنجة
 أنها أمام خطر داهم حقيقى . وبدا بوضوح أن الحملة المقبلة ستكون
 حملة حاسمة من كل وجه ، فاما أتم العرب فتح مملكة الفرنجة أو ارتدوا
 عنها . ولو قد كانت أحوال مسلمى الأندلس على غير ما علمنا من
 الاضطراب ، بسبب خلافات العصبية ومنازعات العرب والبربر ، لما اضطروا

عنبسة الى الانصراف عن فتوحه الموفقة في غالة بعد أن أدرك هذا النصر العظيم .

بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أن حملة عنبسة لم تكن في الحقيقة غير غارة بعيدة المدى ، ولو كان عنبسة على نية الفتح الثابت لأتم الاستيلاء على ما غلب عليه من المدائن ، ولأقام الحاميات في بعضها على عادة العرب في فتوحهم . وربما كانت نيته من أول الأمر أن يقوم بحملة تشبه حملة عقبة الكبرى : غارة بعيدة المدى تشق البلاد شقا وتطلع المسلمين على أحوالها وتمهد لما بعدها . ولو قد استقر عنبسة في ليون مثلاً أو في أحد مراكز غالة الوسطى لكان في إمكاننا أن نقرر أنه فتح جنوبي غالة ووسطها ، أما وقد عاد أدراجه بعد أن سار نحو ألف ميل شمالي قرطبة فلا نستطيع القول إلا أن حملته الرائعة تلك لم تكن أكثر من غارة سريعة طويلة أتت بمغانم وفيرة ونشرت في نواحي غالة كلها رعباً شاملاً . ومهما يكن من الأمر فإن عنبسة بن سحيم الكلبى ينفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر ، فخر الوصول برايات الاسلام الى قلب أوروبا الغربية ، ولم يدرك هذا الشأ بعد ذلك فاتح مسلم آخر ^(١) .

* * *

(١)

Chronicon Moissiacense, p. 165.

ISIDORO PACENSE, C.52.

CODERA, *Op. cit.* p. 114.

LEVI-PROVENCAL, *Op. cit.* pp. 41-42.

وينبغي أن نذكر أن عنبسة لا بد أن يكون قد قتل أثناء اشتباكه مع نصارى طرسونة .

٩٨ - لماذا اتجه رأينا كيف استولى عنبسة بن سحيم على قرقشونة ، ثم عنبسة نحو حوض كيف انصرف بعد ذلك شمالاً بشرق في اتجاه نهر الرون ، الرون واستولى على نيمه (Nimes-Noemansum) ، ولا يعلل اتجاهه هذه الوجهة إلا بأن طولوشة كانت ما تزال اذ ذاك في أيدي المسلمين ، ولو كانت في أيدي النصارى لما تركها — وهي أقرب البلاد اليه — واتجه نحو بلاد الرون .

ولو كنا نملك نصوصاً أوضح من المدونات اللاتينية الشديدة الإيجاز لاستطعنا أن نقرر السبب في اتجاه عنبسة نحو حوض الرون بدلاً من متابعة الغزو في الاتجاه الأول ، أى في اتجاه دوقية أقطانية . وربما اتضح الأمر بعض الشيء إذا درسنا الوضع العام في جنوبي غالة في ذلك الحين . لاحظنا أن المسلمين لم يجدوا عناء في غزو اقليم سبتمانية ، فاستولوا على عاصمته أربونة واستقروا فيها واتخذوها مركزاً لأعمالهم . والسبب في ذلك أن سبتمانية لم تكن داخلة في دولة الفرنجة ، بل كانت من أملاك القوط الشرقيين أصحاب الأمر في إيطاليا . ثم تراخى سلطانهم عليها ، وطمع فيها الأمراء الاقطاعيون المتنازعون على السيادة على جنوبي غالة مثل كئند (كونت) طولوشة (تولوز) ودوق أقطانية (أكويتين) وكند پواتيه ، ولكنهم لم يجرؤوا على غزوها تحاشياً للاشتباك مع القوط الشرقيين ^(١) . وكانت سبتمانية ولاية ساحلية تمتد من شمالي جبال البرت بحذاء ساحل غالة (فرنسا) الجنوبي وتتصل بما يعرف اليوم بالرفيرا الإيطالية . وكانت تتألف من سبعة أقسام إدارية صغيرة ، ولهذا سميت بسبتمانية (Septemania) .

(١)

LAVISSE, *Histoire de France*, II, p.45

فلما خرج المسلمون من سبتمانية وبدأوا يجوسون خلال دوقية أقطانية واستولوا على عاصمتها طولوشة تغير الأمر ، ونهض لردهم دوقها أودو (Eude-Odon) وأوقع بهم الهزيمة التي ذكرناها عند طولوشة والتي استشهد فيها السمع بن مالك الخولاني (ذى الخجة سنة ١٠٢ هـ / يونيو سنة ٧٢١ م) . وقد أخذ غنبة بثأر السمع واستولى على قرقشونة . وبدلاً من أن يتجه نحو طولوشة ، وكانت لا تزال في أيدي المسلمين ، نجده يرتد الى سبتمانية ثم يفادها ليصعد مع الرون ويدرك نيمه (Nimes-Noe mansum) ^(١) فما العلة في ذلك؟

ربما استطعنا تفسير ذلك اذا نحن درسنا علاقات الدوق أودو بالعرب من ناحية ، وبمملكة الفرنجة من ناحية أخرى .

* * *

٩٩ - الدوق أودو تبدأ الروايات التي تحدثنا عن صلات أودو بالعرب بالكلام وعلاقته مع عن صلاته بثورة مونوسة . وقد عرضنا من قبل لهذه الثورة المسلمين وذكرنا كيف أوردت المراجع العربية هذا الاسم بصورة مبهمة لا يفهم منها ان كان اسم شخص بربري أو اسم اقليم ، وكيف أن هذا الاتهام قد أوقع المؤرخين جميعاً في خلاف حول الموضوع كله : فأما الغالبية - وهم كوندريو ودوزي وبروفنسال وجبريلي وكالمت - فقد ذهبوا الى أن مونوسة زعيم بربري ثار على المسلمين في نواحي بنبلونة ، وعارض هذا الرأي جماعة من الاسبان على رأسهم كوديرا ، فقد ذهب الى أن مونوسة أن هو الا تحريف لاسم مكان هو منرسا (Manresa) معتمداً في رأيه هذا على أن لفظ مونوسة ورد في النصوص

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٣٥٣ .

العربية مبهماً دون تحديد . ولكننا لا نستطيع أن نقبل هذا الرأي لأن رواية ايزيدور الباجي آيين من أن تدهض جملة ، ثم ان سياق الحوادث يدل على أن شخصاً بربرياً اسمه مونوسة وجد فعلاً ، وأنه لعب دوراً خطيراً في العلاقات بين المسلمين والنصارى في هذه الأيام ^(١) .

واليك موجزاً لرواية ايزيدور عن مونوسة :

ان رجلاً من الجنس البربري اسمه مونوس (Munuz) ترامت اليه من حدود ليبية (افريقية) أخبار الظلم القاسي الذي كان يعانيه أبناء جنسه في هذه البلاد ، فصالح الفرنجة وصاهر أودو دوق أقطانية وأخذ يعمل على إيذاء العرب أعداء اسبانيا ، ووثب بهم بالفعل وأصبح في حرب دائمة معهم . ولكن أنصاره كانوا في خلاف متصل معه . ولم ينهض عبد الرحمن (الغافقي) لحربه الا بعد أن أرسلت نحوه حوالى عشر حملات . فنهض عبد الرحمن لمونوسة وتبعه ففر الى خواق الجبال . وتخرج مركزه وضيق المسلمون عليه الخناق وقتلوه وقبضوا على زوجته وأرسلوها الى بلاط الخليفة .

وتفيض رواية ايزيدور بعد ذلك في ذكر أعمال العنف والاضطهاد التي أنزلها عبد الرحمن بحلفاء مونوسة من النصارى ، وخاصة أهل شرطانية (Cerdana-Cerritania) ، وكيف أنه أحرق أناباديوس (Anabadius) أسقفها بعد ذلك ^(٢) .

وتهماً من هذه الرواية مسألتان : الأولى هذا التفصيل الذي تورده عن أعمال عبد الرحمن واضطهاده للنصارى ، والثانية هي علاقة أودو

(١) ISIDORO PACENSE : *Chronicon*, C.58

CODERA, *Estudios árabes*, VII pp. 141 Sq. VIII pp. 115-118.

(٢) ISIDORO PACENSE : *Chronicon*, C. 58.

بالمسلمين ، وكيف أنه زوج ابنته لزعيم بربرى منهم لكى يأمنهم على بلاده .

فأما المسألة الأولى فسنناقشها عند عرضنا لأحداث المدونات اللاتينية عن عبد الرحمن جملة ، وأما المسألة الثانية فذات أهمية خاصة لنا هنا ، لأنها تلقى بعض الضوء على علاقات أودو بالمسلمين .

ونقطة الضعف فى هذه الرواية هى زعمها أن مونوسة قام بثورته تلك حين بلغته أخبار ما كان البربر فى إفريقية يقاسونه من مظالم العرب ، أى فى نفس الوقت الذى حدثت فيه الثورة البربرية التى فصلنا أمرها ، ولم تقع هذه الثورة إلا بعد حركة مونوسة بعشر سنوات . ومن هنا لا يستقيم كلام إيزيدور ، وربما استطعنا القول بأن مونوسة إنما وثب بالعرب لما كان من سوء معاملتهم البربر جملة فى الأندلس .

كان أودو دوق أقطانية ، بناء على هذه الرواية ، حليفا لمونوسة البربرى وحما له قبل أيام عبد الرحمن العافقى ، أى فى أيام غنبة وربما فى أيام السمع ، وربما كان هذا من أسباب هزيمة السمع عند طولوشة . ومما يؤيدنا فى هذا الظن أن غنبة ، حينما نهض بحملته التى نحن بصدددها ، اتجه نحو بلاد الدوق رأسا واستولى على قرقشونة ، ثم انحرف الى سبتمانية من جديد وسار نحو نيمه على ما روينا .

ولسنا نعلم — على أى الأحوال — ان كان مونوسة قد خرج مع غنبة وساهم فى هذه الحملة أو لم يخرج ، وإن كان انحراف الحملة عن بلاد الدوق يؤيد خروجه مع المسلمين . وليس بعيد أن يكون وجود مونوسة فى جيش غنبة هو السبب فى انصراف المسلمين عن بلاده ، وقد كانوا مستطيعين التوغل فيها والاستيلاء على كبار معاقلها .

ثم ان الدوق لم يسر لحرب المسلمين كما فعل يوم ساروا اليه يقودهم السمع بن مالك ، ولم يحاول أن يهاجمهم من خلف بعد أن تركوا بلادهم خلفهم وساروا مع نهر ردايه صعدا حتى قاربوا السين ، ولا يعلل ذلك إلا بأنه كان فى ذلك الحين صديقا مواليا لهم . وربما كانت هذه الصداقة هى مصدر الرواية الفرنجية التى تتهم الدوق بأنه استدعى العرب لغزو غالة لأنه كان فى خصومة مع قارله (شارل مارتل) صاحب الأمر فى الدولة الفرنجية اذ ذاك ^(١) .

والواقع أن أودو لم يكن اذ ذاك على وئام مع دولة الفرنجة ، وكان قارله ينفس عليه مكاتته ويود لو أزاله عن ولاية أقطانية (أكويتين) الغنية الواسعة ، وقد أوردت لنا الروايات اللاتينية أخبارا متفرقة عن عدااء الرجلين وما كان بينهما من خصومة . وليست هذه العداوة بالأمر الغريب ، فقد كان معظم الأشراف الاقطاعيين فى غالة يخافون قارله ويكرهونه ، وكان الكثيرون منهم — وفيهم أودو — فى حالة حرب معه ، وهذا هو السبب المعقول الذى دفع بأودو الى مصادقة المسلمين ومصاهرة واحد منهم هو مونوسة .

لم يقع انصراف غنبة عن أراضي الدوق اذن مصادفة ، وإنما كان أمرا طبيعيا أملت الظروف العامة ، فقد انصرف العرب عن أراضيهم لأنه كان حليفهم ، وربما كان هذا الحلف هو السبب فيما وفق اليه المسلمون من انتصارات فاقت كل ما كان منتظرا فى حملة غنبة .

(١) يقول إيزيدور :

Eudo Sarracenos in auxilium sui adscivit, qui venientes cum rege suo Abdirama transeunt Garonnem, Burdigalem usque perveniunt cuncta vastantes, ecclesias igne crematis, Pictavis basilicam Sancti Hilarii incendunt.

كوديرا ، ص ٢٠٦ .

ولم يستطع عنبسة إدراك الأندلس بعد هذه الغزوة الكبرى ١٠٠ - وفاة عنبسة
فقد داهمته في طريق العودة جموع كبيرة من الفرنج
التحست معه في موقعة أصيب أثناءها بجراح بالغة توفي على أثرها في
شعبان سنة ١٠٧ هـ / ديسمبر سنة ٧٢٥ م وقام بقيادة الجند الاسلامي
والعودة به إلى الأندلس قائد تسميه المراجع النصرانية Hodra أو Hodeyra
وهما صيغتان محرفتان لعذرة (١).

وعذرة هذا هو عذرة بن عبد الله الفهرى الذي خلف عنبسة
١٠١ - عذرة بن في ولاية الأندلس بدون تعيين من عامل إفريقية أو من مركز
عبد الله الفهرى الخلافة ، وقد ظل في الولاية سنتين وثلاثة أشهر (شوال
يواصل الغزو ١٠٧ هـ - ربيع الأول ١١٠ هـ / فبراير - مارس
سنة ٧٢٦ م - يونيو - يوليو سنة ٧٢٨ م) (٢).

(١) يذكر ابن عذاري (البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٦) وابن الأثير (ج ٥ ، ص
٣٧٣) أن عنبسة مات حتف أنفه ولم يستشهد . وقد أورد المقرئ روايات مضطربة كثيرة نقلها عن
ابن حيان والرازي يفهم منها أنه توفي مستشهدا (المقرئ : نفح ، ج ٢ ، ص ٩) ورواية إيزيلور
الباجي غير واضحة ، لأنه يذكر أن عنبسة توفي ، فقام أحد قواده وهو Hodera (عذرة) بقيادة
الجند والعودة بهم إلى وطنهم (الأندلس) ، وأن عنبسة أوصى له بذلك قبل وفاته :

... Qui dum rabidus pervolat, morte propria vitae terminum parat : atque Hodera
consulem patriae sibi commissa vel principem exercitus repedantis, vel quasi
refraenantis, in extremo vitae positus ordinat (c. 53).

بيد أن الكثيرين من مؤرخي غالة يشيرون إلى هذه الموقعة التي استشهد فيها عنبسة وقوام
عذرة (الذي يسموه في بعض الأحيان Hodeyra) بجمع شتات الجنود والعودة بهم إلى الأندلس ،
وقد أخذنا بروايتهم لأنهم أدري بمجاذب تاريخ بلادهم ، ولم يكن لنا عن ذلك مفر أمام صمت
الرواية العربية .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

ولا تنسب الرواية الاسلامية الى عذرة أى عمل حربي في غالة ، ولكن
الرواية النصرانية تذكر أعمالا جريية خطيرة قام بها المسلمون بعد مقتل
عنبسة مباشرة ، وحيث أن ولاية عذرة دامت سنتين وأشهرًا فلا بد أن
هذه الأعمال وقعت خلالها ، ويجمل رينو أخبار هذه الأعمال في قوله :
« .. وقد قتل (عنبسة) في إحدى غزواته سنة ٧٢٥ م . واضطر خليفته
عذرة الى قيادة الجيش في طريق العودة الى الحدود . ولم تلبث الحرب
أن استعرت من جديد في عنف ، ولما كانت أمداد كثيرة قد أقبلت من
الأندلس ، فقد نهض قادة المسلمين ، وقد شجعتهم المقاومة القليلة التي
صادفوها ، وأخذوا يرسلون الحملات في كل وجه . ويقول مؤرخ
عربي أن رياح الاسلام أخذت تهب على النصرانية من كل ناحية ،
فاقتحم المسلمون سبتانية مرة أخرى وعادوا الى حوض الرون وغزوا
بلاد الألبين (Les Albegeois) واقليم رويرج (Le Rouergue) وچيفودان
(Gévaudan) وليفلييه (Levelay) ونهبوها نهبًا ذريعًا ،
وأدت النيران على ما أغفلته سيوف العرب ، حتى لقد استنكر الكثيرون
من الفاتحين أنفسهم هذا الاسراف في أعمال العنف » (١) .

ولسنا نستطيع تحقيق ذلك على وجهه الصحيح ، وإن كنا نقبل
ما تذكره الروايات اللاتينية عن الأعمال التي وقعت أثناء ولاية عذرة
لأن عبد الرحمن العافقي حينما تولى وجد المسلمين في حانة طيبة في غالة ،
ولو كان أمرهم وقف عندما انتهت اليه أعمال عنبسة وهو الرجوع الى
الأندلس ، لما استطاع عبد الرحمن العافقي أن يقوم بالعمل الكبير الذي
قام به .

(١) REINAUD, *Invasions* ... 23.

ولم يشتر رينو إلى مرابطته التي استند إليها في ذلك .

وتضيف الروايات النصرانية أخباراً كثيرة عن أعمال العرب في غالة خلال هذه الفترة التي تتحدث عنها وهي التي انقضت بين موت عنبسة وقدوم عبد الرحمن الغافقى ، وهذه الأخبار ملأى بالمبالغات عما تسميه مساءات العرب أو مظالمهم التي أنزلوها بأهل هذه النواحي ، ونحن نورد طرفاً منها على سبيل استكمال الأخبار عن أعمال المسلمين الحربية في غالة .

تذكر هذه الروايات أن المسلمين خربوا كنيسة رودس (Rhodès) الكبيرة وعاثوا فيها أى عيث ، واستقروا في حصن قريب من موضع روكيريف الحالى (Roqueprive) ^(١) . رانضم اليهم نفر من أهل هذه النواحي وساروا معهم يغزون في كل وجه ، ويحكي المؤرخون في هذه المناسبة قصة شاب يسمى داتوس أو دادون أظهر بطولة كبيرة في محاربة العرب وردهم عن ناحيته ^(٢) .

(١) ويجعلها بعضهم في موقع بالاجيه (Balaguier)

REINAUD, Op. cit. p. 23.

والمراجع المعطاة .

(٢) أوردها الحكاية الثامنة ERMOLDUS NIGELLUS في نص قصيدة لاتينية نشرها برتس

M. PERTZ : *Monumenta Germaniae Historiae*, II, p. 466 Sqq.

وتبدأ قصة دادون في البيت السابع بعد المائتين من أبياتها ، ووردت إشارة إليها في كتاب « غالة المسيحية » Gallia Christiana ج ١ ، ص ٢٣٦ ، وقد لخصها رينو في كتابه عن غزوات العرب في غالة كما يلي :

كان دادون شاباً صغيراً من قرية كونك (Conques) في إقليم رويرج (Rouergue) عندما اقتحم المسلمون هذه الناحية ، فحمل السلاح وخرج لقتالهم مع غيره من رجال ناحيته ، فبينما هوى بعض مطارداته للغزاة بعيداً عن قريته ، دهمها المسلمون ونهبوا بيته وأخذوا أمه أسيرة وأدخلوها في حصنهم . فلما عاد دادون وسمع الخبر حمل سلاحه ونفى إلى الحصن يريد اقتحامه ، ويخبر منه المسلمون خلف أسوارهم ، وقال له بعضهم : « إذا أردت أن نردك أمك فأعطنا الحصان الذى تمتطيه وإلا نجتجأ أمك أمام عينيك » ، فرفض دادون أن يجيبهم إلى ما طلبوا . فنجحوا أمه ورموا

ويغلب على الظن أنه في خلال هذه الفترة — أى بين سنتي ٧٣٥ و ٧٣٠ م (١٠٧ — ١١٢ هـ) — قام المسلمون بالغزوات التي تنسبها اليهم الروايات النصرانية في أقاليم دوفينه (Dauphiné) وليون وبورجونيا (Bourgogne) . ولا تذكر مراجعنا العربية عن ذلك شيئاً على الإطلاق في حين تختلف المراجع النصرانية فيما بينها اختلافاً بيناً بشأنها . فأما المقرئ فيذكر : « ان الله ألهم الرعب في قلوب النصارى ، ولم يعد أحد منهم ليظهر الا ليستأمن . فاستولى العرب على البلاد ومنحوا الأمان لمن أراد ، وساروا مصعدين حتى وصلوا حوض الردانة ، وهناك ابتعدوا عن الشاطئ وتوغلوا داخل البلاد » .

ولم يذكر لنا المقرئ البلاد التي وصلوا إليها حينما توغلوا في غالة هذه المرة ، ويقول رينو في تفسير عبارة المقرئ تلك : « ولا نستطيع تعرف المواقع التي وصل إليها العرب الا بما خلفوه وراءهم من التخريب في النواحي التي وصلوا إليها ، ففيما يحيط بشين (Vienne) وعلى ضفاف الرون تحولت الكنائس والأديرة كلها الى خرائب ، وكذلك تخربت كنائس لودون (Lyon) ونهبت ماكون وشالون على الساءون ، وتعرضت بون (Beaune) لتخريب ذريع ، وأشعلت النيران في كنيسة سان نازير (Saint Nazaire) وسان چان في أوتون ، وهدم دير سان مارتان (Saint-Martin) خارج البلدة ، ونهبت كنيسة سان أندوش (Saint-Andoche)

== إليه برأسها ، فبلغ من رعب الفتى وحزنه أن ذهب فترهب في ناحية على ضفاف نهر الدوردون (Dourdon) وقد أنشئ فيما بعد في مكان ترهبه دير كونك (Conques)

وقد أوردنا هذه الحكاية كنموذج لما كتبه مؤرخو غالة النصارى عن المسلمين في هذه الفترة . وقد أورد رينو قصة أخرى من هذا الطراز يذهب رواة النصارى إلى أنها حدثت في هذه المناسبة .

cf : REINAUD : *Invasions ...* pp. 26-29.

Gallia Christiana : II, p. 468.

في سوليو (Saulieu) وعلى مقربة من ديجون هدم العرب كنيسة بيز (Béze) ^(١).

ولم تشر المراجع التي أشار إليها رينو إلى أن العرب هم الذين خربوا النواحي التي ذكرها كلها ، وإنما هو الذي جعل دأبه — كلما وجد ديرا قد احترق أو كنيسة تخربت في هذه المدة — نسبة ذلك إلى المسلمين ، مع علمه بأن العصر كله كان عصر اضطراب وحروب بين التصاري فيما بين بعضهم وبعض في هذه الجهات من غالة على وجه الخصوص ، ومع علمه بأن كلوقس نفسه أنزل بالكنائس والأديرة في جنوبي غالة وفي بوجونيا وفي أقطانية من التخريب والأضرار ما فاق كل وصف . وليس من المعقول أن المسلمين لم يكن لهم هم في غاراتهم في غالة إلا تخريب الكنائس والأديرة واشعال النار في المدن ، فقد فتحوا قبل ذلك مصر وأفريقية والأندلس وهي كلها غاصة بالكنائس والأديرة وما إليها من المؤسسات النصرانية فلم يحرقوا ولم يخربوا ، فمن عجب أن يتقلب حالهم إذا عبروا إلى غالة فيتحولوا إلى برايرة مخربين لا يكادون يبقون على شيء !

الواقع أن هذا الكلام لا يقوله مؤرخ جاد يقدر معنى ما يقول . فليس من الجد في شيء أن يقال أن العرب لم يفعلوا في غالة غير تخريب الكنائس وحرق الأديرة ، والثابت المعروف عنهم أنهم لم يخربوا كنيسة أو يحرقوا ديرا . وإذا نحن قارنا المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غالة في ذلك الحين ، من فرنجة وقوط غربيين وقوط شرقيين وبرغنديين

(١) REINAUD, Op. cit. pp. 29-30. ومراجعته هي :

Gallia Christiana IV. pp. 51. 450-860-1042.

Chronicon Moissiacense dans Hist. des Gaules, II, 655.

DOM PLANCHER : Histoire de Bourgogne, I. p. VII.

ومن اليهم ، لتبيننا أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب . ومهما بحثنا في حويلات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث في غالة خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي رجالا نستطيع أن نقارنهم بالسمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم أو عبد الرحمن الغافقي .

ويلاحظ رينو الملاحظة التالية : « .. ان غارات العرب هذه التي يجمع الناس على أنها لا بد أن تكون قد امتدت إلى أبعد مما ذكرنا ^(١)

(١) يقول رينو : يذهب بعضهم أن العرب أرسلوا سرايا بلغت اللوار عند نيش (Nevers) من ناحية ، وبلغت فرانك كونتيه (Franche Comté) من ناحية أخرى . فإذا صدق هذا ، فلا بد أن يكونوا خربوا دير القديس كولومبان (Saint Colomban) في نيش ، ويذهب بعضهم كذلك أنهم قتلوا معظم رجال الدين والرهبان في بيزانسون (Besançon) . وهذه المزاعم ليست بعيدة عن التصديق ، خصوصاً فيما يتصل بفرانك كونتيه حيث لا زال كثير من المواضع يحمل اسم سارازان (Sarrazin) . ويقال كذلك إن كنيسة لوكسيل (Luxeuil) هدمت وهي في سفح نفوج (Vosges) وبذبح رجالها وعلى رأسهم القديس ملان (Mellin)

cf : P. LECOINTE, Annales Ecclesiastici Francorum. IV pp. 728 Sq.

795 Sq.

MABILLON, Annales Benedictini, II. p. 88

MABILLON, Acta Sanctorum Benedicti II, 1ère partie pp. 527 Sq.

وتذهب هذه المراجع إلى أن العرب لم يجدوا مقاومة جدية إلا عند بلدة صانص (Sens) إذ أن أسقفها (Ebbes) أو (Ebbon) تصدى لهم ، وجمع نفرا من أهل البلد وهجم بهم على المسلمين ، وألقى نارا على آلات حصارهم ففتروا . وكان هذا الرجل قبل ذلك فارساً وكوئدا لبلدة تونير (Touner) ثم تهرب ورسخته الكنيسة قديماً فيما بعد .

ولا تذكر هذه النصوص المسلمين ولا تشير إلى أنهم هم الذين قاموا بهذه الأعمال ، ولكنها تقول إن الوند (Vandes) والوندال (Vandali) والجنثال (Gandali) هم الذين كانوا يخربون ، فجاء مؤرخو الكنيسة فقالوا إن المراد بهذه الألفاظ هم المسلمون ، وتابعهم رينو وغيره من المؤرخين المحدثين في ذلك ، وهو متحفظ لا معنى له وبخاصة أن هذه التسميات أطلقت فيما بعد على المجريين الذين أغاروا على هذه النواحي وخربوها على أيام قارله وبيبين وشرلمان . وقد عاد رينو فتشكك في أن المسلمين هم الذين قاموا بذلك .

انظر كتابه الآنف الذكر ، ص ٣١ - ٣٢ .

— تمت جميعها دون خطة مقررة من قبل ، ومع هذا فلم تلق الا مقاومة ضئيلة جدا ، مما يدلنا على الحالة السيئة التي كانت تسود فرنسا في ذلك الحين وعلى عدم وجود أية حكومة ترعى شئونها . ولكننا اذا قارناها بما حدث في اسبانيا قبل ذلك بسنوات ، لتبين لنا أنه لم يحدث في أى موضع أن وجد الفاتح اقبالا من أهل البلاد ، اذا استثنينا بضعة أشخاص بلا دين أو وطن ، ولم يحدث أبدا في أى مكان أن اتفقت معهم جماعة لها قيمتها من السكان ، وحتى في المدن مثل أربونة وقرقشونة — حيث استقر العرب بصورة ثابتة — ظلت جماعة السكان على اخلاصها للنصرانية (١) .

وهذا أيضا كلام لا قيمة له من الناحية التاريخية ، فأى سند استند اليه هذا الباحث الفرنسى ليقول ذلك ؟ وما معنى القول بأن أحدا من سكان البلاد لم ينضم الى المسلمين ؟ ومن الثابت أن منطقة جبال البرت كلها ونواحي بسكايه وسبتمانية كانت تسكنها جماعات بدائية لم تستقر بعد على دين ولم تفهم بعد معنى الوطن ، بل لم يكن الفرنجة أنفسهم ، أصحاب الأمر في غالة ، ليأخذوا الدين مأخذ الجد أو يشعروا بشعور « وطنى » نحو غالة . وأنى يكون ذلك وغالة كلها كانت في دور التكون ، لم تصبح بعد « وطنا » يتعصب له أحد ؟ وأيسر دليل على مغالطة رينو وأمثاله هو أن أولئك الذين يزعم أنهم لم ينضسوا الى المسلمين ولم يؤيدوهم هم الذين أنزلوا بمؤخرة جيش شرلمان الفرنجى المسيحى مذبحه رنشفالة ومأساة رولان بعد ذلك بأكثر من قرن .

وكان كبار رجال غالة في حالة لا تمكنهم من النهوض لحرب المسلمين

(١) رينو : نفس المرجع ، ص ٣٢ .

فأما أودو فقد ركن الى السكون ولم يجرؤ على الخروج لملاقاتهم بعد الذى رأى من قوتهم ، ولم يجرؤ كذلك على طلب المعاونة من قارله لأن العلاقات بينهما لم تكن على ما يرام ، وأما قارله فكان مشغولا بحرب الفريزيين سكان اقليم فريزيا الذى يعرف اليوم بالنورمندى والباقاريين والسكسون غربى نهر الرين ، وكانوا يهددون نوستراسيا — قلب بلاد غربى الرين — بخطر داهم اذا ما عبروا الرين ، ولهذا لم ينهض قارله للملاقاة المسلمين حينما غزوا بورجونيا ، وكانت اذ ذاك داخلة في طاعته .

لم تكن هذه الأحداث التى ذكرناها في ولاية عذرة بن عبد الله الفهرى أعمالا عسكرية منظمة يمكن ادراجها في سلسلة الغزوات المنظمة التى قام بها ولاية الأندلس في غالة ، وانما كانت نشاطا عاما قام به المسلمون الذين استقروا في سبتمانية وقاعدتها أربونة ، وبعض قواعد جنوبى غالة مثل طولوشة وطرسونة .

أما سلسلة الفتوح فتتصل من جديد عندما يتولى الأمر عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقى سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م .

١٠٢-عبد الرحمن لا نزاع في أن عبد الرحمن الغافقى كان أقدر قائد النافق عسكرى عرفته الأندلس في عصر الولاة . ومن المؤسف أن أخباره لدينا قليلة جدا لا تتناسب مع الدور الكبير الذى قام به في تاريخ الاسلام . ويبدو أن كارثة بلاط الشهداء التى ختمت حياة الغافقى كانت آليمة الوقع عند مؤرخينا ، فأوجزوا الكلام عنها قدر الطاقة ، وأصاب الايجاز سيرة عبد الرحمن ، فتعمدوا الاكتفاء بمجرد الإشارة اليه مع عظيم تقديرهم له .

كان عبد الرحمن جندياً أندلسياً ، قضى أحسن أيامه عاملاً في جيوش المسلمين المغازية فيما وراء البرتات . ويفهم من اجماع عرب الأندلس على تقديره أنه كان سليماً من نزعة العصبية التي ابتلى بها غيره ، ومن دلائل ذلك أن عبيدة بن عبد الرحمن القيسي عامل إفريقية المتعصب لقيسيته أقامه على الأندلس وهو يمني من غافق . وقد أورد ابن عبد الحكم رواية يفهم منها أن الرجل كان مسلماً سليم الإيمان حريصاً على أصول الشريعة لا يخفل في سبيل ذلك بغضب من ييدهم الأمر . يقول ابن عبد الحكم ، بعد الكلام عن إحدى غزوات عبد الرحمن : « .. وكان فيما أصاب رجل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم ذلك في المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة (بن عبد الرحمن القيسي عامل إفريقية) فغضب غضباً شديداً ، وكتب إليه كتاباً يتوعده فيه ، فكتب إليه عبد الرحمن : « ان السموات والأرض لو كانتا رتقا لجلع الرحمن للمتقين منها مخرجاً . ثم خرج اليهم أيضاً غازياً ، فاستشهد وعامة أصحابه » (١) .

وهذه هي الإشارة العربية الوحيدة التي تدل على ناحية من خلق عبد الرحمن . ويصفه إيزيدور الباجي بأنه كان رجلاً نشيطاً غنياً قاسياً ، لا يبالي أن ينزل بالنصارى أقصى المظالم وأشد ألوان الاضطهاد والتخريب والقسوة (٢) . ولا تضيف النصوص اللاتينية الأخرى إلى أوصافه هذه شيئاً ، وإن كانت جميعها تتحدث عن شجاعته النادرة ومقدرته الحربية العظيمة . ولو أمدت المراجع العربية بأخبار مفصلة لاستطعنا

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١١٧ .

(٢) إيزيدور الباجي : فقرات ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ .

وانظر أيضاً ، ابن الفريسي : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٥٨٤ .

تعرف مكان هذه الروايات النصرانية من الصحة ، ولكنها أقدم ما بين أيدينا وأكثره تفصيلاً ، ولا مندوحة لنا عن الاعتماد عليها إلى حد كبير .

وكان عبد الرحمن جندياً من طراز آخر غير طراز غنيسة ، وإذا كنا قد قلنا أن هذا الأخير كان من طراز عقبة ، أي من الذين تستهويهم الغارات البعيدة المدى والضربات المدوية ، فلنقل عن عبد الرحمن الدافقي أنه كان من طراز حسان بن النعمان ، من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر ، فيعمدون إلى مراكز المقاومة الفعلية ويهاجمونها لكي يتم الفتح وتدخل البلاد في حوزة الاسلام .

عبر عبد الرحمن البرتات في أوائل سنة ١١٤ هـ / ربيع سنة ٧٣٢ م . ولسنا نعلم على وجه التحقيق عدة الجيش ١٠٣ - خروج عبد الرحمن للفزو ، الذي كان معه ، فأما المراجع النصرانية فتزعم أنه كان يقود أوائل سنة ١١٤ هـ / ربيع سنة ٧٣٢ م . أربع مائة ألف مقاتل في حين تكتفى الرواية الاسلامية بتحديد عدة الجيش بعدد يتراوح بين سبعين ألف ومائة ألف . وليس لدينا ما يوضح هذا الأمر ، لأننا لا نستطيع قبول أي الرقمين ، وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن عدة الجيش لم تكن لتزيد عن سبعين ألفاً على أي حال ، وأن جل هؤلاء كان من البربر ، لأن الكثيرين من عرب إفريقية والأندلس كانوا إذ ذاك في شغل بما انصرفوا إليه من المنازعات العصبية من ناحية ، ومن الاستقرار في القرى والاشتغال بالزراعة من ناحية أخرى . ونستطيع أن نقول كذلك أن معظم هؤلاء كانوا يمينيين ، لأن عبد الرحمن الدافقي كان يمينياً ، ولأن غالبية سكان نواحي إقليم سرقسطة كانوا يمينية ، ومنهم كانت غالبية العرب المحاربين في ناحية البرتات وما يليها .

وكانت مصلحة المسلمين تقتضى الاستمرار على صداقة أودو لكي يكون لهم عوناً على حرب الفرنجة والخلاص منهم ، ولم يكن ذلك بالعسير لو كان عبد الرحمن العافقى سياسياً كما كان قائداً ممتازاً ، فقد وصل المسلمون الى قرب السين ، وكان على خليفة عنبسة أن يكمل عمله ، فيمضى بالمسلمين الى قلب الدولة الفرنجية . ولكن حركة مونوسة ^(١) أفسدت الأمر كله . وقد رأينا أنه من العسير أن نتعرف أسباب الجفوة التي طرأت بينه وبين عبد الرحمن ، وإن كان من الممكن ردها الى ما كان بين العرب عامة والبربر عامة اذ ذاك من التحاسد والتباغض ، وبما كان في خلق عبد الرحمن نفسه من الصلابة والاستقامة ، مما لا يستبعد معه أن يكون قد كره هذه الصداقة المتصلة وذلك العهد المتين بين مونوسة وأودو .

وعلى أى الأحوال ، كانت ثورة مونوسة ونهوض عبد الرحمن للقضاء عليها من أسباب فشل عبد الرحمن في حملته الكبرى على غالة ، فقد غضب الدوق لما أصاب صهره وتوقع الشر من ناحية العرب وبدأ يظهر الجفوة نحوهم ، فلم تعد لهم مندوحة من حربه أولاً ، ولهذا اتجه عبد الرحمن بقواته الى عواصم أقطانية ففتحها كما سنرى ، وفر من بقى من جند الدوقية الى الشمال وأخذوا يستنجدون ملك الفرنجة ، وانضمت قواتهم الى قواته فكثرت جمع النصارى أمام المسلمين ، هذا الى أن الحرب بين مونوسة وعبد الرحمن كانت حرباً بين البربر والعرب في حقيقة الأمر ، وسنرى أن نفوس العرب والبربر لم تكن متفقة في هذه

(١) راجع عنه :

ISIDORO PACENSE. C. 6r.

RODRIGO XIMENEZ DE RADA, p. 12.

الحملة كما كانت فيما سبقها ، وسيكون لهذا أثره البالغ في هزيمة « بلاط الشهداء » التي سنفصل أمرها .

جمع عبد الرحمن جنده في بنبلونة ، واحتفل في اعداد حملته هذه احتفالاً عظيماً ، لأنه كان يرجو أن يكون فتح غالة على يديه . ثم اخترق بجنده جبال البرت في أوائل صيف سنة ٧٣٢ م من ممرات روتشفالة التي ستشهد مأساة رولان بعد ذلك بسنوات ، أى أنه لم يسلك الطريق المألوف الذى سار فيه العرب الى ذلك الحين : طريق ساحل البحر الأبيض الذى يفضى الى سبتمانية وحوض الرون ، بل طريقاً في وسط الجبال يفضى الى قلب دوقية أقطانية مباشرة . فلما أفضى الى غالة اتجه أول الأمر نحو وادى الردانه لكي يمهّد أمره ويحمي ظهره قبل أن يتجه الى دوقية أقطانية في الغرب ، ويقال ان سبب اتجاهه الى وادى الردانة

١٠٤ - فتح آرل خروج مدينة آرل (Arelatum) عن الطاعة وتوقف أهلها عن دفع الجزية ، فهاجمها واستولى عليها بعد معركة عنيفة ^(١) . فلما تم له ذلك وأمن ظهره توجه بجموعه نحو الغرب ليهاجم دوقية أقطانية (أكويتين) . وكانت هذه تتكون من عدد من الكونتيات أكبرها غسقونية وتمتد من جبال البرتات الى حدود اللوار في الشمال ، ومن نهير الألب في الشرق الى خليج بسكاية في الغرب ، وكانت تعد أعظم امارات غالة بعد المملكة الفرنجية التي كانت تصاقبها على حدودها الشمالية مباشرة .

(١) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، ص ٨٦ .

١٠٥- الاستيلاء الدوق بقواته لكي يوقف تقدمه ، ولقيه على ضفاف
على يردال (بورديو) الدوردونى (Dordonia) على مقربة من ملتقاء البحارون
(Garona) فانهزم هزيمة قاصمة فقد فيها عددا عظيما من
فرسانه وفر هاربا (١) ، وتقهقر أمام المسلمين نحو الشمال تاركا لهم
عاصمته بردال ، فدخلوها ونهبوها نهباً ذريعاً (٢) ، فلما فرغوا منها
انساحوا في البسائط هناك يفتحون كل ما صادفهم ، فلما امتلأت أيديهم
من الغنائم تقدموا نحو اللوار ، وكانت وجهتهم هذه المرة مدينة تور
ثانية مدائن الدوقية على نهر اللوار وفيها كنيسة سان مارتان ، وكانت
لها اذ ذاك شهرة ذائعة في الآفاق ، فاقتحموا البلد وخرّبوا كنيسها (٣).

(١) ISIDORO PACENSE. *Chronicon*. C. 95.

ويبدو أن عدد القتلى من جيش أودو كان عظيماً ، لأن إيزيدور يقول :

"Deus numerum morientium vel pereuntium recognoscat".

(٢) DOM VAISSETTE, *Op. cit.* I. p. 795.

(٣) "Tunc Abderraman suprafatum Eudonem Ducem insequens, dum

Turonensem ecclesiam, palatia diruendo et ecclesias ustulando depraedari desiderat"

ISIDORO PACENSE, *Op. cit.* c. 59.

ولم يذكر إيزيدور اسم كنيسة القديس مارتين (سانكتوس مارتينوس) التي ذكرناها في النص ،
ولكن رودريغيث خيمينيث ذكر أن العرب خربوا كنيسة البلد الرئيسية

Turonis civitatem, ecclesiam et palatia vastatione et incendio simili diruit et consumpsit.

cf : RODERIGUEZ JIMENEZ, 12-13.

أما صاحب ذيل تاريخ فريجيدياريوس فيقول :

... Ad domum beatissimi Martini evertendam destinant

أي أنه يقول إن العرب أرادوا فقط تخريب الكنيسة ولم يفعلوا :

Scalastici Fregedarii Continuatio II

هنالك أسرع أودو الى قارله (شارل مارتل) يستنجد به ،
١٠٦- أودو يستنجد إذ وجد نفسه مضطراً الى مصالحته ، وبهذا توحدت قوى
بشارل مارتل النصرانية في غالة للوقوف في وجه المسلمين . ورحب قارله
بالفرصة ، لأنه كان تواقاً الى بسط نفوذه على أكويتين وأراضيهما
الواسعة ، ولأنه كان قد استشعر الخطر الاسلامي منذ حين ، فقد غزا
المسلمون منذ عام فقط بورجونيا وهي داخلة في بلاده وصعدوا حتى
قاربوا اللوار . وقد عرف قارله كيف يأخذ للأمر عدته ، فجعل يجمع
الجند والفرسان من كل ناحية ، ولم يدخر جهداً في ذلك ، فقد كان
الخطر في هذه المرة واضحاً جلياً ، ويبدو أنه لم يكتف بمن كان عنده
من الجند في غالة ، فبعث يستقدم جنداً من حدود الرين من نواحي
أوستراسيا ، فأنته نجدات من جنود أجلاف أقوياء يحاربون شبه عراة
في مثل هذا الجو البارد ، ويصفهم ايزيدور بأن أيديهم كانت حديدية
ترسل ضرباتها القاصمة في سرعة وقوة ، وبهذا اجتمع لقارله جيش قوى
قدير على الثبات للعرب ومنازلتهم (١) .

وينبغي أن نضيف هنا أن الفرنجة السالين أنفسهم — ومنهم كان
معظم جند قارله — كانوا قوماً بدويين أشداء لا يقلون عن العرب
صلابة ولا شجاعة ، فقد مهدوا بحراهم وصدورهم غالة كلها وغابوا
البرغنديين والقوط الغربيين وبقايا الرومان في غالة وغلبوا السكسون
عدة مرات وما زالوا بهم حتى كسروا شرهم ، وانصاعت لهم جماعات

(١) Ubi dum penè per septem dies utrique de pagnac conflictu excruciant, sese postremo in aciem parant, atque dum acrite r'émicant gentes septentrionales in ictu oculi ut paries immoviles permanentes. sicut et Zona rigoris glacialiter manent adstrictae, Arabes gladio enecant".

ISID.PAC. *Op. cit.* c. 59

كثيرة من المتبريرين كالسويث والآلان ، وكان مثلهم في ذلك الحين في صعود ، اذ كان قارله حاجب الملوك الميروفنجيين ، وكان أبوه يبين قد استولى على السلطان منهم ، وخلفه قارله واعيا لهذا المطلب البعيد وهو ازالة الميروفنجيين عن الملك والحلول محلهم . وكان سياسيا قادرا ومحاربا ماهرا ، استطاع أن يجمع الناس حوله بالقوة تارة وبالساسة تارة أخرى ، واجتمعت له قوات ظل يرقب بها الحوادث ، فلما بلغته أنباء الغزو العربي شعر ألا مندوحة له عن اتخاذ الأهبة ، ثم أقبل خصمه أودو يستغيث به فلبى النداء وأسرع للقاء المسلمين بنفس مشرّبة للظفر وجنود متطلعة للقتال (١) .

١٠٧- المعسكر وكان المعسكر العربي في مثل هذه الحال من التوفر وعلو الإسلام قبيل الحالة المعنوية : لم يكن ينقص المقاتلين الايمان ولم تكن المعركة الخيرة لتعوز القيادة ، ولكن أمورا أخرى كانت تقل من عزيمة الجيش وتقلل من أمله في الظفر .

أول هذه الأمور أن العرب بعدوا مسافات شاسعة جدا عن مركز الدولة الاسلامية (٢) . ويكفي أن يتصور الانسان المسافة بين دمشق وجبل طارق ، وبين جبل طارق ونهر اللوار ليعلم أن الجيوش الاسلامية المحاربة في نواحي غالة كانت تقوم في الواقع بمغامرة أقرب الى قصص الأساطير منها الى حوادث التاريخ ، لأنها كانت في وضع لا تستطيع معه أن تحصل على امدادات من الجند أو العتاد من مركز الخلافة . ولم يكن في استطاعة هؤلاء المحاربين أن يحصلوا على امداد من عامل

GIBBON, Decline and Fall. II. p. 803

(١)

(٢) أشار جيبون إلى هذا البعد الشاسع إشارة لطيفة جدا .

انظر : اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها ، ج ٢ ، ص ٨٠٢ .

الأندلس في قرطبة ، لأن عددا عظيما من عرب الأندلس لم يستقروا في العاصمة بل تفرقوا في نواحي شبه الجزيرة وشغلوا بها الى حد كبير عن الحكومة المركزية . وقد رأينا فيما مر من الحديث أن عرب الأندلس هؤلاء كانوا في واقع الأمر جماعات متفرقة في النواحي لا يستطيع العامل استقدام أجناد منهم على عجل ، وكانت العصيات قد توزعتهم وفرقت بينهم ، فلم يعد من الميسور لعامل الأندلس أن يجمع قوات محترمة الا من بنى عصيته . وربما لم يكن لهذه النقطة الأخيرة أثر كبير في تكوين جيش عبد الرحمن ، لأنه كان في الواقع بعيدا عن نزعة العصية ، فاجتمعت اليه أعداد كبيرة من عرب الأندلس جميعا ، الا أن أثرها ظهر بعد مقتله ، فقد تفرق العرب واختلفوا فيما بينهم اختلافا شديدا أدى الى انسحابهم جملة ، ولو كانوا يدا واحدة لارتدوا بعد الهزيمة الى أقرب مركز لهم ليستجمعوا قواتهم من جديد كما فعلوا بعد الهزائم المتكررة التي جرت عليهم في افريقية .

ولنصف الى هذا ما كان بين العرب والبربر اذ ذاك من أسباب الخصومة ، وهي ظاهرة تاريخية ينبغي ألا يهمل حسابها في كل ما يتصل بتاريخ المغرب والأندلس حتى نهاية القرن الهجري الثاني ، وقد رأينا مثلا ثورة مونوسة وما جرت من وخيم العواقب ، وسنرى أثرها واضحا كذلك فيما أعقب موقعة البلاط . وكانت غالبية الجيش الاسلامي المقاتل في غالة من البربر ، وليست لدينا أية تفاصيل عن أعدادهم أو طوائفهم ، مما يحول بيننا وبين استجلاء حقيقة الموقف في المعسكر الاسلامي قبل المعركة الحاسمة .

ومسألة أخرى كانت تضعف الجيش الاسلامي وتقلل من أمله في الظفر ، هي الغنائم التي جمعها الغزاة المسلمون من النواحي التي مروا

بها قبل لقاء الفرنجة في الموقعة الفاصلة . وتتفق المراجع جميعا على أن الجيش الاسلامي كان يجبر وراءه قطارا عظيما محملا بالغنائم والأسلاب من كل صنف ، وربما بالغت المراجع النصرانية في وصف أعمال السلب والنهب التي قام بها المسلمون في نواحي غالة ، ولكن أكثر الأحكام اعتدالا في هذه الناحية يقرر أن المسلمين اجتمع لهم شيء عظيم جدا من أسلاب المدن وتحف الكنائس والقصور والحصون . ويبدو أن استمساك الجند بهذه المغانم كان عظيما ، لأنهم حملوها معهم حتى نهر اللوار ، ولو أحسنوا لبعثوا نفرا منهم ليودعها أربونة أو برشلونة حتى يطمئنا عليها وتخلو أيديهم للعمل المقبل ، ولكنهم كانوا أحرص عليها من أن يفارقوها ، بل سئروا أنهم كانوا أحرص عليها منهم على النصر والظفر ، فكان هذا الحرص في ذاته من أشد أسباب هزيمتهم ، لأن عدوهم استشعر هذا الحرص منهم وعرف كيف يستغله لصالحه .

ولسنا نعلم مكان الموقعة الفاصلة بين المسلمين والفرنجة ١٠٨ - مكان المعركة على وجه التحقيق : أغفلته الرواية الاسلامية فيما أغفلت ، وتركته الرواية النصرانية مبهما فذكرت أنها كانت الى شمال بيواتيه Pictavens في اتجاه تور ، أى على الطريق الرومانى القديم بين البلدين ، وتقول على « الطريق الرومانى » لأن اسم المكان كما تحدده الرواية العربية باسم « بلاط » الشهداء يفهم منه أنها وقعت على مقربة من قصر كبير « بلاط » (١) وربما كان أقرب الآراء الى الصحة في هذا الموضوع ما ذكره بروثسال من أن الموقعة كانت « على مقربة من طريق رومانى يصل شاتلرو (Chatellerault) بيواتيه ، على مسافة نحو

عشرين كيلو مترا من المدينة الأخيرة ، وربما كانت عند الموضع الذى يسمى اليوم (Moussais-la Bataille) (١) .

لم تقدم لنا الرواية الاسلامية الا اشارات عابرة مبتسرة ١٠٩ - معركة بلاط الشهداء عن هذه الموقعة الفاصلة . ولا يعلى هذا الاغفال الغريب بمجرد رغبة الرواة المسلمين في اخفاء معالم هذا الحادث المحزن ، لأن هؤلاء المؤرخين قدموا لنا تفاصيل طيبة عن هزائم أخرى نزلت بالاسلام على يد النصرانية ، كهزيمة الخندق ومأساة « العقاب » ، وكانت هذه الأخيرة أخطر من « بلاط الشهداء » وكانت مصيبة الاسلام فيها أعظم ، فكان اخفاء معالمها أولى ، فكيف اتفق أن كل ما تقدمه الرواية العربية عن هذه الموقعة لا يزيد في مجموعه على عشرين سطرا موزعة في نحو سبعة مراجع أو ثمانية ؟ بل كيف نجد نصوص هذه الروايات من الاضطراب بحيث يذهب ابن عذارى على دقة روايته الى أن الموقعة حدثت سنة ١١٥ هـ لا سنة ١١٤ ؟ (٢) بل كيف يذهب ابن خلدون الى أن قائد المسلمين الذى استشهد في هذه الموقعة لم يكن عبد الرحمن الغافقى وانما محمد بن عبيد الله بن الحجاب ، وهى شخصية لم نسمع بها الى الآن في حوادث الأندلس ؟ (٣) وكيف يذكر

(١) ظن الكثيرون أن المراد بلفظ « بلاط » طريق مبلط ، وترجمها النصارى الى pavé ، ولكن المراد بلفظ بلاط في الأندلس قصر أو حصن حوله حدائق تابعة له ، فيقولون « بلاط مغيث » و « بلاط الحر » و « بلاط يوسف » ويقصدون بذلك قصور أولئك الرجال ، واللفظ مشتق من palatum اللاتينية . وعلى هذا فيلاط الشهداء معناها في الواقع « قصر الشهداء » ، مما يفهم منه أن مكان الموقعة كان الى جوار قصر أو حصن كبير ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٤ ، ص ١١٩ .

المقرى في إحدى رواياته أن الواقعة حدثت أيام السمع بن مالك؟ (١) كيف يقع هذا التناقض كله وذلك الإهمال كله في وقعة مشهورة فريدة في بابها كوقعة البلاط مع أن نفس هذه المراجع أوردت لنا تفاصيل هزائم إسلامية أخرى حدثت في نفس الفترة على درجة كبيرة من الدقة والعناية، كما رأينا في هزيمة «يهود» و «الأشراف» اللتين مررنا بهما؟ ثم كيف نجد الرواية النصرانية لا تخطيء مرة واحدة في ذكر اسم القائد الإسلامي الذي خلط رواتنا الثقافات فيه هذا الخلط؟

الواقع أن المسألة لا تعلل إلا بشيء واحد: هو أن هزيمة المسلمين كانت من الشدة بحيث كان أوائل الرواة ينفرون حتى من مجرد ذكرها من فرط الألم والتشاؤم، فاندرجت أخبارها في مدارج النسيان وتعاقت عليها الأعصر فلم يبق في ذاكرة الرواة منها إلا أن أهل الإسلام قد هزموا في هذه الناحية هزيمة مروعة بين سنتي ١١٤ و ١١٥ هجرية.

والدلائل كلها تنطق بأن الهزيمة كانت مروعة حقا: أولها تسمية الموقعة ببلاط «الشهداء»، وهي تسمية يفهم منها أن عدد من استشهد فيها من المسلمين كان عظيما جدا. وثانيها أن المسلمين لم يحاولوا الاقتراب من اللوار بعد ذلك أبدا، ولو كانت هزيمتهم هناك سيرة لعادوا إلى المحاولة، ولو بقيت منهم بقية صالحة ما ترددت في العودة. وثالثها هذا الصمت الغريب الذي تسدله الرواية الإسلامية على الموقعة. ورابعها هذا الاجماع على فداحة خسارة المسلمين الذي نجده عند المؤرخين النصراني في هذا الموقف، فضلا عن مؤرخنا الأول ابن حيان

(١) ابن حيان في المقرى: نفع، ج ٢، ص ٥٦.

الذي لا تدع روايته مجالا إلى الشك في مصاب المسلمين في هذه الموقعة (١).

ولا مندوحة لنا عن الاعتماد على المراجع النصرانية في وصف هذه المعركة الخطيرة، وينبغي أن ننبه إلى أن أقدم هذه المراجع — وهما المدوتان المنسوبة أولاهما إلى ايزيدور الباجي وثانيتهما المنسوبة إلى بلده مواسياك (Moissiac) — قد كتبت أولاهما بعد الحادث بنيف وعشرين عاما وثانيتهما بعده بنحو قرن، ولم يزد ما كتبتهما معا عن الموقعة على بضعة أسطر، أما التفاصيل الكثيرة فترجع إلى مدونات متأخرة جدا تشوبها روح القصص والأساطير.

ونكتفي في وصف تطورات هذه الموقعة بما أورده عنها ايزيدور الباجي وصاحب مدونة مواسياك وپاولوس دياكونوس وصاحب ذيل فريجيديريوس الأول والثاني (٢).

(١) «... وذكر أنه — أي عبد الرحمن الغافق (ويذكر ابن حيان السمع بن مالك خطأ) — قتل في الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط، وكانت جنود الإفرنجية قد تكاثرت عليه، فأحاطت بالمسلمين، فلم ينج من المسلمين أحد. قال ابن حيان: فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن».

ابن حيان برواية المقرى في نفع الطيب، ج ١، ص ١٠٩.

ISIDORO PACENSE: *Chronicon*, cc. 58-59. 60. (٢)

Chronicon Moissiacense, p. 166.

PAULUS DIACONUS, *Ex Lib. VI.*

Scolastici Fregedarii. Continuatio, II, III, apud *Ajbar Machmua*, p. 168.

CODERA, *Op. cit.* pp. 118 Sqq.

REINAUD: *Op. cit.* p. 34 Sqq.

١١٠ - المعركة وقع اللقاء بين قارله وعبد الرحمن في الثاني عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢ م / أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ. وتدل التفاصيل التي لدينا على أن كلا من الفريقين كان يحس خطورة هذا الصراع الحاسم ، فلم يشتبك الجيشان في المعركة الحامية الا بعد بضعة أيام ظلا خلالها يتناوشان في اشتباكات محلية ، ثم اشتبكا بعد ذلك في قتال عنيف ، واجتهد الفرنجة ومن معهم من الألمان والسويش والسكسون في اختراق خطوط العرب يومين متتاليين دون نتيجة ، وقد بذلوا أقصى ما استطاعوا من جهد وهجم مشاتهم وفرسانهم على المسلمين هجوما عنيفا بالحرب ، ولكن هؤلاء تبتوا ثباتا فريدا ، بل بدا في بعض الأحيان - قرب مساء اليوم الثاني على الخصوص - أن المسلمين أخذوا يتفوقون على أعدائهم . ثم حدث بعد ذلك أن اندفعت فرقة من فرسان الفرنجة فاخترقت صفوف المسلمين في موضع ، وأفضت الى خلف الصفوف حيث كان المسلمون قد أودعوا غنائمهم ، وكانت شيئا عظيما جدا ، فريع الجند الاسلامي المحارب وخشى الكثيرون من أفرادهم أن يستولى عليها هؤلاء الفرنجة ، فالتفت بعضهم وعادوا الى الخلف ليلعبوا الأعداء عنها . وهنا اضطربت صفوف المسلمين واتسعت الشفرة التي نفذ منها الفرنجة ، فاندفعوا فيها في عنف وقوة زلزلت نظام القوات الاسلامية ، وحاول عبد الرحمن جهده أن يثبت جندة ويعيد نظامه أو يصرفه عن الهلع على الغنائم فلم يوفق ، بل أصابه سهم أودى بحياته ، وكان ذلك نذير الشؤم على جيوش المسلمين ، اذ انهال عليهم الفرنجة من كل جانب وحصدوهم حصدا . وصبر المسلمون حتى أقبل الليل ، فاتهمزوا فرصة الظلام وتسللوا متراجعين الى الجنوب على عجل ، وكان ذلك في العشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ).

وحينما أسفر الصبح نهض الفرنجة لمواصلة القتال ، فلم يجدوا من المسلمين أحدا ، وتقدموا على حذر من مضارب المسلمين ، فإذا هي خالية منهم وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات ، فظنوا أن في الأمر خدعة ، وترشوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينتهبوا ما فيه ، ولم يفكر أحد منهم في تتبع المسلمين ، اما لأنهم خافوا أن يكون العرب قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركا ، أو لأن قارله تبين ما نزل بالمسلمين ورأى أنه يستطيع العودة الى الشمال مطمئنا الى أنهم انصرفوا عنه وعن بلاده .

وسندع التعليق على هذه الموقعة وأهميتها الى أن نفرغ ١١١ - بعد من تتبع الجيش الاسلامي في أعقابها ، وليس لدينا مرجع المعركة عربى واحد نستطيع الاعتماد عليه في هذا الصدد .

ولا مفر لنا - هنا أيضا - من الاعتماد على الروايات النصرانية وحدها: اندفع المسلمون في تهقيرهم نحو الجنوب مسرعين ، واتجهت جموعهم نحو أربونة فمروا على مقربة من جيرييه (Guéret) وغزوا في طريقهم بلدة ليموزين وخربوا كنيسة سولنيك (Solignac) ، وحينما أحسوا أن أحدا من النصارى لا يتتبعهم تمهلوا في سيرهم ليستجمعوا صفوفهم من جديد . ويبدو أن فرقا منهم شردت عن الجيش فوقعت في أيدي النصارى ، ولدينا تفاصيل كثيرة من هذا النوع ، ولكنها جميعها غير ثابتة ولا محققة ، ولا نستطيع لهذا أن نتحدث عنها بأكثر من هذه الإشارة (١) .

وتزعم الروايات النصرانية أن خبر الهزيمة الاسلامية تردد في نواحي غالة الجنوبية واسپانيا الشمالية فتوالب أهلها بالمسلمين من كل ناحية ،

وتخطفوا فلول قواتهم المتراجعة . وليس لدينا على ذلك دليل ، وإن كان المعقول أن يطعم أهل هذه النواحي في المسلمين ، لأنهم مسلمون بل لأن قواتهم في غالة قد تفرقت بعد هذه المعركة ، فأسرع هؤلاء فيفدون من هذه الفرصة ، كما سيفعلون حينما ينقضون على مؤخرة جيش شلمان النصرانى بعد ذلك بسنوات (١) .

وكانت هزيمة « البلاط » سببا في تعجيل عبيدة بن عبد الرحمن بتولية عبد الملك بن قطن الفهرى ، ولسنا نعلم على وجه التحقيق إن كان عبد الملك قد قدم الأندلس من إفريقية أو كان من عربها المقيمين فيها ، ويغلب على الظن أنه كان من جند العرب في الأندلس ، واختاره عبيدة للولاية من بينهم ، لأننا نجد من أول الأمر في عصبة من الرجال يؤازرونه ويتعصبون له . وهو أمر لم يكن ليحدث لو أنه أتى من إفريقية ، خصوصا وأن المراجع لا تذكر أن جماعة من العرب انتقلت إلى الأندلس في ذلك الحين .

وكان أول ما اهتم به عبد الملك هو المسير إلى غالة لاقرار ١١٢ - عبد الملك أمر المسلمين فيها بعد موقعة البلاط وما تلاها ، وقد توجه ابن قطن الفهرى بنشاطه أول الأمر إلى نواحي شمالي الأندلس ، فهاجم يسير إلى غالة نواحي أرغون ونبره ، ثم عبر البرتات وأفضى إلى لانجدوك واهتم بتحسين المعازل التي كانت ما تزال في أيدي المسلمين . وكانت نواحي سبتمانية إذ ذاك في فوضى شاملة بسبب الحروب المتوالية وبسبب الاضطراب الذى نجم عن هزيمة البلاط وتقهقر

GREGOIRE DE TOURS dans RUINART, *De Gloria Confessorum*. p. (١)

934 et 1402.

REINAUD, *Op. cit.* p. 50

جيوش المسلمين ، وكان الظاهرون من أهلها قد انتهزوا فرصة تلاشى أمر الدوق أودو لكى يتوزعوا النواحي فيما بينهم ويعلموا أنفسهم أكثادا أو أدواقا بها ، واحتربوا فيما بينهم . وكانوا جميعا يكرهون أودو وقارله معا ، وخشوا أن تؤدى هزيمة المسلمين إلى وقوعهم تحت سلطان أحدهما ، فجعلوا يستعينون بالعرب المتحصنين في أربونة ، وتذكر المراجع منهم دوقا يسمى ماورنت (Maurontes) اتخذ لقب دوق مرسيلية وحالف جند المسلمين وطمع في السيادة على پروقانس كلها (١) .

وكان قارله مشغولا إذ ذاك بتقرير سلطانه في ولايتى بورجونيا وليون اللتين تم له فتحهما ، وكان المسلمون قد فتحوهما ثم تخلوا عنهما بعد الهزيمة وخلفوهما في فوضى شاملة ، فأقام قارله فيهما نفرا من المخلصين له يسمون Laudes (أى الخلاء) وفرض طاعته على أشرافهما . ثم اشتغل بعد ذلك بأمر أهل فريزيا (Frisii) ومضى لاختضاعهم وأنفق في ذلك وقتا ليس بالقصير . وأحب أن يضمن ولاء جنده فأطلق أيديهم في ذخائر الكنائس وأملاكها ، فأغضب بذلك القساوسة وعامة الناس . وكان جنده الفرنجة يعتبرون أنفسهم سادة البلاد المفتوحة ، وكان قارله يميز جنده على أهل غالة الأصليين ويحرم عليهم الزواج منهم ويلزمهم بالعيش بعيدا عنهم ، فأبغضه أهل جنوبى غالة ، وقرر حماسهم نحوه ، وهكذا خسر ولائهم (٢) ، وأعان ذلك العرب على الثبات في هذه النواحي ، بعد أن كان أمرهم قد تخرج

REINAUD, *Op. cit.* p. 52.

(١)

Gallia Christiana, I, p. 537. 544,600,620.

(٢)

REINAUD, *Op. cit.* pp. 53-54.

وتواتر عليهم ثواب الناس ، حتى غدوا كالمحصورين في أربونة وغيرها مما كان بيدهم من المعقل .

وكان قائد جند المسلمين في أربونة وغالة رجلا تسميه ١١٣ -المسلمين المراجع النصرانية بيوسف (Jussef) ، والغالب أنه يوسف يستعيدون آزل الفهرى الذى ستصير اليه ولاية الأندلس فيما بعد ، فاتحد مع ماورنت دوق مرسيلية (Massilia) ، وسار فعبر الردانه واستولى على آزل (Arelatum) وخربها وأطلق يد جنده فيما حولها حتى صارت قفرا خرابا بعد ذلك أربع سنين ، وتوغل بعد ذلك في يروفانس واستولى بعد حصار طويل على بلدة فرتا (Fretta) التى تسمى اليوم (Saint-Remi)

ثم توجه نحو أبنيون (Avenionum) واقتحمها على أهلها بعد ١١٤ -الاستيلاء أن دافعوا عنها دفاعا عنيفا ، وأفضت جيوش المسلمين الى على أبنيون نهير الديورانس (Durance) ووقفوا عند ذلك الحد بعد أن استعادوا بقيادة يوسف هذا جزءا عظيما مما كانوا قد فقدوه بعد وقعة البلاط ، وقد ثبتت قدم المسلمين في هذا الجزء أربع سنين لم يجرؤ خلالها أحد على منازعتهم السلطان فيه (١) .

Chronicon Moissiacense, p. 166.

(١)

Recueil des Historiens de France, II, p. 655

Fregedarii Scolastici Continuatio, dans Recueil des Historiens de France, op. cit. II p. 456.

ويسمى العرب في ذلك النص الإسماعيليين :

«Denuo rebellante gente validissima Ismahelitarum, irrumpenteque Rhodanum Fluvium...»

PAPON : Hist. de Provence, I, p. 85.

M. DE LAGOY : Description de quelques médailles inédites de Massilia (Aix, 1834) p. 23.

REINAUD, Op. cit. pp. 54-55.

وقد لبث قارله ساكنا أثناء ذلك كله ، ولم يفكر في المسير للقاء المسلمين مع نهمه الى الأرض وطمعه في توسيع سلطانه بأى سبيل ، وبدلا من ذلك أسرع الى أقطانية حينما بلغه موت أودو سنة ٧٣٥ م وأرغم ابنه على حلف يمين الولاء له . ولا يعلل انصرافه عن العرب وتجنبه لقاءهم الا بأنه قد ذاق مرارة الحرب معهم وعرف جلدتهم وقدرتهم فصار يتجنبهم ، وقد رأيناه يتخوف تتبعهم بعد موقعة البلاط مما يدل على أن تجربة « البلاط » لم تكن عسيرة على العرب وحدهم ، بل على قارله أيضا . وكان هو أعرف الناس بأنه لولا تفتنه الى خيلة مهاجمة معسكر الغنائم لما استطاع كسب معركة البلاط ، وقد كان يقود المسلمين فيها بطل من أبطالهم هو عبد الرحمن العاققى ، وهو جيش وحده .

١١٥ - إخضاع وكان عبد الملك بن قطن قد اطمأن الى جهده قائده في إمارات البرت أربونة ، فلم يتجشم عناء المسير نحو الردانه ، فوجه همه نحو امارات جبال البرت (١) ليكسر شرة أهلها ، وكانوا كما رأينا قوما جليين شديدي المراس قد ضروا على حروب الجبال والعصابات ولم يكن قد أخضعهم الى ذلك الحين أحد ، وقد لقي عبد الملك في الحروب معهم بلاء شديدا وهزموه في معركة كبيرة لا تذكر المراجع زمانها أو مكانها ، وكان بطبعه رجلا سبى السياسة عنيفا ظلوما ، فلم تلبث الشكوى منه أن وصلت الى افريقية واتصلت الى دمشق ، وانضافت الى ذلك هزيمته فجعلت بعزله . وكانت ولاية افريقية قد صارت الى

(١) لم تكن جبال البرت إذ ذاك فاصلا بين غالة وإيبيريا كما هي اليوم فاصل بين فرنسا وإسبانيا ، وأما قامت فيها إمارات تمتد على جانبي الجبال في غالة وإيبيريا ، وهذه الإمارات هي التويات التى نشأت حولها فيما بعد ممالك نبرة وأرجون .

عبيد الله بن الحبحاب ، فعجل بعزل عبد الملك وبعث على الأندلس مولاة عقبة بن الحجاج السلولى ، وكان أفضل من عبد الملك من كل وجه (١).

كان عقبة بطبعه رجلا مجاهدا ، مثله في ذلك مثل عبد الرحمن الغافقى ، وكان قد اختار ولاية الأندلس لأنها « موضع جهاد » كما قال (٢) ، وكان مسلما صلبا عادلا متفانيا في القيام بأعباء منصبه الجديد ، وكان عبد الملك قد أفسد الأمور وتفرأ أهل الأندلس ، عربا وغير عرب ، مسلمين وغير مسلمين ، فصرف عقبة همه الى اقرار الأمور واشاعة العدل في الناس ، ثم تجرد للغزو في شمالي الجزيرة ، وصرف همه أول الأمر نحو الثائرين في أشتريس : فلما أوفى على غايته في هذه الناحية انحدر الى الشرق ، فنزل سرقسطة وتوجه منها نحو البرتات وغالة .

وكان المسلمون بعد أن ثبتوا أقدامهم في پروقانس قد تحصنوا في المدائن الكبرى وحولوها الى رباطات ثم جعلوا يرقبون الحوادث . فلما أقبل اليهم عقبة بحماسة ورغبته في الجهاد نهضوا معه نحو ناحية الدوفينية (Dauphiné) واستولى عقبة على سان - پول - تروا -

(Saint-Paul-Trois-Châteaux) ودونزير (Donzaire)

وخربوها . ثم اتجه نحو الشمال في جراءة وحزم فاستولى على قالانس

(١) REINAUD : Op. cit. p. 55.

ويذكر رينو في نفس الموضع أن الخليفة أبى لعبد الملك ولاية الثغور الشمالية في الأندلس ومنطقة البرتات ، ولا نعرف المصدر الذي استقى منه هذا الكلام ، وكل ما نعرفه هو أن عبد الملك بقى في الأندلس بعد عزله وأنه كان يتمتع بمركز ممتاز بين الفينيين في الأندلس ، وقد ظل يذبر على عقبة حتى وثب به في أخريات أيام ولايته واسترد ولاية الأندلس من جديد كما نعلم .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٢٧ - ٢٨ .

وخرب جميع الكنائس المحيطة بفين (Vienne) ، وكان من معه من الجند ينتظرون هذه الفرصة بفارغ الصبر ليدركوا ثأر معركة « البلاط » ، فمضوا معه يشتدون لا يكادون يقابلون شيئا عامرا الا خربوه .

وصعد بهم عقبة مع ردايه حتى أعاد فتح اقليم بوجونيا ١١٧ - إعادة كله ، واستولى على ليون من جديد ، وامتد جناح فتح بوجونيا المسلمين الشرقي في اقليم دوفينية حتى وصل الى بيدمت في شمالي ايطاليا ، وبدا أن المسلمين مستعدون مراكزهم كلها في غالة عن قريب (١) .

هنا تحرك قارله للعمل من جديد ، وكانت حروبه مع أعدائه في شمال أوستراسيا وشرقها قد انتهت الى هدنة مؤقتة سنة ٧٣٧ م واستطاع التفرغ للسير نحو الجنوب ، فعجل بارسال أخيه شلدبراند (Childebrand) - ساعده الأيمن في كل حروبه - في جيش كثيف نحو أبنيون ، وكتب الى لويتبراند (Luitbrand) ملك اللومبارد في شمال ايطاليا يسأله المسير لمهاجمة جناح المسلمين الشرقي المتحصن في جبل بيدمت . وانحدر شلدبراند مع الرون حتى وصل أبنيون وبدأ حصارها ، وكان المسلمون قد أحكموا تحصينها فعجز الجيش الفرنجى عن اقتحامها ، واضطر قارله الى المسير بنفسه في جيش جديد ، وشدد الأخوان الحصار واستعانوا بالآله ، وتقدم لويتبراند في نفس الوقت وهاجم المسلمين عند بيدمت ، وأمام هذا الضغط الشديد لم يستطع المسلمون الاستمرار في الدفاع عن أبنيون ، ولكنهم لم يسلموا البلد

(١)

واستأثروا في الدفاع عنها حتى اقتحمها الفرنجة عليهم . ويصف صاحب ذيل مدونة فريجداريوس استيلاء قارله على البلد بقوله :

« ... وأحاط كارولوس (قارله) بالبلد وحاصر أسوارها حصاراً حديدياً (in modum Hierico) بجيش ضخم وأبواق ذات أصوات عالية وآلات حرب وأدوات مفزعة مركبة على الأسوار ، وحفرت حول الأسوار خنادق ، وتواترت على البلد جيوش جرارة فلم يلبث البلد أن سلم » (١) .

ثم تقدم الجيش الفرنجي نحو أربونة معقل العرب الرئيسي في غالة، وتذكر المراجع النصرانية أن قائده كان يسمى أثيمة (Athima) وربما كانت صحته « هرثمة » . وتذكر المدونات اللاتينية أن أمم البرت وثبت بالمسلمين من جديد وقطعت مواصلاتهم مع الأندلس ، فلم يبق للقوات الإسلامية في غالة إلا أن تتصل بمراكزها الرئيسية في إسبانيا عن طريق البحر ، فعجل عقبة بن الحجاج بإرسال مدد عن طريق البحر يقوده قائد

(١) PAULUS DIACONUS , Lib. VI apud Achbar Machmua, p.167

ونصه :

“ Cum machinēs et restium funibus super muros et aedium moenia irrunt, urbem succedunt, hostes capitunt interficientes trucidant...”

وخلف لويبراند لوحة عند پاڤيا أشار في بضعة أبيات نقشها عليها إلى مأساه مع العرب في شمال إيطاليا بقوله :

Deinceps tremuere feroces

Usque Saraceni, quos dispulit impiger, ipso,

Cum dremerent Gallos, Carolo poscente juvari

cf : SIGONIUS, De Regno Italiae, anno 743

وأما تفصيل حصار قارله لأبنين المذكور فقد ورد في :

Fregedarii Continuatio III, apud Achbar Machmua pp. 168-169.

Recueil des Historiens des Gaules, II. p. 486.

وانظر أيضاً

REINAUD, Op. cit. pp. 57-59.

عربي يسميه ايزيدور الباجي (Amor) وصحته عمرو أو عمر على الغالب، فنزل المدد على شاطئ غالة في موقع قريب من أربونة ، فأسرع قارله للقاءه ، والتقى به يوم أحد على شاطئ نهر البر (Berre-Birra) على بضعة فراسخ من أربونة ، ويذكر صاحب مؤرخة مواسياك أن القائد العربي كان قد تحصن على ربوة عالية واعتمد على كثرة جنده ولم يتخذ الحيطة ، ففاجأه قارله على غرة وأنزل به هزيمة قبيحة استشهد فيها عمر نفسه ، ولم ينج من معه إلا عدد قليل استطاع بعضهم الوصول إلى أربونة ودخلوها ، وحاول الباقون الهرب في المراكب فتعقبهم الفرنجة في مراكب صغيرة وأصابوا كثيرين منهم (١) .

وعاد قارله يشدد الحصار على أربونة ، واستبسلت

١١٨ - قارله حاميتها الإسلامية فلم يدرك الفرنجة منها على طول يفشل في الاستيلاء ، فاضطر إلى رفع الحصار والتقهقر إلى على أربونة الشال . ويبدو أن أهل غالة الجنوبية وقفوا منه موقف

العدو ولم يعينوه على ما طلب من اخراج المسلمين ، مما يدلنا على أن ما تذكره الروايات النصرانية عن مساءاتهم في النواحي التي دخلوها ان هي الا مبالغات قساوسة ومزاعم رهبان نصارى . فأراد قارله الانتقام من أهل غالة ليعزى نفسه عن فشله أمام حصون أربونة ، فعسفهم عسفا شديدا ، وخرّب حصون يزييه وأجدة ونيمة . وقد لقيت هذه البلدة النصرانية الأخيرة من الويلات على يد قارله شيئا كثيرا ، فهدمت أسوارها وأطلقت فيها النيران ، وفعل قارله مثل ذلك بمجملونة (Magallona) وكانت اذ ذاك من المدن الزاهرة في هذه الناحية . وعاد

Continuatio Scolastici Fregedarii III, Loc. cit.

(١)

Chronicon Moissiacense apud Achbar Machmua pp. 165-166.

الى الشمال ومعه كثير من أسرى المسلمين وعدد من كبار الغالين ، أخذهم معه كرهائن ليضمن بهم ارغام أهل نواحيهم على التخلي عن عون العرب ، مما يدلنا على أن أهل غالة الجنوبية كانوا يفضلون المسلمين على الفرنجة ، وذلك طبعاً ، لأن الفرنجة كانوا اذ ذاك أجلافا قساة بعيدين عن كل تمدن ، لا مقارنة بينهم وبين المسلمين أصلاً في مسائل الحكم والتنظيم .

ويؤيد المؤرخ رينو ذلك بقوله : « ومن المؤكد أن سلطان قارله كان مبغضا الى أهل غالة الجنوبية ، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم احتفظوا بجزء من النظم الرومانية وحضارتها ، فكانوا ينظرون الى أهل الشمال نظرتهم الى متبررين همج لم تزايلهم طوابع الجلافة الجرمانية . ولم يستطع رجال الدين على الخصوص أن يغفروا لقارله استبداده بمتلكات الكنائس . وكان العرب في تقدمهم قد استولوا على معظم الكنائس والأديرة ووضعوا أيديهم على ممتلكات هذه المؤسسات ، فلما أقبل قارله وأخرج العرب لم يعد الى رجال الدين ممتلكاتهم ، وانما فرق الأراضي والمنازل على جنوده ، فأثار ذلك استنكار الأتقياء وظل معظم الأسقفيات والأديرة خراباً لقلة تعهدها بالعناية . ويذكر التاريخ فيليكاريوس (Vilicarius) أسقف فيين الذي حاول ، بعد خروج العرب من المدينة ، أن يسترجع ممتلكات أسقفية ، فلما وجد أنها تفرقت في أيدي غير رجال الدين غادر بلده ومضى الى دير القديس ماوريكيوس (سان موريتز الآن) . ولم تصلح هذه الأخطاء الا خلال الأعوام التالية شيئاً فشيئاً ، في حكم بينين وشارلمان » (١) .

(١) انظر عن هذه التفاصيل مدونة موسيالك والذيل الثالث لمؤرخة فريجيداريوس في المواضع المشار إليها آنفاً .

cf : CHARVET : *Hist. de la Sainte Eglise de Vienne*, p. 147.

REINAUD : *Op. cit.* pp. 59-61.

وعبارة رينو تفسر لنا سر كراهية أهل غالة الجنوبية ١١٩ - العرب - وأهل غالة للفرنجة ، ولكنها لا تفسر لنا سر ميلهم الى المسلمين ومؤازرتهم اياهم ، وليس لذلك الا تفسير واحد لم يشأ المؤرخ أن يذكره ، وهو أن المسلمين كانوا يحترمون الدين وأصحابه ، ولم تمتد يدهم بالأذى الى أموال الناس فيما دخلوه من البلاد الا بقدر ما اضطرتهم اليه الضرورات العسكرية . وقد رأينا المسلمين ينصفون الناس في الأندلس ولا يكادون يؤذون رجال الدين أو المؤسسات الدينية ، فمن عجب أن تتغير خطتهم دفعة واحدة بعد دخولهم غالة ! وقد كان قائدهم اذ ذاك رجلاً اشتهر بالعدل واشار الحق هو عقبة بن الحجاج السلولى الذى تجمع المراجع النصرانية نفسها على الثناء عليه ، ومن أسف أن مراجعنا العربية ترضى علينا بسطر واحد ينير أمامنا الطريق في هذا الموطن المبهم ، الا عبارة يسيرة عن سلوك عقبة تؤيد ما قلناه ، تقول ان الرجل كان اذا أسر الأسير لم يقتله حتى يدعو الى الاسلام ويبين له فضائله ، فأسلم على يديه ألفا رجلاً بذلك (١) ، مما يأذن لنا في القول أن عقبة ومن عمل تحت امرته من المسلمين كانوا يؤثرون الرفق حتى مع الأسرى (وكان مصيرهم القتل في قواعد الحرب في تلك الأيام) فكيف بأهل المدن والأرياف الذين يستسلمون ويؤدون الجزية دون حرب ؟ وكيف ، ونديننا البرهان الساطع على حسن تصرف المسلمين مع أهل هذه النواحي من انضمامهم الى المسلمين ومؤازرتهم اياهم على ملك الفرنجة وأودو وغيرهما من طواغيت الجرمان ؟ وحتى كتابات الرهبان — على تعصبها الشديد — تفيض بالشكوى من مساءات الفرنجة وملتهم قارله ، وقد كتب معظمها بعد هذه الحوادث بسنوات ، أى في ظلال امبراطورية

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٩ .

شرلمان ، فلا بد أن كتابها خففوا كثيرا من مساءات قارله ، وأما ما فيها من الأقوال عن أفاعيل المسلمين فمبالغات تقرب من الأساطير ، ولا يستطيع التاريخ المنصف أن يقبل الا القليل منها (١) .

وكان الدوق ماورنت قد عاد الى پروقانس بعد انصراف قارله ، وعقد الخناصر مع المسلمين من جديد ، فتخوف قارله من عواقب ذلك وقرر المسير الى الجنوب مرة أخرى لمحاولة القضاء على هذا الخصم العنيد . فانحدر سنة ٧٣٩ م مع أخيه شلديراند ووجهتهما ماورنت وبلاد . واستوليا على ماسيليا (مرسيليا) قاعدة دوقيته وطرده من البلاد ، وأقاما المحارس على الشاطئ المقابل لشواطئ اسبانيا وحالا بذلك بين العرب وبين الاسترسال الى شرقى ردانه من جديد (٢) .

بيد أن المسلمين لم يقفوا مكتوفى الأيدي أمام هذا التحدى ، وجعلوا همهم بعد ذلك نزول پروقانس ودوفييه من ناحية البحر . وأعانهم الحظ بموت قارله (٧٤١ م / ١٢٣ هـ) واضطراب الأمر من بعده حينما حتى استقراره لابنه يبين الثانى ، ولكن ظروفهم لم تمنهم على الاستفادة من هذه الفرصة استفادة كاملة ، لأن فتنة البربر في

(١) راجع ما يقوله رينو في هامش ص ٦٣ :

« يبدو أن التفاصيل الواردة في تاريخ حياة القديس بوركارىوس Porcarius بخصوص أعمال التخريب التي أحدثها العرب في داخل إقليم پروقانس تنصب على ما فعله المتبر برون في هذه النواحي حينما نزولها بعد سنة ٨٨٩ م » .

وهي ملاحظة قيمة تؤيد ما قلناه ، وهو أن الرهبان نسبوا كل ما أحدثه المتبر برون الجرمان من التخريب في شمال إيطاليا وجنوب غالة إلى العرب . ويشير المؤلف إلى كسابات البولنديست (Bollandistes) بتاريخ ١٢ أغسطس ٧٣٧ م .

Continuatio Fregedarii, III, Loc. cit.

REINAUD. Op. cit. p. 63

الأندلس وافريقية كانت اذ ذاك على أشدها ، فتوقفوا عن مدد حامياتهم في غالة (١) .

وكان عقبه بن الحجاج قد توفى (صفر سنة ١٢٣ هـ / يناير ٧٤١ م) على ما رأينا ، وصار الأمر مرة أخرى الى عبد الملك بن قطن : وثب عليه هو ومن معه من اليمنية واستبدوا بالبلاد وأشعلوا الأندلس نارا ، ثم أقبل بلج والقيسيون ونازعوه الأمر وانتزعوا الامارة وقتلوه . فثارت اليمنية على كلمة واحدة .

وكانت قيادة المسلمين في غالة قد صارت الى عبد الرحمن ١٢٠ عبد الرحمن ابن علقمة اللخمى ابن علقمة اللخمى على أوائل أيام عبد الملك بن قطن ، وكان ينصرف عن غالة عبد الرحمن يمينيا متعصبا فلم يكذب يترامى اليه خبر مقتل عبد الملك حتى قرر المسير الى قرطبة للانضمام الى قطن ١٢٠ عبد الرحمن وأمية ابن عبد الملك بن قطن ، وأخذ معه معظم من معه من أنجاد الجند ، حتى لتزعج المراجع العربية أن عدة من سار معه الى قرطبة كانت مائة ألف (٢) . وهى مبالغة ظاهرة ولكنها تدل على أن غالة خلت من أنجاد مقاتليها من المسلمين ، فتضعف مركزهم فيها نتيجة لهذا ، وكان ذلك من أقوى الأسباب في زوال أمر الاسلام من غالة جملة . وكان عبد الرحمن نفسه من خيرة قادة المسلمين وفرسانهم حتى لكان يلقب بـ « فارس الأندلس » وكان قيامه بقيادة جند الاسلام في غالة خير ضمان لثبات أمر الاسلام فيها ، فأما وقد

REINAUD. Op. cit. p. 72

(١)

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣ :

وانظر ايضا :

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٦ .

انصرف بمن معه ، وألقى بنفسه في معبعة « المصاراة » وفقد الآلاف من خيرة جنده فيها ، فلم يعد للمسلمين أمل كبير في الثبات فيما وراء البرتات ، خصوصا وقد انتظم أمر الدولة الفرنجية واستتب الأمر لبيمين في أوتراسيا ودان له ابنا أودو صاحباً أقطانية بالطاعة ، وتمهد أمامه الطريق للتجرد لحرب المسلمين .

ولا غرابة والحالة هذه أن تقرأ في المدونات النصرانية أن كبريات مدائن سبتمانية مثل بزيه ونيمة ومجلونة تخلصت من الحكم الاسلامي ، وقامت فيها حكومات محلية من أهلها ، وكذلك حدث في امارات البرتات مثل كنتبريه ونبره ، خلعت طاعة المسلمين وصار أمر أهلها بأيدي أنفسهم (١) .

ولم يكد الأمر يستقر ليوسف الفهرى والصيل (من ربيع الثاني سنة ١٢٩ هـ / ديسمبر سنة ٧٤٦ م) حتى عجل يوسف بارسال ابنه عبد الرحمن في بعث الى نواحي البرتات لاقرار أمر الاسلام فيها من جديد ، فلقى مقاومة عنيفة ولم يوفق الى شيء يذكر . وكانت المواصلات بين جند المسلمين في أربونة وأجنادهم في شمالي الأندلس قد قطعت ، فطمع فيهم فايفر (Vaifre) ولد أودو الذي صارت اليه أمور أقطانية بعد نزاع طويل مع أخيه في سنة ٧٥١ م / سنة ١٣٣ هـ . وكان عبد الرحمن بن علقمة اللخمى قد عاد الى أربونة بعد هزيمته مع الينيين في وقعة المصاراة فتولى الدفاع عن أربونة ، ولكن أمره كان قد ضعف بسبب ما فقدته من الجند في حروب العصيات في الأندلس (٢) .

وكان مركز ببين قد قوى في غالة كلها بعد أن انحاز اليه ١٢١ - البابا ونقل اليه التاج من آخر الميروفنجيين (سنة ١٣٣ هـ / الثاني يهاجم أربونة سنة ٧٥١ م) فبادر بالمسير في جيش كبير نحو أربونة عام ١٣٣ - ١٣٤ هـ / ٧٥٢ م . وأعانه الحظ بوجود حليف قوى من قوط جنوبى غالة يسمى أنسموندوس (Ansemundus) كان سلطانه يشغل بلدان نيمة وأجدة ومجلثونة وبزيه ، فسلمها اليه ، وبهذا لم يبق أمام ببين الا أن يوجه قواته كلها نحو أربونة ، فتقدم وحاصرها فترة من الوقت ، ولم يلبث أن استبان مناعتها وصعوبة الاستيلاء عليها ، فتركها وخلف أنسموندوس ليمضى في الحصار . ودارت الحرب بين أنسموندوس والمسلمين ، فلم يلبثوا أن أوقعوا به : فاجأه كمين منهم وقتله ، وحلت مجاعة شديدة بجنوب غالة كاله ، فلم يستطع جند الفرنجة الاستمرار في حصار أربونة ، فاضطروا الى الانسحاب منها ونجا البلد من خطر الحصار هذه المرة أيضا (١) .

ولم يجد جديد في أمر أربونة خلال السنوات السبع التالية ، لأن أهل الأندلس شغلوا بأمر عبد الرحمن الداخل وتأسيس دولته ، فظلت حامية البلد قائمة بالدفاع عنها معتمدة على نفسها دون أن يعمر قلوبها أمل في وصول نجدات من المسلمين ، ولكن الحظ أعانهم باشتغال ببين عنهم بما دهاه من الثورات في بلاده ، فظلت أربونة وبعض نواحي سبتمانية تغرا اسلاميا يقوم للأندلس الاسلامى كالدرع الحصين دون أن يفتن أهل الأندلس الى هذا الدور الخطير الذى لعبه هؤلاء المسلمون المنزلون في هذه الناحية القاصية يحيط بهم الأعداء من كل ناحية .

ولم تغب عن عبد الرحمن الداخل أهمية هذا الشر ، فلم يكد الأمر يستقر له حتى أسرع في سنة ١٤٠ هـ / سنة ٧٥٨ م بإرسال بعث قوى يقوده قائد تسميه المراجع النصرانية سليمان (١) ، ولكن التوفيق أخطأ هذا البعث ، اذ دهمه رجال العصابات في مرات جبال البرت الخطرة ومزقوه اربا (٢) . وكانت هذه آخر محاولة قام بها الأندلس لانتفاذ آخر معاقل الاسلام في غالة ، اذ روعت هذه الكارثة عبد الرحمن فلم يعد يفكر في أمر حامية غالة ، وشغلته الثورات الكثيرة التي تواترت عليه ولما يستتب سلطانه .

فاذا كانت أربونة قد تركت لشأنها على هذا النحو المحزون .
١٢٢ - سبط ولم يعد أحد يفكر في نجدة أهلها أو استغلال موقعها أربونة (سنة الذي بذل المسلمون تضحيات كبرى للسكن منه ، ودافعت ١٤١ هـ / سنة ٧٥٩) عنه جماعات منهم بعد جماعات ثبتت كلها للهجمات المتوالية من جيوش الفرنجة ومن انضم اليهم من جماعات الجيرمان قرابة الثلاثين عاما ، اذا كان هذا حالها الذي صارت اليه ، فقد كان من الطبيعي أن يضعف أمر حاميته الى حد لا تستطيع معه الثبات . والواقع أن انتصار رجال العصابات على البعث الاسلامي الذي أرسل

(١) ذكر ابن الأبار في الحلة السراء رجلين من رجال دولة عبد الرحمن الداخل يسمى كل منهما أبوسليمان : الأول أبوسليمان حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، والثاني قطيس بن سليمان بن عبد الملك بن زياد أبو سليمان الكاتب . والراجح أن المراد هنا هو الأول ، لأن ابن الأبار يذكر أن عبد الرحمن ولاء طليطة وأعمالها ، وقد توفي أبوسليمان هذا في عهد عبد الرحمن في حين توفي الثاني في عهد الحكم الرضي .

انظر :

ابن الأبار : الحلة السراء ، ص ٤٥ وما بعدها وص ٦٠ .

REINAUD. Op. cit. p. 81

(٢)

لنجدها سنة ١٤٠ هـ / سنة ٧٥٨ م وتبين نصارى جنوبى غالة أن حامية أربونة وحاميات غيرها من المعاقل الاسلامية في سبتمانية باتت وحيدة منعزلة لا يزداد أمرها مع الأيام الا ضعفا ، فزاد طمعهم فيها وأخذوا يتربصون بها . فلما كانت سنة ٧٥٩ شعر أهل أربونة من النصارى أن في استطاعتهم الوثوب بمن بينهم من المسلمين واخراجهم منها ، وكان الفرنجة قد أرسلوا بعثا حاصرها ، فتشجع أهل أربونة وانقلبوا على الحامية الاسلامية على حين غرة ، فقتلوا من أفرادها نفرا عظيما وأسرعوا ففتحوا أبواب البلد للفرنجة ، وعجل يبين بإرسال بعث قوى أكمل ما بدأ به أهل البلد ، وقضى على ما بقى للمسلمين من الجند في أربونة ، وبهذا ضاع هذا المعقل الاسلامي الفريد ، بعد أن ظل في يد المسلمين قرابة الثلاثين سنة يؤيد سلطانهم على سبتمانية ومعظم نواحي جنوبى غالة (١) .

وبقيت من المسلمين بعد ذلك جماعات صغيرة تسيطر على بعض نواحي دوقية الدوفينييه وكوتيتية نيس ، واعتصمت المسلمين في غالة جماعات منهم في شعاب الألب الغربية ، وظلت هذه الجماعات تقيم في هذه النواحي طوال عصر شرلمان ، وتذهب بعض نصوص — غير موثوق في صحتها — الى أن تلك الجماعات الاسلامية

(١) وردت تفاصيل كثيرة عن هذا الحادث في قصة فيلومين PHILOMENE التي نشرها M. CIAMPI في فلورنسه سنة ١٨٢٣ تحت عنوان :

Gesta Caroli Magni ad Carcassonam et Narbonam

ويبدو أن هذا المرجع لا يمكن الاعتماد عليه ، لأن رينو يقول إن المؤلف يزعم أنه كتبه بأمر شرلمان ، ولكن هذا الكتاب الذي كتب أول الأمر بالبروفنسالية والذي يضع المؤلف فيه في عصر شرلمان حوادث وقعت على أيام أبيه يبين وجده قارله ، قد كتب في القرن الثاني عشر على الأغلب ولا يستحق أية ثقة :

REINAUD, op. cit. p. 81 et note I.

استولت على جرينوبل في تاريخ غير محدد بالضبط . وقد ظلت هذه الجماعات الاسلامية مقيمة في هذه النواحي حتى نزح المسلمون شاطئ فرنسا الجنوبي مقبلين من صقلية وقرصنة بعد مائة وثلاثين عاما على ما فصلناه في دراسة أخرى (١) . ولكننا نستطيع القول أن تاريخ سيادة المسلمين في جنوبي غالة ينتهي بسقوط أربونة سنة ٧٥٩ ميلادية (٢) .

وبعد أن سقطت أربونة تغير الوضع في شمال الأندلس ١٢٤ - نتائج الغربى تغيرا تاما ، اذ رفعت الولايات النصرانية الواقعة بسقوط أربونة في منطقة البرت رأسها وانتعشت بقيام الدولة الشلمانية ، فقوى أمرها واستمدت العون من غالة ، وهنا يبدأ تاريخ « الثغر الاسپاني » الذى نشأت عنه امارة قطلونية (كتلونيا) فيما بعد . وسرى شلمان بعد سنوات يعبر البرت ويحاول الاستيلاء على سرقسطة (٣) .

وقبل أن تترك غالة وتاريخ المسلمين فيها : لابد من أن نتعرف أحوال المسلمين أثناء اقامتهم فيها : والنظم التى ساءوا عليها في تنظيم ما كان تحت سلطانهم من نواحيها .

(١) انظر : حسين مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى بدء الحروب الصليبية . مجلة الجمعية المصرية التاريخية سنة ١٩٥٤ .

(٢) REINAUD. Op. cit. p. 82 et note I.

ومراجعته :

Gallia Christiana, III, p. 1275.

M. DE COURCEILLES : Hist. généalogique des Pères de France

المواد الخاصة بـ Clermont — Tonnère, Agout ، ولا يوافق رينو على كثير مما ورد في

هذه المراجع .

REINAUD. Op. cit. pp. 81-82.

(٣)

لا نملك عن ذلك الموضوع الا معلومات عامة وأمثلة قليلة

١٢ - أحوال لا يؤمن القياس عليها . والثابت على أى حال أن مقام جنوبي غالة تحت الحكم الاسلامي العرب في غالة لم يدم على هيئة مستقرة الا نحو ثلاثين سنة ، وأن المسلمين لم يسيطروا فيها على مساحات واسعة

يستطيعون أن يطبقوا عليها نظاما ثابتا كما كان الحال في الأندلس مثلا ، ولو قد اقتصر المسلمون في وقعة البلاط وتلاشت المقاومة الفعلية أمامهم لأخذت الأمور مجرى آخر : اذن نشأت ولاية جديدة في غالة ، ولأرسل عامل الأندلس اليها العمال والرجال . فأما وقد انهزم المسلمون في محاولتهم الكبرى فقد وقفت ممتلكاتهم في غالة عند وضعها الأول ، وظلت معتبرة ثغرا للأندلس فيما وراء البرتات ، يقيمون فيها ويحافظون عليها ليحموا ما وراءها ، ولينهضوا فيها للغزو اذا ما أمكنتهم الفرصة . والمعروف أن الولايات الاسلامية كانت تولد عقب الانتصارات العسكرية الكبيرة ، هكذا نشأت ولايات العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس ، وقد كان يحدث أن يملك المسلمون أرضا واسعة دون نصر حاسم ، كما ملكوا جزءا من آسيا الصغرى ، فلم تنشأ ولاية اسلامية في آسيا الصغرى على الرغم من أن ما كانوا يملكونه من أرضها أيام الأمويين يزيد مرات كثيرة عن مساحة ولاية البصرة مثلا .

ظلت فتوح المسلمين فيما وراء البرتات معتبرة اذن ثغرا تابعا للأندلس من الوجهة الادارية ، والأدلة كثيرة على أن عمال الأندلس اعتبروا سبتمانية ثغرا عسكريا لا كورة ادارية ، وقد نشأ هذا الثغر في أيام السبع بن مالك ، فهو الذى افتتح أربونة ونيمة وأجدة ومجلونة ووصل بالفتح الى ليون ، ولو لم ينهزم عند طولوشة لما اقتصر ثغر غالة على سبتمانية وبعض الأراضى الساحلية الواقعة شرقى الردان ، ولجعل المسلمون عاصمة

نغرهم في أبنيون أو طولوشة أو غيرهما من كبار المراكز التي تسيطر على جنوبى غالة كلها ، فجاءت هذه الهزيمة قاضية على الآمال ، واضطر المسلمون إلى الارتداد إلى الجنوب والتحصن بناحية سبثمانية . وقد حاول عنبسة بن سحيم أن ينتصف لمقتل سلفه فقام بغارته الكبرى التي لم تزد على أن تكون مظاهرة عسكرية رائعة ولكنها قليلة الأثر ، ثم جاء عبد الرحمن الغافقى وأراد أن يفتح غالة فتحا دائما ، وأعد عدته لملاقاة النصرانية في معركة حاسمة فانهزم هو الآخر وقتل ، ثم جاء عقبة ابن الحجاج وحاول أن يصل إلى ما فشل فيه عنبسة وعبد الرحمن فكان أحسن حظا وإن لم يصل إلى نتيجة ، ومضى عن الولاية وأملاك المسلمين شمال البرتات لا تزيد عن إقليم سبثمانية .

ومن الواضح أن ضعف مركز المسلمين في غالة إنما أتى من

١٢٦ - لماذا لم اقتصر معظم محاولاتهم على العبور إلى غالة من الأبواب يوفق المسلمون إلى البقاء في غالة ؟ والممرات الشرقية ، فانصرفت جهودهم كلها على الجنوب الشرقى لغالة وحوض ردانة ، ولو نفذوا من الغرب أيضا

من أول الأمر لسيطروا على أقطانية وأزالوا هذه الشوكة من جنبهم وثبتوا أقدامهم في جنوب غالة كله ، ولا استطاعوا أن يكونوا أثبت أقداما في المعارك التي هزموا فيها على حدود هذه الدوقية عند طولوشة مرة وعند تور مرة أخرى . وربما كان سبب ذلك هو أن سلطان المسلمين لم يتمكن تماما في الركن الغربى من جبال البرتات ، وظلت أقصى فتوحهم في هذه الناحية عند بنبلونة جنوبى البرت ، وبقيت مساحات أخرى واسعة يسكنها أقوام جيليون ذوو مهارة حربية وجلد لم يخضعوا لسلطان المسلمين ، بل ظلوا يتربصون بهم الفرص ، لا يكاد يمر بهم بعث اسلامى الا هاجموه وتخطفوا رجاله ، ولا أمكنتهم

غرة في المسلمين الا انتهزوها . وقد كان ترك المسلمين للسيطرة على هذه الناحية من أكد الأسباب في زوال سلطانهم عن منطقة البرتات وما صاقبها من الشمال والجنوب ، وستكون هذه النواحي مهدا تولد فيه الكثير من الولايات الاسبانية النصرانية التي ستناوى المسلمين مثل أرغون ونبرة وشرطانية وريياجورثا وغيرها . ولو قد اهتم المسلمون بأكمل اخضاع منطقة البرتات وتثبيت أقدامهم فيها لتمكنوا من القضاء على كل قوة مناوئة لهم فيها ، ولكان هذا أجدى عليهم من الاسترسال في مغازاة غالة لأن غزواتهم في غالة لم تؤت لهم أى ثمر على الإطلاق ، في حين كان تمهيد الأمر في نواحي البرتات تمهيدا تاما يؤمن الأندلس الاسلامى ، ويقطع كل سبيل لنصارى الأندلس في الاتصال بالجماعات النصرانية الكبرى في غالة وإيطاليا .

ولنلاحظ إلى ذلك أن المسلمين خانهم الحظ في الوقت الذى دخلوا فيه غالة ، فقد دخلوها في ابان قيام الدولة الكارولنجية وكانت أسرة فتية في طور التأسيس ، وكان رجالها يجتهدون في اخمال البيت الميروقنجى للاستحواذ على العرش من دونه ، وكانوا قد أنشأوا لأنفسهم جيشا قويا جمعوه من خيرة الفرنجة ومن انضم اليهم من المتبربرين ، ومضوا يحاولون اخضاع غالة كلها وشمالى إيطاليا ، فأثارهم دخول العرب البلاد وتوغلهم فيها وغلابهم لكل من فكر في مناوأتهم من أهل الجنوب ، ولو قد فطن العرب للوضع السياسى في غالة وحالفوا أودو وغيره من أكناد الجنوب وأدواقه لكان حظهم أحسن ، ولكنهم كانوا يجهلون كل شئ عن الحال في غالة . ولهم في ذلك عذر : فقد بعدت بهم الشقة ، ولم يعد هناك سبيل لاتصالهم المباشر بقلب الدولة في دمشق ، وكان كل عماد المجاهدين في غالة على الأندلس وأهله ، ولم تكن أحوالهم قد

استقرت بعد ، بل لم تكن أعدادهم كافية لسيادة الأندلس نفسه ، فكيف بقطر جديد تفصله عن الأندلس جبال وعرة مثل البرتات وتقوم فيه شعوب جديدة فتية ، يعمر نفوس أهلها من الآمال مثل ما كان يعمر قلوب المسلمين أنفسهم ؟

ولا ينبغي أن نظن أن المسلمين لم يفكروا في غزو غالة غزوا مستمرا والاستقرار فيها ، لأن الواقع أن نفوسهم تطلعت الى فتحها فتحا ثابتا من أول الأمر ، ولا يسعنا ونحن نتأمل جهود الحر بن يوسف والسمح ابن مالك وعنبسة بن سحيم وعبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قطن الا أن نقرر أن هؤلاء القواد المقتدرين كانوا يشعرون أنهم يقومون بفتح منظم غايته ادخال البلاد في رحاب الدولة الاسلامية ، لا مجرد القيام بغارات سريعة لا هدف لها بعد الغنيمة كما يفهم من كلام بعض المؤرخين المحدثين . بل لعنا لقارنا السمع والغافقي وعنبه بن الحجاج بغيرهم من رجال الفتوح الاسلامية الأخرى لتبيننا أن فتوح غالة كانت من أمجد الجهود الاسلامية الحربية ، وأن تضحياتهم في سبيلها من أغلى ما ضحوا به في فتوحهم . وقد رأينا تفانيهم في اتمام فتحها ، وتبيننا أن تضحياتهم في سبيلها لا تقل روعة عن تضحياتهم لفتح الأندلس نفسه ، ولا نزاع في أن السمع والغافقي وعقبة يعدون جميعا في طليعة قادة المسلمين العظام ، ولا نزاع كذلك في أن المسلمين ضحوا في سبيل غالة أكثر مما ضحوا في سبيل مصر مثلا ، وأن من استشهد من المسلمين في نواحي غالة كانوا جديرين بفتحها ، لو لم يكن الأندلس نفسه مضطربا هذا الاضطراب .

وربما بدا غريبا أن نرد معظم السبب في فشل المسلمين في فتح غالة الى اضطراب الأحوال في الأندلس وبعد غالة عن مركز الدولة الاسلامية

لا الى الجشع في الغنائم كما يزعم بعض مؤرخي النصارى ، أو الى قوة الدولة الفرنجية كما يزعم بعضهم الآخر . ولكن هذه هي الحقيقة : فأما البعد السحيق عن مركز الدولة فقد حرم فاتحي غالة من توجيه الدولة وعون رجالها السريع ، وحرهم من أمداد العنصر العربي الذي كان قوام الفتوح وعمودها الفقري . ويكفى أن نذكر أن من دخل الأندلس من العرب كان قليلا لا يكاد يكفي لسيادة الأندلس نفسه ، وأن جزءا عظيما من هؤلاء استقر في نواحي الأندلس ولم يشترك في أعمال الغزو فيما بعدها من البلاد ، يكفي أن نذكر ذلك لكي تبين أن عدد العرب في الجيوش الاسلامية الغازية في غالة كان قليلا جدا . فأما غالبية الجند الاسلامي المحارب في غالة فكانت من البربر ، وتدل الدلائل كلها على أن أعداد هؤلاء البربر كانت عظيمة وان لم تبلغ مئات الآلاف كما يزعم رواة أصحاب المدونات اللاتينية ^(١) ، والغالب أن معظم من كان يهجر الى الأندلس من البربر كان يهجر اليها طمعا في فضل الجهاد ومغانمه ، ولهذا كانت جموعهم في الجيوش الغازية عظيمة ، وكان طمعهم في الغنائم كبيرا كذلك ، وقد كان لهذا وذاك أثرهما البعيد في تطور أحداث الغزوات في غالة كما رأينا .

فاذا كانت نوايا المسلمين الغازين في غالة قد انعقدت على الاستقرار ، وطال مقامهم في سبتمانية نيفا وثلاثين عاما ، فلا بد أنهم وضعوا نظاما لإدارة النواحي التي خضعت لهم ، وليس لدينا الا اشارات عابرة تعيننا على تكوين فكرة عن هذا النظام . ويكفى أن نبه الى أن كلامنا هنا مقصور على ما سار عليه العرب في حكم سبتمانية فقط من النظم خلال

(١) انظر الفصل الرابع من كتاب رينوآلف الذكر ، من ص ٢٢٩ فصاعدا .

السنوات الثلاثين التي سيطروا فيها عليها واتخذوا أربونة عاصمة لهم .
وطبيعي ألا يكون العرب قد مضوا في حكم هذه الناحية
١٢٧ - طيبة كما حكموا مصر مثلا ، لأن مصر كانت ولاية مدنية في
الحكم الإسلامي حين كانت سبتمانية ولاية عسكرية ثغرية ، وكان المسلمون
في غالة ينظرون الى هذه الولايات الثغرية نظرة تخالف نظرتهم
الى الولايات المدنية ، فكانوا يميل الى التساهل مع السكان في النواحي
الثغرية طمعا في كسبهم الى جانب المسلمين ، وكانوا كذلك أكثر كرمًا
على الجنود المقيمين في الثغر منهم على المقيمين في الولايات المدنية ،
فقد وزع عمر بن الخطاب أراضى أقصى شرقى فارس على فاتحيها من
المسلمين وسماها الثغور الهندية ، وقد فعل ذلك استئلافا لقلوب
هؤلاء الجنود ولتقوية نفوسهم على سداد ثغرها . واعتبر عمر بن
عبد العزيز الأندلس ولاية ثغرية ، فأقر الاقطاعات فيها ، وتسامح
المسلمون مع أهل النواحي من النصارى فيه ، فمناحوا كل ناحية عهدا
بحريتها في كل شيء مع اشتراط أداء جزية معينة ، والخضوع للحاكم
الاسلامي الذي يقيم في الناحية في بعض المسائل الكبرى (١) .

(١) موضوع حكومات المسلمين في الولايات الثغرية في حاجة إلى الدرس ، فقد كانت لها
نظم خاصة تختلف كل الاختلاف عن النظم التي أقرها المسلمون في الأراضى المفتوحة . أما فيما يختص
بثغرنا هذا - غالة - فيقول محمد بن مزين ، ونصه في غاية الأهمية لدراسة الموضوع كله ، والكلام
هنا منصب على الأندلس : «... فبعث إليها السج بن مالك عاملا ، فوردتها في جند سوى جندنا
الأول ، فأرادا الزول معهم في أموالهم ومشاركتهم فيما بأيديهم ، فوفد لهم وقد على أمير المؤمنين عمر
(ابن عبد العزيز) وشكوا إليه ذلك ، ورجعوا إليه في الرجوع إلى بلادهم ، وإدائتهم بين ورد
مع السج ، فممنهم من ذلك وأنسهم وعقد لهم وأشهد في عقدهم على إقرارهم في أموالهم ، وأقطع
الواردين مع السج إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية . لولا إقطاعات عمر بن الخطاب
(رضه) الجند فيها لم يسدوها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإننا نستخير الله في إجلاء المسلمين عنها . ثم إنه
لم ينفذ ذلك ليلعب الكتاب أجله... » .

انظر النص في : DOZY : *Recherches*, I, app. I, p. V.

١٢٨ - المسلمون وقد ذهب رينو الى أن المسلمين عاملوا سبتمانية على هذا
يعتبرون غالة إقليبا الأساس ، وقال ان العرب ساروا في حكمها على نفس
ثغريا الأسس التي قرروها في صلحهم مع قلمرية (Coimbra)
في أقصى غربى الأندلس ، وإنما تخير قلمرية بالذات لأنها كانت أشبه
بالثغر هي الأخرى ، ولأننا عثرنا على نص معاهدتها مع المسلمين كاملا .
وأهم ما في هذه المعاهدة هو أن يكون لأهل قلمرية الحق في أن يحكموا
أنفسهم بقوانينهم التي تعودوا أن ينظموا بها أمورهم قبل مجيء
المسلمين ، وأن يكون لهم حاكم منهم يقوم بالقضاء بينهم وينفذ الأحكام
فيما عدا أحكام الاعدام اذ كان لابد من عرضها على الحاكم الاسلامي
المقيم . وكان هذا العامل المسلم يقيم في قلمرية ممثلا لسلطان المسلمين ،
ومعه حامية تؤيد وتحميه وتمنع النصارى من الالتقاض عليه ، فاذا
وقعت خصومة بين مسلم وواحد من أهل البلاد كان لابد من عرضها على
الحاكم المسلم الذي يقضى في الأمر بمقتضى الشريعة الاسلامية ، واذا
اعتدى نصراني على مسلمة ألزم باعتناق الاسلام والزواج منها ، فاذا
كانت متزوجة لم يكن له من الموت مفر (١) .

فاذا طبقنا شروط هذه المعاهدة على سبتمانية استطعنا أن نقول
ان الحامية الاسلامية الرئيسية كانت تقيم في أربونة ، وأن جامية اسلامية
صغيرة كانت تقيم في كل بلد كبير من بلاد سبتمانية ودوفينييه وما خضع
للمسلمين من دوقية أقطانية وحوض ردانه ، وهذه الحاميات تقوم بحماية
المكان واقرار السلام بين أهله وجمع أمواله . وكان للمسلمين الى جانب

cf. : REINAUD. *Op. cit.*, pp. 272 Sq.

(١)

والمراجع الواردة في الهوامش .

ذلك جند غاز كبير يخرج للغزو مع العامل المقيم أو مع عامل الأندلس نفسه إذا أقبل .

١٢٩ - نظام ولا نزاع في أن العرب خففوا عن أهالي هذه النواحي الحكم في جنوب أعباء حكمهم الى أقصى حد مستطاع ، وليس لدينا دليل غالة مادي على ذلك ولكننا نستند في القول به الى أمرين :

الأول هو تعلق أهل هذه النواحي بهم ووقوفهم الى جانبهم أمام الفرنجة ، وهذا أمر لم يكن ليحدث لو لم يكن المسلمون قد اجتذبوا أهل هذه النواحي بالتخفيف عنهم في كل شيء ، والثاني هو أن المسلمين كانوا أخلافا لنفر من أدواق هذه النواحي مثل ماورنت دوق مسيلية (مرسيليا) الذي ذكرناه ، ولم يكن هؤلاء الأشراف ليشبوا على الولاء للمسلمين الا اذا كان هؤلاء قد أبقوا لهم على ما كان لهم من سيادة في بلادهم . ونلاحظ أن أراضى هؤلاء الأدواق المعاهدين لم تكن منفصلة عن أراضى المسلمين ، أى أنهم لم يستقلوا بنواحيهم عن السلطان الاسلامي ، بل اعترفوا به وأقاموا معه : فقد كان ماورنت يحكم مسيلية وما حولها من أراضى دوفينييه ، وقد أخضع المسلمون هذه النواحي ولكنهم لم يمسوا ماورنت ، فظل يحكم أهلها ويؤدى للمسلمين ما حق لهم من أموالها ، أى أنه كان شيئا يشبه « زعيم عجم الذمة » و « قومس النصارى » في الأندلس ، مع فرق ظاهر وهو أن زعيم عجم الذمة كان رجلا مدنيا صرفا تقتصر مهمته على معاونة المسلمين على حكم البلاد ، وكان خاضعا لعامل الأندلس خضوعا تاما ، ولم تكن له سيادة فعلية الا في حدود ضيقة ، في حين كان « دوق عجم الذمة » في ناحية سبتمانية سيدا قويا ذا جند وسلطان ، وكان حليفا للمسلمين لا خاضعا لهم ، وكان يتعاون مع المسلمين في مهمتين رئيسيتين : اقرار السلام في الناحية ، ثم حمايتها من الفرنجة وحلفائهم .

وقد زعم رينو أن المسلمين اضطهدوا النصارى في سبتمانية ١٣٠ - موقف واستولوا على كنائسهم ، ولم يستند في ذلك الى دليل المسلمين من واحد مباشر أو غير مباشر . ولسنا ندرى لماذا أصر على المسيحية في غالة الكلام عن هذه الناحية بهذا الأسلوب مع عدم وجود الدليل ، وربما كان الأصدق أن يقال ان المسلمين تركوا لأهل هذه النواحي حريتهم الدينية كاملة كما فعلوا مع أهل الأندلس ، بل ربما كان الأقرب الى المنطق هو أن موقفهم من النصارى ورجالها في ناحية سبتمانية كان أكثر رفقاً ، فقد كان لهم حلفاء من النصارى ، وكانوا يحاولون كسب رجال الدين في جنوبى غالة لأن قارله كان قد أساء اليهم اساءات بالغة وانتزع أموال الكنائس وفرقها على جنده ، وشرد الكثيرين من التباوسة والأخبار ، ولا نزاع في أن حال الكنائس في النواحي التي كانت خاضعة للفرنجة في جنوبى غالة كانت أسوأ من حالها في النواحي التي كانت خاضعة للمسلمين .

وليس لدينا كذاك أى وثيقة نستطيع أن نستخلص منها مقدار ما قرر المسلمون على أهل هذه النواحي من الجزى ، فلم يبق الا القول بأن المسلمين ساروا في ذلك على نفس الأسس التي ساروا عليها في الأندلس : أى أنهم تركوا الأرض التي فتحت عنوة في أيدي أصحابها وأطلقوا فيها الأسرى وفرضوا عليها مالا يتراوح بين ثلث وربع المحصول ، وأما مافتح مسلحا فقد تقرر عليه العشر . ويستبعد أن يكون المسلمون قد ملكوا الأرضين واشتغلوا بالفلاحة في هذه النواحي لاضطراب الأحوال وعدم استقرار الأراضى في أيديهم أزمانا طويلة . وهذا فيما نظن كان من أقوى الأسباب في زوال أمر المسلمين من هناك ، لأن من كان فيها من المسلمين ظلوا مجرد جند قلق يقيم في المدن أو يخرج للغزو ، ولم تتح

لهم الفرصة للانتشار في الأرض وامتلاكها والاختلاط بأهلها ونشر الاسلام فيهم وتعريبهم .

ولم يكن سقوط أربونة وما تلاه من الأحداث التي ذكرناها هو ختام تاريخ المسلمين فيما وراء البرتات ، بل استمرت بقاياهم وآثارهم هناك زمنا طويلا وتجدد لهم تاريخ في جنوبي حوض ردانة بعد قرن ونصف . اذ نزلوا هذه الناحية من البحر ، ولكننا نقف عند هذا الحد الآن ونحيل القارئ على ما كتبناه في هذا الموضوع في بحثنا عن « المسلمين في حوض البحر الأبيض » .

وقد رأينا أن جهود المسلمين في هذه النواحي لم تكن بالقنية ولا بالعابرة ، وانما كانت جهودا مضيئة جادة قصد من ورائها الى فتح غالة ومد رواق الاسلام على غرب أوروبا ، ولم يوفق المسلمون في ذلك للأسباب التي ذكرناها . ولا يقلل ذلك من قيمتها في ذاتها ولا من أهميتها التاريخية . وأبسط نتيجة نخرج بها من هذا العرض السريع هو أن المسلمين لم يدخلوا غالة غزاة نهائين لا ينظرون الى شيء بعد الغنيسة . بل دخلوها فاتحين منظمين يريدون ادخالها في رحاب دولتهم وتحويلها الى الاسلام ، ولو قد استقر لهم الأمر في غالة الجنوبية لانتج نظرهم الى ما وراءها ، ومن هنا كانت أهمية « بلاط الشهداء » في تاريخ النصرانية في غرب أوروبا ، فقد حالت بينها وبين الزوال فعلا . ولا يسكن القول بأن المسلمين لو كانوا انتصروا في « بلاط الشهداء » وقاموا بحكم الاسلام هناك لما منع ذلك النصرانية من أن تعود كما عادت في الأندلس ، لأن الذي أعاد النصرانية في الأندلس هو عجز المسلمين عن فتح غالة ، وكانت نصرانية غالة هي نواة النصرانية في غرب أوروبا اذ ذاك ، ولم يكن يليها الا شعوب وثنية ، أما البابوية في روما فلم تكن تستطيع شيئا ، لأنها

هي نفسها كانت في حماية اللسبارد ، وكان أمرها اذ ذاك ضعيفا لم يتقرر على النحو الثابت الذي نراها عليه خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (١) .

ولقد أسرف الغربيون في تقدير أهمية « بلاط الشهداء » ١٣١ - مقارنة وقالوا انها أتمذنت حضارة غرب أوروبا أو المسيحية بين المسلمين ووضعت حدا لسيادة الشرق على الغرب ، وما الى ذلك والفرنجة في غالة مما يحلو الكلام فيه لمؤرخي أوروبا وفرنسا خاصة .

والواقع أن هذه كلها مبالغات لا يقبلها الحكم التاريخي الصحيح فلم يكن الفرنجة الذين تصدوا لرد المسلمين عن غالة بأصحاب البلاد ، بل كانوا غزاة غاروا عليها وتملكوها بحد السيف . فاذا كان المسلمون غرابا عن غالة فقد كان الفرنجة أغرابا أيضا ، ولم يكن لهم من الحق فيها أكثر مما لغيرهم . وقد كانوا يحكمون البلاد بالعنف والقسوة حكما جنيا خالصا ، وكانوا يترفعون عن أهل غالة الأصليين (الغالين الرومان) ويعتبرونهم مجرد رعية عليها الخضوع . بل لم يكن هؤلاء الفرنجة الساليون مسيحيين مخلصين ، وانما كانوا ما يزالون أجلافا متبريرين قرب الى الوثنيين منهم الى أهل الكتاب ، وكانت وطأتهم على الكنائس شديدة وظلمهم للرهبان ورجال الدين عظيما ، ولا شك أن المسلمين كانوا أقرب الى روح المسيحية من أولئك المتسحجن . ولم يغلب الطابع المسيحي على الفرنجة الا من أيام بيبين الثاني بن قارله بسبب تصديه لحماية البابوية من اللمباردين حماية سياسية لا دينية ، وقد زاد ارتباط الفرنجة بالمسيحية على أيام شارلمان ، وهو أول ملك فرنجي مسيحي صادق . وقد كتب في أيامه الكثيرون من أصحاب المدونات

النصرانية التي نقلت إلينا أخبار الصراع بين العرب والفرنجة على غالة ، وصوروا حروب قارله مع المسلمين على أنها حروب شارلمانية مسيحية . أى أنهم كتبوا عن عصر بروح عصر آخر ، ونسبوا إلى قارله ومعاصريه ما لم يكن يعرفه هو . فلم يكن الرجل يفكر في مصير المسيحية بقدر ما كان يفكر في مصير مملكته ، وقد برأينا أن موقفه من الكنائس والقسيسين لم يكن موقف الصديق ولا موقف الراعي المسيحي وإنما موقف الطاغية العسكري الذي لا يفكر إلا في ملكه وأمواله ومغانمه . وليس إلى الشك سبيل في أن السمع بن مالك وعبد الرحمن الغافقي وأمثالهما كانوا يعرفون عن المسيح والمسيحية أكثر مما كان قارله ورجال مملكته يعرفون . ثم إن المسلمين كانوا أهل دولة ذات نظم وقوانين وقواعد مقررّة ، في حين كانت نظم الدولة الفرنجية في طور التكوين ، كانت أصول الحكم فيها تعتمد على قوانين الجرمان الأولى ، وهى شبيهة بقوانين العرب الجاهليين ، فلم تكن الحرب إذن حرباً بين اسلام ونصرانية بقدر ما كانت صراعاً بين حضارة وجاهلية ، بين نظام وفوضى .

بل لم يكن الفرنجة الذين حاربهم المسلمون بأنصار الثقافة اللاتينية كما زعم مؤرخو الغرب : فلم يكن الفرنجة يعرفون من اللاتينية شيئاً ، بل كان قارله نفسه لا يكتب اسمه ، لا باللاتينية ولا بغيرها (وكذلك كان شلمان) وكان رجاله محاربين أجلافا لا يفقهون من اللاتينية شيئاً ، بل لعلمهم لم يكونوا قد سمعوا بعد بحضارة الرومان . ومن الثابت على أى حال أن الفرنجة والقوط الغربيين وأضرابهم من المتبربرين هم الذين أزالوا بقايا الحضارة اللاتينية من البلاد التي سيطروا عليها . وكان عليهم فيما بعد أن يتعلموا اللاتينية على أيدي رهبان ومعلمين أقبلوا من أيرلندة وبلاد الشمال . وقد يتبن هنرى بيرين هذه الحقيقة بما لا يحتاج إلى

مزيد من البيان ، وقد أوجزنا نحن آراءه في بحثنا الذي أشرنا إليه عن « المسلمين في حوض البحر الأبيض » .

وأذن فلم تكن موقعة البلاط انقاذا للمسيحية والحضارة اللاتينية كما يذهب معظم مؤرخي الغرب ، فقد كانت المسيحية في حرج في غالة عندما دخلها المسلمون ، وكانت اللاتينية قد تلاشت منها . وهذا كاه يلتقى ضوءاً جديداً على مكان موقعة البلاط من التاريخ ، نعم إن المسلمين لو انتصروا فيها لسادوا غالة وغرب أوروبا ولكن القرآن الكريم يدرس الآن في جامعة أكسفورد كما قال ادوارد جيون ، ولكن انهماك المسلمين فيها لم يكن هو الذي أوقف تقدمهم ، لأنهم كانوا إذ ذاك قوماً مجاهدين « الموت أحب إليهم من الحياة » كما قال رسل هرقل عندما سألهم عن المسلمين ، وكانت الهزائم لا تعنى في حسابهم شيئاً ، وقد رأيناهم ينهزمون المرة تلو المرة في أفريقية ، فلم يمنعهم ذلك من العودة والاصرار على الفتح . إنما الذي أوقف تقدم العرب هم العرب أنفسهم ، بما شجر بينهم من فتن العصبية وما صرفهم عن مواصلة الفتوح من أحقاد النفوذ وتفاهة النظرة الجاهلية إلى الحياة .

الفصل الثامن
قيام حركة المقاومة النضالية

حتى تضعف دولة الاسلام في شبه الجزيرة ، فيتنفس أهل جليقية الصعداء
ويقبلون من الدفاع الى الهجوم . ويتيح لهم المسلمون الفرص بما
سرفوا فيه من الخصومات فيما بين أنفسهم . حتى اذا هدموا دولتهم
بأيديهم وانفرد كل فريق منهم بقطعة منها ، أقبل هؤلاء المتحصنون في
الشمال يستعيدون من المسلمين البلاد بلدا بعد بلد . حتى استخلصوا
شبه الجزيرة كله من أيديهم ، بعد قرابة ثمانية قرون من الجهد والكفاح .

١٣٦-انصراف وليس من الصواب في شيء أن يذهب الانسان الى أن
انسحب إلى العرب أخطأوا إذ تركوا هذا الركن القصى دون فتح ،
منازعات عن فقد كان على أيام موسى هضبة مقفرة موحشة باردة
عدالة دولتهم لا أهمية لها من أية وجهة حربية أو عمرانية ، تحيط
بها غابات كثيفة . وكان طبعيا أن يخلفها العرب دون فتح . ولم تأت العلة
— فيما بعد — من تركه ، بل من انقسام العرب أنفسهم وانصرافهم الى
منازعات الجنس والعصية : فقد قضت هذه المنازعات على أعداد كبيرة
منهم ، وصرفت جهودهم عن مراقبة الجزيرة والامتداد في النقط على
سلامة دولتهم فيها . بل أدت حروب العرب والبربر الى مبارحة معظم
البربر للنواحي التي كانوا قد استقروا فيها في الشمال الغربي الأقصى ،
وانحدرهم الى الجنوب . بل الى عودة أعداد عظيمة منهم الى افريقية
على ما فصلناه ، فتخلفت وراءهم مساحات فسيحة من الأرض كان من
الطبعي أن يتقدم القوط والإيبيريون الرومان للسكنى فيها دون خوف ،
فاستعادوا بهذا الشكل نحو خمس شبه الجزيرة دون أن يفتن العرب الى
ذلك ، فاذا استوثقوا من أنفسهم في هذا الخمس فقد كثرت أعدادهم
وتسلسوا شيئا من الرخاء أعانهم على الثبات للمسلمين وعلى ردهم عن

حينما وصلت جيوش الاسلام الفاتحة الى لك (Lugo=Lucus
Asturum) وأوغلت في الجبال الصخرية المفضية الى سواحل كتنبرية
القاحلة ، وأشرفت عند خيخون على خليج بسكايه (١) ، اعتقد قادة
المسلمين أنهم فرغوا من افتتاح هذه الناحية ، وتحولوا بجهودهم الى
الركن الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة فيما يلي الخط الممتد من
برشلونة الى (أمايه) مارا بالاردة وسرقسطة وتبيلة وقلهرة ونخرة
وما يلي ذلك من منطقة البربات وما الى شمالها من راضي غالة (٢) .
ولم يكن يخطر على بال موسى وطارق — ومن جاء بعدهما — أن الركن
الشمالي الغربي القصى المسمى « جليقية » الذى خلفوه وراءهم دون
فتح — استصغارا لشأنه — انما كان في الواقع حصنا لجأت اليه أعداد
قليلة من بقايا القوط ، واطمأنت الى الحياة في هضابه ووديانه ، وأخذت
تنتظر الفرصة المواتية لتخرج منه وتسامح فيما يليه من الأرض رويدا
رويدا ، لتكون لنفسها دولة لا تزال تتسع بجهود أمرائها ومواتاة
الظروف اياها حتى تصبح كتلة صلبة لن يستطيع العرب القضاء عليها ،
ولا تزال أحداث الزمان تجرى بها الى صعود حيننا والى نحوس حيننا ،

(١) كان خليج بسكايه يعرف في العصر الروماني بالبحر الغالى السكتنبري الأكويتا

Mare Gallicum Cantabricum Aquitanicum . انظر

FRANCISCO CONDEMINAS Y LUIS VISINTIN : Atlas Historico de España.

الخريطة رقم ٤ من هذا الأطلس .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٨ .

بلادهم أولا ، ثم شجعهم على التقدم نحوهم والاستيلاء على الأرض والبلاد من أيديهم فيما بعد .

١٣٢ - وتسمى هذه الحركة في تاريخ اسبانيا بحركة «الاسترداد» الريكونيستا *La Reconquista* ، والاسبان يعتبرون تطوراتها الحلقات الرئيسية لسلسلة تاريخهم القومى الذى يبدأ بضعة قرون قبل المسيح ، حينما هبط الفينيقيون شبه الجزيرة الايبيرية ، ويتصل أثناء العصور الاغريقية والرومانية والقوطية النصرانية ، ويستمر خلال الفترة الاسلامية متمثلا في هذه الدويلات التى نشأت في الشمال ، وأخذت تتسع حتى قضت على دولة الاسلام في البلاد وأعادت نصرانية كما كانت .

ولا شك في أن اطلاق تسمية «الريكونيستا» على حركة المقاومة النصرانية منذ ميلادها في أوائل القرن الهجرى الثانى (النصف الأول من القرن الثامن المسيحى) وربطها بحركة الاسترداد الحقيقى التى بدأت بصورة جدية محسوسة بعد زوال خلافة قرطبة وانتشار دولة الاسلام في شبه الجزيرة في أوائل المائة الخامسة للهجرة ، لا يخلو من خطأ ، لأن اشتريس انما ولدت في ناحية لم يفتحها العرب قط ، فميلادها لا يعد بدءا لحركة الاسترداد ، وانما يعد ميلادا لحركة المقاومة للسيادة الاسلامية . وقد بدأت حركة المقاومة هذه فعلا في أواخر أيام « پلاى » على ما سيجىء ، ونشطت على أيام أذفونش الأول ، ولكنها وقفت بعد ذلك زمانا طويلا ، ولم يتجدد نشاطها الا بعد أيام المنصور بن أبى عامر . ومن هنا يجوز لنا أن نعترض على ما تجمع عليه التواريخ الاسبانية من أن حركة الاسترداد انما كانت معركة دامت ثمانى قرون *La batalla de ocho siglos* ، وقد اعترض على هذه التسمية نفر من معتدلى المؤرخين الاسبان .

وقد كان مؤرخو الاسبان ومن شايهم من الأوروبيين ينظرون الى الفتح الاسلامى على أنه حادث طارىء ، طال زمنه ثم انتهى أمره ، دون أن يخلف في البلاد أثرا يذكر ، ولهذا كان هؤلاء المؤرخون يعرون بالفترة الاسلامية مرورا عابرا لا تظفر معه الا ببعض صفحات من مؤلفاتهم . ولم يتبين الاسبان أهمية هذه العصور الاسلامية الا من أواخر القرن الماضى ، ولم يعتبروها جزءا هاما مجيدا من تاريخهم الا من أوائل القرن الحالى ، نتيجة لجهود طائفة من المستشرقين الاسبان ، لم يدخروا جهدا في كشف النقاب عن جمال هذه العصور الاسلامية وما قام خلالها من حضارات ، وما خلفته للاسبان وللحضارة البشرية من تراث مجيد .

فاذا كان هذا هو مكان حركة الاسترداد هذه من التاريخ الاسبانى العام ، فلا بد لدارس التاريخ الأندلسى من الوقوف عندها بين الحين والحين ليرقب تطوراتها ، لأن العلاقات الحربية وغير الحربية بين المسلمين والنصارى في اسبانيا تكون جزءا هاما من تاريخ العصور الاسلامية نفسها . بل ستكون هى الناحية الهامة الخطيرة من تاريخ هذه العصور ابتداء من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

وطبيعى ألا نجد من مراجعنا العربية أى اهتمام كبير بمبادئ هذه الحركة ، لأنها كانت في أول الأمر خافية أو كالخافية ، لا يكاد يحفل لها مؤرخ يتتبع الحوادث الهامة ، وطبيعى كذلك أن تهتم بها المراجع النصرانية اللاتينية الاسبانية اهتماما عظيما ، لأن مصنفها كانوا قساوسة وrehbانا عاشوا في مدائن الدول النصرانية الشمالية أو في العواصم الاسلامية ، ولكن اهتمامهم بها لم ينفعنا كثيرا لأن أسلوبهم في كتابة التاريخ في هذه الأعصر كان يقتصر على تسجيل قوائم من التواريخ

والأحداث موجزة ايجازا شديدا ومضطربة اضطرابا بالغا ، ولهذا فأننا لا نستطيع الانتفاع بها الا الى حد محدود جدا .

لهذا كله كادت الحقائق الخاصة بتطورات هذه الحركة تضع بين اهمال المراجع العربية واضطراب المراجع النصرانية ، وظلت مبادئها وتطوراتها في أدوارها الأولى، نهبا مقسما بين الغموض والأساطير ، وأصبح من العسير جدا أن نكتب في شيء من الثقة عن أول أبطالها المسمى بلای^(١) بن فافيللا وعن أول حوادثها الجسام التي تسميها المراجع بواقعة « كوثا دونجا » .

١٣٤-الايبيرون وكذلك يحيط الغموض في مراجعنا العربية بحقيقة الأجناس الرومان التي كانت تسكن اشتريس وكتنبريه على أول أيام الفتح الاسلامي ، لأن أصحاب المدونات الاسبانية في العصور الوسطى يسمونها « القوط » في حين يجعلهم العرب قوطا أو جالقة ، وهم يريدون بالجلالقة أهل الركن الشمالي الغربي لشبه الجزيرة الاسبانية ، والواقع أن هذه الناحية كانت تسكنها جماعات من الايبيريين ، وهم جنس قديم أقبل الى شبه الجزيرة من افريقية واستقر فيها من أقدم العصور ، يمتاز بالنشاط والذكاء ويعتبر أساس سكان شبه الجزيرة كلهم ، وأما من أتوا بعد ذلك فمهاجرون اختلطوا بهذا العنصر الافريقي الأصل ، وأول من هاجر الى شبه الجزيرة واختلط به جنس أوروبي قديم — جرمانى في الغالب — هاجر الى شبه الجزيرة من الشمال في أعداد قليلة اختلطت بالعنصر الافريقي وتكون منهما العنصر المسمى بالايبيري *Los Iberos* .

(١) Pelayo ، هذه هي الصورة الاسبانية لاسمه ، أما صيغته في اللاتينية فهي Pelagius وقد آثرت استعمال الصورة الاسبانية لأنها أشيع ، ولأن هناك من المؤرخين من يقول بأنها الأصل كما سنرى .

وتوالى الهجرات بعد ذلك على شبه الجزيرة ، أهمها هجرة الكلت وقد اختلط معظمهم بالايبيريين ، وبقيت بعض جماعاتهم صافية في نواحي جليقية ، ثم نزلت البلاد جماعات من الفينيقيين واليونان ، ثم أعقبت ذلك موجة الفتح الرومانى الذى شمل البلاد كلها ونظمها للمرة الأولى تنظيما اداريا ، والى هذا الأثر العمرانى ترجع القيمة العظيمة لهذه الموجة الرومانية التي طبعت البلاد بالطابع الرومانى ، حتى أصبح أهلها يعرفون بالايبيريين الرومان من ذلك الحين *Ibero-Romanos* ، فلما أقبل القوط لم يختلطوا بأهل البلاد ، فبقى سكان شبه الجزيرة ايبيريين روماناً في حين كانت الطبقة الحاكمة من القوط^(١) .

١٣٥ - صخرة تتفق المراجع العربية وغير العربية على أن فلولا من القوط بلای فرت أمام الفاتحين المسلمين ، ولا زالت تتقهقر نحو الشمال حتى اعتصمت منهم بركن قصى من « جليقية » تسميه المراجع العربية « صخرة بلای » والاسبانية *Picos de Europa* في ناحية كتنبرية القاحلة^(٢) . وهناك اطمأن بها المقام ، لأن العرب عجزوا عن الوصول

(١) cf : F. OLORIZ : *Distribución geográfica del índice refológico en España* (١) (Boletín de la Royal Sociedad Geográfica, Vol. XXXDI, 1894, primer semestre) pp. 294-299.

(٢) تسميها المراجع العربية في الغالب «الصخرة» اختصاراً ، وقد تربطها لافونى بى ألكانرا *El-Roco* بحجارة المسلمين في تسميتهم . وهم يجعلونها في جليقية *Galicia* خطأ ، إذ أنها في كتنبرية ، وهي أعلى قمم كتنبرية ارتفاعاً ويهدا إلى الشمال ، وهي الناحية التي تحصن بها بلای ومن معه . وثابت من المراجع الاسبانية أن «بلای» وأصحابه احتملوا من المسلمين في مفارة أونجا *Cova de onga* الواقعة في جبال « بيكوس دى ايروبا » ، وقد وصفها الكونت سان سو بقوله : « كتلة هائلة من صخر الجبل يتبين الانسان فيها ثلاث قمم : قمة إلى الشرق تسمى « أندارا » وثانية وسطى تسمى *Bulnes* وثالثة غربية تسمى قمة كوثا دونجا . ويبلغ متوسط ارتفاع الصخرة ٢٦٠٠ متراً .

cf : LE CONTE SAINT-SAUD : *Monographie des Picos de Europa, Etudes et Voyages*, Paris 1923.

اليها أو استصغروا شأنها ، ولم يجدوا على أنفسهم بأسا في تركها حيث هي . وتبالغ المراجع العربية في استصغار شأن هذه الأعداد ، فيقول عيسى بن أحمد الرازي مثلاً : « .. ولم يبق الا الصخرة ، فانه لاذ بها ملك يقال له بلاي ، فدخلها في ثلاثمائة رجل ، ولم يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعا ، وبقي في ثلاثين رجلا وعشر نسوة ، ولا طعام لهم الا العسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به ، حتى أعبى المسلمين أمرهم واحتقروهم وقالوا : ثلاثون علجا ، ما عسى أن يجيء منهم ! » (١) . ويقول ابن عذارى : « فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلا ، وحتى فنيت أزودتهم ولم يتقوتوا الا بعسل يجدونه في خروق الصخرة ، وأعبى المسلمين أمرهم فتركوهم » (٢) . وانصرف المسلمون عن بلاي وأصحابه ، فاضمأن المقاتل بهم واختلطوا بأهل هذه الناحية من الايبيريين الرومان ، فأخذت أعدادهم تتزايد ، وازداد أمرهم ثباتا .

ومن الثابت أنه كان على رأس هؤلاء القوط الهاربين الى «الصخرة» نفر من أهل بيت لذريق ونفر من كبار القوط وعدد آخر من القساوسة ورجال الدين الذين فضلوا الهجرة والعيش في هذه النواحي القاصية على العيش في البلاد التي فتحها المسلمون . ويذهب بعض المؤرخين الى أن نفرا من هؤلاء الهاربين أخذ يفارق صخور كتبرية ويعود الى موطنه الأولى بعد أن اطمأن الى عدل المسلمين (٣) ، بل ان بعضهم تبع غيره من أهل البلاد ودخل في الدين الجديد ، ولم تحدد لنا الروايات تاريخا لذلك

(١) عيسى بن أحمد الرازي ، في نفع الطيب المسترى : ج ٢ ، ص ٦٧١ - ٦٧٢ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٣) LEVI-PROVENÇAL : Histoire de l'Espagne Musulmane, I, p. 47.

وان كنا نظن أنه حدث خلال ولاية عقبة بن الحجاج السلولي (أى بين سنتي ١١٦ و ١٢١ هـ) .

١٣٦ - مونوسة
ولا نعلم على وجه التحقيق كيف حكم المسلمون ما فتحوه من نواحي كتبرية وجليقية مما يلي هذه الصخرة ، ولكن اشارات متناثرة هنا وهناك تدل على أنهم أنزلوا بها جماعات من المسلمين معظمهم من البربر ، أقاموا هناك مرابطين ومستقرين ، وكان يرأس هذه الجماعات البربرية رؤساء من بنى جلدتها تتفق المراجع على ذكر واحد منهم هو مونوسة .

وقد سبق أن أشرنا الى هذا الزعيم البربري عند كلامنا عن حملة عبد الرحمن الغافقي على غالة ، وبقي أن نستكمل الكلام عنه هنا اذ أنه كان أكبر قواد المسلمين في الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة اذ ذاك . وأقرب الآراء الى الصحة في أمر مونوسة أنه كان من رؤساء الجند في جيش طارق بن زياد (١) ، والغالب أن موسى وطارقا تركاه حاكما على أشتريس وما يصاقبها من نواحي جليقية ، ثم امتدت منطقة نفوذه بعد ذلك حتى شملت شمال شبه الجزيرة كله (٢) ، فقد رأينا صلاته الوثيقة بالدوق أودو صاحب أقطانية وصهره معه ، وما كان لذلك الصهر من أثر على سير الأحداث في غالة .

ويستوقف نظرنا أن المراجع النصرانية الاسبانية تذهب الى أن مونوسة تعلق بابنة بلاي وتزوجها ، كما أحب ابنة أودو وتزوجها (٣) ،

SAAVEDRA, Estudio ... p. 70

(١)

ESTANSILAO RENDUELES LLANOS : Historia de la villa de

Gijón desde los tiempos mas remotos hasta nuestros días (Gijón, 1867) p. 93.

(٢) عن علاقة مونوسة بابنة أودو انظر :

RODERIGO XIMENEZ DE RADA, Historia arabum. p. 12

كأنه كان ذا ولع خاص بالوقوع في هوى بنات الأشراف والزواج منهن ! وقد علل بعض المؤرخين ذلك بافتراض وجود شخصين بنفس الاسم في هذه الناحية في ذلك الحين^(١) ، وهو أمر مستبعد . والأصح أن يقال

= وعن علاقته بابنة پلاى انظر :

BARRAU DIHIGO : *Royaume Asturien*, pp. 117-118.

وورد في بعض الروايات أن ابنة أودو كانت تسمى لامبيجيا ، ويبدو أن هذه التسمية من ابتكار القصاص .

وأورد كوند عن هذه الحوادث رواية أكثر تفصيلا زعم أنه استقاعها من مراجع عربية ، ولم نستطع تحقيق روايته هذه لأنها لم نجدها في أى من مراجعنا العربية ، وربما كانت من ابتكاره ، تاريخه مليء بمشال هذه الابتكارات . وفيها إلى ذلك خلط ظاهر ، فهو يزعم أن تحقيقه هدام إلى أن مؤنوسة إن هو إلا عنبسة (بن يحيى الكلبي وإلى الأندلس) وأنه نازع عبد الرحمن الغافق على الولاية لأنه كان يعتقد أنه أحق بها منه . ويقول إنه بينما كان مؤنوسة في إحدى غاراته إذ وقعت عينه على لامبيجيا فأخذ يجالها وسعى حتى تزوجها ، وحالف أباه أودو . فلما أراد عبد الرحمن غزو غالة عارضه مؤنوسة في ذلك وأخذ جانب حميه أودو ، وأبى عبد الرحمن أن يقر المحالفة التي عقدها مؤنوسة وقال له أن لا حلف بين المسلمين والنصارى وأن السيف وحده هو الحكم بينهم ، فسارع مؤنوسة وأبلغ أودو بعزم عبد الرحمن حتى يستعد له ويحصى بلاده منه . وقرر عبد الرحمن بخارية مؤنوسة عقابا له على ما أخطأ في حقه وحق إخوانه المسلمين . وحاجه على غرة ، ففر مؤنوسة أمامه وتخصن منه بالجبال مستصحبا معه زوجته لامبيجيا ، وما زال المسلمون يطاردونه من صخرة إلى صخرة حتى أثقلوه بالجراح ، اشتد به الجوع والإجهاد وتقاعس النصارى عن نصره بسبب أفاعيله معهم في أول أمره ، وانتهى أمره بأن سقط من شاق وانفذت عنقه فقطع المسلمون رأسه وبعثوا به إلى دمشق ، وأسرروا لامبيجيا وأرسلوها إلى دمشق كذلك فضعفها الخليفة إلى حريمه . وقد وقع ذلك لمؤنوسة في مكان يسمى بويكريدا Buycreda . وهي رواية مليئة بالخلط لا نجد ما يؤيدها ، وإنما أوردناها لأنها تذكر أن مؤنوسة رأى ابنة أودو في إحدى غزواته فهم بها بالقبض كما حدث عند ما رأى ابنة پلاى (على ما تزعم الأقاصيص) مما يدل على الوضع والاختراع فيما يتصل بعلاقة مؤنوسة پلاى

cf : CONDE : *Historia*. I, 83.

LEVI-PROVENÇAL, *Histoire de l'Espagne Musulmane*. I, p. 42. (١)

وقد أنكر الأستاذ كوديرا وجود مؤنوسة إنكارا تاما ، وذهب إلى أن هذا اللفظ (Munusa) إن هو إلا تحريف للفظ ماسون (ويصححها كوديرا إلى Manresa) ببلدة بجنوبي غالة غزاها الهثم ابن عبيد الكلبي كما يقول ابن عذاري (البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٧) وقال إن القصاص =

أن علاقات مونوسة مع أودو وزواجه بابنته اختلط أمرها على بعض الرواة والقصاص ، فجعلوها مع پلاى ، وأطلق القصاص لخيالهم العنان فقالوا أن مونوسة رأى ابنة پلاى وأعجب بها فاختطفها وتزوجها . ولا يبعد على أى حال أن يكون مونوسة قد تزوج بعض نساء ناحيته أو تسراهن فكان هذا أصل أسطوريته مع ابنة پلاى^(١) .

وكل ما يمكننا استخلاصه من تلك الروايات هو أن مونوسة كان زعيم المسلمين المستقرين في أقصى شمال شبه الجزيرة ، وأنه كان ذا نشاط وهمة ، فاتصلت الأسباب بينه وبين أودو من ناحية وپلاى من ناحية أخرى ، ونتيجة لطول الجوار نشأت بينه وبينهما ، وأودو على الخصوص ، علاقات صداقة زادت أواصرها عندما وقع النفور بين العرب والبربر .

= ابتكروا القصة كلها ، فزعموا أن مؤنوسة كان زعيما بربريا وبنوا على زعمهم ذلك القصص كله ، وهو رأى ضعيف ، يقره عليهم إلا بعض المؤرخين الإسبان مثل داليستروس ، وغالبيهم اليوم لا تقره .

cf : F. CODERA : *Manuza y el duque Eudon en Estudios historicos de historia arabe española*, Zaragoza 1903. p. 135. Sqq.

BALLESTEROS : *Historia* ..., II. pp. 9-10

JUAN JAURGAIN : *La Vasconie* ..., p. 34

REINAUD : *Invasions* ..., pp. 36 Sqq

LEVI-PROVENÇAL : *Histoire* ..., I. pp. 42-43 et notes

(١) وقد تحدث إيزيدور الباجي عن مؤنوسة في شيء من التفصيل فقال إنه رجل من الجنس البربري uno ex Maurorum gente اشتبك في فتح الأندلس وسار مع قوات المسلمين حتى أقصى الشمال وساهم في إخضاع ناحية شريطانية (Cerritania في اللاتينية و Cerdana في الإسبانية) وأظهر قسوة بالغة حتى لقد حرق أنامبادي أسقف شريطانية حيا ، واجتهد في نصرة الإسلام ، حتى إذا ترامت إليه أخبار ثورة إخوانه البربر في إفريقية انقلب على العرب وحالف أودو دوق أقطانية ، فرحب به أودو وزوجه إحدى بناته ليضمن عونه وعيون من معه من البربر :

Et quia filiam suam dux francorum nomine Eudo Causa foederis ei in conjugio, ob persecutionem arabum differendam jam olim tradida

وهنا ينبغي أن نسأل : من هو يلاى هذا الذى تذكره
١٣٧ - يلاى النصوص وتنسب اليه أعمالا كثيرة جعلته في الطليعة من
شخصيات التاريخ الأسباني ؟ نبدأ بروايات المراجع النصرانية عنه لأنها
أوثق صلة بهذا الموضوع : يذكر أقدمها — وهى رواية مدونة البلدة
(*Chronicon Albeldense*) — أن يلاى كان ابن أمير قوطى يسمى برمودو
(*Vermudo*) وابن أخى لذريق ، وأنه — أى يلاى — اختلف مع لذريق
فنفاه هذا عن طليطلة قبيل دخول العرب البلاد ، فذهب الى اشترى
وأقام نفسه أميرا عليها ، وأقام بلاطه في بليدة (*Cangas=Canicas*)
تسعة عشر عاما . ومات فيها سنة ٧٣٧^(١) . ورواية سبستيان السلمتى
أكثر تفصيلا ، فهي تذهب الى أنه عندما غزا العرب الأندلس هلك معظم
القوط بالسيف أو بسبب الجوع ، وأن من نجا من أفراد بيتهم المالك
فر بعضهم الى غالة ، ولجأ معظمهم الى اشترى ، حيث أقاموا على
أنفسهم يلايو بن الدوق فافيلاميرا ، وقد حكم يلاى تسعة عشر عاما
وتوفى سنة ٧٣٧ ، وألحد مع زوجته « جاود يوسا » في كنيسة سانتا
أويلياد فيلانيو^(٢) . وتضيف مدونة سيلوس (*Chronicon Silense*)
أن يلاى كان حامل سيف لذريق (*Spatarius regis Roderici*) ، وأنه هرب
الى اشترى حينما غزا العرب البلاد وتشرّد في نواح غير معروفة منها
(*Vagabatur incertis locis*) يجمع الناس لحرب المسلمين ، فلما اكتملت
له العدة نازلهم وانتصر عليهم ، فأكبره القوط لهذا وأقاموه عليهم أميرا^(٣) .

HUICI : *Crónicas Látinas de la Reconquista. Chronicon Albeldense*, : (١)

I p. 157.

HUICI, *op. cit.* I. p. 206

HUICI, *op. cit.* II. p. 44.

(٢)

(٣)

وأما تاريخ اسبانيا العام (*Crónica general de España*) الذى صنفه
ألفونسو العاشر المعروف بالعالم ، فيذهب الى أن يلاى كان ابنا «لفافيلام»
دوق كتبريه الذى كان الملك اجيكا قد نفاه من طليطلة ، فمضى الى
تودو *Tudo* واستقر فيها حينما ، وهناك مات بسبب ضربة عصا كانت قد
أصابته من يد غيطشة ، الذى كان يضع في زوجته (أى زوج فافيلام) .
فلما صعد غيطشة الى العرش نفى يلاى من طليطلة ، وأراد أن يفقأ عينيه ،
ففر الى كتبريه ، وهناك تزعم أهل هذه الناحية . ودعاهم الى الوثوب
بالعرب ، واستطاع الانتصار عليهم في معركة عند مغارة أونجا
(*La Cueva de Onga*) سنة ٧١٨ م^(١) . ويضيف لوقا التودى (*Lucas Tudense*)
في تاريخ العالم (*Chronicon mundi*) قصة تعلق « مونوسة » — الأمير
المسلم على هذه النواحي ، وكان مقيما في خيخون — بأحدى بنات يلاى
مما أدى الى الخصومة بين الرجلين ، ووقعت الحرب بينه وبين المسلمين ،
فأقامه القوط ملكا عليهم قبل لقائه إياهم وانتصاره عليهم في « معركة
مغارة أونجا » ، وتوفى في كانجاس سنة ٧٣١ م بعد أن حكم ثمانية عشر
عاما ، ويذهب لوقا التودى كذلك الى أن فافلة أبا يلاى كان ابنا
لشندسفتو ، وربما زعم لوقا هذا رغبة منه في أن يجعل يلاى سليلا
للييت القوطى^(٢) .

وأما الروايات العربية عن أصل « يلاى » فأكثرها تفصيلا رواية
« ابن حيان » التى يقول فيها : « قال غير واحد من المؤرخين : أول من
جمع فل النصرارى بالأندلس — بعد غلبة العرب لهم — علج يقال له

Primera Cronica General de Espana (Madrid, 1906) pp. 303-499. (١)

LUCAS TUDENSE. *Chrocion Mundi*, apud : (٢)

SCHOTT : *Hispaniae illustratae Scripores varii* : 17 n. 2-220, 695 n. I.

پلاى من أهل اشتريس من جليقية ، كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، الثاني من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك في السنة السادسة من افتتاحها سنة ٩٨ من الهجرة ، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن ، فطردوه وملكوا البلاد ، وبقي الملك فيهم إلى الآن» (١) .

ويذهب صاحب «الأخبار المجموعة» إلى أنه كان جليقيا من أهل اشتريس (٢) ، ويؤيده ابن خلدون في رأيه هذا ، ويقول : «ان أمم النصرانية أجفلت أمام المسلمين إلى سيف البحر من جانب الجوف ، وتجاوزوا الدروب وراء قشتالة واجتمعوا بجليقية ، وملكوا عليهم بلايه ابن فافلة : فأقام ملكا فيهم تسع عشرة سنة ، وهلك سنة ١٣٣ ، وولى ابنه فافلة سنتين ، ثم هلك فولوا عليهم بعدهما أذفونش بن بيطره الذى اتصل الملك في عتبة إلى اليوم ، ونسبهم في الجلالة من المعجم كما تقدم ، ويرغم ابن حيان أنهم من أعقاب القوط ، وعندى أن ذلك ليس بصحيح ، فإن أمة القوط قد دثرت وغبرت وهلكت ، وقل أن يرجع أمر بعد اندثاره وانما هو ملك مستجد في أمة أخرى والله أعلم» (٣) . أى أنه يقرر مع

(١) ابن حيان برواية المقرئ ، فتح الطيب : ج ٢ ، ص ٦٧١ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦١ .

ونص عبارتها : «... فثار أهل جليقية على المسلمين ، وغلب أمر علي يقال له «پلاى» قد ذكرناه في أول كتابنا ، فخرج من «الصخرة» وغلب على كورة (هنا كلمة أسقطها الناسخ ولم يلحظ ذلك الناشر) واشترى ...» وقد جعل تاريخ هذا الحادث سنة ١٣٣ هـ / ٧٤٠ م - ٧٤١ م) ولما كان من الثابت أن پلايه توفى سنة ٧٣٧ م (حوالى ١٣٠ هـ) فإن لافونيتى إلى ألكانتراف في تعليقاته على الترجمة الأسبانية للأخبار المجموعة يذهب إلى أن مؤلف «الأخبار» يخلط في هذه الفقرة بين أعمال پلاى وأعمال أذفونش بن بيطره ... وهو رأى معقول .

أنظر الترجمة الأسبانية للأخبار المجموعة ، ص ٦٦ هامش ٥ .

(٣) أورد «دوزى» نص ابن خلدون في ملاحق أبحاثه :

cf : DOZY : Recherches (3e éd. 1881) I, appendice III, pp. X, XI.

المقرئ وصاحب الأخبار المجموعة أن پلاى جليقى من أهل الشمال ، وليس قوطيا ، ونلاحظ أن ابن خلدون لا يؤيد رأيه الا بدليل استخرجه من فلسفته ، فلا يمكن - في رأيه - أن يكون الرجل قوطيا ، لأن ملك القوط قد اندثر ، ولا يمكن أن يقوم أمر أمة اندثرت ، وسنرى أن قانونه لم يصدق هذه المرة .

ولم يكن أحد من المؤرخين ليتنبه إلى «پلاى» هذا ١٣٨-كوئادونجا لو لم يقترن اسمه بصراع قصير مع العرب أعانته الحظ على التوفيق فيه ، فانتصر عليهم وأبعدهم عن النواحي التي كان يسيطر عليها سلطانه . وقد بالغت المراجع النصرانية في تصوير هذا النصر ، وجعلته شيئا أشبه بالفتح العظيم ، وزاده مؤرخو الأسبان تقديرا واجلالا مع الزمن ، فجعلوه بدءا لصراعهم لاختراج المسلمين من بلادهم ، وايدانا بميلاد اسبانيا النصرانية من جديد . ومن هنا أهميته التي تحدونا إلى أن نقف عنده وقفة تتفق مع قدره في التاريخ الأسباني عامة .

تكاد المدونات اللاتينية الأسبانية كلها تجمع على ذكر هذا الانتصار ، وإن اختلفت فيما بينها في التفاصيل وتحديد التواريخ اختلافا بينا .

ومصدر هذه الروايات النصرانية كلها قصة طويلة أوردتها «سبستيان السلمنقى» في تاريخه يقول فيها : «ان پلاى حينما انتهى به المطاف إلى ناحية «الصخرة» أعلن نفسه أميرا على ما يجاورها من النواحي واتخذ قرية كانجاس (Cangas=Canicas) مركزا لأعماله ، وهناك أعلن الثورة على العرب وصارحهم بالعداء ، فأرسل إليه المسلمون جيشا كبيرا يقوده قائد من كبار قوادهم يسمى علقمة (١) ،

(١) لم يرد ذكر علقمة اللخمى هذا على صورة صريحة في مراجعنا الإسلامية . ولكن وجود ابنه عبد الرحمن وتمايم يؤيد وجوده في الأندلس أوائل أيام الفتح ، فقد كان أولها قائدا =

فغزا اشتريس وتوغل في أرضها ، فلما سمع بلاى بذلك تحصن في جبل أوسبة *Auseva* في مغارة القديسة مارية *Cova Sanctae Mariae* التي تسمى كذلك «مغارة أونجا» فحاصره المسلمون وضيقوا عليه ، وكان معهم أبه *(Oppas)* ^(١) أخو غيطشة الذي انضم الى المسلمين لأشياء تقمها عليه . فمضى أبه الى بلاى ، وحاوره محاولا إقناعه بالتسليم للمسلمين ، وأورد لنا سباستيان نص هذه المحاوراة مفصلاً ، فلم يفلح في إقناعه . فإذا فشلت هذه المحاولة فقد قام المسلمون بهجوم عنيف على الجبل والمغارة بالمعاول *(Fundibala)* والسهام ، وهنا حدثت معجزة : إذ كانت السهام ترتد نحو المسلمين أنفسهم ! وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين وقتل ١٣٤ ألفاً منهم ، فيهم القائد علقمة نفسه ، وأخذ «أبه» أميراً ونجبا من المسلمين ثلاثة وستون ألفاً فروا هاربين . فتسلقوا جبل أوسبة وانحدروا من الناحية الأخرى ، وساروا في خائق في الجبل يسمى خائق أنكورا *(El Tajo de Ancora)* وانحدروا الى إقليم ليبانا *(Liebana)* ، وهنا حدثت معجزة أخرى : إذ أن الجبل انهار من الناحية المشرفة على مصب نهر الديشا *(Deva)* فضرر بقية المسلمين ^(٢) .

= لغوات المسلمين في جنوبي غالة وكان من كبار الخيثة ، وقد قام بدور كبير في الحروب بين الشامين والبلدين . وهو الذي قتل بلج بن بشر في معركة «أقوة برطورة» ، ويصفه صاحب «الإخبار المجموعة» بأنه كان : «بعد فارس أهل الأندلس» وأنه «كان فارس نجدة مع جودة الانتقاء ، وعليه سلاح كريم لا يحيك فيه سيف حشكين (بن الدجن الثقيل) ، - أنظر الإخبار المجموعة ص ٤٣ - ٤٤ . وكان الثاني من كبار موالى بني أمية في الأندلس ، وكان من الأعمدة التي أقامت ملك عبد الرحمن الداخل ، راجع نفس المصدر : ص ٧٥ وما بعدها . وابن الأبار : الحلة السراء ، ص ٣٣ وما بعدها .

(١) هذه هي الصورة العربية لاسم *Oppas* كما أوردتها صاحب الإخبار المجموعة (انظر ص ٨) وهو أحد ابني غيطشة *Witiza* ملك القوط الذي غصبه لذريق العرش . وقد سماه ابن القوطية «عباس» .

(٢) *AMBROSIO HUICI : Las Cronistas latinas de la Reconquista, I, (Valencia 1913). Sebastiani Chronicon. Pelagius p. 206.*

وتلى رواية سباستيان في الأهمية والطول رواية «مدونة البلدة» التي تذهب الى أن ثورة بلاى حدثت في أيام يوسف الفهري ، وكان مونوسة حاكماً على اشتريس في ذلك الحين ومقيماً في ليون ، فسار نحو بلاى جيش اسلامي يقوده رجل تسميه المدونة ألقمان أو ألوامان *(Alcaman=Aloaman = علقمان = علقمة ?)* وكان معه «أبه» فانهمز المسلمون وأسر «أبه» ، ومات مونوسة بعد ذلك بزم . وأما الذين نجوا من القتل فقد هلكوا بناحية ليبانا *(Liebana)* إذ انهار عليهم الجبل بإرادة الله ^(١) .

وورد ذكر الواقعة كذلك في «مدونة سيلوس» ، ولكن ما فيها ان هو الا تكرار لما قاله سبستيان السلمتي و «راهب البلدة» مع اضافات يسيرة . منها أن ثورة بلاى حدثت في بليدة *(Cangas)* ، وهو يسمى علقمة *(Alchaman)* ويقدر العرب بمائة وسبعة وثمانين ألفاً ، ويذكر أن معجزة انهيار الجبل حدثت على مقربة من نهر الديشا بناحية ليبانا ، وأن مونوسة كان مقيماً ببلدة خيخون فهرب عندما سمع بخبر الهزيمة ، وقتله أهل هذه النواحي في قرية أولاليس *(Olalies)* ^(٢) .

وتكتفى مدونة كيبستيلة *(Compostela)* بالقول بأن بلاى طرد المسلمين من هذه الناحية واحتلها ^(٣) ، في حين لا تزيد مدونة «شرطانية» على أن المسلمين سادوا شبه الجزيرة كله الا «مغارة مارية المقدسة» ^(٤) .

(١) A. HUICI : op. cit. *Chronicon Albeldense*, I, p. 159.

(٢) A. HUICI : op. cit. *Monachi Silensis Chronicon*, II, p. 50.

(٣) A. HUICI : op. cit. *Chronicon ex Historiae Compostellanae Codice*

I, p. 80.

(٤) A. HUICI : op. cit. *Chronicon Cerratenis*, I, p. 90.

أما مراجعنا الإسلامية فقد أشارت الى وثوب بلاى بالمسلمين في ناحية « الصخرة » ومحاولتهم القضاء عليه وهزيمته اياهم . وإشاراتها كلها موجزة غير دقيقة التحديد ، ولكنها تدل على فهم أصحابها لأهمية الدور الذى لعبه بلاى في تاريخ دول اسبانيا النصرانية والإسلامية أيضا ، وما ترتب على نهوضه في وجه المسلمين وحربه معهم من النتائج البعيدة في تاريخ شبه الجزيرة كله : فعيسى بن أحمد الرازى يقول : « وفي أيام عنبسة بن سحيم الكلبي قام بأرض جليقية عالج خبيث يقال له « بلاى » من وقعة أخذ النصارى بالأندلس ، وجدّ الفرنج في مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم ، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك » (١) مما يفهم منه أن الرازى كان يعتبر « بلاى » منشئ حركة المقاومة النصرانية ومجدد دولة النصرانية في الأندلس من جديد بعد تفرق أمرها على أول أيام الفتح ، وأن نهوضه بأمرها كان الحجر الأول في بنائها الجديد ، فقد قوى شأنها بعد ذلك ، ونهض أهلها الى مدافعة المسلمين عما استولوا عليه ، بعد أن كانوا لا يطمعون في ذلك قبل ظهور « بلاى » . ولابن حيان — عميد المؤرخين الأندلسيين — رواية أخرى أدل على شخصية بلاى وقدره يقول فيها : « أنه في أيامه — أى أيام عنبسة بن سحيم الكلبي — قام بجليقية عالج خبيث يدعى « بلاى » ، فعاب على العلوج طول القرار ، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم الى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم ، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك . وقيل انه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تفتح الا « الصخرة » التى لاذ بها هذا العالج ، ومات أصحابه جوعا ، الى أن بقى في مقدار ثلاثين رجلا

(١) عيسى بن أحمد الرازى برواية المقرئ : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٧١ .

ونحو عشر نسوة ، وما لهم عيش الا من عمل النحل يجمعونه في جباخ معهم ، في خروج الصخرة . وما زالوا ممتنعين بوعرها الى أن أعيا المسلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا : ثلاثون علجا ما عسى أن يجيء منهم .. » (١) مما يفهم منه أن « بلاى » كان شهما شجاعا ، فهاله تراجع قومه المستمر أمام المسلمين ، فنهض يستنهض همهم « ويذكر قرائحهم حتى سما بهم الى طلب الثأر » وهى عبارة عظيمة المعنى والدلالة ، بل ان أحدا من مؤرخى اسبانيا النصرانية القدماء لم يقل مثل هذا القول الذى يحدد دور « بلاى » كواضع أساس حركة « الاسترداد » وصاحب الفضل الأول فيها .

وربما كان مؤرخا الأندلسيان الكبيران — الرازى وابن حيان — أصدق نظرا وأصح تقديرا لبلاى من عامة من تناول الحديث عنه من أصحاب المدونات النصرانية ، الذين لا تخرج رواياتهم عن مبالغات وتفصيل بعيدة التصديق عن انتصار بلاى على المسلمين عند مغارة أونجا عند سفح جبل أوسبة (Auseva) ، وهو انتصار محقق لا تنكره الرواية الإسلامية ، ولكن مبالغات الروايات النصرانية تلتقى عليه ظلا من الشك ربما قلل من قيمته .

يقول صاحب « الأخبار المجموعة » بعد أن يشير الى ظهور بلاى في ناحية الصخرة : « .. وغزا أهل أستورقة زمانا طويلا ، حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة ، فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين ومائة هزمهم وأخرج (يريد : أخرجهم) عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الخراج (٢) . وقتل من قتل ، وصار فكلهم الى خلف الجبل

(١) رواه المقرئ في نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٩ - ١٠ .

(٢) هكذا في الأصل ، ولا يستقيم المعنى إلا إذا استغنيانا عن حرف الجر « عن » .

الى أستورقة ، حتى استحكم الجوع فأخرجوا أيضا المسلمين عن أستورقة وغيرها ، وانضم المسلمون الى ما وراء الدرب الآخر ، والى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين . ويقول بعد قليل : « وكاد أن يغلب عليهم — أى على المسلمين — العدو ، الا أن الجوع شملهم » ^(١) ونستخلص من روايته هذه الحقائق الآتية :

أولا — أن « پلاى » خرج على المسلمين في ناحية اشتريس واستقل بها في ولاية عنيسة بن محيم الكلبي .

ثانيا — ان جند المسلمين القائم في أستورقة حاولوا اخضاعه « زمانا طويلا » دون أن يوفقوا .

ثالثا — أن حركة الرجل أخذت في النمو ، حتى اذا وقعت فتنة آبي الخطار ، واشتغل المسلمون بحربه مع يوسف الفهرى والصميل ابن حاتم انتهز الرجل الفرصة وضاعف جهده ، فهزم المسلمين هزيمة أخرجتهم عن جليقية جملة .

رابعا — أن صدى هذه الهزيمة تردد في نواحي جليقية كلها ، فعاد بعض من كان أسلم من أهلها الى النصرانية ، وضعف الخراج تبعا لذلك .

خامسا — أن أهل هذه الناحية انقلبوا على المسلمين فقتلوا منهم من استطاعوا قتله ، وفر الباقي الى أستورقة ، ليحتموا بالعسكر الاسلامي المقيم هناك .

سادسا — ولم يضع پلاى الفرصة ، فتقدم وأخرج المسلمين من أستورقة واستولى عليها .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

سابعا — وانسحب مسلمو هذه النواحي عن طريقين : طريق الغرب الى اقليم سرقسطة وطريق الجنوب الى ماردة وقورية .

وسنرى بعد قليل أن صاحب « الأخبار المجموعة » خلط بين أعمال « پلاى » وأعمال « أذفونش الأول » ، وأن عمل پلاى لم يتعد الحقائق الأربع الأولى .

ويقول صاحب الأندلس : « وقام علق خبيث من أعيانهم في أيام عنيسة هذا بأرض جليقية اسمه بلايه بن فافلة على من كان يملك أطراف جهته من العرب ، فنفاهم عنها . فملك سنتين ، ثم ملك ابنه فافلة بعده الى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، ثم هلك فاستولى على أهل جليقية بعده أذفونش بن بيطره جد بنى أذفونش هؤلاء الذين اتصل أمرهم الى اليوم » ^(١) . وهى رواية مختصرة فيها خطأ كثير في نسب بلايه وفى تحديد التواريخ ، ولكنها تقرر أن پلاى كان مستقلا بناحيته عن المسلمين ثم ثار على من بأطراف هذه الناحية من العرب ، فهزمهم وطردهم عنها .

وللمقرئ رواية لا تقل عن هذه أهمية ، وان لم يسندها الى أحد ، وذلك حيث يقول : « قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع فل النصرارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم علق يقال له « پلاى » من أهل اشتريس من جليقية ، كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قربلة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، الثانى من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك فى السنة السادسة من افتتاحها ، وهى سنة ثمان وتسعين من الهجرة ، وثار النصرارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن فطردوه ، وملكوا البلاد ، وبقي الملك فيهم الى الآن » ^(٢) .

(١) فتح الأندلس ، ص ٢٩ .

(٢) المقرئ : فتح الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٧١ .

وهي إشارة هامة تعيننا على تكوين فكرة عن حياة پلاى قبل لجوئه الى الصخرة وقيامه بالثورة على المسلمين ، وهي تحدد هروب پلاى من أيدى المسلمين بسنة ٩٨ هـ / ٧١٨ م وهو تحديد سيعيننا على ربط أحداث حياته بعضها ببعض .

وقبل أن نستخلص من هذه الروايات كلها سلسلة واحدة مترابطة الحلقات عن حياة « پلاى » وحركاته ، يجدر بنا أن نناقش التواريخ التى تقدمها لنا هذه الروايات .

ليس من اليسير مناقشة التواريخ المتضاربة التى يقدمها الينا المؤرخون عن هذه الحوادث ، لأن المؤرخين النصارى الذين يتحدثون عنها يختلفون فيما بينهم اختلافا عظيما ، فيجعلها « سبستيان » فى أوائل أيام الفتح ، لأنه يذكر أن قائد البعث الاسلامى المنهزم كان « علقمة » وهو من قواد طارق بن زياد ، فى حين يجعلها صاحب « مدونة البلدة » فى ولاية يوسف الفهرى ، أى بين سنتى ١٢٩ — ١٣٨ هـ / ٧٤٦ و ٧٥٦ م . أما مؤرخونا الاسلاميون فلا يكادون يتفقون هم الآخرون فيما بينهم ، فابن حيان والرازى يجعلان ثورة « پلاى » أثناء ولاية عنبة بن سحيم (١٠٣ — ١٠٧ هـ / ٧٢١ — ٧٢٥ م) ، فى حين يجعلها صاحب « الأخبار المجموعة » فى بدء ولاية عقبة بن الحجاج السلولى (١٢٢ هـ / ٧٤٣ م) ويكتفى المقرئ بالقول بأن پلاى هرب من قرطبة سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م ، وأنه كان فى اشترس فى العام التالى (١٠٠ هـ / ٧١٨ م) ، دون أن يزيد على ذلك شيئا . أما هزيمة پلاى للعرب فيجعلها صاحب الأخبار المجموعة وصاحب فتح الأندلس فى أثناء ثورة البربر على العرب أى فى أوائل فتنة أبى الخطار والصميل ، أى بعد سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ — ٧٥١ م .

وقد حاول ادواردو سافدرا أن يستخلص من هذه التواريخ المتناقضة رأيا لا بأس من ايراده ، لأنه يمثل رأى المتبع بين عامة المشتغلين بتاريخ هذه الأحداث من الاسبان المحدثين .

يقول « سافدرا » : ان رواية المقرئ صريحة فى أن پلاى هرب الى صخرته (*Picos de Europa*) فى سنة ٧١٧ م ، وأنه كان هناك فعلا فى سنة ٧١٨ م فى ولاية الحر بن يوسف ، ويعود ابن حيان والرازى فيؤكدان أن پلاى قام بثورته فى ولاية عنبة ، أى بين سنتى ٧٢١ — ٧٢٥ م ، وهذا تاريخ معقول ، لأن پلاى لابد أن يكون قد اتفق هذه السنوات فى جمع الأنصار والقيام بغارات صغيرة ومناوشات مع المسلمين أقفلت بالهم ، ففكروا فى ارسال بعث لتأديبه والقضاء على حركته . وحيث أن سبستيان يذكر أن وقعة « كوفادونجا » كانت فى أوائل أيام الفتح ، لأنه يذكر اسم القائد علقمة — الذى تؤيد المراجع العربية وجوده فى هذه الأيام — فإن أقرب الفروض الى الصحة أن علقمة هذا سار لحرب پلاى فى ولاية عنبة ، وهناك حدثت الوقعة ، وانهزم هذا البعث الاسلامى ، واستشرى أمر پلاى بعد ذلك ، ولكن ظروف المسلمين لم تسمح بارسال قوة لتأديبه الا بعد ذلك بنحو اثنتى عشرة سنة ، أى فى ولاية عقبة ، وهذا ما أشارت اليه المراجع الاسلامية من قيام عقبة ابن الحجاج بحملة تأديبية تتبعت پلاى ورجاله بالحرب حتى كادت تفنيهم ، ورجعت وهى تظن أن الرجل وأنصاره لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، ولهذا اختفى اسم پلاى حتى من المراجع النصرانية ، فلم نجد له ذكرا الا سنة ٧٣٧ م وهو عام وفاته الذى تحدده المراجع النصرانية (١) .

ولنا على هذا الرأي استدراك :

ذلك أن سبستان السلمنقى لم يحدد تاريخا لواقعة « كوفادونجا » وانما ذكر أنها كانت في أوائل أيام الفتح . فليس هناك ما يدعو الى القول بأنها حدثت أثناء ولاية عقبة بن الحجاج بالذات . وربما كانت أيام عقبة هي أبعد الأيام احتمالا لوقوع هزيمة اسلامية على يد النصارى في الأندلس ، لأن الرجل كان محاربا لا يمل القتال ، وقد استنفد أيامه في الحروب مع النصارى ، وظل يتتبع الثائرين في جليقية حتى خيل اليه أنه قضى على كل أمل لهم في القيام على المسلمين من جديد ، ثم انصرف بعد ذلك الى الناحية الشمالية الشرقية ودخل بنبلونة ^(١) وما يليها من البلاد شمالا ، ولو قد هزم له بعث على يد يلاى لما انصرف عنه ولواصل قتاله . والثابت من الروايات النصرانية والاسلامية أن يلاى تتبع المسلمين بعد انتصاره عليهم حتى أخرجهم من بلاده ، ولا يمكن أن يكون ذلك قد وقع على أيام عقبة . والمراجع الاسلامية صريحة كذلك في أن يلاى طارد المسلمين وأخرجهم من بلاده أثناء فتنة أبي الخطار والصليل أى بعد سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ - ٧٥١ ميلادية .

بيد أن هذا لا يتفق وما تجمع عليه الروايات النصرانية من أن « يلاى » توفي سنة ٧٣٧ ميلادية ، وهى فى مجموعها لا تستند على دليل

(١) يقول ابن عذارى عن أعمال عقبة الحربية : « وهو الذى فتح مدينة أربونة ، وافتتح جليقية وبنبلونة وأسكنها المسلمين . وهت فتوحاته جليقية كلها غير « الصخرة » ، فإنه بنا إليها ملك جليقية وكان بها ثلاثمائة رجل فا زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلا حتى فئيت أزودتهم ، ولم يتقوا إلا بمسل يمدونه فى غرق الصخرة ، وأعى المسلمين أمرهم فتركهم ، وأقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجلها وأجل طريقة وأعد لها إلى أن غزا أرض أفرنجة ... » - البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٩ ، وليس فى هذا كله إشارة إلى هزيمة ، ولا احتمال انكسار أى بعث إسلامي .

واحد يؤيدها فى هذا التحديد . بل ان الفونس العاشر يجعل وفاته قبل ذلك بست سنوات أى سنة (١٢١ هـ / ٧٣١ م) أى أثناء ولاية عقبة ابن الحجاج السلولى ، مما يدلنا على أن تحديد تاريخ وفاة يلاى بهذه السنة لم يخل من أن يناقضه مؤرخ مطلع كهذا الملك العالم ، الذى قرأ كل التواريخ التى كتبت قبله ولم يقر ما أجمعت عليه .

ثم ان ابن خلدون - وقد اعتمد على الرازى وابن حيان فيما كتب من تاريخ ملوك الجلالقة - يجعل وفاة يلاى سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ - ٧٥١ م أى فى نفس السنة التى يؤكد صاحب الأخبار المجموعة أن يلاى هزم المسلمين فيها وأخرجهم من جليقية . ولما كان الرازى وابن حيان وصاحب الأخبار المجموعة هم أقدم من حفظ لنا أخبار هذه الفترة البعيدة ، فائنا أميل الى الأخذ برأيهم ، ومتابعتهم فى القول بأن واقعة كوفادونجا وقعت سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ - ٧٥١ م أثناء فتنة أبي الخطار والصليل ، وأن « يلاى » لابد أن يكون قد توفى بعد ذلك بقليل ، فى أواخر ٧٥١ م على الأرجح ^(١) .

وقد لاحظ دوزى أن التواريخ التى تحددها المدونات اللاتينية لأحداث هذه الفترة لا يمكن تأييدها ، وفضل عليها روايتى الرازى وابن حيان ، ولم يرض كذلك عن التواريخ التى قدمها ابن خلدون ، وختم كلامه عن موضوع تاريخ حوادث هذه الفترة بقوله : « انه لمن العسير جدا - أن لم يكن من المحال - أن نحل اشكالا من هذا النوع ،

(١) تذهب « مدونة البلدة » إلى أن كوفادونجا وقعت سنة ٧٥٦ م أى أثناء الصراع بين عبد الرحمن الداخل ويوسف الفهري ، وقد أخذ بروايتها ماسديو ، فذهب إلى أن الواقعة حدثت فى تلك السنة .

اذ ينقصنا الخيط الذى يدلنا على طريق الخروج من هذه المتاهة» (١) :

وهو على حق ، فليس لدينا ما يقنعنا بقبول ما تجمع عليه غالبية المراجع النصرانية من جعل وقعة كوفادونجا سنة ٧١٨ م وجعل وفاة پلاى سنة ٧٣٧ م ولا يذكر لنا مؤرخونا الاسلاميون هذه الواقعة محددة باسم أو بتاريخ ولو تقريبيين لها . ثم ان منطق الحوادث لا يستقيم اذا نحن فرضنا أن پلاى هزم المسلمين على أيام غنبة أو على أيام عقبة : فلو قلنا أن الهزيمة وقعت في أيام غنبة لضاعقت قيمتها كنصر حاسم رد المسلمين عن بلاد اشتريس ، لأن عقبة أتى بعد ذلك وغزاها حتى ألجأ پلاى الى « الصخرة » ، ولم يبق له الا على عدد قليل من الانتصار ، أى أن « كوفادونجا » لم تكن الوقعة الفاصلة التى ردت المسلمين عن تعقب النصارى ، بل عادوا اليها وأوغلوا أكثر مما فعلوا من قبل ، وانصرفوا عنها بعد ذلك بسنوات من تلقاء أنفسهم ، لأن عقبة اضطر الى مغادرة الأندلس الى افريقية ، كما يقول باليستروس (٢) : فلا يكون والحالة هذه لكوفادونجا ولا لپلاى فضل في ارتدادهم أو في ميلاد اشتريس : ولا تكون « كوفادونجا » والحالة هذه الا مناوشة خسرها المسلمون وعادوا بعدها الى الظفر .

ولما كانت الروايات النصرانية وما بين أيدينا من الروايات الاسلامية تجمع على أن انتصار پلاى على المسلمين كان حاسما ، وأنه أعقبه اخراجهم

DOZY, *Recherches*, I, p. 96.

(١)

BALLESTEROS, *Historia* ..., II, p. 181.

(٢)

وهو خطأ : لأن عقبة أقام بالأندلس حتى انتهت ولايته نهاية غير واضحة ، وقد ثبتت مرجعه الذى أشار إليه ، وهو الأخبار المجموعة ، فلم أجد فيه ذكراً لهذا ، لا في الأصل ولا في الترجمة الاسبانية ولا في التعليقات عليها : الأصل العربى : ص ٢٨ ، الترجمة الاسبانية : ص ٣٨ - ٣٩ .

من جليقية ، فلا مفر لنا من القول بأن هذا الانتصار حدث بعد أيام عقبة ، وفي أوائل فتنة أبى الخطار وثوابة بن سلامة العاملى أى في سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ - ٧٥١ م أو فيما بعدها ، ولا محيص لنا في هذه الحالة من جعل وفاة پلاى بعد ذلك بقليل في نفس السنة ، تمثيا مع تحديد ابن خلدون لسنة وفاته .

فاذا اتهمنا من تقرير أحداث حياة « پلاى » وتحديد تواريخها ، فلنعرض حياته وما قام به من الأعمال مستخلصة من مجموعة ما لدينا من المراجع الاسلامية والنصرانية .

نستطيع أن نقبل ما يذكره ألفونس العاشر - الملك العالم - من أن « پلاى » كان ابنا لفافىلا دوق كنتبرية ، وأن فافلا (*Fafila*) هذا كان قد استقر في توده (*Tuy=Tude*) - عاصمة كنتبرية في ذلك الحين - بعيدا عن البلاط القوطى في طليطلة ، لأن نزاعا قام بينه وبين الملك « اجبكا » (*Egica*) فلما مات هذا الأخير وخلفه غيطشه ، تجدد النزاع بينه وبين « فافلة » ، اما لأن غيطشه طمع في زوج فافلة (أم پلاى) أو لسبب آخر ، والمهم هو أن النزاع ثار بين الرجلين ، وفر فافلة مرة أخرى الى كنتبرية حيث مات هناك مخلفا ابنه « پلاى » .

فلما وثب الذريق بغيطشة وآله ، انضم اليه « پلاى » وأعان على ادراك العرش ، فكافأه على ذلك بأن جعله « حامل سيفه » (*spatarius*) واستمر « پلاى » على هذا حتى فتح العرب الأندلس ، فكان ممن وقعوا في أيديهم أسرى ، فاحتفظوا به لديهم في قرطبة رهينة .

ولما كانت أيام الحر بن عبد الرحمن بن يوسف الثقفى ، عامل الأندلس بين سنتى ٩٧ و ١٠٠ هـ / ٧١٧ - ٧١٩ م . أمكنت پلاى

الفرصة ، ففر من قرطبة ، وتشرّد في نواحي شمالي الأندلس فترة من الزمن ، وتنقل في اشتريس حتى استقر به المقام في *بلاي غدا* « كانجا دى أونيس » ، وهناك التف حوله نفر من القوط الهاريين من المسلمين ونفر من الايبيريين الرومان المقيمين في هذه الناحية ، فأخذ يحرضهم على الوثوب بالعرب ، ويعيب عليهم طول الاستسلام والتراجع أمام المسلمين حتى استنهضهم ، وجبّعهم على الوثوب بهم .

وكان عامل المسلمين على نواحي اشتريس القائد البربري « مونوسة » ، فوَقعت بينه وبين بلاي مناوشات ، وظل مونوسة يحاربه ويطارده حتى ألجأه الى التحصن « بالصخرة » في عدد قليل جدا من أنصاره ، ولو ظل مونوسة مكانه لقضى على بلاي في ذلك الحين ، ولكن نزاعا وقع بينه — أى بين مونوسة — وعبد الرحمن الغافقى ، فحاربه وما زال به حتى قتله على يد قائده البربري « ابن زيان » سنة ١١٣ هـ ٧٣١ م .

وخلا الجو أمام « بلاي » بذلك ، فتشجع وخرج من « الصخرة » وأخذ في التوسع حتى استولى على خيخون التي كان « مونوسة » يقيم فيها ، وبسط سلطانه على اقليسي اشتريس وكنتبرية ، واتسع ملكه ، وأخذ ينازع من جاوره من الأدواق ، حتى شمل سلطانه جزءا من جليقية وناحيى اشتريس وكنتبرية .

فلما ولى الأندلس عقبه بن الحجاج السلولى (١١٦ — ١٢٣ هـ / ٧٤١ — ٧٤٤ م) تجرد للقضاء على هذه الدولة التي قامت في وجه المسلمين في شمالي الأندلس وأخذت تنتقص من سلطانهم على شبه الجزيرة ، فما زال يحارب بلاي ويقتطع أراضيه جزءا جزءا حتى رده

الى « الصخرة » كما كان ، وأدخل الكثيرين من أهالى اشتريس في الاسلام ، وكادت الدولة الناشئة أن تنهار وينتهى أمرها .

ثم ساعفتها المقادير بما وقع من الخلاف بين اليمينيين والقيسيين في الأندلس عقب وثوب عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمينية بعقبة واتزاعهم الأمر من يده ، فتنفس بلاي ومن معه الصعداء ، وأخذوا يغادرون الصخرة وينتشرون فيما والاها من نواحي اشتريس .

ووقعت في أثناء ذلك الفتنة البربرية ، واشتد الصراع بين العرب والبربر في نواحي شبه الجزيرة كلها ، وكان عقبه قد خلف على اشتريس علقمة اللخمى ومعه قوة من الجنود تقيم في استورقة (*Astorga=Asturicum*) أو في ليون (*Leon=Legio*) فقال علقمة ومن معه ما رأوا من تقدم بلاي وأصحابه في أرض المسلمين ، فنهضوا اليهم في قوة يسيرة ، وتوغلوا في بلادهم حتى أدركوا الصخرة ، وتحصن بلاي منهم في جبل أوسبة (*Auseva*) واحتضى نفر من أنجاد جنده في مغارة كبيرة تسمى « مغارة أونجه » (*Covadunga=Cova de Onga*) أو « مغارة مارية المقدسة » ، فلما أراد العرب اقتحام الجبل والصعود الى المغارة هبط عليهم بلاي وأصحابه فهزموهم ، وقتلوا علقمة ، وارقد المسلمون مسرعين نحو استورقة وشردت جماعة منهم ، ومضت تضرب في نواحي اشتريس القاحلة حتى نزلت ناحية ليبانا *Liebana* حيث هلكوا ، اما على يد الجلائقة أو لسبب آخر . وتشجع بلاي وأصحابه فتقدموا واستعادوا ما كانوا فقدوه ، وعاد أمرهم كما كان . وأتاح المسلمون لهم هذه الفرصة بما انشغلوا فيه بعد ذلك من فتنة أبى الخطار والصليل ، فاطمأن بلاي وأصحابه ، وقوى مركزهم وثبتت أقدام الدولة الجديدة .

١٣٩ - أمية: هذه هي خلاصة ما بين أيدينا من النصوص عن « بلاى » كوفادونجا ومعركة « كوفادونجا ». وواضح جدا أن هذه المعركة لم تكن في واقع الأمر أكثر من مناوشة انهزم فيها المسلمون لأسباب أخرى غير ما تزعمه الروايات النصرانية من تفوق بلاى وأصحابه في الشجاعة والنجدة أو من تدخل قوى علوية خفت لنجدة النصارى في اللحظة الحاسمة . ولم يعد المسلمون الى مهاجمة هذه النواحي الشمالية القاصية الا في أيام المنصور بن أبى عامر ، فظلت منذ يوم « كوفادونجا » مهدا لدولة اشتريس الناشئة ، فثبتت قواعدها ورست أصولها على نحو لم يستطع المسلمون معه ازالته بعد ذلك أبدا ، أى أن هذه الواقعة كانت ايدانا بميلاد اشتريس وبدء حاسما لحركة المقاومة النصرانية في شبه الجزيرة . وهى على هذا الاعتبار حادث فاصل من حوادث التاريخ الأسباني .

وربما بدا لنا أن التواريخ الأسبانية تبلغ في تعظيم هذه الموقعة ، وربما كان مرد هذه المبالغة الى « بلاى » وأصحابه ومعاصريهم من القصاص . بيد أنه لا حرج على بلاى وأصحابه ، ولا حرج كذلك على الروايات النصرانية في مثل هذه المبالغة ، لأن هذه المناوشات ، التى وقعت بين المسلمين والنصارى في نواحي اشتريس وانتهت بانتصار هذه الجماعات النصرانية التى اختارت العيش في هذه الناحية القاصية القاحلة — مستقلة عن سلطان المسلمين — على العيش في ظلالهم ، قد وضعت أساس الدولة الأسبانية النصرانية التى سيتاح لها أن تناوىء المسلمين قرناً بعد قرن حتى تتيح الظروف لها فرصة اخراجهم من البلاد .

والتاريخ الصحيح يعتبر « كوفادونجا » ميلاداً لهذه الحركة التى ستصل حلقات تاريخ اسبانيا النصرانية وتعيد البلاد الى النصرانية

والى ميدان الحضارة الغرية من جديد . وليس الى الشك سبيل في أن حركة بلاى تعد حادثاً رئيسياً في تاريخ اسبانيا كله ، لأن العبرة في أمثال هذا الحادث ليست بالتفاصيل الدقيقة ولا بالأرقام الصغيرة أو الكبيرة ، بل العبرة فيها بالمعنى التاريخي الذى يستتر خلف الحادث نفسه . « ونحن — كما يقول المؤرخ باليستروس — بعيدون جداً عن الحادث بدرجة لا تسمح لنا بأن نزعّم أننا نستطيع أن نقدر أعداد المقاتلين أو أن نصف الحركات الحربية على وجه الدقة ، ثم ان هذا ليس هو الأساسى ولا المهم ، فسواء أوجد في هذه المعركة هذا العدد أو ذاك من المقاتلين ، وسواء أكانت وقعت في هذا المكان بعينه أو في مواقع أخرى ، فإن الأمر المهم هو أن بعثا اسلاميا — ربما كان صغيرا — أراد أن يقضى على مركز حركة ثورية ، وحاول الوصول الى الموضع الذى اعتقد رجاله أنه وكر رجال العصابات والثائرين ، ففشل في ادراك ما طلب بسبب النخوة والشجاعة التى أبدتها حفنة من الرجال كانوا يقاتلون قتال اليأس منافحين عما بأيديهم ، وأنقذوا بهذا الكفاح ما هو أغلى مما كانوا يملكون في ذلك الحين ، وهو الاستقلال عن السيادة الأجنبية . وقد أقاموا بعد ذلك محافظين على كرامتهم وممتلكاتهم محتملين ما كلفتهم هذه المحافظة من باهظ التكاليف » .

« ثم ان ازدياد الاجلال لكوفادونجا مع مرور الزمن ، واتجاه الأنظار خلال الأعصر الى هذه البقعة من الجبل التى أشرنا اليها بالذات ، ليدلان على أنه قد وقع فيما يحيط بها ويقاربها حادث باقى الأثر من حوادث الصراع الذى أراد خلفاء من حضروه وشهدوه أن يخلدوا ذكره . فكيف وبين أيدينا وثائق تؤيد وقوع هذا الحادث بالفعل ؟ ولسنا نريد بهذه التأكيدات كلها أن نقول — بأى حال — ان الموقعة كانت

من الكبير بما يتفق مع هذه المعاني التي ذكرناها ، وليس معناه كذلك أن الكارثة التي نزلت بالعدو كانت بالشدة التي يصفها بها الرواة الذين استرسلوا مع خيالهم وحساسهم أكثر مما ينبغي ، وإنما معناه أن النقد السليم يقرر الصفة الرمزية للواقعة ، فقد كانت بدءاً لعمل مجيد ، وكانت أول حجر في بناء ضخيم . وكانت هذه الهزيمة الصغيرة وذلك الفضل اللذان أصابا القوة الحربية الإسلامية عوامل أفهمت النصاري أن أعداءهم لم يكونوا معصومين من الهزيمة ، وذلك وحده يوضح لنا كيف أن الحادث الصغير أصبح منذ هذا التاريخ معتبراً في نظرهم رمزاً وهدفاً وغاية بعيدة عالية . أي أنه إنما كان في الواقع الملموس بدء استقلالهم وبدء التحرر من السلطان الإسلامي . وهذا أمر ذو قيمة لا تقدر» (١) .

وأما من وجهة النظر الإسلامية فهذه الحادثة في ذاتها لم تكن تعنى شيئاً لو لم يعقبها من الأحداث ما زاد في قيمتها وأهميتها : فلو لم يختلف المسلمون على أنفسهم ويتقسموا شيعاً لما كان لكوثادونجا ولا لبلاى نفسه أهمية كبرى ، فإن انهزام الجيوش الإسلامية لم يكن بالأمر النادر ولا الحاسم ، وقد انهزمت هذه الجيوش في إفريقية مثلاً عشرات المرات ، وكانت الهزائم في بعض هذه الحالات قاسية بل قاصمة ، ولكنها لم تكن حاسمة . لأن المسلمين استطاعوا أن يجمعوا صفوفهم بعد كل هزيمة ويعودوا للقتال حتى يقضوا على الحركة ويستعيدوا ما يكون قد ضاع منهم . فأما في هذه المرة فقد عجز المسلمون عن إخضاع هذه الناحية ، وقامت فيها الدولة النصرانية ولم تخضع من التاريخ بعد ذلك أبداً ، فأصبحت لهذا حادثاً حاسماً له خطره في تاريخ

اسبانيا الإسلامية . والثابت على أي حال أن المسلمين لم يتركوا هذا الركن القصي من جليقية دون فتح لأنهم هزموا أمام بلاى أو غيره ، أو لأنهم احتقروا هذه البقية الباقية من الثائرين ، بل لأنهم انصرفوا عنها إلى التافه من منازعات الجنس والعصية ، فأضعفوا أنفسهم من جهة ، وأعطوا رجال الحركة فرصة كانوا في أشد الحاجة إليها ليشبوا أقدامهم وليتحولوا من جماعة من الثائرين المطاردين إلى دولة مستقرة لها كيان ولها سيادة على ما تملكه من الأرض من جهة أخرى ، ومن الواضح جداً أن هذه الحركة وانصراف العرب عن القضاء عليها قد أنشأت في شبه الجزيرة وضعاً جديداً سيكون محورياً من محاور التاريخ الأندلسي كله وهو : أن أسبانيا لن تكون من ذلك التاريخ قطراً إسلامياً خالصاً ، وإنما ستكون قسمة بين الدولة الإسلامية والدولة النصرانية ، وأن كلا من هاتين الدولتين ستسير في طريقها ، وأن النزاع بينهما سيستمر ، وأن هذا النزاع سينتهي بعد قرون طويلة برجحان الكفة النصرانية وزوال أمر المسلمين والإسلام من البلاد .

ولم يخف هذا المعنى على مؤرخينا الإسلاميين ، فهذا ابن حيان يقول عن جماعة بلاى : « ... وما زالوا ممتنعين بوعرها — أي بوعر الصخرة — إلى أن أعياى المسلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا ثلاثون علجاً ! ما عسى أن يجيء منهم ؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة والاستيلاء إلى ما لا خفاء به . وملك بعده — أي بعد بلاى — أذفونش جد عظماء الملوك المشهورين بهذه السنة ... » (١) . وهذا ابن سعيد يقول : « قال احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه إلى أن ملك عقبـ

من كان فيها المدن العظيمة ، حتى أن حضرة قرطبة في يدهم الآن ، جبرها الله ، وهى كانت سرير السلطنة لعنينة ^(١) .

وينبغي كذلك أن نقرر أن هذه الحادثة أخذت جانبا عظيما من قيمتها من مليعة هذه الطوائف القوطية والايبرية الرومانية التى اعتصمت بهذا الركن ، فقد كانت طبيعة صلبة مثابرة لا تكف عن القتال ولا تخشاه ، وهى لم تقنع بالسلامة من أيدي المسلمين ، وانما عولت على الاستمرار فى مناجزتهم ، ومضت فى ذلك بصبر وجلد يستوقفان النظر . وأحسن رجالها الاستفادة من هذا الوضع الذى كانوا فيه على بساطة شأنه ، وما زالوا يحاربون ويجالدون ، لا يتركون غرة من العرب الا انتهزوها ، حتى أصبحوا مع الزمن قوة يخشى بأسها .

فاذا صح هذا استبان لنا القيمة الحقيقية لشخصية بلاى فى التاريخ الاسباني عامة ، فهو واضح أساس الدول النصرانية الشمالية الغربية التى ستحمل لواء المقاومة على الجبهة الشمالية الغربية « وهو أبو بنى أذفنش هؤلاء » كما يقول مؤرخونا الأندلسيون ، وقد رأينا أن معظم أحداث حياته لا زال نهبا موزعا بين القصص وأصحاب الملاحم الشعرية الأسطورية ، ولكن المهم أن التاريخ الصحيح يعترف له بجمع شمل النصارى المتفرقين وقيادتهم فى حرب المسلمين قيادة موفقة ، وفى هذا كفاية ، فلا معنى إذن لانكار وجوده كما فعل بعض المسرفين فى الشك من المؤرخين ^(٢) ولا معنى للإصرار على أنه ينحدر عن صلب البيت

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) مثل MAYANS و MASDEU (يتم وجوده ولكنه يشك فى نسبة الكثير من أعماله إليه)

و SARMIENTO و CASIRI و NOGUERA

cf : BALLESTEROS : op. cit. p. 194.

الحاكم القوطى القديم ، لأن الواقع أن الرجل سما الى أوج الملوك بما قام به من دور كبير : « وربما كان بلايو هذا ، منشى الأسرة الأشتورية رجلا عاديا من العوام ، رجلا بسيط الأصل رقيق الحال ، ولكنه امتاز على أى حال بخصال متازة أهله للرياسة . وسواء أكان قوطيا أم ايبريا رومانيا ، فقد استطاع أن يضع نفسه على رأس المغلوبين فى لحظات الخطر المحيق ، وحاز لنفسه القيادة عن جدارة » كما يقول باليستروس ^(١) ، فذلك لا يغير من الواقع شيئا ، لأنه يبقى لبلای بعد ذلك فضل اقامة دولة للنصرانية فى الشمال وتعزيزها أمام الفتح الاسلامى الجارف ، وفضل تكوين هذه النواة التى تكونت حولها فيما بعد دول استطاعت أن تسير بالتاريخ الاسباني الى الأمام حينما عجز المسلمون عن الاستمرار فى القيادة بعد انهيار دولة الخلافة الأموية وفشل كل المحاولات الجليلة التى قام المسلمون بها لجمع الكلمة واعادة سيادة الاسلام على شبه الجزيرة .

هذا ، وليس بين مؤرخى الأسبان المحدثين اجماع على اقرار ما تذهب اليه الروايات النصرانية من انحدار بلاى عن صلب قوطى — ملكى أو غير ملكى — بل منهم من يذهب الى أنه من أهل اشتريس الرضلاء ، أى كلتى أو ايبرى رومانى ، وأن اسمه الأصلي ليس بلاجيوس (Pelagius) كما توردته المذونات النصرانية بل يلايو (Pelayo) بدليل وجود ألفاظ كثيرة فى اللغة الأشتورية تنتهى بالياء والواو (yo) منها أسماء أعلام مثل (Voicayo) و (Poyayo) و (Olayo) و (Ubayo) وألفاظ مثل (orvayo) و (carbayo) و (borgayo) ^(٢) و (argayo) ^(٣) .

(١) BALLESTEROS : op. cit. p. II, 174.

(٢) RICARDO BURGUETE : Rectificaciones históricas, p. 284.

بل من علماء الاسبان من يقرر أن أصل بلاي من ناحية ليبانا بالذات (١) ، ومراجعتنا العربية تؤيد هذا الرأي ، وهي أقدم من المراجع النصرانية ، فهي تسميه بلاي وهي تسمية أقرب الى بلايو منها الى بلاجيوس ، ثم ان أوثق مؤرخينا الاسلاميين يؤكدون أن الرجل كان جليقيا على ما سبق ذكره .

وقد كانت عاصمته طول حياته بليدة كانيكاس اللاتينية (Canicas) (Cangas de Onís) الأسبانية ، وأغلب الظن أنه دفن بها مع زوجته جاوديوسا (Gaudiosa) ، وخلفه ابنه فافلة (Fafila) على ما تجمع عليه المراجع النصرانية (يؤيدها في ذلك ابن خلدون) ، ولم يكن على شيء من خصال أبيه ، وانما كان مولعا بالصيد ، وقتله دب أثناء الطرد بعد أن حكم سنتين لم يكد يفعل خلاهما شيئا ذا بال كما يقول سباستيان السلمتي (٢) ، ويجعل المؤرخون وفاته في سنة ٧٣٩ م وذلك لا يتفق مع ما ذكرناه ، والأصح أن يكون قد توفي سنة ٧٥٢ م أي قبل قيام الدولة الأموية بأربع سنوات ، ودفن مع زوجته فروليبا (Froileba) أو (Froiliuba) في كنيسة سانتا كروث في كانجاس .

وقد انتهت ولاية عقبة بن الحجاج الذي كان يرجى أن يتم القضاء على حركة بلاي على يديه نهاية غير واضحة ، فمن قائل انه مات حتف أنفه اثر مرض ألم به ، وأنه أوصى لعبد الملك بن قطن بالولاية من بعده (٣) ومن قائل أن اليمينيين انتهزوا فرصة ثورة بربر إفريقية على العرب أثناء ولاية عبيدة بن عبد الرحمن ، فعزلوه وولوا شيخهم عبد الملك بن قطن

(١) BALLESTEROS : op. cit. p. 182.

(٢) cf : JIOS AMQZA GARCIA SÁLA : Gijón en la Historia general de Asturias. II pp. 445-499

(٣) ابن القطان ، في البيان المغرب لابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٩ .

مكانه (١) ، وهكذا اختفت هذه الشخصية العربية المجاهدة في « ليل الزمان » كما يقولون ، ولو قد أتاحت له فرصة أطول لترك أثرا بعيدا في تاريخ الغرب الاسلامي .

وكان من سوء طالع الدولة الاسلامية الأندلسية الناشئة أن الأمور صارت الى عبد الملك بن قطن من بعده ، إذ أن عبد الملك كان يمينا شديد العصية قليل السياسة ، فلم تلبث الأمور أن ساءت بين يديه ، واشتعلت نيران الثورة البربرية في الأندلس ، وأعقبها قدوم طالعة بلج من الشاميين الى الأندلس واحتدام الخصومة بين هؤلاء الشاميين ومن كان في الأندلس من قدماء الفاتحين والمهاجرين من العرب والبربر الذين يطلق عليهم لفظ « البلديين » ، مما جعل الأندلس الاسلامي شعلة نار ، فهلكت من العرب أعداد كبيرة ، وفنيت من البربر جماعات ، وعادت جماعات أخرى منهم الى مواطنها الأولى في افريقية ، فلم يقف تراجع المسلمين عند حدود اشتريس كما رأينا ، بل خلت المساحة الواسعة الواقعة بين نهري المنهو ودويره من سكانها المسلمين ، وأصبحت أرض فضاء حاذرة بين الدولة النصرانية في أقصى الشمال والدولة الاسلامية التي أصبحت تحد من الشمال بخط يبدأ من افراغه على ساحل المحيط الأطلسي ويمتد الى قورية فظليطة ، ثم يصعد حتى لارده في ناحية الشرق . ولم يوقف هذا التقلص الا قدوم عبد الرحمن الداخل واقامته صرح الدولة الأموية في سنة ١٣٤ هـ / ٧٥٦ م .

وكان من حظ الامارة النصرانية الناشئة في نواحي جليقية ١٤٠ - أذفونش أن صارت قيادتها بعد فافيل الى زعيم قوى نشيط هو ابن بيطر (ألفونسو الأول) الملقب بالأول . ولم يكن من بيت بلاي ، وانما كان ابنا لبطره (Pedro) دوق كستبرية ، وكان

(١) الرازي في نفع الطيب للمقري ، ج ٢ ص ١١ ، وابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٩ .

أذفونش قد تزوج بنتا لبلايو تسمى ارمنسندا Ermensinda ، وارتقى العرش بعد موت فافله ، مما يفهم منه أن فافله بن بلاي مضى صغيراً دون أن يخلف عقبا (١) .

تولى أذفونش بن بطره دوق كنتبرية شئون امارة بلالية الصغيرة فأضاف إليها دوقية كنتبرية ، فاتهست حدودها اتساعاً طلياً مكنها من الخروج من صخرتها القاحلة التي كانت حروب عبدة بن الحجاج السلولى قد ألجأتها إليها .

ويجمع المؤرخون على أن أذفونش الأول كان زعيماً واسع النشاط بعيد المطامع : تولى وقد انزاح عن الامارة النصرانية خطر المسلمين الى حين ، وشغلته عنها حروبهم سنوات طويلاً ، فعجل أذفونش بانتهاز الفرصة ، واستغلها أحسن استغلال لصالحه ، فلم يخلف العرش الا وهذه الامارة النصرانية الصغيرة دولة ذات حدود ومعالم وأسباب من القوة تمكنها من الحياة والاستمرار في التقدم ، ولم يستطع المسلمون بعد ذلك القضاء عليها ، فلا غرابة أن يعتبر الاسبان حكومة أذفونش الأول الميلاد الحقيقي لاسبانيا النصرانية .

وقد اختلفت آراء المؤرخين في أعمال بطره كما اختلفت في بلاي وأعماله ، فذهب هر كولانو الى أنه لم يكن أكثر من زعيم جماعة من رجال العصابات (٢) ، وذهب ساموذا الى أنه كان مجرد نهاب يباغت المواضع العامرة لينهب ما فيها ، دون أن يجد حرجاً في ذلك (٣) ، فقد كان أمثاله من القادة يعيشون على السلب في هذه الأعصر ، وربما

(١) BALLESTEROS : *op.cit.* II. p. 184(٢) ALEJANDRO HERCULANO: *Historia de Portugal* (Lisboa, 1863 IV.(٣) SAMOZA, *op. cit.* p. 431-504.

حركته الى القيام ببعض غاراته عوامل دينية . ومهما يكن من أمر فقد كان الرجل صاحب فتوح وحروب ، وقد اقترن عصره باتساع مفاجيء لدولة أشتريس الناشئة أصبحت بعده تسيطر على نحو خمس شبه الجزيرة كله ، وقد ذهبت المدونات النصرانية ومن تابعها من المؤرخين مذاهب شتى في تفصيل حروبه وفتوحه التي قام بها حتى بلغ بدولته الصغيرة هذا المبلغ (١) .

لم يكد أذفونش يستقر في الامارة وبوطد أمورها بعد ١٤١ - المسلمين اتساعها الجديد حتى وجد البربر الذين كانوا يحتلون غسلون الركن نواحي أشتريس وكنتبرية وجليقية وعامة النواحي التي الشمال الغربى لشبه الجزيرة يسميها صاحب الأخبار المجموعة « خلف الدروب » (٢) يهجرون مساكنهم وأوطانهم وينحدرون الى الجنوب ، ووجد أن الهجرة لا تقتصر على البربر بل تشمل العرب كذلك ، فقد انجفل الذين كانوا يقيمون منهم في هذه النواحي القاصية الى نواحي وسط الأندلس وجنوبها ، وأن الكثيرين منهم هلكوا في الفتنة التي وقعت بينهم . وقد كان انجفال المسلمين — ما بين عرب وبربر — من هذه النواحي حادثاً خطيراً يصفه صاحب الأخبار المجموعة بقوله : « قفضى

MASDEU, *op. cit.* XII pp. 60 :qq.

(١)

(٢) الدروب هي الطرق التي كان المسلمون يسلكونها في طريقهم من سهول الجنوب والوسط الى النواحي الساحلية العامرة في أقصى شمال الأندلس ، ومعظمها طرق رومانية قديمة بين الهضاب والجبال وأهمها دربان : درب شرق من طليطلة الى وادى الحجاره الى حوض إبرة ، ثم يسير بمحاذاة ماراً بقلعة ونخريجه بنبيلونة Pampelona ومن ثم يفضى الى إلبه Alava والقلاع Castilla وأشتريس Asturias . ودرب غربى يبدأ من الجوف El Algarve ويسير الى ماردة Merida وقورية Coria ثم طليطلة Talavera فطليطلة Toledo ومنها إلى سلمنقة Salamanca وسمورة Zamora فجليقية .

أن بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدو على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا في أقطار الأندلس فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أسترقة والمدائن التي خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن إلا فلثهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس ، إلا ما كان من عرب سرقسطة وقرطاج ، فانهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهجم عليهم البربر ، فأخرج إليهم عبد الملك (بن قطن) جيوشا فهزموها وقتلوا العرب في الآفاق (١) . وبهذا لم تبق منهم في هذه الناحية بقية ، ولم يعد العرب إلى الاستقرار في « المدائن التي خلف الدروب » بعد ذلك ، وكان ذلك آخر عهدهم بها : زالت آثارهم منها على الرغم مما بذلوا من جهد في فتحها والاستقرار فيها ، زالوا منها لا على يد القوط أو الأيبيريين الرومان بل على يد البربر شركائهم في الدين وحلفائهم في هذا الفتح الكبير .

١٤٢ - هجرة البربر حينما فعلوا ذلك استقروا في مواضع العرب أعداد كبيرة من وأقاموا يعبرون هذه النواحي ، بل اتجهت همتهم إلى البربر الإفريقية التجمع في جيوش والسير إلى الجنوب للقضاء على العرب جملة ، فتخرج مركز العرب ، ولم يجد عبد الملك بن قطن شيخ اليمينين وسيد الأندلس إذ ذاك بدا من الاستعانة ببلج بن بشر ومن معه من الشاميين الذين كانوا محصورين في مينة لكي يخلصوهم من البربر (١٢٣ هـ / ٧٤١ م) فعبروا ونازلوا البربر وانتصروا عليهم في مواقع حاسمة عند شدونة وعلى مقربة من قرطبة وعلى وادي سليط El Rio Salado (أوائل ١٢٤ هـ / منتصف ٧٤١ م) وقتلوا منهم أعدادا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

عظيمة . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعقبوهم بالأذى والقتل في نواحي الأندلس كلها « فلم ينج منهم إلا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش في الأندلس ، فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم » (١) .

ولما كان البربر هم غالبية من استقر في نواحي الشمال ١٤٣ - المجاعة الغربية للأندلس وريفها من المسلمين ، فقد بدأت هذه تجتاح شبه الجزيرة الأرياف والمزارع تغزو من العنصر الاسلامي ، وكانت الحروب بينهم وبين العرب ، وبين العرب وأنفسهم قد خربت الزرع وحالت بين المزارعين من أهل البلاد ، وبين مواصلة عملهم الآمن في الحقول ، فأخذت الحاصل تقل من منتصف سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ م) ، وتوالي ذلك خلال السنوات التالية ، فلم تحل سنة ١٣٣ هـ / ٧٥١ م حتى شملت الأندلس جميعه المجاعة الكبرى التي أشرنا إليها ، انضفت مساكنها إلى مساكن الحروب والمنازعات فقل العمار في النواحي وضربت المجاعة بجرانها ، حتى تقطعت أوصال البلاد ، « وكانت البرد قد قطعها الجوع فلا يريد » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة (٢) . وهبطت البلاد كلها خلال السنوات التي أعقبت هذه الثورة البربرية هبوطا بالغا خيف منه على مصير الاسلام في البلاد جملة .

١٤٤ - إخراج المسلمين من جليقية وما يجاورها لم يكن أذفونش وأصحابه يترقبون بخصومهم المسلمين المسلمين من جليقية وما يجاورها من كان في طاعة المسلمين من أهل النواحي الشمالية من الأيبيريين الرومان فوثبوا بالعرب في نواحي جليقية

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٨ .

وما يصاحبها ، ويشير الى ذلك صاحب الأخبار المجموعة اشارة فيها خطأ في تحديد التواريخ ولكنها تصور الحال تصويرا حسنا بقوله : « وغلظ أمر علي يقال له بلای قد ذكرناه في أول كتابنا ، فخرج من الصخرة ، وغلب على كورة (كلمة ناقصة) واسترس (خطأ من الناشر وصحتها أشترس) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل أستورقة حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابه ، فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين (ومائة) هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذهب في دينه وضعف عن الخراج ، وقتل من قتل ، وصار قلمهم الى خلف الجبل الى أستورقة حتى استحکم الجوع ، فأخرجوا أيضا المسلمين عن أستورقة ، وغيرها ، وانضم الناس الى ما وراء الدرب الآخر والى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين (٧٥٤ م) . واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس الى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين ، وكانت اجازتهم من واد بكورة شدونه يقال له وادی برباط ، فحف سکان الأندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو الا أن الجوع شملهم » (١) . مما يفهم منه أن نصارى الأندلس استغلوا الفرصة استغلالا كاملا ، فلم يدعروا وسيلة يمكنهم أن ينالوا فيها من المسلمين الا ابتدروها ، ولو لم تشملهم هم الآخرين المجاعة لكان بلاؤهم في المسلمين أشد وأبعد مدى .

١٤٠ - حدود
دولة الإسلام تسبها الى أذفونش بن بطره ، وهى لا تذكر أنه وجد تتراجع الى نهر هذه النواحي خالية أو شبه خالية فدخلها ، وانما تذكر أنه دويره فتحها على المسلمين بحد السيف واتزعها من أيديهم ، وهذا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦١-٦٢ .

خطأ كما رأينا . وفي نصوص هذه المدونات النصرانية تفصيل لما أوجزه صاحب الأخبار المجموعة من قوله « فأخرجوا أيضا المسلمين عن أستورقة وغيرها » . لأن « غيرها » هذه كانت مدائن كثيرة لا تقل أهمية عن أستورقة مثل افراغه Praga وبورتو Oporto وفيزيو Visiu والنواحي المحيطة بهذه البلاد حتى نهر دويره Duero . (١) . أما قول صاحب الأخبار المجموعة : « وانسحب المسلمون الى ما وراء الدرب الآخر » فمعناه انسحابهم عن طريق الدروب الشرقية المفضية الى حوض ابره واقليم سرقسطة الذى لم تسله المجاعة لخصبه ، وقد استطاع المسلمون الثبات أخيرا عند قورية وماردة في الغرب مخلفين وراءهم مراكز هامة مثل ليون Leon وسمورة Zamora ولدسما Ledesma وشلمنقة Salamanca ولسدانيا Saldana وسيمانقاس Simancas وشقوية Segovia وأبله Avila وأوكا Oca وأوسا Osmia وميراندا (٢) . وكلها مراكز هامة فتحتها الجيوش الاسلامية بعد العناء والنصب وفقدائها هؤلاء العرب والبربر بسبب منازعات قبلية عنصرية عمية لا معنى لها . وأصبحت حدود الأندلس الاسلامى الشمالية قبيل مجيء

DOZY, Recherches ..., I. p. 121

(١)

BALLESTEROS : Historia ..., II. p. 185

DOZY : op. cit. p. 123

(٢)

وقد جعن المقرئ فتح بعض هذه النواحي في أوائل أيام عبد الرحمن الداخل وفي عهد فرويلة لكن ابن أذفونش بن بطره ، وقال : «وعندما شغل المسلمون بعد الرحمن وتمهيد أمره ، قوى أمر الجلائقة واستفحل سلطانهم ، وعهد فرويلة بن أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها ومنكها من أيديهم ، فلك مدينة لكة وبرتقال وسموره وشلمنقة وقشتالة وشقوية ، وصارت الجلائقة حتى افتتحتها المنصور بن أبي عامر آخر الدولة ... » (فتح الطيب ، ج ١ ، ص ٢١٧) . ولكن إجماع المؤرخين منمقد على أن هذه المدائن سقطت في أيدي النصارى في أيام أذفونش .

BALLESTEROS : op. cit. II. p. 185

انظر :

عبد الرحمن الداخل تبدأ من ناحية الشرق عند بنبلونة في أقصى الشمال الشرقي ثم تنحدر الى تطيلة على الابره ومنها الى وادي الحجارة الى الشمال من طليطلة بين حوض الابره والتاجه ، ثم طليطلة وطلييرة في حوض التاجه ، ثم قورية وتنتهي الحدود عند قلورية على ساحل المحيط الأخضر . أي أن الأندلس الاسلامي فقد ربع شبه الجزيرة على وجه التقريب قبيل مقدم عبد الرحمن الداخل (١٣٨ هـ / ٧٥٦ م) .

وقد لاحظنا أن مؤرخينا الاسلاميين لا يؤيدون دوزي في هذا الرأي الذي انتهى اليه من أن أذفونش أخذ هذه النواحي دون قتال مع المسلمين وأن هؤلاء انسحبوا منها قبل اقترابه منها ، وهم يستعملون عبارة « أخرجهم منها » وهي واضحة الدلالة . وتفسير ذلك يسير ، وهو أن الذين هجروا النواحي بسبب المجاعة وحروب العرب والبربر كانوا جند المسلمين ورجال حامياتهم وغالبية المستقرين منهم في هذه النواحي ، وقد بقيت خلف هؤلاء جماعات من المسلمين معظمهم من البربر لم يستطيعوا الرحيل وأقاموا في منازلهم خلف الدروب على رغم الخطر المحيط ، فاستقوى عليهم أذفونش حينما وجدهم دون حماية وأخرجهم مما كانوا قد استقروا فيه ، وقد بقيت من البربر رغم ذلك كله بقية في بعض النواحي القاصية ، وتكاثرت فيها وتركت أساءها على بعض المواضع في أقصى نواحي جليقية وأشتريس .

١٤٦ - مابين نهري المنهر و النويرة منطقة فراغ
وليس معنى ذلك أن مملكة أشتريس الناشئة اتسعت حتى شملت ذلك كله ، لأن الواقع أن أذفونش الأول لم يستول بال فعل الا على النواحي المحيطة بأشتريس أي ناحية نيبكانا وبردوليا Vardulia وساحل جليقية ، وليس من المؤكد أنه احتل ليون . وأما الباقي وهو المساحة الواسعة الممتدة بين

حوضي المنهر والتاجه فكانت في ذلك الحين أرض فضاء فاصلة بين اسبانيا الاسلامية في الوسط والشرق والجنوب والغرب ودولة أشتريس النصرانية في أقصى الشمال (١) .

وتؤيدنا المراجع النصرانية في هذا القول لأنها لا تقول ان أذفونش استقر في هذه البلاد الكثيرة التي تعددها ، وإنما تكتفى بالقول بأنه خربها وأقفر أريافها (Eremavit campos) (٢) .

تذهب التواريخ الاسبانية الى أن أذفونش الأول حكم عشرين سنة امتدت من ٧٣٩ م الى ٧٥٧ م (٣) ، ويقرر ابن خلدون أنه لم يحكم الا ثمانى عشرة سنة ويجعلها من ١٣٥ هـ الى ١٤٢ هـ ٧٥٢-٧٦٠ م وهو خطأ ظاهر في الحساب ، والغالب أنه أراد أن يقول ثمانى سنوات فقط ، ونظن أن حكومة أذفونش لم تزد على هذه السنوات الثمان تبع للحساب الذي قدمناه . وتوفي في أوائل حكم عبد الرحمن الداخل . فكأنما أرادت المقادير أن تتدارك المسلمين في هذا القطر الواسع برجل يعيد اليهم ما فقدوا على يد أذفونش الأول (٤) .

(١) BALLESTEROS : op. cit. p. 185

(٢) MANUEL RISCO : España Sagrada, XXXVII. p. 93.

(٣) DOZY : Recherches ..., I, p. 95

(٤) انظر نص ابن خلدون الذي أورده دوزي ذيلاً لأبحاثه :

DOZY, op. cit. appendice III p. XII.

واليك قائمة ملوك أشتريس الأول وتواريخ حكمهم كما أوردها الملونات اللاتينية مقارنة بما أورده ابن خلدون (ص ٩٥ من الأبحاث) :

ابن خلدون	الملونات اللاتينية
٧٥١-٧٣١/١١٤-١١٣	بلاى Pelayo ٧٣٧-٧١٨
٧٥٣-٧٥١/١٣٥-١٣٣	فانلة Fafila ٧٣٩-٧٣٧
٧٦٠-٧٥٣/١٤٢-١٣٥	أذفونش بن بطرة Alfonso I ٧٥٧-٧٣٩
٧٦٩-٧٦٠/١٥٢-١٤٢	فرويلة بن أذفونش Froila ٧٦٨-٧٥٧
٧٧٥-٧٦٩/١٥٨-١٥٢	أورال بن فرويلة Aurelio ٧٧٤-٧٦٨
٧٨٥-٧٧٥/١٦٨-١٥٨	شيلون Silon ٧٨٣-٧٧٤
٧٩٢-٧٨٥/١٧٥-١٦٨	مورقات Mauregatos ٧٨٩-٧٨٣

١٤٧ - آراء وقد اختلفت أحكام المؤرخين الاسيان على اذفونش الأول، المؤرخين في فن قائل انه لم يكن الا رئيس عصابات يفجأ بها الأماكن اذفونش الآمنة العامة ويخربها ، ومن قائل انه لم يكن يرمى من وراء هذا الجهد كله الا الى السلب والنهب ، ومن قائل انه كان يسعى واعيا الى استرجاع اسبانيا من المسلمين . وربما كان أصح الآراء فيه أنه كان يغاور كل من جاوره طمعا في الغنائم التي لم يكن يستطيع تسيير أموره في دولته بدونها ، وطمعا في توسيع رقعة مملكته الصغيرة . أما القول بأنه كان يسعى لاسترجاع البلاد من المسلمين فبالغة في التقدير لا يؤيدها الواقع ، لأن الرجل كان يغاور جيرانه النصارى وينزل بهم من البلاء أشد مما أنزل بالمسلمين ، ثم انه — آخر الأمر — لم يلق المسلمين في موقعة واحدة ولم يفكر في السير الى نواحيهم ، وإنما اقتصرته جهوده على النواحي الخالية التي لم يكن ليتوقع فيها مقاومة . ثم انه لم يحتل من البلاد التي خلت من أهلها المسلمين الا ما ذكرنا من نواحي أشتريس وليبانا وبردوليا ، أما الباقي فقد قام باخراج بقية المسلمين منه أهل البلاد من الايبيريين الرومان ، بعد أن أخرج المسلمون أنفسهم بأنفسهم منها .

ومهما يكن من الأمر فقد انتقلت دولة النصارى في الشمال في عصره من طور الى طور : اتسعت حدودها واطمأنت أمورها وابتعد عنها الخطر الاسلامي ، فاتيحت لها الفرصة للتكون والسير نحو القوة ، وأصبحت نواة صلبة لن يستطيع المسلمون القضاء عليها بعد ذلك ، بعد أن كانت قد قاربت الزوال خلال ولاية عقبة بن الحجاج السلولى ، قبيل الثورة البربرية المشنومة .

الى هنا نقف بهذه القطعة من تاريخ الولايات النصرانية الشمالية خلال عصر الولاة ، بعد أن حددنا الوضع السياسى العام في شبه الجزيرة الايبيرية في مطالع الامارة الأموية الأندلسية على يد صقر قریش.

الفصل التاسع

المجتمع الأندلسي - ١ العرب والبربر والموالى

١ - العرب

١٤٨ - طالعة دخل العرب الأندلس على هيئة تيار متصل لم تسجل موسى المراجع من موجاته الا عددا قليلا تسميه « الطوالع » جمع طالعة ، وهى الجماعة من العرب الذين دخلوا الأندلس . وأول هذه الطوالع طالعة موسى ^(١) ، لأن الجيش الذى أقبل مع طارق لم يكن يضم الا طائفة قليلة من العرب ، ورجاله على هذا لا يسمون بطالعة طارق . كانت طالعة موسى تضم نحو اثني عشر ألفا من العرب ، معظمهم من القيسية واليسنية وموالى بنى أمية ومن لحق بهذه الطوائف الثلاث من البربر المنتسبين الى موسى بن نصير ، وقد كانوا فى حكم العرب رغم أصلهم البربرى .

وقد استقرت هذه الطوائف فى كل ناحية على طول الطريق الذى سار فيه موسى ، أى فى نواحي الجزيرة الخضراء واشبيلية وسرقسطة وبعض نواح متفرقة فى أقصى الشمال والشمال الغربى ، فيما تسميه المراجع « ما وراء الدروب » . والأدلة كثيرة عن أن معظم اليمنيين استقروا فى ناحية سرقسطة ، وتناثرت جماعات منهم فى قرطبة وحواليها وفى اقليم اشبيلية ومرسية ، وكان القيسيون قلة فى هذه الطالعة استقر معظمهم فى نواحي الجنوب .

وحينما أقبل الحر بن يوسف البقفى الى الأندلس فى ذى الحجة سنة ٩٧ هـ (أغسطس سنة ٧١٦ م) استصحب معه أربعمئة من « وجوه أهل افريقية » ، ويبدو أنهم كانوا نخبة عربية ممتازة لأن صاحب فتح

دامت فترة الولاة ستة وأربعين عاما هجريا ، تبدأ من رجب سنة ٩٢ هـ (ابريل - مايو ٧١١ م) وتنتهى فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٠ مايو سنة ٧٥٦ م) وهو اليوم الذى أعلنت فيه امارة عبد الرحمن ابن معاوية الداخل على الأندلس جميعه وولدت فيه الدولة الأموية الأندلسية . وقد جرت العادة بأن ينظر المؤرخون الى هذه الفترة على أنها فترة تمهيد قصيرة لا أهمية لها فى تاريخ الأندلس الاسلامى ، بل نظر اليها بعض المؤرخين على أنها فترة عابرة أنفقتها العرب فى منازعات قبلية وعبث لا طائل تحته . ولعلنا رأينا فيما مر بنا من أحداثها أنها أهم من أن ينظر اليها هذا النظر السطحي ، لأن ما عبر بها من الأحداث كان له من النتائج البعيدة ما سنلاحظ أثره فى كل دور من أدوار تاريخ المسلمين فى شبه الجزيرة الأندلسية بعد ذلك ، فقد قام المسلمون خلال هذه الفترة بأعظم جهود جربية قاموا بها فيما وراء البرتات خلال تاريخهم الطويل ، ووضعت فى أثناءها أسس النظم الادارية والمالية التى ستجرى الأمور بمقتضاها حتى قيام الخلافة الأموية على يد عبد الرحمن الناصر فى أواخر سنة ٣١٦ هـ (أوائل سنة ٩٣٩ م) ، وفى خلالها أيضا ولدت الولايات النصرانية الاسبانية فى شمالى غربى الجزيرة وشمالها ، ونشأت كذلك عداوة العرب والبربر ، وكلها ظواهر تاريخية ذات آثار ومضاعفات تاريخية دائمة . وقد عرضنا لهذه الظواهر كلا على حدة بحسب ما اقتضاه المقام ، وبقي أن نلقى نظرة عامة على الفترة كلها ، لتكون لأنفسنا فكرة صحيحة عن الأندلس الاسلامى فى فجر تاريخه

(١) المرقى : فتح ، ج ١ ، ص ١٤١-١٤٤ .

الأندلس يصفهم بأنهم كانوا « أول طوابع الأندلس المعدودين » ، ولما كان معظم عرب إفريقية من اليمنيين ، فأننا نستطيع أن نقول أن معظم هذه الطالعة كانوا من اليمنيين ، ولما كان الحر قد قدم بهم ليشدوا أزرد فقد أقاموا في قرطبة وما حوالها (١) .

١٤٩ - طالعة وأهم هذه الطوابع - بعد طالعة موسى - هي طالعة بلج بلج ابن بشر القيسى في ذى القعدة سنة ١٢٣ هـ (يناير سنة ٧٤١ م) الذين نجوا من مذبحة العرب في موقعة الأشراف ، ولجأوا إلى سبتة وتحصنوا بها حتى عبروا إلى الأندلس في ولاية عبد الملك بن قطن الفهري الثانية على ما فصلناه ، وكان عدد هذه الطالعة يقارب العشرة آلاف غالبيتهم العظمى من القيسيين .

١٥٠ - البلديون ولما كان أهل الطوابع السابقة على طالعة بلج قد استقروا في البلاد وتقسّموا خير نواحيها فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أهل البلد وأصحابها ، وتسحوا بالبلديين وكرهوا أن يقبل اليهم مثل هذا العدد العظيم من الشاميين ويقاسمهم خيرات البلد بل يحاول أن يقلبهم عليها ، فنفروا من هجرتهم وانبروا ينازعونهم السيادة على البلاد .

١٥١ - الشاميون ومن تاريخ نزول بلج وجماعته القيسية بدأ النزاع بين اليمنية والقيسية في الأندلس ، لأن الأقلية القيسية التي كانت هناك لم تلبث أن انضمت إلى القيسية المقبلة بنازعة العصية القبلية . وقد أظهرت هذه الجماعة القيسية من الشجاعة والنجدة ما مكنها من القضاء على ثورة البربر في زمن قليل ، فارتفعت بمقدمهم أسهم القيسيين

وبدأ الصراع المحزن بين جذمى العرب الكبيرين ، واحتدمت نيران هذا الصراع بينهما خلال ولايتي بلج وثعلبة بن سلامة العاملي (ذو القعدة ١٢٣ هـ / يناير ٧٤١ م إلى رجب ١٢٥ هـ / مايو ٧٤٣ م) لأن بلجا وثعلبة كانا من أعنف القيسيين .

اتزع بلج ومن معه من الشامية الولاية من اليمنيين ، وما زالوا بشيخ الأندلس إذ ذاك - عبد الملك بن قطن - حتى تخلصوا منه . ولم يكن عبد الملك يمتنأ صرفا بل كان فهريا ينتسب إلى مضر ، ولكنه كان يمثل البلديين ، فما زال الشاميون برئيسهم حتى قتله . ولما كان عبد الملك يمثل زعامة البلديين - ومعظمهم يمنيون - فقد ثارت اليمن على كلمة واحدة في كل ناحية يتودهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي « صاحب أربونة » أي حاكم الثغر الأعلى (إقليم سرقسطة وما يليه شمالا حتى أربونة) وأمية وقتل ابنا عبد الملك بن قطن في ناحية ماردة .

« .. وحشدوا من أقصى أربونة وراجعوا أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام ، فإذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأى » (١) ، وانضمت إليهم جماعة قليلة من اليمنيين كانت في جيش بلج يتزعّمها عبد الرحمن بن حبيب رأس العرب البلديين في إفريقية فيما بعد ، ونهضت هذه الجماعة كلها لتحارب القيسيين الدخلاء لتستعيد منهم الزعامة وتخرجهم من البلاد جملة .

١٥٢ - النزاع وقد احتدم الصراع بين العرب في شبه الجزيرة ، وينبغي بين البلديين أن تنبه إلى أمر هام ، هو أن ما تلا ذلك من أدوار الصراع والشاميين بين العرب لم يكن في حقيقة الأمر صراعا خالصا بين كلب

وقيس بقدر ما كان صراعا بين عرب الأندلس القدماء (البلديين) والعرب الدخلاء الذين أخذوا يعرفون من ذلك الحين بالشاميين ، وهى تسمية دقيقة تدلنا على أنهم لم يكونوا قيسيين خالصين بل كانت فيهم قلة يمنية ، بل سيتطور وجه النزاع بعد قليل ، ولن يصبح مجرد صراع بين البلديين والشاميين بل صراعا بين حزبين كبيرين غالبية الأول من القيسية وغالبية الثانى من الكلبيية ، وتنضم الى كل من الحزبين جماعات من طوائف متفرقة من العرب تميل بها مصالحها الخاصة الى هذا الحزب أو ذاك .

وقد بلغ هذا الصراع بين هذين الحزبين الكبيرين أقصاه فى شوال سنة ١٢٤ هـ / أغسطس سنة ٧٤٢ م ، حينما التقى رجالهما فى موقعة أقوه برطوره التى انتصر الشاميون فيها انتصارا حاسما وصارت اليهم قيادة الأندلس من ذلك الحين الى قيام الدولة الأموية ، ولم يرفع البلديون رأسهم من جديد الا بفضل عبد الرحمن الداخل وقيام دولته بعد ذلك بأربع عشرة سنة . ولما كانت غالبية الشاميين قيسية ، فان هذه الفترة كلها تعتبر فترة سيادة القيسية على الأندلس .

ولم ير الأندلس فترة هى أسوأ من هذه قبل وقوع الأزمة ١٤٢ - سيادة الكبرى التى تعرض أمر الاسلام خلالها للضياع مدى الشاميين على امارات محمد والمنذر وعبد الله ، لأن الشاميين أوقدوا البلد نارا ونشروا بين أهلها روحا من التقلقل والاضطراب لا سبب لها فى الواقع الا ما جبل عليه القيسيون من ميل الى القوضى واستهانة بالدماء واسراف فى الخصومة .

وقد بدأت هذه الفترة المظلمة بولاية ثعلبة بن سلامة العاملى (شوال ١٢٤ هـ / أغسطس ٧٤٢ م) ، فقد كان قيسيا جافيا غليظا لا تكاد

تخالط خلقه رحمة أو رفق ، ومما رواه المؤرخون من أفاعيله هذه السوق التى أقامها عند « المصاراة » لبيع أعدائه من العرب المغلوبين فى موقعة أقوه برطوره ، فيقول صاحب الأخبار المجموعة : « ولقد بلغنا أنه باع أشياخهم لمن ينقص بهم ، لقد قيل انه صاح على ابن الحسن - رجل كان بالأندلس من أهل المدينة - وعلى الحرث بن أسد - من جهنة من أهل المدينة - فقال : من يخسر على هذين الشيوخين ؟ ! فقال قائل : أحدهما عندي بعشرة دنانير ! فقال الصائح : من ينقص ؟ فلم يزل يصيح : من ينقص ؟ حتى باع أحدهما بكلب والآخر بعود .. » (١) .

ولم ينقذ البلديين - واليمنيين خاصة - الا قدوم أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبي واليا من قبل حنظلة بن صفوان عامل افريقية ، وكان الناس قد استغاثوا به وكتبوا اليه يقولون : « أعنا بوال يجمعنا ويأخذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين ، حتى يصير الشام والبلدان على دعوة واحدة ، فقد أفنانا القتل وخفنا العدو على ذرارينا » . فوصل أبو الخطار فى اللحظة المناسبة ، وأنقذ اليمنيين من الذل والفناء ، ورضيه عرب الأندلس جميعا ، ولهذا يسمى عسكره عسكر العافية (٢) .

وقد بدأ أبو الخطار بدءا طيبا ، وأراد أن يستعين بأراء ١٤٤ - تفريق الشاميين فى النواحي قوم ليسوا من اليمنية ولا من القيسية ، فاستشار أوطاس شيخ أهل الذمة ، وكان رجلا عاقلا مجربا كما سيجى ، فأشار عليه بتفريق الشاميين فى النواحي ، لأن بقاءهم الى جواره فى العاصمة وضواحيها خطر على الحاكم والمحكومين ، فعمل على تفريقهم فى الكور التى لم يكن فيها من البلديين أحد ، وأنزلهم فى هذه النواحي مع أصحابها من أهل الذمة ، على أن يكون لهم ثلث الخراج وللدولة

الثلاثان . ويبدو أنه وجد صعوبة في اقناعهم بقبول ذلك ، لأنه اضطر الى اخراج ثلاثة من زعمائهم من البلاد هم : ثعلبة بن سلامة العاملي والوقاص بن عبد العزيز الكناني وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي ، لأنهم كانوا سبب فساد الأندلس ، ووكل بهم من أخرجهم من البلاد (١) . وأبى الباقر منهم بعد ذلك اطاعة أمره ، فلم يزل أبو الخطار يلاطفهم حتى استأنموا اليه وأقاموا معه ، وتوسع لهم في البلاد ، فأنزل كل قوم على قدر منازلهم في الشرق (٢) .

وقد فرقهم أبو الخطار على الكور على أساس لطيف : تخير لكل قوم ناحية تشبه من حيث المناظر والبيئة المحيطة بها الناحية التي أتوا منها من الشرق على النظام التالي :

جند مصر : في كورة أكثونية وباجه وبعض نواحي كورة تدمير .

جند الأردن : في كورة ريه .

جند دمشق : في كورة البيرة .

جند قنسرين : في كورة جيان .

ولو قد استمر أبو الخطار على هذه السيرة لدام السلام

١٥٥ - خصومة وعاد الى البلاد عدوها ، ولكن أبا الخطار لم يلبث أن القيسية واليمينية نبض فيه عرق اليمينية ، فمال الى قومه وحاباهم وأخذ تسمو يعسف القيسيين ، وكان من سوء حظه أن كان بين هؤلاء القيسيين رجال من طراز الصميل بن حاتم الذي أشرنا اليه ، وكان بدويا

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٠ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٣٦ .

جلفا من جند قنسرين ، وكانت اليه زعامة القيسية بعد اخراج زعمائهم الآخرين ، وبلغ من سلطانه على قومه أنهم كانوا يطيعونه في كل ما يريد دون أن يسألوه السبب ودون أن تكون هناك حاجة ظاهرة الى ذلك . فلم يلبث أن تصدى لأبى الخطار ، وذهب اليه مرة يشكو اليه أمرا لحق يميني ، فتعمد أبو الخطار الاسراف في اهاتته فلنكز وشتم ، فخرج عنه ، فأتى داره ، وبعث الى خيار قومه ، فشكا اليهم ما لقي ، فقالوا له : نحن لك تبع .. (١) .

هكذا ثارت نيران العصية مرة أخرى : أثارها أبو الخطار بسوء سياسته والصميل بعنفه وبدأوته وجهله ، وانقسمت البلاد حزين من جديد ، وثارت بينهما حرب مخربة لم يتقذ مصير الاسلام في الأندلس منها الا قدوم عبد الرحمن بن معاوية .

لم يكن هذان الجزبان الجديدان هما المضربين والقيسيين ١٥٦ - تحول كما كان الحال قبل قدوم طالعة بلج ، ولم يكونا كذلك الصراع من القبلية إلى الحزبية البلديين والشاميين كما كان الحال منذ دخول بلج الى مجيء أبي الخطار ، بل تكونا من جماعتين من القبائل ألقت بين عناصر كل منهما عوامل المصلحة وحب البقاء : ذلك أن أبا الخطار لم يعسف القيسيين كلهم ، فبقيت منهم جماعة الى جانبه تؤيده ، ولم ينصف اليميين كلهم فانضمت جماعة منهم الى الصميل ، ولا نستطيع أن نسمى هذين الحزين الا بحزب أبي الخطار وحزب الصميل ، وان كانت اليمينية أغلب على الأول ، والقيسية أغلب على الثاني . وأليك التكوين القبلي لكل من الحزين - على قدر ما تعيننا المراجع على تصوره:

(١) أخبار مجموعة ، ص ٥٦ .

حزب الصميل

معظم قبائل : لخم (يمن)

جذام (يمن)

قيس (عدنان)

غطفان (قضاة) (١)

حزب أبي الخطار

طوائف من : جذام (يمن)

فهر (عدنان)

قضاة

جند حمص (خليط)

آى أن الأمر لم يعد عصية قبلية بل عصية حزبية ، وربما عصية موطن . فسرى عند بياننا لمنازل القبائل العربية في شبه الجزيرة أن هذه الجماعات التى تألفت كانت متجاوزة المواضع ، ولا يعزى انضواء بعض جند حمص الى حزب أبى الخطار الا الى أن اقليم حمص الذى كانوا فيه ، وهو اقليم اشيلية ، كان يضم مواطن القبائل التى انضموا اليها .

وقد رشح الصميل بن حاتم ، وهو قيسى ، لرياسة حزبه رجلا من جذام ، أى من اليمن ، هو ثوبة بن سلمة الجذامى ، وهو ما كان ليفعل ذلك الا وقد تبين أن معظم المنضوين تحت رايته كانوا من اليمن . ثم اتنا نستنتج من قبول القيسية الذين كانوا مع الصميل لذلك الوضع أن العصية القبلية لم تعد المحرك الرئيسى لجماعات العرب ، بل عصية المصلحة والموطن ، أى العصية السياسية . وقد كان الصميل نفسه رجل سياسة ودهاء قبل أن يكون رجل قبائل : كان رجلا واقعيا لا يؤمن الا

(١) جاء في الأخبار المجموعة أن الصميل بن حاتم عند ما قرر تخصمة أبى الخطار قال لقومه : « والله ما أحب أن أعرضهم للقضاة واليمنية ، ولكن اللطف ندعو بالله مرج رايط ، وندعو لحما وجذاما ، وندخل منهم رجلا نقدمه يكون له الاسم ولنا الخط . قال : فكاتبوا إلى ثوبة ابن سلمة الجذامى وكان من أهل فلسطين ، ثم ساروا حتى وفدوا عليه فأجابهم ، وأجابهم لهم وجذام ... » (ص ٥٦-٥٧) .

وانظر تعليق دوزى على هذا الوضع :

بما ينفعه، وربما كان خلقه هذا هو الذى أخرج الصراع من الميدان القبلى الصرف الى ميدان السياسة والمصالح .

وتولى حزب الصميل الحكم ، وقام ثوبة بن سلمة بالأمر ، ولم تطل مدة ولايته أكثر من عام ، وكاد الانشقاق يقع فى صفوف الحزب ، اذ تنازع الرياسة عمرو بن ثوبة ويحيى بن حريث ، ولكن الصميل تدارك الأمر بذكائه واختار رجلا من محارب بن فهر ، أى من قريش الظواهر ، وكانت بطون قريش الظواهر كلها أشبه بالمحايدة بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، فكان اختيار الصميل لهذا المحاربى — وهو يوسف الفهرى — حسما للنزاع وارضاء للفريقين ، ودليلا على مهارته السياسية .

ومن دلائل غلبة الروح السياسية على عرب الأندلس خلال هذه الفترة الأخيرة من عصر الولاة أن الذين تحركوا لاستنقاذ أبى الخطار من سجنه لم يكونوا أهله من اليمن ، بل كانوا من قضاة ، وقضاة على ما نعرف مشكوك فى موضعها من عدنان وقحطان ، فبعضهم يجعلها من العدنانية وبعضهم يجعلها من القحطانية، وإن كان الأخيرون أكثر : قامت جماعة من القضاة قوامها مائتا راجل وأربعون فارسا واختطفوا أبى الخطار وفروا به الى منازل بعض القبائل اليمنية بناحية اشيلية ، وكان يقود أولئك القضاة عبد الرحمن بن نعيم الكلبى (يمن) فبدأ حزب أبى الخطار ينهض من جديد ، واشتد ساعده عندما أخطأ الصميل فعزل يحيى بن حريث شيخ لخم عن كورة ريه . فنفر يحيى بن حريث ومن تابعه من لخم وانضموا الى حزب أبى الخطار . وشيئا فشيئا انفصلت بقية القبائل اليمنية التى كانت فى حزب الصميل وانضمت الى أبى الخطار ، فلم يبق مع الصميل الا قيس . وهكذا وقف قيس وكلب مرة

أخرى وجها لوجه ، وهوى عرب الأندلس الى درك النزاع القبلى الخالص من جديد ، وانضم البلديون — ومعظمهم من يمن — الى الكلية حزب أبى الخطار ، ووقف اليمنيون فى جانب والقيسيون فى جانب على النحو التالى :

اليمنيون يرأسهم ابن حريث

حمير + كندة + مذحج + قضاة

القيسيون يرأسهم يوسف الفهرى والصميل

مضر + ربيعة

ومن غريب ما وقع أن أهل بعض القبائل المتجاورين الذين عاشوا الى ذلك الحين فى سلام ووثام ، جعل بعضهم يودع بعضا ثم يخرج كل منهم ليأخذ مكانه فى صفوف الجبهة التى سيقااتل فيها دون أن تكون لديه أى دوافع خاصة لهذا الخروج . وليس أنصع من هذا دليلا على أن العرب ظلوا ، رغم الاسلام ورغم ما نالوا من خيرة ، بدوا جاهليين فى أعماق نفوسهم لا يكاد اختلاف الأحوال والظروف يغير من طبيعتهم الأصل شيئا^(١) .

وقد سدر العرب فى هذا الصراع وكأنهم كانوا يعيشون وحدهم فى ذلك التطر ، أو كأن جماعاتهم فيه بلغت من الكثرة بحيث غطت على ما عداها . ولكن الواقع — وهذا أغرب ما فى الموضوع — أنهم لم يكونوا الا قلة بالنسبة لبقية سكان الجزيرة . وعلينا أن ندرس الآن

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٨-٥٩ .

توزيع القبائل العربية فى شبه الجزيرة فى هذه الفترة ، فلعل ذلك يعيننا على تفهم ذلك الوضع الذى يبدو من الغرابة بمكان .

وإذا أخذنا بالمعلومات القليلة التى لدينا عن أعداد العرب ١٥٧- تكاثر الذين نزلوا الجزيرة لم نستطع أن نقدرهم الا ببضعة آلاف : العرب فى الأندلس فقد كانت طالعة موسى تضم ١٢ ألف وطلعة بلج ١٠ آلاف واصطحب الحر بن عبد الرحمن الثقفى معه أربعمئة . مجموع هؤلاء ٢٢٤٠٠ ، فإذا افترضنا أن بضعة آلاف آخرين دخلوا الجزيرة فرادى أو جماعات لم نستطع تقدير أعداد من دخلوا الجزيرة من صرحاء العرب بأكثر من ثلاثين ألفا . فإذا حسبنا من قتلوا فى حروب العصبيات ومن استشهدوا فى الفتوح وراء البرت تبينا أن بقية هذا العدد القليل لا يمكن أن تغمر شبه الجزيرة الواسع على هذه الصورة التى رأيناها .

يبد أننا ينبغى أن نلاحظ أن جميع العرب الذين دخلوا الجزيرة دخلوها رجالا بدون نساء ، ثم اتخذوا النساء من أهل البلاد ، وقد توسعوا فى ذلك ، فكثرت نساؤهم وكثر عيالهم أيضا . ولكى نعطي التقارىء فكرة عن خصوصية أولئك الداخلين نذكر جانبا من نسل عبد الرحمن الداخل وبنيه ، وقد أحصاهم ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب . وقد اخترناهم لأنهم الوحيدون الذين لدينا احصاء بالأرقام عنهم وعن أولادهم وأعقابهم ، وينبغى أن نلاحظ أن ابن حزم لم يذكر الا الظاهرين من بنى أمية ، أى أنه ترك الخاملين ، والخاملون فى العادة أكثر أولادا ، وقد ترك كذلك ذكر الخلف من الاناث فى الغالب .

أعقب عبد الرحمن بن معاوية سبعة ذكور ، وهشام ابنه ستة ،
والحكم الربضي ثمانية عشر ، وعبد الرحمن الأوسط مائة ولد ، منهم
خمسون ذكرا وخمسون أنثى ، والأمير محمد نيفا وثلاثين ذكرا ، والأمير
عبد الله أحد عشر ذكرا ، وعبد الرحمن الناصر أحد عشر ذكرا ...
الى آخره (١) .

فاذا نحن أحصينا الذكور فقط تبين أن ستة من رجال البيت الأموي
أنجبوا ١٤٤ ولدا ذكرا ، أى بتوسط ١٩ ولدا للواحد ، وذلك غير
البنات . وإذا اعتبرنا هذا العدد أعلى من الطبيعي ، لأن عبد الرحمن
الأوسط أخل بالتوازن الطبيعي وجاوز الحد المألوف ، أمكننا الاجتزاء
من ذلك العدد بعشرة لكل شخص ، وأمكننا أيضا أن نطبق نسبة التكاثر
هذه على بقية العرب ، فقد كانوا جميعا في سعة من النساء والعيش في
ذلك البلد الطيب الرخي .

ومعنى ذلك أن أولئك الثلاثين ألفا من العرب أصبحوا بعد عشرين
سنة من دخول العرب الجزيرة ٣٠٠ ألف ، غير من انضم أو انتسب اليهم
من مواليهم ممن أتى معهم من المشرق أو المغرب أو انضم اليهم من
أهل البلاد .

وهذا التقدير لا يحل تلك المعضلة التاريخية حلا تاما ، ولكنه يجعلها
أقرب الى المعقول والممكن . وربما زادت وضوحا اذا ذكرنا أن العرب
انتشروا في شبه الجزيرة انتشارا واسعا بحيث لم تخل منهم ناحية من

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (طبعة بروكسل ، القاهرة ١٩٤٨) ، ص ٨٦-٩٣ .

نواحي الشرق (من شماله الى جنوبه) والجنوب والوسط والغرب
حتى نواحي قلورية وشتيرين وأشبونة. وقد كان العرب ، رغم ما رأيناه فيهم
من العنف في خصوماتهم بين بعضهم البعض ورغم اعتزازهم بعصبهم العربي
قوما يحسنون العشرة ، بعيدين ، كأفراد أو جماعات صغيرة ، عن
نزعات السيادة والتعالي التي تمسك بها من سبقهم من الرومان والقوط .
ثم ان مطاعمهم في أموال أهل البلاد المفتوحة كانت قليلة ، وسرى عند
دراستنا للناحية المالية ، أن الادارة العربية لم تكلف أهل البلاد شيئا
ثقيلًا . ومن ثم فقد كان العرب لا يحلون في ناحية من نواحي الأندلس
حتى تتصل العلاقات بينهم وبين من حولهم من أهل البلاد ، خاصة
وأن العرب كانوا يعاهدونهم ويرتبطون معهم بأواصر القربى ، أى أنهم
لم يكونوا سادة أو حكاما بقدر ما كانوا مساكين أو معاشين ، فأمن
اليهم الناس وأقبلوا عليهم ، واختلط الحيان ، وبدا وكأن العرب أكثر
من عددهم الحقيقي .

١٤٨- مراجعتنا ولدينا عن منازل العرب في شبه الجزيرة معلومات طيبة
عن منازل العرب في معظم ما لدينا من المراجع ، وقد أورد المقرئ في تفح
بالأندلس الطيب صفحات من « فرحة الأتفس » لمحمد بن أيوب
ابن غالب الغرناطي من أهل القرن السادس الهجري ، وأورد أبو محمد
على بن حزم في تضاعيف « جمهرة أنساب العرب » معلومات وبيانات
مستفيضة عن منازل العرب في الأندلس ، نستطيع اذا نحن جمعناها
وأنضمنا اليها ما لدينا من بيانات ابن غالب وغيره أن نحدد منازل العرب
في شيء كثير من الدقة ، بل نستطيع أن نرسم خريطة ديموجرافية لعرب
الأندلس .

ومن الواضح أن معلومات ابن حزم وابن غالب لا تنصب فقط

على الفترة التي ندرسها ، وأن بعض من ذكرنا من العرب دخلوا الجزيرة فيما بعد ، وخاصة أيام عبد الرحمن الداخل وابنه هشام الرضى ، ولكننا نستطيع الأخذ بها دون التعرض لخطأ كثير ، لأن الذين دخلوا الأندلس بعد فترة الولاة لا يمكن أن يكونوا الا شيئا ضئيلا بالنسبة لمن دخلوها في تلك الفترة . ثم ان الداخلين أيام الامارة الأموية كانوا يفدون فرادى أو في جماعات صغيرة ، وكانوا في الغالب ينزلون قرطبة أو يقصدون أهل قبائلهم في النواحي ، أى أن دخولهم لم يغير الوضع العام ، وفي امكاننا أن نعتمد على تفصيلات ابن حزم وابن غالب في شيء كثير من الاطمئنان .

وواضح مما بين أيدينا من النصوص أن جماعات العرب التي دخلت الأندلس كانت تضم أعدادا طيبة من فحول العرب ممن يشلون الخصال الرئيسية الأصلية لهذا الجنس خير تبثيل . وسواء نظرنا الى الأعمال الايجابية كعملية الفتح نفسها ومواصلة الفتح فيما وراء الأندلس ، أو الى النشاط السلبي كحروب العصبية ومناقصات الرياسة ، فانه تبين هذه الفجوة العربية بصورة لا نجد فيها يشبه الأندلس من حيث الوضع العام مما فتحه المسلمون من البلاد . وقد أشار الى ذلك المقرئ بقوله : « فاعلم أن لما استقر قدم أهل الاسلام بالأندلس وتنام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همهم الى الحلول بها . فنزل بها من « جرائيم » العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم ، الى أن كان من أمرهم ما كان » (١) ... ، والمراد بـ « الجرائيم » هنا الأصول .

(١) المقرئ : ففتح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

ويتفق ابن حزم وابن غالب وابن سعيد على أن هؤلاء الأقباب الذين يشير اليهم المقرئ كانوا كثيرين ، وأن هذه الكثرة لم تقتصر على فريق دون فريق : ففي الحديث عن المنتسبين الى محارب بن فهر (من قريش الظواهر) يقول ابن حزم — برواية المقرئ — : « ولهم بالأندلس عدد وثروة ، وأما المنتسبون الى عموم كنانة فكثير ، وجلهم في طليطلة وأعمالها » (١) . وفي الحديث عن تميم (مضر) يقول ابن غالب : « انهم خلق كثير بالأندلس » (٢) ، وهكذا الأمر مع معظم القبائل التي يذكرها أولئك المؤرخون .

وقد كانت جماعات اليمنية تفوق العدنانية كثرة عدد وسعة أفاليم ، قال المقرئ في الكلام عن القحطانية : « وهم الأكثر في الأندلس ، والمملك فيهم أرسخ الا ما كان من خلفاء بنى أمية ، فان القرشية قدمتهم على الفرقتين ... » (٣) . ويقول ابن غالب : « ومن الأزد من ينتسب الى الأنصار على العموم ، وهم الجهم الغفير بالأندلس . قال ابن سعيد : والعجيب أنك تعذر هذا النسب بالمدينة ، وتجد منه بالأندلس ما يشذ عن العدد كثرة . ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد الا شيئا من الخرج وعجوزا من الأزد » (٤) ، وهى مبالغة من ذلك الداعية الأندلسى البارع ، يخفف من غلوائها ما يصرح به ابن غالب أن من الأزد — أزد الأندلس — من يفضل الانتساب الى الأنصار ، لأن هذا الانتساب كانت له قيمته الاجتماعية

(١) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٧٢ .

(٢) نفس الموضوع .

(٣) المقرئ : ففتح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .

في الأندلس ، ولهذا كان يلجأ اليه « الجهم الغفير » من الأزد فيما نظن . غير أننا عندما ننظر فيما لدينا من البيانات نلاحظ أن القبائل اليمنية التي نزلت الأندلس لم تكن تزيد على العدنانية هذه الزيادة التي نتحدث عنها النصوص ، فقد أحصينا مجموع ما ذكره ابن حزم وابن غالب وابن سعيد من هذه وتلك فكانت العدنانية ٤٢ قبيلة واليمن ٥٢ ، ولا تصر الغالبية اليمنية الا على أحد وجهين : فاما أن تكون أعداد من دخلوا الأندلس من القبائل اليمنية أكثر بكثير من أعداد من دخلوا من القبائل العدنانية ، أو أن يكون « الجهم الغفير » من العرب الداخلين قد زعموا لأنفسهم أنساباً أنصارية — ما بين أوس وخزرج — التماساً للمكانة والمنزلة ، وقد يكون الأمران قد حدثا معا .

واذا نحن أمعنا النظر فيما لدينا من البيانات عن منازل العرب في الأندلس لاحظنا ما يلي :

١ — أن ما يقال من أن العرب اختصوا أنفسهم بأغنى ١٦٠-ملاحظات نواحي الأندلس وتركوا للبربر النواحي القاحلة التي على منازل العرب في الأندلس لا خير فيها غير صحيح ، فقد ترك العرب لغيرهم نواحي من أخصب ما في الأندلس ، فقد تركوا مثلاً أحواض الواديانة والتاجبة ونهر شقورة (نهر مرسية) ونهر شقر (نهر بلنسية) والوادي الأبيض ووادي لكه وغيرها كثير ، ولم تكثر منازلهم بشكل واضح الا في حوض الوادي الكبير ووادي ابره الأوسط وفروعها الكثيرة . بل هم لم يعمروا من وادي ابره الا النهر الرئيسي والفروع الجنوبية ، أما الشمالية فتركوها دون سكنى ، ونزل البربر فيما عدا ذلك كله . ولو أننا وازنا بين ما احتله العرب وما احتله البربر ، لوجدنا الكفتين متعادلتين تقريباً .

٢ — ونستطيع أن نقول بصفة عامة أن العرب استقروا ١٦١- استقرار على طول خطوط الفتح الأول ، فرى منازلهم تنتشر ابتداءً من العرب على طول من الجزيرة الخضراء ، وتملأ معظم المنطقة الواقعة جنوب خطوط الفتح نهر شنيل وحوض الوادي الكبير ، ثم تكثر بصورة ظاهرة في اقليم اشيلية ، وتستمر على طول الوادي الكبير وفروعه . وعند اقليم اشيلية تنتشر منازل العرب في نفس الاتجاه الذي سار فيه موسى ، وتكثر في نواحي أونة ولبله وباجة ، وتتصل حتى بطليوس ثم نواحي طليبة وطيطة فوادي الحجارة وقلعة أيوب ودروقة وحوض ابره الأوسط حول سرقسطة في منطقة واسعة تشمل حوض نهر جلكن Gallego ونهر الحكة Rio Alhama .

ومن أحواز قرطبة يمتد خط عربي آخر ، على طول طريق طارق بن زياد حتى طليطة ماراً بقلعة رباح .

ومن حوض الوادي الكبير انساح العرب شرقاً ، فملأوا نواحي ما يعرف عادة بشرق الأندلس ، وهي نواحي بلنسية وتدمير (مرسية) ولقنت والمرية ومالقة . ويبدو أن هذا الامتداد متأخر قليلاً عن عصر الولاة ، ولكنه لا يتعدى أيام هشام بن معاوية . لأننا سنجد الجماعات العربية التي استقرت بشرق الأندلس قد تأصلت فيه على أيام الحكم الربضي . وقد زحف العرب مع السهل الساحلي الشرقي حتى وصلت بعض جماعاتهم الى برشلونه ، فاستقرت فيها بطون من تجيب (كندة) .

٣ — أن واحداً من جذمى العرب الكبيرين (عدنان وقحطان) لم ينفرد بالسكنى في ناحية بعينها الا في قليل من المواضع ، بل الأغلب أن نجد قبائلهما متجاورة في كل ناحية تقريباً .

١٦٢ - منازل ويمكن اجمالاً توزيع قبائل عدنان وقحطان فيما يلي :

أ - مواضع سكنتها مجهوعات متساوية تقريباً من قحطان وعدنان :

عدنان	قحطان
اشبيلية ونواحيها	
مرة بن ذبيان - غطفان - عاك - هوازن - جذام - الأشعر - جزيلة	
غافق - هوازن بن عكرمة .	ثوابة - بلي - نخم - مراد - لبص - الخيام بن مالك - الأنصار (١) .
البيرة وغرناطة	
خزيمة - أسد - مرة بن ذبيان - طي - همدان - غسان -	
عبر بن مضر .	الحضارمة (٢) .

وادي آش

سعد العشيرة

بطلوس

حضارمة

زهره

ب - مواضع غالبية من نزلها من قحطان (اليمينيون) :

عدنان	قحطان
سرقسطة ونواحيها	
	خزرج - عذرة - قضاعة -
	تجيب - كندة - جذام .
	بدو
ربيعية	جذام - دوس - غافق - حضارمة

(١) كانت كتلة اليمنيين في ناحية إشبيلية وغرب الأندلس أقوى مجموعاتهم وأكثرهم نظاماً ، وكان لها شيخ يرأسها هو «أبو الصباح» شيخ اليمانية في غرب الأندلس ، ومسكنه قرية مورة من شرف إشبيلية (ابن القوطية ، ص ٢٠)

(٢) يؤيد كثرة اليمنيين في إقليم البيرة وجيان ابن القوطية بقوله : «ثم خاطبوا القحطانيين بالبيرة وجيان مثل جد بني أصحى بالحمدانيين (يغلب أن هذا اسم قرية) وجد [بني] حسان وبني عمر أصحاب وادي آش النسافيين بميسرة وقحطية الطائيين بجيان» - ص ٢٢ .

عدنان	قحطان
	رياسة
نهم	جزيلة - خزرج - ذورعين -
	مالقة
خزيمية	حضارمة
	شاذونة
كنانة	جزيلة - عرمرم - جذام
	استجة ومورور
غافق	نخم - نخم
	الجزيرة الخضراء
كنانة	خولان - بنو عذرة - نخم - جذام

ج - مواضع غالبية من نزلها من عدنان :

عدنان	قحطان
	جيسان
ملككان - مزينة - شذرة - ربيعة - بنو منخل - جذام - مرة -	
غنم - أفصى	عنس (١) .
	باجة ولبلة
	عوف - زهرة (٢) .
	أونبه
خشمين	سلار - الطماح - مطروح
	طليطلة
	الأنصار

(١) انظر الهامش السابق .

(٢) جاء في افتتاح الأندلس لابن القوطية : «وكانت الرياسة بلبله لعبد الغفار ابن عم أبي الصباح ، وبباجة لابن عمه أيضاً عمرو بن طالوت وكلثم بن يحيى» (وكلهم يمن) .

د - مواضع لم يسكنها الا قحطانيون :

عدنان	قحطانيون
قلعة رباح	
خزرج - جذام .	
دلاية	
عذرة - قضاة	
قرية صالحه (قرب مالقة)	
غسان	
قلعة خولان	
خولان	
برش - لمونة	
نجيب	
دار بلي (شمال قرطبة)	
بلي	

هـ - مواضع لم يسكنها الا عدنانيون :

عدنان	قحطانيون
مدينة مرسية	
ملكان - أفصى بن مضر	
طلبيرة	
عوف	
ثلبنسية	
هـ - وازن	

وينبغي أن ننبه الى أن هذا الإحصاء تقريبي ، فقد اعتمدنا فيه على ابن حزم وابن غالب وابن سعيد وبعض مؤرخين آخرين وردت في ثنايا كلامهم اشارات لمنازل العرب في الأندلس . وقد أدخلنا قضاة في جملة

اليمن ، مع اختلاف النسابة في جعلها من عدنان أو قحطان ، لأن الرأي الأغلب هو أنهم قحطانيون (١) . وينبغي أن نلاحظ أن معظم ملاحظات ابن غالب لا تشير الى المواضع ، فهو يقول مثلا : « ومن أهل الأندلس من ينتسب الى الأوس أخى الخزرج ، ومنهم من ينتسب الى غافق بن عك ابن عذثان بن أزان بن الأزد .. » (٢) .

٤ - أن هناك نواحي معينة حبت الى العرب سكنها ، فتكاثروا فيها . ونستطيع أن نعتبر هذه المواضع مراكز العروبة في الأندلس ، فقد كانت هي المهاد التي تكاثروا فيها وانتشروا منها الى غيرها من النواحي . وقد ظل العنصر العربى غالبا على هذه النواحي حتى نهاية تاريخ المسلمين في الأندلس ، وكانت الى نهاية القرن الخامس الهجرى تقط ارتكاز للإسلام الأندلسى ، ومن هذه المواضع قرطبة مثلا - ولم نذكرها في الإحصاء السالف الذكر لأن العرب من كل قبيلة نزلوها ، بحيث لا تجد قبلا عربيا الا كان منه فى قرطبة - واشبيلية ونواحيها . واستجة ورية وقبرة والجزيرة الخضراء والبيرة وجيان ومالقة وتدمير وسرقسطة وشذونة وقرمونة ولبللة وباجة وأونية .

٥ - ويقول المقرئ : « وكان عرب الأندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والأفخاذ ، الى أن قطع ذلك المنصور بن أبى عامر ، الداهية الذى ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم وتعصبهم فى الاعتزاء » (٣) ، ومعنى ذلك أن كل قطعة من العرب نزلت بناحية ظلت محتفظة بكيانها القبلى ، رغم تراوهم مع أهل

(١) وقد كان القضاة في الأندلس يعتبرون أنفسهم من اليمن ، جاء فى الأخبار المجموعة : « فاصنقت من الأندلس ، حمدا وكندتها ومذحجها وقضاعتها ، واحتازت مضر وربيعة الى يوسف ، وربيعة بالأندلس قليل » (ص ٥٨) .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

(٣) المقرئ : نفح ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

البلاد . وقد حافظت الدولة على هذا الكيان القبلي الى أيام المنصور ، لأن هذه القبائل كانت — كما سنرى عند كلامنا على التنظيم الإداري — أساسا من أسس تكوين الجيش الأندلسي ونظام الضرائب .

٦ — ويبدو أن الكثير من القبائل التي نزلت مواضع في الريف بعيدة عن المدن اتخذت لأنفسها حصونا تعصم بها ، وقد ظهرت أهمية هذه الحصون أثناء الفتنة التي شملت عهود الأمراء محمد والمنذر وعبد الله ، فقد تحولت الحصون والقلاع أثناءها الى مدن ظلت تحمل أسماء أصحابها ، ومثال ذلك حصن مراد (بين اشبيلية وقرطبة) وقلعة بنى سعيد (أو قلعة يحصب) في إقليم غرناطة ، وقلعة خولان (بين الجزيرة الخضراء واشبيلية) .

ومنهج من أنشأ قرى كاملة ظلت تحمل أسماء أصحابها ، مثل منزل همدان (على ستة أميال من غرناطة) ومنزل طيبي (جنوبي مرسية) ودار بلي (شمالي قرطبة) وغيرها .

وكانت هذه المواطن العربية كلها في دور التكوين خلال الفترة التي تتحدث عنها : كانت كسائر القبائل الواقعة من المشرق تتجمع الى ذوى قرباها وتكون العصيات التي لعبت الدور الخفي الذي فصلت تاريخه . وسنرى فيما بعد أن قبائل العرب لم تغير مواضعها الا في النادر ، وان كان كل مركز قد مد له فروعا فيما بعد وأنشأ مراكز أخرى تنتمي الى نفس الأصل .

وقد ذكرنا أن السرب كانوا يدخلون الأندلس رجالا فقط ، ثم يتخذون النساء من أهل البلاد ، وعلى هذا فالأجيال الثانية من هؤلاء العرب جميعا لا يمكن أن يكونوا عربا من ناحية الدم ، بل ربما جاز اعتبارهم مولدين ، حتى البيت الأموي نفسه كان بيتا مولدا ، انما كانوا عربا بالاحساس والاتجاه واللغة الى حد كبير .

وبديهي أن أولئك جميعا لم يعودوا يتكلمون العربية في حياتهم العادية بعد الجيل الثاني ، فقد غلبت عليهم في المخاطبة والمعاملات لغة أهل البلاد ، اختلطت بها لغة العرب ونشأت عن ذلك « عجمية أهل الأندلس » أو « اللطينية » كما يسميها ابن حزم ، وقد بلغ من غلبة هذه « العجمية » أن ابن حزم يذكر جماعة من العرب بالذات فيقول : « داربلى بشمال قرطبة ، وهم هناك الى اليوم على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللطينية ، نساؤهم ورجالهم ، ويقرون الضيف ، ولا يأكلون الية الشاة الى اليوم ، ولهم دار أخرى بمورور » (١) ، مما يفهم منه أن كلام عرب الأندلس « باللطينية » كان أمرا عاما شذت عنه هذه القبيلة . وبطبيعة الحال لم يكن لسان عرب الأندلس قد استعجم بعد في فترة الولاة ، ولكن العملية كانت قد بدأت على أى حال (٢) .

(١) ابن حزم : جبهة أنساب العرب ، ص ٤١٥ .

(٢) اعتمدنا في هذه الملاحظات ، كما أشرنا آنفاً على :

جبهة أنساب العرب لابن حزم (نشر ليثي برونسفال) ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

ابن غالب : فرحة الأنفس ، مقتطفات أوردتها المقرئ في نفح الطيب (القاهرة ١٩٤٩)

ج ١ ، ص ٢٧٩-٢٧٦ .

ابن سعيد : مقتطفات من المغرب في الأغلب ، أوردتها المقرئ في نفح الطيب ، نفس الجزء

والصفحات السابقة .

المقرئ : نفح الطيب ، ملاحظات للمؤلف في نفس الصفحات .

الأخبار المجموعة : طبعة لافونتينى إلى ألكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة جايايجوس وسافيدرا وكوديرا ، مدريد ١٩٢٦ .

ابن عذاري : البيان المغرب ، طبعة ليثي برونسفال وكولان ، لايدن ١٩٤٧ .

LÉVY-PROVENÇAL, Histoire de l'Espagne Musulmane (2e. éd. vol. I, Paris 1951)

pp. 71 Spp.

ELIAS TERES : Linajes Arabes en Al-Andalus, Segun la "Jamhara" de Ibn Hasim, Al- Andalus vol. XXII fasc. I pp. 55-113.

ب - البربر

من الواضح أن أعداد من اشترك من البربر في فتح الأندلس ١٦٣ - تيار وفي فتوح غالة كانت تزيد على أعداد العرب أضعافاً ، وأن الهجرة البربرية هذه الأعداد لم تقتصر على من اشترك في الجيوش الغازية ، إلى الأندلس إذ أن تياراً من الهجرة البربرية اتصل واستمر عقب الفتح مباشرة ، وأن شبه الجزيرة لم يلبث أن امتلأ بهؤلاء المهاجرين . قال المقرئ في نفح الطيب : « وتسامع الناس من أهل بر العدو بالفتح على طارق ، وسعة المغنم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقنبر ، فلحقوا بطارق » (١) .

وبين أيدينا نص يؤيد غلبة البربر على العرب أول الأمر ، لا من حيث العدد فقط ، بل من حيث القوة أيضاً ، قال ابن القوطية بعد فراغه من أخبار عبد العزيز بن موسى : « ومكثوا سنين لا يجمعهم وال ، إلا أن البربر قدموا على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى ابن نصير » مما يدل على أن البربر هم الذين اختاروا ثاني ولاية الأندلس ، وقد رضى به بقية مسلمي الجزيرة وظل في الولاية حتى ولى الحر بن عبد الرحمن الثقفي . ولو لم يكن البربر غالبين على الأمر في الأندلس حينذاك لما استطاعوا تولية وال يرضاه جميع المسلمين (٢) .

وقد أمدنا ابن حزم في الجمهرة بمعلومات غاية في الأهمية تلقى ضوءاً على الهجرة البربرية إلى الأندلس . ومن الواضح أن كلام ابن حزم يتعلق بمنزل البربر في الأندلس على أيامه ، ولكننا نستطيع بمقارنة هذه المعلومات بما لدينا من أخبار فترة الولاية أن تبين من أولئك البربر نزل الأندلس في ذلك الزمن المتقدم .

(١) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٣-١٤ .

وينبغي أن نلاحظ أن التحديد فيما يتصل بالبربر أعسر منه فيما يتصل بالعرب ، لأن الهجرات العربية الكبيرة انتهت بنهاية عصر الولاية ، فلم يفد منهم على الأندلس بعد ذلك إلا أفراد أو بيوت أو جماعات قليلة ، أما البربر فقد كان تيار هجرتهم متصلاً ، بحكم الجوار أولاً ، وبحكم الجاذبية الخاصة التي كانت لشبه الجزيرة الأندلسية على بربر الشمال الأفريقي ثانياً ، ولأسباب سياسية ثالثاً . ومن ثم فإن القطع بشيء في هذه الناحية لا يخلو من مجازفة ، وكل ما سنذكره فيما يتصل بمنازل البربر خلال عصر الولاية ينبغي أن يؤخذ بحذر .

يذهب ابن خلدون إلى أن جموع البربر التي دخلت ١٦٤ - جماعات الأندلس مع الفتح وبعده بقليل كانت من قبائل مطهرة البربر الأولى ومديونة ومكناسة وهوارة (١) ، وهذه القبائل كلها من زناطة أو من البربر البتر ، وكل منها أشبه بالشعب الكبير الذي تتفرع عنه القبائل الصغيرة ، وكانت بطونها متفرقة في نواحي المغرب ، ولكن كتلة هوارة ونفوسة كانت منتشرة على سواحل البحر الأبيض من حدود مصر إلى طرابلس ، أما مديونة فكانت منازلها على ساحل البحر من نواحي المغرب الأوسط إلى سبتة ، ومطهرة كانت تحتل إقليم طنجة وتمتد على ساحل المحيط الأطلسي . ومن هذه الأصول الأربعة كان جيش طارق بن زياد ، وكانت الأعداد البربرية التي أتت عقيب الفتح وشاركت في إتمامه وفي فتوح غالة . ويضيف ابن حزم إليها نفرة ، وهم أولاد نفزاو أكبر أبناء لاوي الأكبر جد اللواتيين جميعاً . ونفزة قبيل ضخيم لا يقل عن مطهرة وهوارة ونفوسة ومديونة ، ويذكر أيضاً مغيلة وملزوزة وهما بطنان صغيران من بطون البتر ينتسبان إلى ضري بن مادغيس أخى لاوي الكبير ، ومعنى ذلك أن أولئك البربر الذين دخلوا الأندلس

(١) ابن خلدون ، طبعة بولاق ، ج ٦ ، ص ١٠٦ وما يليها .

أول الأمر كانوا جميعا بترا ، وفيهم زناتية مثل مكناسة والباقي من بطون بترية أخرى .

ولم يكن البربر اذ ذاك يقسمون أنفسهم هذا التقسيم الحاد الى بتر وبرانس ، لأن ذلك ظهر فيما بعد ، عندما سرت عدوى العصبية القبلية من العرب الى البربر ، وعندما بدأ البربر يستقلون بأنفسهم ويقيمون الدول معترزين بالعصيات والأصول : بدأت ذلك صنهاجة من البرانس ثم تلتها زناتة من البتر . أما في الفترة التي نحن فيها ، فلم يكونوا جميعا الا بربرا الى جوار العرب . وتدل الدلائل على أنه كانت فيهم جماعات مصمودية ، فيحدثنا صاحب « فتح الأندلس » أنه كان يرأس جماعة البربر بتاكرتا « في جبال رندة » زعيم يسمى عبد الرحمن بن عوسجة (١) ، وهو جد بنى عوسجة المصموديين (من البتر أى البرانس) الذين كثروا فيما بعد في الأندلس وعمرؤا نواحي جنوب شنتبرية الغرب ، حتى صارت تسمى « بلاد عوسجة » ، واليه أيضا ينسب دانس بن عوسجة الذي أنشأ قصر أبى دانس Alcocer de Sal على مقربة من قلنيرة Colenbeira (٢) في البرتغال الحالية . ويذكر ابن القوطية أن رئيس بربر ناحية مورور أثناء دخول عبد الرحمن بن معاوية كان ابراهيم ابن شجرة (٣) ، وهو من المصامدة . ويذكر ابن القوطية أيضا أن جماعة من الهواريين نزلت خلال عصر الولاة على مقربة من جيان ، والهواريون مختلف في نسبهم ، فهم من البتر حيناً ومن البرانس حيناً ، كما يختلف العرب في نسبة قضاة (٤) .

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٣ .

(٢) ابن حزم : الجوهرة ، ص ٤٦٥ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٥٣ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

وقد ذهب سيزار دوبلر في بحث قيم عن « منازل البربر في الأندلس » يبحث عن أسماء المواضع الاسبانية التي يمكن ردها الى أصل بربرى ، واستنتج من هذه الأسماء أن البربر لا بد أن يكونوا قد سكنوها وأعطوها أسماءهم . واستطاع بذلك اكتشاف الكثير من منازل البربر مما لم يسجله المؤرخون ، ولا نستطيع القطع بأن هذه المنازل ترجع الى عصر الولاة . لأن تيار البربر لم ينقطع عن الأندلس طوال العصور الاسلامية ، ولكننا نستطيع القول بأن المواضع التي ذكرها دوبلر في أقصى الشرق أو في الشمال أو قاصية الغرب يمكن اعتبارها منازل قديمة ترجع الى عصر الفتح الأول ، لأن البربر الذين نزلوا الأندلس ابتداء من عصر الناصر كانوا يستقرون في الجنوب والوسط والشرق ، دون أن يستقروا في أماكن متطرفة كانت في ذلك الحين ميدان حرب . واعتمادا على ذلك يمكن القول بأن مواضع مثل التالية يمكن اعتبارها من منازل البربر الأول في الأندلس :

Villa Nova de Ouren في البرتغال الحالية نسبة الى بربر وهران .

Tunis في البرتغال الحالية نسبة الى بربر تونس .

Alquerubim في البرتغال الحالية نسبة الى بربر القيروان .

Arzila في البرتغال الحالية نسبة الى بربر أرزيلا ، وهى أصيلا .

Adzenata في الشرق على مقربة من قسطليون Castellon نسبة الى زناتة

Sanet أو Senet قرب لاردة نسبة الى زناتة .

Benisanet قرب طركونة نسبة الى زناتة .

Butsenit قرب لاردة نسبة الى زناتة .

Barasal قرب جواردا في البرتغال نسبة الى بنى برزال (زناتة) .

Mequinenza في الشجر الأعلى عند ملتقى الابره بنهيره الأشقر (Segre) نسبة الى مكناسة .

Ceneja قرب قسطليون نسبة الى صنهاجة .

Cenija ضاحية من ضواحي سرقسطة نسبة الى صنهاجة .
 Azinhaga في البرتغال نسبة الى صنهاجة .
 Cotanes قرب بلد الوليد نسبة الى كتامة .
 Cotanillos حتى من أحياء شقوية نسبة الى كتامة .
 Cotimos و Alcouthim في البرتغال نسبة الى كتامة .
 Benigomar بناحية انكا نسبة الى غمارة .
 Gómara بناحية صورية Soria نسبة الى غمارة .
 Gomeriz و Gomeris في جليقية نسبة الى غمارة .
 Albornos بناحية أبلة نسبة الى البرانس .
 وغير ذلك كثير (١) .

وقد ذكرنا هذه المواضع على سبيل المثال لا على سبيل الحصر لنستنتج أن البربر انتشروا منذ العصر الأول في نواحي شبه الجزيرة كلها . وقد اكتفينا بذكر المواضع المتطرفة في أقصى الشمال الشرقي والشمال والغرب وتركنا غير ذلك من مواضع الوسط والجنوب والجنوب الشرقي والجنوب الغربي ، اذ لا تكاد تغلو ناحية من هذه النواحي أو مدينة من مدنها من منازل بربرية . ثم اننا — كما قلنا — لا نستطيع القطع بأن البربر نزلوا مواضع الجنوب والوسط والجنوب الشرقي والجنوب الغربي من أول الأمر (٢) .

(١) انظر :

CÉSAR E. DUBLER: Ueber Berbersiedlungen auf der Iberischen Halbinsel

وقد نشره في SACHE und ORT, Festschrift Jakob Jud ، وهو عدد من "Romanica Helvetica" Band 20, pp. 183-203. Zuerich, Genf. 1942 والفند الذي كتبه

J. OLIVER ASIN في مجلة الأندلس . العدد الأول سنة ١٩٤٣ ، ص ٢٦٦-٢٦٧ .

(٢) ودليل ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة حيث يقول في كلامه عن الصراع بين العرب والبربر في الأندلس : « وكانت قد رأت البربر على أنفسهم ابن [يباض الأصل] وحشدوا من جليقية وأستورقة وماردة وقورية وطليرة ، فأقبلوا في شيء لا يحصى عدد حتى أجازوا نهرا يقال له تاجه » (ص ٤٠) وهي عبارة تدل على أن جماعات البربر في النواحي التي ذكرها كانت كثيرة قبل =

يد أننا نستطيع القول بأن المواضع التي قامت فيها امارات بربرية فيما بعد أو التي ولى عليها أمراء بنى أمية وخلفاؤهم ولاية من البربر كانت منازل بربرية من قديم الزمان ، لأن الأمراء لا يولون أميرا بربريا على ناحية معظم سكانها عرب أو من أهل البلاد . ومن غير الممكن كذلك أن تقوم امارة بربرية في ناحية لا يغلب على سكانها العنصر البربري ، لأن حكم هذه النواحي كان لا يقوم الا على عزوة وعصب متأصلين .
 ١٦٥ - البربر وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفسر البيانات التي يقدمها في الثغور ابن حزم في كلامه على « بيوتات البربر في الأندلس » في جمهرة أنساب العرب عن أصول البربر ومنازلهم ، مثل قوله :
 أمراء الثغر (١) :

بنو هذيل	من مديونة	
بنو عبدوس	من سررتة	من ناحية صددية
بنو غزلون	من تيروال	
بنو عميرة	من الهاصة من نفزة	من ناحية شاطبة
بنو زرين	من مديونة	السهلة
بنو ذى النون	من هواره	وبدة
بنو فركرن	من هواره	ماردة وميدلين
بنو نبيه وبنو الأخطل		شدونة
بنو الفرج	من مصمودة	وادي الحجارة
بنو مضى	من مصمودة	قصر مضى

= هذه الفتحة حتى استطاعوا أن يحشدوا منها أعدادا لا تحصى . وقد هجر الكثير من أولئك البربر مواضعهم بعد ذلك على ما فصلناه ، ولكن بقيت منهم في كل من هذه النواحي جماعات قليلة . أما في نواحي طليبة وماردة وقورية فقد ظلت جماعات كثيرة منها على طول العصور الإسلامية .
 (١) يلاحظ ان الكثير من المواضع التي سيذكرها ليس من الثغر .

بنو رسين	من مصمودة	
بنو زروال	من مغيلة	المتنانية
بنو الياس	من مغيلة	شدونة
بنو عزون	من زناتة	شتبرية

فهؤلاء جميعا كانوا أمراء على نواحيهم مما يدل على كثرة بربرية فيها ، ثم ان وصفه لهم بأنهم « أمراء الثغر » يدل على أن معظم أمراء الثغر كانوا من البربر ، أى أن معظم النواحي الشمالية كانت منازل للبربر . وعندما نذكر ما قلناه عن مونوسة الذى كان والى الثغر كله من حدود البرت الى المحيط ، تتأكد لدينا هذه الحقيقة . أضف الى ذلك أن مجموعة منازل البربر التى ذكرها ابن حزم تكون خطأ واحدا يبدأ من نواحي جبال البرت عند لاردة ووشقة ثم يتحدرو الى ناحية مدينة سالم (قاعدة الثغر الأوسط فيما بعد) فقد نزلها بنو سالم من البرانس وأعطوها اسمهم ، وسكن الى جوارهم بنو الفرج وبنو عوسجة . وفى الدائرة الواسعة التى تحيط بمدينة سالم والتى تضم شتبرية والسهلة ووادى الحجارة نجد كتلة بربرية ضخمة تعمر هذه النواحي كلها الى أحواز طليطلة، وهذه الكتلة تتكون من بنى الفرج وبنى سالم وبنى عوسجة وبنى صبرون بن شبيب وآل وهب بن عامر الهواريين ، وكل هؤلاء من البرانس ، ثم بنى عزون وبنى بلال وبنى نعمان وكلهم من البر . وتمتد هذه الكتلة البربرية شرقا فتشمل تيروال حيث نزل بنو غزلون وناحية البونت حيث نزل بنو قاسم ، ثم تتصل هذه السلسلة البربرية ، بناء على البيانات التى يقدمها صاحب الأخبار المجموعة ، فتشمل مناطق طليطلة (جنوبى طليطلة) وماردة وقورية بين التاجه والدويره ثم تصل الى ساحل المحيط عند قلنيرة حيث نجد فرعا من بنى عوسجة وبنى

دانس عند قصر أبى دانس . ويذكر ابن حزم فرعا من بنى الفرج استقروا فى طرسونة أى فيما يلى جبال البرت من نواحي غالة ، وهذه الجماعة ان هى الا بقية من البربر الذين كانوا يعمرن النواحي القصية من الأندلس والذين كانوا يمتدون بحذاء خليج بسكاية ويعمرن حوض نهر المنيو ويتوغلون فى جليقية ، وقد اكتشف سيزار دوبلر — كما رأينا — مواضع ذات أسماء بربرية كثيرة فى هذه النواحي القاصية .

وقد رأينا فى كلامنا عن البربر والعرب كيف انسحب معظم البربر الذين كانوا يعمرن « ما وراء الدروب » أى شمالى نهر الدويره الى الجنوب وعاد بعضهم الى افريقية ، ورأينا كيف أن جموعهم أزجعت العرب واضطرت عبد الملك بن قطن الى السماح لجند بلج بدخول الأندلس لينقذوا من فيه من العرب ، ولولا أن أعداد أولئك البربر كانت كثيرة جدا لما أفزع العرب الى هذا الحد . ومعنى هذا أن ما يلى نهر دويره شمالا والحوض الأعلى لنهر ابره ثم ما بين نهر الدويره وتاجه، هذه النواحي الفسيحة كلها كانت عامرة بالبربر وكانت لهذا دار اسلام فى ذلك الوقت المبكر ، ولم يخرجها من بلاد الاسلام ويجعلها بلادا نصرانية أو بلادا خلاء مفتوحة للامتداد النصرانى من الشمال ، الا هذه الفترة العمياء التى وقعت بين شعبى الاسلام الكبيرين اللذين فتحا هذا البلد وأدخلاه فى نطاق الدولة الاسلامية الواسعة (١) .

والأدلة كثيرة على أن البربر الذين دخلوا الجزيرة أول الأمر اختلطوا بعرب الطالعة الأولى المسمين بالبلديين وأصبحوا معهم حزبا واحدا لا فرق فيه بين عربى أو بربرى ، بل كان الجانبان البا واحدا

(١) هذه البيانات مستقاة من «جبهة» ابن حزم ، ص ٤٦١-٤٦٧ . وعبارة «الأخبار المجموعة» التى أشرنا إليها واردة فى ص ٤٠ وقد أوردناها بنسخها فيما سبق .

على الشاميين أو عرب الطالعة الثانية . قال ابن القوطية في « افتتاح الأندلس » : « وتولى أمر قرطبة والشاميين والأمويين ثعلبة ابن سلامة العاملي ، وانصرف عبد الرحمن بن علقمة الى الثغر ، وبقي عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشاميين ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهري ويقولون لأهل الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا »^(١) . وقال في خبر ولاية أبي الخطار : « فلما أشرف من فيج المائدة والحرب قائمة بين الشاميين والأمويين وبين البلديين والبربر ونظر الفريقان الى اللواء خلوا الحرب .. »^(٢) . وقال بعد ذلك : « فقال أهل البلد والبربر : سمعنا وأطعنا ، ولكن لا محل فينا أهؤلاء الشاميين فيخرجوا عنا »^(٣) . وقال بعد خبر تفريق الشاميين في الكور : « وبقي البلديون والبربر على غنائمهم لم ينتقصهم شيء »^(٤) . وقد ظل هذا الحلف بين البلديين والبربر قائما حتى نهاية عصر الولاة ، بل ان « الموالي » أنفسهم — وستحدث عنهم — كانوا ينقسمون قسمين : البلديين والبربر في ناحية والشاميين في ناحية أخرى ، وكانت الصدارة بين الموالي للشاميين منهم .

ويؤيد صاحب الأخبار المجموعة ما قلناه عن اتحاد العرب البلديين مع البربر بقوله في سياق الحديث عن الصراع بين بلج وأصحابه والعرب البلديين : « فبيناه محصورا قد نزل أهل البلد من البربر والعرب وجلهم

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٩ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٠ .

البربر على ماردة اذ حضرهم عيد فطر أو أضحى .. »^(١) ثم يقول بعد ذلك : « فجمع له أهل البلد — العرب والبربر — جمعا »^(٢)

وقد كثر كلام المؤرخين المحدثين في أن العرب اختصوا ١٦٦ - هل أنفسهم بأحسن نواحي الأندلس ، فلم يتركوا للبربر اختصاص العرب الا النواحي الجبلية أو القاحلة أو القصية في الشمال ، وأن أنفسهم بأحسن نواحي الأندلس ؟ ذلك كان من أكبر أسباب الثورة البربرية . ولكننا رأينا في كلامنا على هذه الثورة أن الذي أغضب البربر لم يكن احتجاج العرب لأحسن المواضع ، وانما لسوء سياسة العرب جملة ، فقد تخاصم العرب فيما بين بعضهم وبعض بسبب سوء هذه السياسة لا بسبب انفراد فريق منهم دون آخر بخيرات البلاد . ذلك أن شبه الجزيرة الايبيرية فسيح يتسع لأضعاف من نزل هناك من العرب والبربر معا . ثم ان العرب لم يختاروا مواضعهم ، فهم لم يدرسوا شبه الجزيرة وتبينوا الطيب من أرضها وغير الطيب ، ولكنهم استقروا حيث شاءت لهم المقادير على طول خطوط الفتح ، أي في النواحي التي عرفوها لأول دخولهم البلاد . وقد فرق أبو الخطار عددا عظيما من الشاميين في الكور ، التي عرفت فيما بعد بالكور المجندة ، واختار لهم هذه الكور بنفسه ، أي أن الذين نزلوا لم يختاروها هم بأنفسهم ، أي أن العرب لم يكونوا يتخيرون بل كان استقرارهم في الغالب نتيجة مصادفات ، فقد رأينا مثلا كثرة العرب وتزاحمهم في منطقة جيان ، والسبب في ذلك واضح يفسره قول ابن الخطيب في كلامه عن فتح جيان والبيرة ومالقة ان طارقا « سار في معظم الناس الى كورة جيان يريد

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

مليلة»^(١) . فلو لم يكن «معظم الناس» قد مروا بهذه الناحية لما كثر العرب فيها ، ولو أن العرب مروا أول الأمر بناحية قطلونية ورأوا خصب أراضيها لتزاحموا فيها ، ولكن لم يعرفها منهم إلا القليل في زمن متأخر فظلت شبه خلاء منهم ، لم يسكنها إلا جماعة من تجيب ، وقد أشرنا الى ذلك .

ولدينا دليل واضح على أن العرب الأول لم يختصوا أنفسهم دون البربر بأحسن الأرضين ، وهو أن عرب الطالعة الأولى ، طالعة موسى ، كانوا دائما أحلافا للبربر على الشآميين لأنهم تقاسموا معهم ما نزلوا به من البلاد ، وساءهم جميعا — عربا وبربرا — أن يحاول الشآميون مشاركتهم في هذه الأراضي فنفروا يدافعونهم عنها ، واشتدت الخصومة بين الجانبين .

وحقيقة الأمر أن المسلمين الأول الذين دخلوا البلاد ، عربا وبربرا ، استقروا حيث نزلوا أو ساروا ، ولجأ كل فريق منهم الى ما يناسب مزاجه من النواحي : فأما العرب فكانوا يفضلون دائما البساتين والمنخفضات والنواحي الدافئة والقليلة المطر في الجنوب والشرق والغرب وناحية سرقسطة ، وأما البربر فكانوا في بلادهم يعيشون في بلاد جبلية عالية ، فألفوا مثل هذه البلاد في الأندلس ، فاستقروا فيها باختيارهم . ففى الجنوب مثلا استقر العرب في شذونة واستجة ، واختار البربر منطقة رندة الجبلية فسكنوها ، وسميت تكثرنا باسم بعض قبائلهم ،

(١) ابن الخطيب : الإحاطة (طبعة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥) ، ج ١ ، ص ١٠٧ . وقد نسب ابن الخطيب فتح هذه الناحية أول الأمر إلى طارق ثم عاد فصيح ذلك في نفس الصفحة فقال إن هناك من يقول إن ذلك الفتح تم في أيام موسى بن نصير سنة ٩٣ على يد ابنه عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته على ما قلناه .

وأعجبته نواحي قبيرة ومورور وأشونة فنزلوها واختلطوا مع العرب في بقية نواحي الجنوب . ثم إن جماعات من البربر أحبت الانفراد بنواح يكونون فيها مستقلين ، على مثل أحوالهم في بلادهم الأولى في إفريقية ، فاستقروا فيما بين نهري دويره وتاجه ، وهى نواحي هضاب مرتفعة تناسبهم من كل وجه .

استقر البربر إذن الى جانب العرب في بعض النواحي ،
١٦٧ - تحول ومنفردين بأنفسهم في نواح أخرى ، واختلطوا في كل
البربر إلى بلديين
ناحية بالأهليين وارتبطوا معهم بروابط الزواج وتحولوا مع
وأثره
الزمن الى «بلديين» أى أندلسيين . وقد كان لهؤلاء
البربر أثر عظيم جدا في انتشار الاسلام في الأندلس ، فإن البربري قريب جدا من حيث المزاج والطبع — والأصل أيضا — من أهل البلاد الأصليين ، وخاصة أولئك الذين كانوا يعمرون الأرياف منهم ، فامتزجوا بهم دون تكلف . ثم إن البربر لم يعرفوا عصبية الجنس التي أفسدت على العرب الكثير من أمورهم ، وكانوا شديدي الحساس للاسلام ، فقد كان الاسلام بالنسبة لهم رمز سيادة ، فأظهروا العصبية له ، واجتهدوا في نشره ، وأعانهم على ذلك أنهم بطبعهم جنس متدين شديد التعلق بعقيدته ، فلا غرابة والحالة هذه أن تكون هذه الجماعات البربرية التي انبثت في نواحي البلاد من أكبر العوامل في تحول أهلها الى الاسلام . ولو درسنا طبيعة الاسلام الأندلسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري على الأقل ، لتبيننا أنها تشبه طبيعة الاسلام المغربي عامة من حيث التسكك الحرفي بأهداب العقيدة والتزام مذهب واحد والتعصب له ، والحرص على تبجيل رجال الدين ، والمتصوفين منهم بصفة خاصة ، والميل الى تقديس الأولياء وحب الجهاد في سبيل الدين وما الى ذلك .

وقد أشار إيقي پروفنسال الى غلبة الطابع البربري على الأندلس بقوله: « وفي هذا الصدد ، ربما كان « الطابع البربري » أظهر وأوضح اليوم في اسبانيا وجنوبي البرتغال من « الطابع العربي » بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ ، وذلك في كثير من ظواهر الحياة الريفية ، والنشاط الزراعي » (١).

وكان معظم من أقبل الى الأندلس خلال هذه الفترة الأولى ١٦٨ - غلبة من الزناتيين ، وكان زعماءهم كذلك زناتيين ، فقد كان الزناتيين على البربر أبو زرعة طريف وطارق بن زياد زناتيين وكان زعيم البربر الأول في الأندلس في ثورتهم الكبرى التي أشرنا اليها زناتيا ، وكان بنو الخليع وبنو وانسوس الذين أعانوا عبد الرحمن الداخل على اقامة امارته زناتيين ، وقد رأينا أن معظم أسماء الأماكن البربرية في نواحي أشتريس وجليقية زناتية . ثم ان البتر (ومنهم زناتة) كانوا أول أهل افريقية اسلاما ، وقد انضمت جماعات منهم الى المسلمين منذ أيام عقبة بن نافع وأسلمت واشتركت في فتح المغربين الأوسط والأقصى ، وكان ولاية افريقية يتخذون منهم حرسهم وخاصة جندهم (٢) . وكان منهم زعماء الثورة في افريقية ، مثل ميسرة المطعري وخالد بن حميد الزناتى . وذلك كله يؤيد غلبة العنصر الزناتي على من دخل الأندلس من البربر خلال هذه الفترة الأولى .

ومن المعروف أن الزناتيين كانوا أقرب الى العرب وأشبه بهم من الصنهاجيين ، فقد كانوا بدوا مثلهم ، ثم انهم كانوا على الوثنية حتى دخول المسلمين البلاد ، ففتح لهم الدين الجديد أبواب التحضر والانتظام فساروا جنبا الى جنب مع العرب الأول ، وخاصة البلديين منهم .

(١) LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane* (2e. éd. Paris, 1950) vol. I p. 88.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٤ .

وكان هؤلاء البربر في مجموعهم أبسط طبعا وأكثر سذاجة من العرب ، وأقرب الى تذوق بساطة الاسلام من كثيرين من العرب الذين أقبلوا الى الأندلس بعد تقلب طويل في الفتن في المشرق ، ولهذا كان أولئك البربر يصرون على التمسك بمبادئ العقيدة ، وكانوا يحتاجون العرب ويتقنون تصرفاتهم معهم مستندين الى أصول الشريعة ، كما كان يلقيها لهم دعاة اسلاميون انبثوا بين صفوفهم . ولهذا أيضا سهل اجتذاب الكثيرين من أولئك البربر الى مبادئ الخارجية ، الأباضية والصفيرية بصفة خاصة ، لأن دعائهما بين البربر كانوا كثيرين ولأن ظاهر هذه المبادئ ، كما كان أولئك الدعاة يشرحونها ، أقرب الى مبادئ الاسلام الصحيح .

والى هذه الجماعات البربرية يرجع جانب كبير من دافع ١٦٩ - البربر العرب الى الاسترسال في الفتوح في غالة ، كانت جماعات والفتوح في غالة البربر تجوز الى الأندلس وقلوبها معلقة بالفتح والجهاد وما يتعلق بهما من مغانم وأسلاب ومكاسب ، وكانوا يتجمعون في الأندلس فلا يستطيع العمال تركهم دون عمل يتسكعون في العاصمة وحولها ، فكانوا ينهضون معهم للغزو . ولا شك أن حملات واسعة المدى ، كذلك التي قام بها السرح بن مالك أو غنيسة بن سحيم ، ما كانت لتتم لولا وجود هذه الجماعات البربرية المتوفرة المتعطشة للفتح ومغانم . وكلما زاد نشاط الفتح زاد هؤلاء البربر ضراوة على الحرب وطمعا في المغانم ، وربما اشتد طمع بعضهم في الأسلاب فكان ذلك من أسباب فشل بعض الحملات .

كان في هؤلاء البربر اذن قوة تدفعهم الى الاسترسال في الفتوح ،

كما كانت شعوب المتبربرين يدفع بعضها بعضا نحو أراضي الدولة الرومانية.

هكذا يمكننا تعليل جانب من هذا النشاط الحربى العظيم الذى أبداه المسلمون في فتوح الأندلس وغالة .

ومن العسير جدا أن تقدر أعداد العرب والبربر الذين اشتركوا في هذه الأعمال الحربية ، لأن أعداد من اشترك منهم في الجيوش الرسمية — وهى الأعداد التى رواها المؤرخون — لا تكون الا نسبة ضئيلة من العرب والبربر الذين هاجروا الى الأندلس على هيئة تيار متصل : فقد كانت الاضطرابات السياسية في المشرق ، وميل خلفاء بنى أمية الى القيسية حيناً والى اليمينية حيناً ، سببا في هجرة جماعات من العرب معظمهم من اليمينيين والمدنيين الى الولايات وخاصة المغرب والأندلس ، وقد استقر نزر قليل من هؤلاء العرب في افريقية واستمر الأكثرون في طريقهم حتى حطوا رحالهم بالأندلس ، أما البربر فكان تيارهم أقوى وأعدادهم أكبر ، ولا يمكننا تصور تحول بلد كالأندلس الى الاسلام هذا التحول السريع الا بافتراض أن أعداد المهاجرين المسلمين كانت كبيرة فعلا (١) .

ومن الطريف أن نلاحظ أن البربر — على حداثة عهدهم بالاسلام — كانوا أكثر تمسكا بالاسلام وحماسا للفتح من العرب ، لأن الاسلام كان وسيلتهم الأولى في النهوض بأنفسهم والاحتفاظ بحقهم كأنداد

(١) ويؤيد ذلك بوضوح قول الرازى : « إن الذى أزعج موسى من الأندلس أبو نصر رسول الوليد ، فقبض على عنائه وثناه قافلا ، وقفل معه من أحب إلى المشرق ، وكان أكثر الناس قطنوا ببلاد الأندلس لطيبها فأقاموا فيها » مما يدل على أن عدداً قليلاً جداً من ورد البلاد من الفاتحين المسلمين قد غادرها وعاد إلى إفريقيا أو إلى المشرق . وسنلاحظ أن معظم من يقبل إلى الأندلس يستقر فيه ولا يعود يفارقه أبداً (المقرئ : فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٧) .

للعرب وسادة في البلاد المفتوحة وأصحاب حق في الغنائم والأرضين ، ولهذا نراهم يحتجون دائما على العرب ويتهمونهم بمخالفة الدين ويطالبونهم بتنفيذ أشرطه . وكانوا اذا استقروا في الأرياف استمسكوا بالاسلام حتى يميزوا أنفسهم عن أهل البلاد ، ولهذا لا نبالغ اذا قلنا ان جانباً عظيماً من الفضل في اسلام أهل الأندلس يرجع الى هؤلاء البربر الذين آمنوا بالدين الجديد في سذاجة وقوة ، واحتفظوا بهذا الايمان لأنه يكسبهم حقوقاً معنوية ومادية لا يبلغونها بدونهم .

وقد أساء العرب معاملة هؤلاء البربر من أول الأمر كما رأينا ، فمما في نفوسهم شعور من الخوف من العرب ، حتى اذا قامت الثورة البربرية في افريقية وانتقلت الى الأندلس وقعت القطيعة بين الحيين وصار الأمر بينهما الى عدااء سافر خطر . وقد انتهى الدور الأول من الصراع بانتصار العرب ، فهاجر من البربر من هاجر ، وأقام على خوف من أقام ، حتى بدأت بشائر الدولة الأموية فانضموا الى عبد الرحمن ، وهم لا يكادون يشقون في حسن نواياه ، وكان لابد له من أن يخوض صراعاً طويلاً معهم — كما فعل مع غيرهم — حتى يخضعهم للدولة الجديدة ، وانتهى الأمر بهم الى الطاعة والاستقرار .

ولا نزاع في أن البربر انضموا الى البلديين وكونوا حزبا واحدا منذ بدء الصراع بين هؤلاء وبين الشأميين كما قلنا ، ولكن انضمامهم هذا لم يكن خالصا ولا صادقا ، لأنهم عرفوا من ويلات البلديين الى ذلك الحين ما نقرهم من العرب جملة ، ولصاحب الأخبار المجموعة عبارة عظيمة الدلالة ذكرها أثناء روايته للنزاع بين بلج بن بشر والبلديين ، قال : « فلما بلغ ابنه (ابنى عبد الملك ابن قطن وهما أمية وقطن) ما كان ، حشدا من أقصى أربونة ، وراجعا

أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام ، فإذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأى » (١) مما يدل على ما كان يخامر نفوس البربر جميعا نحو العرب — بلديين وشاميين — من الكراهية والخوف .

وقد أشرنا الى ما خلفه القيسيون من الأحقاد في قلوب البربر بسبب أفاعيلهم فيهم عندما نزلوا البلاد بقيادة بلج ، ورأينا أن البلديين انضموا الى الشاميين أثناء هذه المحنة ، فلما انتهت بالقضاء على البربر وتقتيلهم في كل ناحية زاد نفور من بقى منهم ، وأخذوا ينظرون الى العرب نظرهم الى عدو ، فكانوا لا يسيرون معهم الا على خوف ، ومن دلائل ذلك ما يرويهِ ابن القوطية في أخبار عبد الرحمن بن معاوية الداخل وانشائه دولته ، قال : « فلما كان بالعشي ركب مع ثقات من مواليه ورجاله ونفر من العسكر ، فسمع البربر يتكلمون في العسكر بالبربرية ، فدعا بمواليه من البربر مثل بنى الخليج وبنى وانسوس وغيرهم وقال لهم : خاطبوا بنى عمكم وعظوهم وأعلموهم أنه ان تغلب العرب وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معهم ، فلما أظلم الليل دنوا من العسكر ، وخاطبوهم بالبربرية فأجابوهم الى ما أحبوه ووعدوهم ، الى أن انصرفوا عن عسكرهم ، فلما أصبح لهم (كذا) قالوا للعرب : انا لا نحسن الحرب الا فرسانا فاحملوا من بقى منا على الخيل ، فأرجلوا العرب وحملوا البربر على خيلهم . ودخلوا رجالة فخرقوا الى عبد الرحمن ، ووقعت الهزيمة على عبد الغفار » (٢) مما يدل على أن

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤١-٤٢ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٢ .

بعض البربر الذين كانوا في صفوف عبد الرحمن كانوا متخوفين مترددين يفكرون في الانقلاب عليه ، وأنه استعان على كسبهم بتخويفهم مما سيصيبهم على أيدي العرب اذا هو انهزم ، وكان هذا التخويف كافيا لتغيير رأيهم فأخلصوا في القتال في صفوفه ونصروه .

وينبغي أن نذكر أنه كانت هناك الى جانب البربر الذين ١٧١-جماعات هاجروا الى الأندلس واشتركوا في الفتوح جماعات من السودان في الأندلس السود ، فقد قال صاحب « فتح الأندلس » مثلاً في كلامه عن غزوات موسى : « وقدم السودان بين يديه للفتح والغارة » (١) ، ويبدو أن أعدادهم كانت قليلة ، ولهذا كان أثرهم قليلاً . والغالب أنهم ظلوا مجرد جنود يحاربون الى جانب هؤلاء ، وأولئك ، ثم اندرجوا في جيوش الدولة الأموية بعد ذلك ولم نعد نسمع عنهم .

١٧٢ - تأثرت جماعات البربر المستقرة في الأندلس بالبيئة الجديدة البربر بالبيئة تأثراً عظيماً ، فكان الجيل الأول منهم لا يكاد ينقض حتى الخلية يطلع الجيل الجديد أندلسياً قد أنسى أصله واتخذ الأندلس وطناً ، فأما من الناحية العقلية المعنوية فكانوا يجتهدون في التعرب : يتعلمون العربية ويقتل من له ميل منهم على دراسة الاسلام والتفقه فيه ، وأما من الناحية المعاشية فنجد البربر قد ارتبطوا بمن يجاورونهم من أهل البلاد بالصهر والقرابة ، وأخذوا عن أمهاتهم الاسبانيات لغتهن في الحديث ، أي أن شأن أولئك البربر كان شأن غيرهم من مهاجرة العرب ، طوتهم البيئة الأندلسية الغالبة في ثناياها ، فأصبحوا أندلسيين ،

(١) فتح الأندلس ، ص ٥ .

ومنهم من اتخذ لنفسه اسما عربيا زيادة في التعرب ، ومن هنا كانت أسماء جماعاتهم ذات الأسماء العربية التي ذكرنا بعضها . ومن الواضح أن البربر كانوا أسرع اندماجا من العرب في البيئة الجديدة ، فقد حالت بين العرب وبين الاندماج السريع الكامل عصيتهم ولغتهم العربيتان ، أما البربر فلم يكن هناك ما يحول بينهم وبين الاندماج ، لا عصبية ولا لغة مكتوبة . ثم عمل الاسلام عمله فيهم ، فانتظموا وتحضروا ، وأصبحت غالبيتهم مع الزمن في جيلة العرب الأندلسيين . وقد كان لهؤلاء الأندلسيين الذين رجعوا الى أصل بربرى أعظم الأثر في بناء الأندلس الاسلامى من كل ناحية .

وقد أشار لىقى يروفسال الى أن الزواج بينهم وبين العرب كان قليلا أو منعما ، وليس لدينا ما يؤيد ذلك ، لأن العرب مهما قيل في اعتزازهم بأنفسهم لم يكونوا يعتبرون أنفسهم جنسا متميزا بدمه عن غيرهم ، كما كان الحال مع الرومان أو القوط ، بل كانوا من أكثر الشعوب امتزاجا بغيرهم . وللإسلام في ذلك أثر واضح .

ج - الموالى

ولا يكتمل الكلام على العرب والبربر بدون الإشارة الى الموالى ، فقد كانوا خلال هذه الفترة كلها عاملا من أكبر العوامل في توجيه تيار الحوادث ، ثم كانت لهم بعد ذلك اليد الطولى في إقامة دولة عبد الرحمن الداخل .

نجد الموالى — مذكورين باسم « موالى بنى أمية » —

١٧٣ - موالى لأول مرة في حديث ابن القوطية عن بلج بن بشر بنى أمية وفراره الى ناحية طنجة بمن نجا من العرب من « معركة

الأشراف » ، وذلك حيث يقول : « وانخذل بلج بن بشر في عشرة آلاف حتى نزل بمدينة طنجة : منهم ألفا مولى وثمانية آلاف عربى » (١) . ولسنا نجد لهؤلاء الموالى قبل ذلك ذكرا ككتلة « متماسكة » ، وانما نجد أفرادا منهم مذكورين هنا وهناك مما يسمح لنا بالقول بأن قيام « موالى بنى أمية » كحزب أو كقوة سياسية فى الأندلس يرجع الى تاريخ دخول بلج بن بشر الأندلس ، وقد انضم اليهم بعد ذلك من كان فى الأندلس من موالى بنى أمية ومن دخلها بعدهم ، ثم من دخل فى ولاء البيت الأموى من أهل البلاد .

١٧٤ - تكوين ولا يتضح من إشارة ابن القوطية هذه ما اذا كان أولئك كتلة الموالى فى الموالى من موالى بنى أمية فى المشرق أو ممن دخل فى الأندلس ولائهم من أهل المغرب ، ولكن ما لدينا من أخبارهم بعد ذلك يدل على أن عددا قليلا منهم كان من موالى المشرق وأن أكثرهم كانوا من أهل المغرب الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية أو عمالهم . ومن الجدير بالملاحظة أننا نجد فيهم قبيلتين بربريتين كاملتين ، هما بنو الخليع وبنو وانسوس (٢) .

ولا نزاع فى أن إفريقية كانت تضم عددا عظيما من موالى البيت الأموى الذين كان الخلفاء يبعثونهم مع الجيوش ، فحينما خرج كلثوم

(١) وهؤلاء الموالى جزء من عدد عظيم من الموالى كان هشام بن عبد الملك قد بعث بهم إلى إفريقية . قال ابن القوطية : « فقدم كلثوم [بن عياض] إفريقية ومعه ثلاثون [ألفاً من موالى] بنى أمية وعشرون ألفاً من بيوتات العرب » ، وقد انهزم هذا الجيش أمام البربر فى موقعة بقنودة (أو نقودرة) ولم ينسج من الجيش العربى إلا بلج وأصحابه ، ثم «انخذل بلج بن بشر فى عشرة آلاف حتى نزل مدينة طنجة ، وهى المعروفة بـ «الخضراء» ، منهم ألفا مولى وثمانية آلاف عربى» ، ص ١٥ .

(٢) كان بنو وانسوس موالى عبد العزيز بن مروان . (ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١) .

ابن عياض من المشرق لقتال البربر مثلاً كان جيشه يتكون من « عشرة آلاف من بنى أمية وعشرين ألفاً من بيوت العرب »^(١)، والمراد ببنى أمية هؤلاء مواليهم من أهل الشام أو العراق وفارس ، ومن البديهي أن الكثيرين من هؤلاء الموالي المشاركة قد شاركوه في فتح الأندلس واستقروا فيه ، وتكونت منهم ، ومن انضم اليهم ممن دخل في ولاء بنى أمية من أهل المغرب والأندلس ، هذه العصبية القوية التي سيكون لها أعظم الأثر في مجرى الحوادث فيما بعد . وقد دخل في ولاء بنى أمية نفر كبير من أهل المغرب ودخل في ولاء عمالهم ، وخاصة موسى بن نصير ، عدد عظيم كذلك ، وقد ارتبط هؤلاء جميعاً برابطة الولاء نحو البيت الأموي حتى البربر الذين دخلوا في ولاء بنى أمية كانوا أقرب إلى اخوتهم في الولاء منهم إلى بنى عمومته من البربر ، مما يدل على أنهم كانوا يعتبرون رابطة الولاء الجديدة أقوى من رابطة العصبية الأولى^(٢) . ويبدو أن التفرقة بين الموالي وغيرهم كانت واضحة في ذلك العصر . وأن الموالي كانوا معتبرين في مركز اجتماعي ومعنوي لا يقل عن العرب ، بل أننا نلاحظ أن العرب كانوا يميلون إلى أن يعتبروا أنفسهم موالي ، فقد ذكر ابن القوطية في أخبار أرطباس أنه « دخل عليه عشرة من الشّاميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأبو عبدة ويوسف ابن بخت والصميل بن حاتم ، فسلموا وجلسوا على الكراسي المحيطة بكرسيه ، فلما أخذوا مقاعدهم وحى بعضهم بعضاً دخل ميمون العابد . جد بنى حزم البوابين ، وهو أحد الموالي الشّاميين .. فقال الصميل :

(١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ١٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

وقد كان بنو وانوس موالي عبد العزيز بن مروان . نفس المصدر ، ص ٢١ .

يأرطباس ، ما يعجزك من سلطان أيك الا نفاد الطيبة : أدخل عليك ، وأنا سيد العرب بالأندلس ، ويدخل أصحابي هؤلاء معي ، وهم سادات الموالي بالأندلس ، فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان .. » (ص ٣٨-٣٩) . أي أن الصميل وصف العشرة الذين كانوا معه بأنهم من الموالي ، وابن القوطية يقول أنهم كانوا عشرة من الشّاميين فقط ، مما يفهم منه أن الشّاميين جميعاً كانوا يعتبرون وصفهم بالموالي شرفاً لهم . ويؤيد ذلك أن الصميل قال لهم بعد ذلك : « أنتم ملوك » ولم يكن ليصفهم هذا الوصف لو لم يكونوا من سادات العرب جيلة ، لا من الموالي فحسب .

وظاهر أن أعداد هؤلاء الموالي زادت في الأندلس زيادة عظيمة ، بدليل أن بلج بن بشر عندما سار للقاء اليمانية الذين كان يقودهم عبد الرحمن بن غلقة وأمّية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن خرج في « عشرة آلاف من الأمويين والشّاميين »^(١) . ثم تزايدت أعدادهم بعد اضطراب الأمر على الأمويين في المشرق ، ومصادق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن « الطلب حينما اشتد على بنى أمية هربوا إلى الآفاق ، وكانوا يسمعون في الرؤية أن مستراحهم بالمغرب ، فنزع أكثرهم إلى إفريقية »^(٢) ، ولا بد أن الكثيرين منهم عبروا إلى الأندلس ، وسرى براهين ذلك فيما يلي من الأحداث .

١٥٠ - المقيت وكان هؤلاء الموالي يعتبرون أنفسهم تابعين للبيت الأموي سياسي للملك أو لمن عهد إليه الأمويون بالولاية ، وهم لهذا لم ينضموا إلى عبد الملك بن قطن لأنه انتزع الأمر من الوالي الرسمي الذي سلفه

(١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ١٥ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٥٠ .

وهو عقبة بن الحجاج ، وحينما أقبل بلج بعهد خاله كلثوم بن عياض عامل هشام انضموا اليه ، فلما قتل بلج انضموا الى خليفته ثعلبة بن ثوابة ، وكانوا لهذا يحاربون البلديين لأنهم كانوا يعتبرونهم ثائرين على بنى أمية ، ومصادق ذلك ما يقوله ابن القوطية : « وانصرف عبد الرحمن بن علقمة الى الثغر ، وبقي عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشاميين ، ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهري ، ويقولون لعرب الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا .. » (١) .

وبقى هؤلاء الموال الى جانب الشاميين حتى أقبل أبو الخطار ، ولا نسمع لهم ذكرا في عهده ، والظاهر أنه فرقهم في النواحي فيمن فرق من الشاميين ، لأننا سنجد جماعات منهم عند مجيء عبد الرحمن متفرقة في نواحي ريه وشذونة وتاكرنا ، ولكن غالبيتهم العظمى بقيت في قرطبة وفيها زعماءهم من أمثال يوسف بن بخت وأميرة بن يزيد وتمايم بن عاتمة وأبو فريضة .

وحينما انتصر يوسف الفهري على أبي الخطار وتخلص منه ، بمعاونة الصميل بن حاتم ، اعتبر نفسه الوالى الشرعى وحاول لهذا أن يضع يده على موالى بنى أمية ، فجعل يسميهم « موالينا ويظهر الميل اليهم » (٢) على اعتبار أنه الوالى الشرعى للأندلس والنائب عن خلفاء بنى أمية وصاحب حق الولاء على مواليتهم . ولو قد كان يوسف صاحب رأى وسياسة لأفاد منهم ولقوى مركزه بهم في صراعه المقبل مع عبد الرحمن ابن معاوية ، ولكنه كان ضعيف الرأى بعيدا عن السياسة ، وكان أمره

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٠ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١ .

كله بيد وزيره الصميل بن حاتم ، فاستطاع هذا أن يكسبهم اليه ، فكانوا الى جانبه الى أن ظهر عبد الرحمن الداخل .

ولم يعمل أمر موالى بنى أمية في فترة كما علا خلال الفترة التي سبقت قدوم عبد الرحمن ، فقد كانوا كتلة طيبة متناسقة من الرجال الأشداء . وقد أيدوا يوسف الفهري والصميل لتجاهلها على القحطانية (١) ، لأنهم كانوا يكرهون هؤلاء القحطانيين (اليمينيين) ورؤساءهم ، فكانوا خير نصير ليوسف والصميل في صراعهما مع أبي الصباح وغيره من كبار اليمينيين . قال صاحب الأخبار المجموعة : « وكان لبنى أمية يومئذ بلاء عظيم معروف وصبر محمود ، فكانوا من يوسف بأشرف المنازل ومن الصميل وجميع قيس ومضر ، فخرجوا مع قيس فبسن قوى من بنى أمية » (٢) .

١٧٦ - الموال فلما أقبل بدر مولى عبد الرحمن واتصل بهم بدأ موقفتهم وقيام الدولة من المضرة يتغير ، لأن بدرا خاطبهم بأحب لغة الى نفوسهم ، الأموية وأفهمهم أن انضمامهم للأمر الجديد إنما هو اتقاد لهم من فوضى العصبية في الأندلس . والمراجع في خلاف على ما اتفق معهم عليه : هل طلب منهم العمل على « اجارة » عبد الرحمن وايوائه لانتقاده من البربر فقط ، أو تحدث اليهم في تحويل السلطان الى عبد الرحمن واقامة دولة جديدة . والرأى الثانى أصح ، لأن تطور الحوادث يؤيده ويدل على أنهم كانوا يسعون لتمهيد السلطان لعبد الرحمن لا لمجرد ايوائه وتأمينه .

ولم يخف ذلك على الصميل ، رغم محاولة موالى بنى أمية خداعه ،

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٦ .

وكان الرجل رغم اسرافه في الشراب وتشعث ذهنه ذكيا يفهم بواطن الكلام ، ولهذا لم يكذب يوافق على ايواء عبد الرحمن. ويعد موالى بنى أمية بارغام يوسف على اجارته وتزويجه ابنته ، حتى روى الأمر على نفسه وتبين خطورته ، فبعث من استوقف رسوليهم في منتصف الطريق ، وأسرع بنفسه على فرسه الأبيض « الكوكب » وقال لهما : « انى منذ أنيتموني برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل فى ادارة ، فاستحسنتم ما دعوتما اليه ، ثم كان منى اليكما ما كان . فلما فارقتكما روت فى فيه ، فوجدته من قوم لو بال أحدهم فى هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم فى بوله . وهذا رجل قد حكنا عليه ، مع ما له فى أعناقنا (يريد يوسف الفهرى) ... وأنا أعلمكما أن أول سيف يسبل عليه (أى على عبد الرحمن) فسيفى ، فبارك الله لكما فى رأيكما .. » (١) .

وهى عبارة خطيرة الدلالة ، لأن الصليل كشف بها عن أعماق ما كان يدور بنفوس الموالى ، وأعلن اليهم عدااه الصريح لما يريدون ، ومن هذه اللحظة فهم هؤلاء الموالى ألا خير هناك يرجونه من يوسف والصيل والمشرية جملة ، وبدأت أفكارهم تتجه وجهة أخرى . اتجهوا نحو اليمنيين الذين كانوا يكرهونهم ويحاربونهم حتى هذه اللحظة ، وقد جاء هذا التغير الحاسم دليلا على ما كان يمتاز به هؤلاء الموالى من تمام المعرفة بأحوال البلد وسلامة حسهم السياسى ، فقد سارت قضية مولاهم عبد الرحمن من ذلك الحين سعدا ، وقد قال أبو عثمان عبيد الله ابن عثمان أحد كبار هؤلاء الموالى يصف هذا التحول : « فانقطع رجائنا من مضر وربيعة بأسرها ، ورجع رأينا الى أطباء اليمن وادخالهم فى رأينا ، ففعلنا ذلك من فورنا : لم نمر بيماني له بال وثقنا به الا عرضنا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .

عليه أمر ابن معاوية ودعونا اليه ، فآلفينا قوما قد وغرت صدورهم يتمنون شيئا يجدون به سبيلا الى طلب ثأرهم ، ورغبوا فى عقد بنى أمية بالأندلس ، ثم رجعنا الى جندنا وقد يئسنا من مضر فابتعنا مركبا .. » (١) .

والصاحب « فتح الأندلس » عبارة على جانب عظيم من الأهمية تبين موقف هؤلاء الموالى وعلاقتهم بعبد الرحمن وبنى أمية ، وذلك حيث يقول : « وشاور (عبد الرحمن) كل من معه من الأمويين فقالوا : انما يرضى لك هذا الفهرى ببعض أعماله التى هى أعمالك وأعمال جدك . وانما هو عامل لعامل ابن عمك ، فيخرج عهده الذى يحاجنا به ، فانما هو من عمال جدك أمير المؤمنين هشام ، فلا والله لا نرضى لك بهذا حتى نكافحه دونك ويعود الى حالته الأولى ويترك الأمر لك » (٢) : أى أن قدوم عبد الرحمن قد حل رابطة الولاء التى تربطهم الى هذا الفهرى الذى هو فى الواقع عامل لعامل افريقية ، وعامل افريقية من عمال بنى أمية ، فما معنى الولاء له وعبد الرحمن حفيد هشام مقيم بينهم ؟

والواقع أن موالى بنى أمية قاموا بدور خطير جدا فى اقامة أمر عبد الرحمن وتحويل تاريخ الأندلس كله وجهة جديدة ، ولولا مؤازرتهم له والتفافهم حوله لما قام أمره ، ولولا اخلاصهم له ولبنيه لما استطاعت الامارة الأموية أن تسير على هذا النحو الموفق الذى سارت عليه .

وقد دخل الكثيرون من أهل الأندلس فى ولاء بنى أمية بعد ١٧٧ - موال
من أصول إسبانية
الفتح ، فقد قال ابن حزم مثلا فى « الجمهرة » فى سياق الكلام عن بنى قسسى : « كان قسى قومس الشجر فى أيام

(١) نفس المصدر ، ص ٧٤ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٥٢ .

القوط ، فلما افتتح المسلمون الأندلس احق بالشام وأسلم على يدى الوليد بن عبد الملك ، فكان ينتمى الى ولاءه ، ولذلك كان بنو قسى فى أول أمرهم ، اذا وقعت الفتنة بين المضرية واليمانية يكونون فى جملة المضرية ، فولد قسى : فرتثون وأبو ثور وأبو سلامة ويونس ويحيى «^(١)» وتحدثنا الحوليات الأندلسية عن عدد كبير من هؤلاء الموالى الأندلسيين ويوتهم : بنو بارون ، بنو غومس ، بنو غرسية ، بنو قارله ، بنو مرتين ، وغيرهم . فقد دخل آباء هذه البيوت أول الأمر فى ولاء بنى أمية فى المشرق ، ثم انتقل ولأؤهم الى بنى أمية الأندلسيين ، وظل بعضهم محتفظا بهذا الولاء ، واندرج بعضهم الآخر فى عداد المولدين . ولا شك أن هذا الولاء سار على نفس الأسس التى جرى عليها نظام الولاء فى المشرق ، مع فرق واضح : هو أن الموالى فى الأندلس كانوا موالى البيت الأموى لا موالى قبائل عربية ، كما كان الحال مع الكثير من الموالى الفرس ، فلم تذكر الحوليات الأندلسية ولاء قوم اقصية الا نادرا ، فقد ذكر ابن حزم مثلاً فى « الحمهرة » من بيوت البربر بنى سالم وبنى الفرج وقال انهم موالى بنى مخزوم «^(٢)» .

١٧٨- طبيعة وليس لدينا نص يثبت أن هؤلاء الموالى الأندلسيين ولاء الأندلسيين أو بعضهم كانوا موالى عتاقة الا فى حالات قليلة ، فقد ذكر المؤرخون أهل ناحية من نواحي ماردة باسم « موالى موسى » وهم موالى موسى بن نصير ، ويغلب على الظن أنهم دخلوا فى ولاء موسى بعد فتح الناحية عنوة فأعتقهم وصاروا مواليه . وذكر ابن الفرضى فى حديثه عن بعض علماء الأندلس مثل سعدان بن ابراهيم .. بن زياد

(١) ابن حزم : الحمهرة ، ص ٤٦٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٦٥ .

وابنه قاسم أن الأب كان « موالى الامام عبد الرحمن بن معاوية ولاء عتاقة »^(١) . ولو قد كان سعدان هذا وأمثاله من موالى بنى أمية الذين أتوا من المشرق لاكتفى ابن الفرضى بالقول بأنه موالى بنى أمية ، كما هى عادته ، أما وقد ذكر أنه موالى عتاقة فلا يفسر الا بأنه كان ممن صاروا الى ملكية الأمويين من أهل البلاد أو البربر ثم أعتقوهم فصاروا مواليهم بالعتاقة .

ويؤيد هذا ما يذكره ابن الفرضى عن عالم آخر هو اسماعيل بن بدر ابن اسماعيل بن زياد اذ يقول انه « موالى نعمة لبنى أمية من أهل قرطبة »^(٢) ، وموالى النعمة هم موالى العتاقة مع اختلاف يسير ، هو أن موالى النعمة لا ينبغى أن يكون رقيقا ثم أعتق ، بل قد ينعم عليه بالولاء كشارة من شارات الاعزاز والتقدير . وهم فى الأندلس يختلفون عن الموالى اطلاقا ، لأن ابن الفرضى يذكر الكثير من الموالى محددا ولاءهم الأول أو مكتفيا بالقول بأنهم موالى بنى أمية ، مثال ذلك : اسماعيل بن خلف المعروف بابن الخبازة من أهل سرقسطة « وينسب الى ولاء بنى أمية »^(٣) ، واسماعيل بن القاسم بن عبدون « موالى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان من أهل قالقلا »^(٤) ، وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم « موالى عثمان بن عفان رحمه الله »^(٥) ، وحرث ابن أبى سعد « موالى الأمير عبد الرحمن بن معاوية »^(٦) ، وحسن بن

(١) ابن الفرضى : علماء ، ترجمة رقم ٥٤١ ، ١٠٧٠ .

(٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس (طبعة كويدرا ، مدريد ١٨٩٢) ترجمة رقم ٢١٤ .

(٣) نفس المرجع ، رقم ٢٢٠ .

(٤) نفس المرجع ، رقم ٢٢١ .

(٥) نفس المرجع ، رقم ٢٧٨ .

(٦) نفس المرجع ، رقم ٣٢٤ .

عبيد الله بن محمد .. بن رافع « مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(١) ، وزكريا بن يحيى بن عايد بن كيسان « مولى هشام »^(٢) ، وسليمان بن عبد الرحمن بن يزيد « مولى معاوية بن أبي سفيان »^(٣) ، وهكذا . وقد يكتفى المؤرخون بقولهم : « من الموالى »^(٤) ، كما هي الحال مع سعيد بن حميد بن عبد الرحمن ، أو بقولهم : « مولى لهم »^(٥) كما هي الحال مع سعيد بن عثمان بن سليمان التميمي . وقد يذكر الولاء محمداً في دقة كقول ابن الفرضي في ترجمة شمر بن نمير : « مولى بنى أمية ثم لآل سعيد بن العاصي »^(٦) : وقد يرد ذكر الولاء في صورة غير واضحة ، كقول ابن الفرضي في ترجمة سهل بن إبراهيم ابن نوح : « نسبه في البربر ويوالى بنى أمية » ، وقد أشرنا فيما سبق إلى دخول أعداد من البربر في ولاء الأمويين ، فقد رأينا أن بنى وائسوس يعتبرون أنفسهم موالى عبد العزيز بن مروان .

١٧٩ - موالى واذن فقد عرف الأندلس في هذا الوقت المبكر نظام الولاء ، الاصطناع وكان الموالى اما مشاركة أقبلا الى الأندلس مرتبطين بروابط ولاء قديمة للبيت الأموى أو لأفراد منه ، أو مغربيين دخلوا في ولاء بنى أمية أو قوادهم أو بعض قبائل العرب ، وانتقلوا الى الأندلس محتفظين بهذا الولاء ، أو أسبانيا دخلوا في ولاء بنى أمية أو قوادهم وظلوا محتفظين ، هم وأبنائهم ، بهذه العلاقة .

(١) نفس المرجع ، رقم ٣٤١ .

(٢) نفس المرجع ، رقم ٤٤٣ .

(٣) نفس المرجع ، رقم ٥٥٧ .

(٤) نفس المرجع ، رقم ٤٨٢ .

(٥) نفس المرجع ، رقم ٤٨٤ .

(٦) نفس المرجع ، رقم ٤٩٥ .

والنصوص التى بين أيدينا لا تسمح لنا بالحكم على طبيعة ولاء الاسبان ، ولكن الأحداث لا تدل على أنهم كانوا موالى عتاقة ، بل موالى اصطناع ، دخلوا في ذلك الولاء التماسا للحماية أو شرف المنزلة ، كما رأينا في حالة بنى قسى .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن معظم أولئك الموالى كانوا موالى اصطناع ، أن عبد الرحمن الداخل عندما أراد أن يكسب يوسف الفهرى بعث إليه وفدا من مواليه ، « وبعث معهم بكسا وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار ، وكتب إليه يذكر له اصطناع آبائه لجدة يوسف (أى اصطناع بنى أمية لعقبة بن نافع جد يوسف الفهرى) ولأهله ، ويدعوه الى الصهر والتوسعة »^(١) مما يدل على أن الاصطلاح المستعمل في الأندلس للولاء هو الاصطناع .

وكان أهل الأندلس يراعون حرمة الولاء ، ويحافظ الخلف منهم على ما ارتبط به السلف منهم ، فقد ذكر ابن القوطية كيف أن محمد ابن موسى — وكان من بيت من العرب يقال لهم بنو موسى ، « وكان بنو عبد الرحمن العافقى عامل الأندلس المتقدم ذكره يدعون أنهم مواليه » — عندما تولى الوزارة أيام الأمير محمد ، « بعث في بنى عبد الرحمن بن عبد الله العافقى ، وكان لهم عدد وثروة بمرنانة العافقيين من شرف اشبيلية ، فقال لهم : انكم تدعون أمرا لو كان حقا وعلمناه لم يحل لنا الانتفاء عنه ، فهلهم الى أن تخلصونا بأنفسكم وتدعون أهلا ، فإن كنا مواليككم كما تقولون فنحن منكم ، وإن كنا من

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٧٥-٧٦ .

العرب فنحن بنو عمكم ، فأجابه القوم وشكروا على ذلك ، وصاروا أهلا وصاهر بعضهم بعضا ، وانقطعت تلك الدعويات من يومئذ » (١)

١٨٠ - أهمية وعلى أى الأحوال لم يكن الموالي في الأندلس في هذه الموالي في تاريخ الفترة وما بعدها ، في نفس الوضع الذى كان فيه موالي الأندلس المشرق ، فهناك كان الموالي في وضع اجتماعي أقل من وضع الحر ، أما هنا فقد كان الولاء شارة امتياز ، ولم يحدث الا نادرا أن ترفع العرب على الموالي ، فقد ذكر ابن القوطية أن العرب احتجوا عندما عين عمرو بن عبد الله بن الليث - وكان مولى - قاضيا للجماعة في قرطبة (٢) ، وفيما عدا ذلك كان الموالي في مركز اجتماعي لا يقل في شيء عن مركز الأحرار . وعندما أتى عبد الرحمن وأعانوه على إقامة الدولة أصبحوا في مركز أعلى من مركز العرب الأحرار ، فقد أصبحت الوظائف الكبرى مقصورة عليهم ، وحرص أمراء بنى أمية على الاحتفاظ ببيوت الموالي واعطائهم مكانا ممتازا في الادارة والمجتمع ، فلم يكونوا يعتمدون الا عليهم . وقد أخلصت بعض بيوت أولئك الموالي للبيت الأموي اخلاصا عميقا مستمرا ، وحملت عن البيت الأموي جانبا كبيرا من المسؤولية ، بحيث لا يمكن التأريخ للبيت الأموي بدون التأريخ لهذه البيوت الى جانبه ، ومن أكبرها بنو أبي عبدة وبنو حدير وبنو شهيد وبنو عبد الرؤف وبنو قنطيس وبنو مغيث (٣) - وأصلهم كلهم من موالي بنى أمية ، بعضهم موالي البيت الأموي نفسه ، وبعضهم

(١) ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٧٦ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٧٣ .

(٣) هم أولاد مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك (أخبار مجموعة ، ص ١٠) وأول من امتاز منهم في الأندلس عبد الكريم بن مغيث . وقد قتل مغيث في معركة القرن بافريقية (أخبار ، ص ٣٤) .

موالي قوادهم ؛ وقد كان موالي البيت الأموي يسمون بموالي قریش ، وكانت لهم الصدارة على غيرهم من الموالي . وفي عهد عبد الرحمن الناصر زاد مركزهم ارتفاعا حتى صاروا يسمون بالأبناء (١) .

فأما بنو أبي عبدة فهم أبناء حسان بن أبي عبدة مولى مروان بن الحكم ، وقد دخل جدهم الأندلس سنة ١١٣هـ / ٧٣١ م مع ابنه عبد الغافر الذى أصبح فيما بعد وزيرا لعبد الرحمن الداخل . وقد ظل أبناء هذا البيت يتولون كبار المناصب الى أيام المنصور بن أبى عامر ، وقد تفرع عن هذا البيت بعد ذلك بيت أبى الحزم بن جهور أصحاب قرطبة في عصر الطوائف (٢) .

وبنو حدير هم أبناء مولى من موالي عبد الرحمن الداخل ، ولا شك أن أصلهم من موالي بنى أمية في الأندلس ، لأن المراجع لا تذكر أن عبد الرحمن أتى بمولاه هذا من المشرق . وقد ظهر أمر بنى حدير عندما تبغ منهم موسى بن محمد بن حدير الذى تولى أمر قرطبة أيام الأمير محمد ، وقد ظل بنو حدير يتقلبون في كبار الوظائف حتى أيام الناصر (٣) . أما بنو شهيد فهم أبناء مولى من موالي عبد الرحمن الداخل ، وقد ظلوا في الوظائف الى أيام الدولة العامية . وكذلك كان الأمر مع بقية البيوت التى ذكرناها (٤) . ومن الطريف أن بعض مؤسسى

LÉVI-PROVENÇAL: *L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle* (Paris, (١)

1932) p. 106

LÉVI-PROVENÇAL : *Histoire de l'Espagne Musulmane*. 2e. éd. II, p. 126, III, p. 194.

(٢) ابن الأثير : الحلة السيرة ، ص ١٣٢-١٣٣ .

LÉVI-PROVENÇAL, *L'Espagne Musulmane*. II, p. 101

(٣) الحلة السيرة ، ص ١٢٣-١٢٤ .

LÉVI-PROVENÇAL, *Op. cit.* pp. 99 sqq.

(٤)

هذه البيوت دخلوا الأندلس عربا أحرارا ثم دخلوا هناك في ولاء بني أمية المشاركة ، ثم انتقلوا الى ولاء بني أمية الأندلسيين ، ومثال ذلك بنو شهيد وبنو عبد الرؤف .

وفي عداد هذه البيوت من موالي بني أمية ذوات الأصول المشرقية تدخل بيوت الموالي ذوات الأصول البربرية ، مثل بيت الزجالي ، وذات الأصول الاسبانية كبيت بني قسي ، وإن كان وضع هذه البيوت الأخيرة يختلف عن وضع الموالي المشاركة والمغاربة من حيث الوظائف ، فقد قصرها أمراء بني أمية على الموالي البلديين والشاميين ؛ ولكن مركز الموالي الاسبان الاجتماعي كان عظيما ، فقد كانوا سادة في نواحيهم (١) .

وقد بلغ من اختصاص أمراء بني أمية هذه البيوت بالوظائف أن كان أفرادها يتنافسون على الوظائف حتى يتحير الأمراء ، ومع ذلك كانوا لا يفكرون في اخراجها عنهم ، كما حدث أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فقد « تنافس الوزراء كلهم في خطة الحجابة ، واضطره كل واحد منهم الى ألا يولى غيره ، فأخذته ضجرة ، فأقسم ألا يولى واحدا منهم ، وأمر بالاقراع بين الخزّان (خزان الأموال) وكان الخزّان يومئذ موسى بن حدير شيخ الخزّان ، وابن بسيل الملقب بالغماز وطاهر بن أبي هارون (وكلهم من أهل بيوت الموالي هذه) ومهران بن عبد ربه لا قديم له ، وكان له به اتصال وهو ولد فخرت اليه القرعة فولى الحجابة أعواما .. ثم مات .. » . وقد وضعت خطا تحت « لا قديم له » لأن ابن القوطية أراد بها أن مهران لم يكن من أهل هذه البيوت القديمة ، وقد كانت توليته الحجابة مصادفة ، ثم عادت بعد ذلك الى آل غانم ثم الى آل شهيد وهم من موالي البيت الأموي .

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦٢ .

١٨١- آراء حول وقد لاحظ بعض الباحثين شيئا من التشابه بين أصل ولاء « الاصطناع » الذي شاع في الأندلس الاسلامي ونظام الاصطناع Benefactoria أو Behetoria الذي عرفته الدولة الليونية الأشتورية الاسبانية ، و « البنفاكتوريا » أقرب الى نظام « اللجاء » الذي عرفته الدولة الاسلامية في المشرق ابتداء من القرن الرابع الهجري ، ومعناه أن يلتجئ مالك صغير الى مالك كبير و « يلجئ » اليه أرضه ويصبح من أتباعه في نظير قيام المالك الكبير أو الاقطاعي القوي بحمايته ؛ فكان الرجل يعتبر « لاجئا » والأرض « ملجأ » ، وهذا بالضبط هو ما يعنيه المصطلح الروماني Beneficium الذي أصبح فيما بعد لونا من ألوان الاقطاع الأوروبي . وقد لاحظ ليثي پروغنسال أن صاحب القاموس اللاتيني العربي المعروف بالقوكايبولستا Vocabulista يترجم كلمة Benefacere بلفظ « اصطنع » بل ان لفظ « مولى » انتقل كما هو الى المصطلح القانوني في تلك المملكة النصرية ، فكانوا يقولون Maullatus . وقد ذهب الذين يرجعون نظم الدولة الليونية الأشتورية كلها الى أصول رومانية ، الى أن مسلمي الأندلس أخذوا نظام الاصطناع عن نظام الولاء الروماني Patrocinium وهو رأى معقول اذا نحن اعتبرنا الظروف الخاصة التي أحاطت بتكوين النظم الاسلامية في الأندلس ، فقد يكون أولئك الأندلسيون الذين دخلوا في ولاء بني أمية من الداخلين في ولاء البيت القوطي ، فلما صار الأمر للمسلمين انتقلوا بولائهم الى بني أمية ليحتفظوا بما كان لهم من ميزات اجتماعية واقتصادية . وهذا هو التفسير المعقول لما فعله قسي عندما ذهب الى المشرق ليدخل في ولاء الخليفة الأموي مباشرة (١) .

(١) LÉVI-PROVENÇAL, Hist. de l'Esp. Mus. III. p. 210-213.

ومهما يكن من أمر فقد عرف الأندلس الاسلامى في ذلك
١٨٢-ملاحظات العصر نظام الموالي ، وكان هؤلاء أنواعا وطبقات : منهم
أخيرة على الموالي
في الأندلس
مواالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومواالى عثمان بن
عقاف ، ومواالى خلفاء بنى أمية ، ثم مواالى بعض مواالى
البيت الأموى مثل مغيث الرومى وموسى بن نصير ، ثم مواالى بعض
القبائل العربية ، وقد كان عددهم جميعا قليلا بالنسبة لعدد السكان ،
ولكن عددهم كان محترما بالنسبة لعدد العرب . وقد كان من الممكن أن
يظل الموالي في نفس الوضع الذى كانوا فيه في المشرق ، ولكن الظروف
المضطربة التى أحاطت بالعرب خلال فترة الولاة ، وانصرافهم الى التحارب
فيما بين بعضهم وبعض أعطت هؤلاء الموالي مركزا ممتازا ، اذ ظلوا كتلة
واحدة يسعى اليه السنيون والشاميون الى كسب تأييدها ، ثم سنجت لهم
الفرصة بدخول عبد الرحمن بن معاوية فاجتهدوا في اقامة دولته ووضعوا
أنفسهم تحت تصرفه ، ومن ذلك الحين أصبحوا أهل الدولة وأصحاب
اليد العليا ، فارتفع بارتفاعهم معنى الولاء في الأندلس ، وأصبح وسيلة
من وسائل علو المنزلة في المجتمع وعلو المرتبة في الادارة ، وأصبح أقرب
الى « الاصطناع » منه الى الولاء الصرف . وأفاد من ذلك الاسبان الذين
نقلوا ولاءهم من البيت القوطى الى البيت الأموى ، أو الذين دخلوا منهم
في ولاء الأمويين على أساس الباترونيوم الرومانى ، فاحتفظوا بمكانتهم
وثرواتهم وزاد مركزهم قوة كلما طالت بالبيت الأموى الأيام في
الأندلس (١) .

وسيجرى على اصطناع الموالي كل أمراء البيت الأموى وخلفائهم ،
فقد اتخذ كل منهم لنفسه مواالى انضموا الى طبقة الموالي ، حتى
المنصور بن أبى عامر اتخذ لبيته مواالى عرفوا بالمواالى العامريين .
وأساس هذا الاختلاف بين وضع الموالي في المشرق ووضعهم في
الأندلس يرجع الى الظروف الخاصة التى أحاطت بهذا البلد خلال الفترة
التي نتحدث عنها . ولو لم تكن هذه الظروف لظل مواالى الأندلس في
نفس وضع أشباههم في المشرق ، بل ربما تلاشوا كقوة سياسية ، كما كان
الحال في مصر الاسلامية مثلا . وهذه الناحية تبين الأهمية الخاصة لعصر
الولاة ، فلولا ظروفه الخاصة لما كانت نظم الأندلس على النحو الفريد
الذى نعرفه ، وسنرى مصاديق ذلك عند دراستنا لنواح أخرى من النظم
الأندلسية التى وضعت أسسها في عصر الولاة .

(١) ويؤيد ذلك ان أولئك الموالي أصبحوا يسمون «بالأبناء» أى أبناء بيت الإمارة أو «أبناء
نعم الخلفاء» كما يقول ابن القوطية (ص ٨٣) ، بل كان كبارهم يسمون خلفاء الأمراء ، وقد كان
الواحد منهم يسمى «خليفة» (انظر : ابن القوطية ، ص ٦٩) .

الفصل العاشر

لمجتمع الأندلسي - ٢
المولّدون والمستعربون

بها سموها اللطينية (١) : وكان هذا الشعب - نتيجة لذلك كله - يدور في فلك الحضارة الغالبة على غرب أوروبا اذ ذاك ، وهى حضارة لاتينية متأثرة بما حملته جماعات المتبريرين الى غرب أوروبا من ثروة لغوية جرمانية تختلف من قبيل لقبيل ، ونظم سياسية جرمانية بدائية كان لها أبعاد الأثر في تكوين النظم السياسية وقواعد القانون التى جرت عليها مسالك الجرمان جميعا في غرب أوروبا فيما بعد (٢) .

ثم دخل المسلمون هذه البلاد : لم يدخلوها كما دخل ١٨٤ - طبيعة القوط سادة حكاما يباعدون بين أنفسهم وبين عامة الناس حركة الامتداد الإسلامى حفاظا على سلامة عنصرهم أو صيانة لهيبة سلطانهم ، بل دخلوها أثناء حركة الامتداد الدينى الفكرى البشرى التى بعثها الاسلام في عالم القرن السابع الميلادى . وانه لمن مخالفة الواقع مخالفة متصودة أن يقال ان امتداد الاسلام كان حركة فتوح أو غزوات ، أو أنه كان انشاء لامبراطورية سياسية يسودها جنس بعينه ، وانما كان في الواقع حركة استيقاظ تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضا ، فلا يكاد الاسلام يقبل على بلد حتى يستيقظ أهله ويهبوا ليحملوا رايته بأيديهم . فقد فتح عرب الجزيرة الشام والعراق

(١) انظر : RAMÓN MENÉNDEZ PIDAL: *Origenes del Español* (3a. éd. : Madrid, 1950.)

مقدمة الكتاب ، حيث يقول إن اللغة التى كان يتكلمها أهل إيبيريا قبل القرن الحادى عشر الميلادى لا يمكن تعرفها إلا على وجه التقريب ، نظراً لقلة الأصول التى يعتمد عليها ، وكل ما يمكن قوله إنها كانت تضم ألفاظاً قليلة من لغة القوط ، أما بقيتها فكانت طبقات مختلفة من اللاتينية العامة Latin Vulgar . ولا زالت الدراسات مستمرة لتعرف هذه اللغة . انظر :

ISIDORO DE LAS CAGIGAS, *Los Mozárabes* (Madrid, 1947) p. 58-59 y nota

تحدثنا في الفصل السابق عن عناصر السكان التى دخلت الأندلس بالاسلام أو مع الاسلام ، ووضعت أساس اسلام الأندلس وعروبته ، وبدأت في تاريخ شبه الجزيرة الأيبيرية صفحة «الأندلس» ذات الحضارة الزاهرة والشخصية الفريدة في بابها بين صفحات التاريخ . تحدثنا عن العرب والبربر والموالى ، وقصرنا الكلام عنهم على فترة التأسيس التى تعيننا في هذا الكتاب . وبقي الآن أن نتكلم عن الجزء الأكبر من عناصر سكان الأندلس : المولدين وأهل الذمة من نصارى ويهود .

وسنرى في سياق كلامنا على هذين العنصرين أن الاسلام ١٨٣ - إسبانيا والعروبة قد أثرا فيهما تأثيرا لا نكاد نجد له مثيلا في غير في النطاق الغربى الأندلس مما دخل في رحاب الاسلام ، فهذا الشعب الأيبيرى الذى دخل عليه المسلمون كان قبل دخولهم شعبا أوروبا نصرانيا في غالبيته العظمى ، يضم مجموعات قليلة من اليهود ، وكان داخلا في نطاق الغرب الأوروبى الذى نشرت فيه روما حضارتها ولغتها ، وكان متجها بإيمانه نحو روما عاصمة المسيحية الغربية ، وكان يدين بالولاء للكنيسة الكاثوليكية (١) ، ويتحدث لغة رومانية ايبيرية يغلب عليها الطابع الرومانى ، سماها العرب لأول سماعهم اياها بالعجمية أو عجمية أهل الأندلس ، وعندما زادت معرفتهم

(١) انظر : MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES: *La*

Iglesia en la España Visigoda (en *Historia de España* dirigida por RAMON

MENÉNDEZ PIDAL) tomo III. pp. 265. sqq.

ومصر ، ثم انتقلت الراية — فيما يتصل بنا هنا — الى الشام ، ففتح الشام المغرب ، ثم فتح المغرب الأندلس . وكان العرب يقومون في تلك الحركة كلها بدور الدافع الأول أو المحرك الأول ، فلا تزال هذه الشعوب تنظر اليهم وتلتفت بقلوبها نحوهم ، لا على اعتبار أنهم شعب بعينه ، بل على اعتبار أنهم رمز الحركة كلها ، فصاحب الدعوة ورسولها عربي ، وكتاب الدعوة ودستورها — وهو القرآن — عربي ، والمثل الأخلاقية التي أدت الى النصر عربية .

ومهما كان حكمنا اليوم على المثل الأخلاقية الجاهلية ، فلا نزاع في أنها بدت لأهل هذه الأعصر شيئا عظيما شديد الجاذبية . ولا نزاع كذلك في أن العربي الذي حمل عبء الفتح الأول ، وشارك في بقية الفتح . وهاجر الى البلاد المفتوحة ، كان — مهما حكمنا على تصرفاته الشخصية في تلك البلاد — شخصا ممتازا جديرا بأن يقلد ، فقد كان على الجملة شجاعا لا يهاب شيئا ، دؤوبا لا يمل السعى . كريما لا يظن بذات يده ، عفيفا — اذا استثيرت عواطفه — عنفا جاهليا كان أهل تلك الأيام يرون فيه صورة جميلة من صور الرجولة . وكان الى جانب ذلك رقيقا تهفو نفسه الى كل ما هو رقيق جميل ، حتى لقد يحركه بيت من الشعر الى ما لا يحركه اليه الخطر الداهم ^(١) ، وكان ألوبا بسيطا لا يستتر الى

(١) مثال ذلك أن أبا الخطار كتب إلى هشام بن عبد الملك بأبيات جعلته يغير سياسته نحو اليمن ، مما كان له أبعاد الأثر في تاريخ الأندلس في هذه الفترة ، وهذه الأبيات هي :

أفانم* بنى مروان قيسا دماءنا	وفاته إن لم تنصفوا - حكتم عدل
كانكم لم تشهدوا مرج راضيا	ولم تعلموا من كان ثكم له انفس
وقيناكم حر الوغى بصدورنا	وليس لكم خيل تد ولا رجش
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا	وطاب لكم منها المشارب والأكن
تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا	بلاد ، وأنتم - ما علمتم - لما غفلنا

..... إلى آخره .

جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطى ، ويصايرهم ، وتمتزج دماؤهم بدمائه ويشركهم في أصله وحسبه . وكان رغم أصله البدوي القاسي يحب اللين والترف ويستطرف الجمال في شتى صورته ، ويستطيب الحياة الناعمة ، ومن ثم فانتا نجد هذا العربي الذي أشعل الأندلس نارا ، كما رأينا ، لم يخرب ما نزل به من مدائن ، وما مر به من منشآت . فعلى الرغم مما رأينا ، من احتراب عرب الأندلس بعضهم مع بعض ، واسرافهم في الخصومة على هذا النحو الذي رأيناه ، ظلت المدن التي نزلوها قائمة عامرة تدور الحرب بظواهرها أو بعيدا عنها وهي آمنة ، بل هم اعتبروا هذا الصراع أمرا خاصا بهم لا شأن لأهل البلاد به ، فلم يؤذوهم أو يسيئوا اليهم .

ومن أعجب ما يقرأ الانسان في حوليات هذه الأيام أن الصميل ابن حاتم ، هذا البدوي الجاني ، على ما رأيناه من عنفه وجاهليته وقسوته على خصومه من العرب ، ذهب الى أرطباس كبير عجم الأندلس على أيامه في رفقة عشرة من رؤساء عرب الأندلس ومواليهم ليطلب اليه أن يمنحهم شيئا من الأرض ، ولقد حاوره أرطباس محاوره نند ، بل أخذ يقرعه ويقول له : « يا أبا جوشن ، ان أهل دياتك يخبرونا أن أدبهم لم يأخذك ، ولو أخذك لم تنكر على بر من بررت ! » ثم مضى يلقي عليه درسا في الايمان فقال : « انكم باكرامكم [من أكرم] الله ، انما تكرمونه عز وجل . وقد رويانا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أكرم الله من عباده ، وجبت كرامته على جميع خلقه » .

= قال ابن القوطية : « ولما وردت الأبيات منه ول حنظلة بن صفوان الكلبي على إفريقية ، وأمره أن يولي ابن عمه أبا الخطار الأندلس »

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٨-١٩ .

ثم يعلق ابن القوطية على ذلك بقوله : « فكأنما ألقمه حجباً ! ثم « وهبهم » مائة ضيعة ، صار لكل واحد منهم عشر ضياع » (١) .

فهذه صورة من المعاملات بين العرب « الفاتحين » وأهل البلاد ، وإذا كان هذا هو موقف الصميل ، على عتوه وجبروته ، فمن باب أولى يكون التعامل بين عامة العرب وعامة الناس أبسط وأقرب إلى التعامل بين ناس لا يختلف أحد منهم عن أحد بشيء . وبرهاننا على ذلك أن نفس الخبر يقص أن واحداً من كبار صالحى العرب ، وهو ميمون العابد ، أتى ليطلب من أرتباس أن يعطيه ضيعة من ضياعه يعتسرها بيده ويؤدى إليه الحق عنها ويأخذ الحق ، فقال له أرتباس : « لا والله ما أَرْضَى أن أعطيك ضيعة مناصفة » ودعا بوكيل له فقال له : « ادفع إليه المجشتر الذى على وادى شوش وما فيه من الغنم والبقر والعبيد وادفع إليه القلعة بجيان ، وهى المعروفة بقلعة حزم ، فليكنها ... » (٢) .

واذن فلم يستقر العرب فى الأندلس سادة مترفعين ، وإنما ١٨٥ - العرب نزلوها ناساً عاديين يطلبون العيش فى سلام إلى جانب أهل البلاد . وربما كان هذا السلوك العربى أثراً من آثار البيئة الأندلسية فيمن نزلها من العرب والبربر ، فقد كان الايبيريون الرومان شعباً مسالماً مجداً حسن العشرة ، لم يلبث أن أنس إلى العرب وأنسوا إليه . ولدينا صورة طريفة جداً عن الحياة العائلية فى بيوت العرب بعد أن اتخذوا النساء من أهل البلاد ، قال صاحب « الأخبار المجموعة » فى أخبار عبد العزيز بن موسى : « ثم إن ابنه

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

عبد العزيز تزوج امرأة للذريق يقال لها أم عاصم ، فهم بها ، فقالت له : إن الملوك إذا لم يتزوجوا فلا ملك لهم ، فهل لك أن أعمل لك مما بقى عندي من الجواهر والذهب تاجاً ؟ فقال لها : ليس هذا فى ديننا ! فقالت له : من أين يعرف أهل دينك ما أنت عليه فى خلوتك ؟ .. فلم تزل به حتى فعل . فبينما هو يوماً جالس معها ، والتاج عليه ، إذ دخلت امرأة كان قد تزوجها زياد بن النابغة التميمي ، من بنات ملوكهم ، فرآته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألا أعمل لك تاجاً ؟ فقال : ليس فى ديننا استحلال لباسه ، فقالت : فوكدين المسيح انه لعلى امامكم ! فأعلم بذلك زياد "حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، ثم تحدثا به حتى علمه خيار الجند ، فلم تكن له همة الا كشف ذلك حتى رآه عياناً ، ورآه أهله صدقاً ، فقالوا : تنصر ! ثم هجموا عليه فقتلوه .. » (١) . وربما تكون يد القصص قد فعلت فعلها فى هذا الخبر ، ولكن مغزاه فى جملة عظيم القيمة ، فهو يدل على روح المودة العائلية التى كانت تسود بيوت العرب بعد استقرارهم فى الأندلس واتخاذهم النساء من أهل البلاد ، وهو كما رأينا جو عائلى فيه ألفة وفيه محبة وفيه دعاية ذات معان عظيمة بالنسبة لمن يؤرخ لذلك المجتمع العربى الايبيرى ، أو الأندلسى بتعبير أصح ، الذى نشأ عن الفتح الاسلامى للبلاد (٢) .

١٨٦ - التزاوج لقد اتجه اهتمام خليان ريبيرا ، عندما أراد دراسة موضوع بين العرب وأهل المسلمين وأهل البلاد ، إلى الجوارى ، ومضى إلى البلاد يلتبس فى مجموعات الوثائق المستعملة - كمجموعة أبى

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ .

JULIAN RIBERA Y TARRAGO, *Disertaciones y Opúsculos* (Madrid) (٢)

1928) tomo I, p. 122.

جعفر أحمد بن محمد بن مغيث — نصوصاً تثبت اقبال العرب على شراء الجوارى الجليقيات والقطلونيات ومن اليهن^(١) ، ولكن قلته أن الزواج بالجوارى كان قليلاً بالأندلس ، فقد كن غاليات الثمن في تلك البلاد . قال الاصطخرى : « والذي يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان والخدم البيض من الأندلس والجوارى المشنقات ، تأخذ الجارية والخدام عن غير صناعة على وجوههما ألف دينار وأكثر »^(٢) . ولم يكن يستطيع دفع هذا الثمن الا القليل ، أما بقية العرب والبربر فكانوا يصاهرون أهل البلاد مصاهرة عادية كالذى رواه ابن القوطية عن زواج سارة القوطية ابنة المثنى بن غيطشة ، من تزويج هشام بن عبد الملك إياها من عيسى بن مزاحم « فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية ، وولد له منها ولدان : إبراهيم واسحاق ، ثم توفي عنها في العام الذي دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فتنافسها حيوة بن ملامس المذحجي وعمير بن سعيد اللخمي ، فعنى ثعلبة بن عبيد الجذامي بعمر بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه إياها ، وولدت له حبيب بن عمير جد بنى سيد وبنى حجاج وبنى مسلمة وبنى حجر الجرز ، وهؤلاء أشرف ولد عمير باشيلية ، اذ كان له أولاد من غيرها ، ولم يشرفوا شرف هؤلاء ، وهذا الخبر في كتاب عبد الملك بن حبيب في فتح الأندلس في أرجوزة تمام بن علقمة الوزير أو أكثره »^(٣) .

(١) نفس المصدر ، ص ١٥ وما يليها .

(٢) أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالاصطخرى : مسالك الممالك ، طبعة دى خويه ، ليدن ١٩٢٧ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦ .
ولقب بنى حجر الوارد هنا : الجرز ، يغلّب أنه لفظ عجمي : el gordo ، أى السمين .
وبنو سيد الوارد ذكرهم في النص يمكن أن تكون صحة اسمهم بنو سعيد .

واذن فقد ارتبط الكثيرون من العرب والبربر بعلاقات المصاهرة مع أهل البلاد وعاشوا معهم متجاورين متساوين ، وعن طريق هذا التجاور انتشر الاسلام بين أهل الجزيرة . ومن الواضح أن المسلمين لم يحاولوا ارغام الناس على دخول الاسلام ، لا عن عدم اهتمام بنشر الاسلام ، أو عن كراهة لانتشار الاسلام بسبب اضراره ببيت المال كما يقول ليشي پروقنسال^(١) ، بل لأن هذا كان أسلوب العرب الذى جروا عليه في نشر الاسلام في كل بلد دخلوه : كانوا — على الأغلب — يدعون الناس حتى يتبينوا فضائل الاسلام بأنفسهم ويدخل منهم فيه من يريد ، بل ليس صحيحاً أن الجيوش الفاتحة لم تكن تعنى بالدعوة الى الاسلام ، لأن الحقيقة أنها كانت تضم دعاة للدين ، بل كان الفاتحون أنفسهم يحرسون على ادخال الناس في الاسلام ، ومثال ذلك : « أن الناس قحطوا بأفريقية عاماً فخرج [موسى بن نصير] فاستسقى ، فأمر رجلاً فقصر على الناس ورفقتهم ، فجعل يذكر ... »^(٢) .

وذكر أن عقبة بن الحجاج السلولى كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة في نكاية المشركين ، وكان اذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الاسلام حيناً ويرغبه فيه ويشره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يده بذلك الفعل ألف رجل »^(٣) .

ولا نملك من النصوص ما يمكننا من تتبع انتشار الاسلام في الأندلس ، ولكن ابن القوطية وابن عذارى يؤكدان انتشار الاسلام وقوته في

(١) LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane* (2e. éd. Paris, (١) 1950) tome I, p. 74.

وقد قال ذلك أيضاً في كتابه عن «إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر» ص ٣٢-٣٣ .

(٢) انظر القطعة التي أوردها خيليان ريبيرا بتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ويغلّب أنها مقتطعة من «الإمامة والسياسة» ، ص ١٨٤ .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، طبعة بحري الدين ، ج ٤ ، ص ١٨ .

الأندلس في أول ولاية السمع بن مالك (١٠٠ هـ / ٧١٩ م) ، قال ابن القوطية : « كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله قد عهد الى السمع باخلاء الأندلس من الاسلام ، اشفاقا دخل عليهم (كذا) اذ خشي تغلب العدو عليهم ، فكتب اليه السمع بن مالك يعرفه بقوة الاسلام وكثرة مداينهم وشرف معاقلمهم ، فوجه حينئذ جابرا مولاه ليخمس الأندلس .. » (١) . أما ابن عذارى فيقول ان السمع كتب الى عمر بن عبد العزيز يقول : « ان الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها ، فأضرب عن ذلك » (٢) ، والمراد بالناس هنا المسلمون . ثم ان الأندلس يبدو لنا ، عند دخول عبد الرحمن الداخل ، بلدا اسلاميا استبحر الدين واستقرت قواعده فيه . وتلك ظاهرة فريدة في بابها ، فان الفتح الاسلامي للأندلس لم يكن قد مر به نصف قرن ، ومع ذلك فهي حقيقة واقعة لا مناص من قبولها وانتظار ما عسى أن نعثر عليه من نصوص تفسرها وتقدم لنا تفاصيلها .

١٨٧ - عجم وقد كان المسلمون يطلقون على أهل الأندلس جميعا اسم الأندلس العجم أو عجم الأندلس ، وربما أطلق اسم الروم ومفرده رومي ، وان كانت هذه التسمية نادرة الاستعمال . فلما تمكن سلطان المسلمين أصبحوا يسمون عجم الذمة أو الذمة أو أهل الذمة ، فمن كان لهم عهد منهم سموا المعاهدين ومفرده المعاهد ، وربما قالوا المعاهدة من النصراني أو النصراني المعاهدون : أما اليهود فكانوا يسمون اليهود فقط أو الذميين (٣) .

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

والعبارة التي كتبنا إلى جوارها (كذا) يمكن تقويمها هكذا : إشفافاً [ما] دخل عليهم ...

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب (الطبعة الثانية ، لايدن ١٩٤٨) ، ص ٢٦ .

(٣) انظر البيان الذي أورده سيمونيت :

FRANCISCO JAVIER SIMONET, *Historia de los Mozárabes de España* (Madrid, 1897-1903) pp. VII-IX del Prólogo.

فلما بدأ أهل البلاد يدخلون في الاسلام أطلق على من أسلموا منهم المسالمة - مفردة مسالم - أو الأسالة - مفردة أسلمى - ثم أطلق على أولادهم الذين نشئوا على الاسلام اسم المولدين - مفردة مولد - واستمرت هذه التسمية تطلق عليهم حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ثم تلاشت بسبب اختلاط الناس وتحول أهل المملكة الاسلامية في الأندلس الى أندلسيين دون تمييز (١) .

١٨٨ - خطأ أما لفظ « مستعرب » ، وجمعه مستعربون ، فلم يظهر في تسميتهم بالمستعربين النصوص أو الكتابات الرسمية الا في زمن متأخر على خلاف ما يظن ، وربما كان اللفظ جاريا على الألسن في اللغة الدارجة ، كما نقول نحن « افرنجي » ، فاذا كتبناه قلنا فرنسي أو انجليزي أو أوربي أو أمريكي . ودليلنا على ذلك أن اللفظ لا يظهر فيما لدينا من كتب المؤرخين والجغرافيين والنتهاء وأهل الأدب ومن اليهم ، ولكنه ظهر في وثائق العقود الجارية بين الناس ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي ، ثم في كتابات نصاري الأندلس سواء باللاتينية أو الاسبانية القديمة (عجمية الأندلس) ابتداء من القرن الحادي عشر أيضا . ففي الوثائق اللاتينية كانوا يقرولون : Castellanos, Mozárabes atque Francos ، وذلك تمييزا للنصارى الأندلسيين من أهل النواحي التي استولى عليها ملوك اسبانيا النصرانية عن التشتاليين والفرنجة وهم المهاجرون الى اسبانيا النصرانية من أهل غالة ، ممن أقبل للاشتراك معهم في حرب المسلمين ، ثم استقر في النواحي التي استغلبها النصراني وأصبح من أهلها . وكان ملوك النصراني

(١) انظر : سيمونيت : نفس المصدر ، ص ١٦ من المقدمة .

يميزون رعاياهم من القشتاليين وحلفاءهم من الفرنجة عن نصارى الأندلس الاسلامي الذين دخلوا في طاعتهم . فقد كان أولئك الأندلسيون مستعربين ثقافة ولسانا وأسلوب حياة ، وكانت لهم طقوسهم الدينية الخاصة بهم المسماة El Rito Mozárabe ، وكان لهم رجال دين خاصون بهم يقيمون صلواتهم على أسلوب خاص وبلغه خاصة هي عجمية أهل الأندلس ، وهي خليط من الايبيرية الرومانية القديمة واللاتينية الدارجة والقوطية والعربية ، ثم ألغيت هذه الطقوس فيما بعد ، وفرضت الطقوس الكاثوليكية واللغة الكاثوليكية على نصارى اسبانيا جميعا .

ويبدو أن هذه التسمية كانت شائعة على ألسن نصارى الأندلس فقط ، وأن استعمالها في اسبانيا النصرانية لم يبدأ إلا عندما استولى ملوك النصارى على بلاد فيها اسبان نصارى مستعربون ، لأن احدى الوثائق التي صدرت عن الامبراطور ألفونسو السابع حوالى سنة ١١١٨ تقول : quos vacabunt Mozárabes (= الذين يسمون مستعربين) ، وفي خطاب وجهه البابا يوجين الثالث الى أهل طليطلة سنة ١١٤٦ م (سقطت طليطلة في أيدي النصارى سنة ١٠٨٥ م) يقول : quidam Muzárabes Noncupantur (= أولئك الذين يسمون مستعربين) ، وجاء في تاريخ حياة القديس تيوتونيوس Teotonius التي كتبت في نفس العصر : quendam christianorum gentem quos vulgo mozárabes vocant (= وأولئك النفر من المسيحيين الذين يسمون في اللغة الدارجة مستعربين) . وفي منشور صدر عن الامبراطور ألفونسو السابع الى أهل وادى الحجارة سنة ١١٣٣ يقول :

ad vos totos christianos Muzarabis quos ego traxi cum Dei auxilio de potestate sarracenorum...

(= اليكم يا جميع النصارى المستعربين الذين استخلصتهم بفضل الله من سلطان العرب) . ونصوص ذلك العصر كله تفرق بينهم وبين نصارى قشتالة والفرنجة تفريقا واضحا كما رأينا ، بل كانت النصوص تؤكد اختلافهم عن بقية النصارى في طقوس العبادة ، بسبب اختلاطهم بالعرب واستعراهم ، فقد جاء في كتاب عن الراهب شيمينوس أسقف طليطلة : Ergo ejusmodi homines quod arabibus permixti viverent Mistárabes appellati sunt et illorum ecclesiasticus ritus officium Mistárabum (= ولهذا يسمى الناس الذين عاشوا مع العرب مستعربين ، وطقوسهم الكنسية تسمى الطقوس المستعربية)^(١) .

وخلال القرن الثاني عشر ظهرت الكلمة في وثائق النصارى الأندلسيين في البلاد التي استولى عليها النصارى ، وكانوا يكتبون هذه الوثائق بالعربية ، فكانوا يقولون مثلا : « دون يوان مستعرب » (= السيد خوان - أيام العرب كان يسمى يحيى - المستعرب) . وفي بعض الأحيان كانت الكلمة تكتب بصيغتها العجمية ، مما يدل على أن اللفظ

(١) أورد هذه النصوص كلها سيمون في مرجعه الذي أشرنا إليه (ص ٨ وما يليها من المقدمة).

وقد جرت عادة المؤرخين المحدثين على تسمية أهل اللغة من النصارى الذين عاشوا في ظلال الحكم الإسلامي بالمستعربين ، وهي تسمية خاطئة كما رأينا . وأول من وقع في ذلك الخطأ هو سيمون نفسه ، فانه لم يعن بدراسة تاريخ هذا اللفظ ، وإن كان هو صاحب الفضل في اكتشاف أصله العربي ، فقد كان الناس قبله في حيرة من هذا الأصل ، وجعله بعضهم محرفاً عن Mixtarabes أى المختلطين بالعرب . ونلاحظ أننا نقرأ اللفظ «مستعرب» بكسر الراء وصحته بفتحها ، لأن أهل الأندلس كانوا يقولون «موزاراب» لاموزاراب . وقد جرى على نفس الخطأ نفسى نصارى الأندلس الإسلامى مستعربين ليثى پروفسور وإيزيدورو دى لاس كاخيجاس وبقية مؤرخى إسبانيا الإسلامية من الأوروبيين . وقد عتبنا نحن هنا بالبحث عن هذا اللفظ في كتب المسلمين فلم نجده ، فرجع لدينا أنه كان لفظاً دارجاً جرى على ألسنة الناس في الأندلس للدلالة على الذين استعربوا لسانا وأسلوب حياة ، وأنه لم يظهر في الكتابات إلا من القرن الثاني عشر الميلادى أو أواخر الحادى عشر على الأكثر : ظهر في الكتابات اللاتينية أولاً ثم انتقل إلى كتاب الإسبان أنفسهم كما هو وارد في النص .

لم يكن يكتب قبل ذلك بالعربية ، فقد جاء في احدى الوثائق « دون يوان — مستارب » . ولكن الأغلب أن ترد الكلمة في هذه الوثائق في صورتها العربية الصحيحة : « دون بيطره بن مرتين مستعرب » و « دون لب بن بيطره مستعرب » و « .. من كبار مدينة طليطلة من المدرجين والمستعربين والقسبتكين » و « دون دمينقه (Domingo) ابن بيطره الذى كان آمينا للحصارين » . بل كانوا يستعملون اللفظ في صيغته الاسبانية : « . بقرية عين الديك المسماة ببال دى مستعربش » في شثلة مدينة طليطلة » ، أى أن قرية عين الديك كانت تسمى Val de Mozárabes (وادى المستعربين) في ناحية طليطلة (١) .

واذن فلفظ مستعرب لم يستعمل عند عرب الأندلس بصورة رسمية ، وانما كان الجارى قولهم : « العجم » أو « النصارى » أو « نصارى الذمة » ، تفريقا لهم عن أسلم منهم حديثا (الأسلمة والمسألة) أو أبناء هؤلاء (المولدين) . فابن حيان يقول : « حصون المسألة والنصارى » و « تحزبت المسألة مع المولدين » ، وابن الأبار يقول : « فصب على المولدين والعجم منه » .

ويبدو أن الاستعراب كان يسبق الاسلام في معظم الحالات ، فقد اختلط « العجم » بالمسلمين وأخذوا لغتهم وأسلوبهم في الحياة ، ثم كان يسلم منهم من يسلم شيئا فشيئا ، بل كان بعض أولئك العجم ما يكادون يسلمون حتى يظهروا تفوقا في العربية ، بل منهم من تفوق في الفقه ، فقد جاء في « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضى في ترجمة عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، من أهل اشبيلية أنه كان « من مسألة الذمة ، فلما

اشبيلية علما وبلاغة ولسانا ، حتى شَرِقت به العرب ، فلما حدثت الثائرة بينها وبين الموالى قتل يومئذ ، وذلك سنة ٢٧٦ » (١) .

وكان هذان الفريقان : أهل الذمة والمسألة ، ثم أبناؤهم من المولدين ، يكونون معظم سكان الأندلس ، ابتداء من نهاية الفترة التى تتحدث عنها . وكان عدد أهل الذمة أكثر بكثير من المسألة والمولدين أول الأمر ، ثم لم يزل عدد هؤلاء الآخرين يزيد حتى أصبحوا معظم سكان الأندلس .

١٨٩ - المسألة فأما عن المسألة والمولدين فواضح من النصوص أنه لم والمولدين يكن هناك فرق ما بين وضعهم العام ووضع العرب والبربر المسلمين أصلا ، فقد كان الذمى اذا أسلم انتقل الى وضع المسلمين دون تفريق أو تمييز ، وهذه ظاهرة أخرى يختلف فيها الأندلس عن سائر نواحي الدولة الاسلامية ، بل ليس لدينا دليل واحد على أن الأندلس عرف التمييز بين الصلح والعنوة . نعم شرع بعض الولاة في احصاء نواحي الأندلس وتعرف ما فتح منها صلحا وما فتح عنوة ، كما سئرى ، ولكن هذه العمليات لم تتم ، وبقي الحال فى الأندلس مبهما فى هذه الناحية ، فأصبح غير المسلمين كلهم ذمة دون تمييز ، ومن أسلم منهم دخل المجموعة الاسلامية ، وتلاشى كل شيء يتصل بأصله تماما . وربما كان السبب فى ذلك هذه القلقة التى سادت عصر الولاة كله ، فلم يتسع وقت الولاة لتنظيم شيء أو لتحديد وضع ، فسارت الأمور على عواهنها ، وسئرى مصاديق ذلك فى كلامنا عن الادارة والمال فى الفصل التالى ، وستبين أن ذلك كان من حسن حظ الأندلس ، ورب ضارة نافعة ! فلو أن « جهذة » الولاة والعمال عملت فى هذا البلد عملها الذى عملته فى

غير الأندلس من بلاد الاسلام لما أسلم أهله واستعربوا بهذه السرعة ، ولما كانت لأهله هذه الصفحة المشرقة في تاريخ الاسلام .

وربما كانت الجماعات الأولى من أولئك الذين أسلموا من العبيد ورقيق الأرض ، فقد رأينا أن اسبانيا القوطية ضمت من الأولين آلاف كثيرة ، ثم ان حالة رقيق الأرض كانت من السوء بحيث بدا الاسلام لأولئك الناس وكأنه خلاص من المتاعب والشقاء . وسنرى أن الجبايات في الأندلس كانت أخف بكثير من مثيلاتها في الأمصار الأخرى ، وان أهل الأرياف كانوا أحرارا ، سواء أسلموا أم لم يسلموا ، وأنهم تمتعوا في ظل هذا العهد الجديد الذى طلع عليهم بأمان ورفاهية لم تعرفهما أوروبا الى أواخر القرن العاشر الميلادى على الأقل .

١٩٠ - رأى كان أولئك المسالمة والمولدون اذن من طبقات اجتماعية شتى بروثناس قبل اسلامهم ، كان منهم العبيد ورقيق الأرض والزراع وأهل المدن بشتى صنوفهم : الأشراف والأوساط وأهل الأسواق ، وكان فيهم موال وغير موال ، فتساووا جميعا في رحاب الاسلام . وجدير بنا أن نلاحظ أن الأندلس لم يعرف التشدد والتعصب حتى اماره الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، عندما قامت دولة الفقهاء وتسلطوا على العامة ونصبوا أنفسهم حكاما الى جانب الأمراء . ويؤيد الأستاذ ليثى پروثناس ما ذهبنا اليه من اقبال أهل الجزيرة على الاسلام ويقول : « وقد أصبح نفر من أبناء أولئك المسلمين الجدد من مياسير أهل الطبقة الوسطى ، بل منهم من أصبحوا سادة أغنياء عن طريق التجارة أو الزراعة ، وقد مضوا في هذا المضمار حتى غاب عنهم أن أجدادهم كانوا مستقرين في اسبانيا قبل الاسلام بزمان طويل ، وذهب بعضهم الى ادعاء نسب عربى — دفعوا في تلقينه مالا كثيرا — يسمح لهم بالزهو بأنهم من

أصول عربية ، واحتفظ بعضهم بعد اسلامهم بأسمائهم القديمة ، وظلوا يعرفون بها مثل بنى أنجلين Angelino وبنى شبريق Savarico الاشيبليين ، وفيما بعد ذلك بزمان طويل ، بنى لثشق Longo وبنى القبط كرتنه Kabturno وآخرين كثيرين . ولقد فخر أحد مؤرخى اسبانيا الاسلامية ، وهو ابن القوطية ، الذى عاش في القرن العاشر الميلادى ، بأصله الذى يرجع به الى بيت الملك غيطششة ، وهذا هو السبب فى تلقيه بابن القوطية . ولكن الذى كان يحدث فى غالب الأحيان أن التزاوج بين المولدين والمسلمين الداخلين كان يقضى عند بيوت هؤلاء المولدين على ذكريات أصولهم الاسبانية البعيدة . وقد حدثت على عجل حركة اختلاط بشرية واسعة المدى بين عناصر سكان أهل الجزيرة الأندلسية ، وأصبح من العسير شيئا فشيئا تمييز أهل البلاد الأصليين من الداخلين عليهم .

« ومهما يكن من امر فانه — حتى فى حالة أولئك الاسبان الذين تخلوا عن دين آبائهم واتخذوا أسلوب حياة المسلمين الداخلين ، واندرجوا فى نطاق نظامهم الاجتماعى — لم يفقد المولدون أبدا شخصيتهم الخاصة بهم . وانه ليرجع الى وجود أولئك المولدين فى ذلك البلد — ووضعهم متطرف وجزرى منعزل بالنسبة لبقية بلاد الاسلام — أن تميز الأندلس فى نواح كثيرة بأنه قطعة فريدة فى بابها فى عالم الاسلام ، سواء أكان ذلك التفرّد فى صور حياته السياسية أو كان فى مثله الأعلى الحضارى والثقافى . ومن المهم ألا ننسى أنه ابتداء من القرن الثامن (الميلادى) أو التاسع على الأكثر ، حتى القرن الخامس عشر ، لم تكن اللغة العربية قط هى اللغة الوحيدة المستعملة فى الأندلس ، وأنه كانت هناك عناصر كثيرة من سكانه تتحدث بلهجات دارجة عجمية مشوبة بالاييرية والعربية ولكنها مشتقة قبل كل شئ من اللاتينية ، وليس هناك ما يمنع من القول بأنه الى عصر

متأخر من عصور التاريخ الأندلسي ، غلبت على ألسنة أهل الأندلس رطانة عامة إسبانية^(١) في كل مكان تقريباً ، وتحدث بها الناس أكثر مما كانوا يتحدثون بالعربية ، ومن الطبيعي أن يكون ذلك أظهر في الأرياف منه في المدن ، وقد غلبت هذه الرطانة بصورة أوضح على اللهجات البربرية^(٢) .

١٩١ - آراء في وفي موضع آخر من « تاريخ إسبانيا الإسلامية » يقول أجناس سكان ليثي بروغنسال: « وتعطينا عبارة لم تشر بعد لمؤلف أندلسي نجهل اسمه ، أوردها في سياق رسالة قديمة عن كبار بيوت أهل فاس^(٣) »

(١) استعمل المؤلف هنا لفظ «róite» اليوناني . والكوينيه كانت لغة دارجة مستعملة في البلاد التي على شواطئ البحر الأبيض كلها ، وكانت جارية على ألسن التجار والملاحين في نواحي هذا البحر كلها .

LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane* (2e. éd.) Paris, 1950 (٢) Vol. I, pp. 76-77.

وقد علق المؤلف على هذه العبارة في الهامش بالإشارة إلى ما سبق أن ذكرناه من قول ابن حزم أن عرب دار بلي شالي قرطبة كانوا إلى عصره لا يتحدثون «الطليونية» (الجمهرة ٤١٥) مما يدل على أن ذلك الفريق من العرب كان شيئاً نادراً .

(٣) اسم هذا الكتاب « ذكر مشاهير أهل فاس في القديم » ، وقد ألفت في القرن الخامس عشر . انظر :

LÉVI-PROVENÇAL: *Islam d'Occident*. I p. 39 note 45.

وتوجد نسخة من هذا المخطوط في المكتبة الشريفة في رباط (رقم ١٣٩٤) والنص المشار إليه في الورقة ٢١ .

وإليك نص التعليق الذي يشير إليه بروغنسال في هذا المرجع : ورد هذا المخطوط من مكتبة البعثة العلمية القديمة في مراكش ، وهو موجود في المكتبة الشريفة في رباط تحت رقم د ١٣٩٤ (D. 1394) وقد نسب هذا المؤلف الصغير إما إلى عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ١٠٩٠/١٦٨٠ م - انظر عنه كتابي (كتاب بروغنسال) تاريخ الشرفاء pp. 264-265 - *Historiens des Chorfa* - أو إلى أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر مؤلف كتاب « روضة النسرين » المتوفى في فاس عام =

يائنا بالغ الغرابة عن التكوين البشري للمجتمع الأندلسي وعن اختصاص كل عنصر من العناصر التي كان يتألف منها السكان المسلمون في الجزء الذي سادته الاسلام من شبه الجزيرة في نهاية الخلافة بشيء من الأعمال الزراعية أو الصناعات اليدوية : ويمكن تقسيم هؤلاء السكان بناء على ما ذكره ذلك المؤلف المجهول الى أربعة أجناس : البربر الذين دخلوا الأندلس من المغرب أو افريقية ، وأهل البلاد من النصارى الذين دخلوا الاسلام ، واليهود الذين أسلموا ، ثم - بطبيعة الحال وفي المكان الأول - العرب ، ويضمون الهاشميين وبقية العرب الذين هاجروا الى الأندلس من جزيرتهم بكل جرائيمهم (= أصولهم) . وقد انضافت لكل من هذه الأجناس جماعات من الموالي .

« واستنادا الى المعلومات التي يوردها هذا المؤلف ، كان العرب الذين دخلوا إسبانيا من الحجاز أو اليمن أو الشام أو مصر أو ليبيا أو افريقية وحتى من السوس الأقصى ، يتجمعون في المدن الكبيرة ، حيث كانوا يتجنبون قدر المستطاع الاشتغال بالحرف البسيطة ويحتلون أعلى الوظائف في خدمة الدولة أو القضاء ، واشتغل بعضهم بالتجارة أو عنوا باستثمار أراضيهم . وليس في هذه العبارة - أي عبارة المؤلف الأندلسي - شيء جديد لم نكن نعلمه . ويكفي أن نلقى نظرة على خريطة

= ٨٠٧/١٤٠٤-١٤٠٥ . ويبدو أن نسبة الكتاب إلى المؤلف الثاني أقرب إلى المقبول ، بشرط أن يُفهم أن الإشارات المتعلقة بحدوث وقعت بعد وفاة ابن الأحمر قد أضيفت فيما بعد ، وهي إشارات كثيرة تتعلق بحدوث القرن التاسع الهجري . انظر :

عبد الحمى الكتاني : فهرس الفهارس ، فاس سنة ١٣٤٦ للهجرة ، ج ١ ، ص ١٠١ : Actes du VIIIe. Congrès de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, dans Hespéris, t. XIX. 1934 p. 196.

وقد اطلعنا على هذا المخطوط والفقرة المشار إليها وأبدينا آراءنا فيها في المتن .

توزيع السكان في الأندلس في القرن التاسع ، لكي تتبين أن المهاجرين العرب لم يعتقدوا صفقة خاسرة عندما استقروا في الأندلس في المناطق الأوفر غنى أو الأكثر خصبا أو التي حبتها الطبيعة بخيراتها من الجزء الساحلى الذى يليه الى الداخل في جنوبى الجزيرة أو شرقها . فقد كانوا يختصون أنفسهم في هذه النواحي بأحسن الأراضى ، ويضمنون لأنفسهم بذلك دخولا تسمح لهم بالعيش عن سعة سواء في ممتلكاتهم ، أو — وكان هذا هو الأغلب — في عواصم النواحي أو في كبار المدن ، وخاصة اشيلية وبلنسية وسرقسطة ، وحتى في العاصمة (قرطبة) في القرن العاشر ، اذ اجتذبتهم اليها لطائف الحياة المترفة التى كان يحياها أشرف قرطبة حول بلاط الخليفة ... » (١) .

وقد عاد يروقتسال ففسر كلام ذلك المؤلف الأندلسى وذهب الى أن سكان الأندلس يقسمون ، بناء على ذلك الكلام ، كما يلي :

(أ) أبناء الاسبان الذين دخلوا في طاعة المسلمين صلحا ودخلوا في الاسلام وأقاموا في مواضعهم التى كانوا فيها .

(ب) أبناء الاسبان الذين دخلوا في طاعة المسلمين عنوة ، فأصبحوا بحكم الفتح أسرى ثم أسلموا وأقاموا في مواضعهم .

(ج) أبناء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح ، وأبناء أسرى النصارى الذين أتت بهم الفتح والغزوات ، ثم اعتنقوا الاسلام واستقروا نهائيا في الأندلس . (٢)

ثم قال : « ان هذا التقسيم يبدو مطابقا للواقع اذا عرفنا أن دخول

(١) LÉVI-PROVENÇAL, op. cit. III pp. 172-173.

(٢) LÉVI-PROVENÇAL, op. cit. III p. 180.

الاسلام لا يستتبع من تلقاء نفسه المساواة في الحقوق الكاملة بين من أسلموا صلحا ومن أسلموا عنوة . وعلى أى الأحوال ، فقد اقتصر أولئك المسلمون الجدد — الذين كانوا يعرفون كما رأينا بصورة عامة بالمولدين والمسألة (أو الأسالة) ، وبحسب هذا النص — على تربية الماشية والزراعة في الأرياف وعلى صيد السمك والأعمال البحرية على الساحل . أما في المدن فقد زاولوا ، هم ومواليهم حرفا وأشغالا يدوية واشتغلوا كذلك بالتجارة الصغيرة ، وذلك كله على وجه التثريب . وهذه الملاحظات ، مهما بدا لنا من قلة أصالتها لا تخلو من قيمة . فهي تؤكد الدور العظيم الذى قام به المولدون — الذين كانوا يؤلفون أكثر أهل الأندلس من ناحية العدد والأهمية — في الحياة الاقتصادية في البلاد ، فقد كانوا في هذه الناحية أوفر العناصر نشاطا وأكثرها تلاؤما مع ظروف الحياة في شبه الجزيرة ، مثلهم في ذلك مثل المستعربين ثم البربر الى حد معين . وقد دل الأمويون (الأندلسيون) على أحسن صور الحكمة السياسية عندما شجعوا هذه العناصر على النهوض ، وذلك بإطلاق الحرية للكثيرين منهم في أن يتمولوا ويندرجوا أكثر في الجماعة الاسلامية ، حيث كان العنصر الفاتح يكون أرسقراطية قليلة العدد جدا . وكذلك دل الذين سبقوهم الى حكم الأندلس في القرن الثامن على مقدرة سياسية عندما احتضنوا المولدين . فحطوا — على الصورة الوحيدة المعقولة — تلك المشكلة التى واجهتهم كما واجهت غيرهم من حكام المسلمين في كل البلاد التى استقر فيها أمر الاسلام ، وذلك الحل هو السيطرة — بمساعدة سادة البلاد القدماء أنفسهم — على بلاد واسعة لم يكن الناحيون وحدهم ليملكوا من قوى الاحتلال ما يكفى للمحافظة عليها ولمواجهة موقف العداء الذى اتخذته أهل البلاد الذين كانوا

ينتظرون أول فرصة ليتحرروا من سلطان كانوا يرون أنه يجاوز حد الاحتمال» (١) .

وهذه الأحكام العامة كلها لا تخلو من أخطاء : فأما عبارة ١٩٢- خطأ هذه : ذلك المؤلف المجهول فواضح أنه لم يعتمد فيها على معرفة الآراء والأحكام صحيحة بأحوال الأندلس خلال تلك العصور الأولى ، فلم يكن سكان الأندلس يتألفون من العناصر الأربعة التي ذكرها أولا وهي : العرب والبربر والنصارى واليهود الذين أسلموا ، أو من العناصر الثلاثة التي ذكرها ثانيا وهي : الأسبان الذين فتحت نواحيهم صلحا ثم أسلموا ، والذين فتحت نواحيهم عنوة ثم أسلموا ، ثم أبناء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح ، ويضاف إليهم أولاد أسرى الغزوات والتتوح الذين استقروا في الأندلس .

فأما تقسيمه الأول فواضح منه أنه أسقط النصارى الذين ظلوا على دينهم ، وكانوا كما سنرى يمثلون نسبة عالية من سكان البلاد ، وأما تقسيمه الثاني فظاهر أنه مضطرب غير مستقيم . ثم ان تفريقه بين من فتحت نواحيهم صلحا ومن فتحت نواحيهم عنوة لا محل له هنا ، فان مسلمي الأندلس لم يستطيعوا أبدا تمييز أرض صلح من أرض عنوة في هذه البلاد ، وانتهى بهم الأمر الى اعتبار من أسلم منهم جميعا مسلمين يستمتعون بنفس الحقوق ، ومن لم يسلم منهم أهل ذمة ، وطبقوا عليهم أشراف الشريعة في أبسط صورها . وينبغي أن نلاحظ أن صدر الاسلام لم يعرف ما عرفته العصور المتأخرة من مضايقات أهل الذمة ، كاختصاصهم بملابس خاصة وتحريم ركوب بعض الدواب عليهم وما الى ذلك ، انما

كان الاسلام اذ ذاك سمحا طلقا يترك الناس وشأنهم ما أدوا الأموال المفروضة عليهم ، وهذه السماحة هي التي حببت الناس فيه وجعلتهم يقبلون عليه ، وكأنما اجتذبهم اليه عدم اصرار المسلمين الأول على ادخالهم في الدين ، فلما أقبل الفقهاء وأخذوا يقننون ويشرعون ويخرجون ويستعينون بالعوام على اقامة جاه لهم لا يقل عن جاه الدولة — ان لم يرد عليه — ظهرت هذه المضايقات التي ازدادت ثقلا كلما بعد العهد بسماحة الاسلام الأولى وبساطة من حملوا لواءه . وكلما زاد الفقهاء اتقالا على من بقوا على دينهم من أهل البلاد ازدادوا تمسكا به ونفورا من الدخول في الاسلام ، لأن المسألة لم تصبح مسألة دعوة سمحة وانما تحديا وتهديدا ، والتحدى من جانب يبعث تحديا في الجانب الآخر كما يقول آرنولد توينبي في دراسته الجلية للتاريخ .

وأغلب الظن أن أحكام هذا المؤلف مستتقة من بعض افتراضات المؤرخين المتأخرين ممن كانوا ينظرون في كتب الفروع والأحكام والفتاوى ويستخرجون منها أحكاما يطلقونها على الماضي ، ظنا منهم أن الاسلام كان هكذا دائما ، أو رغبة منهم في توجيه سياسة أهل الحكم في أيامهم حيال الذميين وجهة خاصة بالزعم بأن ذلك كان الحال أيام « السلف الصالح » .

ولقد تابع بروثسسال هذه الآراء فقال بأنه كان هناك في ١٩٣- هل كان العرب أرستقراطية الأندلس تمييز بين أهل الصلح وأهل العنوة ، وسنرى أن مترفة عن غيرها شيئا من هذا لم يكن في الأندلس ، ثم اعتبر اليهود جنسا في الأندلس ؟ قائما بذاته ، ولم يكونوا الا قلة اندرج معظمها في عداد المسلمين . ثم ذهب يقول من عنده ان العرب كانوا يكونون أرستقراطية خاصة ، والواقع أنهم لم يكونوا كذلك ، وانما كانت الأرستقراطية

الحقيقية في بيوت الموالي ولم يكونوا عربا على ما رأيناه في الفصل السابق ، وقد ظل الجاه والسلطان في هذه البيوت الى آخر أيام الخلافة الأموية ، أما العرب فقد اندرج منهم في أهل البلاد من اندرج ، وبقي منهم في العواصم نفر يطلبون العيش كغيرهم ، وبقيت منهم في الأرياف جماعات محتفظة بأراضيها كما احتفظ غيرهم من غير العرب بأراضيهم ، فيما عدا عرب الكوفة المجندة ، وكان لهؤلاء وضع خاص كما سنرى ، اذ كانوا نواة القوة العسكرية للدولة أول الأمر ، وكان لهم من الامتياز والاعتزاز بأنفسهم ما كان لأمثالهم من العسكريين في كل مكان في تلك العصور . وعندما استبدل أمراء بنى أمية جند الصقالبة بجند العرب وجعلوا أولئك الصقالبة نواة جيشهم انحدر جند العرب الى المكان الثاني ، فأحفظهم ذلك ، وكان من أكبر أسباب الفتنة الكبيرة التي أشعلت العرب نارها من أوائل حكم الأمير محمد الى أوائل عهد الناصر . ويلاحظ بصفة خاصة أن ثورة العرب هذه وغضبهم على الأمراء ، الذين أحلوا غيرهم مكانهم في الجيش واعتمدوا على الموالي في شئون الدولة ، كانا السبب الأول في اتجاه العرب الى أذى المولدين والعجم ، وهذا الأذى بدوره هو الذى روع هؤلاء واستنهضهم الى المقاومة ، فكان ذلك عصب ثورة عمر بن حفصون وغيره ممن قادوا ثورات المولدين ومن انضم اليهم من نصارى الذمة ، ولم يكن سبب ثورتهم سوء المعاملة أو ثقل الجبايات ، ولم يكونوا ينتظرون أول فرصة للتحرر من نير كانوا يرون أن احتماله يجاوز الطاقة كما قال بروكسفال .

* * *

من الطبيعي أن يكون أهل الذمة معظم أهل الأندلس
١٩٤- أهل الذمة الاسلامى خلال السنوات الأولى التي أعقبت الفتح ، وأن

يقل عددهم شيئا فشيئا ، كلما قدم عهد الاسلام في البلاد حتى يصبحوا أقلية بالنسبة الى العرب والبربر والمسالمة والمولدين . ولقد بينا فيما سبق كيف أنهم كانوا يعيشون على اتصال مباشر بالمسلمين ، ما بين عرب وبربر في الريف والمدن ، وأشرنا كذلك الى أن التمييز الواضح بينهم وبين المسلمين في الوضع والمعاملة ، لم يظهر الا في عصر متأخر ، عندما تمكن أمر الفقهاء ووضعوا ما شاءوا من القيود لا على الذميين فحسب ، بل على المسلمين أيضا .

ولقد أخطأ كثير من الباحثين الذين تعرضوا لدراسة أحوال الذميين في الأندلس وغيره من بلاد الاسلام ، عندما التمسوا الحدود والقواعد التي وضعت لهم من كتب الفقه والنظم الاسلامية ، وفاتهم أن هذه الكتب كلها وضعت في زمن متأخر عن عصر صدر الاسلام ، فهي لا تمثل الوضع في صدر الاسلام ، بل هي لا تمثل الوضع في العصور التي كتبت فيها ، فالكثير مما تحتويه من قواعد وأحكام انما تمثل « أمانى » مؤلفيها ، وما كانوا يرون أن يكون عليه أهل الذمة بحسب ما انتهى اليه تصورهم وتفسيرهم للأيات والأحاديث وآراء كبار الأئمة . ونحن اذا قرأنا اليوم كتاب « الخراج » لأبى يوسف أو كتاب « الأموال » لأبى عبيد أو « الأحكام السلطانية » للماوردى انما ندرك أن ما في كتبهم انما هو « المثل الأعلى » للنظم الاسلامية كما ارتآه أولئك الفقهاء ، وليس هناك مؤرخ محقق يقول بأن هذا هو النظام الذى كان جاريا بالفعل : اذ الواقع أن أحوال المسلمين كانت أسوأ بكثير ، وأحوال الذميين أحسن بكثير مما في هذه الكتب ، وكان هدف الفقهاء من هذه المبالغة هو طلب الرفق بالمسلمين والتشديد على الذميين ،

حسبانا منهم أن هذا يسرع بإسلامهم ؛ ولم يتحقق شيء مما رجوه : لا المسلمون تحسنت أحوالهم ، ولا الذميون أسرع إسلامهم .

١٩٥ - وضع
الذميين في المجتمع
الأندلسي خلال
هذه الفترة

ولقد رأينا فيما سبق كيف كان لون العلاقات بين كبار العرب الأندلس وكبير نصارى الذمة أرطباس ، ورأينا كيف كان الأمر صداقة بين الجانبين لا سيادة جانب على جانب ، وأن ميمون العابد ، وكان قطبا من أقطاب الاسلام الأندلسي في ذلك العصر ، ذهب يطلب الى هذا الذمي قطعة أرض ليزرعها على أساس المزارعة ، أى اقتسام الثمر بينه وبين صاحبها ، ولو أن العرب كانوا غاصبين مستبدين — كما زعم خائير سيمونيت وايزيدورو دى لاس كاخيلاس — لما احتاج هذا الرجل الى أن يطلب أرضا من أرطباس على هذه الصورة .

ولا نزاع في أن العرب لم يسووا النصارى الذين صالحوا على أنفسهم بسوء ، فقد روى صاحب « فتح الأندلس » أن موسى بن نصير رأى النبی صلى الله عليه وسلم أثناء عبوره الى الأندلس فنصحه « بالرفق بالمشرکين » (١) ، وهى رواية أسطورية فى الغالب ، ولكنها على أى حال تدل على اتجاه المسلمين حيال غير المسلمين أثناء الفتح وبعده بقليل . ومما يؤيد ذلك عبارة للرازى يقولها فى سياق الحديث عن أم غاصم (ايلونا) زوج لذريق : « وكانت قد صالحت عن نفسها وأموالها وقت الفتح ، وبأعت بالجزية ، وأقامت على دينها فى ظل نعمتها ، الى أن نكحها الأمير عبد العزيز فحظيت عنده ، ويقال انه سكن بها فى كنيسة باشييلية » (٢) : مما يدل على أن من كان يصلح على نفسه

(١) فتح الأندلس ، ص ٥ .

(٢) رواء المقرئ فى فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

من النصارى ويقبل دفع الجزية كان يضمن حرية دينه والبقاء « فى ظل نعمته » . وسنرى أن ذلك كان صحيحا فى جملته وتفصيله ، وإن كل ناحية من نواحي الأندلس صالحت على نفسها بمعاهدة خاصة ، وأن هذه المعاهدات اختلفت فيما بين بعضها وبعض ، من حيث الصيغ والتفاصيل واتفقت فى الروح والأساس . بل اننا نلاحظ أن الفاتحين كانوا يتصرفون تصرفا واسعا فيما يعقدونه من عهود مع أهل النواحي ، بل ذهب بعضهم الى حد « الابتكار » الذى يتجاوز ما تبيحه السوابق والقواعد ، ومن أمثلة هذا ما يرويه صاحب فتح الأندلس من أنه « عندما وصل موسى الى الفج المنسوب اليه انقطع اليه أهل ذلك الموضع ، فأقرهم على حالهم ، فسموا موالى موسى » (١) .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما حكاه الرازى عن فتح طارق لاستجة ، قال : « ثم نازل أهل استجة ، وهم فى قوة ومعهم فل عسكر لذريق ، فقاتلوا قتالا شديدا ، حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم ان الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يلق المسلمون بعد ذلك حربا مثلها ، وأقاموا على الامتناع الى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها ، وكان مغترا سيء التدبير ، فخرج الى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقا هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق فى الماء ، فأخذه وجاء به الى العسكر ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحب ، وضرب عليه الجزية وخلقى سبيله ، فوفى بما عاهد عليه .. » (٢) . وقد كان المسلمون يحرصون على الوفاء بعهودهم ، حتى فى الحالات التى يبدو لهم أنهم خدعوا فيها ، كحالة تدمير الذى احتال

(١) فتح الأندلس ، ص ١٤ .

(٢) المقرئ : فتح ، ج ١ ، ص ٢٤٣-٢٤٤ .

على جند المسلمين بحيلة بارعة فصلنا أمرها في كلامنا عن الفتح ، وقد وفي المسلمون رغم ذلك لتدمير ، قال الرازي : « فمضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم » (١) .

١٩٦ - عهد وقد ضاعت نصوص معظم المعاهدات التي عقدها المسلمون المسلمين للنواحي مع ما فتحوه من النواحي ، ولكن بقي لنا النص الكامل لمعاهدة عبد العزيز بن موسى مع تدمير وقطعة هامة من عهد موسى بن نصير لأهل ماردة أوردها الرازي في القطعة الباقية من تاريخه في ترجمتها الأسبانية ونصها : « ... فذهبوا (يريد أهل ماردة) إليه ، وقالوا انهم يتركون له كل ما كان لمن مات منهم ومن جرح (في القتال بينه وبينهم) وممتلكات الكنائس وما فيها ، وكذلك ما تحويه من الأججار الكريمة وغيرها من الأشياء الطيبة وكل ممتلكات رجال الدين . وبعد أن تم التوقيع على ذلك في عهد صحيحة (مؤكدة) فتحوا له الأبواب وأدخلوه البلد وأسلموه إياها . ولم يمس المسلمون من أقام في البلد من النصارى بأذى ، وأما من أراد ترك البلد منهم فتركوه يسكنون دون أذى .. » (٢) .

وأما نص الأمان الذي أعطاه عبد العزيز بن موسى لصاحب تدمير فقد

(١) نفس المصدر ، ص ٢٤٧ .

(٢) النص :

“...Et fueronse para el, et plectaron que le diessen todo el aver de los muertos, et de los feridos, et de las iglesias, et de lo que en ellas estaba, así como piedras preciosas et otras nobles cosas, et todo el aver de los clérigos. Et despues que esto fué firmado por buenas cartas abrieronse las puertas, et acogieronlo dentro, et entregaronlo de ella. Et aquellos christianos que hi moravan nos les facian mal, et los que irse querian ibanse, et non les facian mal...”

PASCUAL DE GAYANGOS, *Memoria sobre la autenticidad de la Crónica denominada del Moro Rasis*. p. 78.

أورده الضبي في « البغية » ، ووردت ترجمته الأسبانية في قطعة الرازي المشار إليها ، وقد أوردنا نصه في كلامنا عن فتح الأندلس وسنعرض له في الفصل التالي عن الإدارة ، ويهنا في هذا المقام أن ننص على ما فيه من الضمانات التي منحها للذمين .

وقد اعتمد نفر من الباحثين الأسبان في دراسة أحوال أهل الذمة في الأندلس على وثيقة تسمى « عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه للنصارى » . وهى وثيقة ظاهرة الوضع ، إذ أنها تشير الى الزام النصارى بلباس خاصة منها « القلنسوة » و « العمامة » وهى ملابس لم يعرفها المسلمون في أيام عمر رضى الله عنه ، وتحرم عليهم كذلك ركوب الخيل وما الى ذلك ، ولم يعرف عن عمر أنه نهى النصارى عن ذلك . والحقيقة أن هذا « العهد » من وضع فقهاء العصور المتأخرة ، ولا يجوز اتخاذه أساسا لدراسة أحوال أهل الذمة في عصر صدر الإسلام (١) .

١٩٧ - تنور ويبدو أن مؤرخى الإسلام جميعا ، ما بين قدامى ومحدثين، النظم الإسلامية مسلمين وغير مسلمين ، يغيب عنهم أن النظم التي جرى المسلمون عليها في حكم الأقاليم والمعاملة التي اختصوا بها أهل الذمة لم توضع كاملة من أول الأمر ، وإنما تكاملت شيئا فشيئا مع الزمن ، وخضعت في كل مكان للظروف المحلية . ومن أمثلة ذلك أن أبا يوسف يذهب في كتاب « الخراج » الى أن تقدير الجبايات تقديرا اجماليا ودفع

(١) نشر هذا النص المستشرق بيلان في المجلة الآسيوية الفرنسية . انظر :

BELIN, *Fetoua relatif à la condition des dzimnis, et particulièrement des chrétiens, en pays musulmans*, dans *Journ. Asiat.* tome XVIII de la IVe. serie. pp. 126 sqq et 138 sqq.

وترجمه سيمونيت في كتابه الآنف الذكر . ملحق ٢ ، ص ٨٠١ وما يليها .

الخراج جملة واحدة غير جائزين ، في حين أن الوثائق البردية التي عثرنا عليها تدل على أن حكام المسلمين جروا على ذلك أول الأمر : ففي مصر مثلاً اتفق عمرو بن العاص مع ممثلى القبط على أن يؤدوا ما عليهم جملة واحدة تشمل الجزية والخراج جميعاً ، وقد جرى الأمر على ذلك أيام عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى المرح ، ثم كان التقسيم والتقنين بعد ذلك ^(١) . بل إن تحديد معنى الجزية والخراج غير واضح ، فتسمى الجزية في بعض الأحيان « خراج الرؤوس » ويسمى الخراج « جزية الأرض » . ذلك أن الذين عقدوا العهود مع أهل البلاد المفتوحة هم الفاتحون ، وهم رجال عسكريون عمليون ، كل ما كان يعينهم اقرار الأمن وضمان طاعة البلاد المفتوحة واشعار أهلها بسماحة الاسلام وعدل الدولة الاسلامية ، ثم ضمان حق الدولة في الجبايات ، وهم لهذا كانوا لا يدقون في طريقة الجباية ولا يتدخلون في شئون أهل البلاد الا بالقدر الذى يضمن حقوق الدولة . ولم ينتقل الأمر الى أيدي الفقهاء والمفتين الا فيما بعد ؛ وقد بدأ الفقهاء عملهم على أسلوب عيسى : يسألون عن الصلح والعنوة ، ويلتسسون الأحكام من القرآن الكريم والسنة ، ويتصرفون فيما يصدرونه من أحكام تصرفاً واسعاً ذكياً يدل على ادراك وسعة فهم ، كما نرى في موطأ مالك وما استند عليه مثل مدونة سحنون : ثم مضى عهد كبار الفقهاء وأئمة الشرع في منتصف القرن الثالث الهجرى

(١) انظر مناقشة ذلك في : ٢

C.H. BECKER, *Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam*. II, p. 83 sqq, 124 sqq.

—, *Die Entstehung von Ussr und kharagland in Aegypten in Zeitschrift der Assyriologie*, XVIII (1904-1905) 301-319.

—, *Papyri Schott Reinhardt*, I (Heidelberg, 1906) S. 37 sqq.

تقريباً ، وبدأ عهد « الفقهاء السياسيين » أى الفقهاء الذين طمحو الى السلطان عن طريق التقرب من الحكام حيناً أو الاستعانة بالعوام حيناً آخر لاقامة جاد يستندون اليه . ولا نجد هذه الظاهرة على صورتها الواضحة ، التى يمكننا تأريخها ، الا في المغرب والأندلس ، وفي هذا البلد الأخير بصورة خاصة ، حيث نجد دولة الفقهاء وجهاً لوجه أمام دولة الأمراء ، ونجد دولة الفقهاء تبنى جاهدتها على ايمان العوام ، وتشرع بساير ضيقتهم ويستثير عواطفهم ، ومن هنا كانت مناداتهم بكل ما يرضى مشاعر الجماهير ، ومن ذلك التشدد مع الذميين ، وتحريض الأمراء عليهم وتحريض العامة على الأمراء اذا هم قربوا رجلاً منهم ^(١) . وكان الفقهاء حريصين على أن يؤيدوا مذاهبهم بتفسيرات خاصة لأحكام الشرع ، وربما ابتكروا وثائق ونسبوا الى رجال الدولة الاسلامية الاولى ، كما رأينا في الوثيقة المنسوبة الى عمر بن الخطاب وكما نرى في الوثيقة المنسوبة الى عبد الرحمن الداخل وغير ذلك كثير ^(٢) .

والحقيقة أن المسلمين الأولين كانوا يجرون على تسامح كريم صادر

(١) انظر مثلاً تحريض الفقهاء للعامة على الحكم الربضى لأنه أطلق يد ربيع قوس منوى المعادين بالأندلس من النصارى في المعاون والمغارم على المسلمين (أعمال الأعلام ، لابن الخطيب ، طبعة بيروت بعنوان : إسبانيا الإسلامية ، بيروت ١٩٥٦) ، ص ١٥ . وتحريض هاشم بن عبد العزيز للأثير محمد على قوس بن انشاسيان بسبب توليته إياه الكتابة (ابن التومطية : افتتاح ، ص ٨٢-٨٣) .

(٢) أورد سيمونت نص هذه الوثيقة الموضوعة المنسوبة إلى عبد الرحمن الداخل ، وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن لبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى الأندلسيين أهل قشتالة ومن تبعهم من ساير البلدان ، كتاب أمان وسلام ، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ منه أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل وشملها من البغال مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح في كل عام إلى خمس سنين . كتب بمدينة قرطبة ، ثلاثة من صفر عام اثنين وأربعين ومائة » .

عن ادراك فطرى أن هذه هى السياسة المثلى لاجتذاب الناس الى الاسلام واقناعهم بعدالة الدولة الاسلامية . وذلك أمر لا ينبغي أن يغيب عنا عند التأريخ للنظم الاسلامية : ينبغي أن نقف عند ما لدينا من الوثائق الأصلية وشواهد المؤرخين الموثوق فيهم دون محاولة اكمال الفجوات من أحكام أبى يوسف وقدامة بن جعفر ويحيى بن آدم وأبى عبيد ابن سلام .

* * *

١٩٨- المسلمون ضمن المسلمون للنصارى واليهود من أهل البلاد حريتهم ، يدعون أهل الذمة أحرارا وأدخلوهم في ذمتهم مقابل الجزية والغراج على ما تقضى به الشريعة الاسلامية . وسرى في الفصل التالى أن المسلمين فى الأندلس لم يفرقوا كثيرا بين الصالح والعنوة ، فنال كل المسيحيين تقريبا نفس الحقوق ، ولم يمس المسلمون من الممتلكات الا ما كان ملكا لبيت لدريق وأفراده أو للذين قتلوا فى الحرب مع المسلمين ، وكذلك أملاك الكنيسة ، فاعتبرت هذه كلها غنيمة أخرج خمسها فجعل ملكا للدولة ، وترك الباقي بيد من كانوا يزرعونه يؤدون عنه خراجه فيئا للجماعة الاسلامية كلها . ولما كانت أملاك الكنيسة والبيت المالك كثيرة جدا ، فان الدولة لم تستطع احصاءها كلها ، بسبب اشتغال الأمراء بالحروب والفتن ، فوضع الكثير من أفراد الجيوش الغازية أيديهم على أرض كثيرة واستقروا فيها على أن يؤدوا للدولة ما لها من مال . بل ان المسلمين أطلقوا أسرى النصارى فى أراضي الخمس ليعمروها ، فكأنهم اعتبروهم مزارعين كغيرهم ممن استسلم وباء بالجزية والأمان .

وقد ترك المسلمون نصارى الأندلس أحرارا ينظمون

١٩٩- النصارى أمورهم على النحو الذى أرادوه ، ما داموا على الطاعة يتقاضون بقانونهم يؤدون ما عليهم من الأموال ، فظلوا يفصلون فى أقضيتهم

وفقا للقانون القوطى القديم^(١) ، وظلت علاقاتهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح . وكان يدير أمور الجماعات المسيحية الكبيرة فى المدن والأرياف رجال من نصارى عجم الأندلس يسمون بالقمامسة ، وواحدهم قومس Comas ، وهو اقب كبير كان مقصورا قبل ذلك على القوط ، فلما أزال العرب أمر القوط صار القمامسة من أهل البلاد ، فكان الفتح الاسلامى رد اليهم اعتبارهم من هذه الناحية^(٢) .

٢٠٠- الجماعات وقد ترك العرب للجماعات النصرية نظامها المدنى الذى النصرية تنظم كانت جارية عليه أيام القوط ، وهو نظام مدنى وإدارى نفسها أيضا . أى أن القائمين بأمور كانوا مسئولين عن كل ما يتصل بأمور رعاياهم فيما بين أنفسهم . كانوا يجمعون ضرائبهم ويؤدونها الى بيت المال نيابة عنهم ، وكانوا يعينون لهم القضاة الذين يفصلون فى منازعاتهم بحسب القانون القوطى . وكانوا يشرفون على كنائسهم ويتولون أمور قساوستها ، أى أنه وجد من أول الأمر نظامان إداريان جنباً الى جنب : واحد للمسلمين وواحد للنصارى . أما فى القضايا التى تقع بين المسلمين وغير المسلمين ، فكان ينتظر فيها قضاة المسلمين ويحكمون فيها بشريعة الاسلام ، ولهذا جاء فى أحد كتب الفقه الأندلسية : « ويستحب للقاضى الجلوس للحكم فى رحاب المسجد الخارجة عنه من غير تضيق عليه فى جلوسه فى غيرها ، ليصل اليه اليهودى والنصرانى والضعيف وهو أقرب المواضع »^(٣) .

(١) المعروف باسم Forum Judicum وفى الإسبانية Fuero Juzgo ويعرف باسم

Lex Gothorum أو Lex Judicum .

SIMONET, op. cit. pp. 106-107.

(٢)

SIMONET, op. cit. p. 99

(٣)

وسنرى فى الفصل التالى أن مسلمى الأندلس فى ذلك
٢٠١ - التشريع العصر كانوا يجرون فيما يتصل بالتشريع والتنظيم على
الإسلامى والقانون مذهب الأوزاعى ، وهو مذهب أهل الشام فى ذلك العصر ،
القوطى
يعتمد على القرآن والسنة ، ويفسخ مجال رأى ، فيعتبر
ما فعله الصالحون من خلفاء بنى أمية من الآثار الصالحة التى يمكن
القياس عليها ، وقد كان العصر الأموى كله عصر فتوح وحروب وتوسع
كثرت فيه المشاكل والمسائل الناجمة عن الحروب والفتوح ودخول أمم
جديدة فى الاسلام ، وكان لابد من القضاء فيها برأى سريع حازم عملى ،
ولهذا قيل ان فقه الأوزاعى فقه عسكرى ، وكان معظم امتداد الاسلام
اذ ذاك فى بلاد جرى أهلها على التشريع البيزنطى أو الرومانى ، فدخل
تشريع خلفاء بنى أمية ورجالهم الكثير من أصول القوانين البيزنطية
والرومانية ، ولهذا قيل ان فقه الأوزاعى تأثر بالتشريع الرومانى (١) ،
وقد رفض الكثيرون من المفكرين المحدثين هذا الرأى اعتزازا منهم
بأصالة التشريع الإسلامى (٢) .

ونظن أن الوضع فى الأندلس يعطينا رأيا نافعا فى هذا الموضوع ،
فها نحن أمام حالة فريدة فى بابها : تشريعان ساريان جنبا الى جنب تقر
الادارة الاسلامية ما يصدر عنهما : تشريع اسلامى يطبق على المسلمين ،
وغير المسلمين فى حالات خاصة ، وتشريع قوطى رومانى نصرانى يطبق
على النصارى . والتشريعان سيران جنبا الى جنب . فاذا ذكرنا أن معظم
أهل الأندلس فى الفترة الأولى بعد الفتح كانوا نصارى ، أى يطبق عليهم

(١) انظر :

JOSEPH SCHACHT, the Origins of Mohammedan Jurisprudence; 72. 288-289

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ، الطبعة الخامسة ، ص ٢٤٨ .

القانون القوطى ، وأن القاضى المسلم كان اذا جلس للحكم ، جلس فى
موضع يصل اليه فيه النصارى واليهود ، وأنه كان يستمع الى متخاصمين
قد يكون بعضهم مسلمين وبعضهم نصارى ، ويجتهد فى أن يصدر
حكما يرضاه المتخاصمون ويكون فى نفس الوقت متمشيا مع أحكام
الشرعة الاسلامية ويكون قابلا للتنفيذ فى نفس الوقت — أفليس من
المعقول فى هذه الحالة أن يستمع القاضى وهو فى مجلسه الى ما يقوله
النصرانى معتمدا فيه على ما جرى عليه العمل من القانون القوطى ،
ولم يكن كله متعارضا أو بعيدا عما يقول به الشرع الاسلامى ؟ لقد كان
القاضى المسلم فى ذلك الحين قاضى المسلمين ، وكان يسمى لهذا « قاضى
الجند » لأن المسلمين جميعا كانوا اذ ذاك معتبرين جندا ، ولم يسم
بـ « قاضى الجماعة » الا فى زمن متأخر (١) ، عندما صارت الجماعة
الأندلسية كلها جماعة اسلامية ، وتضاءل نفوذ « قاضى العجم » حتى
اقتصرت على الأقلية المسيحية . وكان « قاضى الجند » هذا مضطرا الى
الاستماع الى حجج المتخاصمين ، والكثيرون منهم نصارى أو مسالمة ،
ومنها من يطالبون بحقوق أقرها لهم القانون القوطى ، فهل يستبعد
والحالة هذه أن يجتهد القاضى فى العثور على رأى يضمن للناس حقوقهم
ويربطه بطريقة ما بأصول التشريع الاسلامى ؟ (٢) لقد جاء فى وصية عقبة
ابن الحجاج السلولى الى قاضيه مهدي بن مسلم — وهى دستور القضاة
فى الأندلس اذ ذاك ، وكان مهدي بن مسلم من أبناء المسالمة ، أى من

(١) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٢١ .

(٢) راجع ما يقوله جوزيف شاخت عن فقه الأوزاعى وحركة إدخال بعض قواعد التشريع
الى وجدها المسلمون فى البلاد المفتوحة فى الفقه الإسلامى :

JOSEPH SCHACHT, *op. cit.* pp. 288-289.

المولدين ، أى نشأ في بيت يتحدث أهله بالعجمية ويجرون على ما جرى عليه قومهم من قوانين القوط — : « ... وأمره أن يساوى بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظه ، وأن يفهم من كل أحد حجته وما يدلى به ، ويستأنى بكل عيب اللسان ناقص البيان ، فإن استقصاء الحجة ما يكون به لحق الله تعالى قاضيا وللواجب فيه راعيا ، فقد يكون بعض الخصوم ألحن بحجته وأبلغ في منطقته وأسرع في بلاغ المطلب ، وألطف حيلة في المذهب وأذكى ذكاء وأحضر جوابا من بعض ، وإن كان غير الصواب مرماه ... »^(١) . والاشارة هنا — كما يغلب على الظن — الى أولئك الذين لا يحسنون الابانة عما في نفوسهم بالعربية ، اذ هم حديثو عهد بها ، فاذا ذكرنا أن مهدي بن مسلم هو الذي كتب هذه بنفسه عن الأمير عقبة بن الحجاج تأكد في نفوسنا هذا المعنى^(٢) .

ولدينا أمثلة قليلة جدا من قبول قضاة الأندلس لأشياء مما جرى به العرف أو القانون الجارى في تلك البلاد بين أهل البلاد . قال الخشني : « ومن ذلك أن أحمد بن أبي خالد سمع محمد بن عمر بن لبابة يقول : حضرت وقد خاصم اليه رجل في قرن بناء صاحبه فأضر الدخان به وبالجيران ، وهذه المسألة يقول [فيها] ابن قاسم أن ذلك من الضرر الذي يجب قطعه ، ولا يباح اتخاذها ، ف قضى سليمان بن أسود بغير ذلك : أن يجعل أنبوبا في أعلى القرن ، فيخرج الدخان من أعلاه فلا يضر ذلك بمن جاوره ، فكان محمد بن عمر [بن لبابة] يفتى بهذا ويحمل الناس عليه فيما أخبرني أحمد بن خالد »^(٣) . وهناك مثل آخر يحكيه الخشني

(١) الخشني : قضاة الأندلس ، ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

في ترجمة القاضي الحبيب بن أحمد بن زياد اللخمي ، فقد ذكر أن مجاعة حدثت في أيام الأمير محمد ، فكثرت التناول من المفسدين ، « فوالى السوق حينئذ ابراهيم بن حسين بن عاصم ، وأمره بالاجتهاد ، وعهد اليه بالتحفظ وأذن [له] بالتنفيذ في القطع والصلب بلا مؤامرة منه ولا استئذان ، فكان ابراهيم يجلس في مجلس نظره في السوق ، فاذا أوتى بالفساد المفدح قال له : اكتب وصيته ! ودعا له بشيوخ فأشهدهم على ما يوصى به ، ثم صلبه ونحره ، فكان بين يديه من المصلوبين عدد عظيم . فأتاه قوم بنفر من جيرانهم فشكوا اليه تطاولا على ما يكون من أشرار الأحداث ، وهم لا يشكون أنه سيزجره الزجر القوي ، وإن أفرط في عقابه فالسجن ، فقال لشيخ منهم : ما يستحق عندك ؟ فقال — على وجه المثال — : ما استحق هؤلاء ! وأشار الى المصلبين ، فقال ابراهيم ابن حسين [نه] ولأصحابه : انصرفوا ، فانصرفوا . ثم قال للفتى : اكتب وصيتك ! فقال له : اتق الله فيّ ، فانه لم يبلغ ذنبى أن أستحق القتل والصلب . فقال له : بذلك شهد عليك الشهود ، فقتله وصلبه . فلما بلغ الشهود ذلك أتوه فقالوا له : لم تشهد عندك على الفتى بذنب يجب فيه القتل ! فقال : أو لم يقل قائلكم انه يستحق ما يستحق هؤلاء ؟ فقالوا له : « على المثل ! » ، قال : فإثم ذلك في رقابكم ، اذ لم تحسنوا الابانة من أنفسكم »^(١) .

وظاهر أن هذين الحكيمين مستقيان من جارى العرف والقانون القوطي ، فوضع المداخن أمر لم يكن معروفا في المشرق ، والحكم به يعتبر تجديدا مقتبسا من البيئة الأندلسية ، وقتل الحدث للذنب البسيط غير جائز في الشريعة الاسلامية ، ولكنه جائز في شريعة القوط . بل ان

(١) الخشني : قضاة الأندلس ، ص ١٧٨-١٧٩ .

القضاة أنفسهم كانوا يجيزون لأنفسهم ما لا يجيزه أهل التقى والورع فى المشرق ، فقد خطب زياد بن عبد الرحمن — الذى أصبح قاضيا فيما بعد — ابنة القاضى معاوية بن صالح ، وأحب رؤيتها قبل البناء بها « على ما يفعله بعض الناس ، فتحيل النساء عليه فى ذلك وآتين به عند العشاء الآخرة ، فصار فى الاسطوان ، فنشرت دابة معاوية منه واشتد قلقها من أجله ، حتى خرج معاوية الى الصلاة فسمع حس الدابة فرا به ذلك ، فدعا بالمصباح ، فوجد زيادا فى مذود الدابة فى بعض زوايا الاسطوان ، فما زاد على أن قال له : استوصوا [بحرمان المسلمين يستوص الله] بكم خيرا ، ثم خرج الى الصلاة » (١) . وأمر كهذا ما كان يجيزه عرف أهل التقى والعلم فى المشرق ، ولو فعله رجل لما ولى القضاء أبدا ، ولكن زياد بن عبد الرحمن ولى القضاء بعد ذلك وصار من كبار أهل العلم والفتيا ، وهذا أثر من آثار البيئة الأندلسية فى تصرفات شيوخ الأندلس وحكمهم على الأشياء .

وروى الخشنى أن القاضى محمد بن زياد اللخمى كان يتساهل مع السكارى ويتغافل عنهم ، حتى لقد أتوه برجل « يتمايد سكرًا » فأمر القاضى بأخذه ليقيم عليه الحد ، وكان يرافق القاضى صديق له فقيه هو محمد بن عيسى الأعشى ، فلما كان فى موضع ضيق . « تقدم القاضى وتأخر الأعشى ، ففى تأخره عن القاضى التفت الى الذى كان يمسك السكران فقال : يقول لك القاضى : أطلقه ! فإطلقه ، ثم افترقا جميعا . ونزل القاضى ودعا بالسكران ، فقبل له : أمرنا عنك أبو عبد الله الفقيه أن نطلقه ، فقال : وفعل ؟ قال : نعم ! قال : أحسن ! » . وقد علق الخشنى على ذلك محتجا ، وقال : « وما أتى عن القضاة فى هذا المعنى

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥ .

خاصة من الاغضاء عن السكارى والتغافل لهم والرقعة عليهم ، فلا أعرف لذلك وجها من الوجوه يتسع لهم فيه القول ويقوم لهم فيه العذر ، الا وجها واحدا ، وهو أن حد السكر من بين الحدود كلها لم ينصه الكتاب المنزل ، ولا أتى فيه حديث ثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم .. الى آخره » (١) . وقد فات الخشنى ، وهو من فقهاء القرن الرابع الهجرى ، أن قضاة الأندلس أيام محمد بن زياد ، أى منتصف القرن الهجرى الثانى ، لم يكونوا يحكمون بالنصوص فقط ، بل كانوا يجتهدون ويراعون البيئة المحلية ، ويتأثرون بما حولهم ، وأن القانون كائن حى يغتذى بما حوله وينمو ويتطور ، واذا كان تاريخ أى جماعة يتجلى بأصدق صورته فى تاريخ تشريعها ، فلا شك أن المجتمع الإسلامى والشرع الإسلامى لا يشذان عن هذه القاعدة ، وأن التشريع فى صدر الاسلام كان حيا متطورا متقبلا لكل جديد ، مثله فى ذلك مثل الجماعة الاسلامية فى ذلك العصر ، فلما جمدت هذه الجماعة جمد هو الآخر ولم يعد يتطور .

وقد جمد التشريع الإسلامى ووقف عن التطور عندما تحول الى علم ثابت الأصول والفروع على أيدي الفقهاء ، ولا يبدو ذلك فى صورة هى أوضح مما ظهر به فى الأندلس والمغرب ، فقد كان التشريع فى هذين البلدين أول الأمر سهلا مرنا يأخذ من البيئة المحلية كثيرا ويطوع ما يأخذه لأصول الاسلام ، بل اشترك نفر من أهل المغرب والأندلس مع مالك بن أنس فى تكوين مذهبه ، فأهل الأندلس يذهبون الى أن مالكا روى عن قاضيه معاوية بن صالح (٢) ، وأهل المغرب يقولون

(١) الخشنى : قضاة ، ص ١٠٢-١٠٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٠ .

ان سحنونا كان صاحباً لابن القاسم يجالسه ويشاوره^(١) ، واستمر ذلك حتى اكتمل مذهب مالك وأقبل الى المغرب والأندلس تلاميذ مالك ونشروا مذهبه وحملوا الناس عليه وكرهوا كل تجديد أو ابتكار . هنا جمد التشريع ولم يعد له سبيل الى التطور ، وأخذ باب الرأي يضيق شيئاً فشيئاً حتى أصبح « رأى مالك » فقط وأصبح الفقهاء هم أهل الحديث ، وتلاشى مذهب الأوزاعي وقامت دولة المالكية وفقهائها .

ومن المحقق أن تشريع قضاة الأندلس الأول قد ضاع معظمه ، قال الخشني : « وذكر محمد بن وضاح قال : قال لى يحيى بن معين : جمعتم حديث معاوية بن صالح ؟ قلت : لا ! قال : وما منعكم من ذلك ؟ قلت : قدم بلدا لم يكن أهله يومئذ أهل علم ! قال : أضعتم والله علما عظيما ! »^(٢) . وقال محمد بن عبد الملك بن أيمن انه بحث عن كتب معاوية بن صالح فلم يجدها ، قال : « فلما انصرفت الى الأندلس طلبت أمهاتهن وكتبه ، فوجدتها قد ضاعت بسقوط همم أهلها »^(٣) . ويؤكد الخشني أن أحد قضاة ذلك العصر الأول في الأندلس ، وهو المصعب بن عمران ، لم يكن « بالمتسع في علم السنن ولا في رواية الأخبار » فبماذا كان يحكم ؟ ثم يقول بعد ذلك ان « زياد بن عبد الرحمن أول من دخل الأندلس بالفقه والحلال والحرام »^(٤) مما يفهم منه أن أحكام الأندلس لم تكن تجرى قبل ذلك على فقه ثابت معروف ، بل على الاجتهاد والرأي

(١) المالكي : رياض النفوس (قام على نشره حسين مؤنس سنة ١٩٥١) ج ١ ، ص ٢٥٠ وما يليها .

(٢) الخشني : قضاة الأندلس ، ص ٣١ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٠ .

والقياس . وربما كان المراد هنا أن زيادا أول من دخل الأندلس بفقه مالك ، وهو أمر لا يغير من الوضع كثيرا ، ولدينا براهين تؤيد ذلك ، فمن ذلك ما يحكيه ابن القوطية من أن عيسى بن مزاحم عندما تزوج سارة القوطية قدم معها الى الأندلس « وقبض ضياعها »^(١) ، والزواج في الشريعة الاسلامية لا يقبض أملاك زوجه الا بشروط ، ولكن القانون القوطي يقره مبدأ عاما . ويؤيد ما نقوله النباهي في حديثه عن المصعب ابن عمران القاضي ، قال : « وكان يروى عن الأوزاعي وغيره ، وكان لا يقلد مذهبا ، ويقضى بما يراه صوابا »^(٢) . ومن الثابت أن قضاة الأندلس في ذلك العصر لم يكونوا يرون بأسا بمخالفة ما ينص عليه الأئمة ، ومن ذلك أن القاضي محمد بن بشير كان « لا يجيز الشهادة على الخط في غير الأحباس ، ولا يرى القضاء باليمين مع الشاهد » ، وقد علق على ذلك محمد بن عمر بن لثابة بقوله : « قد علم القاضي — حفظه الله — اختلاف أهل العلم ، وما ذهب اليه مالك وأصحابه من اليمين مع الشاهد ، وما ذهب اليه قضاة بلدنا منذ دخلته العرب ، من أنهم لا يرون اليمين مع الشاهد ولا يقضون به .. »^(٣) مما يدل على أن قضاة الأندلس كانت لهم آراء خاصة يجرون عليها .

٢٠٢ - عمل ومن الثابت أيضا أنه كان لقضاة قرطبة فقه خاص يجرون قرطبة عليه وينكره غيرهم من قضاة المغرب والمشرق ، وهذا الفقه القرطبي يسمى بتسمية خاصة تدل على أنه مستقى من جارى العرف وأعمال الناس بحكم العادة ، فكان يسمى « عمل قرطبة » ، وللمقري

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٦ .

(٢) النباهي : قضاة الأندلس ، ص ٤٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٠ .

رواية طويلة في هذا الباب لا بأس من إيرادها على تواليها لأهميتها . قال المقرئ : « واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب ، حتى أنهم يقولون في الأحكام : هذا مما جرى به عمل قرطبة . وفي هذه المسألة نزاع كبير ، ولا بأس أن نذكر ما لا بد منه من ذلك . قال الامام ابن عرفة رحمه الله تعالى : في اشتراط الامام على القاضي الحكم بمذهب معين — وان خالف معتقداً المشترط اجتهدا وتقليداً — ثلاثة أقوال : الصحة للباحي ، ولعمل أهل قرطبة ، ولظاهر شرط سحنون على مذهب من ولاة الحكم بمذهب أهل المدينة ، قال الماذري : مع احتمال كون الرجل مجتهدا : الثاني : البطان للطروشى ، اذ قال : في شرط أهل قرطبة هذا جهل عظيم . الثالث : تصح التولية ويطل الشرط ، تخريجا على أحد الأقوال في الشرط الفاسد في البيع للماذري عن بعض الناس ، انتهى مختصرا . قال ابن غازي : ان ابن عرفة نسب للطروشى البطان مطلقا ، وابن شاس انما نسب له التفصيل ، انتهى .. ولما ذكر مولاي الجد الامام قاضي القضاة بفاس سيدي أبو عبد الله المقرئ التلمساني في كتابة القواعد شرط أهل قرطبة المذكور ، قال بعده ما نصه : وعلى هذا الشرط ترتب عمل القضاة بالأندلس ، ثم انتقل الى المغرب ، فبينما نحن ننزع الناس في « عمل المدينة » ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمة لعلى وابن مسعود ومن كان معهما : ليس التكحل في العينين كالتكحل ، سنج لنا بغض الجمود ومعدن التقليد !

الله أخر مدتي فتأخرت* حتى رأيت من الزمان عجائبا

يا الله والمسلمين ! ذهبت قرطبة وأهلها ولم يبرح من الناس جهلها ! ماذا الا لأن الشيطان يسعى في محو الحق فينسيه ، والباطل لا زال

يلقنه ويلقيه . ألا ترى خصال الجاهلية — كالنياحة والتفاخر والتكاثف والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والحظ والتشاؤم وما أشبه ذلك — وأسماءها — كالعنة ويشرب — وكذا التنازع بالألقاب وغيره مما نهى عنه وحذر منه كيف لم تنزل من أهلها (يريد أهل قرطبة) وانتقلت الى غيرهم مع تيسر أمرها ، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأسا ، بل يجعلون العادات القديمة أسسا ، وكذلك محبة الشعر والتلحين والنسيب وما انخرط في ذلك السلك ثابتة الموقع من القلوب ، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين لا نحفظه الا قولا ، ولا نحمله الا كلا ؟ .. انتهى » (١) :

وهذه عبارة لا تحتاج الى تعليق ، فهي تجمل كل ما قلناه من تأثير التشريع في الأندلس بالبيئة المحلية ، وجرى القضاء في قضائهم « على العادات القديمة » واعتبارهم ما يصدر من أحكام « عملا » خاصا بهم يلتزمون ولو اشترط الأمير الذي يوليهم أن يحكموا بمذهب معين . وذلك هو الأمر الطبيعي المعقول ، لأن القانون جزء من الحياة العامة يتأثر بما فيها ويجاريه ولا مفر للقضاة من افساح المجال لما جرى عليه الناس ، ما دام لا يتعارض مع الأصول ، وما دام مالك قد اعتبر عمل أهل المدينة أساسا من أسس تشريعه ، وأبو حنيفة قد خضع للبيئة العراقية وصاغ في حدودها مذهبه ، فقد كان من الطبيعي أن يكون لقضاة الأندلس فلسفة خاصة في أحكامهم ، فلسفة قائمة على قبول جاري العرف والتأتون والتقليد ، وان وصف الفقهاء ذلك بأنه « جهل عظيم » .

٢٠٣- اختلاف وانما استطرنا هذا الاستطراد لأن منطق التاريخ — الى نظم القضاء في جانب ما أوردناه من البراهين — يؤيد ما ذهبنا اليه من الأندلس عن تأثير التشريع في الأندلس بالتشريع القوطي الذي كان العمل

(١) المقرئ : فتح الطيب ، طبعة بحري الدين ، ج ٢ ، ص ٩٣-٩٤ .

جاريًا به في الأندلس قبل أيام المسلمين : وإذا كان هناك قاض للعجم يحكم بـ « سنة النصارى » ، وقاض للمسلمين يحكم بسنة الاسلام ، جنبًا إلى جنب ، وكلما انقضى حين دخل نفر من النصارى في الاسلام وصار منهم قضاة وفقهاء ، فإن تسرب أشياء من « قضاء العجم » إلى قضاء المسلمين أمر طبيعي . بل بلغ من ذلك التأثير أن أخذ تنظيم القضاء العام في الأندلس صورة يختلف فيها عن نظم القضاء في المشرق جملة وتفصيلا ، فظهر نظام القضاة المشاورين وتألفت منهم هيئة تسمى « المشورة » وهي صورة « الكوريا » Curia القضائية في نظام القضاء الروماني ، وهذه « المشورة » أو الكوريا هي التي تضع القواعد الفقهية وتحدد المبادئ ، في حين اقتصر أمر القضاة على التطبيق ، مما لا يتسع المجال لدراسته في العصر الذي نؤرخ له (١) .

(١) ليس هنا مجال الكلام عن وجوه اختلاف نظم القضاء في الأندلس عن مثيلاتها في المشرق . وقد أشار إلى ذلك خليان ريبيرا في مقدمته لتاريخ القضاة للهارث بن أسد الخشني ، واعتمد على كلامه ليثي پروفسال فيما أورد من مادة طبية عن القضاء في الأندلس في الجزء الثالث من « تاريخ إسبانيا الإسلامية » . وقد قدمت مادة طبية عن الموضوع في بحثي عن « سقوط خلافة قرطبة » (بالفرنسية) ويهمني أن أشير هنا إلى بعض المراجع الهامة لدراسة هذا الموضوع لم يشر إليها أحد من اشتغل به . وهي : JOSÉ LOPEZ ÓRTIZ: *La recepción de la Escuela Maliki en España*.

—La Curia Musulmana.

SANCHEZ ALBORNOZ: *Los Arabes y las origines del feudalismo*.

LACARRA: *Fueros navarros del siglo XII*.

GONZALEZ PALENCIA: *El Fuero latino de Albarracin*

SALVADOR VILA: *El capitulo del matrimonio del formulario notorial de Aben Meguit*.

وكليهما ظهرت في حويلات تاريخ القانون الإسباني :

Anuario de Historia del Derecho Español.

ابتداء من المجلد السابع سنة ١٩٣٠ وما يليه .

وفي كتاب « المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب » لأبي العباس أحمد بن يحيى التلمساني الوشرقي (أو الوشرقي) طبع حجر ، فاس ١٣١٤ و ١٣١٥ ، مادة طبية ونافعة ابتداء من الجزء الخامس .

٢٠٤ - العرب وقد وجد العرب في الأندلس مدنا كبيرة كثيرة منظمة أمورها يحترمون نظم تنظيمًا طيبًا ، وصادفوا لأول مرة نظم البلديات وحكومات البلديات المدن ، ووجدوا كل مدينة وحدة قائمة بذاتها ولها زمام حولها يتبعها . وقد كانت أحوال المدن الرومانية في غرب أوروبا قد اضطرت واضمحلت بسبب غارات الجرمان وما أحدثته من الفوضى والاضطراب والفقر ، ولكن هيكل التنظيم المدني كان باقيا ما يزال (١) . وقد احترم العرب هذا التنظيم على اعتبار أنه جزء من احترامهم لعهودهم مع أهل الذمة ، وكانوا أول الأمر معظم أهل المدن . وقد أفاد العرب من احتفاظهم بهذا النظام فيما بعد ، إذ أنه عندما أسلم معظم أهل المدن وتعربوا اتسعت حدود هذا النظام فشمل المسلمين أيضا من أهل المدن ، وعرب وأصبح جزءا من النظام العام للأندلس .

٢٠٥ - قوس أقام العرب على أهل الذمة والنصارى رئيسا منهم ولقبوه الأندلس بقومس الأندلس أو زعيم نصارى الذمة ، وجعلوه مسئولا أمامهم عن كل ما يتصل برعاياهم من النصارى ، وأحاطوه بما يليق به من الاحترام . وكان أول القمامسة هو اربطاس ، وستتحدث عنه بعد قليل .

(١) لم يدرس أحد إلى الآن تطور أحوال المدن الإسبانية خلال العصور الوسطى ، وكل ما لدينا معلومات عامة مستخلصة من تطور أحوال المدن في غالة وإيطاليا . والرأي الغالب هو أن الاضمحلال العام الذي شمل المدن الرومانية جميعا خلال العصر الروماني المتأخر أدى إلى تدهور المدن ، فاخضع بعضها وتحول الباقي إلى قرى ، وأصبح التقسيم الإداري زراعياً خالصاً يقوم على وحدات ضرائبية تعرف الواحدة منها باسم territoria وإن ظل الناس يطلقون لفظ المدينة على التير يتوريا وموضع المدينة القديمة civitas وزمانيها urbs . انظر :

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : en *Historia de España* dirigida por D. Ramon Menéndez Pidal. Vol. III (Madrid, 1940) p. 220.

وآراء التي يذهبها المؤرخان حافلة بالأخطاء . وقد أتى الخطأ من أن هذين الباحثين الإسبانين نقلتا أقوال مؤرخين ألمان وفرنسيين حاسبين أن مثل ذلك قد حدث في إسبانيا ، وفاتهما أن الفتح الإسلامي أوقف اضمحلال المدن في إسبانيا كما سترى فيما يلي .

حقيقة أن هذا اللقب لم يظهر في النصوص إلا أيام عبد الرحمن الداخل ، ولكن صورة الخبر الذي يتضمن هذا اللقب عند ابن القوطية تدل على أن الوظيفة كانت قديمة والجديد هو اللقب ^(١) . وستستمر الوظيفة بهذا اللقب بعد ذلك .

٢٠٦ - العرب ويذكر الراهب البني كتب مذبذبة البلدة *Chronicon Albeldense* يتركون لأهل الذمة أن العرب تركوا لأهل البلاد من النصارى حق اختيار رؤسائهم ^{حرية اختيار} حكامهم ومنظمي أمورهم :

".. Et unusquisque ex illorum origine de semit epsos comites eligerent, qui per omnes habitantes terrae illorum pacta Regis congregarentur" ^(٢)

وورود هذا اللفظ بصيغة الجمع في هذا النص يفهم منه أنه كان هناك أكثر من قومس ، والأقرب إلى المعتقد أنه كان على رأس النصارى في كل ناحية قومس ، لأن كل ناحية في اسبانيا كان لها قومس على أيام الرومان ثم القوط من بعدهم ، فآقر العرب هذا الوضع ^(٣) ، واشتروا

(١) انظر عن لقب قومس Comas في إسبانيا القوطية :

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, *op. cit.* p. 221

SIMONET, *op. cit.* p. 108.

(٢)

(٣) يبدو أن هناك شيئاً من الالتباس في قول مانويل توريس في الموضوع الذي أشرنا إليه في الحاشية قبل السابق أن القومس في أيام القوط كانت له سلطات عسكرية ومالية وقضائية ، ولهذا كان يسمى Comas civitatis (قومس المدينة) أو Comas territorii (قومس الناحية) أو Comas provinciae (قومس المديرية) أو Comas exercitus (قومس الجيش) إذ يغلب على ظننا أنه كان هناك أكثر من قومس ، لكن منهم اختصاص ، وفوق هؤلاء جميعاً كان الدوكس dux أي القائد أو الحاكم الأعلى ، وهذا هو الذي كانت له الاختصاصات المتعددة . ويبدو أن القمامة كانوا قد أصبحوا في أواخر أيام القوط مجرد موظفين ، كل منهم يوكل بناحية من فواحي الإدارة ، وصغر شأنهم تبعاً لذلك ، لأننا لا نجد القمامة يتصدون للعرب دفاعاً عن نواحيهم . حقيقة أنهم كانوا جميعاً قوطاً ، وقد هربوا بعد واقعة وادي لكة ، ولكن يمكن أن يقال أيضاً أن أمرهم كان قد ضعف ، فلم تعد لهم القيادة ، ولهذا لم تذكرهم النصوص .

— كما هو واضح في النص — أن تنتخبه الجماعة النصرانية بنفسها ، على خلاف ما كان الحال عليه أيام القوط ، إذ أن ملك القوط كان يعين القمامة من أصحابه والمقربين إليه ، إذ أن المعنى الأصلي للفظ Comes هو رفيق أو صاحب . وهذا التغير في طريقة تعيين القمامة طبيعي ، لأن ملك القوط قد زال ، فانتقل حق اختيار الحكام إلى الجماعة النصرانية ، واكتفى العرب باختيار القومس الأعلى وهو الملقب بقومس الأندلس ، ولم يروا أن يتركوا له حق تعيين قمامة النواحي ، لأن ذلك كان يعطيه سلطاناً واسعاً خطراً ، إذ أن الغالبية العظمى من أهل البلاد كانت نصارى . وسنرى بعد قليل كيف أن قومس الأندلس أساء التصرف مع اخوانه في الدين ، حتى في الحدود التي وضعها العرب لسلطانه .

ويذهب سيمونيت إلى أن سلطان قمامة المدن كان لا يقتصر على المدن التي ينتخبهم أهلها ، بل يمتد إلى كل الناحية الداخلة في زمامها ، ويقول : « ولا شك أنه كان يعاون القمامة موظفون آخرون أصغر منهم ، كانوا يعملون تحت إدارتهم خاضعين لسلطانهم في المدن ، وينوبون عنهم في القرى الداخلة في زمام ناحيتهم ، وكانوا يتولون الأعمال المختلفة من إدارية ومالية وقضائية » ^(١) .

وكان أصحاب وظائف أهل الذمة يلقبون أول الأمر بألقابهم ٢٠٧ - الوظائف اللاتينية التي عرفت بها أيام الرومان والقوط ، ثم عربها القوطية تدخل في الناس عندما غلبت العربية على غيرها في شبه الجزيرة ، ثم النظام العربي العام أخذت اللفظة العربية على ألسنة الناس صورة إسبانية عندما جرت في الاستعمال الدارج ، وقد صحب هذا التطور اللفظي تطور في معنى الوظيفة واختصاصها في بعض الأحيان .

٢٠٨ - قاضي كان القاضي يسمى أولاً « يودكس Judex » ، ثم حلت العجم محلها لفظة « القاضي » العربية ، ثم صارت هذه اللفظة على ألسنة الناس ألكالدي Alcalde ، وبهذه الصورة دخلت اللغة القشتالية وظلت فيها إلى اليوم ، وتطور معنى الألكالدي أيضاً مع الزمن فصار إلى ما يشبه « العمدة » عندنا (في المدن الصغيرة والقرى) ، والأغلب أن هذا التطور حدث عندما أسلم معظم الناس وتضاءل بذلك اختصاص قاضي العجم في الفصل في القضايا ، وأصبح أشبه برئيس شرفي تنتخبه الجماعة النصرانية من غير اختصاص واضح ، كما هي حالة العمدة في المدن الصغيرة . وقد حدث تطور شبيه بذلك أيام القوط في اختصاصات القضاة : فقد كان للقوط قضاة من أنفسهم يسمون في اللاتينية Millenarii وفي الدارجة Theofadi إلى جانب قاضي الأهالي من الإيبيريين الرومان الذي كان يسمى Judex ، ثم غلب اختصاص هذا الأخير حتى أصبح قاضي الإيبيريين الرومان والقوط جميعاً وتحول قاضي القوط (الميليناريوس أو الثيوفادوس) إلى موظف عسكري (١) .

(١) يستعمل لفظ يودكس (Judex = قاض) في التشريعات القوطية استعمالاً واسعاً ، فيطلق على القاضي وعلى الموظف بصورة عامة ، وربما أطلق لفظ يودكس على حاكم الناحية بدلاً من Comes ، ومن ثم فإن ما يذكره القانون القوطي Liber Judicum من وجود iudex provinciae أو iudex civitates ليس معناه قاضي المديرية أو قاضي المدينة بل يراد به الحاكم . وكان هؤلاء اليوديسيس Iudices نواب في النواحي . وكان يشترط في اليودكس أن يكون من القوط في حين كان النواب Vicarii من أهل البلاد . ويلاحظ أن هذا الاضطراب في استعمال لفظ يودكس لم يقتصر على اللفظ بل شمل الاختصاصات أيضاً ، فأصبح حاكماً أو موظفاً كما رأينا . وقد انتقل هذا إلى قضاة العجم في الأندلس الإسلامي ، فهم يسمون في بعض الأحيان «الوزير القاضي» ولفظ وزير هنا ليس مجرد لفظ تشريف ، بل يدل على أن قاضي العجم كان يتمتع بسلطات تنفيذية إلى جانب وظيفته القضائية . ولا نجد قضاة مسلمين يلقبون بالوزير القاضي ، إلا في الأزمنة المتأخرة عند ما انحط معنى لفظ وزير ، وأصبح مجرد لقب تشريف .

انظر : و MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : *ibidem* . PEDRO AGUADO BLEYE, *Manuel de Historia de España*, tomo I (Madrid, 1947) p. 368.

٢٠٩ - صاحب وإلى جانب القومس ، وهو حاكم المدينة وزمامها ، وهو المدينة ما عرف في النظام الإسلامي بالكورة ، كان يوجد في النظام الروماني ثم القوطي حاكم خاص للمدينة Defensor Civitatis أى حامى المدينة أو حارسها ، فبقيت هذه الوظيفة وعبرت إلى « صاحب المدينة » ، وصارت في عجمية أهل الأندلس Zahalmedina أو Zafalmedina أو Zalmedina ، وستدخل هذه الوظيفة في النظم الإسلامية الأندلسية ، وسيتولاها مسلمون فيما بعد (١) .

٢١٠ - المشرف وكان هناك موظف يوكل بشئون المال في الناحية ، يعرف قبل العرب باسم Praefectus aerarii فعربها العرب إلى « المشرف » وانتقل هذا اللفظ إلى عجمية أهل الأندلس في صور شتى : alamosérife و almossarif و almoxerife و almoxarife ، وبهذه الصورة الأخيرة بقي اللفظ في اللغة القشتالية .

٢١١ - مستخرج أما قومس الخزائنة Comes thesaurorum فقد حل محله الخراج « مستخرج الخراج » أو مستخرج خراج الذمة ، إلى جانب عامل الخراج المعروف في النظم الإسلامية ، وقد تضاءلت أهمية « مستخرج الخراج » مع الزمن .

(١) ذهب سيدهويت في كتابه المعروف Historia de los Mozárabes (ص ١٠٨-١٠٩) إلى أن تعريب هذه الوظائف كان كما يلي :

judex = القاضي
practor urbanus = صاحب المدينة
praefectus aerarii = المشرف

وقد خالفناه في ذلك كما يرى في النص

وقد خلط بين المحتسب والأمين والعريف ، وصوبنا ذلك في كلامنا .

٢١٢- صاحب وكان هناك موظف مكلف بالأمن في المدينة يعرف باسم الشرطة *praetor urbanos* فحل محله «صاحب الشرطة» ، وقد انتقل هذا اللفظ الى عجمية أهل الأندلس في صور مختلفة مثل *Sahba* و *Seorta* و *Sacbasorta* ، ودخلت الوظيفة في النظام الاسلامي كما هو معروف . ومن الطريف أن العرب أخذوا نظام الشرطة ولفظها في المشرق من البيزنطيين (شرطة = *Securitas*) ثم حلوا الوظيفة بلفظها الى الأندلس حيث أخذ اللفظ صورة عربية في العجمية الأندلسية .

٢١٣- الأمين وكان العمال في المدن منظمين منذ العصر الروماني على صورة هيئات تشبه النقابات تعرف كل منها بالكلية *collegia* ^(١) ، وكان لكل منها رئيس مسئول عن أهل الحرفة وضرائبهم أمام الدولة ، وقد اضطرب نظام هذه النقابات على أيام القوط ، فلما أقبل العرب أعادوا تنظيم هذه النقابات ، وجعلوا على رأس كل منها رئيسا من أهلها يسمى «الأمين» ، وقد انتقل هذا اللفظ الى عجمية الأندلس ، فكان يقال *el alamin*

٢١٤- العريف وكان لهذا التنظيم أثره في استقرار أحوال المدن وأهلها ، وكان معظمهم كما قلنا من أهل الذمة . وقد ظهرت نتائج هذا الاستقرار بصورة خاصة بين الصناع ، اذ تحسنت أحوالهم بصورة لم تكن قبل أيام المسلمين ، وظهر من بينهم أساندة مهرة في صناعاتهم عرف الواحد منهم بالعريف والجمع عرفاء ، وقد انتقل لفظ عريف الى عجمية أهل الأندلس في صورة *alharif* (وتحرف الى *alhariz*) ومنها أهل التشتالية *el alarife* واقتصرت بعد ذلك على رؤساء البنائين ، ولا زال اللفظ باقيا في الاسبانية الى اليوم .

وقد تطورت هذه المصطلحات بعد ذلك تطورا أوقع الكثير من الباحثين في الخطأ ، فخلط بعضهم بين الأمين والمحاسب ، وستحدث عن هذا الأخير في كلامنا على التنظيم الاسلامي العام للأندلس ، وخلطوا بين القاضي والوزير ، لأن لفظ الوزير أخذ معاني خاصة في الأندلس ، منها معنى الأستاذية أو التمكن من صناعة ما ، بل أصبح لفظا من ألفاظ التشريف ، فيقال : الوزير القاضي فلان ، أو الوزير المشرف فلان ، أو الوزير الكاتب وما الى ذلك . ويبدو أن هذا الترخص في استعمال لفظ الوزير ، والقاضي كذلك ، بدأ أولا بين جماعات أهل الذمة ، فكانوا يخاطبون قاضيهم بقولهم : «الوزير القاضي الأفضل دون ملنده بن لسنبتار رحمه الله» أو «الوزير القاضي دمننتقه أنتثلين» ، ومن الغريب أن لفظ القاضي في الاسبانية وهو *Juez* لقي أيضا مثل ذلك الانحدار ، فقد جاء في قاموس بطرس القلعي (*Pedro de Alcalá*) في تعريف لفظ *alarife* : *Juez albañir* (= قاض بناء ، يريد معلم بناء) ، و *Juez de edificios* (= قاضى مبان ، يريد معلم مبان) ^(١) .

٢١٥- الزراع وستحدث في الفصل التالي عن تنظيم العرب للسكان عموما ، ولكن ما دمنا بصدد الكلام عن أهل الذمة ، فلنقل شيئا عن الزراع ، وكان معظمهم أول الأمر من أهل الذمة . لقد أزال العرب النظام الذي كان سائدا أيام القوط والذي كان يجعل الزراع جميعا اما رقيق أرض *Servi* ، أو عمال أرض أحرار أقرب الى الرقيق *ingenui inferiores* ، أو عبيدا *esclavi* فأزال العرب ذلك كله ، فلم يبق الا الأحرار والعبيد أو الأرقاء ، فاذا أسلم الرقيق صار حرا له ما للأحرار من حقوق ، أما رقيق المسلمين الأندلسيين فحكمهم حكم

الرقيق كله في العالم الاسلامي ، وهو معروف . وقد احتفظ العرب بالتنظيم العام للزراع في قرى أو ضياع aldeas .

٢١٦- المسلمون يحلو لبعض المؤرخين أن يصوروا ما أصاب الكنيسة والكنيسة الاسبانية من الأذى على أيدي المسلمين ، ويطلق بعضهم — مثل سيمونت ولاس كاخيجاس — الحديث بالتفصيل عن الكنائس التي تهدمت والمتاعب التي لقيها بعض النصارى على أيدي المسلمين ، ولا يسع القارئ وهو يتتبع ما يقولونه الا أن يأسف اذ يجد مؤرخين محدثين لا زالوا يجرون في مضمار عصب الدين في حديثهم عن أشياء وقعت قبل قرون متطاولة ، خاصة وقد عادت اسبانيا نصرانية ، وأصبح كل ما يتصل باسبانيا الاسلامية تاريخا ماضيا ، وأصبحت المبالغة في العصبية الدينية أو العنصرية مجرد تشويه للتاريخ .

ومن الغريب أن هذه العصبية تشمل عصور ما قبل الاسلام ، ففي كل ما لدينا من التواريخ التي كتبت حديثا لاسبانيا يحاول المؤرخون أن يثبتوا أن اسبانيا كانت على الأقل منذ المجمع الديني الطليطلي الثالث الذي عقد في سنة ٥٨٩ بلدا كاثوليكية خالصا لا شبهة فيه لمذهب مسيحي كثر ، ولا صوت يعارض قواعد هذه العقيدة كما قررها ذلك المجمع ، بل اننا نجد مفكرا طائر الصيت مثل مارثيانو منندز اى پلايو يتصدى لنقد المذهب الآريوسى في حماس المبشر الذى يخشى خطر أقوال آريوس المصرى على العقيدة الكاثوليكية الراهنة ، وهذا وقد ذهب آريوس وذهبت أيامه منذ نصف وثلاثة عشر قرنا (توفى آريوس سنة ٣٣٦ م) ولم يكن الرجل الا مفكرا مسيحيا حاول جهده أن يصل الى الحق بحسب ما انتهى اليه فهمه لنصوص الكتاب المقدس ، والمؤرخون المنصفون ينظرون اليه باجلال ، لا تقديرا لرأيه ، بل لأنه كان أحد الباحثين عن

حقيقة العقيدة المسيحية في عصر كان البابوات والأساقفة وغيرهم من رجال المسيحية يحاولون فهمها وتوضيح قواعدها . واذا ذكرنا أن آريوس ولد سنة ٢٨٠ وأيقع وأخذ يتعرف عقيدته المسيحية حوالى سنة ٣٠٠ وأن المسيحيين جميعا كانوا اذ ذاك يطلبون النجاة في باطن الأرض ، ويقيمون كنائسهم في السرايب والمغاور ، اذا ذكرنا ذلك قدرنا جهده كمفكر وكمؤمن مسيحي ، لأن المسيحية لم يعترف بها ديانة كغيرها من ديانات الامبراطورية الرومانية الا بعد صدور منشور ميلان في سنة ٣١٢ ، ثم ان الذى دحض آراء آريوس وقطعه بالحجة كان مفكرا مصرية آخر هو أثناسيوس المعروف باسم الأنبا طناش ، فقد تولى بطريركية الاسكندرية بعد الأنبا اسكندر ، ونحن عندما نؤرخ للكنيسة المصرية انما ننظر لآريوس — رغم انكار الكنيسة المصرية له — على أنه مفكر جدير بالتقدير ، وشخصية لها قيمتها في تاريخ الفكر المسيحي والانسانى عامة دون أن يملكنا الخوف من أن تعود آرائه فتشوب عقائد الكنيسة القبطية المصرية .

ولكن منندز پلايو وأجوادو بلاى من مؤرخى اسبانيا المحدثين يحملان عليه حملة عنيفة ، ويرددان كلام القديس ايزيدور الاشيلي في حماس كأننا لازلنا اليوم في معركة الآريوسية والكاثوليكية (١) .

وهذه الروح نفسها هى التى تسود ما لدينا اليوم عن أحوال المسيحية ٢١٧- في إسبانيا القوطية الكنيسة أيام القوط ، فلم تكن المسيحية الاسبانية أيام القوط كتلة واحدة : كانت هناك نزعات وآراء معارضة

(١) MARCELINO MENENDEZ y PELAYO, *Historia de los Heterodoxos* (١)

Espanoles, tomo I (Madrid, 1946) pp. 306 sqq.

AGUADO BLEYE, *op. cit.* I p. 363.

وانظر ص ٣٤٧ حيث يقرر بلاى أنه غير آسف على إحراق كتب الآريوسيين وغيرهم من المخالفين ويسخر من أحرار الفكر الذين يأسفون على ضياعها !

ينادى بها جماعات من الناس ، ولم تكن كلها رحمة وسلاما ، فقد كانت هناك اضطرابات ومحاكمات وكان هناك ضحايا ، ولكن هذا كله يسدل عليه ستار كثيف ، فلا ننظر الا باشارات عابرة عنه ، والهدف من ذلك فيما يبدو هو تصوير هذه الكنيسة على أنها كانت رمزا لوحدة الوطن الاسباني وسلامه ، منا يجسم بطبيعة الحال ما أصاب اسبانيا بدخول الاسلام فيها ودخولها في الاسلام ، ويعظم بالتالى قيصة عودتها الى المسيحية .

بل ان أجوادو بلاي ، وهو مؤرخ معاصر له مكانة ، يحاول ٢١٨ - الكنيسة أن ينفي عن الكنيسة القوطية خضوعها للدولة ، وهي حقيقة بسيطة يسلم بها المؤرخون المنصفون لا تضير الكنيسة الكاثوليكية في شيء ، واليك مثلا من حديثه :

« ان الاتحاد الوثيق بين الكنيسة والدولة ، ابتداء من المجمع الطليطى الثالث ، لا يسمح بالقول بأن الكنيسة القوطية كانت كنيسة قومية (يريد أنها كانت كاثوليكية أى عالمية) ، ذلك لأن الملك كان لا يوجهها ولا يحكمها ، ولا يجوز كذلك أن نسمى الدولة القوطية حكومة تيرقراطية ، لأن الكنيسة لم تكن تسود الدولة . حقيقة كان الملك يتدخل في الشؤون الكنسية ، ولكن هذا التدخل يرجع في أصوله الى أيام الامبراطورية وأيام الآريوسية . كان ملوك القوط يدعون المجامع الدينية للانعقاد ، كما كان يفعل ذلك قبلهم الامبراطوران قسطنطين وثيودوسيوس . بل ان ملوك القوط لم يكونوا يدعون الى عقد المجامع فقط ، بل كانوا يحضرون جلسة الافتتاح للمجمع الطليطى يحيط بهم نفر من الحاشية الملكية aula regia ، وكانوا يقرأون الكتاب الملكى tomo regio وهو برنامج الموضوعات التى سيجتها المجمع . وكانت

قرارات المجمع توقع بامضاءات من حضر من رجال الحاشية الى جانب امضاءات الأساقفة والقساوسة ورعاة الكنائس » .

« ولم يكن لمجامع طليطلة سلطة تشريعية فيما يتصل بالشئون المدنية ، بل فى الشئون العقيدية فحسب . ولم يكن للقرارات المتصلة بالعقيدة أثر فى الشئون المدنية الا اذا أقرت ذلك القوانين التى يصدرها الملوك . كانت القرارات فى هذه الحالة تعتبر قوانين ، لا بمحض صدورها عن المجامع ، وانما باقرار الملوك اياها . كان الأساقفة بصفتهم من كبار أهل الدولة يعتبرون جزءا من الحاشية الملكية ، وكانوا تبعاً لذلك جزءا من المحكمة التى تنظر فى الجرائم السياسية والمخالفات التى يرتكبها أهل الطبقة العليا . وقد شاعت هذه الصور من تدخل الملوك فى شئون الكنيسة بعد ذلك بقليل فى كل الدول الأوروبية فى العصر الوسيط . ان تأثير الكنيسة فى قرارات الملوك لم يكن ناشئا عن أن القانون يقرر ذلك ، ولم يكن قائما على أساس من النظام العام ، بل كان سببه الامتياز الفكرى الذى تمتع به رجال الدين ، ولم يقتصر هذا الامتياز على اسبانيا ، بل كان شائعا فى كل بلاد غرب أوروبا » .

ثم يقول بعد ذلك : « ... ان مجمع طليطلة ، بعد انعقاده الرابع فى سنة ٦٣٣ ، وبسبب اعتبار لجنة الكنيسة مبدأ سياسيا ، أصبح محكمة عليا ، ضامنا للملك ورعاياه ، وكانت هذه المحكمة تفرض على الناس احترام شخص الملك ، وأقامت من نفسها سلطانا معدلا لسلطان الملك ، وأوجدت نوعا خاصا من الجرائم ضد الوطن يعاقب بعقوبتين : عقوبة مدنية ولجنة الكنيسة . وقد قال مندز بيدال : ان هذه الملكية الكاثوليكية التى كان للأخوين لياندر ووايزيدور عليها أثر عظيم لا يمكن أن تكون ثيوقراطية . لم يكن رجل الدين يحكم بل يوجه ، وكان ينفع الحاكم

كما ينفع المحكوم : إن التداخل والتشابك بين الكنيسة والدولة كانا أقوى في اسبانيا منهما في أى بلد آخر معاصر ، لأنهما كانا من صنع المجامع ^(١) .

وهذا الكلام — الذى اجتهد العالمان الجليلان في صياغته على هذا النحو الذى يبدو وكأنه « تأملات » أكثر مما هو حقائق تاريخية — يحاول الرد على حقيقة تجمع عليها كتب التاريخ غير الاسبانية ، وقد أوجزها جيون في عبارة بسيطة عندما قال ان اسبانيا القوطية كانت : a priest ridden state « دولة يركبها القساوسة » ، وربما كانت خلاصة ما أراد أجوادو بلاى الرد عليه في عبارته الآتفة الذكر .

لقد عرفت الكنيسة كيف تستغل نصرها بتحويل ريكاريدو الى الكاثوليكية وفرض سلطانها على الدولة ، فاستولت على أرضين وعقارات بلغت خمس الأرض الخصبة في اسبانيا كلها ، وقامت سيفا مسلطا على رؤوس الناس ، كما ستصبح المالكية فيما بعد ، فحرقت كتب المذاهب المخالفة ، وفي مقدمتها المذهب الآريوسى ، وعوقب المعارضون بالقتل والنفى والتشريد وانتزاع أبنائهم منهم وما الى ذلك من العقوبات ^(٢) .

٢١٩ - رأى ولسنا نريد أن نجارى المؤرخ راينهارت دوزى في مبالغته راينهارت دوزى في تصوير سوء حالة الكنيسة وما جر اليه اتحادها مع الدولة في ذلك العصر ، فقد كان دوزى ملحدا يحسب أن حرية الفكر معناها مهاجمة رجال الدين أية كانوا ، ولقد قسا في « تاريخ اسبانيا

(١) MENENDEZ PIDAL, *Historia de España*, tomo III (Madrid, 1940)

Introducción, p. XLI.

AGUADO BLEYE, *op. cit.* p. 366.

MENENDEZ PELAYO, *op. cit.* I p. 352.

(٢)

وهذا المفكر الجليل يبرر ذلك كله ويدافع عنه .

الاسلامية » على رجال الدين جميعا نصارى ومسلمين . ولكننا نكتفى من كلامه بعبارة تغنى عن كلام كثير ، فقد قال بعد أن سخر ما شاء له أسلوبه اللاذع من رجال الدين عندما صاروا الى القوة والسلطان : « ... ومن الآن فصاعدا ، وبعد أن أصبحوا ملاكا لأراض فسيحة تعمرها أعداد غفيرة من رقيق الأرض ، وأصحابا لقصور فاخرة تعج بالعبيد ، تبين القساوسة أنهم أسرفوا في المسير ، وأن زمان تحرير الرقيق لم يحن ، وأنه لن يحين الا بعد انتظار قرون لا أدرى عددها . لقد دهش القديس ايزيدور الفرمى ^(١) وهو متأبد في صحارى الصعيد ، من أن مسيحيا يستطيع أن يملك عبدا ، في حين أن قديسا آخر يحمل اسم ايزيدور أيضا ، هو أسقف اشبيلية المشهور ، الذى كان خلال زمن طويل روح مجامع مليطة الدينية و « فخر الكنيسة الكاثوليكية » كما قال الآباء الذين اجتمعوا في المجمع الثامن ، لا يردد عندما يتحدث عن الرق آراء سبيه وانما آراء حكماء الأعصر القديمة ، آراء أرسطو وشيشيرون . لقد قال الفيلسوف الاغريقى : « ان الطبيعة خلقت بعض الناس ليحكموا وبعضهم الآخر ليطيعوا » ، وقال الفيلسوف الرومانى : « ليس هناك ظلم في أن يقوم بالخدمة أولئك الذين لا يعرفون كيف يحكمون أنفسهم » ، وايزيدور الاشبيلي يقول نفس الشيء :

acqus Deus ideo discevit hominibus vitam, alios servos constituens, alius dominos, ut licentia male agendi servorum potestate dominantium restringatur.

(= ... ولهذا السبب أيضا ميز الله مصائر الناس بعضهم على بعض :

(١) هو القديس Sanctus Isidorus Pelusii نسبة إلى بلوزيوم وهي القرية . ولهذا

سميائه الفرمى .

فصار بعضهم عبيدا ، وصار بعضهم سادة ، وذلك حتى يكون سلطان السادة مانعا لريان الشر الذى يصدر عن العبيد) .

ولكنه يناقض نفسه ، لأنه يقرر أن كل الناس سواسية أمام الله وأن خطيئة الانسان الأول ، وهو يثربها أصل العبودية ، قد زالت بالخلاص (بدخول المسيحية) . « واننا لبعيدون كل البعد عن الرغبة فى لوم رجال الدين اذ لم يعتقوا العبيد ، وعن الرغبة فى مجادلة رأى أولئك الذين يؤكدون أن العبد غير قادر على عبء الحرية . نحن لا نجادل ، وانما نكتفى بأن نقرر حقيقة كان لها نتائج هامة ، وهى أن رجال الدين بسبب تناقضهم ، لم يحتقوا آمال الرقيق . وقد ساء حال أولئك المساكين بدلا من أن يتحسن ، لقد اتخذهم الجرمان — مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من الشعوب الجرمانية فى ولايات الدولة الرومانية الأخرى — خدما خاصا لهم وفرضوا عليهم السخرة . وجدير بنا الاشارة الى عُرْف جدِّ ولم يكن معروفا أيام الرومان فيما يبدو ، وهو أن تُلزَم أسرة من الرقيق بأداء خدمة معينة الى السيد بصورة وراثية ، فتقوم أسرة بعينها بزراعة الأرض للسيد ، ويخلف الآباء الأبناء فى ذلك ، وتقوم أسرة أخرى على نفس المنوال بالصيد ، وثالثة بحراسة قطعان الماشية ، ورابعة بأعمال النجارة وخامسة بالجدادة وهكذا » (١) :

« ولم يكن الرقيق أو العبد ليستطيع الزواج بدون موافقة سيده ، فاذا تزوج دون أن يحصل على هذه الموافقة اعتبر زواجه كأن لم يكن ، وفصل بينه وبين زوجته بالقوة ، واذا تزوج رجل من طبقة الرقيق امرأة فى ملك سيد آخر تقاسم السيدان الأولاد مناصفة . واذا فقد كان

(١) انظر :

MUÑOZ, *Fueros*, p. 123-125.

قانون القوط فى هذه الحالات أقل انسانية من قوانين الامبراطورية الرومانية ، لأن الامبراطور قسطنطين حرم التفريق بين النساء وأزواجهن وبين الآباء وأبنائهم والاخوة واخوتهم (١) وعلى العموم لا يمكن الشك فى أن حالة طبقة الرقيق لم تكن بالغة القسوة تحت سلطان القوط ، [ويتبين ذلك] عندما تتأمل القوانين العديدة القاسية التى أصدرها القوط ضد الرقيق والعبيد الآبقين ، وعندما نرى رقيق أشتريس — وكانت أحوالهم فيها قد بقيت على ما كانت عليه فى اسبانيا كلها دون تغيير — يقومون بثورة عامة ضد سادتهم » (٢) .

ثم يستطرد دوزى قائلا : « واذا كان القساوسة لم يحسنوا بصورة ما أحوال الرقيق ، فانهم لم يفعلوا شيئا أيضا للطبقة الوسطى ، ظل أهل هذه الطبقة (الكوريالس Curiales) على ما كانوا عليه : تابعين للأرض التى يعيشون عليها . وعلاوة على ذلك ، لم يعد من حق أى مواطن أن يبيع ممتلكاته . لقد انتقل الحرص على جباية أموال الدولة من أباطرة الرومان الى ملوك القوط ، ضمن ما انتقل اليهم من تقاليد الرومان ، بل انه ل يبدو أن التلاميذ (وهم القوط) لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم (وهم الرومان) فى هذا المضمار . ظلت الطبقة الوسطى اذن فى شقائها وسوء أحوالها ، ولا تنكر قرارات مجامع طليطلة ذلك » .

(١) انظر :

MUÑOZ, *Del Estado de las personas en los reinos de Asturias y Leon*

Forum Iudicum, V, 4, 19 : *De non alienandis privatorum et curialem rebus*.

وهذه التعليقات الثلاثة الأخيرة واردة بنصها على هامش كلام دوزى الذى نتابعه :

Cf: R. DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne* (2e éd. dirigée par LÉV-PROVENÇAL. Leyde, 1932) vol. I, p. 265-266.

« وبقيت كل الجروح التي كاذ الناس يثنون منها في العصور الرومانية : ظلت الملكية محصورة في أيد قليلة (في صورة أقطاعيات ضخمة) ، وبقي الرق بصورة عامة ، ونتيجة لذلك ظل العمل في الأرض نصيب الزراع وملك الأراضي نصيب الملاك » (١) .

والواقع أن اتحاد الدولة والكنيسة ، بعد تحول ريكاويدو ٢٢٠ - الحالة العامة بعد اتحاد الكنيسة والدولة إلى الكاثوليكية لم يجلب معه السلام واتحاد الشعب كما يتصور بعض المؤرخين ، ولم يأت وصول رجال الدين إلى السلطان إلا بالنتائج الطبيعية التي نتجت عن مثل هذه الظاهرة على طول التاريخ : اضطهاد المخالفين والقسوة عليهم والمحاكمات الدينية واثراء رجال الدين وتحول الدين إلى أداة للحكم ، وتعرض لكل ما تتعرض له أدوات الحكم كلها من نزوع إلى الاستبداد ، وأخطاء في السياسة ، وتعرض رجال الدين للنقد والمخاصات ونفور الناس . وقد حدث مثل ذلك في الاسلام ، عندما وصل المعتزلة إلى السلطان أيام المأمون ، وعندما قامت دولة المالكية في الأندلس ابتداء من أيام عبد الرحمن الأوسط .

ومع ذلك ، فإن الاتجاه الغالب على التأريخ الإسباني للعصر القوطي ينكر هذه الحقيقة ، ويتصدى لدحضها بالحماس والبلاغة والقسوة في الحكم على المخالفين ، لا بحقائق التاريخ . ويبدو هذا الاتجاه في أظهر صورة في كلام كاتب إسبانيًا الأكبر في العصور الحديثة منندز پلايو ، واليك مثلاً من كلامه الذي يذكرنا بعنف أبي محمد على بن حزم في مجادلاته مع خصومه : « يقولون ان المجامع الدينية اغتصبت

اختصاصات ليست من حقها . من الذي يستطيع تأييد هذا السخف ؟ في أي ناحية كان العلم وفي أيها كان الجهل ؟ لمن كانت الكنيسة تتنازل عن وظيفة تعليم أبنائها وتوجيههم ؟ أكانت تنزل عنه لأتباع ويترك (Los Witericos) ووخشندش Los Chindasvintos أو إيرفيج Los Ervigios الذين وصلوا إلى الحكم عن طريق قتل الملك السابق أو بواسطة حيلة حقيرة تحرمه من التاج ؟ لقد كانت الانسانية تستطيع أن تحقق تقدما واسعا في حكم أمثال أولئك الأمراء ! ان وصاية المجامع على الدولة لم تفرض فرضا ولم تنتزع انتزاعا ، وانما ساقها القانون الإلهي وسعى إليها ملوك القوط أنفسهم » .

« لم يوافق كل الشعب الآريوسى على الانقضاء عن عقيدته ، وذلك لسوء حظه وحظ الملكية القوطية ، فبالإضافة إلى بعض الدخلاء من الأساقفة ، كان هناك عنصر محارب معاد (للكاثوليكية) ولا يمكن التفاهم معه ، عنصر لم ينسجم مع الحضارة الإسبانية الرومانية ، التي لم يستطع ادراك كنهها ، ولم يستمع إلى تعاليم الكنيسة ، بل تصدى لاضطهادها قدر ما استطاع عن طريق مؤامرات أو ثورات ضد الملوك الذين كانوا يؤيدونها . هذه المعارضة العسكرية الكافرة تمثلت أولا في صورة ويترك Witerico وتمثلت ظاهرة إلى حد ما في اغتصاب وخشندش Chindasvinto للعرش ، وفي الحرب التي شنها هيلديريك وپولس (Hilderico y Paulo) على الملك « وامبكا » ، وتمثلت قبل كل شيء في موقف غيطشة وأولاده ، أو أولئك الخونة — أيا كانوا — الذين فتحوا للعرب أبواب الزقاق . وقد وصلوا دون شك إلى ادراك ما طلبوا من الانتقام الوضع ، وزالوا من الوجود كشعب جزاء وفاقا لهم على ما كان من شرهم وخبثهم . ان الشعب الذي نهض لاسترداد أرض الوطن

شبرا شبرا كان شعبا اسبانيا رومانيا ، اذ اندمج فيه القوط الطيبون اندماجا تاما ، أما عصابة النبلاء الذين باعوا وطنهم فقد أغرق الله ذكرهم في بحر التاريخ» (١) .

٢٢١- الخلافتان وهذا الكلام يفتح لنا بابا في تفسير سرعة انتشار الاسلام الدينية والفتح في الأندلس ، فهو — على ما فيه من مجافاة « لسياسة الإسلام العلم » كما يقول أصحابنا الأندلسيون في تقديم لابن حزم — يربط بين تصرف غيطشة وأولاده والنفور الذي ساد بعض جماعات من أهل اسبانيا القوطية من استبداد الكنيسة واستعانتها بسلطان الملوك . وعلى ضوء هذه الاشارات نفهم أن عداء غيطشة لايخيكنا كان من بعض نواحيه نفورا من سلطان الكنيسة واتجاهها الى فرض مذهبها بالقوة . واذا نحن ذهبنا تتعمق الأمر تبين لنا أن الأمر في اسبانيا قبيح الاسلام كان يشبه الى حد بعيد الموقف في مصر قبيل الفتح ، فقد كانت منازعات المذاهب في مصر على أشدها ، وكانت مصر ابتداء من القرن الثالث المسيحي في صراع متصل مع الدولة البيزنطية ، وكان المصريون — قبل أن تتدخل الدولة البيزنطية في نزاع العقائد — يسوون مشاكلهم بأيديهم ، كما حدث في الصراع بين الآريوسية والاثنايسوسية ، اذ انتصرت الأخيرة وتلاشى مذهب آريوس ، وتفرق الباقرن من المتأثرين به ، ومنهم أوريجانس ، الذي ذهب الى أنطاكيا حيث تكونت حوله مدرسة كان لها في تاريخ المسيحية الشرقية تاريخ طويل ، واتحد المصريون مع أهل الاسكندرية في محاربة كل بدعة تناقض المذهب الأرثوذكسي كما تقرر في مجمعي نيقية وافيسوس

(١) MENENDEZ PELAYO, Historia de los heterodoxos ... I, p. 347-348.

الأول ، فلما تدخلت الدولة وتصدت لحماية الأرثوذكسية ، وأخذت تفرض على الناس مذاهب معينة ، كما حدث في مجمع افيسوس الثاني ، بدأ المصريون وأنصارهم يتخذون موقفا معارضا للدولة ، بدافع التحدي لسلطانها في صورة معارضة لسلطانها السياسي ، وظهر هذا بصورة واضحة في مجمع خلقيدونية الذي تصورت كنيسة القسطنطينية أنها قضت فيه على منافستها كنيسة الاسكندرية فخاب ظنها ، لأن النزاع تحول بعد ذلك الى نزاع قومي ، وصمد المصريون وتحولوا شيئا فشيئا نحو المونوفيزية وثبتوا عليها رغم اضطهاد كيرلس ، ثم انضم قيرس الى أقباط مصر ، ولم يجد مخرجا من أذى الدولة اياه الا بالاتفاق مع العرب ، اذ رجا أن يجد في حكمهم خلاصا من اضطهاد الدولة وتدخلها الدائم في شئون العقيدة .

وقد درجنا في دراستنا لتاريخ مصر على أن ننظر الى الخلافتان المذهبية التي كانت متأججة بين مصر والدولة البيزنطية على أنها من آكد الأسباب في تيسير فتح مصر على العرب أولا ، وفي دخول المصريين في الاسلام بعد ذلك . فأما عن أثر هذه الخلافتان في تيسير الفتح فأمر ظاهر لا يحتاج الى شرح طويل ، وأما عن تيسيرها دخول المصريين في الاسلام فنقول فيه ان مناقشات رجال الدين في موضوع طبيعة المسيح واجتهاد كل صاحب مذهب في اجتذاب الناس الى رأيه وتغيير الناس من مذاهب الآخرين ، ثم تدخل الدولة وحرصها على فرض آراء معينة في ذلك الموضوع ، كل ذلك أوقع الناس في حيرة كبرى من أمر دينهم ، وتضاربت الآراء في أذهانهم ، فلم يعرفوا أيها الصحيح ، ولم يعرفوا كذلك بأيها يأخذون ليضمنوا سلامة عقيدتهم من ناحية وسلامة أبدانهم من أذى الحكام من ناحية أخرى . فاذا هم في ذلك اذ دخل عليهم العرب بالاسلام

ببساطته ويسر أصوله ، فبدا لهم وكأنه مخرج من ذلك الحرج كله ، ووجدوه يقرر نبوة عيسى عليه السلام ويلغى مسألة الطبيعتين باستنكاره نبوة المسيح لله وتقريره أنه نبي كغيره من الأنبياء ، وتأكيده ذلك بنفسه مسألة صلب المسيح مما ينقض نظرية الخلاص تقضا مبرما . وكان القول « بالخلاص » عبئا ثقيلا على نفوس الناس ، اذ لم يتصوروا كيف يخلق الواحد منهم محملا بآثم خطيئة الانسان الأول ، وكيف ينبغي عليه أن يسعى في خلاص روحه بالايمان بالصلب أولا ثم بشراء نصيبه من الخطيئة بألوان من الحرمان والعذاب من بينها تلقى الشهادة ثانيا .

وينبغي أن نذكر ذلك كله عند دراستنا لفتح المسلمين للأندلس ودخول أهله في الاسلام ؛ فأما عن أثر الأحوال في اسبانيا في تيسير الفتح فقد فسرناه عندما قلنا ان القوط كانوا طبقة حاكمة متعالية منفصلة عن الناس ، وكان حكمهم ثقيلا على الناس ، فلما كسر العرب القوط دانت لهم البلاد ، كما دانت لهم مصر بهزيمة البيزنطيين . ولا عبرة بالقول بأن القوط غيروا سياستهم حيال الناس بعد قرارات مجمع طليطلة الثالث في سنة ٥٨٩ وبعد إلغاء الملك رِخِسْنِفِنْتُو للقانون الذى يحرم زواج القوط بأهل البلاد بعد ذلك بسنوات قليلة ، فان سلوك الناس لا يتغير بالقوانين بل بفعل الزمن ، وكان ما بين هذه التشريعات الطليطلية ودخول الاسلام زمنا قصيرا لا يسمح بحدوث هذا التغير الحاسم الذى يتغنى به منندذ پلايو ^(١) ، فقد ظل القوط حكاما معترين بالسلطان وان أشركوا معهم رجال الدين فيه ، ولو أن أيام القوط طالت لكان من الطبيعى أن يحدث التمازج الذى افترضه منندذ پلايو ، ولكن العرب دخلوا

الأندلس والقوط على ما هم عليه من الانفراد بالسلطان ، فكانت المعركة بينهم وبين القوط لا بينهم وبين الايبيريين الرومان ، ولهذا كانت قصيرة المدى ، وساعد على تقصير مداها ما كان من ضعف القوط واختلافهم فيما بين بعضهم وبعض . ويقرر ذلك منندذ پلايو بقوله : « لقد كان احرص نبلاء القوط على الانتقام (بعضهم من بعض) ثمراته الطبيعية . وربما لم يكن أولئك النبلاء يحسبون أن عملهم هذا سيؤدى الى هذه النتائج البعيدة ، فقد توجت الغارة العربية التى قام بها طارق وموسى بنصر سريع عجب ، وذلك بفضل العناصر المعادية التى كانت تغل فى اسبانيا ، وفتحت المدن والحصون عنوة أو صلحا ، واستسلمت فى أوريوالة المقاومة الضعيفة التى حاولها تدمير . وهو القوطى الوحيد الذى حاول أن يرفع رأسه وسط الدمار العام ، وقامت الحاميات العربية واليهودية فى اشيلية وقرطبة وطليطلة وباجة ... » ^(١) .

٢٢٢ - رأى فى واذن فقد كان للخلافت الدينية أثر بعيد فى تيسير الفتح الخلافت الدينية الاسلامى للأندلس ، كما كان لها نفس الأثر فى فتح مصر . المسيحية والمؤرخون الاسبان يستنكرون هذه الخلافت ويحصلون حملة بالغة على ما خالف العقيدة الكاثوليكية منها ، ويصفون أصحابها بالخيانة والاجرام والمروق وما الى ذلك ، ولكنهم لو أمعنوا النظر لبدأ لهم الأمر أهون من ذلك بكثير . فان المسيحية نفسها كانت الى ذلك الحين موضع مناقشات ، وكانت أصولها غير واضحة أو محدودة ، وكانت المجامع الدينية فى الشرق والغرب تجتهد فى تحديد أركان العقيدة ، وكل مجمع ينشر على الناس رأيا يقرر أنه الصحيح ويحاول أن يحل

الناس على الأخذ به ، وكان الخلاف بين ما تصدره هذه المجامع يبدو في بعض الأحيان وكأن كلا منها ينادى بدين يختلف عما ينادى به الآخر .

كانت الكنيسة الشرقية تعتبر مذهبها هو المذهب القويم (أورثوذكس) ، والكنيسة الغربية تعتبر مذهبها عالميا (كاثوليكي) ، وكانت كل منهما تكفر الأخرى ، بل كان في داخل كل منهما أكثر من مذهب ، ففي الشرق كانت عشرات المذاهب أظهرها النسطورية والمونوفيزية والخليقدونية ، وفي الغرب كانت الحرب المذهبية بين الأسقفيات بعضها وبعض ، وبينها وبين البابوية ، وقد كانت هذه الأخيرة لا تعنى عقيدة فقط وإنما عقيدة ودولة ، فقد كان بابوات روما يرون اذ ذاك أنهم ورثة الرسول بطرس من ناحية وورثة أباطرة الرومان من ناحية أخرى ، ولم يكن ذلك خافيا على أحد ، فكان الملوك يؤيدون بابوات روما أو يناهضونهم تبعا لمصالح عروشهم ، فقد أيدهم الفرنجة وحاربهم اللومبارد ، وكانت علاقاتهم بكنيسة طليطلة علاقة ولاء يشوبه الحذر ، وبين الحين والحين ، كانت الخلافات تقع بين البابوات ومطارنة طليطلة ، فقد كتب يوليافوس مطران طليطلة الى البابا في سنة ٦٥٣ يصفه « بجهل مخجل » وكانت الخلافات على أشدها في مسائل العقيدة داخل الكنيسة الاسبانية : حول مسألة الرؤيا Apocalipsis أو مركز كنيسة روما (كنيسة الرسول بطرس) أو قداسة التعميد de sacramento baptismatis وما الى ذلك ، وكانت المناقشات بين الأساقفة حول هذه الموضوعات تطول وتشتد ، وتنتهي عادة بقرار من مجمع طليطلة يفرض على الناس فرضا .

فاذا كان هذا حال البابوات والمطارنة والأساقفة من الجيرة في مسائل

العقيدة فما بالنا بغير رجال الدين من عامة الناس ، وكانت غالبيتهم العظمى لا تقرأ ولا تكتب ولا تفهم من اللاتينية حرفا ؟ كيف نتظر أن تكون أمور العقيدة مقررة في أذهانهم بهذه الصورة التي يفترضها مؤرخو اسبانيا ؟ إنما الطبيعي أن تكون أذهانهم مبيلة كما كانت حال غيرهم من عامة المسيحيين في ذلك العصر ، وليس أدل على ذلك من انتشار السحر والكهانة والشعبذة في اسبانيا وغالة ، وهي ظواهر لا تعم الا في أزمنة الاضطراب السياسي وانتشار المخاوف وضعف الايمان وهبوط مستوى العقائد . ولم يقبل عليها عامة الناس فقط بل الملوك والنبلاء وبعض رجال الدين ، وابتداء من المجمع الطليطلي الثالث لا تخلو قرارات مجمع منها من بضع مواد تحرم السحر والكهانة والتوسل بالأشجار والأحجار وما اليها لكف أذى الأرواح الشريرة ، بل ان المجمع الخامس اعتبر من يمارس السحر أو يلجأ الى الكهان ملعوناً من الكنيسة محروماً من رحمة الله ، وانا لنلمح في بعض قرارات المجامع ضد السحر أن بعض الناس كانوا يلجأون اليه ليتخلصوا من الحكام ، وأن بعضهم الآخر كان يقدم القرابين للشياطين ، بل انحدر الناس الى الوثنية الصريحة حتى اضطر المجمع الطليطلي الثاني عشر عام ٦٨١ الى حفزهم القساوسة على القضاء على عبادة الأصنام ، ولم ينحسم الأمر مع ذلك فنجد المجمع السادس عشر يحرم من رحمة الله عبدة الأوثان والأحجار وعيون الماء والأشجار والعرافين والسحرة ، وقرر المجمع الحادي والعشرون طرد القساوسة الذين يصنعون الأحجية والرقى (١) .

لم تكن النصرانية في اسبانيا القوطية اذن بالشمول الذي تتصوره ،

ولم تكن العقيدة المسيحية واضحة محددة المعالم لعامة الناس ، وإنما كانت القلوب في حيرة والعقول تتلمس طريقها لتفهم ما يلقى إليها ، وكانت الخلافات المذهبية كثيرة متضاربة ، وقد قامت مجامع طليطلة بجهد عظيم في سبيل تحديد أصول العقيدة ، وقامت تفرض رأيها بالقوة والعنف ، فكان لذلك أثره الطبيعي : نفر الكثيرون منها وأخذوا يعارضونها ، ولما كان الملوك يؤيدون الكنيسة ويأتمرون بأمرها ، فقد أصبحت المعارضة الدينية معارضة سياسية أيضا . ولا شك أن الخلاف بين بيتي غيظشة واخيك كان له وجهه الديني ، والأسقف لذريق الطليطلى يؤيد ذلك فيقول : « ان غيظشة لم يكن طاغية بغضا فحسب ، بل كان ملكا منشقا على الكنيسة وثائرا ، يؤيد اليهود ويحاييهم ، ويجمع مجلسا في طليطلة ، ويصدر قرارات منكرة ، ويرد على تحذيرات البابا بفصل مملكته عن البابوية ، ويصدر قرارا يحرم به على رعاياه الاعتراف بسلطان البابا ويشير غضب الكنيسة بتعيين قريبه أوبه Oppas مطرانا لطليطلة . فقد حشره في هذه الوظيفة حشرا روع الناس ، وكان يحتل كرسى المطرانية قبل ذلك سنڨررد (الذى عاد اليه عندما اعتلى لذريق العرش) وقتل فافله Fávila دوق كنتبريه وسمل عيني ثيودوفريدو Theodofredo وهدم أسوار المدن وأحرق السلاح ، لا حبا في السلام ، كما زعم بعض المولعين بالمتناقضات ، ولكن ليحول دون قيام الثورات على سلطانه المستبد » (١) .

ولقد أعفى أصحاب هذه المذاهب والآراء من اضطهاد ٢٢٣ - الإسلام يضع حداً الكنيسة والدولة عندما صار الأمر للمسلمين ، فقد دخلت للاضطهادات الغالبية العظمى من أهل البلاد في الاسلام ، اذ وجدت فيه الدينية المسيحية حلا سعيدا مريحا للمشكلة العقيدية . وتلك ظاهرة واسعة المدى لا ينبغي أن تغيب عن نظر أحد ممن يدرسون تاريخ انتشار الاسلام : كانت المشكلة الدينية هما ناصبا لكثيرين جدا من المسيحيين في تلك الأعصر . فأما العوام والبسطاء فقد أراحوا أنفسهم من العناء ولم يتعبوا أنفسهم في مسائل الطبيعة والطبيعتين وما يترتب عليهما ، ونجوا بأجسامهم كذلك من سلطان الحاكمين الذين كانوا يخرجون كل يوم برأى جديد في هذه المشاكل ، وأخذوا يرددون ما يقال لهم أو صاغوا العقيدة الجديدة في قالب الوثنية القديمة . وأما الأقلية المفكرة فكان بلاؤها عظيما ، اذ كانت تصر على أن تفهم دينها في حين أصر رجال الدين على أن يفهموه نيابة عنهم وما عليهم الا التصديق والترديد . وهذا الكلام ينطبق على كل بلاد المسيحية في ذلك العصر .

ثم جاء الاسلام يقدم لهم حلا يطمئن اليه معظم الناس وينجو به معظم القلقين ، بل جاء يعرض حماية لمن أراد أن يقول قولاً لا ترضى عنه الكنيسة ، فأمنت البقية الباقية من النساطرة في العراق وبعض نواحي الشام ، وأمن المونوفيزيون في مصر والشام ، وأمن أصحاب الأقوال المختلفة في اسبانيا . وفي ظلال الخلفاء قال يوحنا الدمشقي ما شاء له القول ، وتلفس اسيرايندوس في الأندلس ما شاءت له الفلسفة ، دون أن يخشى أحد منهم أن يحدث له ما حدث لجريجوريوس حاكم قرطاجنة افريقية البيزنطى سنة ٦٤١ ميلادية ، فقد كان رجلا متدينا وأرثوذكسيا

مخلصاً ، وكان يعارض كل رأى يناقض المذهب الأرثوذكسى كما أقرته الدولة أيام قنسطنطين الثالث ، ثم قتل قنسطنطين هذا فجأة في مايو سنة ٦٤١ وتولى العرش هرقلوناس وقامت بالوصاية عليه أمه مارتينه ، فأصدرت أمراً بالارتداد الى مذهب هرقل ، وكان مونوثيليا ، ووصل الخبر الى جريجوريوس فأنكره ، حاسبا أنه اشاعة ، « وقام في الناس يؤكد لهم أن الأوامر بمطازدة الأرثوذكسية ان هى الا وسيلة يراد بها النيل من الامبراطورية المؤمنة الظاهرة الذيل ، وأراد أن يؤكد للناس مقالته ، فحضهم على الاجتهاد في تتبع المونوثيليين واضطهادهم ، غير عالم أن اليوم يومهم ، فلم تكذب الأخبار بأفاعيله تصل القسطنطينية ، حتى دعى الى هناك ليحاسب أعسر الحساب على ما اقترف من جرم ، فرحل الرجل الى القسطنطينية ، وهو — من حيرته — لا يكاد يعرف لنفسه مصيراً » (١) .

وربما بدا غريباً أن يقال ان دخول المسلمين هذه البلاد قد وضع حداً للاضطهادات الدينية فيها ، ولكن هذا هو الواقع . فان المسلمين تركوا المسيحيين الذين أرادوا أن يظلوا على دينهم أحراراً يفعلون ما يشاءون ، ولم تجد البابوية ولا رجال الدين وسيلة لأذى المخالفين ، فقتعت بالشئ الوحيد المعقول : المجادلة والأخذ والرد ، فبينما كانت اللعنة الأبدية والقتل والسجن والتشريد نصيب من يخالف الرأى الرسمى للبابوية والمجامع أيام القوط ، نجد البابا ورجاله يكتبون بخطابات يدحسون بها آراء اليباندوس Elipandus مطران طليطلة الذى قال بعد الفتح العربى بقليل ان المسيح ، من الناحية البشرية ، كان ابناً لله بالتبني فحسب :

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) ص ٤٥ .

“(Christus) Unigenitus autem vocatur secundum divinitatis excellentiam, quia sine fratribus. Primogenitus secundum susceptionem hominis, in qua per adoptionem gratiae fratres habere dignatus est, de quibus esset primogenitus”.

وهى مقالة لو نطق بها أحد في أيام القوط لكان جزاؤه القتل ، ولكن البابا هديران الأول ورجاله لم يستطيعوا الا حض المخلصين لهم من رجال الدين على مطاردة هذا الرأى الذى انتشر حتى آمن به نفر من نصارى أشتريس وكنتبرية ممن كانوا خارجين عن طاعة المسلمين ، وكتب ايتريوس Heterius كتاباً في الرد عليه :

Liber Etherii adversus Elipandum, sive de adoptione Christi filii dei.

وقد استمرت هذه الآراء تظهر وتختفى خلال العصور الاسلامية ، ولم يكن لأحدها من الصدى أكثر مما يكون لرأى يطرح للناس ، فيؤيده من يريد وينصرف عنه من يريد ، ولا يبقى آخر الأمر الا الزأى الذى يقبله العقل ويطمئن اليه القلب ، ولو كانت هناك المجامع وسلطان الدولة لأصبح لكل رأى منها فرقة كما كان الأمر أيام الدولة البيزنطية ، اذ أنه لا يحيى الآراء ويقوى المذاهب شئ كالاضطهاد . وقد وقفت الدولة الاسلامية في الأندلس موقف الحياد الكامل ، ولم تفعل فعل الدولة العباسية مثلاً عندما ناصرت النساطرة على من سواهم . وقد بلغ من عدم حقل الدولة الاسلامية في الأندلس لهذه المذاهب ، ولآراء نصارى الأندلس جملة ، أن ضاق ذرع المظهرين من رجال الدين بهذه الدولة التى تغرى المسيحيين بتسامحها على دخول الاسلام ، ولا يقرأ أحد من أهلها شيئاً مما كان رجال الدين هؤلاء يكتبونه في قد الاسلام ويملاونه بالطن الجارح !

لقد شكّا الراهب ألبرت القرطبي من أن أحدا من اخوانه النصراني لا يقرأ اللاتينية أو يلقي بالا الى الكتب المقدسة المكتوبة بها ، لأن الناس في الأندلس كانوا في شغل عن ذلك بالعربية ودراستها ومحاولة التمكن منها ، فلما لم يستمع أحد لشكائهم أخذ يحرض المسيحيين على التحرش بالإسلام والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم ، فجعل نفر من النصراني يفعلون ذلك ويعرضون أنفسهم للأذى ، فكانت محنة نصراني قرطبة أولا ثم طليطلة ثانيا ، وهى الفتنة الوحيدة من نوعها في التاريخ ، لأن الغالب أن تضطهد الأغلبيّة الحاكمة بالطعن في مقدساتها ، ولم يدفع هذا النفر الا أن تضطهد الأغلبيّة الحاكمة بالطعن في مقدساتها ، ولم يدفع هذا النفر من رجال الدين المسيحيين الى تحريض الناس عليها الا هذا التسامح الذى جرى عليه أمراء بنى أمية في الأندلس . وهو تسامح بلغ حد الإهمال ، حتى شعر رجال الدين أن أمرهم قد ضاع فلا هم يجدون سبيلا الى الحكم ، ولا هم يملكون الوسيلة الى السيطرة على عقول الجماهير باظهار براعتهم في مسائل الدين ، فلم يجدوا طريقا للخروج من ذلك الخمول الا بركوب هذا المركب الوعر .

٢٢٤ - أثر ولقد ذهب سيمونيت ومن تبعه الى القول بأن كل ما ظهر للإسلام فنصراية بين نصراني الأندلس خلال العصور الإسلامية من الآراء الأندلس المخالفة لرأى كنيسة روما انما كان أثرا من آثار الإسلام في نصراني الأندلس ، وليس ذلك من الضروري ، لأن المسيحية نفسها ضمت كل لون من المذاهب والآراء قبل ظهور الإسلام ، مثال ذلك أن مذهب البياندوس - الذى أشرنا اليه - أقرب ما يكون الى قول

النسطورية ، وقد عرفت اسبانيا النسطورية قبل مجيء الإسلام^(١) ، ومثال ذلك أيضا أن القس اسبيراندوس Espirandus وكان من شيوخ الكنيسة الإسبانية في أوائل القرن التاسع الميلادي (أى في أيام الأمير الحكم بن هشام المعروف بالربضى) ، كتب رسالة صغيرة « ضد بعض المذاهب المنحرفة التى ظهرت في هذه الفترة التعيسة » يقول أصحابها بانكار سلطان أنبياء الكنيسة وعلمائها ، وجرءوا على أن يضعوا ألوهية المسيح موضع الشك ، وعلى انكار عقيدة الثالوث ، اذ أضلتهم الآراء الإسلامية » كما يقول سيمونيت في أسلوبه المقذع الجاف ، وعنوان رسالة اسبيراندوس :

Speraindeo Abbas contra haereticos quosdam negantes trinitatem personarum in unitate substantiae atque divinitatem in Christo^(٢) .

ولا نستطيع القطع بأن هذه المذاهب كانت أثرا من آثار الإسلام ، لأن هذه الآراء نفسها ظهرت في المسيحية في المشرق والمغرب قبل ظهور الإسلام ، ولا يستبعد أن يكون وجود الإسلام في الأندلس قد أعطى أصحابها حججا وآراء وقوى مركزهم .

* * *

واذن فلم تكن المسيحية في اسبانيا قبل دخول الإسلام ٢٢٥ - المسلمون ثابتة الأركان ولا موحدة الكلمة ولا متمكنة في قلوب الناس جميعا على النحو الذى يصوره المؤرخون عادة ، بل لم يكن كل النصراني بآمنين على أنفسهم ولا راضين عن الوضع الذى

(١) انظر عن النسطورية في إسبانيا :

MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. I p. 313 sqq.

SIMONET, Mozárabes, p. 341-342.

(٢)

كانت عليه . ومن هنا فانه يبدو لنا أن ما يسرف فيه بعض المؤرخين من الكلام عما أصاب المسيحية على أيدي المسلمين مبالغ فيه ان لم يكن مناقضا للحقيقة والواقع . حقيقة أن المسلمين اعتبروا أملاك الكنائس التي تركها أساقفتها وقساوستها وفروا ملكا للدولة ، وقصروا نفوذ رجال الدين على الدين ، وذلك لا يعنى أذى المسيحية والمسيحيين ، فقد كانت الكنيسة كما رأينا تملك نحو خمس الأرض العامرة ، وكان رجال الدين يتولون الحكم باسم الملوك ، ويتعرضون لكل ما يتعرض له أصحاب الحكم من أخطاء وعداوات ، وليس ذلك من صالح الدين في شيء . بل من الغريب أن أولئك الذين يتهمون العرب بأنهم خربوا عشرين أو ثلاثين كنيسة يفعلون ذلك باسم حرية الفكر وحرية العقيدة ، ونحن جديرون بأن نسألهم : كم مسجداً بقى في اسبانيا بعد أن أصبحت السيادة فيها للنصرانية ؟

كان في اسبانيا على أيام القوط ست كنائس جامعة على رأس كل منها مطران ، وكانت هذه الكنائس الست تقوم في قواعد الأقسام الادارية الكبرى كما كانت على أيام الرومان ، وهى : طركونة وماردة واشبيلية وافراغة وقرطاجنة وطليلة ، ويبدو أن مجمع طليطلة الثانى عشر قد اعتبر مطرانية طليطلة رأس المطرانيات جميعا .

ثم تلى ذلك الأسقفيات وعددها احدى وعشرون في اسبانيا القرطاجنية ، ومن المفيد أن نذكرها هنا ، لأن معظمها سيكون قواعد كور في التنظيم الادارى الاسلامى ، وسنذكرها بأسمائها اللاتينية وتتبع كل اسم بمقابله العربى ان وجد ثم القشتالى الذى أخذ عن الصيغة العربية في بعض الحالات ، وبقي الى اليوم :

Guadix	Acci وادى آش
Arcábrica (عاصمة إقليم كونيكا اليونانى)	Arcábrica أركبيقة
Baeza	Beacio أو Biatia بياسة
Baza	Boasti بسطة
Bigastro	Bigastra (فى مرسية)
Cartagena	Cartago قرطاجنة
Cazlona	Castulo قسطلونة
Alcalá de Henares	Compluto مدينة المائدة
Denia	Diania دانية
Elche	Illici إلس
La Guardia, Jaen	Mentesa منتيشة
Granatula, Ciudad Real	Oreto أوريط
Osma	Oxuma أشونة
Palencia	Palentia —
Játiva	Setabis شاطبة
Segovia	Segobia شقوبية
Segorbe	Segòbriga —
Sogüenza	Segontia —
Valencia	Valentia بالنسية
en Cuenca	Velera (فى قونكة)
Villaricos	Urci على مقربة من
Sevilla	Hispalis إشبيلية

وفي ولاية بيطى عشر أسقفيات هى :

Baeza

وفي جليقية تسع أسقفيات هي :

Braga	—	Braga	القاعدة
Astorga	استرقه	Asturica	
Orense	—	Auriense	
Santa María de Breto	—	Britonia	
(cerca de Mondeñeds)		Braga	قرب Dumio
Padron (Coruña)	—	Iria	
Lugo	لُك	Lucus	
Meinedo o Oporto	برتقال	Portucale	أو Magneto
Túy	توده	Tude	

وفي اسبانيا الطركونية (الشرق) ١٥ أسقفية هي :

Tarragona	طاركونة	Tarracona	القاعدة
Oca	أوقه	Auca	
Osona (في مقاطعة فيش Vich)	أشونة	Ausona	
Barcelona	—	Barcimona	
Zaragoza	سرقسطة	Caesaraugusta	
Calahorra	قلهرة	Calagurris	
Tortosa	طرطرشة	Dertosa	
Tarrasa	—	Egara	
Ampurias	امبرياش	Empurias	
Gerona	جرندة	Gerunda	
Lerida	لاردة	Ilerda	
Huesca	وشقة	Osca	
Pamplona	بنبلونة	Pampilona	

Medina Sidonia	شدونة	Asidonia	
Ecija	استجة أو إسجة	Astigi	
Córdoba	قرطبة	Córduba	
Cabra	قبرة	Egabro	
Niebla	لبلة	Elepla	
Elvira	إلبيرة	Eliberis أو Iliberi	
Italica	طالقنة	Italica	
Malaga	مالقة	Malaca	
Martos	—	Tucci	

وفي لشدانية (Lusitania) — وهي البرتغال الحالية — ثلاث عشرة

أسقفية هي :

Mérida	ماردة	Emerita	وهي القاعدة
Avila	أبيلة	Abela	
Viseo	بيزو	Beseo	
—	(عل مقربة من)	Caliabria	
Coria	قورية	Cauria	
Coimbra	قلمرية	Conimbria	
Evora	يابرة	Ebbora	
Idania la Vieja	—	Egitania	
Lamego	—	Lameco	
Lisboa	الأشبونة	Olisipone	
Oxonoba (Faro)	أكشونية	Ossonoba	
Beja	باجه	Pax Julia	
Salamanca	شلمنقه	Salamantica	

Tarazona	طرسونة Tirassona
Urgel	— Urgello

وفي المقاطعة النربونية ثمان أسقفيات هي :

Narbonne وهي القاعدة	أربونة Narbona
Agde	أجلة Agatha
Beziers	— Beterres
Carcassonne	قرقشونة Carcassona
Elna-Perpignan	— Elena
Ludève	— Luteba
Magallon Montpellier	مجلونة Magalona
Nîmes	نيمه Neumaso

فمجموع المطرانيات والأسقفيات على هذا كان ٧٧ ، منها ٨ خارج شبه الجزيرة و ٦٩ في شبه الجزيرة ^(١) . ومن هذا الغدد الكبير يذهب أصحاب المدونات النصرانية ، ويتابعهم المؤرخون المحدثون ، الى أن العرب خربوا عددا يبلغ الأربعين ، وهذا القول مبالغة نعرفها من أولئك الرهبان ، لأن المعروف أن المسلمين لم يخربوا في الشام أو مصر كنيسة واحدة ، فلا يعقل والحالة هذه أن يخربوا في اسبانيا نحو نصف الكنائس والواقع يدحض هذا الزعم ، وأبسط الدلائل على ذلك أن المسلمين لم يخربوا كنيسة قرطبة ، مع أنهم استولوا على البلد عنوة ، بل اكتفوا بمشاركة المسيحيين اياها ، وعندما انتشر الاسلام في البلد ، وضاق نصف الكنيسة بالمصلين اشترى عبد الرحمن الداخل النصف الآخر من

النصارى ، وأذن لهم في بناء كنيسة أخرى بدل القديسة التي أصبحت كلها مسجد قرطبة الجامع .

بيد أننا لا نستبعد أن يكون بعض الأذى قد أصاب الكنائس الواقعة في الأقاليم التي ظلت خلال الفترة التي تتحدث عنها دار حرب ، وهي كنائس أقاليم جليقية والولاية النربونية والجزء الشمالي من اسبانيا الطركونية وولاية لشداية . فقد ظلت هذه النواحي ميدان صراع ينال التخريب كل ما فيها : كنائس وغير كنائس ، وهي لم تتخرب لأن المسلمين أرادوا تخريبها ، بل لأن هذا فعل الحرب في كل زمان ومكان :

وربما كان الذي أوقع أولئك الرهبان من أصحاب المدونات النصرانية في الخطأ هو أن الكثيرين من الأساقفة تركوا أسقفياتهم وهربوا أمام الجيوش الاسلامية ، ظنا منهم أن المسلمين سيفتكون بهم ، ولجأوا الى بلاد الشمال القصى ، فطن الرهبان أن هروب الأسقف والقساوسة معناه تخريب كنيستهم . وقد عاد الكثيرون منهم الى كنائسهم بعد أن رأوا أن المسلمين لا يعتدون على الكنائس أو رجال الدين ، ويؤيد ذلك القول سيمونيت كبير الحاملين على الاسلام والمسلمين بين المؤرخين الاسبان المحدثين ^(١) .

إذ على أى الأحوال ، فإن المراجع النصرانية نفسها تذكر أن الأسقفيات والكنائس الآتية بقيت وعاش أهلها في سلام مع المسلمين :

مطرانيات طليطلة وماردة واشيلية ،

وأسقفيات وادي آش — اركسيقة (في ولاية قوتقه) — شذونة — استجة — برشلونة — بسنطه — يياسة — بيجاستر (نقلت

فيما بعد الى قرطاجنة) - قلّهرة - قورية - سرقسطة - مدينة المائدة (Compluto-Alcalá de Henares) - قلمرية - قرطبة - قبرة - لبله - البيرة (غرناطة) - جَرْنْدَة - الش - مالقة - ارجلثو (Urgel) - اوسمه - سَجِيَّة (Exea-Segia) - سييجوتشيا (Sigüenza) - توكي (Martos) - أرشي (Urci) ، على مقربة من المرية) - طالقَة - بلنسية .

المجموع احدى وثلاثون مطرانية وأسقفية .

فاذا ذكرنا أن عدد هذه الكراسى الكنسية داخل شبه الجزيرة كان أيام القوط تسعة وستين ، منها تسعة في جليقية في ناحية لم تخضع للمسلمين ، ومثلها سبعة لم تخضع لهم من كراسى الولاية الطركونية الخمسة عشر ، وخمسة من كراسى ولاية لشدانية في نواح لم تدخل في طاعة المسلمين ، ومثلها أربعة من كراسى ولاية اسبانيا القرطاجنية - اذا استبعدنا هذه الكراسى التي كانت واقعة في نواح خارجة عن دار الاسلام وعددها خمسة وعشرون كرسيًا ، كان الباقي الذي دخل في ديار المسلمين من قواعد الكراسى الكنسية أربعة وأربعين . وقد ذكرنا أن المراجع النصرانية نفسها تؤكد وجود واحد وثلاثين ، أى أن الذى اختفى من الكراسى الكنسية أحد عشر .

قول « اختفى » ولا قول أزيل أو محى ، لأن هناك ظاهرة هامة لا ينبغي أن نهمل أمرها في ذلك الحساب ، وهى أن قيام دولة الاسلام في الأندلس اقتضى تغييرات ادارية استدعاها وضع الدولة الجديدة : أعيد تنظيم بعض الأقسام الادارية القوطية عند تحويلها الى كور ، فأخرجت من بعضها بلاد ضمت الى أقسام أخرى ، ونقلت قواعد بعض أقسام الى مدن أخرى أكثر مناسبة للمطالب الادارية الاسلامية وهكذا ،

فكانت النتيجة أن خمل بعض المدن فلم يعد يستحق أن يقوم فيه كرسي كنسى . ولم يقتصر هذا الأمر على الأندلس الاسلامى بل حدث مثله في اماره أستريس التي أصبحت مملكة ليون فيما بعد ، فقد ضم مثلاً كرسي ابراغه (Braga - Bracara) الى كرسي لك (Lugo - Lucus) ونتيجة لذلك قل عدد الكراسى الكنسية في الأندلس الاسلامى . وعندما كانت تعمر ناحية وتتمدن قاعدتها - أى تصبح مدينة - كان المسلمون لا يمانعون في انشاء كرسي كنسى فيها ، ومثال ذلك ما حدث لبطليوس عندما عمرت وكبرت وأصبحت قاعدة كورة : أنشأ المسيحيون فيها كرسيًا كنسيًا رغم قربها من قورية وماردة . وكان في كل منها كرسي ، بل كانت الأخيرة مطرانية (١) .

وربما كان أهم تغيير في النظام العام للنصرانية في الأندلس ٢٢٦ - انتقال مركز المسيحية هو انتقال مركز الثقل من طليطلة الى قرطبة . لم ينقل الأندلسية إلى المسلمون كرسي المطرانية الكبرى من طليطلة الى قرطبة ، بل تركوه كما كان مراعاة لمشاعر النصارى ، ثم حرصوا على أن يكون المطران قريباً منهم في العاصمة ، بل عقدت مجامع طليطلة في قرطبة (٢) ، وذلك اجراء بسيط لم يؤثر في أحوال النصارى ولم يمس نظام الكنيسة ، بل استدعاها الصالح العام ، وربما يكون رجال الدين أنفسهم هم الذين حرصوا على أن يكونوا على مقربة من الأمراء والخلفاء ، ولكن مؤرخى اسبانيا النصرانية ينقدون ذلك ويعتبرونه عدواناً على كنيستهم وتعصبا على النصرانية ، وهذا أغرب ما يمكن سماعه من قوم

SIMONET, op. cit. p. 122-123.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 123-124.

(٢)

لم يبقوا في الأندلس كله — عندما صار الأمر اليهم — على مسجد واحد أو مسلم واحد ! ومهما يتأمل الانسان في منطق أولئك المؤرخين لا يسهه الا أن يأسف أن يكون هذا مبلغ نفر من أهل الديانة والفكر والعلم في عصرنا هذا من الاحساس الانساني .

حل أمراء قرطبة محل ملوك القوط ، فانتقل اليهم بذلك ٢٢٧- الكنيسة الاشراف الأعلى على شئون الكنيسة في بلادهم ، وجعلوا الأندلسية في قرطبة المركز الفعلي للنصرانية الأندلسية ، واحتفظوا النطاق الشرقي لأنفسهم بالحق في تعيين المطران — أو اقرار انتخابه بقول أصح — وفي الموافقة على الدعوة لعقد المجامع الدينية . وكان هذا في ذاته تغييرا حاسما في تاريخ الكنيسة الاسبانية . لأن مطرانية طليطلة كانت معتبرة قبل الفتح تابعة لكنيسة روما روحيا وأديا وماليا أيضا من بعض الوجوه ، فقطع العرب هذه العلاقة وجعلوا للنصرانية الاسبانية كيانا مستقلا ، فلم يعد النصارى المقيمون في النواحي الخاضعة للمسلمين يرسلون شيئا من أموالهم الى روما ، واقطع مجيء القساوسة والرهبان ورسل البابوية من غالة وايطاليا بصفة رسمية ، أي أن هؤلاء النصارى انفصلوا تماما عن اخوانهم النصارى في ايطاليا وغالة وبقية أوروبا ، وتغير اتجاه أولئك النصارى من الغرب الى الشرق ، واندرجت النصرانية الأندلسية في عداد النصرانية الشرقية وان كانت كاثوليكية ، وأخذت تتأثر تبعا لذلك بمؤثرات نصرانية — واسلامية — آتية من الشرق . ومن هنا فقد أخذت طقوس هذه الكنيسة الأندلسية تختلف عن الطقوس التي سادت الكنيسة الكاثوليكية عامة . وقد أتى هذا الاختلاف نتيجة لدخول الكنيسة الأندلسية في النطاق الشرقي ، ونتيجة لثبات هذه الطقوس على ما كانت عليه أيام دخول المسلمين ، في حين ظلت بقية

الكنائس الكاثوليكية التي كانت على اتصال دائم مباشر مع البابوية خاضعة لكل ما تقرره البابوية من تعديلات وتحديدات تصدر بها أوامر من المجمع الكنسي العام أو مجمع الكرادلة في روما .

ويذهب مؤرخو الكنيسة الاسبانية الى أن أول من أدخل ٢٢٨- الطقوس هذه الطقوس الى اسبانيا كان القديس الرسولي القوطية الكنسية سان توركوأتوس Sanctus Torcuatus مؤسس كنيسة وادي آش ، ثم حدد أصولها وشعائرها القديسان لياندروس وأخوه ايزيدور ، ولهذا يسميها الأسقف رودريجو خيمينيث شعائر ايزيدور ولياندروس Officium Isidori et Leandri ، ويسمى بعضهم الايزيدورية فحسب Isidoriano . ثم شاعت وجرى بها العمل أيام القوط ، ومن هنا أطلق عليها اسم الطقوس القوطية Oficio Gótico-Officium Goticum ، وربما سميت الطقوس الطليطية Oficio Toledano لأن مجمع طليطلة الرابع قرر تميمها في كنائس اسبانيا وغالة التريونية كلها . وقد جرى بها العمل في الكنائس في الأندلس الاسلامي دون أن يتعرض لها المسلمون بشيء ، وعندما بدأ ملوك ليون يتغلبون على بلاد المسلمين ، أطلق الليونيون على من كان في هذه البلاد اسم المستعربين كما قلنا ، وأطلق هذا الوصف أيضا على شعائريهم فسميت بالشعائر المستعربية Oficio Mozárab .

٢٢٩- البابوية وما كادت البابوية تقف على أقدامها في حماية الدولة والطقوس القوطية الكارولنجية الفرنجية حتى أخذت تلقى الشكوك في قيمة هذه الطقوس وكاثوليكيته ، فبدأت بارسال حبرين أيام البابا يوحنا العاشر لينظروا في أمر هذه الطقوس ويعرضوا عليه رأيهما فيها ، فذهب الحبران الى كنائس ممالك اسبانيا النصرانية وعادا ليقررا أنها

شعائر كاثوليكية سليمة . ولكن البابوية أصرت رغم ذلك على الغاء هذه الشعائر وإحلال الشعائر الرومانية (نسبة الى روما) محلها ، وما زال البابا جريجوريوس السابع حتى حمل شانجه ملك نبره وألفونسو السادس ملك قشتالة وليون على الاستجابة لما يريد ، فألغيت الشعائر المستعربية في نبرة وقشتالة وليون فيما بين سنتي ١٠٧٧ و ١٠٧٨ رغم معارضة شديدة من نصارى هاتين المملكتين ^(١) .

ثم جاء دور نصارى الأندلس الاسلامي عندما بدأوا يدخلون في طاعة ملوك اسبانيا النصرانية بعد استغلاب بلادهم . لقد ظلوا آمنين على شعائرهم ما داموا في حمى المسلمين ، فلما صاروا الى حماية ملوك النصرانية بدأت متاعبهم وعادوا الى ما كانوا فيه في العصر القوطي ! وقد تحول الأمر الى صراع دموي اشتبك فيه أنصار الشعائر المستعربية مع أنصار الشعائر الرومانية ، ولو أن أمرا كهذا حدث أيام المسلمين لما وسعت الكلمات غضب المتحاملين على الحكم الاسلامي ، ولكن ما أشد اختلاف معايير القيم في أيدي أولئك الناس ! لقد جمع الامبراطور ألفونسو السادس مجمعا في برغش عام ١٠٨٥ ، وألغى الشعائر المستعربية التي حافظ عليها المسلمون وأحل محلها شعائر فرضت على الناس فرضا بسلطان الرهبان الكلونيين ، وهم أجانب عن اسبانيا ، كانوا يدخلونها اذ ذاك سادة لأهلها وقساوستها أيضا .

(١) يحتج سيمونيت على موقف البابوية من الطقوس القوطية ، ولكن احتجاجه رقيق لطيف لا يقاس بحملاته المقلدة على المسلمين ، ولو أن المسلمين مسا طقوس الكنيسة لما وجد في ألفاظ العنف - بل البذاءة - ما يكفي . وقد رأيت الإشارة إلى ذلك لبيان روح التعصب الشديد الذي كتب به هذا المؤرخ ومن تابعه ، وهو تعصب يشوه الصورة التاريخية للأندلس الإسلامي تشويهاً تاماً .

ولم يرض الشعب عن ذلك ، وسرت في صفوفه روح المقاومة ، وقال قائلهم : « نموت أو نستبدل هذا الملك بملك آخر قبل أن تقبل هذا التغيير » . ووقف الملك وحيدا أمام رعيته كلها . وتدخل نذر من الوسطاء في الأمر ، واستقر الرأي أخيرا على تحكيم القدرة الالهية جريا على شريعة العصور الوسطى : اتفق الطرفان على أن يوقدوا نارا ثم يلتقى فيها بكتاب صلوات وفق الطقوس المستعربية ، وكتاب صلوات آخر وفق الطقوس الكاثوليكية ، وما يحترق منها فهو الباطل . ويقص رديجو الطيطلي هذا الخبر ويؤكد أن النار أكلت كتاب الشعائر الرومانية في حين بقي كتاب الشعائر القوطية سليما لم يمس ! ويؤكد صاحبنا سيمونيت هذا الخبر ، ويروي رواية أخرى يتهم أصحابها بأنهم مماثلون للبابا ، اذ أنهم يقولون ان كتاب الصلوات الروماني عندما طرح لم يقع في النار ، أما القوطي فوقع فيها ولم يصب بأذى وهكذا ثبت أن الاثنين على حق ! ^(١) .

ويقولون ان الطقوس المستعربية سلمت من الأذى نتيجة لهذا الحكم الالهى ، ولكن ذلك لم ينفعها طويلا ، فما زال البابوات يؤيدهم الملوك لبحون عليها حتى تلاشت آثارها خلال القرن السابع عشر .

وانما استطرنا مع تاريخ هذه الطقوس لكي تؤكد ما قلناه ، وهو أنها كجزء من التقاليد الاسبانية القومية عاشت في سلام طالما كان الأمر للمسلمين ، فلما انقضت أيامهم زالت واختفت في ليل التاريخ مع ما ذهب من آثار المسلمين ..

٢٣٠- وظائف بقى نظام الكنيسة بعد الفتح سليما دون تغيير، كل ما حدث الكنيسة هو أن أسماء الوظائف تغيرت تبعا لاستعرا ب ألسنة الناس، وظهرت لها أسماء هى مزاج من أسمائها الأولى وألفاظ عربية، واليك بياناً بأهم هذه الوظائف كما وردت فى كتابات نصارى الأندلس، نوردها على سبيل المثال:

Metropolitanus مطران أو مطروبول (Metrópol).

Episcopus أسقف أو أسقف.

Archi-presbiter أرج برشبطر، وربما سموه بالتسمية

الاسبانية Arcipreste فقالوا أرجبرشت

أو أرسبرشت. وقد يضعون له اسما مركبا

Archi اليونانية الاغريقية «وقس» العربية،

فقالوا: أرج قس.

Archidiaconus أرجدياقتن أو أرسدياقتن (اسبانية:

Arcidiacono أو Arcediano).

وقد أبقى المسلمون على كل المؤسسات ذات الصبغة الدينية دون أن يسوها بأذى، كأديرة الرجال والنساء والبيع الصغيرة والمصليات العامة والخاصة Capellas، واحتفظ رجال الدين بملابسهم وأزيائهم^(١)، ثم غيروها شيئا فشيئا من تلقاء أنفسهم عندما أخذهم تيار الحضارة المشرقية واستعربوا لسانا وأسلوب حياة، بل الكثيرون منهم أخذوا أسماء عربية يعرفون بها بين الناس وإن كان لكل منهم اسمه الكنسى اللاتينى أو الاسبانى الأصل.

SIMONET, op. cit. p. 127.

ISIDORO DE LAS CAGIGAS, Los Mozárabes, I. p. 65

٢٣١- المسلمون وقد وضع المسلمون أيديهم على جزء كبير من أملاك وأملاك الكنيسة الكنيسة الواسعة، واستولوا كذلك، أيام الفتح فقط، على الكثير من ذخائر الكنائس وخاصة تلك التى تركها رجالها وسدتها وهربوا. وعندما استقر الأمر لم يعودوا يمسون ذخائر الكنائس. وقد اعتبر المسلمون ما وقع فى أيديهم من ذلك غنائم يجرى عليها حكم الخمس، فأما خمس أراضى الكنيسة فقد اعتبر ملكا للدولة ووزع الباقي بين الفاتحين، وكان الجند فى الغالب يتركون الأرض بيد زراعها يؤدون اليهم عنه مالا، ويدفعون منه ما يشاءون لكنائسهم، فكان الأمر لم يتغير كثيرا بالنسبة لهذه الأرضين، وأما الذخائر فأخذت الدولة خمسها وتوزع الجند الفاتح الباقي. وكانت الأديرة النصرانية طوال الأعصر الاسلامية آمنة لا يروع أصحابها شئ، وقد درج المسلمون على التردد عليها لالتماس النيذ الطيب على عادة متجان المشرق فى هذا الباب، وقد بلغ من تسامح المسلمين مع نصارى الذمة أن أذنوا لهم فى قرع النواقيس.

وظلت الجماعات النصرانية فى المدن والأرياف ملتفة حول أساقفتها وقسسا ورعاتها، لم يتدخل المسلمون فى شئ من علاقاتها بهم، فظلت الكنائس تؤدى وظائفها الاجتماعية الى جانب وظائفها الدينية، فكان القساوسة يعقدون الزيجات ويعمدون المواليد ويختارون لهم الأسماء، ويسجلون المبيعات والتهود بين الناس. وليس بصحيح أن المسلمين خصصوا للنصارى أحياء خاصة يقيمون فيها كما يذهب بعض المؤرخين، فليس لدينا دليل واحد على ذلك، ثم هو ليس بمعقول، وقد كانت عملية دخول النصارى فى الاسلام على قدم وساق.

والآن وقد ألمنا بأحوال أهل الذمة من النصارى، فلنمر سراعا بتاريخ جالياتهم خلال عصر الولاة.

٢٣٢ - سياسة - كان عهد عبد العزيز بن موسى - ثاني عمال الأندلس أمراء المسلمين المسلمين - عهد أمن وخير للنصارى الأسبان ، فقد كان تجاه أهل الذمة الرجل سمحا لنا لا يميل الى الشدة الا في حيث لا يجد لنفسه محيصا عنها ، وقد تزوج أيلونة Egilona زوج لذريق (فيما يقال) وسماها أم عاصم ، وكان بينه وبينها ود كريم كانت تتيجه وبالا عليه ، لأنه أسرف في الانقياد لها وأحب أن يرضيها باتخاذ سمات ملوك القوط ، فأنكر العرب عليه ذلك وقتلوه (١) . ولم ينفرد عبد العزيز بن موسى بهذا الزواج بل فعل ذلك غيره من كبار العرب ، وقد ذكر لنا الرواة منهم زياد بن النابغة التميمي ، مما يدل على أن حركة الامتزاج بين العرب والبربر والاسبان بدأت من زمن مبكر جدا ، وهذا طبعي : لأن المسلمين حينما دخلوا هذا البلد دخلوه رجالا بغير نساء ، فلا بد أنهم اتخذوا نساءهم من أهل البلد ، أي أن الجيل الثاني من مسلمي اسبانيا كان هجينا ، ولما كان ورود العرب الى الأندلس قليلا جدا نظرا لبعدها المسافة ، فإن الدم العربى الصريح تلاشى في هذا القطر على عجل ، ولن نجد عند قيام الامارة الأموية عربيا صريحا الا في النادر ، حتى عبد الرحمن الداخل نفسه كان هجينا (٢) ، اذ كانت أمه بربرية من نفزة ، وهذا في ذاته من غرائب المقادير : أن تكون أمه من المغرب ، وأن تقسم له الحظوظ سيادة الأندلس حيث كان الكثيرون من رعاياه هجناء من نفس الجنس . وقد أمن نصارى الاسبان في عهد عبد العزيز وبدأوا

(١) ابن عبد الحكم ، ٢١٢ .

الأنبار المجمعة ، ص ٢٠ .

SIMONET, op. cit. p. 149.

(٢) انظر عن ذلك :

JULIAN RIBERA, *Disertaciones y Opúsculos I*, p. 4-15.

يطسئون الى حكامهم الجدد ، ويبالغ بعض مؤرخى الاسبان في التعليق على سياسة عبد العزيز ، فيذهبون الى أنه مال الى النصرانية وأنه كان يفضل الاسبان على العرب ، ولكن هذه مبالغات لا يؤيدها نص ولا منطق ، وكل ما في الأمر أن دواعى الشدة قد انقضت وهدأت البلاد فلم يبق الا اللين والمحاسنة ، وقد فعل ذلك غير عبد العزيز من فاتحى المسلمين كعمرو بن العاص في مصر (١) .

ولم يصادر المسلمون في ذلك العهد المبكر من كنائس اشيلية - وكانت عاصمتهم اذ ذاك - الا واحدة هي كنيسة القديسة ريفينا Santa Ruffina وتسميها بعض المراجع كنيسة ربييه ، ولم يأخذوها كلها بل جزءا منها جعلوه مسجدا ، وبقيت بعد ذلك كنائس كثيرة مثل « كنيسة الماء » وغيرها ، مما يدل على أن المسلمين لم يسسوا عقيدة الاسبان في كثير (٢) .

٢٣٣ - بيوت وفي ذلك العهد المبكر وجدت أسر مختلطة فيها مسلمون - فيها مسلمون ونصارى كبنى أئشند أخى غيطشة ، فقد كان حليفا ونصارى للمسلمين وتوفى عن ولدين وبنت ، فأما الولدان فهما أئشند (أو عباس) الذى قتل في واقعة كوفادونجا وأصبح الثانى مطرانا لاشيلية ، وأما سارة فقد اختلفت مع عمها أرتباس فذهبت تشكوه الى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأنصفها من عمها ورد عليها ضياعها وزوجها عربيا هو عيسى بن مزاحم « فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية (المؤرخ) وولد له منها ولدان : ابراهيم واسحاق ، ثم

SIMONET, op. cit. p. 152.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 151.

(٢)

توفي عنها في العام الذي دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فتنافسها حينئذ بن ملامس المذحجي وعثمير بن سعيد اللخمي ، فعثنى ثعلبة بن عبيد الجذامي بعير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه إياها وولدت له حبيب بن عمير جد بني سيد (لعل صحتها سعيد) وبني حجاج وبني مسلمة وبني حجر الجرزي .. « أى أن اسحاق وإبراهيم ابني عيسى بن مزاحم^(١) المسلمين كان لهما خال نصراني هو مطران اشبيلية . ولا نزاع في أن مثل هذا حدث في أسر كثيرة ، ونحن إذ نشير الى هذا إنما نضع أصبعنا على بدء حركة « ذوبان » العنصر العربي في العنصر الايبيري ، هذا الذوبان الذي نتج عنه شعب اسبانيا الاسلامية حاملا خصائص العرب والبربر والاسبان .

وتذهب المراجع النصرانية الى أن خلفاء عبد العزيز وهم

٢٣٤ - خلفاء أيوب بن حبيب اللخمي والحر بن يوسف والسمح بن مالك عبد العزيز بن موسى وأهل الذمة كانوا معادين لنصارى الأندلس حاملين على النصرانية ، وليس ذلك صحيحا ، لأن ثلاثتهم أنفقوا خير أيامهم في

الجهاد فيما وراء البرتات ، وربما يكونون قد عسفوا نصارى النواحي التي ذهبوا لفتحها ، فحسب الرهبان المؤرخون أنهم فعلوا بالاسبان مثل ذلك^(٢) ، وليس ذلك صحيحا ولا نملك نصا واحدا يشير اليه ولو عن طريق غير مباشر . بل الثابت أن كبار القساوسة كانوا نشطين في ذلك العهد في تجديد الكنائس ، ويذكر ايزيدور الباجي أن فريدياريوس أسقف وادي آش *Freduarius, Accitanae sedis Episcopus* وأربانس أسقف طليطلة *Urbanus, Toletanae sedis urbis Regiae cathedralis*

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦٠٥ .

SIMONET, *op. cit.* p. 156-157.

(٢)

عمرا كنيسة وادي آش في ذلك الحين واشتهر أمرهما وانجفل الناس اليهما دون أن يتعرض المسلمون لهم في ذلك بشيء ، ويذكر سيمونيت — رغم تعصبه — أمثلة كثيرة تدل على أن النصرانية الاسبانية انتعشت بعد الفتح الاسلامي — كما حدث لنصرانية مصر — انتعاشا ظاهرا^(١) بعد دخولها في طاعة المسلمين أيضا .

وكان سندريدو Sindredo مطران طليطلة قبيل أيام الفتح قد هجرها وفر حينما أقبل المسلمون^(٢) ، وصالح نصارى البلد على أنفسهم بشروط خاصة احتفظوا فيها ببلدهم شبه مستقل : احتفظوا بحكومة محلية يقيمونها بأنفسهم ، واحتفظوا بمعظم كنائسهم وبرجال الدين الذين بقوا فيها بعد فرار المطران وبعض رجاله . فظل هذا البلد عامرا بالكنائس الكبيرة ، أعظمها كنيسة « جميع القديسين » *Omnium Sanctorum* ، وظلت الأديرة التي في أرباض البلد قائمة لم يمسسها المسلمون بأذى كبير ، وإن كانوا قد استولوا على الكثير من ذخائرها كمذبح كنيسة طليطلة الكبيرة المشهور في النصوص العربية بمائدة سليمان .

أما الكنيسة الجامعة السابقة ، وهي كنيسة القديسة مريم (سانتا ماريا) التي كانت معتبرة قبل ذلك قاعدة المسيحية الكبرى في اسبانيا فقد حولها المسلمون الى مسجد جامع ، وانتقل مركز المطرانية الى كنيسة أخرى كبيرة تسمى كنيسة القديسة ماريا دي ألفيثين *Santa Maria de Alficen* ، وقد نقل النصارى الى هذه الكنيسة أوراقهم

SIMONET, *op. cit.* p. 160-162.

(١)

(٢) التاريخ المنسوب لإيزيدور الباجي ، فقرة ٣٥ .

SIMONET, *op. cit.* p. 163.

ووثائقهم وكل ما كان في الكنيسة القديمة من الذخائر ، وظلت على ذلك طوال العصور العربية ^(١) .

وكان العرب قد أقاموا حليفهم أبه (عباس) ^(٢) مطرانا للبلاد خلفا لسندريدو ، ولكن أهل البلد لم يرضوا به وتركوه في مطرانيته ، وأقاموا لأنفسهم مطرانا آخر يسمى أوربانو Urbano وكان قبل ذلك مرتلا في الكنيسة ، ولم يعترض المسلمون على ذلك .

وكان المسلمون بعد أن فرغوا من تثبيت أمرهم في البلاد ٢٣٥ - ثورة أكويل واستسلامه واخضاع مراكز المقاومة فيها ، قد مضوا في احتلال بقية النواحي التي كانت قد تركت على حالها لانعدام المقاومة فيها . مثال ذلك أن طركونة وإقليمها تم احتلالهما على يد الحر بن يوسف ، وكانت طركونة عاصمة ولاية إسبانيا الطركونية ، وكانت فيها كنيسة جامعة على رأسها مطران ، وكان يقيم فيها أحد أبناء غيطشة المسمى أكويل Aquila ، فحسب أن العرب يتركون هذه الناحية له كما ظن غيره من آل غيطشة أن العرب يتركون البلاد لهم ، فلما استبان أن العرب مقيمون في البلاد وأنه لن يصل إلى العرش على أيديهم حاول الوثوب بهم في طركونة ، فسار إليه السمع وأخضع البلد وأنزل به شيئا من التخريب . فلما قتل السمع بعد ذلك في وقعة طولوشة حاول أكويل الثورة من جديد ، ولكن غنبة بن سحيم قضى على حركته ونهب البلد نهباً ذريعاً ، واستسلم أكويل وانتقل إلى طليطلة فأقام فيها ، ولم يحاول

SIMONET, op. cit. p. 166.

(١)

(٢) هكذا كتب ابن القوطية اسمه ، انظر ص ٤ .

الثورة بعد ذلك ، وقد استعرب أبناءؤه من بعده وحفظت لنا النصوص اسم أحد أحفاده وهو حفص بن ألبر Alvaro قاضي العجم ^(١) .

ومن طريف ما يلاحظ أن نصارى الأسبان انتهزوا فرصة ٢٣٦ - نصارى دخولهم في طاعة الدولة الإسلامية لكي يذهبوا إلى بيت الأندلس يحجون المقدس للحج ، ويذكر لنا الرواة النصارى قصة قس يسمى إلى بيت المقدس القديس فيليبالدو San Willibaldo ذهب للحج إلى الأراضي المقدسة ، ووصل إلى الرها ليزور كنيسة القديس توماس فيها ، فاشتبه عامل البلد العربي في أمره وسجنه ، ثم أطلق سراحه حينما استبان أنه من أهل الذمة في الأندلس ، ويبدو أن هذا الحادث أخاف فيليبالدو فلم يعد إلى بلده وإنما إلى دير مونت كاسينو في إيطاليا ، ومنها انتقل إلى روما سنة ٧٤١ حيث أقامه رجال الكنيسة أسقفا لمدينة أئخشنتات في ألمانيا ^(٢) . ولكن يبدو أن عدد هؤلاء الحجاج النصارى لم يكن كبيرا .

٢٣٧ - عبد وتجمع المراجع النصرانية على أن نصارى الأندلس لقوا الرحمن الغافق أذى كبيرا على يد عبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قطن ، وأهل الذمة ولا نملك من النصوص العربية ما يؤيد هذا أو ينفيه وان كانت الدلائل كلها تدل على أن عبد الرحمن اشتد مع نصارى الركن الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة بسبب احتساء مونوسة بهم ، وكان بطبعه رجلا عسكريا عنيفا ومسلما متفانيا لا يكاد يحفل لغير الإسلام

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٥ .

سيمونيت ، ص ١٧٠-١٧١ .

والمسلمين . ويؤكد ايزيدور الباجي أن عبد الملك بن قطن عسف النصارى عسفا شديدا في ولايته الأولى (١) .

٢٣٨ - موقف وقد أراد عبد الملك أن يعتدى على تدمير صاحب ناحية عبد الملك بن قطن مرسية الذى عقد العرب معه الصلح المعروف على يد من أهل النمة عبد العزيز بن موسى ، ووضع ابن قطن يده على بعض أراضيه ، فلم يسع تدمير الأرحيل الى المشرق حيث لقي هشام بن عبد الملك وشكا اليه عامله عبد الملك بن قطن ، فأحسن هشام لقاءه وأكد له شروط الصلح الذى عقده عبد العزيز بن موسى وأقره أخوه سليمان ابن عبد الملك ، وانتهاز تدمير الفرصة واتصل بنصارى الشام حيث لقي منهم اكراما عظيما ، ثم عاد الى بلاده حيث أقام في اقليه آمنا حتى توفي سنة ٧٤٣ م (٢) .

وكان المسلمون حينما فتحوا نواحي الغرب قد قبلوا من ٢٣٩ - المسلمون أهل قلمرية Conimbria صلحهم وأقروا البلد على حاله ، بنصارى قلمرية وأقام عبد العزيز بن موسى عليه حاكما عربيا تسميه وثيقة لاتينية Alboacem ibn Mahamat Alhamar ibn Tarif - وربما كانت صحة الاسم العربى أبا عاصم بن محمد الأحمر بن طريف - في سنة ٧١٦ م . وكانت المدينة اذ ذاك عامرة وبها كنيسة كبيرة ، فأقام أبو عاصم على عجم البلد قومسا يسمى آيدولفو Aidulfo ، فلما مات خلفه ابنه أتاناجيلدو Atañagildo وأعقبه ابنه تيودوس Theodus ، وأقام

(١) الأخبار المجموعة ، ص ١٤٩ .

سيمونيت ، ص ١٨٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ١٤٩ .

سيمونيت ، ص ١٨٣ .

على الأسقفية قسا يسمى لوربان Lorban . واستمر أمر البلد على هذا الحال من الاستقلال تحت السيادة الاسلامية العليا حتى سقطت في يد النصارى سنة ١٠٥٨ ميلادية ، وحول هذا البلد تكونت فيما بعد امارة البرتغال وحلت محل ولاية لشدانية (لوزيتانيا) الرومانية ، وانما أشرنا الى ذلك لنضع أيدينا على أوائل احتلال المسلمين للبرتغال وحكمهم اياها . وقد أحسن أبو عاصم معاملة نصارى ناحيته وارتبط مع أهلها بأواصر الود وصار يخرج للصيد - وكان مولعا به - معهم ، وكان يوقر الرهبان ويقربهم ، وتذهب الوثيقة التى أشرنا اليها الى أنه ألزم نصارى قلمرية بأن يدفعوا جزية مقدارها ضعف ما كان يدفعه المسلمون النازلون فيها ، وجعل على كل كنيسة جزية قدرها خمسة وعشرون مثقالا Pesanta من الفضة ، وعلى كل أسقفية مائة مثقال وعلى كل دير خمسين مثقالا ، واستثنى من ذلك دير لوربان فقد أعفاه من كل شيء ، لأن رئيسه كان حليفا للمسلمين (١) ، وترك رهبانه أحرارا . وتذكر المراجع حاكما مسلما آخر لقلمرية في هذه الفترة يسمى مروان بن موسى ، حكمها بعد أبى عاصم وسار على طريقته في التودد الى الأهليين والاحسان اليهم والولع بالصيد .

٢٤٠ - عقبة وتختلف المراجع فيما بينها على موقف عقبة بن الحجاج ابن الحجاج وأهل السلولى من النصارى وحالهم في أيامه ، فأما القطعة النمة الاسبانية التى بين أيدينا من تاريخ الرازى فنقول في حوادث سنة ٧٣٤ م : « وقد وضع عقبة هذا أموره كلها في أيدي النصارى ، فأراحوه وأعانوه ، وكانوا معه بالليل والنهار » (٢) . وأما

SIMONET, op. cit. p. 182.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 184-185.

(٢)

إيزيدور الباجي فيقول عنه أنه « رآك البلاد روكا جديدا وأحصى كل ما فيها ، وطالب النصارى بأن يؤدوا ما عليهم بأشد ألوان العنف ، ولم يغادر أى وسيلة تمكنه من ملء خزانة الدولة بالمال من أى طريق » (١) . ولكنه يقرر في نفس الوقت أن عقبة لم يختص النصارى وحدهم بهذه الشدة ، بل عامل بها المسلمين كذلك ، أى أنه اشتد على الناس أجمعين . والواقع أن عقبة كان رجلا حازما شديد الحرص على حقوق الدولة ، دائم المواظبة على القيام بواجباته . وقد روينا أخبار اجتهداه في محاربة النصارى في الشمال وفي غالة ، وكان الى ذلك مولى بعيدا عن نزعة العصية العربية ، فلا يبعد أن يكون قد قرب أهل البلاد وسوى بينهم وبين العرب في المعاملة ، وبهذا تصدق الروايتان وتضيفان شيئا جديدا هاما عن عقبة بن الحجاج وحكمه في الأندلس .

وتذكر الروايات النصرانية أن الراهبين الأخوين فوتو Voto وفيلكس Felix أنشأ في عهد عقبة دير سان خوان دي لا بينيا San Juan de la Peña في لحف جبل أورويل Oruel في أقصى الشمال ، وقد ازدهر هذا الدير فيما بعد وكان له أثر بعيد في التاريخ الأندلسي بعد ذلك بثلاثة قرون : إذ اتخذته أنييجو خيمينيث Iñigo Jiménez المعروف باسم أريستا Arista وكرا وعاصمة لامارة بنبلوثة التي أنشأها وكان لها دور عظيم فيما بعد في حركة الاسترداد ، وقد أصبح اسم هذه الامارة حينئذ اتسع بعض الشيء مملكة شُبرُرب El Reino de Sobrarbe ودخلت بعد ذلك في مملكة نبرة . وكان الأخوان فوتو وفيلكس من أغنياء النصارى في سرقسطة ، فلما رأيا تكاثر المسلمين في هذه الناحية وانتشار

(١) إيزيدور ، فقرة ٦١ .

الاسلام بين أهلها باعا ممتلكاتهما وفرقاها على الفقراء ومضيا الى جبل أورويل حيث أنشأ دير بينيا هذا ، مما يدلنا على أن المسلمين حينما نزلوا هذه الناحية لم يستولوا على ما بيد أهلها النصارى من الأملاك ، بل تركوهم على حالهم ، وكانت سرقسطة قد صالحت عن نفسها بشروط طيبة ضمنت لأهلها الحرية في كل شيء ، وقصة هذين الأخوين ترينا كيف كانت عناصر المقاومة النصرانية تتكون في بطن منذ أوائل أيام الحكم الاسلامي ، وتدل كذلك على أن المسلمين تركوا النصارى من أهل البلاد أحرارا في انشاء ما يريدون من الأديرة (١) .

فلما وقعت الثورة البربرية أثناء ولاية عبد الملك بن قطن واشتدت المجاعة في الأندلس ، أخذ بعض النصارى الاسبان يهاجرون الى نواحي الشمال القاصية : الى أشتريس وكنتبرية ، ويبدو أن أعداد هؤلاء المهاجرين لم تكن كثيرة ، لأن مراجعنا العربية لا تشير اليها (٢) .

وقد عرفنا فيما سبق أن أبا الخطار فرق الشّاميين وأنزلهم في بعض كور الأندلس « وكان انزالهم على أموال أهل الذمة من العجم » (٣) ، « وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة » . وقد حاول سيونيت أن يفسر هاتين العبارتين بأن أبا الخطار فرض على النصارى الاسبان الذين أنزل العرب في كورهم ضريبة جديدة مقدارها ثلث أموالهم ، وهو تفسير

SIMONET, op. cit. p. 190-191.

(١)

SIMONET, op. cit. p. 193.

(٢)

إيزيدور فقرة ٦٣-٦٦ .

(٣) ابن القوطية ، ص ٢٠ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

فتح الأندلس ، ص ٣٦-٣٧ .

خاطيء ، اذ لم يزد على أهل الذمة شيء جديد ؛ وانما أخذ الشّاميون ثلث الجباية ، ومن هنا لا محل لما يذهب اليه سيمونيت من القول بأن حال أهل الذمة ساء في أيام أبي الخطار بسبب الزيادة المزعومة .

بيد أن أبا الخطار أخطأ في ائزال بعض الشّاميين في نواحي تدمير التي ضمن العرب سلامتها بصلح أوريولة الذي عقده تدمير مع عبد العزيز ابن موسى ثم عاد هشام بن عبد الملك فأكدّه . وكان صاحب تدمير اذ ذاك أتاناجيلدو Atanagildo الذي خلف أباه تدمير سنة ٧٤٣ م ، فلم يكذب سمع بتصرف أبي الخطار حتى اعترض عليه وأعلن أن ذلك يخالف نصوص معاهدة أوريولة ، وكانت العلاقات بين أتاناجيلدو والنازلين في أرضه من البلدين طيبة ، فنهضوا ينصحون أبا الخطار بالعدول عن ذلك ، فغضب أبو الخطار ، وأراد عقاب أتاناجيلدو ، ففرض عليه غرامة قدرها سبعة وعشرون ألف قطعة من الذهب ، وسبه وأهانها ، فمضى أتاناجيلدو يتجنب الى جند مصر من الشّاميين الذين كانوا بأرضه ، واجتذبهم باحصانه ، فتوسطوا له عند أبي الخطار ، وما زالوا به حتى أسقط الغرامة ورد على الرجل اعتباره واحترام حقوقه (١) . وانما ذكرنا هذه الحكاية لكي نستدل منها على أن علائق من الود كانت قد تأصلت بين العرب النازلين في الأرياف وأهلها من النصارى الاسيان ، فهذا أتاناجيلدو يعاونه البلديون والشّاميون على رفع الظلم عنه ، وسرى في تاريخ كبير نصراني آخر - هو أرتطباس - أمثلة أخرى كثيرة تؤيد ذلك .

ويذهب الاصطخري الى أن المسلمين وضعوا يدهم على نصف

كنيسة قرطبة الجامعة (١٣١ هـ / ٧٤٨ م) أى في هذه الفترة التي تتحدث عنها . ذلك أنهم كانوا قد عاهدوا أهل قرطبة على أول الفتح بأن يدعوا لهم هذه الكنيسة الجامعة المعروفة بكنيسة القديس بجنت أوبزنت San Vicente (Sanctus Vicentius) وأقاموا لأنفسهم مساجد صغيرة . فلما نقلوا مركز الدولة الى قرطبة وكثر المسلمون فيها وفي أرباضها ، ضاقت بهم هذه المساجد الصغيرة واحتاجوا الى مسجد جامع ، فقاموا النصارى كنيستهم الجامعة كما فعلوا في دمشق والرها ، « فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة في كنيستهم العظمى التي كانت بداخلها ، وابتنى المسلمون في ذلك الشطر مسجدا جامعا ، وبقي الشطر الثاني بأيدي الروم وهدمت عليهم سائر الكنائس » (١) . ويذهب مؤرخونا الى أن ذلك تم على أول زمان الفتح ، والواقع غير ذلك ، لأن الثابت من صلح قرطبة مع المسلمين أن هؤلاء تركوا للنصارى كنيسة سان بجنت الجامعة ، ولدينا نص من الأخبار المجموعة يدل على أنها كانت لا تزال كنيسة في سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م (٢) ، وللرازي رواية تدل على أن ذلك حدث في ولاية أبي الخطار ، وبعد سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م على الأغلب (٣) .

وفي هذه الفترة تظهر شخصية أرتطباس Ardabast زعيم عجم ٢٤١ - أرتطباس الذمة وابن غيطشة الى جانب كبار الشخصيات العربية في أيام أبي الخطار ومن جاء بعده . ويبدو لنا أرتطباس رجلا مهذبا حسن

(١) ابن عذاري : بيان ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

ابن بطوطة : رحلة ، ص ١٩٨ .

ابن جبير : رحلة ، ص ٢٦٣ .

(٢) الأخبار المجموعة : ص ٦١ .

(٣) المقرئ : نفع ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .

التصرف واسع الحيلة ، ينصح عمال الأندلس في شئون سياسة بلاده ويعامل زعماء العرب بكياسة تدعو الى الاعجاب . ومن أمثلة ذلك رواية ابن القوطية التي أتينا بطرف منها ، وهى رواية تدل على حسن تصرفه وتلقى ضوءا على أسلوب حياة العرب والاسبان والنصارى في ذلك العصر ، وقد ذكرنا فيما سبق فقرة منها ولا بأس من إيرادها على تواليها هنا ، يقول : « وحكى الشيخ ابن لبابة رحمه الله عن أدركه من الشيوخ أن أرطباس كان من عقلاء الرجال في أمر دنياه ، وأنه دخل عليه عشرة من الشّاميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأبو عبدة ويوسف بن بخت والصميل بن حاتم ، فسلموا وجلسوا على الكراسى المحيطة بكرسيه . فلما أخذوا مقاعدهم ، وحيا بعضهم بعضا ، دخل ميمون العابد جد بنى حزم البوابين ، وهو أحد الموالى الشّاميين ، فلما رآه أرطباس داخلا قام اليه والتزمه وجعل يقوده الى كرسيه الذى قام منه ، وكان مصمّدا بالذهب والفضة ، فأبى الرجل الصالح من الجلوس عليه ، وقال له : لا يحل لى هذا ! فجلس على الأرض وجلس معه ، ثم قال له : ما جاء بمثلك الى مثلى ؟ فقال ميمون : قدمنا الى هذا البلد وظننا أن ثوانا لا يطول فيه ، ولم نستعد للمقام ، فحدث من الاضطراب على موالينا بالمشرق ، ما تتوهم به أنا لا نعود الى موضعنا معه ، وقد وسع الله عليك ، فأريد أن تعطينى ضيعة من ضياعك أعتمرها بيدي ، وأودى اليك الحق منها وأخذ الحق . فقال له أرطباس : لا والله ما أرضى أن أعطيك ضيعة مناصفة ! ودعا بوكيل له فقال له : ادفع اليه المجثر الذى على وادى شكوس وما فيه من الغنم والبقر والعبيد ، وادفع اليه القلعة بجيان ، وهى القلعة المعروفة بقلعة حزم ، ملكها [بياض] فسكر وقام ، وعاد أرطباس الى مقعده ، فقال له الصميل . يا أرطباس ! ما يعجزك

من سلطان أيبك الا نصاد الطيبة ! أدخل عليك ، وأنا سيد العرب بالأندلس ، ويدخل أصحابى هؤلاء معى ، وهم سادات الموالى بالأندلس ، فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان ! ويدخل هذا السوّال ، فتصير من اكرامه الى حيث صرت ! فقال له أرطباس : يا أبا جوشن ! أهل دياتك يخبروننا أن أدبهم لم يأخذك ! ولو أخذك لم تنكر على برّ من بررت ! وكان الصميل أميا لا يقرأ ولا يكتب : انكم أكرمكم الله ، [وأنتم] انما تكرمونه عز وجل [اذا أكرمتهم الصالحين] . وقد روينا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أكرم الله من عباده وجبت كرامته على جميع خلقه ، فكأنما ألقمه حجرا . فقال له القوم : دع هذا وانظر فيما قصدنا له ، حاجتنا وحاجة الرجل الذى قصدك وأكرمته واحدة ، فقال : أنتم ملوك ، وليس يرضيكم الا الكثير ، فوهبهم مائة ضيعة ، صار منها لكل منهم عشرين ضياع ، منها طرّش لأبى عثمان ، والفنتين لعبد الله بن خالد ، وعقدة الزيتون بالمدوّر للصميل بن حاتم ، وهى حكاية حافلة بكل ما يعيننا على تصور العلاقات بين العرب ونصارى الاسبان في ذلك العصر (١) .

ولم يكن أرطباس رجلا كريما كيسا فى كل حال ، بل ذكر المؤرخون ما يدل على جشعه وطمعه ، فقد انتهز فرصة وفاة أخيه الثمند و تركه ابنة واحدة هى سارة وابنين صغيرين ووضع يده على أملاكهم وكانت ألف ضيعة ، فذهبت سارة الى المشرق ، وعادت منه وقد حكم لها هشام باسترداد ضياعها ، وزوجها عيسى بن مزاحم (٢) . وكان أرطباس يتخذ

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

وقد حرف سيمونيت هذه العبارة عند ترجمتها ، انظر ص ٢٠٥ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠-٥٠ .

هيئة الأمراء فيجلس على كرسي مصمّد بالذهب والفضة كما رأينا في الفقرة السابقة ، ويضرب لنفسه قبة عظيمة اذا خرج مع الأمير « وحولها من الهدايا غير قليل ، اذ كانت الهدايا تلتناه في كل محلة من ضياعه . فنفس عليه الأمير [عبد الرحمن بن معاوية] ... » (١) .

٢٤٢ - المطران وتدل الدلائل كلها على أن النصارى لم يصيبهم شيء من سيشيليا الأذى أثناء الحروب العنيفة التي دارت بين العرب ، بين أبي الخطار والصميل ، فقد ازدهر أمر مطرانية طليطلة ورأسها جبر جليل ضليع له صيت في الحوليات النصارية وهو سيشيليا Cixilia ، كان دائم الحرص على سلامة العقيدة النصارية ، حتى لقد كان يشتد مع أصحاب المذاهب الخارجة على الكاثوليكية ، وكان يعمر ما يهي من الكنائس ، وكتب النصارى في امتداحه القصائد اللاتينية (٢) .

ومن دلائل الحرية التي كان النصارى يتمتعون بها في هذه الفترة تمكنهم من نقل الكثير من الأشياء المقدسة التي انتشرت من الكنائس التي تهدمت الى كنيسة أبيط الجامعة ، حتى لقد عمرت هذه الكنيسة لهذا العهد وانتقلت من بيعة صغيرة الى كنيسة كبيرة عامرة ، ولم يتعرض المسلمون للنصارى في شيء من ذلك ، مما يدل على أنهم تمتعوا بحرية كاملة في كل ما يتصل بأمورهم الدينية (٣) .

ويذكر ابن حيان في عداد الثوار الذين خرجوا على يوسف الفهري

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٦-٣٧ .

(٢) SIMONET, op. cit. p. 207.

ويكتب اسمه في النصوص بصور مختلفة : Zixilanus, Cixilanus, Cigilia

(٣) SIMONET, op. cit. p. 211-212.

رجلا يسمى عروة بن الوليد ، ثار في مدينة باجة في أهل الذمة وغيرهم ، فملك اشبيلية وكثر جمعه ، الى أن خرج عليه يوسف فقتله « (١) ولم يذكر لنا ابن حيان شيئا نتعرف منه شخصية الوليد هذا ، ولكن الغالب أنه لم يكن نصرانيا مستعربا ، وانما عربيا جمع نفرا من العرب وأهل الذمة وثار بهم في هذه الناحية .

وربما كان دافع هؤلاء النصارى الى الاستجابة لدعوة رجل كالوليد هو الزيادة التي فرضها يوسف على أهل الذمة ، ذلك أن الجباية نقصت بسبب هلاك الكثيرين من النصارى أو فرارهم من أرضهم نتيجة للحروب العنيفة التي دارت بين العرب أيام يوسف ، فطالب يوسف الباقين منهم بأداء المبالغ التي كانت قد تقررت عليهم في اتفاقات الصلح ، فنقل ذلك على أفرادهم وترددت شكواهم منها (٢) .

٢٤٣ - النصارى وحينما ازدادت الحروب بين العرب حدة ، وضربت المجاعة يعمرن بعض بجرانها على الأندلس بين سنتي ١٣٣ و ١٣٨ هـ / البلاد الخالية ٧٥٠-٧٥٥ م ، وعادت جماعات البربر التي كانت تعمر النواحي الشمالية الغربية من شبه الجزيرة واستولى أذفونش الأول على الكثير منها ، كثرت هجرة النصارى من البلاد التي كانت خاضعة لحكم المسلمين الى هذه النواحي الخالية الفاصلة بين دار الاسلام وبلاد مملكة ليون ، فيما بين نهري تاجه ودويره لتعميرها ، فعمرت لك وليون وسلمنقة وأبله وأوكا وشقويية وأمايا ، وقد كان المهاجرون الى هذه النواحي من كل طبقات النصارى : أشرافا وغير أشراف tam nobiles quam ignobilis .

(١) المقرئ : نفح ، ج ٢ ، ص ١٣ .

(٢) SIMONET, op. cit. p. 217.

وعمرت لك بالنصارى وقام على تعمير كنيسة حبر كبير هو أدواربوس (Odoario في النصوص الاسبانية) وكان قد فر منها حينما دخلها العرب، فعاد إليها مع أذفونش الأول واستقر فيها ومضى يقيم شعائر النصرانية فيها من جديد وجعلها أسقفية عامرة، واتخذ لقب مطران.

وكذلك عمرت شقوبية بعد أن كان الكثيرون من أهلها قد تركوها وهربوا إلى الجبال على أوائل أيام الفتح، ولكن تعمير شقوبية معظم الهاربين عادوا بعد أن صالح الباقون منهم على أنفسهم بصلح طيب ضمن لهم حرية تامة في كل شيء لقاء دفع جزية مقررّة، وكانت المدينة قبل الفتح عامرة بالكنائس الكبيرة، مثل سانتا ماريا ديلوس هويرتوس Santa Maria de los Huertos وسان فيسنت San Vicente ولا ترينيداد La Trinidad وسان خيل San Gil وسان أنطون San Antón وكلها قديمة ترجع إلى ما قبل عصر ريكايردو^(١). وقد اطمأن النصارى في بلادهم هذا بعد أن تأكّدوا أن العرب لن يصيبوهم بضرر، فمضوا يقيمون كنائس جديدة أهمها سان ماركوس San Marcos وسان بلاس San Blas وشنت ياقب Santiago. وكان العرب ينزلون كثيرا بهذه المدينة في غزواتهم نحو الشمال، ثم تخوفوا من كثرة النصارى فيها، فأخرجوا الكثير منهم إلى الأودية المحيطة بها لكي يجعلوا البلد ثغرا. ويبدو أن مقامهم بها لم يطل، لأنهم لم يخلفوا فيها إلا أثرا قليلا جدا، ولم يرد لها ذكر كثير في التواريخ الإسلامية، وقد احتفظت لنا الروايات النصرانية بأسماء ثلاثة من أجبار هذا البلد لقبوا بالمستعربين الثلاثة Los tres santos mozarabes كانوا على جانب عظيم من الزهد والصالح،

حتى لقد فرقوا أملاكهم في الفقراء وخرجوا إلى بادية عند مصب نهر الدوراتون el Rio Duratón وخفف اليهم الناس وعمرت بهم هذه الناحية القاحلة من برديل Bardulia، وهكذا نلاحظ أن الفتح الإسلامي أدى — بطريق غير مباشر — إلى تعمير الكثير من نواحي الأندلس الخالية، وكانت هذه الناحية من أعمر نواحي برديل حينما تكونت فيها إمارة قشتالة خلال القرن التاسع الميلادي^(١).

وعندما اشتد ساعد الإسلام وانتظمت أموره في خلال الدولة الأموية استعاد المسلمون المنطقة الواقعة بين نهري التاجه ودويره، ووضعوا أيديهم على كبار مدائن مثل أبله وشقوبية. وقد ثبتت حدود الإسلام فيما بعد عند خط في منتصف المسافة بين الدويره وتاجه، فبينما كانت أبله وشقوبية من بلادهم نجد شلمنقه خارجة عنها. ولم يحاول المسلمون الوصول إلى نهر الدويره والثبات عنده بصورة دائمة.

وفي خلال السنوات الأخيرة من فترة الولاة تقلص سلطان ٢٤٥ - ميلاد المسلمين عن كثير من نواحي الشمال الشرقي القاصية في إمارات شبرب وأرغون ونبرة جهة البشكنس Vasconia كما تقلص ظلهم من ناحية الشمال الغربي على ماروينا، وإلى هذه الفترة يرجع ميلاد

إمارات شبرب Sobrarbe وأرغون Aragon ونبرة Navarra في ناحية البشكنس وجبال البرت، وكانت هذه الناحية قبيل دخول العرب البلاد مقسمة إلى ثلاث مقاطعات صغيرة هي Calagurri (قلهره) في الجنوب و Segia (Exea de los la balleros) في الشمال الشرقي و Pamplona (نببلونة) في الشمال^(٢). وكلها واقعة في سهل ريوخه Rioja

وكانت قلعة مركز أسقفية عامرة ، فلما افتتحها العرب هرب كبار رجال الدين فيها الى غالة أو الى جليقية ، وأقام بعضهم في أبيت (Oviedo) . وفي هذه السنوات أيضا عاش ذلك الراهب الذى كتب الحوليات التى نسبت زمانا طويلا الى ايزيدور الباجى Isidorus Pacensus ، اذ حسب الناس أنه كان أسبقا لباجه (Pax-Julia) فى البرتغال الحالية . وقد ثبت بعد أبحاث طويلة أن هذه الحوليات لم تكتب فى باجه وانما فى طليطلة ، ولم يكتبها ايزيدور ولكن راهب غير معروف . وهذه الحوليات تاريخ طيب جدا لأحداث الأندلس فى هذه الفترة ، ولأحداث الخلافة الأموية المشرقية كذلك . مما يدل على أن نصارى تلك الأيام كانوا يعرفون الكثير عن أحوال المسلمين عامة وتاريخهم كذلك^(١) .

٢٤٦ - اليهود أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب الى سياسة القوط فى إسبانيا قبل حياى اليهود ، وبيننا كيف كانت هذه السياسة بعيدة الأثر الفتح فى موقفهم من الدولة القوطية جملة ، وفى موقفهم من العرب الفاتحين .

وعلىنا الآن أن ندرس موقف المسلمين منهم بعد الفتح ، وأن نرى كيف كان دخول المسلمين خيرا عليهم ، وسنرى فى غضون الكلام كيف كان موقف المسلمين حاسما فى تاريخ اليهود جملة ، وان المسلمين لو واصلوا سياسة القوط والكنيسة الطليطلية من اليهود لما كان لهم اليوم شأن فى الوجود .

كان موقف الدولة الرومانية من اليهود موقف عدااء واضطهاد ،

وما زال ذلك العداء يشتد حتى قضى الرومان على دولة اليهود فى فلسطين وخربوا بيت المقدس وهدموا معبد سليمان سنة ٧٠ ميلادية ، ففرق اليهود فى نواحي الأرض . وبلغ من كراهة الرومان لليهود أنهم حسبوا أول الأمر أن النصارى يهود ، والى هذا الظن الخاطيء يرجع السبب فى الاضطهادات الأولى التى لقيتها النصرانية من الرومان .

وقد ورثت الكنيسة المسيحية عن الدولة الرومانية هذه الكراهة ، وفى تلك العصور الأولى من تاريخ المسيحية كانت جرائم اليهود حياى المسيح وأصحابه ماثلة أمام المسيحيين جميعا ، فحرص المسيحيون على تتبع اليهود طلبا للثأر . وقد كان هذا التتبع هادئا غير ملحوظ فى المشرق ، وأما فى الغرب ، فقد ثابرت كنيسة روما على تتبع اليهود وتشريدهم ، فهربوا الى النواحي التى كان سلطان هذه الكنيسة فيها ضعيفا ، هربوا الى اسبانيا والشمال الافريقى وبلاد الشرق ، وربما أوغل نفر منهم فى بلاد الجرمان حتى أدركوا سواحل البلطيق ، وفى بلاد الصقالبة حتى القولجا وشواطئ البحر الأسود .

٢٤٧ - اضطهاد وقد كثرت جماعاتهم فى اسبانيا حتى اننا لنجد مدنا كاملة القوط لليهود يعمرها اليهود فى أواخر العصر القوطى ، ومن تلك المدن اليسانه Lucena والبيره Ileberis من مدن الجنوب . وعندما وصل رجال الدين الى السلطان على عهد ريكايريدو ، بدأت المجامع الطليطلية تضيق الخناق عليهم ، فأصدر المجمع الطليطلى الثالث قرارا بضرورة تعميد الأولاد الذين يولدون من زيجات يهودية نصرانية ، ثم أصدر ششوبوتو سنة ٦١٣ قرارا يخير اليهود بين التنصر أو الهجرة من البلاد . وقد عارض القديس ايزيدورو هذا القرار ، وأيد مجمع طليطلة الرابع

قرار ششبتوتو فاضطر الكثيرون من اليهود الى الهجرة وتظاهر بعضهم الآخر باعتناق المسيحية ، وهؤلاء هم الذين يسمون باليهود المستترين Judaizantes . وقد ضاق القوط بهم ذرعا فقرر المجمع الطليطلى الثامن ضرورة تعميدهم من جديد ، وامتحان نصرانيتهم بتقديم لحم الخنزير اليهم ليأكلوا منه . ثم حرمت اقامة الشعائر الدينية اليهودية ، وصود ربع أملاك من ظلوا على اليهودية ، وصبت لعنة الكنيسة على المسيحيين الذين يعاونون اليهود على اقامة شعائرهم ، وقد تتبع القوط اليهود حتى طردوهم من أربونه .

وبلغ هذا التعقب مداه على أيام الملك ايرفيج حيث قرر المجمع الطليطلى الثامن عشر ارغام اليهود جميعا على التنصر أو مباحرة البلاد في مدى عام ، فكانت النتيجة أن زاد عدد اليهود المستترين . وبدأ اليهود يتحركون سرا للقضاء على الدولة القوطية ، وأحسن القوط بما كانوا يدبرون ، فقرر المجمع الطليطلى السادس على أيام اخيكا اعتبار اليهود جسيما رقيقا وتوزيعهم على المسيحيين ، وحرم على هؤلاء الآخرين عتقهم ، وتقرر فصل أولادهم عنهم ، وتنصير الأولاد وتربيتهم تربية مسيحية ، واستثنى من ذلك يهود سبتمانية^(١) .

وقد حاول اخيكا أن يخفف الوطأة عن اليهود ، فأزال عنهم بعض ما كانوا يلحقونه من ارهاق ، ولم يكد اليهود يتنفسون الصعداء حتى بدأوا يكيدون للقوط ، ونسب الى اخيكا أنهم يتصلون بأبناء عمومته في المغرب ويحاولون اغراء العرب بفتح اسبانيا ، فاقبل عليهم ، وأصدر

MANUEL TORRES y PEDRO PRIETO BANCES, *op. cit.* III, p. (١)

المجمع الطليطلى السابع عشر قرارا في سنة ٦٩٤ بالعودة الى الاضطهاد السابق . وليس لدينا — من مراجعتنا العربية — دليل على اتصال اليهود بالعرب وتحريضهم اياهم على المسير الى اسبانيا ، وان كنا لا نستبعده ، لأننا سنجد اليهود الى جانب العرب أثناء الفتح وبعده^(١) .

وقد رأينا كيف وقف اليهود الى جانب المسلمين أثناء ٢٤٨-المسلمون الفتح ، وكيف كانوا يدلونهم على عورات البلاد وثلمات واليهود الأسوار وما الى ذلك ، وكان من الطبيعي أن يكافئهم المسلمون على ذلك ، فاتخذوا منهم حرسا لما يفتتحونه من البلاد الى جانب الحرس الاسلامي . وقد لقي اليهود بعد ذلك تسامحا مطلقا من العرب ، سواء خلال عصر الولاة أو ما بعده ، فكانت لهم بيعهم ورجال دينهم يمارسون شعائرهم ما أحبوا ، ولا نسمع خلال العصور الاسلامية باضطهاد اليهود الا ابتداء من القرن الحادى عشر ، أى بعد سقوط الخلافة واقتراق الكلمة وشيوع الفوضى . ولقد كانت الأندلس جنة اليهود خلال العصور الوسطى كلنا : بلغ بعضهم مبلغ الوزارة ، ونظر اليهم المسلمون نظرتهم الى اخوان ، حتى أصبح الأندلس موئلا لليهود، بل ان حركة بعث اللغة العبرية والأدب العبرى بدأت في اسبانيا ، نشأت ونمت بين أظهر المسلمين وتحت أعينهم ، بل كان بعض علماء المسلمين يعينون اليهود على انشاء نحو لفتهم . ولقد استعرب اليهود منذ زمن مبكر ، فأخذوا لغة العرب وملابسهم واندرجوا في غمارهم^(٢) .

IBIDEM. III, 132.

(١)

LÉVI-PROVENÇAL, *Histoire...*, I, p. 80-81.

(٢)

٢٤٩ - تنظيم وليست لدينا مراجع عربية أو عبرية عن أحوال جماعات جماعات اليهود اليهود في الأندلس الاسلامي ، ولكن القوانين والمشورات التي أصدرها ملوك اسبانيا النصرانية عندما سقطت بلاد الأندلس الاسلامي في أيديهم واحدة بعد أخرى ، تعطينا فكرة عن تنظيم هذه الجماعات في ظلال الاسلام . وجدير بالملاحظة أن أمراء المسلمين و خلفاءهم لم يصدروا تشريعات خاصة باليهود ، مما يفهم منه أنهم كانوا متساوين مع بقية السكان ، فلم تكن هناك حاجة الى تشريعات خاصة لهم . بعكس ما حدث عندما سيطرت النصرانية على البلاد ، إذ أفرد اليهود بمعاملة خاصة ، ومضايقات انتهت بالقضاء عليهم في اسبانيا كلها . وهذا وحده يكفي للدلالة على فضل المسلمين على يهود اسبانيا ، وهو فضل لم يعن مؤرخ يهودى واحد بالإشارة اليه : لقد أظلمهم الاسلام واستنقذهم من أذى القوط والكنيسة ، وبسط عليهم أمراء المسلمين أمانهم ، فلما زال أمر المسلمين من اسبانيا كان ذلك ايذانا بزوال أمر اليهود أيضا .

وتبدو لنا جماعات اليهود ، في الوثائق الاسبانية ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى ، منظمة تنظيما دقيقا . وليس من المعقول أن جماعات اليهود كانت على هذا التنظيم من أول الأمر ، ولكن الطبيعى أن يكون قد بدأ في صورة بدائية ، ثم تكامل مع الزمن ، وقد أتاح له الحكم الاسلامى فرصة هذا التكامل ، بما ضمن من حقوق الدمين ، ومنهم اليهود .

رأينا في كلامنا عن الفتح كيف أن المسلمين كانوا اذا وجدوا في بلد يهودا جعلوهم في جملة حرس المدينة ، و « ضمواهم الى القصة » أى

أنهم أوسعوا لهم مكانا في الجزء المحصن من البلد ، وهو القصة . ومن الطبيعى أن يتجمع اليهود في جزء معين من القصة ، وهذا الجزء هو الذى أصبح مع الزمن حى اليهود أو حارة اليهود ، وحارة هنا تعنى حيا أو قسما من المدينة ، كما هو الحال في المغرب الى اليوم ، إذ تقسم المدينة الى حارات ، وهذا الحى أو الحارة هو الذى عرف فيما بعد باسم اليهودية أو الخودية Juderia في مصطلح اسبانيا النصرانية.

وتسمى جوالى اليهود في النصوص الاسبانية باسم عربى: ٢٥٠ - حكيمة aljama (الجماعة) ، ويغلب أن يطلق هذا الاسم على الجماعات اليهودية جماعة اليهود في النواحي الداخلة في دولة الاسلام ، أو في نواحي قشتالة وليون التى تأثرت بالحضارة العربية بصورة ظاهرة ، أما النواحي التى لم تتأثر بالحضارة الاسلامية الا قليلا ، مثل قطلونية ، فالغالب أن تسمى باسم عبرى : كاحال Kahal . وكان يرأس كل جماعة نفر من الظاهرين منهم يسمى الواحد منهم « البرور » ، وكان لهذا النفر مجلس يسمى « البروريم » (البرورين) وقد يسمى البرور مقدما (الجمع في العبرية مقدميم = مقدمين) أو نعمان (والجمع نعمانيم Ne'emanim) . وكان لكل جماعة نفر من المستشارين يعرفون عادة باليوعازيم (الواعظين) ، ويغلب أن لفظ مقدم غلب في جماعات اليهود التى أقامت في البلاد الاسلامية ، وقد ترجم هذا اللفظ الى الاسبانية عندما زال أمر الاسلام ، فأصبح المقدّمون في المدن التى استغلها النصارى يعرفون باسم أدلاتادوس (adelantados) أو (Adenantados) .

وكان البرورون والمقدّمون والنعمانون ينتخبون أول الأمر ، ثم

أصبح السابقون منهم يعينون من يخلفهم ، وكانت مدة ولايتهم عاما ، وقد اختلف عددهم من مدينة لأخرى بحسب حجم الجماعة اليهودية وأهميتها . وكانوا مسئولين أمام الحكومة الاسلامية عن كل ما يتصل بالجماعة من ضرائب والتزامات أخرى .

وكما كانت للنصارى قوانينهم ، فكذلك كانت لليهود قوانينهم وقضاتهم ، وكانت الادارة الاسلامية لا تتدخل في شئونهم ، بل كان للجماعة اليهودية الحق في تطبيق ما تصدره محاكمها من عقوبات . وفي الحالات التي كان الخلاف فيها يقع بين مسلمين ويهود ، كان الأمر يرفع لقاضى المسلمين .

وكانت لليهود بيعهم التي تقام فيها صلواتهم ، وكانوا أحرارا في ذلك لا يعرض لهم المسلمون في شيء ، وليس لدينا دليل على أن حتى اليهود كان يحاط بأسوار في البلاد الاسلامية ، بخلاف الجودريات في البلاد النصرانية ، فقد كانت لها أسوار عالية . وكذلك كان الحال في بقية بلاد النصرانية ، فقد عرفت في بولندا وألمانيا باسم الجتو Ghetto . وكانت العلاقات بين المسلمين واليهود متصلة مطلقة من كل قيد ، مما جعل اليهود يسرعون بالاندماج في الجماعة الاسلامية ، فاستعربت ألسنتهم وأخذوا لباس المسلمين ، وأسلمت منهم جماعات كثيرة مع الزمن (١) .

(١) اعتمدنا في جمع هذه المعلومات على ما كتبه اليهود عن تاريخهم في إسبانيا ، ومن الغريب أن نقرأ منهم يستطرد عن أحوال اليهود في الأندلس الإسلامى كأنهم يتهربون من الاعتراف بفضل المسلمين ، وفريق آخر منهم ينكر الواقع ويتحامل على المسلمين . وجدير بالملاحظة أن كثيراً جداً من هذه المؤلفات كتب قبل اعتداء اليهود الحالى على العرب واغتصابهم قلعة من فلسطين لإنشاء دولة فيها ، مما يدل على أن اليهود - حتى علماءهم - كانوا يضمرون العداوة والكيد للمسلمين منذ زمن طويل . انظر .

وبعد ، فهل أجدى ذلك على الاسلام والمسلمين شيئا ؟ كانت النتيجة أن وقف اليهود الى جانب النصارى عندما بدأ الصراع بين الجانبين على مصير اسبانيا ، ووضعوا أنفسهم في خدمة الغزاة يقومون لهم بنفس المهمة التي قاموا بها للمسلمين . واذا نحن فسرنا موقف اليهود من الدولة القوطية بما كانوا يلقون منها من العنت ، فما تفسير خيانتهم للمسلمين ولم يلقوا منهم الا خيرا ؟ لقد أحسن المسلمون في القرن الحادى عشر بخطأ أجدادهم فيما جروا عليه من تسامح وكرام مع اليهود . ولكن الوقت كان قد فات ! بيد أن الاسبان أنفسهم تكفلوا بسداد الدين لليهود ، فما كاد الأمر يستتب لهم حتى بدأوا يطاردون اليهود قبل أن يضاردوا المسلمين ، وما زالوا يلحون عليهم حتى استأصلوا شأقتهم من البلد الذي تخونوه أكثر من مرة . وفر من نجا بحياته منهم الى المغرب ونواحي البحر الأبيض وهم اليهود البقراديون ، وهم نصف يهود العالم اليوم . والنصف الآخر هم الأشكنازيون ، وهم سلائ أولئك الذين ذكرنا أنهم فروا أمام اضطهاد الرومان والكنيسة الكاثوليكية الى بلاد الجرماني والصقلية ، تكاثروا هناك وانضمت اليهم جماعات من الهاريين من انفجارات العداوة التي كانت تشور بهم في بلاد أوروبا الغربية ، وفي ألمانيا وبولندا ونواحي روسيا ، عاشوا في

ABRAHAM A. NEUMAN, *The Jews in Spain*. (Philadelphia: The Jewish Publication Society of America) 2 volumes. 1948.

FRITZ BOER, *Die Juden in Christlichen Spanien*

JACOB, *Sources of Spanish Jewish History* (New York 1894)

J. PERLES, *Rabbi Salomo ibn Abraham ibn Aderth*. (Breslau 1863).

مخابيء وأحياء مقفلة تسمى الجِثُو ، ولم يبارحوها الا مع العصور الحديثة . ثم تجمع اليهود جميعا على أيماننا ونسوا ما أسلف اليهم الناس جميعا من أذى ، ولم يصبح لهم هدف في الحياة الا القضاء على العرب والمسلمين ، وما أحسن اليهم في التاريخ أحد بمثل ما أحسن العرب والمسلمون ..

الفصل الحادي عشر الإدارة والمال

سنة ١٨٨٩ ، عن دخل الدولة العباسية أيام المعتصم^(١) ، وهو بيان مضطرب في حاجة الى دراسة طويلة . وهناك بيان ثالث وصل الينا عن طريق المصادفة البحتة ، فقد أراد الوزير على بن عيسى بعد عزله أن يقدم للخليفة المقتدر « حسابا » عما وصل اليه من أموال الجباية وما أنفقته منها ، وقد عثر البارون ألفريد فون كريبير على ذلك الحساب ونشره ؛ وهو بيان خاص لا نستطيع الاعتماد على مافيه اعتمادا تاما ، نظرا لأنه صادر عن وزير في موقف الدفاع عن نفسه^(٢) .

وهذه البيانات كلها لا تعيننا على رسم صورة كاملة لتقسيم الدولة الادارى وشؤونها المالية ، حتى اذا استعنا في فهمها بالشروح التى أوردها الخوارزمى في كتابه القيم « مفاتيح العلوم »^(٣) للمصطلحات المالية ، وبالتفصيل الطيب للمصطلحات الجغرافية والادارية الذى أورده ياقوت في مقدمة « تقويم البلدان » . وربما كانت مصر أوفر البلاد الاسلامية حظا من هذه الناحية ، نظرا لما لدينا من الوثائق البردية ذات القيمة العظيمة ، ونظرا لاهتمام بعض مؤرخى مصر - كالمقريزى في « خطه » والقلقشندي في « صبح الأعشى » ، والنويرى في « نهاية الأرب » ، بالكتابة في مسائل الادارة والتقسيم الادارى وشؤون المال .

* * *

(١) أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي : فبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، لايدن ١٨٨٩ ، ص ٢٣٧-٢٤٠ .

(٢) ALFRED VON KREMER, Einnahmebudget des Abbassiden Reiches. (٢)

(٣) الخوارزمى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب : كتاب مفاتيح العلوم (صنفه سنة ٣٦٦ هـ) القاهرة ١٣٤٤ ، ولايدن ١٨٩٥ .

لم تصمت مراجعنا العربية — الأندلسية وغير الأندلسية —
٢٥١ - قلة عن ناحية من نواحي التاريخ كما صلت عن نواحي الادارة
المراجع عن شؤون المال وشؤون المال . فعلى طول التاريخ الاسلامى وغرضه ،
ليس لدينا بيان رسمى واحد عنيت دولة من الدول
الاسلامية بوضعه ، تورد فيه النواحي الداخلة تحت سلطاتها وحدودها ،
وما يتبع كلا منها من المدن والقرى بوصفها وحدودها ، وما ينبغى على
أهلها من مال ، وما كان لهُؤلاء الناس من حقوق مختلفة الأوضاع
القانونية على الأرض وما فيها ، كما هو الحال فيما يتصل بنظم الدولة
الرومانية . واعتمادنا فيما يتصل بالشرق على بضعة بيانات نقلها بعض
المؤرخين والجغرافيين ، عن أوراق وقعت بين أيديهم بطريق المصادفة ،
تحدد دخل جزء من الدولة أو نفقاته في فترة معينة ؛ ومثال ذلك البيان
الذى أورده ابن خلدون في « المقدمة » ، نقلا عن خط رجل يسميه
أحمد بن محمد بن عبد الحميد « بما يحمل الى بيت المال ببغداد أيام
المؤمن من جميع النواحي ، نقلته من جراب الدولة »^(١) . وهو بيان
ناقص لا يبين الا دخل جزء من أجزاء الدولة ، وهو بعد ذلك حافل
بالمشاكل ، سواء فيما يتصل بأسماء النواحي وتقسيمها ، أو معاني
المصطلحات التى يستعملها . ومثال ذلك أيضا البيان الذى أورده قدامة
ابن جعفر في جزء من « كتاب الخراج » نشره دى -توفيه في ليدن

(١) ابن خلدون : المقدمة . ط . بولاق . ص ١٥٠-١٥١ .

ولكننا لا نملك ، فيما يتصل بالأندلس ، شيئا يشبه ذلك .
٢٥٢ - التقسيم وبين هذا الحشد الحافل من المؤلفات الأندلسية في كل الإداري
فن ، لانجد مؤلفا عنى بناحية كالتى عنى بها المقريرى
والقلقشندى والنويرى ؛ حتى ابن حيان ، أمير مؤرخى الأندلس ، لم
يجد علينا الزمان بنسخة كاملة من تاريخه . وليس فى القطع التى بين
أيدينا منه شيء يتناول التقسيم أو التنظيم الإدارى ، بل لم يورد لنا
بيانا شافيا عن نواحى الدولة وأموالها ، مع أنه وأباه كانا من كتاب
الدولة ورجال الدواوين ، ومع أنه كان ينقل عن أحمد بن محمد الرازى
وابنه عيسى بن أحمد ، وكان كلاهما من عمال الدولة وخواص الأمراء .

ولا يعلل هذا الصمت الا بافتراض أن التقسيم الإدارى للأندلس
والجبايات التى تقرر على النواحى لم تكن ، بالنسبة للأمراء أو كتابهم،
مسألة تستوقف الاهتمام والنظر ، كأن العرب حينما دخلوا البلد
وجدوا فيه نظاما إداريا جاريا ثابتا صالحا فجزوا عليه ، دون الحاجة
الى إعادة التخطيط والتنظيم ، وكأن الظروف العامة فى الأندلس ، الى
سقوط الخلافة الأموية على رأس المائة الخامسة للهجرة ، كانت مستقرة
بصفة عامة ، وكأن مقادير الجباية كانت وافرة طوال هذه الفترة ، فلم
تقع الدولة فى أزمت مالية وإدارية كالتى تعرضت لها دولة العباسيين ،
أزمات جعلت الناحية المالية هى المشكلة الرئيسية للخلافة العباسية من
أواخر القرن الهجرى الثالث ، ولم يتورط الأمراء والخلفاء الأندلسيون
فى تلك الأخطاء الفادحة التى زعزت الأسس العامة التى قامت عليها
دول المشرق ، فاضطرت الى إعادة التنظيم والروك ، وزيادة الجبايات
وابتكار الجديد منها ، وما الى ذلك .

وهذا — على الأقل — هو ما يبدو لنا مما بين أيدينا من
٢٥٣ - كتاب تاريخ الأندلس . فعلى الرغم مما يحفل به هذا التاريخ من
الأندلس وتقسيمه الإداري أخبار الفتن والثورات ، فإن الحال كان دائما رخيا
والناس فى سعة . وبيت المال عامرا بالدخل والمدر ، حتى
فى أيام فتنة العرب وأهل الذمة التى شغلت الأندلس من أواخر اماره
محمد الى منتصف عصر عبد الرحمن الثالث ، لا نسمع عن افلاس بيت
المال أو مصادرات العمال والوزراء والتجار التى يحفل بها تاريخ دول
المشرق ، وهذا أمر لا يمكن أن ينتج الا عن رخاء شامل جعل عامة
السكان بنجوة من الفقر المدقع الذى يؤدى الى الثورة ، ولا يمكن أن يكون
الا اذا كانت هناك موارد مستمرة منتظمة لثروة الأفراد والدولة ، مما
لا يمكن أن يتحقق الا مع افتراض وجود نظام إدارى سليم وتنظيم
مالى صالح ، هذا بالاضافة الى الحكمة الادارية التى اتصف بها الأمراء
والخلفاء ، والنزاهة — النسبية — فى شؤون المال والحكم التى اتصف
بها الوزراء والعمال ورجال الدولة فى العاصمة والنواحى .

وهذا الاستقرار الإدارى والاقتصادى ، هو الذى صرف المؤرخين
والجغرافيين عن الموضوع ، لأن مؤرخ التاريخ الاسلامى انما يؤرخ
عادة للحوادث الجسيمة والثورات والفتن والاضطرابات ، فاذا لم يجد
من ذلك شيئا ملاء فراغ صفحاته بأخبار الشعراء والكتاب والفقهاء ومن
اليهم . وان الناظر الى تاريخ دول المشرق فى موجز تاريخى جامع ،
مثل « الكامل » لابن الأثير ، ليجد أن المشكلة الرئيسية التى دار عليها
تاريخ المشرق حتى نهاية العصر العباسى الأول هى مشكلة الحكم : من
يحكم ومن لا يحكم ؟ من يرث الخلافة ومن لا يرثها ؟ وابتداء من خلافة

الاسلام في المشرق ، ولكنها أفلست تماما في منتصف العصر الفاطمي بسبب سوء الادارة وفساد النظام المالي ، وتوالت عليها المجاعات والغلوات والمحن التي يفصلها ويشرح أسبابها المقرري في كتابه الفريد في بابه « اغاثة الأمة وكشف الغمة » . ولسنا نجد في الأندلس شيئا يشبه ذلك : لانجد أميرا أو خليفة يسمح أراضى الدولة أو يعيد تحديد الأقسام الادارية ، لانجد كورا يجمع بعضها الى بعض أو تقسم تقسيما جديدا لمواجهة ظروف ادارية طارئة ، ولا نجد جبايات ثقيلة تفرض على الناس فيشكون منها . وهذه ظاهرة لا تفسر الا بما قلناه : وجد العرب تقسيما اداريا مستقرا صالحا ، فأخذوه كما هو ، ووضع العرب من أول الأمر نظاما ماليا لم يحتاجوا بعد ذلك الى تغييره ، ومضى العمل به على ما هو عليه ، ولم يتعرض واحد من النظامين لشيء من التغيير الحاسم يستوقف انتباه المؤرخين .

ثم اننا نجد أن كل التفاصيل التي لدينا عن تقسيم الأندلس الى كور وأقاليم تتفق فيما بينها اتفاقا واضحا مع اختلاف العصور التي كتبت فيها ، وحتى مع افتراض أن كل ما كتب بعد الرازي أخذ عنه ، فلا يعقل أن ينقل عنه أحمد بن عمر بن أنس العذري المتوفى سنة ٤٧٨/١٠٨٥ ، وأبو عبيد البكري المتوفى سنة ٤٨٧/١٠٩٤ ، ومحمد بن أيوب بن غالب الغرناطي المتوفى في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وأبو الحسن على بن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥/١٢٨٦ ، ومحمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري الذي كتب في سنة ٨٨٦/١٤٨١ ، وغيرهم كثيرون ، دون أن يشير واحد منهم الى تعديل أو تغيير أصاب نظام الكور وحدودها وما يتبعها من المدن رغم اختلاف الأعصر التي كتبوا فيها . ولقد زار الأندلس رحالة

الوائق تختفي مشكلة الحكم لتحل محلها المشكلة المالية ، فقد كانت الدولة في حالة افلاس حقيقي من عهد المتوكل ، وعلى صخرة الأزمة المالية تهاوى الخلفاء والوزراء والكتاب ، وعجز الجميع عن أن يجدوا لها حلا ، وانتهى الأمر بزوال الدولة كلها جملة . وواضح أن المشكلة المالية بدأت من أول يوم قامت فيه دولة بنى العباس ، فقد تربع خلفاؤها على امبراطورية واسعة تضم ولايات فيسيحة ، لكل منها طبيعة وأحوال خاصة ، فكان لابد من وضع نظام اداري وآخر مالى ، ولم يوضع هذا ولا ذاك . ومضت الأيام والخليفة لا يعرف ما عنده وما ليس عنده ، والرعية لا تعرف ما عليها ، ولم يتنبه الى الأمر أحد طالما كانت الدولة في سعورها والجباية وافرة ، ولكن الاتفاق كان دائما أكثر من الوارد ، وقد أحس بذلك هارون الرشيد فطلب الى أبي يوسف القاضي أن يضع له دستورا اداريا ماليا ، فوضع له مبحثا فقها لم ينتفع به الرشيد أو من جاء بعده . وجاء يوم وجد الخليفة فيه بيت المال خاليا ، فبدأ في مصادرة أموال الناس ، ونظر الوزراء والكتاب الى المكوس والمغارم والمعاون يقتضونها من الناس قسرا ، فشبكت الهمم وأخذت الثروة القومية تتلاشى ، ونزر الوارد الى بيت المال شيئا فشيئا ، حتى وصلت الدولة الى الافلاس ، وبدأت مأساة تصفية الدولة العباسية من القرن الرابع الهجري .

أما في الأندلس فلم يحدث من ذلك شيء ، وهذا ما يحدو بنا الى القول بأنه لابد أنه كان هناك نظام اداري مالى ثابت سليم ، لأن الثروة الطبيعية للبلاد لاتغنى شيئا اذا كان النظام فاسدا . فقد كان « ارتفاع » الأهواز مثلا مضرب المثل ، ولكن سوء النظام وفساد ذمم العمال هبط بها الى حضيض الفقر البالغ . ومصر كذلك كانت من أغنى بلاد دولة

كابن حوقل ، وكتب عنه جغرافيون كابن الفقيه وابن رسته والاصطخرى والمقدسى ، وهم جميعا ممن يهتمون بالتقسيمات الادارية ونظم المال ، فلم يبين أحد منهم حقيقة ذلك التقسيم أو التعديلات التى أدخلت عليه ، بل وقف ياقوت طويلا عند مصطلحات الأندلسيين الادارية ، وبين الفروق بينها وبين ما يستعمله أهل المشرق ، دون أن يشير الى أصول هذه المصطلحات وما يمكن أن يكون قد نالها من التغير والتعديل . وكل ذلك يلقى فى الروع أن الرازى ، عندما كتب « صفة الأندلس » ، انما كان يكتب عن نظام مقرر ثابت لم يتكلف العرب فى وضعه مشقة . وليس فى ما بين أيدينا من كتب التاريخ اشارة الى وضع هذا النظام أو من وضعه أو فى أى وقت كان وضعه ، مما ينتهى بنا الى القول بأن العرب وجدوا فى الأندلس عند دخولهم تقسيما اداريا ثابتا للبلاد ، فساروا عليه مع بضعة تعديلات شكلية اقتضتها الأحوال الجديدة — ونشير اليها — واستبدلوا ما وجدوا من التسميات والمصطلحات بما حملوه معهم من المشرق ؛ وثبت الأمر على ذلك .

فاذا صح هذا رأى ، فما هو هذا التقسيم ؟ هل هو تقسيم اسبانيا الادارى على عهد القوط ؟ ثم ، ما هو هذا التقسيم القوطى ؟ ما أصله وما حدوده ، وما هى درجة انطباقه على ما بين أيدينا من تقسيم الأندلس الاسلامى الى كور وأقاليم ؟ .. أم هل هو التقسيم الكنسى الى مطرانيات وديقونيات ؟

٢٥٤ - أصول من الثابت أن القوط لم يضعوا لاسبانيا تقسيما اداريا ، التقسيم الإدارى وأنهم قنعوا بالتقسيم الرومانى الذى وجدوه فى البلاد الإسلامى فى عند دخولهم ، فلنرجع الى العصر الرومانى لنتتبع هذا الأندلس التقسيم من أوله .

كانت للرومان عناية خاصة بالتنظيم الادارى ، فلا تكاد ناحية من النواحي تدخل تحت سلطانهم حتى يخضعوها للنظام الادارى العام لدولتهم ، ويحددوا وضعها السياسى داخل الدولة أو علاقتها بها اذا كانت محالفة أو صديقة ؛ وكان مجلس الشيوخ لا ينفك يعيد النظر فى النظم ويعدلها أو يعيد وضعها بما يتفق مع الظروف القائمة . فلما اختفت الجمهورية وجاء عصر الامبراطورية تابع الأباطرة هذا الاهتمام ، ومن هنا كان لكل ولاية من ولاياتهم تاريخ ادارى حافل بالتطورات . وفيما يتصل باسبانيا سار هذا التطور جنبا الى جنب مع امتداد سلطان الرومان على الجزيرة وتمكن قبضتهم منها ، وتأثر الى جانب ذلك بما قام فى البلاد من ثورات أو حركات معادية للرومان . وبهنا من هذه التقسيمات كلها التقسيم الأول الذى وضع سنة ٢٠٦ قبل الميلاد ، والتقسيم الأخير الذى تم فى عهد دقلديانوس ، والذى يسمى عادة تقسيم قسطنطين أو « قسمة قسطنطين » كما يقول كتابنا الاسلاميون .

٢٥٥ - تقسيم فأما التقسيم الأول فهو الذى يجعل اسبانيا قسمين اداريين دقلديانوس كبيرين ، يحكم كلا منهما موظف كبير بلقب پروكنسل المعروف بقسمة Proconsul أولا ثم بلقب پرايتور Praetor فيما بعد ؛ قسطنطين هذان القسمان هما اسبانيا الدنيا Hispania Citerior واسبانيا القصوى Hispania Ulterior . وقد كان هذا التقسيم أساسا لكل تقسيم جاء بعده فى الفترة الرومانية ، فانقسمت اسبانيا القصوى فى عهد الامبراطور أجريبا سنة ٢٧ قبل الميلاد الى ولايتى بيتى

Betica ولشيدانية Lusitania . وفى أيام كاراكالا ظهرت ولاية اسبانيا الدنيا الجديدة الأنطونية Hispania Nova Citerior Antoniana وتضم اقليمى جليقية وأشتريس ، وفى عهد دقلديانوس ظهرت ولايتا

وهي لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة ، الى أقصى الغرب ، وأضاف الثلاثة أيضا فسمها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوربولة الى سرقسطة وما وازاها . وسمها غير قسطنطين بالأندلس الغربى وبالأندلس الشرقى ، وذلك بجرى الأنهار ؛ فما جرى منها الى الغرب سماه الغربى ، وما جرى أنهاره الى الشرق سماه بالشرقى . والقسمة من تدمير ، ونهرها جار الى الشرق ^(١) . واذا نحن نظرنا الى التقسيم الرومانى الأول الى اسبانيا الدنيا واسبانيا القصوى تبينا أنه ينطبق تماما مع كلام العذرى ، فيما عدا المدن التى يذكرها ، فان الحد الفاصل بحسب التقسيم الرومانى هو نهر تدمير بالفعل ، أما قوله ان بعضهم يسمي القسمين الأندلس الشرقى والأندلس الغربى فيفسره تصور الجغرافيين المسلمين للهيئة العامة لشبه الجزيرة الايبيرية ، وهو تصور يجعل الساحل الشرقى لشبه الجزيرة كله ساحلا جنوبيا تقريبا . ولأبى عبيد البكرى نص أكثر تفصيلا وأهمية ، لا بالنسبة

٢٥٦ - قسمة للتقسيم الإدارى أيام الرومان ، بل أيام المسلمين كما قسطنطين كما يعرضها البكري سنرى ، قال :

« وحَدَّتْ الأوائل الأندلس بعبارات مختلفة . وحدّها

قسطنطين حدودا ستة : جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة ، وهو حد ما بين غالوش (Gallos = الغاليون) وبين الأندلس (إسبانيا) وأضاف إليها سبع مدن مما حولها وهي بَطَرَرَشْ = Béziers (بيزيريه) ، وطلنيوشة (Tolosa = تولوز) ومقلثونة (Maguelonne = Magallona) ونومشون (Nimes-Nemausc) وقرقشونة.

(١) أحمد بن عمر بن أنس العذرى : نظام المرجان فى المسالك والممالك (مخطوط يده لآشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى) ورقة ١٧ .

اسبانيا الطركونية Hispania Tarraconensis واسبانيا القرطاجنية Hispania Cartaginensis ^(١) . وهذا يصل بنا الى تقسيم دقلديانوس الأخير الذى ينسب الى قسطنطين ، وبمقتضاه أصبحت اسبانيا ديقونية Diocesis — أى عملا كبيرا بالمصطلح العربى — تابعة لمديرية الغالتين Praefectura Galliarum داخلة فى القسم الغربى من الدولة الرومانية ، وهو التقسيم الذى وصل إلينا فى وثيقة رسمية اسمها : بيان بالوظائف الجليلة فى الدولة وغير ذلك Notitia dignitatum utriusque imperii ^(٢) . وتضم اسبانيا بحسب هذا البيان ست ولايات Provinciae ، هى : باطقة Betica ، ولشدانية Lusitania ، وجليقية — أشتريس Calicia Astúrica ، والولاية الطركونية ، والولاية القرطاجنية ، ثم أضيفت إليها مرطانية الطنجية Mauretania Tingitana والجزائر الشرقية Provincia Balearica . وقد ذكر كتابنا العرب هذه التقسيمات مع تحريفات ظاهرة ستحدث عنها فيما بعد ، فقال أحمد بن عمر بن أنس العذرى : « ... تم ذكر الأندلس الأول على قسمة قسطنطين ، وهو الذى جزأها على ستة أجزاء : وأضاف الثلاثة فسمها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحلفاء ،

MANUEL TORRES, *La Peninsula Hispanica, Provincia Romana*. (١)

En Historia de España dirigida por R. MENÉNDEZ PIDAL, II. Madrid, 1935. P. 371-372.

(٢) نشر هذه الوثيقة الهامة Seeck سنة ١٨٧٦ ، وانظر عنها أيضا :

TH. MOMMSEN, *Vergleichnis der römischen Provinzen aufgesetzt um 297*. Abhandlungen der Berliner Akad. d. Wiss. Phil. Hist. Kl. 1862. S. 489-518. Gesammelte Schriften, vol. V. 1908, S.S. 561-588.

C. JULLIAN, *De la réforme provinciale attribuée à Diocletien*. Rev. Hist. XIX, 1882, p. 331-374.

وفي قرقيسونة هذه الكنيسة العظمى عندهم ، تسمى شنتت مريّة غرائية (Sainte Marie de Grâce) وفيها سبع سوار من فضة ، ولها يوم عيد ترده العجم من الآفاق ، وبينها وبين برشلونة ٢٥ يوما .

وجعل الجزء الثاني من مدينة براقرة (Braga = Bracara) ، وهو حوز جليقية وشليطانية (Celtiana) وهو بلد ابن غومس ^(١) ، وجعل لها اثنتي عشرة مدينة مما حوالها منها : مدينة برطقال (Portus Gallensis = بررتو) ، ومدينة تودى (Tuy = Tude) ومدينة أوربيّة (Auria = Sedes Auriensis) (Lugo = Luco = Lucus Asturicum) ، ومدينة لكث (Orense =) ومدينة برطانية (Santa Maria de Bretona = Britonia) ، ومدينة أشترقة (Astorga = Asturica) ، ومدينة شنت ياقو (Santiago) ، ومدينة كنيسة الذهب ^(٢) ، ولها يوم يرد فيه من أفرنجة ومن رومة ومن جميع نواحيهم كلها . ومدينة ايرية (Iria = Iria Flavia) وتسمى اليوم (Padrón) ، ومدينة بطقة ، ومدينة شارّة (Sarria) .

وجعل الجزء الثالث من مدينة طركونه (Tarragona - Tarracona) وأضاف إليها مدينة سرقسطة وأشقة (Huesca = Osca) وتسمى أيضا وشقة (ولاردة وطرطوشة وتظيلة ، وأعمال بلدان ابن شانجو كلها ^(٣) ،

(١) في القرن الحادي عشر كان الإقليم الواقع في الركن الشمال الغربي من إسبانيا فيما بين شنت ياقب والبحر يسمى بلاد الكلث Celticos .
أما ابن غومس ، فالمراد به علي الأغلب غربية بن فرناندو الأول ملك جليقية في أيام البكري (ملك من ١٠٦٥ إلى ١٠٧١) .

Cf: LÉVI-PROVENÇAL, *La Péninsule Ibérique*, p. 247, n. 3-4.

(٢) يبدو أن هنا اضطرابا في سياق الكلام . وقد يستقيم المعنى إذا قلنا : و [هي] مدينة كنيسة الذهب ...

(٣) المراد هنا شانججه الرابع ملك نبره ، وقد حكم بين سنتي ١٠٥٤ و ١٠٧٦ .

Cf: LÉVI-PROVENÇAL, *La Péninsule Ibérique*, p. 248, n. 1

وبلد بليارش (Pallars) ، وبرشلونة وجرنندة (Gerona) ، ومدينة أنبورش (Ampurias) ، ومدينة بنبلونة ومدينة أوقه (Oca = Auca) ومدينة قلهرة (Calagurris = Calahorra) ، ومدينة طرسونة (Tarazona) ، ومدينة أماية (Amaya) وتكتب أيضا أمايا .

وجعل الجزء الرابع عشرين مدينة ، قاعدتها مدينة طليطلة ، وأضاف إليها مدينة أوريط (Oreto = Oretum) ، ومدينة شقوبية (Segovia) ، ومدينة أركيكة (Ercávica) ، ومدينة وادي (الحجارة) ، ومدينة شغونسة (Sigüenza) ، ومدينة أكشومة (Osma = Oxuma) ، ومدينة بلنسية ، ومدينة بلازيا (Palencia = Palentia) ، ومدينة أوربولة ، ومدينة ألس (Elche) ، ومدينة شاطبة ، ومدينة دانية ، ومدينة يياسة (Baeza) ، ومدينة قسطلونة (Cazlona = Castulona) ، ومدينة منتيشة (Mentesa) ، ومدينة وادي آش (Guadix) ، ومدينة بسطة (Baza) ومدينة أرش (Urci) وهي بجانة (Pechina) ^(١) .

وجعل الجزء الخامس قاعدته مدينة ماردة ، وأضاف إليها اثنتي عشرة مدينة ، وهي : باجه (Beja) ، مدينة أكشونبه (Oconoba) ، وبابره (Evora) وشنتره (Cintra) ، وشنترين (Santarem) ، والأشبونة وقلمرية (Coimbrá) ، وقورية (Coria = Caurium) ، وشلمنتقة (Salamanca = Salamantica) ، وصموره (Zamora) وهي محدثة بركا إلى شنت ياقوب .

(١) يلاحظ أن الإقليم المحاور للمرية وبجانة كان يسمى أرض الين ، وقد ذهب ابن عبد المنعم الحميري في مادة بجانة إلى أن الأرض من الأرض وهو العطية أي النحلة ، أي أن أرض الين معناه الإقليم الذي منح اليمينين ؛ وهذا غير صحيح ، وأصل أرض هنا لفظ Urci القديم ، وهو موضع قديم في تلك الناحية .

انظر الترجمة الفرنسية للروض المعطار : ص ٤٧ ، هامش ٣ .

وجعل الجزء السادس قاعدته مدينة اشبيلية ، وأضاف إليها لبله (Niebla) وقرطبة وقرمونة ومورور (Moron) ومرشانة والجزيرة (Algeciras) وتاكرنا وريه وأشونه (Osuna) واستجة (Ecija = Astigi) وقبرة وأعمالها إلى بجانة ، والبيرة وجيان ومنتيته (?) وباكرته (?) وأبذه (Ubeda) وبياسة (Baeza) (١) .

وخلاصة كلام أبي عبيد البكرى أن تقسيم قسطنطين يجعل اسبانيا ستة أقسام كبرى يسميها أجزاء ، وكل قسم يتبعه عدد من المدن كما يلي:

١ - قسم نربونة : ويتبعه ٧ مدن لم يذكر البكرى منها الا خمسا ، هي : بطرش - طليوشة - مقلونة - نومشو - قرقتونة .

٢ - قسم براقرة : وهو حوز جليقية وبلاد الكلت ، وتتبعه ١٢ مدينة لم يذكر البكرى منها الا ١١ هي : برطقال - توذى - أوربة - لكه - برطانية - أشترقة - شانت ياقو - مدينة كنيسة الذهب (كذا) - أيربة - بطقة - شارة .

٣ - قسم طركونة : ويتبعه ١٤ مدينة هي : سرقسطة - أشقه - لاردة - طرطوشة - تطيلة - بليارش - برشلونة - جرندة - أنبورش - بنبلونة - أوقه - قلهرة - طرسونة - أماية .

(١) أبو عبيد البكرى : قطع من جغرافية البكرى نشرها ليثى بروفنسال ذبلا على ترجمته

الفرنسية لـ «الروض المطار»

LÉVI-PROVENÇAL, La Péninsule Iberique, pp. 246-249.

وأدخل في ذلك الجزء « أعمال بلد ابن شانجه كلها » أي نبره (نافار) .

٤ - قسم طليطلة : ويتبعه ٣٠ مدينة ذكر منها ١٨ هي : أوريط - شقوية - أركيقة - وادى الحجارة - شغونسة - أكشومة - بنسية - بلازيا - أوريرة - ألش - شاطبة - دانية - بياسة - قسطلونة - منتيشة - وادى آش - بسطة - أرش (بجانة) .

٥ - قسم ماردة : ويتبعه ١٢ مدينة ذكر منها ١٠ هي : باجة - أكشونة - يابرة - شترة - شتيرين - الأشبونة - قلورية - قورية - شلمنتقة - صمورة .

٦ - قسم اشبيلية : ويتبعه ١٧ مدينة هي : لبله - قرطبة - قرمونة - مورور - مرشانة - الجزيرة الخضراء - تاكرنا - ريه - أشونه - استجة - قبرة (وأعمالها) - البيرة - جيان - منتيته (?) - باكرته (?) أبذه - بياسة .

ونلاحظ مايلي :

١ - أن البكرى لا يعطى الأجزاء أسماء واضحة ، ولا يضع لها حدودا بل يكتفى بالقول : « جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة » و « جعل الجزء الثالث من مدينة طركونة » ، والمراد بهذا على الأتلب : « من حد مدينة نربونة » و « من حد مدينة طركونة » ، ويراد بذلك الزمام الذى يتبع المدينة بحسب النظام الرومانى كما سئرى .

٢ - أنه لم يذكر قواعد الأجزاء الا فى ثلاث حالات : الرابع وقاعدته طليطلة ، والخامس وقاعدته ماردة ، والسادس وقاعدته اشبيلية .

٣ - المفهوم ضمنا أن لكل مدينة مما يذكر أعمالا تابعة لها ، فهو يقول مثلا : « وقبرة وأعمالها الى بجانة » ، ويقول مرة أخرى : « وصمورة وهى محدثة برا الى شنت ياقوب » ، وهى عبارة جعلها ليشى پروفسال فى ترجمته الفرنسية :

Zamora (Samūra) ville de fondation moderne, dédiée à Saint Jaques.

أى أنه قرأ برا بكسر الباء ، وفسر « الى شنت ياقب » بقوله : « شنت ياقوب » . ونفضل نحن أن نقرأ العبارة : « وصمورة » ، وهى محدثة ، [وأعمالها] برا الى شنت ياقوت « قياسا على « وقبرة وأعمالها الى بجانة » .

٤ - وقد سميت الأجزاء اما باسم القاعدة ، كما هو الحال فى الأجزاء الرابع والخامس والسادس ، أو بالنسبة الى المدينة الرئيسية فيه ، التى يميزها بقوله مثلا : « جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة » ، أو « وجعل الجزء الثانى من مدينة براقرة » ، ويريد أن للجزء يحكم من المدينة التى يذكرها .

* * *

٢٥٧ - التقسيم واذا نظرنا الى هذا التقسيم وجدناه ينطبق تماما من حيث الكنسى الأجزاء على التقسيم الكنسى لاسبانيا أيام القوط ، فقد كانت هناك ست مطرانيات تقابل تماما أجزاء قسطنطين بحسب رواية البكرى ، وينطبق كذلك على تقسيم دقلديانوس الذى وصل الينا فى وثيقة سنة ٢٩٧ م التى أشرنا اليها ، واليك جدولا مقارنا يوضح هذه الحقيقة :

تقسيم دقلديانوس پروفاوسييات (ولايات)	تقسيم قسطنطين أجزاء	التقسيم الكنسى مطرانيات	قواعد الأجزاء
ما بين جاليوش والأندلس	أربونة	نربونة	
جليقية أشتريس	حوز جليقية	جليقية	براقرة
طركونة	طركونة	طركونة	طركونة
قرطاجنة	طايطة	قرطاجنة	طايطة
لشُدانية	ماردة	لشُدانية	ماردة
باطيطة	إشبياية	باطيطة	إشبياية

ويلاحظ أن تقسيم دقلديانوس لا يجعل ولاية نربونة داخلية فى ديقونية اسبانيا وانما فى ديقونية غالة ، وكانت الاثنتان تكونان مديرية الغالتين Praefectura Galliarum كما قلنا .

وقد أضيفت الى ديقونية اسبانيا فى نفس عهد دقلديانوس ولاية مرطانية الطنجية (Mauretania Tingtana) ، وهى اقليم طنجة أو ما عرف فيما بعد باسم العدو الافريقية . وفيما بين ٣٧٠ و٤٠٠ ميلادية أضيفت الى اسبانيا ولاية الجزائر الشرقية (Provincia Balearica) .

وسنقف عند هذا التقسيم قليلا ، لأنه فيما نعتقد الأساس الذى قام عليه كل تقسيم ادارى آخر له به الجزيرة ، بما فى ذلك التقسيم العربى . لأن شبه الجزيرة الايبيرية مقسم طبيعى الى أقسام تصلح بهيتها الجغرافية لأن تكون أقساما ادارية ، وخاصة بالنسبة للأقسام الصغيرة . واذا كان تقسيم اسبانيا الى عمالات كبيرة ، ثم تقسيم هذه العمالات الى

مديريات قد مر في أدوار مختلفة ، حتى انتهى الى الصورة التي ثبت عندها في تقسيم دقلديانوس سنة ٢٩٧ ميلادية ، فان تقسيم هذه المديريات الى أقسام إدارية أصغر لم يكلف الرومان أى عناء ، بل يبدو أن الرومان وجدوا هذه الأقسام الصغيرة قائمة ، فلم يكن عليهم الا أن يثبتوا حدودها الجغرافية ويضعوها في الوضع القانوني الذي ينسجم مع نظمهم الخاصة بالمدن والأقاليم . وهذه التسميات نفسها هي التي أخذتها الكنيسة وجعلتها أساسا لتقسيم المطرانيات الى ديقونيات ، مع بعض تغييرات طفيفة اقتضتها مطالب التنظيم الكنسي (١) ، وأخذها العرب بعد ذلك مع ادخال تغييرات محلية في الغالب اقتضتها طبيعة النظام الاسلامي العام ، وستحدث عن ذلك في حينه .

* * *

٢٥٨ - المدينة ومن الواضح أن هناك تشابها بين الأسس العامة التي سار أساس للتقسيم عليها كل من الرومان والعرب في تقسيماتهم الادارية . فقد الإداري الروماني كانت « المدينة » هي الأساس الذي قام عليه التنظيم الإداري السياسي الروماني (٢) ، وكانت المدن هي المراكز التي اعتمد عليها العرب أيضا في الحكم والادارة . ولقد انتفع العرب باهتمام الرومان بالمدن وتنظيمهم اياها وعنايتهم باتقان بنائها وتزويدهم اياها بما استطاعوا تزويدها به من وسائل العمران المدني ، ولا يبدو ذلك بصورة هي أوضح مما يبدو في الشام والأندلس . ففي الشام تعلق

(١) MANUEL TORRES y RAMÓN PRIETO BANCES, en *Hist. de España*, dirigida por R. MENÉNDEZ PIDAL, III, Madrid 1940. pp. 276-279.

(٢) MANUEL TORRES, en *Hist. de España*, dirigida por R. MENÉNDEZ PIDAL, II Madrid 1935, p. 379.

العرب بالمدن وتجمعوا فيها وجعلوها مراكز عسكرية ، وألحقوا بكل منها جانبا من الريف اعتبروه حوزا للمدينة أو زماما ، وهذا هو ما عرف بالأجناد . أما في الأندلس ، فكان شأن المدن أهم ، وكان الرومان عندما دخلوا البلاد ، قد وجدوا فيها مراكز ومواضع عامرة بالناس ، بعضها يلتف حول مدن كبيرة (Civitas - Civitates) وبعضها يلتف حول مدن بدائية أقرب الى القرى (Gens - Gentes) .

وكان مفهوم المدينة عند الرومان مفهوما سياسيا واجتماعيا خاصا ، أخذوه عن الاغريق وأضافوا اليه وعدلوه بما يناسب الطبيعة العسكرية السياسية الخاصة بدولتهم . وأصبحت المدينة مرادفا لنظام سياسي يتضمن حريات وحقوقا وواجبات معينة يعتبر الحصول عليها حصولا على حق المواطنة الرومانية . فإذا دخل الرومان بلدا قسموه أقساما بحسب طريقة دخول نواحيه في حوزتهم : عنوة أو صلحا أو بمحالفة أو ما الى ذلك . وقد يرفع الرومان مستوى بعض النواحي بعد زمن وينحونها حق المدينة أى حق المواطنة . ولم تكن المدينة عندهم مجرد مدينة ، بل كان لها زمام محيط بها (Orbs-is) تابع لها حكمه كحكمها وسكانه مواطنون فيها ، لهم ما لأهلها من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات . وإذا كان هذا الزمام واسعا قسم الى أقسام ، لكل قسم اسم ينسب الى قرية كبيرة أو الى زراعة غالبية عليه أو الى ظاهرة معينة تميزه كسند جبل أو جبل أو ساحل أو سهل أو ما الى ذلك . فلم تكن هناك نواح لا تتبع مدينة ما ، وإذا ذكرت مدينة قصد في نفس الوقت ما تتبعها من النواحي . وقد ثبت الرومان زمامات المدن وفصلوا أمرها فيما أصدره من وثائق خاصة بها (١) .

وعندما ظهر نظام الولايات (Provinciae) في نهاية أيام الجمهورية الرومانية نشأت المديريات عن مجموعات من المدن وزماماتها ، وحددت مساحة كل منها بمعرفة لجنة خاصة من عشرة رجال ، وأصدر بمديريات كل ناحية من أملاك الرومان قانون خاص يحدد ما يتبع كلا منها من المدن وأحوازها ، وفيما يتصل بإسبانيا نديننا قانون أو قائمة ولايات إسبانيا (Lex o Formula Provinciae Hispaniae) الذي يحدد ما يتبع كل مديرية من المدن والنواحي . وإذا كانت المديريات قد تكونت من زمامات ما أدخل في حوزها من مدن ، فإن الأساس الثابت للتقسيم الإداري في إسبانيا كان المدينة وحوزها ، فقد تغيرت حدود المديريات من عصر لعصر ، أما زمامات المدن فقد ظلت ثابتة وظلت هي الأساس ، ومضى الأمر على ذلك بقية أيام الرومان وأيام القوط أيضا .

وقد تحددت أحواز المدن بالوثائق التي كان يصدرها الرومان ، فقد كانوا أهل تنظيم وترتيب ، وعناية بتسجيل كل شيء . وقد كانوا إذا فتحوا بلدا اجتهدوا في ترتيب أرضه وأهله : فأما الأرض التي وجدوها أو أدخلوها في حوزة مدينة فاحتفظ أهلها بالحقوق التي منحها الرومان للمدينة ، واعتبرت هذه الأرض (Municipia) من الناحية القانونية . وأما الأرض التي استصفوها أو وجدوها ملقة لا تتبع أحدا فقد أنشأوا فيها المستعمرات (Coloniae) وجلبوا إليها المعمرين (Coloni) لتعميرها لقاء ضريبة يؤدونها على أساس ما يمتلكه كل معمر من أرض . أما المدن نفسها فقد اختلف وضعها بحسب علاقتها بالرومان ، فهناك مدن دخلت في طاعة الرومان صلحا ، وهناك مدن دخلت في طاعتهم عنوة . وكانت للرومان أسس قانونية معقدة بهذه المدن ، فمنها ما صالح الرومان بعقد صلح يجعلها حليفة لهم (Foedera) ، ومنها ما منحه

الرومان وضع الحليف (deditio) ، ومنها ما كان يمنح حق إنشاء مجلس بلدي له حق التصويت في المسائل الهامة ، ومنها ما لم يكن له هذا الحق (sine sufragio) ، ومنها ما كان يدفع للرومان جزية معينة (Stipendium) أو (Tributum) ، ومنها ما كان معنى منها . وكان للوضع الخاص بكل مدينة أثر عظيم في تاريخها خلال العصرين الروماني والقوطي ، سواء فيما يتصل بمركز البلد في الإقليم الذي يقوم فيه أو بطريقة حكومته لنفسه والحوز التابع له أو بعلاقته بالدولة المركزية : الرومانية أولا ثم القوطية بعد ذلك .

والمهم لدينا أن هذا كله كان عظيم الأثر بالنسبة لوضع هذه البلاد ونواحيها في الدولة الإسلامية . فنلاحظ مثلا أن معظم نواحي إسبانيا لم تقاوم الفاتحين المسلمين ، لأنهم عقدوا مع أهلها محالفات محلية تشبه تلك التي كانت قائمة بينهم وبين الرومان ، فلم يتغير عليهم شيء بدخول المسلمين ، ومن ثم فلم يكن هناك ما يدعو إلى المقاومة ، واستقر معظم هذه النواحي داخل الدولة الإسلامية استقرارا سلميا قائما على تعاقد مكتوب ، عقد حفظ لها حقوقها وحدد التزاماتها حيال الدولة الإسلامية . وقد احترم العرب هذه العهود ، حتى في أيام الفتن التي فصلنا أمرها حرص العرب على ألا يمسوا المدن وأهلها ، وتبعت المدن نواحيها ، فكان ذلك من أوكد أسباب الاستقرار والرخاء في الأندلس الإسلامي فيما بعد .

ومن المعروف أن أوضاع المدن قد تقارب بعضها من بعض خلال القرون الرومانية المتأخرة ، وأن أوضاع الناس قد تقاربت كذلك ، فلم يعد هناك إلا الأحرار والعبيد ، فأما الأحرار فكان منهم أهل المدن الأصلاء (Cives) وأهل النواحي التابعون لبلديتها (Municeps)

والمعمرون (Coloni) والزراع (Inculae) . وكانوا كذلك اما مدنيين تابعين لمشيخة البلد (Curia) أو أهل قبائل جرمانية لم يستقروا بعد تابعين لمشيخة القبيلة ، وكانت تكون من المشيختين هيئة تسمى (Comitia Tributa) أر (Comitia Curiata) تقوم بحكم البلد والحوز التابع له ، يتقاسم رجال المشيختين الوظائف فيها^(١) .

ولم يدخل القوط تغييرا ذا بال على هذه الأوضاع ، فقد ٢٥٩ - القوط حلوا في البلاد محل الرومان^(٢) ، وكانوا من الناحية والتقسيم الروماني القانونية معتبرين مجرد نازلين في البلاد بمقتضى العرف الروماني المسمى (Hospitalitas) وهو لفظ عسير الترجمة ، فمن الناحية اللغوية معناه « الضيافة » ، أما في الواقع فأخذ معنى الاستيلاء على نسبة معينة من الأرض والعقار ، أى أن الهوسبيتاليات كانت أول الأمر اذنا للقوطى في أن ينزل وعائلته « ضيفا » على مزارع روماني مع اعطائه حق الملكية على ما يتنازل له عنه المزارع الروماني وينزله فيه من بيت أو أرض . ثم أصبحت هذه الضيافة حقا مقررا للجرماني ، يستولى بمقتضاه على أراض وعقارات . وربما أقطعت الدولة لحلفائها من الجرمان ناحية بأكملها ينزلونها مزارعين مع أهلها ويكون لهم في الواقع حق ملكيتها ، ومهما كانت الصورة التى نزل بها القوط أرض الدولة ، فإن الأمر انتهى بتملك القوط لما نزلوا به من النواحي على صورة تعبر عنها إحدى المدونات بقولها فيما يتصل بانزال الدولة

MANUEL TORRES, *op. cit.* p. 384.

(١)

ANTONIO BALLESTEROS y BERETTA, *Historia de España y* (٢)

su influencia en la historia universal, tomo I (2a. ed. Madrid, 1934. p. 909.

الرومانية للقوط في أقطانية : « ان أقطانية سلمت المقوط Aquitania Ghotis tradita » .

وكانت القاعدة في مثل هذه الحالة أن القوط كانوا يستولون على ثلثي الأرض ، ويتركون للمزارع الروماني أو اللاتيني أو الايبيري الروماني الثلث فحسب ، أى أن كل قرية أو ناحية كانت تسلم ثلثي أرضها للنازلين بها من القوط ، وكانت القسمة تحدد تحديدا دقيقا في حالة نزول الجرمانى الأرض واشتغاله بالزراعة بيده أو بواسطة عبيده . أما في حالة عدم اشتغال الجرمان بالزراعة ، فكانت القاعدة أن يفلح الناس الأرض ويسلموا ثلثي الغلة للقوط ، وكانت حصص القوط تسمى الأنصبة ، واحدها نصيب (Sors, sortes) ، أما الباقي بيد أهل البلاد فكان يسمى بالأتالات (Terciae)^(١) . ولم تكن القسمة تقتصر على الأرض ، بل كانت تشمل ما عليها من الدور والماشية والريق أيضا . وخرجت من القسمة أراضى الغابات (Compascua) وأراضى المراعى ، فقد تركت مشاعا . أما الأراضى التى كانت تملكها الدولة فقد وضع ملوك القوط أيديهم عليها ، في حين دخلت الضياع الكبيرة (Latifundiae) في القسمة أيضا ، وانتقلت ملكيتها لكبار القوط^(٢) .

وقد دخل القوط غالة واسبانيا قبائل ، يرتبط أفراد كل قبيلة منها برابطة تقابل العصية العربية تسمى (Sippe) وتسمى في المصطلح الروماني (Centena) ، لأن الغالب أن كل قبيلة كان عليها أن تقدم

MANUEL TORRES y RAMÓN PRIETO BANCES, *op. cit.* III. (١)

p. 151.

ANTONIO BALLESTEROS, *op. cit.* I. p. 913.

(٢)

للجيش القوطي مائة من المقاتلين . وقد انحلت روابط العvisية القبلية القوطية بتقادم عهدهم في البلاد ، وخاصة فيما يتصل بالمزارعين منهم .

٢٦٠-اضمحلال وقد أصاب المدن في الدولة الرومانية كلها اضمحلال عام ، المدن خلال حتى ليذهب بعض الباحثين الى أنها أخذت تتلاشى ابتداء العصر القوطي من القرن الرابع الميلادي ، نتيجة لغارات الجرمان واضطراب أمور الدولة وضياح الأمن ، وقد تحول بعضها الى قرى أو حصون ، واختفى بعضها الآخر تماما ، وتحول غرب أوروبا كله الى عالم زراعي قروي ، وانحطت فيه كل الظواهر المتصلة بالمدن كالتجارة والصناعة المنظمين ، وتحول المجتمع الأوربي الى مجتمع زراعي ، وهي الصفة الغالبة التي يوصف بها المجتمع الأوربي في العصور الوسطى المبكرة .

ولما كان العرب قد دخلوا اسبانيا أوائل القرن الثامن الميلادي ، أي في الوقت الذي كانت المدن تتلاشى فيه في بقية غرب أوروبا ، فقد وجدوا فيها كثيرا من المدن باقية في حالة اضمحلال شديد . وذكرها قليل في النصوص على أي حال ، وتذكرها النصوص أيام القوط بالتسميات الثلاث التي كان الرومان يستعملونها : - (Civitas, Civitates) (Oppidum, Oppida - Urbs, Urbis) دون تفريق بين أنواعها أو أهميتها ؛ والثابت أنهم كانوا يطلقون هذه التسمية على كل موضع مأهول مسور ، وكان لها نظام خاص لحكومتها هو نظام المشيخة (الكوريا) الذي أشرنا إليه . وتذكر النصوص أيضا قرى كبيرة غير مسورة وتسميها (Vicos) ، وتذكر القلاع (Castillos) ، ولم تكن مجرد قلاع بل كان يعيش الناس فيها وحولها ، وتذكر الپاجي (Pagi) - مفردا ڤاجوس - ويراد بها الدوار الريفي ، أما المدينة المحصنة القائمة على

مرتفع من الأرض فتسمى (Castrum) ، وتذكر المراجع البرج (Burgos) وهي معسكرات القوط التي تحولت الى مدن أو قرى كبيرة ، والڤيلا (Villa) وهي الدوار يقيمه المالك الكبير وسط أرضه ، ثم تحول الى قرية وربما مدينة وربما سورت وحصنت . وهذه المواضع كلها سيسبقها العرب مدنا دون تمييز أول الأمر ، ثم يميزون بعضها عن بعض بمرور الزمن .

وإذا كانت أحوال الدولة الرومانية في عصورها المتأخرة ٢٦١- الكنيسة قد أدت الى اضمحلال المدن واختفائها شيئا فشيئا ، فإن تحتفظ بالتقسيم الكنيسة احتفظت بالهيكل العام للتنظيم الروماني القديم، الروماني فجعلت المديرية على تقسيم دقلديانوس وقسطنطين مديريات كنسية (Provinciae Ecclesiasticae) يمتد سلطان مطران كل منها على جميع النواحي التي كانت داخلة فيها في التقسيم الروماني ، وجعلت المدن الكبيرة الواقعة في الولاية ديقونيات (Diocesi) يتولى كل منها أسقف (Episcopus) ، وجعلت الأقاليم التابعة لكل مدينة من هذه أبرشيات (Parrochiae) يتولى كلا منها برشبطر (Presbiterus) يعينه الأسقف ويناوله كتاب الصلوات (Liber Officialis) وهو شارة التعيين . وقد أحكمت الكنيسة هذا التنظيم واحتفظت به قائما ، وإن تعارض مع الواقع ^(١) ، فقد تضاعفت مدن كانت كبيرة في العصر الروماني ولم تصبح غير قرى ، ومع ذلك ظل لأهلها الحق في أن يكون لهم أسقف ، وتلاشت مدن أبرشية تماما ، ومع ذلك كان لها برشبطر يمثلها ويتحدث باسمها ، وأصبح هذا التقسيم النظري هو التقسيم

الإداري في نظر الناس . ولم يحدث هذا في إسبانيا وحدها بل في كافة بلاد الإمبراطورية العربية ، التي دخلت شيئا فشيئا تحت سلطان كنيسة روما . وظل هذا الوضع قائما حتى أقبل العرب وقضوا على القوط واتصلوا بالناس رأسا ليستعينوا بهم على تنظيم البلاد ، وأخذوا عنهم هذا النظام وأعطوه صفة إدارية مع تعديلات اقتضتها ظروف الدولة العربية الإسلامية .

وهذه الظروف تتلخص في أن مركز الثقل في الأندلس الإسلامي كان في الجنوب ، في حوض الوادي الكبير وجنوبه بصورة خاصة وما يوازي حوض هذا النهر في شرق الأندلس وغربه ، فتزاحم الناس هناك وتزايد العمران وأزهرت المدن القائمة ، ونمت قرى وتميدنت وأصبحت مدنا مما اقتضى انشاء كور جديدة صغيرة حول المدن التي كبرت وعظم شأنها . فبينما كان مركز الثقل أيام الرومان في الشمال الشرقي حول طركونة ونربونة (ولم تنشأ ولايات باطقة وجليقية ولشدانية وما إليها الا فيما بعد) ، وبينما كان مركز الثقل أيام القوط هو الوسط حول طليطلة ، نجد أن اهتمام العرب انصرف معظمه الى الجنوب .

رئان الاتجاه الإداري في الأندلس الإسلامي يميل نحو ٢٦٢ - الاتجاه الأقسام الإدارية الصغيرة تيسيرا لضبط الأمن وربط المال، العربي في التقسيم بل يبدو أن ذلك هو الاتجاه في الإدارة الإسلامية عامة ، الإداري فحوض الدجلة والفرات مثلا كان يضم ما لا يقل عن خمس عشرة كورة ، ولا يشذ عن ذلك الا الشام ، فقد قسم الى مناطق عسكرية كبيرة تسمى « الأجناد » كما قلنا .

ثم ان النظم الادارية الاسلامية كانت لا تنيل الى تجزئة الوحدات

الإدارية الى أجزاء والأجزاء الى أجزاء أصغر كما رأينا في النظام الروماني والنظام الكنسي الذي قام على أساسه . فاكتفى المسلمون بالكور ، كل كورة تتبعها مدن وكل مدينة تتبعها أقاليمها أو زماماتها ، وقد أدى ذلك الى تبسيط السلم الإداري ، فالإدارة المركزية تتبعها عمال الكور، وعمال الكور يتبعهم عمال المدن وهم المسؤولون عن زمامات المدن أو أقاليمها ، وجرت العادة أن يعين عامل المدينة عاملا خاصا بالمدينة نفسها يسمى صاحب المدينة . ومن هنا فقد كان عدد الموظفين في الإدارة الإسلامية لا يبلغ خمس عددهم في الإدارة الرومانية ، وخاصة منذ أيام دقلديانوس الذي زعم الإدارات بالموظفين وجعلهم طبقات بعضها فوق بعض ، فثقل عبئهم على الخزانة من ناحية واتسع المجال لكل أموال الدولة من ناحية أخرى .

وقد عرف الأندلس الإسلامي نظام الأجناد أو الكور ٢٦٣ - الأجناد المجندة . وقد أخذ العرب هذا النظام عن البيزنطيين ، والمراد بها ولايات عسكرية ينزلها « جند » والجند خمس فرق من المحاربين ، وسمى تقابل (Tema) في التنظيم البيزنطي ، ويسمى بالعرب البند والجميع بنود ، وهي تقابل الثغور ويحكمها قائد عسكري . وكان الجند أول الأمر تنزله قبيلة واحدة أو عدة قبائل متحالفة ، ويكون لها خراج الناحية في مقابل تقديمها لجند كامل أي خمس فرق من المحاربين. ولم يعرف نظام الأجناد الا في الشام ، اذ قسمها المسلمون الى أجناد خمسة هي : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقسرين (وتبعها أول الأمر بلاد الجزيرة) . وقد كان نظام الأجناد من أوكد أسباب قوة الدولة الأموية ، اذ ضمن لها المحاربين (١) . ومن الشام انتقل نظام الأجناد

(١) ياقوت : معجم البلدان ، طبعه الخانجي ، ج ١ ، ص ٣٨ .

الى الأندلس على أيام أبي الخطار الحسام بن ضرار سنة ١٢٥ / ٧٤٣ مع اختلاف واحد، هو أن الجند في الشام كان يضم كورا كثيرة أما في الأندلس فكان يقابل كورة واحدة. ومن هنا يغلب على الظن أن أجناد الأندلس كان عليها أن تقدم أعداداً من الجند أقل من خمس فرق. وقد ظلت هذه الأجناد عصباً من أعصاب القوة العسكرية الأندلسية الى منتصف حكومة عبد الرحمن الناصر على الأقل. ولدينا من عهد الأمير محمد بيان بأعداد من كانت بعض النواحي تقدمه من الفرسان الى جيش الدولة. وإذا نظرنا الى هذا البيان تبيننا أهمية نظام الأجناد بالنسبة للقوة العسكرية للإمارة الأموية الأندلسية:

كورة البيرة ٢٩٠٠ فارس	جيان	٢٢٠٠ فارس
كورة قبرة ١٢٠٠ »	باغة	٩٠٠ »
كورة تاكرنا ٢٩٩ »	الجزيرة	٢٩٠ »
كورة استجة ١٢٠٠ »	قرمونة	١٨٥ »
كورة شدونة ٦٧٩٠ »	ريه	٣٦٠٠ »
كورة فحص ٤٠٠ »	مورور	١٤٠٠ »
كورة تدمير ١٥٦ »	رينة	١٠٦ »
قلعة رباح ٣٨٧ » (١)		
وأوريط		

وهذا البيان ناقص، والكور المخطوط تحتها هي من الكور المجندة، ويلاحظ بوضوح أن أربعة من الكور المجندة كانت تقدم من الفرسان أضعاف ما تقدمه عشر كور غير مجندة. وذلك يعطينا فكرة عن الأهمية (١) ابن حيان، برواية ابن عذاري: البيان المغرب، طبعة بروكسسال وكولان (لايدن ١٩٥١) ج ٢، ص ١٠٨-١٠٩.

العسكرية لنظام الأجناد. ولم يبين لنا أحد من المؤرخين النظام المالي الخاص بالأجناد في الشام والأندلس، ولكننا نستنتج ذلك من البيان المقارن الذي أوردناه، إذ لا يفسر أن كورة شدونة تقدم أضعاف ما تقدمه كورة أكبر منها وهي تدمير إلا بأن هذه الكور كانت تقدم فرساناً بدلاً من الضرائب، ويؤيد ذلك قول المؤرخين أن الشاميين الذين نزلوا هذه الكور «كان انزالهم على أموال العجم من خير ونعم»^(١)، أي في مقابل تملكهم لجزء معين من أملاك العجم ونعمهم، ويؤيده أيضاً أن عرب الكور المجندة بالذات هم الذين قاموا بالثورة الكبيرة التي شغلت عصرى محمد وعبد الله وجزءاً من عصر الناصر، وأسبابها ترجع الى تمسك العرب النازلين بهذه النواحي بما كان لهم من حق التملك والاستقلال بنواحيهم ثم ميلهم الى عسف من كان يسكنها من أهل البلاد، ونفور هؤلاء لمحاربتهم، ورفض أولئك العرب لطاعة الامارة القرطبية، واعتزازاً منهم بما كانوا فيه من استقلال بنواحيهم وما اجتمع

(١) ابن عذاري: البيان المغرب (نفس الطبعة) ص ٣٣. وقد نقل لنا ابن الخطيب كلام ابن حيان في هذه المناسبة، فقال إن الذي أشار على أبي الخطار بذلك كان أرباس، أشار عليه «بتفريق القبائل الشاميين الغائبين على البلد من دار الإمارة قرطبة، إذ كانت لا تحملهم، وإنزالهم بالكور، على مثل منازلهم التي كانت في كور شامهم، ففعل ذلك عن اختيار منهم، فأنزل جند دمشق كورة البيرة، وجند الأردن كورة جيان، وجند مصر كورة باجة، وبعضهم بكورة تدمير، فهذه منازل العرب الشاميين، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة، وبقي العرب والبلديون والبرابرة شركائهم...» - الإحاطة، طبعة محمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٦) ج ١، ص ١٠٩.

ويلاحظ أن هذه هي أول مرة تنزل الدولة الإسلامية فيها عرباً على أموال العجم من رعاياها وتطعيم الحق في تملك ثلث أملاك هؤلاء الآخرين. وفي النسختين المخطوطتين اللتين نشر عنها الأستاذ عنان «ثلثاً أموال أهل الذمة»، وقد استبعد الناشر هذه الصورة وأثبت «ثلث» من عنده، ونظراً أن الثلثين أصح لأنها تقابل أنصبة القوط من الأرض (Sors-Sortes) على ما ذكرناه، ثم إن صاحب الرأي في إنزال هؤلاء الشاميين على أموال العجم قوطي هو أرباس. وسنعود للكلام على هذه الناحية عند الحديث عن الناحية المالية.

لهم من الثروة نتيجة لذلك الاستقلال . ومن طريف ما يلاحظ أن ثورات العرب ووثباتهم بالدولة في الأندلس وغيره كانت تقع في كثير من الأحيان نتيجة للرخاء والثروة وشعور العرب بقوتهم ، ونزوعهم إلى التخلص من السلطان . وهذا سبب من أسباب الثورات فات يكون أن يذكره ضمن ماذكر من أسباب الثورات .

ولسنا نجد فيما بين أيدينا من نصوص التاريخ إشارة واحدة إلى قيام واحد من الولاة أو الأمراء أو الخلفاء بتكوير الأندلس ، أو تقسيمه إلى أقسام إدارية ، حتى أحمد بن محمد الرازى صاحب أول وأوفى تاريخ للأندلس لم يشر إلى ذلك . ونحن نجد الأندلس في كلامه مقسمة تقسيما إداريا ثابتا منذ زمن طويل . فهو يذكر ما يذكر من الكور على اعتبار أنها أشياء معروفة . أما في جغرافيته فهو يعطينا بيانا كاملا لا يضم إشارة واحدة إلى تغيير أو تعديل . والاستنتاج البسيط من ذلك هو أن أحدا من المسلمين لم يضع هذا النظام وإنما وجدوا تقسيما قائما فأخذوه .

ولم يتحدث من الجغرافيين المشرقين عن تقسيم الأندلس ٢٦٤ - المقدسى إلى كور إلا المقدسى في « أحسن التقاسيم » ، أما والتنظيم الإدارى الاصطخري وابن حوقل فكلامهما عام غير دقيق ولا يمكن للأندلس التعويل عليه في هذا المثل . فإذا نظرنا في كلام المقدسى بشئ من التدقيق وجدناه حافلا بالمشاكل ، وخاصة إذا قارناه بكلام الرازى ، والمصطلح الذى يستعمله مضطرب ، ولا غرابة في ذلك ، فهو رجل مشرقى على علم تام بأقاليم المشرق ، وخاصة خراسان وهيتل ، وهو يحاول أن يطبق على الأندلس ما وجد من القواعد هناك ، فشاب

كلامه لبس شديد . ولكننا لا نستطيع إلا أن نضعه موضع الاعتبار ، نظرا لقلة ما لدينا من المعلومات عن هذا الموضوع .

يجعل المقدسى قرطبة كورة كبيرة ، ويسمى أقاليمها الرساتيق ، ويقول في رواية المعلومات التى أخذها عن « بعض الأندلسيين » : « قلت : هل بقى اقربطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا ، قلت : فاشبيلية وبجانة ، وذكرت عدة من البلدان ، قال : هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة ، وهم يسمون الرستاق اقليما ، فعلمت أنها كور على قياسنا ، وأنها إن لم تكن أجل من كور هيتل ، فليست بأقل منها ، فيحصل القول وأثبت الدلائل على أن مثل المغرب كمثل المشرق ، كل واحد منهما جانبان ، فكما أن المشرق خراسان وهيتل يفصل بينهما جيحون ، فكذلك المغرب والأندلس يفصل بينهما بحر الروم . غير أنا نعجز عن تكوير الأندلس ، فتركناها على الجملة ، ووصفنا كورة قرطبة لما كثر المخبرون عنها واتضح عندنا أمرها . وعرضت كتابى على شيخ من مشايخهم ، فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ثمانى عشرة كورة ، فعده : بجانة — مالقة — بلنسية — تدمير — سرقوسة (كذا وصحتها سرقسطة) — يابسة (كذا ، وربما كانت صحتها يابسة) — وادى الحجارة — تطيلة — وشقة — مدينة سالم — طليطلة — اشبيلية — بطليوث — باجه — قرطبة — الجزيرة الخضراء . وسألت آخر ، فقال : صدق ، وزاد ليبرة — خشنبة . ويجوز أن يكون بعض هذه البلدان نواحى قياسا على ابلق وكش والصغانيان ، والله أعلم بالصواب » (١) .

(١) شمس الدين المقدسى : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، (طبعة دى خويه) لايدن

ولو عددنا الكور التى يذكرها لوجدناها ١٧ لا ١٨ ، فإذا أضفنا إليها الاثنتين اللتين يذكرهما بعد ذلك كان الحاصل ١٩ كورة ، ثم انه يذكر كورا مثل سرقوسة ويابسة ، ليست من كور الأندلس ، ونظن أنه ينبغى تصحيح الأولى الى سرقسطة والثانية الى يباسة . ومعلوماته كلها فى هذا الصدد غير دقيقة ، وعذره واضح . ولكن له عبارة تستوقف النظر لعظيم دلالتها ، وذلك حيث يقول : « وأما الأندلس ، فنظيرها هيطل من جانب المشرق ، غير أننا لا نقف على نواحيها فنكورها ، ولم ندخلها فقمسها ، ويقال انها ألف ميل »^(١) ، وموضع الغرابة فى هذه العبارة أن الاصطخرى كتبها بينما كان كتاب الرازى فى جغرافية الأندلس ذايعا بين الناس منذ أمد طويل . ومن عجب أن مثل الاصطخرى — على تدقيقه وسعة اطلاعه — لا يستأنس بمثل هذا المرجع . وهذا القول يصدق كذلك على ابن حوقل ، وإذا كنا نستنتج من ذلك شيئا ، فهو أن كتاب الرازى لم يكن متداولاً بالصورة التى تتصورها الى نهاية القرن الرابع الهجرى ، أما بعد ذلك فقد كان المرجع الأول لمن كتب فى صفة الأندلس .

ويذهب المقدسى الى أن الكورة فى الأندلس تعادل الرستاق والاقليم فى المشرق ، وعبارته هنا مضطربة لا نستطيع الاعتماد عليها ، فهو يقول : « وهم يسمون الرستاق اقليسا ، فعلمت أنها كور على قياسنا » ، ثم انه يقول : « قلت : وهل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا » ، ونخلص من ذلك بأن المقدسى يرى أن الأندلس تنقسم الى كور ، والكور تنقسم الى رساتيق ، أى أقاليم ، وهذا ينطبق على تعريف ياقوت الحموى للكورة وللرستاق^(٢) .

(١) نفس المصدر ، ص ٢٢٢ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، (طبعة الخانجي) ، ج ١ ، ص ٢٦-٢٨ .

والغالب على الجغرافيين المسلمين فيما يتصل بالأندلس أن يكتفوا بذكر المدن كناية عن الكور التى هى قواعدها ، فيقولون مثلا : جيان وماردة ويريدون كورتى جيان وماردة . وقد وقعوا بسبب ذلك فى أخطاء واضحة ، لأن الكورة فى الأندلس كانت تضم أكثر من مدينة كبيرة ، وليست كل مدينة كورة ، وانما جاء الخطأ من أن المدن فى الأندلس كانت لها أحواز تابعة لها ، وهى التى سميت أقاليم ، فنظر الجغرافيون فوجدوا مدنا لها أقاليم ، فحسبوا أن كل مدينة كورة .

وبين أيدينا الآن ثلاثة نصوص جديدة غاية فى الأهمية

٢٦٥ - نصوص بالنسبة لموضوعنا : الأول أصل كامل للترجمة البرتغالية جديدة

لجغرافية اسبانيا للرازى ، والثانى مختصر لجغرافية

الرازى وضعه ابن غالب وضمنه كتابه « فرحة الأنفس » ، والثالث قطعة صالحة من جغرافية أحمد بن عمر بن أنس العذرى للأندلس .

٢٦٦ - ترجمة فأما الترجمة البرتغالية لنص جغرافية أحمد بن محمد

كاملة لجغرافية الرازى فهى أكمل ما لدينا من النصوص المترجمة لهذه

لرازى الجغرافية التى ضاع أصلها العربى ، وقد عثر عليها الأستاذ

البرتغالى لويس لندلى سنترنا ضمن نسخة كاملة من ترجمة برتغالية

كاملة لتاريخ اسبانيا العام الذى صنّفه الملك العالم ألفونسو العاشر ،

وترجم القطعة الجغرافية الى الفرنسية الأستاذ لىقى پروفتسال ونشرها

فى مجلة الأندلس ، وقدم لها بمقدمة قال فيها ان هذه النسخة أكمل من

كل ما لدينا من ترجمات جغرافية الرازى ، وذكر كيف أن هذه الجغرافية

— فى صورتها العربية — هى الأصل الذى نقله عدد عظيم من الجغرافيين

وأولهم فى المغرب أبو عبيد البكرى وابن عبد المنعم الحميرى ، وفى

المشرق القزوينى . وقال ان هذا النص يدل على أن الناقلين عن الرازى

قد أفسدوا هيكل جغرافيته بما أدخلوه من معلومات جغرافية ، ظنوا أنها تضيف شيئا ، واستطرادات تاريخية ضيقت الكثير من نظام الأصل وتناسقه^(١)

٢٦٧ - تعليق
منتقى من « فرحة لطفى عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات العربية ، وهي الأنفس » لابن ليست نص ابن غالب بل « تعليقا منتقى » منه كما يدل على غالب ذلك العنوان . ولكننا ما نكاد نطالع حتى نتبين أن ابن غالب قد نقل جغرافية الرازي نقلا حرفيا في معظم المواضع ، وأفسد هذا النقل هنا وهناك باختصاصات أدخلت بالسياق وإضافات من عنده . غير أننا نستطيع بمقابلة النص المترجم لجغرافية الرازي بهذا النص أن نستخرج جغرافية الرازي كاملة مع الاستعانة بالفقرات التي نقلها عنه البكري وابن سعيد والمترى وابن الخطيب وغيرهم . وقد كونا نحن هذا النص الكامل للاستعانة به في هذا الفصل عن تقسيم الأندلس الإداري . وسنرى في الفصل التالي أن الرازي اعتمد في تصنيف جغرافيته على صفة للأندلس صنعها المؤرخ اللاتيني الأسباني باولوس أوروزيوس المعروف عند العرب بهروشيئ^(٢) .

LÉVI-PROVENÇAL, *La description de l'Espagne d'Ahmad al-Razi*. (١)

al-Andalus, vol. xviii 1953, fasc. I pp. 51 sqq.

وهي ترجمة فرنسية للنص الذي نشره لويس لندى سنرا .

Crónica Geral de Espanha de 1344, edição crítica de texto português por LUIS F.

LINDLEY CINTRA. II, Lisboa 1952 (Academia Portuguesa de Historia)

ونص جغرافية الرازي يقع في صفحات ٣٩-٧٥ من هذه الطبعة .

(٢) الدكتور لطفى عبد البديع : نص أندلسي جديد : قطعة من كتاب «فرحة الأنفس»

لابن غالب عن كور الأندلس ومدها . بعد الأربعة . وعنوان القطعة : تعليق منتقى من [فرحة] =

والقطعة الثالثة نص فريد في باب لأحمد بن أنس العذري

٢٦٨ - قطعة في جغرافية الأندلس ، عثر عليه الدكتور عبد العزيز من جغرافية الأهواني وتفضل فأذن لنا في الاستفادة منه . ومن أسف العذري

أن النص ناقص ، فهسو لا يتناول الا بضع نواح من

الأندلس ، ولكنه تناولها تناولاً شاملاً عظيم القيمة بالنسبة لموضوعنا^(١) .

وإذا نحن درسنا المعلومات التي تتضمنها هذه الأصول الثلاثة على

ضوء البيانات القيمة التي يقدمها لنا ياقوت في مقدمة « معجم البلدان »

وفي تضاعيف مواده الخاصة بالأندلس خرجنا بنتائج ايجابية تسكننا من

تصور التقسيم الإداري للأندلس الإسلامي تصورا لا يبعد عن الحقيقة

كثيرا . وأول ما يستوقف نظرنا أن الأندلس كان له من أول الأمر نظام

خاص يختلف كثيرا عن النظام التي جرى عليها العمل في الدولة الإسلامية .

وإذا كان المسلمون قد جروا في التقسيم على أساس الكورة والريستانق

في بلاد الجزيرة وما يليها شرقا ، ونظام الكورة فقط فيما يشمل بمصر .

ونظام الأجناد فيما يتصل بالشام ، فإن الأندلس لم يعرف هذه التقسيمات

المشرقية الا في صورة معدلة تتفق مع ظروفه الخاصة ، بل هو لم يعرف

= الأنفس في تاريخ الأندلس ، الحافظ محمد بن أيوب بن غالب الأندلسي ، مجلة معهد المخطوطات

العربية مجلد ١ ، جزء ٢ (الطبعة نوفمبر ١٩٥٥) ، ص ٢٧٢ وما يليها .

(١) عثر على ترجمة العذري واسم كتابه عند ياقوت ، فقد قال في مادة المريية : « وينسب

إليها أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري ، ويعرف باللاتي المري . رحل إلى مكة ،

وسمع من أبي العباس أحمد بن الحسين الرازي ونبهته ، وبعث رجلا أخرى . وهو مكث ، سمع

من الحيرى وابن عبد البر وأبو محمد بن حزم ، وكانا شيخيه ، سمع منهما ، وكان قديما كلما رجع

من المشرق سمعا منه . وله تأليف حسان ، منها « كتاب أعلام النبوة » وكتابه المسمى « نظام المرجان

في المسالك والممالك » . ومولده في ذي القعدة سنة ٣٩٣ وتوفي سنة ٤٧٦ وقيل ٧٨ ببلنسية » .

ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجي ، ج ٨ ، ص ٤٣ .

نظام الرساتيق أصلا ، وكان تطبيق نظام الأجناد فيه تطبيقا محدودا من حيث المساحة التى طبق عليها ومن حيث طبيعته ذاتها كما رأينا .

ونبدأ فنلاحظ أن الترجمات التى لدينا لجغرافية الرازى تقسمها الى أقسام تسميها (Distritos) أو (Districts) وهى لفظة يجعلها ليشى پروفتسال معادلة للفظ كورة . فاذا قارنا ذلك بنص ابن غالب ، لاحظنا أن هذا الأخير يذكر نوعين من الأقسام الادارية : الكورة والمدينة ، ولكى نستطيع تبين المراد بهذين المصطلحين والفرق بينهما نذكر ما يورده من الكور والمدن :

الكور : قبرة — البيرة — جيان — تدمير — بلنسية — ماردة — باجه — لبله — قرمونة — اشبيلية — مورور — شدونة — الجزيرة الخضراء — ريه — استجة .

المدن : طرطوشة — طركونة — لاردة — بريطانية — أشقة — تظيلة — سرقسطة — مدينة سالم — شنتبرية — طليطلة — قلعة رباح — أوريط — فريش — شنترين — أشبونة — أكشونة — قرطبة — حصن يشتر .

وهذا بخلاف قرطبة ، وكان لها وضع خاص سنتحدث عنه .

ونلاحظ أن صاحب « التعليق المنتقى » من « فرحة الأنفس » قد وقع فى أخطاء فى عملية التلخيص ، فقد ذكر مثلا « لبله » تحت اسم حصون لبله ، والحقيقة كما يتبين من « ياقوت » أن لبله كورة ، وكذلك جعل « قرطبة » مدينة قائمة بذاتها مع أنها عند الرازى وياقوت مدينة من مدن كورة رية . ويلاحظ أيضا أن « الالتقاء » من « فرحة الأنفس » عمد الى اختصار مخل فى بعض الأحيان ، فقد روى ياقوت عن ابن غالب

نفسه قطعا كبيرة هامة ساقطة من التعليق الذى بين أيدينا . وسنشير فى بعض تعليقاتنا الى أخطاء أخرى وقع فيها صاحب التعليق .

أما النص المترجم لجغرافية الرازى ، فواضح أن المترجمين أدخلوا يدهم فيه ، فأضافوا أشياء جديدة لا يمكن أن تكون عند الرازى ، وفى بعض الأحيان تكون الاضافة خفية يعسر تبينها ، وفى أحيان أخرى تكون واضحة يلحظها القارئ وهو يتصفح ، ومن ذلك اضافة كورة باسم اشيتانيا (Exitania) بين قلمرية ولشبونة ، وجعله بطليوس كورة ، وكذلك باروثة ورقول (Racupel) وسرته (Zorita) . وواضح أن الذين قاموا بالترجمة لألفونسو العاشر حاولوا تعديل تقسيم اسبانيا على الصورة التى كانت عليها أيام هذا الملك . ومن هنا فان ذلك النص قد ينيذ الذين يدرسون نظم اسبانيا النصرانية فى القرن الثانى عشر الميلادى فائدة لا يجدونها فى أصل آخر . وستظهر هذه الاضافات كلها فى جغرافية الادريسي ، مما يدل على أن هذه الترجمة المحرفة كانت بين يديه وهو يؤلف كتابه .

* * *

وبعد ذلك نسأل : ما السر فى التقسيم الى مدن وكور ؟

٢٦٩ - تقسيم اذا نظرنا الى « المدن » وجدناها تشبه الكور الى حد إلى مدن وكور بعيد ، فلكل مدينة منها حوز واسع فيه أقاليم ومدن أخرى وقرى ، فمدينة طرطوشة « لها حصون كثيرة وأقاليم واسعة » (١) ، ومدينة لاردة « لها حصون كثيرة » (٢) ، ومدينة بريطانية لها احواز

(١) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٨٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

ومدن ، « فمن مدنها بيشتر وهي من أمهات مدن الثغر » ، « ولها حصون كثيرة » (١) ، وكذلك مدينة وشقة ، ومدينة تطيلة لها مدائن كبيرة مثل طرسونة وأرنيط وفارة وناجره (٢) ، ومدينة فريش « لها من الأقاليم اقليم لواته واطليم المرج واطليم السند واطليم قسطانية واطليم موالى موسى » (٣) ، وهكذا . بل ان « ياقوت » يتحدث عن لاردة كما لو كانت كورة ، فيقول : « ينسب الى كورتها عدة مدن وحصون ، تذكر في مواضعها » (٤) ، ويقول ان فريش « لها رستاق يكون فيه قرى » (٥) ، وهو يتحدث عن شلون ويقول : « ناحية بالأندلس من نواحي سرقسطة نهرها يسقى أربعين ميلا طولا » (٦) ، والناحية هنا هي الاقليم ، لأنه يقول ان أهل الأندلس « يسمون الناحية اقليما » ، أى أن ناحية واحدة من نواحي مدينة سرقسطة تبلغ ٤٠ ميلا طولا ، وهو يذكر أوقانية (Ocaña) ويقول : « جبل من أعمال طليطلة بالأندلس من ناحية القاسم فيه قرى وحصون » (٧) ، ويذكر أشقة ويقول : « مدينة بالأندلس متصلة الأعمال بأعمال بريطانيا » (٨) . وعندما يتحدث عن طرطوشة يقول : « مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية ، ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد في جملتها » (٩) . ويقول عن مدينة قلعة أيوب :

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨٩-٢٩٠ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ٣١٣ .

(٥) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٣٧٤ .

(٦) ياقوت ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ .

(٧) ياقوت ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ .

(٨) ياقوت ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٩) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٤٢ .

« مدينة عظيمة جليلة القدر بالأندلس بالثغر .. من أعمال سرقسطة ، ولها عدة حصون » (١) ، ويقول عن قلهرّة : « مدينة من أعمال تطيلة في شرق الأندلس » ، أى أن مدينة تطيلة تتبعها مدينة أخرى هي قلهرّة (٢) . ويقول عن بقيرة (Viguera) : « مدينة في شرق الأندلس معدودة من أعمال تطيلة ، بينهما أحد عشر فرسخا » (٣) .

وفيه من ذلك كله أن هناك أقساما ادارية تسمى مدنا أو تنسب الى مدن ، أقسام واسعة لها أحواز فسيحة فيها مدن كبيرة وقرى وحصون . وهذا شيء لا شبه له في المشرق . فان المدينة هناك مدينة ولا زيادة ، لها خطتها وأرباضها ، وهي بدورها تتبع الكورة التي تقع فيها . أى أن نظام المدن كالأقسام الادارية لم يعرف الا في الأندلس .

فاذا نظرنا الى هذا النوع من المدن وجدناه كله في الثغور الشمالية والغربية . كما تقع في حوض نهر ابره ، وما بين ابره وتاجه ، وفي حوض تاجه ، ثم ما بين المجرى الأدنى للموادى أنه وساحل المحيط ، فيما عدا فريش ، وستحدث عنها فيما بعد ، أى أنها كانت النواحي الثغرية ، السياج الذى يحمى الأندلس الاسلامى . وهذا السياج يبدأ عند طرطوشة في الشرق ثم تركونة فلاردة — بريطانيا ، وشقة ، تطيلة — سرقسطة — مدينة سالم — شنترية — طليطلة وقلعة رباح — شترين — أشبونة — أكشونة .

وهناك ثلاث من هذه المدن تستوقف انتباهنا بصورة خاصة ، هي

(١) ياقوت ، ج ٧ ، ص ١٤٨-١٤٩ .

(٢) ياقوت ، ج ٧ ، ص ١٥٤ .

(٣) ياقوت ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

قرطبة وطليلة وسرقسطة . فأما قرطبة فلا تذكر النصوص انها كورة ، بل مدينة تتبعها أقاليم ومدن أخرى ، بل ان ابن عبد المنعم الحميري يقول عن قرطبة : « وهى فى ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضا ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيا من الأسواق والفنادق والحصانات وسائر الصناعات »^(١) ، وليس فى تخطيط قرطبة كما نعرفه ما يؤيد أنها كانت تحيط بها خمسة أسوار ، وانما الذى يفهم من ذلك أنها كانت مدينة ذات حوز واسع فيه خمس مدن تتبعها ، ويفسر ذلك قول المقدسى فى « أحسن التقاسيم » : « وسألت بعض العقلاء منهم على الرساتيق المحيطة بقرطبة والمنسوبة اليها والمدن ، فقال : انا نسمي الرستاق اقليما ، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر أرجونة ، قسطلة ، شوذر ، مارتش ، قبانس ، فج ابن لقيط .. الخ »^(٢) . أى أن المراد بمدن قرطبة أقاليمها ، وسنعود الى هذه العبارة بعد قليل . بل يبدو أن ابن عبد المنعم الحميري اختلط عليه أمر أبواب قرطبة فحسبها أسوارا ، فقد ذكر المقدسى أن « للمدينة خمسة أبواب : باب الحديد ، باب العطارين ، باب القنطرة ، باب اليهود ، باب عامر » . وليس لدينا فى أى مرجع ذكر لكورة تسمى كورة قرطبة ، مما يفهم منه أنها كانت « مدينة » على النظام الأندلسى الذى ذكرناه .

وينطبق ذلك أيضا على سرقسطة وطليلة ، فهما اما تذكران دون صفة معينة ، أو يقال « مدينة » . ومع ذلك فقد كانت كل منهما ذات « ولاية واسعة » تتبعها مدن وحصون وقرى ، فسرقسطة « لها مدن

(١) ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعمار ، ص ١٥٣ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٢ .

ومعاقل ، منها مدينة قلعة أيوب ، عظيمة جليلة القدر ، ولها من الأقاليم عدة »^(١) . وكذلك طليطلة فهى « من أجل المدن قدرا وأعظمها خطرا وأشدّها حصانة .. ولها من الأقاليم اقليم شاقرة وفيه حصون عدة ، ثم اقليم شيشنة ، ومدينة وقش ، ثم اقليم الاشبورة واطليم القاسم وغير ذلك »^(٢) . وابن عبد المنعم الحميري يذكر طليطلة على أنها مدينة ، ويقول : « ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة ، وعلى بعد منها فى جهة الشمال الجبل المعروف بالشارات »^(٣) ، وياقوت يقول : « طليطلة مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس ، يتصل عملها بعمل وادى التجارة من أعمال الأندلس ، وهى غربى ثغر الروم وبين الجوف والشرق »^(٤) .

وأما فريش ، فهى درع قرطبة ، فهى بأقاليمها الواسعة تقوم الى الشمال الغربى من العاصمة ، وتمتد أقاليمها شمالا وشرقا ، وهذه الأقاليم كثيرة يذكر منها ابن غالب خمسة ، هى « اقليم لواته واطليم المرج واطليم السند واطليم قسطانية واطليم موالى موسى »^(٥) ، فهى اذن فى عداد الثغور ، ولهذا ظل حكمها حكم الثغور ، واعتبرت مدينة .

وإذا تذكرنا قسمة قسطنطين التى حدّت الأندلس حدودا ستة هى : نربونة وجليقية ولركونة وطليلة وماردة واشيلية ، والتى قام على

(١) ابن غالب : فرحة الأندلس ، ص ٢٨٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٨-٢٨٩ .

(٣) ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعمار ، ص ١٣٢ .

(٤) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٥٦-٥٧ .

(٥) ابن غالب : فرحة الأندلس ، ص ٢٩٠ .

أساسها التقسيم الكنسي الى ست مطرانيات هي : جليقية وقاعدتها براقرة ، ولشدانية وقاعدتها ماردة ، وباطقة وقاعدتها اشيلية ، وقرطاجنة وقاعدتها طليطلة ، وطركونة وقاعدتها طركونة ، وأربونة وقاعدتها أربونة لاحظنا أن اثنين من هذه الأقسام خرجا من أول الأمر عن نطاق الأندلس الاسلامي هما جليقية وأربونة ، فالباقية هي لشدانية وباطقة وقرطاجنة وطركونة ، وإذا ذكرناها بقواعدها قلنا ماردة واشيلية وطليلة وطركونة ، وقد استبدل المسلمون اشيلية بقرطبة وطركونة بسرقسطة ، أي أن الباقية على هذا الأساس هي أقسام ماردة وقرطبة وطليلة وسرقسطة . وهذا يفسر لنا بقاء الثلاث الأخيرات من هذه مدنا ، فقد كانت كل منها على أيام الرومان فالتقوط قاعدة قسم إداري كبير يعدل سدس البلاد ، أو قاعدة ولاية كبيرة تضم عددا من الديقونيات على النظام الروماني حسب تقسيم دقلديانوس ، والديقونية ليست ولاية ، وإنما هي مدينته لها حوز أو زمام ، وقد أصبحت هذه المدن تسمى دوقيات أو كوتيتات على أيام القوط ، وعلى هذه الهيئة دخلت في التنظيم الاسلامي ، فبقيت مدنا لها أحواز^(١) .

* * *

والخلاصة أنه كانت هناك كور ومدن ذات أحواز واسعة ٢٧٠ - المدينة حتى اشتبهت بالكور . وقد عبر عن ذلك ابن حوقل بقوله : كقسم إداري « وفيها - أي في الأندلس - مدن يزيد بعضها على بعض في المحل والجباية والارتفاع والولاية والقضاة والمخلفين على رفع الأخبار ، ويقال لأحدهم مخلف ، وليس بها مدينة غير معمورة ذات

(١) LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, tome III (Paris, 1953) p. 48.

رستاق فسيح الى كورة ، فيها ضياع عداد وأكرة وسعة وماشية وسائمة وعدة وعتاد وكراع »^(١) ، واذن فليس في الأندلس - على قول ابن حوقل - الا مدينة ذات رستاق فسيح أو كورة ، وهذا هو الذي قلناه . وهذا هو الذي حير الجغرافيين المشاركة في أمر تقسيم الأندلس ، فالأصطخري يقول : « والأندلس بلدان عريضة كثيرة المدن خصبة واسعة ، ومدينتها العظمى تسمى قرطبة »^(٢) ، ثم يمضي في وصف الأندلس فلا يذكر غير المدن ويقول مثلا : « ثم الى بلاد مرسية على مدينة لقنت ، الى بلاد بلنسية » ، ثم يقول : « وهذه المدن التي ذكرناها على الشط كلها مدن كبار عامرة » ، ثم « ومن مشاهير مدن الأندلس جيان وطليلة ونقرة وسرقسطة ولاردة ووادي الحجارة وثرجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة ومورور واستجه وريه ، وكلها مدن عظام »^(٣) ، ثم « ووادي الحجارة مدينة ، وهي وما حوالها من المدن والقرى تعرف بمدن بنى سالم » . وهو لا يذكر « الكورة » في الأندلس الا في ثلاث حالات : « وريه كورة عظيمة خصبة ومدينتها أوجدونة ، ومنها كان عمر بن حفصون ، الذي خرج على بنى أمية بها ، وفحص البلوط كورة خصبة واسعة ، ومدينتها غافق ، وقورية مدينة كانت كبيرة الا أنها خربت بعصية وقعت بينهم .. وماردة من أعظم مدن الأندلس وكذلك طليطلة .. وشتترين كورة عظيمة ومدينتها قلمرية .. »^(٤) ، أي أن الأمر مختلط عليه ، فمعظم الأندلس عنده مدن لها بلاد ، فيما

(١) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، الطبعة الثانية ، لايدن ١٩٣٨ ، ج ١ ، ص ١١٦

(٢) الأصطخري : مسالك الممالك ، ص ٤١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٤١-٤٢ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٣ .

عدا ثلاث يجعلها كورا مع خلط واضح . هذا مع علمنا باهتمام الأصطخرى بالتقسيمات الادارية ، وذكره الكور والرساتيقي بالتحديد في كل ناحية يتحدث عنها ^(١) .

وموقف المقدسي ، وهو لا يقل عن الأصطخرى اهتماما بالتقسيمات الادارية ، لا يختلف عن موقف الأصطخرى ، فهو يقول : « وأما الأندلس فنظيرها هيطل من جانب المشرق ، غير أنا لا تقف على نواحيها فنكورها ، ولم ندخلها فنقسمها ، ويقال انها ألف ميل ، وقال ابن خرداذبة : الأندلس أربعون مدينة ، يعنى المشهور منها ، لأن أحدا لم يسبقنا الى تفصيل الكور ووضع القصبات ، فبعض المدن التي ذكر قصبات على قياس ما رتبنا . وسألت بعض العقلاء منهم على الرساتيقي المحيطة بقرطبة ، والمنسوبة اليها ، والمدن ، فقال : انا نسى الرستاق اقليما ، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر أرجونة ، قسطلة ، شوذر ، مارتش ، قنباش ، فج ابن لقيط ، بلاط مروان ، حصن بلكونة ، الشنيدة (السند ؟) ، وادى عبد الله ، فريش ، المائدة ، جيان ، وعلى ما دل آخر الاسم ، هي ناحية مدنها : الجعر ، يبعوا ، مارتش ، قانت (يريد لقنت) ، غرناة ، متيشة ، بياسة ، وسائر مدن الأندلس المذكورة : طرطوشة ، بلنسية ، مرسية ، بجانة ، مالقة ، جزيرة جبل طارق ، شدونة ، اشيلية ، أخشبة ، مرية ، شتارين ، باجة ، لبلة ، قرمونة ، موذور ، استجة » ^(٢) ، وهذا كلام مختلط بعض الشيء ، ولكننا نخرج منه بما يلي :

(١) لاحظ مثلا دقته في الكلام عن فارس وعنايته الشديدة بتقسيماتها الإدارية ، ص ١٠٠ وما بعدها .

(٢) المقدسي : أحسن التاسيم ، ص ٢٢٣-٢٢٤ .

١ — أن ابن خرداذبة يقول ان الأندلس أربعون مدينة .
٢ — أن أحدا من الجغرافيين والكتاب لم يسبق المقدسي الى ذكر كور الأندلس وقصبات هذه الكور .

٣ — أن أهل الأندلس يسمون الرستاق اقليما .

٤ — أن أقاليم قرطبة ١٣ .

٥ — سائر مدن الأندلس المذكورة ١٦ ذكرها بأسمائها ، وجعلها كلها مدنا ليس فيها كورة واحدة .

وللأصطخرى نص آخر طويل ماخصه ما يلي :

١ — أن لقرطبة ١٣ رستاقا هي :

أرجونة على ١٥ ميلا .

قسطلة على ١٣ ميلا من أرجونة .

شوذر على ١٨ ميلا من قرطبة .

مارتش على ١٥ ميلا من قرطبة .

قنباش على ١٥ ميلا من قرطبة بموضع يقال له قنبانية .

مرج ابن لقيط على ٢٥ ميلا من قرطبة .

بلاط مروان على ٣٠ ميلا من قرطبة .

بثريانة

حصن بلكونة على ٤٠ ميلا من قرطبة .

الشنيدة (السند) على يومين من قرطبة ، المنزل فج ابن لقيط .

وادي عبد الله على ٤٠ ميلا من قرطبة ، المنزل وادي الرمان .

فريش على ٦٠ ميلا من قرطبة .

جيان على ٥٠ ميلا من قرطبة ، اسم الرستاق أولية .

٢ — يعتبر الأسطخري جيان كورة ، ويقول ان « بكورتها حر هو في عداد نواحيها » . ومن رأينا أن « حر » ينبغي أن تقرأ : جزء .

ومدنها ، أى مدن جيان :

الجَعَز على ١٠ أميال من جيان .

يغوا .

مارتش في قنباية .

متيشة .

غرافطة ، على واد به مئنة طواه ١٣ ميلا فيه للسلطان كل عجيبة .
ياسة .

٣ — ويقول : قلت : هل بقي لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ ،

قال : لا ، قلت : فاشيلية وبجانة ، وذكرت عدة من البلدان ، قال :
هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة . وهم
يسمون الرستاق اقليما ، فعلمت أنها كور على قياسنا .

٤ — عرض المقدسى كلامه على شيخ من مشايخهم ، فقال : على

هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ١٨ كورة ، فعد : بجانة — مالتة —
بلنسية — تدمير — سرقسطة — يابسة ؟ — وادى الحجارة —
طيلة — وشقة — مدينة سالم — طليطلة — اشيلية — بطليوث —
باجة — قرطبة — شذونة — الجزيرة الخضراء .

وزاد آخر : ليرة — خسبة^(١) .

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٤-٢٣٦ .

وغريب أن يخطط المقدسى هذا الخلط مع أنه كتب كتابه بعد الرازى
بنحو قرن ، فان جغرافية الرازى كتبت حوالى سنة ٨٩٠ م . فى حين
أن المقدسى كتب كتابه سنة ٩٨٥ . ومن الواضح أنه لم ينظر فيه واكتفى
بالاعتماد على معلومات أخذها عن بعض الأندلسيين مشافهة ، وربما
كانت لمعلوماته لهذا السبب أهمية خاصة .

والمهم لدينا أن أولئك الأندلسيين قالوا ان بلادهم أقاليم ، وأنهم
يسمون الرستاق اقليما ، والمعروف أن الرستاق جزء من الكورة .
وعندما أرادوا أن يطبقوا تقاسيم المشرق على الأندلس قالوا ان الأندلس
يجب أن تكون على ذلك ١٣ كورة . ويهنا فى كلامه ما نقله عن ابن
خرداذبة أن الأندلس ٤٠ مدينة . وحقيقة قال ابن خرداذبة ذلك . وقد
ألف ابن خرداذبة كتابه بين سنتي ٢٣٠ و٢٣٤/٨٤٤-٨٤٨ . وقال ذلك
أيضا يعقوبى الذى كتب بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، والهمدانى وقد
كتب بعد يعقوبى بثلاثين سنة . أما معاصره ابن رسته فحديثه عن
الأندلس قليل القيمة^(١) .

فإذا كان أوائل الجغرافيين — من أمثال ابن خرداذبة ويعقوبى
والهمدانى وابن رسته — لا يشيرون صراحة الى أن الأندلس كان
مقسما الى كور ، وانما هو عندهم مقسم الى مدن ، ولا يذكرون
« الكورة » الا نادرا وعلى سبيل التجوز لا التحديد ، وإذا كان
متأخروهم — كالأسطخري وابن حوقل والمقدسى — ينصون على

Cf: JOSÉ ALEMANY BOLUFER, La geografia de la Peninsula (١)
Iberica en los escritores árabes (Revista del Centro de Estudios Historicos de
Granada y su Reino) tomo IX 1919 n. 3-4 pp. 119 sqq.

« المدن » ناصا صريحا ، فلا تذكر الكورة عندهم الا على سبيل الشرح والتوضيح ، كما رأينا في حالة المقدسى ، فان ذلك يدل على أن الأساس الأول الذى اتخذ لتقسيم الأندلس كان الأساس الرومانى والقوطى من بعده ، وهو نظام المدن ذات الحوز . فاذا قالوا مدينة تطيلة مثلا أرادوا بذلك « ولاية » واسعة منسوبة الى تطيلة . ولم تأت بلفظ « الولاية » هنا من عندنا ، بل انه مصطلح يستعمله الجغرافيون كقول ياقوت : « طرطوشة ، مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد في جملتها »^(١) . وقوله : « كركى ، اسم حصن من أعمال أوريث بالأندلس له ولاية وقرى »^(٢) . و « ولاية » هى الترجمة الاصطلاحية للفظ (Provincia) ، وقد سميت الديقونيات الرومانية ولايات دوقية (Provincia Ducado) ودوقية كونتية (Provincia Condado)^(٣) بحسب رتبة القائد الذى كان يتولاها ، لأن الأقسام الادارية كلها أصبحت وحدات عسكرية ، فقد كان القوط شعبا محاربا . وحل محلهم العرب ، وكانوا شعبا محاربا أيضا ، فمضوا على هذا النظام ، واعتبروا الأندلس كله مدنا لا كورا .

* * *

أما مصطلح الكورة فلم يظهر الا بعد سنوات ، وظهر على ظهور سبيل التجوز لا على أنه مصطلح ادارى . وأول ما نسمع مصطلح الكورة به فى سنة ٧٥٢/١٣٥ فى خبر تفريق أبى الخطار الحسام ابن ضرار الكلبي للشامية على ست كور مذكورة بأسمائها وهى :

(١) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٤٣ .

(٢) ياقوت ، ج ٧ ، ص ٢٤١ .

(٣)

البيرة وريه وشذونة واشيبيلة وجيان وباجة^(١) . وتذكر أيضا تدمير ولكنها لم تكن اذ ذاك كورة ، وانما كانت ناحية معاهدة بيد صاحبها تدمير ، ولم تصبح كورة الا فى عهد عبد الرحمن الداخل .

ونلاحظ أن هذه الكور كلها فى الجنوب والجنوب الغربى ، وأنها كانت كورا مجندة على نظام أجناد الشام الخمسة ، ولم تكن أجناد الشام « كورا » ككور مصر مثلا ، بل كانت مناطق عسكرية كما قلنا . على أن لفظ الكورة يستعمل بعد ذلك ، فقد ذكر صاحب « الأخبار المجموعة » أن الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى ومن معهما « اجتمعوا على يوسف بأن تركوا كورة ريه ليحيى بن حريث »^(٢) .

ويبدو أن نظام الكور فيما يتصل بنواحى الجنوب عمم من أيام عبد الرحمن الداخل ، أما نواحى الثغور التى ذكرناها فقد ظلت مدنا ذات أحواز حتى نهاية أيام الخلافة .

بهذا يكون العرب قد أخذوا — فيما يتصل بالتقسيم الادارى — بالنظام الرومانى القوطى الذى وجدوه ، ثم عدلوه بعض الشيء بحسب ما اقتبسوه من نظم المشرق ومؤثراته ، ولكنهم تركوا نواحى الحدود والثغور كما هى : مدنا عسكرية ذات أحواز^(٣) .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .

(٣) ويلاحظ أن مصطلح الكورة لم يكن فى بلاد الإسلام محدد المعنى بالشكل الذى نتصوره ، فخذ مثلا تعريف ياقوت للكورة ، وهو أدق ما لدينا : « ذكر حزة الأصفاهى أن الكورة اسم فارسى بحت (كذا) يقع على قسم من أقسام الاستان . وقد استعارتها العرب وجعلتها اسما للاستان ، كما استعارت الإقليم من اليونانيين ، فجعلته اسما للكشعر . فالكورة والاستان واحد ... قلت أنا : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة ، كقولهم : دارابجرد ، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بمجملته كورة =

ولكنهم لم يتابعوا المشرق في التقسيمات الفرعية للكور
٢٧٢-التقسيمات والمدن . فهم لم يقسموا الكورة والمدينة الى رساتيق
الفرعية : الإقليم أو ما يشبهها . لأن الرستاق — كالكورة — قسم زراعي
يشتمل على مساحة مزروعة فيها قرى . ولم تكن المساحات
الأرضية هي أساس التقسيم في الأندلس ، بل كانت المدن وما يتصل
بها من أحواز . وإذا كانت المدينة تابعة للكورة في المشرق ، فإن الكورة
هي التي تتبع المدينة في الأندلس . ولهذا فقد قسمت الكورة أو المدينة
في الأندلس الى مدن أو نواح ، لكل مدينة أو ناحية حوز يسمى الإقليم.
قال ياقوت في تعريف الرستاق : « قلت : الذي عرفناه وشاهدناه في
زماننا في بلاد النرس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى .
ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد
(أى أرض زراعية) عند أهل بغداد ، وهو أخص من الكورة
والاستان » (١) .

== دارا بجرد ، ونحو نهر الملك ، فانه نهر عظيم يخرج من الفرات ، ويصب في دجلة ، عليه نحو ٣٠٠ قرية ، ويقال كذلك لجميع نهر الملك ، وكذلك ما أشبه ذلك » — (ياقوت ، ج ١ ، ص ٣٦) .
وهذا كلام غير متناسق لا يخرج الإنسان منه بمفهوم واضح للكورة . وربما كان سبب ذلك
الغموض أن «الكورة» كصطلح إداري لم يستعمل بصورة منتظمة إلا في مصر . أما في العراق وما يليه
شرقا فكان المصطلح يستعمل تجوزا ، وقد استعمله الجغرافيون من أمثال المقدسي والاسطخري للتسهيل .
وما يخلطان بين الكورة والرستاق والاستان والرم وما إلى ذلك من المصطلحات الإدارية . أما في
الأندلس ، فلم يستعمل لفظ «كورة» استعمالا دقيقا ، وأظهر مثال لذلك استعماله في الروض المطار .
مثلا : أنليش : «... وهي قاعدة كور شنتيرية» (ص ٢٨) — ألش : «... من كور تدمير» (ص
٣١) — أندة : «... مدينة من كور بلنسية» — أوريوالة : «... حصن بالأندلس ، وهو من كور
تدمير» (ص ٣٤) ، ومثل هذا كثير جدا . وقد ذهب ليثي بروفنسالى إلى أن كور هنا معناها كورة ،
أى أن الجمع يستعمل في معنى المنرد .

LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Esp. Mus.* III, 48.

ولكننا نرجح أنه يستعمل الكورة هنا بمعنى الإقليم .

(١) ياقوت : معجم ، ج ١ ، ص ٣٧-٣٨ .

وقال في تعريف الإقليم عند الأندلسيين : « الاصطلاح الثاني لأهل
الأندلس خاصة ، فانهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة إقليما ، وربما
لا يعرف هذا الاصطلاح الا خواصهم ، وهذا قريب مما قدمناه عن
حزمة الأصفهاني ، فاذا قال الأندلسي : أنا من إقليم كذا ، فاما يعنى
بلدة أو رستاقا بعينه » (١) . وهذا تعريف واضح يدل على أن الأندلسيين
يعنون بالإقليم القرية الكبيرة أو البلدة وحوزها المتصل بها طبعا . قارن
ذلك بمعنى الإقليم عند المشارقة : « كل ناحية مشتملة على عدة مدن
وترى إقليم ، نحو الصين وخراسان والعراق والشام ومصر وأفريقية
ونحو ذلك » (٢) فالإقليم في الأندلس بلدة تتبعها أرض ، وفي المشرق
أرض تتبعها بلاد ، والفرق واضح لا يحتاج الى بيان . في المشرق أخذ
العرب الأساس الفارسي وهو الأرض ، وفي الأندلس أخذوا الأساس
الروماني وهو المدينة . ولا عجب والحالة هذه أن كانت مدن الشرق
جميعها قرى كبيرة في اضمحلال متصل ، ومدن الأندلس مدنا حقيقية
ذات نظام وتخطيط وهيئة ، وكانت في صعود دائما . ولا غرابة في أن
يفخر المشرقى المشارقة بمدن الأندلس ، ويقول اننا نجد في الأندلس
المدينة الكبيرة الى جانب المدينة الكبيرة . ولا غرابة أيضا في أن نجد فكرة
أمرء الأندلس في انشاء المدن أقرب الى المفهوم الصحيح للسدن ، وما من
ناحية اختطوها هناك الا بقيت الى يومنا هذا ، وأماننا مرسية والمرية
ونظيلة ومدينة سالم وقلعة أيوب وما إليها ، نستطيع أن نقارنها بالبصرة
والكوفة وواسط والأنبار والفسطاط والمهدية وما إليها مما دثر وذهب
أمره ، لأنها اما كانت معسكرات أو مراكز زراعية .

(١) ياقوت : معجم ، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

وقد أوردنا فيما سبق أمثلة من الأقاليم التي تنقسم إليها الكور والمدن ذات الأحواز ، ولكن العذرى يقدم لنا نصوصاً تزيد معنى الأقاليم الأندلسي وضوحاً ، ويهمننا بصفة خاصة حديثه عن أقاليم قرطبة ، قال :

عدد أقاليم قرطبة ، وهى خمسة عشر اقليماً :

إقليم المَدَوَّر :

عدد قراه فى المغارم ^(١) تسعون قرية ، منها فى العشور ثلث [...] .

القمح : ٨٥ مدياً و ٤ أقفزة .

الناض ^(٢) : ٣٩٨٠ مثقالاً .

الطبل ^(٣) للعام : ٤١٤٠ ديناراً .

الصدقة والبيزرة : ٤١٢ ديناراً و ٤ دراهم .

إقليم القصب :

القرى فى الوظائف ٨٧ ، منها فى العشور ٥٦ قرية .

القمح : ١٤٢ مدياً .

الشعير : ١١١ » .

الطبل للعام : ٢٧٠٠ ديناراً و ٤ دراهم .

الناض للحشد : ٤٧٧٢ مثقالاً .

(١) المغرم : تسمية عامة تطلق على الضرائب غير الشرعية ، والجمع مغارم .

(٢) كانت الضرائب على المنقولات فى الأندلس تجرى نقداً أو عيناً ، فإذا بيعت نقداً سميت الناض ، وإذا بيعت عيناً سميت وظيفاً ، وكان الناض يعتبر فى الأندلس ضريبة خاصة بالجيش ، ولهذا يسمى أحياناً الناض للحشد .

(٣) الطبل ضريبة شخصية ، كان الناس يؤدونها عيناً ، وتعتبر معونة مالية للدولة فى مقابل الخدمة من الإعفاء العسكرية .

الصدقة والبيزرة : ٢٠٣ دنائير و ٤ دراهم .

إقليم لَوْرَة :

القرى : ٦٤ قرية ... منها للعشور ...

القمح : ١٧٣ مدياً و ١٠ أقفزة

الشعير : ٣٠٠ ... و ٣٠٠ قفيز

الناض للحشد : ٢٤٧٢ مثقالاً

إقليم الصَّدَف :

القرى : ٢٨ قرية ، منها للعشور ...

القمح : ٨٩ مدياً و ١١ قفيزاً ...

الشعير : ١٩٣ مدياً ...

[الناض] : [٠٠٠] ٤٧٥ مثقالاً

الصدقة : [٠٠٠]

الطبل للعام : [٠٠٠] ٥٥ [٠٠٠] و ٢

إقليم بنى مَرَّة :

القرى : ١٧ قرية

القمح : ١١٧ مدياً [٠٠٠] أقفزة

الشعير : ٢٥٤ مدياً و ٣ أقفزة

إقليم مَنِيَّانَة :

القرى : ٢٦ قرية

القمح : ١٢١ مديا [٠٠٠] قفيزا

الشعير : ٢٢٨ مديا و ٦ أقفزة .

الناض للحشد : ٧٠٠ مثقال

إقليم كرتش :

القرى : ٦٠ قرية ، منها للعشور ٣٠ قرية

القمح : ٢٢٠ مديا [٠٠٠] أقفزة

الشعير : ١١٦ مديا و ٦ أقفزة

الناض للحشد : ٧٣٠ مثقالا

الطل للعام : ١٧٨٢ ديناراً ، و ٤ دراهم

الصدقة والبيزرة : ٤٩ ديناراً و ٤ دراهم

وهكذا بالتفصيل في بقية الأقاليم ، وهذه هي أسماؤها مع عدد

قراها :

إقليم الفتل : ٤٨ قرية

إقليم الهزهاز : ٧٣ قرية

إقليم وايه الملاحة : ٨٤ قرية

إقليم وايه الشعراء : ٩٤ قرية

إقليم أولية السهلة : ١٠٢ قرية

والى هنا ينتهى بيان الأقاليم كما يورده العذرى ، أى أنه يذكر أن عدد الأقاليم ١٥ ولا يذكر الا ١٢^(١) .

ونخرج من هذا البيان التيم بأن الأقاليم كانت محددة تحديدا دقيقا بما على كل منها أن تؤديه من الجبايات ، وهذا التحديد لا يذكر ما على كل قرية أن تؤديه بل تذكر جملة ما ينبغى أن يؤديه كل إقليم في مجموعه من أصناف الضرائب . أى أن الإقليم كان وحدة مالية في نظر الدولة ، وهذا هو الحقيقة الأولى التى تهنا ملاحظتها هنا .

ثم نعود فنسأل : ما هو الأساس الذى عمل عليه هذا التقسيم ؟ لو أن المسلمين هم الذين وضعوه للاحتفاظ بين الأقاليم لونا من التناسب في عدد القرى على الأقل ، فلا نجد اقليسا ١٧ قرية واقليسا ١٠٢ ، ثم ان أسماء معظمها ليس عربيا مما يدل على أن الإقليم بحدوده واسمه كان موجودا قبلهم ، كما حدث في مصر ، عندما أخذ العرب الباجريات البيزنطية (Pagarchoi) وسموها كورا ، وتلك هي الحقيقة الثانية التى يهنا النص عليها .

واذن فالأقاليم وحدات ادارية مالية وجدها العرب بحدودها عند دخولهم ، فتبينوا هذه الحدود وحددوا ما عليها من المال . كل إقليم يضم

(١) قال أبو عبيد البكرى : « وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جليمة ، وكانت جباية هذه الأقاليم في أيام الحكم بن هشام :

الحشد وناض الطليل وناض البيزرة للعام ... ١٤٢٠٠٠

ومن وثليمة القمح ، مديا ... ٥٣٠٠٠

ومن الشعير ... ٧٣٠٠٠ ... »

أوراق من جغرافية البكرى جمعها ليثي پروفنسال ذيلا على ترجمته الفرنسية للروض المعطار :

عددا من القرى ، فهناك قرى تدفع العشور ، وهى بطبيعة الحال قرى الحبوب ، والزراعات ، وقرى تؤدي جبايات تحدد بحسب طبيعة انتاجها ، وهى نواحي الثمار والأشجار والزيتون والغابات والصيد والمعادن وما إليها . والقرية فى ذاتها ليست وحدة ، بل الإقليم هو الوحدة .
والمعذرى نص آخر يذكر الأقاليم بحدودها الجغرافية ، وإذا ضمنا هذا النص الى النص السابق ازداد معنى الإقليم عندنا وضوحا . يقول العذرى :

أقاليم سرقسطة :

إقليم المدينة : وهو من باب سرقسطة ، قبلة منها الى عقبة مليلة .
إقليم قصر عباد : وهو متصل بإقليم المدينة . وقصر عباد مجاور لطرطوشة ، وهو فى هذا العصر منصرف الى طرطوشة .
إقليم قسنندة : وهى على ستين ميلا من مدينة سرقسطة . وفى هذا الإقليم يخرج نهر بلطش (Pleitos) من فج يعرف بنفج بذره (Pedro ؟)
إقليم زيدون : وهو مجاور لطرطوشة ، ومجاور لبلنسية ، ومجاور لتدمير ، ومجاور لشت برية . وفى هذا الإقليم من ناحية مدينة غلنواذه يتفجر نهر شليقته (Jalico) ثم يمضى حتى يواقع نهر شلون (Jalón) .
إقليم بكنطش (Pleitos) : ونهره يسقى من قرية مواله (Muela del Ebro) الى مدينة سرقسطة ، طول ٢٠ ميلا ، غرب عن عين بلطش .
إقليم قننش : وله عين ، يسقى من ناحية بلد نوبه (Villa Nueva) الى أن ينصب مأوها فى نهر ابره ، طوله ٢٠ ميلا .
إقليم شلون : وهو غربى من سرقسطة ، ونهره يسقى من قرية

قبائس (Cabañas de Ebro) وركله (Ricla) . وحكى بعض من يعرف نهر شلون أنه يعم بالسقيا نحو ثمانين قرية .

الى آخر هذه الأقاليم ، وواضح أن هذه التحديدات كلها زراعية ، تعنى بالرى والأنهار والعيون وما تسقيه . والتقسيم الزراعى فى أساسه مالى ، لأن الذين يرسمونه ينظرون الى ما يغله كل قسم وما يؤديه من جباية . ثم ان التحديدات الجغرافية تحديدات ثابتة لا تتغير بتغير الأعصر ، أى أن حدود الأقاليم كما أقرها المسلمون كانت موجودة قبلهم ، فأخذوها كما هى ، بأسمائها فى معظم الحالات ، وترجموها أو أعطوها أسماء عربية فى أحوال قليلة .

وليس معنى ذلك أن كل الأقاليم أخذها العرب كما هى ، بل الحكم هنا على الأمر الغالب ، لأن استقرار قبائل العرب والبربر فى بعض النواحي أوجد أقاليم جديدة تنسب الى من سكنها ، كإقليم القاسم أو بنى القاسم الداخل فى حوز مدينة سالم ، فقد كان اقليما واسعا نسب الى أولئك القوم ، وهو الذى ذكره الادريسي باسم إقليم القواصم وصحتها القواصم ، وإقليم بنى مرة فى حوز قرطبة وإقليم زنانة وإقليم كنانة فى حوز بلنسية ، وما الى ذلك .

ويذكر العذرى الى جانب الأقاليم أقساما ادارية أخرى ٢٧٣ - الحزب : تسمى الأجزاء ، مفردها « جزء » . وهو يورد هذه الأجزاء بعد الأقاليم مباشرة ، مثال ذلك فى كلامه عن بلنسية يقول :

أقاليم بلنسية :

إقليم المنيرة (Almenara) ، إقليم أنده (Onda) ، إقليم شيثرب ؟ ،

اقلیم زناته (Zanete) ، اقلیم كنانة (Benicanena) ، اقلیم شلينة ، اقلیم أولهيل (Ollierea) ، اقلیم لبایه ، وله رتبة أولیة ، اقلیم ممح ؟ ، اقلیم شارقة (Jerica) .

ثم تلى ذلك الأجزاء دون أى تفصيل :

جزء الساحل ، جزء قليربة (Calavera) وجزء الجزيرة ، جزء البيضاء (Aibayda) وغلثار ، جزء الأسناد ، جزء فحص شاطبة ، جزء براكانه ، جزء مدينة التراب ، جزء مصمودة ، جزء بنى غتيل ، جزء قسطانية ، جزء فقيرة (Viguera) ، جزء مسل ، جزء مريبطر .

ونلاحظ أولاً أن عشرة على الأقل من هذه الأجزاء منسوبة الى مدن من كورة بلنسية ، وأن اثنين منسوبان الى أقوام : مصمودة ، بنو غتيل ؛ واثنين منسوبان الى معالم جغرافية : الساحل ، الأسناد .

وليس هناك ما يدل على أن هذه الأجزاء كان فيها قرى . وقد وقع فى ظنى أنها قد تكون أجزاء من أقاليم ، فلم يصح ذلك ، ولم يصح أيضاً أن تكون أجزاء أو أحياء من مدينة بلنسية نفسها .

وقد وجدت عند ياقوت — وهو كنز الجغرافية الاسلامية ، ولم يدرس بعد دراسة كافية — تعريفا للجزء فى الأندلس يعيننا بعض الشيء على فهم معناه ، فقد قال فى كلامه عن مدينة رباح : « ولها عدة قرى ونواح ، ويسمون بها الأجزاء ، يقوم مقام الاقليم ، كما ذكرنا فى اصطلاحهم فى لفظة الاقليم فى أول الكتاب ، منها جزء البكرين ، وجزء اللخميين وغير ذلك »^(١) . وقال تحت لفظ « جزء » : « رمل الجزء بين الشَّحَر

(١) ياقوت ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ .

وينرين ، طوله مسيرة شهرين ، تنزله أفناء القبائل من اليمن ومعد ، وعامتهم من بنى خويلد بن عتيل ، قيل انه يسمى بذلك ، لأن الابل تجترأ فيه بالكلا أيام الربيع فلا ترد الماء »^(١) . وهذا التعريف ينطبق على ما ذكر آنفا من الأجزاء : « جزء البكرين وجزء اللخميين وغير ذلك » . ثم لاحظت أن الأجزاء لا توجد الا فى النواحي التى تكثر فيها أراضي المراعى مما نزلته بطون العرب بكثرة : اشيلية وبلنسية وقلعة أيوب وما يشابهها ، ولا توجد فى النواحي المحروثة المزروعة من قديم الزمان ، فاذا أضفنا الى ذلك ما لاحظناه من أن معظم الأجزاء ينسب الى مدن ، خرجنا من ذلك بأن الأجزاء قد تكون مساحات من الأرض خصصت للابل والماشية ، وينطبق عليها حكم أرض العشب والكلا فى التشريع الاسلامى ، فلا تكون مملوكة لأحد ، وانما مشاعا للجماعة كلها ، ولا يجبى عنها مال . وقد كانت فى شبه الجزيرة أراض كثيرة يجرى عليها هذا الحكم من قديم الزمان ، وهى أراضي المراعى المشاع (Compascuas) التى ذكرناها آنفا .

بهذا تكون قد اجتمعت لنا فكرة واضحة الى حد ما عن الأساس الذى اتخذته العرب لتقسيم الأندلس تقسيما اداريا : ساروا على ما وجدوه قائما فى البلاد مع تكييفه على نحو يتفق مع ظروفهم فى شبه الجزيرة دون أن يغيروا روحه : فثلت المدينة هى الأساس تتبعها الأرض ، وحسبوا حولوا بعض المدن الى كور ظلت المدينة أساس الكورة ، ولم تكن الكورة هى الأساس تتبعها المدينة . ولم تكن المدينة فى الأندلس بمعناها فى المشرق : مجموعة من الأبنية يحددها سورها ، بل بالمعنى الرومانى : نواة لاقليم أو أقاليم كل أهلها يعتبرون من أهل المدينة . وقد اقتضى

(١) ياقوت ، ج ٣ ، ص ٩٣ .

الأمر اعتبار الكثير من مدن الجنوب وحدات مستقلة ، فجعلوها كورا ، لأن مركز الثقل في الأندلس الاسلامي كان في الجنوب ، ولهذا صغرت مساحات الكور في الجنوب بينما اتسعت في الشرق والغرب . أما الوسط ونواحي الشمال فقد ظلت مدنا بالمعنى الروماني القديم ، مدنا لها أحواز وفي أحوازها تقع مدن أخرى ذات أحواز .

٢٧٤ - المدينة وقد جرت العادة بأن تسمى المدينة الرئيسية بالأم والجمع الأم أمهات ، والمدن الفرعية بالبنات مفردتها بنت ، وقد تتحول الأم الى بنت اذا زادت عليها في العمارة احدى بناتها . قال ابن عبد المنعم الحميري في كلامه عن طرسونة : « كانت مستقر العمال والقواد بالثغور . وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، المعروف بصاحب الأرض ، اختارها محلا وآثرها على مدن الثغور منزلا . وكانت ترد عليها عشير مدينة أربونة وبرشلونة ، ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة ، عند تكاثر الناس بتطيلة وإيثارهم إياها لفضل بقعتها واتساع خطتها » (١) . وكذلك حدث لالبيرة ، فقد كبرت بنتها غرناطة وأصبحت الأم وعادت البيرة من بناتها . ومثل ذلك حدث لبجانة ، اذ اختطت وعمرت واتسعت حتى صارت أما ، « ثم خربت وانتقل أهلها الى المرية وعادت المرية أما » . وتسمى المساحة التي تشغلها المدينة نفسها بخطة المدينة ، وقد تكون الأم أكبر مدن الناحية وأهمها دون أن تكون القاعدة أو القصب ، لأن القاعدة أو القصب يشترط فيها الحصانة والمنعة ، وخاصة في نواحي الثغور . فلم تكن قبلة

(١) الروض المطار ، ص ١٢٣ .

وقد يستعمل لفظ « الأم » للدلالة على أكبر مدن الناحية ، قال صاحب « الروض » في الكلام عن أولية السهلة (ص ٣٤) : « بالأندلس ، قرية من قرطبة ، تعرف بالرملة ، وهي أم الأقاليم ، كثيرة الأهل واسعة الخلطة ، ثمرة الأرضين ، بها ديار للجمع متقنة البنيان ... »

مثلا قصب الكورة المنسوبة اليها ، بل كانت القصب بيبانة ، لأنها — كما يقول ياقوت — « كبيرة حصينة على ربوة يكتنفها أشجار وأنهار » (١) . وكذلك الحال مع قلب — وهي Calpe القديمة — فقد كانت أول الأمر قاعدة كورة مورور (٢) . وعندما اختط الأمير محمد مدينة مجريط جعلها قاعدة « مدينة » وادى الحجارة . وكذلك عندما اختط عبد الرحمن الأوسط مدينة مرسية ، نقل إليها قاعدة كورة تدمير ، وكانت قبل ذلك في أوريولة (٣) . وتسمى الضواحي بالأذرباض ، مفردتها ربض ، اذا كانت صغيرة متصلة بعمارة المدينة ، فاذا كانت كبيرة منقطعة عن عمارة البلد سميت بالعاضر ، مثال ذلك أن طريانة كانت « حاضرا من حواضر اشيلية » (٤) .

وكما تتبع المدينة مدن ، فكذلك تتبعها حصون ومعقل . ٢٧٥ - الحصون ويغلب على الظن أن هناك فرقا بين الحصن والمعقل . فالحصن موضع محصن مأهول يشبه أن يكون مدينة ، وقد تتبعه حصون أخرى ، وقد يكون له حوز . مثال ذلك حصن بيطرة فقد عرفه ياقوت بقوله : « بلدة وحصن من أعمال سرقسطة » (٥) ، وقال عن كركي : « اسم حصن من أعمال أوريوط بالأندلس له ولاية ورقى » (٦) ، وقال ابن عبد المنعم عن قينشاطة : « حصن بالأندلس

(١) الروض المطار ، ص ١٦٢ والترجمة الفرنسية ، ص ١٩٤ وتعليق ٣ .

(٢) ياقوت ، ج ٨ ، ص ٣٩٤ .

(٣) ياقوت ، ج ٨ ، ص ٢٤ .

(٤) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٤٧ .

(٥) ياقوت ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٦) ياقوت ، ج ٧ ، ص ٢٤١ .

كالمدينة ، بينه وبين شوذر اثنا عشر ميلا ، وفي قيشاطة أسواق وربض عامر وحمام وفنادق » (١) . أما اذا اتسع الحصن عن ذلك فيصبح « قلعة مدينة » أى حصنا كبيرا ومدينة كبيرة أيضا ، ومثال ذلك قلعة أيوب وقلعة رباح . في حين أن المعقل لا يزيد عن أن يكون موضعا محصنا يلجأ اليه المزارعون اذا داهمهم خطر ، أى أنه مجرد كراال (Kraal) . وقد كانت المعقل كثيرة جدا في الأندلس ، لا يشذ عن ذلك الا معقل « رندة » فقد تحول الى بلد .

ومن غير الميسور الآن تقدير حوز كل كورة ومدينة ، أو رسم خريطة دقيقة للأندلس الاسلامى وتقسيماته الادارية ، لأن البيانيين اللذين يقدمهما نص جغرافية الرازى المترجم و « التعليق المنتقى » من « فرحة الأنفس » وما لدينا من جغرافية العذرى وأوراق جغرافية البكرى . كل هذه لا تقدم احصاء بأقاليم كل كورة ومدينة وحدود هذه الأقاليم ، ولعل جغرافية العذرى لو كانت كاملة لأعانتنا على ادراك هذا المطلب . ولكنها كما قلنا ناقصة ، فام يبق لدينا الا الاكتفاء بمعرفة الأسس العامة للتقسيم واحصاء الكور والمدن على ما بيناه ، وربما أعاننا الحظ في المستقبل على اكمال الصورة . وقد ذهب ليثى پروفنسال الى أنه من الممكن رسم صورة كاملة للتقسيم الادارى للأندلس بالاستعانة بكتب التاريخ ، وهذا صحيح ، ولكن ما بين أيدينا من أصول تاريخ الأندلس مبتور في مواضع شتى ، كما هو الحال مع جغرافية العذرى . وقد أحصى پروفنسال سبعا وعشرين كورة غير الثغور . وهذه الكور هي : قرطبة — فحص البلوط — قبرة — استجة — اشبيلية — قرمونة —

(١) الروض المختار ، ص ١٦٥ .

وراجع أيضاً كلامه عن حصن «جندالة» (ص ٦٧) وحصن اللج (ص ١٠٨) وحصن الكريس (ص ١٦٦-١٦٧) .

لبلة — أكشونة (شلب) — باجة — مورور — شذونة (قلسانة) — الجزيرة الخضراء — تاكرنا (رندة) — ريه أو مالقة — البيرة — جيان — بجانة — تدمير (مرسية) — شاطبة — بلنسية — طليطلة — طليبة (أقلش) — ماردة — بطيوس — شتيرين — نشبونة — قلورية (١) .

وقد تكون هذه هي كور الأندلس في القرن العاشر الميلادى ، ولا نستطيع الآن أن نتايش هذه القائمة ، لأننا لا نملك احصاء كاملا لما في كتب التاريخ من معلومات .

وقد تبع اعتبار المدن وأحواضها وحدات ادارية بضع صور : ٢٨٠ - تقسيم ادارية لا نجد لها شيئا في المشرق ، كاتباع الأنهار مجارى الأنهار ، أو أجزاء منها للمدن التى تقع عليها أو الأقاليم التى تقع فيها ، مثال ذلك قول العذرى في كلامه عن اقليم جلق* من أقاليم سرقسطة : « ونهر يستقى ماوازي قنطرة سرقسطة عشرون ميلا . ومخرج نهر جلق* (El Gallego) من جبال السيرطانيين ، ثم يخرج الى ناحية وشقة الى سرقسطة ، ويقع في ابنر* ، والجزء الأعلى من نهر جلق* يردى من الصخرة الى منزل حسان الى قنطرة سرقسطة عشرون ميلا » (٢) . فهنا نرى بوضوح أن النهر تابع للاقليم ، بل أن الأجزاء التى يرونها محددة تحديدا تاما ، كما تحدد النواحي التى ترونها الترع والقنوات في نظم الري الحالية . وتسمية النهر باسم الاقليم هنا ليست تسمية جزائية بل لها معنى التبعية الادارية . ومثال ذلك أيضا قوله في الكلام

(١) LÈVI-PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane, III pp. 49-51.

(٢) العذرى : نظام المرجان ، ورقة ١٦١ .

عن اقليم شلون (El - Jalón) : « وهو غربى من سرقسطة ، ونهره يسقى من قرية قبائش وركله الى باب سرقسطة ٤٠ ميلا ، وحكى بعض من يعرف نهر شلون أنه يعم بالسقيا نحو ٧٠ ميلا »^(١) . ومعنى ذلك أن أربعين ميلا من مجرى شلون تبع لاقليم شلون ، والباقي خارج عن هذه التبعية . وعلى هذا الأساس قالوا نهر مرسية ونهر بلنسية وما الى ذلك ، فقد كانت لهذه الأنهار أسماءها الجغرافية وكان العرب يعرفونها ، ولكن نسبة النهر هنا تحمل معنى التبعية ؛ أى أن نهر مرسية داخل في حوز مرسية وأقاليمها ، ونهر بلنسية كذلك . بل ان مجارى الأنهار الطويلة كانت تقسم ، فيدخل كل قسم منها في حوز مدينة ، ومثال ذلك نهر الوادى الكبير ، فهو في زمام اشبيلية نهر اشبيلية ، والجزء الداخلى من مجراه فى حوز قرطبة يسمى نهر قرطبة ، وفى حوز جيان يسمى نهر جيان ، وقس على ذلك بقية كبار الأنهار .

وكانت لمسلمى الأندلس من أول الأمر عناية بالموانى ،
٢٧٧ - المراسى نظرا لأهمية الصلات مع العدو الافريقية . وكانوا يسمون الميناء مرسى ، وهى تسمية لها معناها بالنسبة لطبيعة الموانى الاسلامية فى الغرب الاسلامى فى هذه العصور الأولى . ويلاحظ أن أهل المغرب والأندلس دون غيرهم من أهل الدولة الاسلامية ، توسعوا فى استعمال لفظ المرسى مقابلا للميناء ، وخاصة فيما يتصل بما أنشأه المسلمون منها ، فهم يقولون « مرسى تونس » و « مرسى الخزر » و « مرسى الدجاج » و « مرسى المرية » و « مرسى بجانة » وما الى ذلك ، وهذه كلها موان جديدة نشأت بعد الفتوح الاسلامية ، أى أن الميناء كان يبدأ

عادة بأن يكون مرسى للسفن ثم يتطور بعد ذلك كما تطورت تونس والمرية وبجانة ، فأصبحت مدنا ومراسى فى نفس الوقت . ويفهم من كلام صاحب « الروض المطار » أن الميناء قد يبدأ فى أول أمره رباطا بحريا ، ثم ينشأ عنده مرسى ، ثم يتحول الى مدينة ، كما حدث فى المرية^(١) ؛ وقد يبدأ اقطاء بحريا لقبيل من العرب فى مقابل حفظ الساحل ، فينشأ فيه مرسى ثم ميناء كما كان الحال مع بجانة . وفى حالة هذه الأخيرة نضع أيدينا على « ميلاد » مدينة . قال صاحب « الروض » : « وبقر بجانة كان جامع الاقليم الأعظم ، الا أنها كانت حارات متفرقة ، حتى نزلها البحريون وتغلبوا على ما كان فيها من العرب ، وصار الأمر لهم ، فبصعوها وبنوا سورها »^(٢) . وقد كانت بجانة — كما هو واضح هنا — قرية صغيرة (هى التى تعرف باسم Pechina) ، وكان حولها أحياء كثيرة أهلة متفرقة هى المسماة هنا بالحارات . وكان لأهل هذه الحارات مسجد جامع كبير بقرب بجانة ، فقام أولئك البحريون بجمع الحارات بعضها الى بعض ، وأقاموا سورا حولها وحول بجانة والمسجد الكبير ، فنشأت المدينة .

وتظهر « الضياع » فى الأندلس الاسلامى من أول الأمر ،
٢٧٨ - الضياع فقد ذكر ابن القوطية أن أبناء غيطشة حالفوا طارق بن زياد على « أن يمضى لهم ضياع أبيهم وكانت ٣٠٠٠ ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوك » ، وقد أجابهم طارق الى ذلك ؛ وقد خص أرطباس منها ألف ضيعة كان يفرق منها على العرب . والضيعة الواحدة هى مقابل

(١) الروض المطار ، ص ٣٧ .

(٢) الروض المطار ، ص ٣٧ .

الفيلا (Villa) في النظم الرومانية ، والضيايع الكثيرة المتجاورة تقابل اللاتيفونديوم (Latifundium) . وإذا كانت النصوص تدل على أن نظام الضيايع استمر في الأندلس واتسع مداه ، كما كان الحال في المشرق أيضاً ، إلا أننا لا نملك ما يدل على بقاء نظام الملكيات الشاسعة (Latifundia) وربما لاحظنا تشابها بين الفيلا ، وهي القصر الريفي تحيط به ضيعة أو ضيايع واسعة يملكها صاحب القصر ، ومصطلح « المنية » الذي كان شائعاً في الأندلس . فتعريف المنية عندهم قريب من تعريف الفيلا ، ولكن هناك فرقاً واضحاً بين الضيايع والمنيات ، فالضيايع قرى تصير إلى ملك مالك كبير وربما أقام فيها ، في حين أن المنية ضيعة تنشأ حول قصر ريفي ينشئه المالك الكبير ، ولكن كليهما من حيث الهيئة والوضع يقابل الفيلا الرومانية ، ومعروف أن هذه الفيلا أيضاً كانت تختلف فيما بينها ، ففيها ما يشبه الضيايع وفيها ما يشبه المنيات .

وهناك مصطلح آخر تحسن الإشارة إليه فيما ذكرنا من ٢١٩ - الفحص مصطلحات جغرافية إدارية ، وهو مصطلح « الفحص » وهو كثير الاستعمال في المغرب أيضاً حتى يبدو لنا أن أصله مغربي ، وقد وضع ياقوت تعريفاً للفحص ، قال : « وسألت بعض أهل الأندلس : ما تمنون به ؟ فقال : كل موضع يسكن - سهلاً كان أو جبلاً ، بشرط أن يزرع - نسميه فحصاً ، ثم صار علماً لعدة مواضع » (١) وكانت الفحوص في الأندلس كثيرة ، ومعظمها أقاليم في كور ومدن ، فيقال إقليم الفحص من أعمال طليطلة أو من أعمال أكشونة أو اشبيلية . وأكبرها فحص البلوط الذي أصبح كورة فيما بعد .

* * *

(١) ياقوت ، مادة فحص .

وقد يكون بعض الحقائق التي ذكرناها قد وقع فيها بعد ، ولكننا كما ذكرنا نؤرخ لنظام بدران تاريخ ، لم يذكر واحد من مراجعنا متى وضع أو متى عدل ، فلم يبق إلا أن نذكر ما لدينا من المعلومات مطلقة حتى تعييننا أصول جديدة على مزيد من التوضيح ، وإذا كان الرأي الذي ذهبنا إليه ، فيما يتصل بأصول هذه الأنظمة ، أن العرب أخذوها مما وجدوه جارياً لدى دخولهم ، فليس هناك ما يمنع من القول بأن معظم ما أثبتناه من النظم حدث أثناء فترة الولاة التي تحدث عنها ، ثم دخله الضبط والترتيب والتفصيل والتدقيق فيما بعد .

٢٨٠ - المشيخة وقد بينا كيف كانت هذه النظم فريدة في بابها في العالم والكوريا الإسلامية كله ، ومن الطبيعي أن ينسحب هذا الحكم على ما بنى عليها ، فإذا قلنا أن دخول العرب أحيا المدن التي كانت تتلاشى رويداً رويداً في الأندلس قبلهم ، وأن ذلك الأحياء استتبع ابتعاث مشيخات البلاد أو الكوريات الرومانية المدنية القديمة ، فقد انبنى على ذلك تعميم فكرة المشيخات أو المجالس على كثير من النظم الإسلامية في الأندلس ، مما أدى إلى ظهور هيئات خاصة بالأندلس كهيئة « الفقهاء المشاورين » وجساعة الوزراء وما إلى ذلك مما جد بعد الفترة التي نؤرخ لها من النظم .

ذلك أن لفظ مشيخة كان له معنى خاص في الأندلس ، فالمشيخة في المشرق هي الرئاسة أو هي الوظيفة أو الأستاذية ، فيقولون مثلاً إن فلاناً « تولى مشيخة دار الحديث » أو « مشيخة الحديث بترية أم صالح ومشيخة الرباط الناصري ومشيخة المالكية » أو « ولي مشيخة المدرسة بالقدس ومشيخة الرباط الناصري بالجليل » أو « برع في النحو و انتهت إليه المشيخة » ، أما في الغرب الإسلامي فكان له معنى المجلس

أو الجماعة ، قال ابن خلدون : « واستبد مشيخة كل بلد بأمره »
 أو « وكانت مشيختها في القديم في بني ورمان من أهلها بما كاثروا
 ساكنها وملكوا عامة ضياعها ، وكان مشيخة قابس لذلك العهد في
 ميوقات من أهلها » . والمعنى في هذه النصوص واضح ، فهو الجماعة
 من أعيان الناس يتولون أمر البلد . ويفسر دوزي معنى المشيخة هنا
 بأنه « الحق الذي كان لعدد من الأسر الكبيرة في أن تؤلف مجلسا بلديا
 يحكم البلد أو مجلسا جمهوريا » ، بل ان الكلمة وردت بمعنى المجلس
 البلدي أو أعضائه ، وذكر بطرس الكلاعي Pedro de Alcalá في قاموسه
 ان الشيخ هو العضو في مجلس البلد (Jurado en la cibdad) والمشيخة
 هي الطائفة (١) . وهذه كلها معان لم تعرف الا في المغرب والأندلس ،
 وفي هذا الأخير خاصة ، وثابت على أى حال أن العرب عندما قضوا
 على سلطان القوط عقدوا مع أهل كل بلد استسلم لهم عقدا أو معاهدة ،
 وكان التعاقد يتم مع الكوريا القديمة ، وترجمتها العرب الى المشيخة ،
 وكانت هذه المعاهدات سببا في احياء مشيخات البلاد ، فأصبح في كل
 بلد مشيخة من أهلها هي التي تتخاطب مع العرب وتضمن لهم الأمن
 والأموال ، فنشلت المشيخات وانتظم أمرها ، وعندما أسلم أهل البلاد
 احتفظوا بمجالسهم وهي مشيخاتهم ، ومن هنا كان للمدن في الأندلس
 نظام بلدي يرفع شئونها وشئون أهلها . وثبتت صلاحية هذا النظام
 فامتد حتى شمل الحرف ، فأصبح لأهل كل حرفة مشيخة أو مجلس ،
 ونشأت مشيخة الفقهاء ، وهي جماعة من الفقهاء يتخذهم الأمراء
 والخلفاء مستشارين وسموا « الفقهاء المشاورين » ، ووزعت اختصاصات
 الوزير بين ثمة من الوزراء كان لهم مجلس .

(١) انظر دوزي : ملحق التراميس : مادة شيخ ، ج ١ ، ص ٨٠٩

٢٨١ - انفصال وظاهر من النصوص أن أهل البلاد من النصارى واليهود
 العرب عن أهل عاشوا أول الأمر منفصلين عن العرب ، مستقلين بحكومة
 البلاد أول الأمر أنفسهم ، وكان لهم رئيس أعلى يسميه ابن حيان « قورس الأندلس
 وزعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم للأمراء المسلمين » (١) . أى أنه
 هو الذى كان يتصل بأهل الذمة ويستخرج ما عليهم من الأموال ويؤديها
 للحكومة المركزية . وكان تعامله مع مشيخات البلاد ، أى أن كل مشيخة
 كانت تجمع ضرائب بلدها وتؤديها الى القورس . وقد أشرنا فيما سبق
 الى حكومة البلد وذكرنا بعض ما عثرنا عليه من ألقاب موظفيها . وقد
 أقام العرب لكل ناحية حاكما من المسلمين ، فأما حاكم الكورة فكان
 يسمى العامل أو الوالى ، وأما حاكم المدينة ذات الحوز فكان يسمى
 القائد ، لأنه كان يختار من العسكريين لأن هذه المدن كانت كلها ثغورا
 أو مناطق عسكرية على ما قلناه ، وكان حوز الكورة أو المدينة يسمى
 العمل أو النظر أو الولاية أو الحوز .

أما العرب فقد عاشوا أول الأمر مستقلين بأنفسهم ، سواء من نزل
 منهم المدن أو من عاش منهم في الريف ، وقد احتفظ لنا ابن الخطيب
 في الإحاطة بنص رواه عن ابن حيان والرازي يوضح أحوال المسلمين
 من عرب وبربر تمام التوضيح ، ونحن نورد هنا بنصه مع تقسيمه الى
 فقرات زيادة في البيان :

١ - « قال أبو مروان (بن حيان) : أشار على أبى الخطار
 رطباس قورس الأندلس وزعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم للأمراء

(١) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة (طبعة محمد عبد الله عنان) الجزء الأول ،

المسلمين — وكان هذا القومس شهير العلم والدهاء — لأول الأمر ، بتفريق القبائل الشاميين الغالبيين ^(١) على البلد ، من دار الامارة قرطبة ، اذ كانت لا تحملهم ، وانزالهم بالكور على شبه منازلهم التي كانت في كور شامهم .

٢ — ففعل ذلك عن اختيار منهم ، فأنزل جند دمشق كورة البيرة ، وجند الأردن كورة جيان ، وجند مصر كورة باجة ، وبعضهم بكورة تدمير ، فهذه منازل العرب الشاميين ^(٢) .

٣ — وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة .

٤ — وبقي العرب البلديون والبرابرة شركاؤهم ، وسكنوا واغتبطوا وكثروا وتمولوا ، الا من كان قد نزل منهم لأول قدومه في الفتوح على غنائمهم ^(٣) لم يعرض لهم في شيء منها .

٥ — فلما رأوا (يعنى العرب الشاميين) بلدانا شبه بلدانهم بالشام نزلوا وسكنوا واغتبطوا ، وكثروا وتمولوا ، الا من كان قد نزل منهم لأول قدومه موضعا رصينا فانه لم يرتحل عنه ، وسكن به مع البلديين ،

(١) قرأها محمد عبد الله عنان : المسلميين ، وشرحها في الهامش بأنها نسبة إلى علم مكان بالشام ، ولا محل لذلك التكلف لأن صحبها الغالبيين كما أثبتناه .

(٢) النص هنا ناقص وغير دقيق ، وصحته ما أورده ابن عذارى إذ قال إن أبا الخطار أول أهل دمشق بالبيرة وأهل الأردن بريثه وأهل فلسطين بشذونة وأهل حمص بإشبيلية وأهل قنسرين بجيان وأهل مصر بباجة وبعضهم بتدمير .

انظر ابن عذارى : البيان ، طبعة ليثي پروفنسال وكولان ، ليدن ١٩٥١ ، ص ٣٣ .

(٣) أثبتنا محمد عبد الله عنان : غنائمهم ، وهي قراءة لا يستقيم بها المعنى ، والصحيح ما أثبتناه . وسنفصل فيما يلي كيف اعتبر جند الأندلس الأرض غنيمة بخلاف ما يقضى به تشريع عمر ابن الخطاب رضى الله عنه .

فاذا كان العطاء أو حضر الغزو لحق ^(١) بجنده ، وهم الذين كانوا سموا الشاذة ^(٢) حينئذ .

٦ — قال أحمد بن موسى [الرازى] ^(٣) : وكان الخليفة يعقد [لشاميين] لواءين : لواء غازيا ولواء مقيما .

وكان رزق الغازى بلوائه (أى صاحب اللواء) ٣٠٠ دينار ويبقى المقيم (أى صاحب اللواء المقيم) بلا رزق ثلاثة أشهر ثم يدال (صاحب اللواء) بنظيره من أهله أو غيرهم .

٧ — وكان الغزاة من الشاميين ، مثل اخوة المعهود له (أى صاحب لوائهم) أو بنيه أو بنى عمه يرزقون عند انقضاء غزاته ١٠ دنانير .

٨ — وكان يعقد المعقود له (أى صاحب اللواء) مع القائد (أى قائد الجيش المركزى ، ومعنى يعقد له أن يتعهد له) يتكشف عن غزا ويستحق العطاء ، فيعطى على قوله تكربة له .

٩ — وكانت خدمتهم (أى خدمة الشاميين) فى العسكر (أى الجيش العام للدولة) واعتراضهم اليه (أى أن قيادة الجيش هي التي كانت تستعرضهم قبل الخروج) .

١٠ — ومن كان من الشاميين غازيا من غير بيوتات العقد (أى من غير بيوتات أصحاب الأولوية) ارتزق خمسة دنانير عند انقضاء الغزو .

(١) أثبتنا عنان : ولحق بجنده ، والنوابو زائدة .

(٢) أثبتنا عنان : الشاذة بالبدال ، وهو خطأ . راجع دوزى : ملحق القواميس ، مادة

شاذ ، ج ١ ، ص ٧٣٩ .

(٣) أضفنا ما بين الحاصرتين من عندنا ، لأن المراد أحمد بن محمد بن موسى الرازى لا أحمد

ابن موسى المدوى الذى ذكره عنان فى الهامش نقلا عن كشف الظنون .

- ١١ — ولم يكن يعطى أحد من البلديين شيئا غير المعقود له .
 ١٢ — وكان البلديون أيضا يعقد لهم لواءن : لواء غاز ولواء مقيم .
 ١٣ — وكان يرتزق الغازى [بلرائه] مائة دينار وازنة . وكان يعقد لغيره الى ستة أشهر ، ثم يدال بنظيره من غيرهم .
 ١٤ — ولم يكن الديوان والكتبة الا فى الشاميين خاصة .
 ١٥ — وكانوا أحرارا من العشر ، معدين للغزو .
 ١٦ — ولا يلزمهم الا المقاطعة على أموال الروم التى كانت بأيديهم .
 ١٧ — وكان العرب من البلديين يؤدون العشر مع سائر أهل البلد (= أهل البلاد) .

١٨ — وكان أهل بيوتات منهم (أى من أهل البلاد) يغزون كما يغزو الشاميون ، بلا عطاء ، فيسير بهم الى ما تقدم ذكره ، وانما كان يكتب أهل البلد فى الغزو .

- ١٩ — وكان الخليفة يخرج عسكريين الى ناحيتين .
 ٢٠ — فيستتر بهم (أى يستعين بالمقيدين من أهل البلاد فى الغزو ليحتمى بهم أثناء غياب العسكريين الرسميين فى الغزو) .

٢١ — وكانت طائفة ثالثة يسمون « النظراء » من الشاميين والبلديين ، كانوا يغزون كما يغزو أهل البلد من الفريقين » (١) .

وهذا نص واضح مفصل يلتقى ضوءا على أسلوب حياة العرب ووظيفتهم فى المجتمع الأندلسى . وأهم ما يعيننا منه هو أن جماعات العرب انتشرت فى البلاد ونزلت النواحي وملكت الأرض ، وكثرت

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ص ١٠٩-١١١ .

وتمولت . وغالبية هؤلاء من البلديين ، أما الشاميون فقد كانت لهم الصدارة ، كانوا عماد الجيوش وأصحاب الديوان والكتبة فيه ، وكان عليهم أن يقدموا للجيش المركزى لواءين ، لواء يخرج للغزو ولواء يقيم على الأهبة ، واللواء الغازى لا يقيم فى الغزو الا ثلاثة أشهر ثم يعود ويخرج الثانى ، وكان لكل لواء أمير يرزق ٢٠٠ دينار عن كل غزوة ، أما الجند وأقارب صاحب اللواء فكان الواحد منهم يزق عشرة دنائير فى نهاية كل غزوة . وكانوا فى مقابل هذه الخدمة الحربية المستمرة يعفون من أداء العشر ، ويستولون على ثلث أموال من نزلوا بأرضهم من أهل البلاد . أى أن الدولة منحهم حق ملكية ثلث هذه الأموال . فإذا ذكرنا أن القوط أيضا كانوا يستولون على ثلث الأموال فى مقابل الخدمة العسكرية ، تبين أن أولئك الشاميين حلوا فى الواقع محل القوط فى وضعهم وحقوقهم . واقطاع المحاربين الثلث عرف غير اسلامى ، وانما هو استمرار لتقاليد القوط مع خلاف واضح استتبعته العدالة الاسلامية ، فان القوطى كان يستولى على الثلثين (Sors - Sortes) ويترك لأهل البلد الثلث (Tercia) ، أما العرب فلم يسمحوا للمحارب منهم بغير الثلث وتركوا الثلثين لأهل البلاد .

أما العرب البلديون — وهم القدامى من اليمانيين والشاميين ، ومعظمهم من اليمانيين — فقد اختلطوا بأهل البلاد وزرعوا وحصدوا وسقط عنهم التكليف العسكرى ، غير أنهم كانوا يستطيعون الانخراط فى ألوية خاصة بهم ، ولا يقدر عطاء الا لرؤسائهم أصحاب ألويتهم ، أما المقاتلون منهم فلم يكونوا يعطون شيئا ، وحسبهم ما كانوا يحصلون عليه من غنيمة ، وكانوا يدفعون العشر كغيرهم من زراع أهل البلاد ،

في حين كان الشاميون معنيين من العشور ، بالضبط كما كان القوط معنيين من الضرائب .

والإشارة إلى أهل البلاد هنا جدية بالملاحظة ، والمراد بهم ٢٨٢ - اشتراك كما قلنا أهل البلاد الأصليون ، فهؤلاء لم يكونوا ملزمين أهل البلاد في الجيوش بالغزو بل كان يتطوع منهم من يريد ، ويقيد اسمه في سجلات المعسكر ولكنهم كانوا لا يرزقون ، شأنهم في ذلك شأن البربر والعرب البلدين ، وكانت تؤلف منهم قوات احتياطية يستعين بها الحاكم إذا خرجت جيوشه للغزو .

والخلاصة أن الشاميين الذين أتوا مع بلج أصبح لهم مركز ٢٨٣ - التقليد الشامي ممتاز ، فهم رجال الأجناد وأهل الديوان ، وهم لا يدفعون العشور ، أي أن الدولة الإسلامية الأندلسية صارت شامية بعد مجيء طالعة بلج : أصبح أهل الشام أصحابها وذوى المكانة العليا فيها ، وهذا ما يعرف في تاريخ الأندلس بالتقليد الشامي ، وقد أيد أمراء بني أمية هذه الشامية على طول تاريخهم ، حتى أن الأمير محمدا رفع الشاميين فوق غيرهم ، وقرر لهم ذلك الامتياز الذي سيحافظون عليه حتى منتصف إمارة عبد الرحمن الناصر على الأقل .

لا تكاد المراجع التي بأيدينا تقدم لنا شيئاً يعيننا على تكوين ٢٨٤ - الإدارة المركزية صورة تقريبية عن النظام الذي أدار العرب به شؤون الأندلس خلال الأربعين سنة التي سبقت قيام الدولة الأموية ، وقد كان من الميسور أن تقول أن الأندلس أدير على النحو الذي أديرته به مصر مثلاً خلال القرن الأول الذي تلا الفتح ، لو كانت

لدينا بضع معلومات رئيسية تؤيد القول بأن الأمر في الأندلس كان كما كان في غيره من البلاد التي فتحها المسلمون ، ولكن هذه المعلومات الرئيسية ليست بين أيدينا مع الأسف ، حتى الخراج والجزية — وكانا موضع اهتمام مؤرخي الفتح — لا نجد لهما ذكراً واضحاً في تواريخ الأندلس التي بين أيدينا ، بل ليس فيها ذكر لقدر الخراج أو نظامه ولو مرة واحدة نستطيع القياس عليها ، ولو أننا قلنا أن الأندلس لم يرسل إلى دار الخلافة خراجه مرة واحدة لما بالغنا ، ويبدو من مجموع ما لدينا من المعلومات أن عرب الأندلس الذين فتحوه آداروه على غير نظام ثابت معروف كما سنرى (١) . وسنورد فيما يلي ما لدينا من البيانات عن الإدارة المركزية .

ويبدو اضطراب هذا النظام في صورة واضحة جداً في ٢٨٥ - نظام طريقة تولي ولاية الأندلس مناصبهم ، فقد فُتح الأندلس على يد عامل إفريقية موسى بن نصير : بعث مولى من مواليه

(١) اكتفى صاحب «فتح الأندلس» في بيان سياسة المسلمين في الأندلس بقوله إن موسى غفت عنه أثناء العبور إلى الأندلس و «رأى موسى النبي صلى الله عليه وسلم فبشره بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد للمشركين ...» ، وهذا هو كل ما تجده في هذا الكتاب عن حكمية المسلمين في الأندلس في عهد الولاة !

انظر : «فتح الأندلس» ، ص ٥ .

وقد اكتفى نفس المؤلف في الكلام عن تصرف طارق في الغنائم بقوله : « وجمع طارق الغنائم وأخرج خمسها ، وقسم باقيها » دون أن يذكر لنا ماذا فعل طارق بهذا الخمس — (فتح الأندلس ، ص ٧) . ثم أكد بعد ذلك أمر تقسيم الغنائم بين الفاتحين وفصل تلك الغنائم بأنها كانت سبياً ومتاعاً وأرضين ورباعاً (أي بيوتاً) — نفس المصدر ، ص ١٣ . وبلغ من اضطراب أخبار مصير خمس الدولة من الغنائم أن ذهب نفس المؤلف إلى أن هشام بن عبد الملك وهبها لحفيده عبد الرحمن (كذا) فأرسل هذا من لدنه نائباً عنه ليجمعها له ، وتلك أسطورة من غير ريب ، يغلب أنها ظهرت بعد قيام الدولة الأموية الأندلسية — (فتح ، ص ١٥) .

البربر هو أبو زرة طريف فاستطلعها له ، ثم بعث مولى آخر بربريا هو طارق بن زياد ففتحها ، ثم عبر هو بنفسه فأتم هذا الفتح وأصبح أول ولايتها ، واعتبرت الأندلس جزءا من المغرب يولى عليها عامل المغرب من يريد من رجاله ، كما اعتبرت إفريقية ولاية تابعة لوالى مصر فى أول أمرها ، ولهذا ترك موسى عليها ابنه عبد العزيز بن موسى حينما رحل الى المشرق فى أواخر سنة ٩٥ هـ . ولم يثبت الخليفة سليمان بن عبد الملك فى الولاية ، فظل واليا معتمدا على وصاة أبيه له بالحكم .

فلما قتل عبد العزيز بن موسى انفرد جند الأندلس باقامة واليهم ، فأقاموا أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير : ثم يولاه والى إفريقية ولا الخليفة سليمان بن عبد الملك أيضا ، ويفهم من النصوص أن البربر كانوا أصحاب اليد الطولى فى قيامه بالولاية .

وأراد سليمان بن عبد الملك أن يصحح هذا الوضع الشاذ ، فقرر أن يعيد هذا الحق الى والى إفريقية ، فلما ولى على إفريقية محمد بن يزيد عجل هذا فبعث اليها الحر بن عبد الرحمن ، ويبدو أن الحر أحس أن عرب الأندلس سيعارضون فى ولايته وسيدافعون عن هذا الحق الذى كسبوه لأنفسهم ، فاستصحب معه أربعمائة من وجوه إفريقية ليؤيدوه ، وقد قبله أهل الأندلس دون مقاومة ، ولم يكد المقام يستقر به حتى عجل بنقل دار الامارة من اشبيلية الى قرطبة ، وربما كان دافعه الى هذا رغبته فى الابتعاد عن جماعات العرب التى استقرت فى اشبيلية وكثرت فيها ، ورغبته فى أن يكون بموضع أقرب الى الجزيرة الخضراء والمغرب من اشبيلية ، ولم يكن دافعه مجرد الرغبة فى جعل دار الامارة بمكان يتوسط شبه الجزيرة كما تقول المراجع ، لأن قرطبة ليست فى وسط الجزيرة على أى حال .

ولم تطل ولاية الحر على الأندلس أكثر من سنتين وثمانية أشهر (ذو الحجة ٩٧ - رمضان ١٠٠ هـ / أغسطس ٧١٦ - مارس - أبريل ٧١٩ م) لم يستطع خلالها أن يقوم بأمر ذى بال .

فاذا كانت خلافة عمر بن عبد العزيز وجدنا أنفسنا أمام ٢٨٦ - تفكير أمر غريب لم نسمع بمثله فى بلد آخر مما فتح المسلمون ، الخلافة فى إخلاء ^{الأندلس} وهو رغبة الخلافة فى إخلاء الأندلس واسترجاع العرب منها ، ولو ورد لنا هذا فى مرجع واحد لما علقنا عليه أهمية كبيرة ، ولكن اجماع المراجع على ذكره يجعلنا نفكر فى البواعث التى حدثت بعمر بن عبد العزيز الى التفكير فيه ، وهو المتحمس للإسلام الرافى فى بسط رواقه وادخال الناس كلهم فى رحابه . ولا شك فى أن دافعه الى ذلك كان احساسه بأن أحوال المسلمين فى الأندلس ليست على ما يرام ، وأن مستقبل الاسلام فى هذا البلد القصى لا ينبىء بخير كثير ، ويبدو أن غرض عمر بن عبد العزيز الأول من ارسال السمع كان استطلاع أمر البلاد ، مما يدلنا على أن أخبار الأندلس كانت طوال الفترة الماضية منقطعة تماما عن مركز الخلافة ، وأن عمر بن عبد العزيز لم يكن يعرف عنها شيئا ، ولم يكن يصل اليه شيء من أموالها ، ولهذا « أمره أن يحمل الناس على طريق الحق ، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب اليه بصفة الأندلس وأنهارها ، وكان رأيهم قتل المسلمين منها وتقليهم عنها ، لانتقطاعهم عن المسلمين واتصالهم بأعداء الله الكفار ، فقليل له ان الناس قد كثروا بها وانتشروا فى أقطارها ، فأضرب عن ذلك » (١) .

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

بيد أن ارتباط فكرة إخلاء الأندلس بمجيء السمو وأمره بتخميس ما غلب عليه من أرضها يلقي على الموضوع شعاعاً من النور ، ويفهمنا أن الأندلس لم يكن قد تم تخميسه إلى ذلك الحين ، ولم يكن قد بعث إلى دمشق بشيء من أمواله ، فلا عجب أن وقر في أذهان الخلفاء أنه بلد لا خير للمسلمين فيه وليس لهم بين رحابه بقاء فأرادوا إخلاءه . ثم إن أمر المسلمين لم يستقر فيه خلال الولايات الثلاث الماضية على نحو يبعث على الأمل في صلاح مستقبله . فقد حاول عبد العزيز بن موسى الوثوب بالخلافة ، ووقع بينه وبين عرب الأندلس خلاف شديد ، فلما قتل قدم البربر على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير ، فكان في توليته على هذا النحو ما أثار مخاوف الخلافة ، ثم خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، ولم يوله سليمان وانا ولاد محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان ، فلم يظهر كفاءة خاصة ، وكانت البلاد في حاجة إلى من يرتب أمورها ويضع أسس الإدارة العربية فيها ، ووجدت الخلافة نفسها بين أمرين في شأن الأندلس : إما إخلائه أو تنظيمه ، فلما استبانت صعوبة الأمر الأول لم يبق إلا المضي في الثاني . وسنتحدث عن أعمال عمر ابن عبد العزيز الإدارية في فقرة تالية ، واما يكفي أن نذكر هنا في حديثنا عن نظام الولاية ، أن السمو كان أول وال تقيمه الخلافة على الأندلس ، وأن عمر بن عبد العزيز حين استقر رأيه على المضي في تعمير الأندلس ، لم يعهد إلى واليه السمو بن مالك في روك البلد واحصاء أراضيه وتنظيم أموره على أسس الشريعة ، بل نذب لذلك مولى من مواليه تسميه المراجع « جابرا » نستطيع القول أن الخلافة اعتبرته عامل خراج للأندلس ، وفصلت بذلك شئون الخراج عن الولاية العامة ، ولم يتح

لجابر هذا أن يستمر في مهمته ، فقد رفع يده عن التخميس بمجرد أن وصله نبأ موت عمر بن عبد العزيز ، ولم تلبث ولاية السمو نفسه أن انتهت ، إذ قتل على ما روينا وعادت الأندلس إلى التبعية لأفريقية ، وقد حاول جند الأندلس انتزاع هذا الحق من عمال إفريقية ، فأقاموا عبد الرحمن الغافقي واليا ، وكانت تلك هي ولايته الأولى ولكنها لم تدم إذ أن بشر بن صفوان عامل المغرب ولي أحد رجاله — وهو عنبسة بن سحيم — على الأندلس .

ولم يجر الأمر على التبعية المطلقة للمغرب بعد ذلك ، لأن عرب الأندلس لم يدعوا فرصة تمكنهم من استعادة هذا الحق إلا انتهزوها ، فحينما مات عنبسة (شعبان ١٠٧ / فبراير — مارس ٧٢٦ م) عطلوا بإقامة أحد رجالهم وهو عذرة بن عبد الله التهرى ، ولم تدم ولايته أكثر من شهرين ، لأن بشر بن صفوان عامل إفريقية عجل بإرسال يحيى بن سلامة عاملا على الأندلس في شعبان من نفس السنة ، ولم تزد ولاية يحيى بن سلامة على سنتين وستة أشهر على أوسع القروض ، إذ عزله إلى المغرب الجديد عبيدة بن عبد الرحمن واستبدل به أحد رجاله وهو حذيفة بن الأخوص القيسي (ربيع الأول ١١٠ / يونيو — يوليو ٧٢٨ م) (١) .

ولم تطل ولاية حذيفة الا شهرا ، إذ خلفه عثمان بن أبي نسة الخشمي (في شعبان ١١٠ / نوفمبر — ديسمبر ٧٢٨ م) وكذلك وقع للوالين الذين خلفاه وهما الهيثم بن عبيد الكلابي ومحمد بن عبد الله الأشجعي ،

(١) انظر ثبت الولاية التي ذيل به لافوينتي إلى الكائرا ترجمته الإسبانية للأخبار المبهمة ،

فلم تطل ولاية هؤلاء الأربعة عن سنة وخمسة أشهر (شعبان ١١٠ - صفر ١١٢/نوفمبر - ديسمبر ٧٣٨ - مارس - أبريل ٧٣٠). وقد ولاهم جميعا عمال افريقية، حتى عبد الرحمن الغافقي الذي أتى بعدهم فقد كان لابد أن يقر عبادة بن عبد الرحمن ولايته رغم ما كان بينهما من خلاف (١).

وحينما استشهد عبد الرحمن الغافقي (رمضان ١١٤/أكتوبر ٧٣٣م) ولي جند الأندلس على أنفسهم عبد الملك بن قطن الفهري، وقد أقر عامل افريقية هذا الاختيار، ولكن عبيد الله بن الجحباب لم يلبث أن عزله بشيعة ولايته على المغرب وولى مكانه عقبة بن الحجاج السلولى. ولا نزاع في أن عرب الأندلس - واليمنيين منهم بوجه خاص - لم يرضوا عن ذلك الاجراء، فلم يزالوا يرقبون الفرصة حتى اذا سمعت لهم باشتغال عبيد الله بن الجحباب بثورة البربر في افريقية عجلوا فوثبوا بعقبة (٢)، ويقال ان عقبة أوصى لعبد الملك بن قطن قبل موته، ومهما يكن من الأمر فقد تولى عبد الملك بن قطن للمرة الثانية بارادة جند الأندلس.

ولم يتدخل عمال افريقية ولا الخلفاء في تولية عمال الأندلس من ذلك الحين الى قدوم أبى الخطار، فقد وثب بلج بن بشر بعبد الملك بن قطن، وزعم أن هشام بن عبد الملك أوصى له بالولاية وهو زعم لا نملك ما يؤيده، وخلفه ثعلبة بن سلامة بارادة المقيسين، ولم يعد الأمر الى عمال افريقية الا في رجب سنة ١٢٧هـ/أبريل ٧٤٥م حينما أتيح لحنظلة بن صفوان عامل

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب والأندلس، ص ٢١٦-٢١٧.

(٢) ابن القوطية: افتتاح، ص ١٤.

افريقية أن يولى على الأندلس أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبي (رجب ١٢٥ هـ/مايو ٧٤٣م).

ولا نزاع في أن أبى الخطار كان يتوقع معارضة القيسيين في ولايته ولهذا سار الى الأندلس شبه مستخف، وكان معه ثلاثون رجلا من الشاميين أراد أن يستعين بهم على بنى عمومته، وكان لواءه في سن داخل عيبته، فلما نزل على وادى شوش أصلح من شأنه وركب السن باللواء في القناة، ثم تقدم. فلما أشرف من فجج المائدة، والحرب قائمة بين الشاميين والأمويين وبين البلديين والبربر، ونظر الفريقان الى اللواء حلوا الحرب وأسرع كل واحد من الفريقين اليه، فقال لهم: «تسمعون وتطيعون؟ فقالوا: نعم..» (١). وقد سمعوا بالفعل وأطاعوا أبى الخطار الذى أتاهاهم بسجل حنظلة بن صفوان بعهد أمير المؤمنين هشام اليه، ولكن طاعتهم لم تطل الا ريشا استبانوا في أبى الخطار بعض الميل الى اليمنية فانقلبوا عليه وقتلوه، وصار الأمر الى يوسف الفهري والصميل، ولا زالا فيه حتى انتزعه منهما عبد الرحمن الداخل.

لم تسر الولاية في الأندلس اذن على قاعدة واحدة، بل كانت في يد الخلافة المركزية حيناً، وييد عمال المغرب حيناً آخر، وييد مسلمى الأندلس أنفسهم في معظم الأحيان، وكان هذا مظهراً من مظاهر الاضطراب الادارى الذى ساد الأندلس خلال هذه الفترة.

ولسنا نستطيع أن نتعرف مدى السلطان الذى تمتع به كل واحد من هؤلاء الولاة، فمن الثابت أن قيادة الجند كانت بأيديهم، وأنهم كانوا يولون القضاة كذلك، ولكن سلطانهم على مسائل الخراج موضع

(١) ابن القوطية: افتتاح، ص ١٩.

شك كبير ، وكل ما يمكننا أن نقوله هو أننا لم نسمع عن عامل خاص بالخراج والجباية الا في حالتين : حالة جابر الذي تحدثنا عنه ، وحالة رجل يسمى أبا عثمان بن عبد الله « صاحب أزمنة الأرض والخراج »^(١) ، وربما جاز أن نقول ان شئون الخراج كانت بيد عمال الأندلس فكانوا يولونه من يشاءون ، وسرى أن شئون المال كانت ترزح تحت خلل شديد.

ولما كنا لم نسمع عن ارسال خراج من الأندلس الى افريقية أو الى المشرق ، فالغالب أن عامل الأندلس كان ينفق بعضه على أجناده ويحتفظ بالباقي لنفسه : اما لينفق منه على الحملات والمرافق العامة أولشئونه الخاصة.

ولم يرد في النصوص ذكر لبيت المال ، أو صاحب بيت المال ، وحتى في المناسبات التي كان الوالي يخرج فيها بعض المال لشئون الجند ، نجده يخرج من عند نفسه لا من بيت المال ، مما يدل على أن عمال الأندلس لم يخلوا بانشاء ادارة خاصة لشئون الخراج .

ولم يمتد سلطان الوالي على عرب الأندلس أجمعين الا في النادر ، وكانت هناك دائما جماعات كبيرة خارجة عن سلطانه بنواحيها ، ولم يزد سلطانه في أيام يوسف الفهري على اقليم قرطبة ، وقد أدى ذلك الى قلة ما لديه من المال ، فهبط سلطان الوالي على البلاد خلال السنوات العشر التي سبقت قدوم عبد الرحمن الداخل هبوطا بالغا .

وكان جهد الولاة الأول — قبل اندلاع نيران الثورة البربرية واشتداد منازعات العصية — منصرفا الى اتمام الفتح ، ومواصلة الغزوات فيما وراء البرانس ، وكان هذا هو عمل الولاة الأول حتى نهاية

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٤ .

ولاية عقبة بن الحجاج السلولى^(١) ، ثم انصرف عرب الأندلس عن ذلك انصرافا تاما تقريبا ، ولم يعد أمراء الأندلس الى الغزو الا بعد أن قامت الامارة الأموية على يدى عبد الرحمن الداخل .

أما اهتمام الولاة بشئون المرافق العامة فلم نسمع عنه الا في مناسبة واحدة ، وذلك أثناء ولاية السمع بن مالك القصيرة ، فقد ابنتى قنطرة قرطبة على الوادى الكبير بناء حسنا أورد خبره صاحب «فتح الأندلس» بتفصيل لا بأس من ايراده فقال : « وقال ابن مفرج في تاريخه : أصاب المسلمون اذ فتحوا الأندلس بمدينة قرطبة آثار قنطرة رفيعة القدر معقودة فوق نهرها الجارى على عدة حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الماضية الدائرة ، لم يبق منها الا رسوم ، ولا يصل الناس الى قرطبة الا فى السفن ، فيلقون فى ركوبها مشقة عظيمة ، فأمر عمر ابن عبد العزيز السمع بن مالك ببنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ماعقد عليه جسر فى معمور الأرض من حجارة سور المدينة ، وكانت القنطرة القديمة موصولة الرقة بباب المدينة القبلى المدعو بها »^(٢) ، وهذا هو المرفق الوحيد الذى حرص ولاة هذه الفترة على الاهتمام به ، اذا استثنينا جبانة قرطبة التى أنشئت فى زمن السمع بن مالك أيضا^(٣) .

٢٨٧ - ثبت ونختم كلامنا عن عصر الولاة بثبت بولاة الأندلس من بولاة الأندلس لدن الفتح الى قيام دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل :

(١) LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, I. p. 28.

(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٥ .

والأخبار المجموعة ، ص ٢٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

- ١ — طارق بن زياد
من رجب ٩٢/أبريل — مايو ٧١١ الى رمضان ٩٣/يونيو ٧١٢
- ٢ — موسى بن نصير
من رمضان ٩٣/يونيو ٧١٢ الى صفر ٩٥/أكتوبر — نوفمبر ٧١٣
- ٣ — عبد العزيز بن موسى
من صفر ٩٥/أكتوبر — نوفمبر ٧١٣ الى رجب ٩٧/مارس ٧١٦
- ٤ — أيوب بن حبيب اللخمي
بعد شهور من مقتل عبد العزيز الى ذى الحجة ٩٧/أغسطس ٧١٦
- ٥ — الحر بن عبد الرحمن الثقفي
من ذى الحجة ٩٧/أغسطس ٧١٦ الى رمضان ١٠٠/مارس —
أبريل ٧١٩
- ٦ — السمع بن مالك الخولاني
من رمضان ١٠٠/مارس — أبريل ٧١٩ الى ذى الحجة
١٠٢ يونيو ٧٢١
- ٧ — عبد الرحمن بن عبد الله العافقي (المرّة الأولى)
من ذى الحجة ١٠٢/يونيو ٧٢١ — صفر ١٠٣/أغسطس ٧٢١
- ٨ — عنبسة بن سقيم الكلبى
من صفر ١٠٤/أغسطس ٧٢١ الى شعبان ١٠٧/يناير ٧٢٦
- ٩ — عذرة بن عبد الله الفهري
من شعبان ١٠٧/يناير ٧٢٦ الى شوال ١٠٧/فبراير —
مارس ٧٢٦

- ١٠ — يحيى بن سلامة العاملى الكلبى
من شوال ١٠٧/فبراير — مارس ٧٢٦ الى ربيع الأول
١١٠/يونيو — يوليو ٧٢٨
- ١١ — حذيفة بن الأحوص القيسى
من ربيع الأول ١١٠/يونيو — يوليو ٧٢٨ الى شعبان
١١٠/نوفمبر — ديسمبر ٧٢٨
- ١٢ — عثمان بن أبي نسعة الخثعمي
من شعبان ١١٠/نوفمبر — ديسمبر ٧٢٨ الى المحرم
١١١/أبريل ٧٢٩
- ١٣ — الهيثم بن عبيد الكلابى
من المحرم ١١١/أبريل ٧٢٩ الى ذى القعدة ١١١/يناير —
فبراير ٧٣٠
- ١٤ — محمد بن عبد الله الأشجعي
من ذى القعدة ١١١/يناير — فبراير ٧٣٠ الى صفر ١١٢/مارس
— أبريل ٧٣٠
- ١٥ — عبد الرحمن بن عبد الله العافقي (المرّة الثانية)
صفر ١١٢/مارس — أبريل ٧٣٠ الى رمضان ١١٤/أكتوبر ٧٣٢
- ١٦ — عبد الملك بن قطن الفهري (المرّة الأولى)
من رمضان ١١٤/أكتوبر ٧٣٢ — شوال ١١٦/نوفمبر ٧٣٤
- ١٧ — عقبة بن الحجاج السلولى
من شوال ١١٦/نوفمبر ٧٣٤/صفر ١٢٣ الى يناير ٧٤١

١٨- عبد الملك بن قطن الفهرى (المرة الثانية)

من صفر ١٢٣ / يناير ٧٤١ الى ذى القعدة ١٢٣ / سبتمبر ٧٤١

١٩- بلج بن بشر القشيري

من ذى القعدة ١٢٣ / سبتمبر ٧٤١ الى شوال ١٢٤ /
أغسطس ٧٤٢

٢٠- ثعلبة بن سلامة العاملي

من شوال ١٢٤ / أغسطس ٧٤٢ الى رجب ١٢٥ / مايو ٧٤٣

٢١- أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى

من رجب ١٢٥ / مايو ٧٤٣ الى رجب ١٢٧ / أبريل ٧٤٥

٢٢- ثوبة بن سلامة الجذامى

من رجب ١٢٧ / أبريل ٧٤٥ الى المحرم ١٢٩ / سبتمبر -
أكتوبر ٧٤٦

أعقب موتة أربعة أشهر من الاضطراب تولى الأمر خلالها
عبد الرحمن بن كثير اللخمى دون ولاية

٢٣- يوسف بن عبد الرحمن الفهرى

(بالاشتراك مع الصميل بن حاتم)

من ربيع الثانى ١٢٩ / ديسمبر ٧٤٦ ويناير ٧٤٧ الى ١٠
ذى الحجة ٧٣٨ / ١٤ مايو ٧٥٦ .

وهو تاريخ بدء امارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

يبد أن عقدة العقد فى تاريخ عصر الولاية هى ناحية الخراج

٢٨٨ - الناحية المالية وتوزيع الأرض ، وبين المراجع خلاف شديد حول هذا

الموضوع ، والواقع الذى نستطيع استخلاصه من مجرى

الحوادث هو أن هذه الناحية كانت مضطربة فى الأندلس اضطرابا شديدا ،

وأن ولاية الأندلس لم يستطيعوا أن يخضعوا أرض شبه الجزيرة وعقارها
للقواعد التى تقررها الشريعة للأرضين والعقارات فى البلاد المفتوحة ،
هذا على الرغم من أن موسى بن نصير قد حاول ذلك على أول الفتح
ثم حاد عن النظم التى وضعها وأساء التصرف فى الأموال ، وكان هذا
من أسباب نكبته ، وكان كذلك من أسباب البلاء فى الأندلس فيما بعد ،
لأنها لم ترزق بعد ذلك بوال أتاحت له مواهبه وظروفه إعادة الأمور
الى نصابها الذى كان ينبغى أن تكون عليه ، حتى قامت الدولة الأموية .

٢٨٩- أسس واليك أسس النظام المالى كما قررها موسى بن نصير بين

النظام المالى فى يدى الفتح . « قال محمد [بن مزين] : وحين تم افتتاح
الأندلس برواية المسلمين [الأندلس] قسمها موسى بن نصير البكرى التابعى
محمد بن مزين بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سبيها وسائر

مغانمها ، وأخرج من أرضها ورباعها الخمس كما أخرجه من سبيها ومتاعها ،

واختار من خيار السبى وصغارها مائة ألف وحصلهم الى أمير المؤمنين
الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من كبل والسبى (كذا ،

ولعل صحتها كبار السبى) ووخش الرقيق فى الخمس من الأرضين
يعمرونها ليثالث مال المسلمين ، وهم أهل البسائط ، وكانوا يعرفون

بالأخماس ، وأولادهم بنو الأخماس . قال : وأما سائر الناس النصارى
الذين كانوا فى المعازل المنيعه والجبال الشامخة ، فأقرهم موسى بن نصير

على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم
بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها مع أداء الجزية ، فى أرض

الشر وأرض الزرع على ما فعلا خير من اقتضى به صلى الله عليه وسلم
يهود خيبر فى نخلهم وأرضهم .. » (١)

(١) راجع نص محمد بن مزين الذى نشره دوزى كملحق لمباحته .

وهي عبارة يفهم منها أن موسى بن نصير اعتبر الأندلس ، ما عدا نواحي الشمال ، قد فتحت عنوة ، فأخذ خمسها لبيت المال ووزع الباقي بين الفاتحين ، وأخذ جزءا من خمس السبي فبعث به الى الوليد ابن عبد الملك وأطلق الباقي في أرض الخمس ليزرعوه وليثالث مال المسلمين ، وهي عبارة غامضة لا يفهم المراد منها بالضبط : هل تركهم على أن يؤدوا ثلث المحصول أو ثلثيه للمسلمين ؟ ولم يعين لنا النص أرض الخمس هذه ، وربما استطعنا تحديدها على وجه تقريبي مستعينين بما سنورد من النصوص القليلة التي عثرنا عليها .

وأما اشارته الى الأراضي التي تركت بين يدي أهلها على شرط أداء الجزية عنها فاشارة لا تكاد تغنى ، لأنه يقرر أنها أرض « سائر النصارى الذين كانوا في المعازل المنيعه ، والجبال الشامخة .. بأرض الشمال » ، فأى أرض شمال ^(١) ؟ وهل لم تكن في غير الشمال بلاد فتحت صلحا على الاطلاق ؟

= ويلاحظ أن هذه القطعة مأخوذة من الرسالة الشريفة ، وهي قطعة من « رحلة الوزير لافتكاك الأسير » للغساني ، كما سترى بعد قليل .

ونظر عن محمد بن مزين :

DOZY, *Scrip. Ar. Loci de Abbad*, II, 123.

(١) وردت هذه العبارة مفسرة بعض التفسير في الرسالة الشريفة كما يلي : « قال محمد بن مزين : وجدت في خزانة بآيبيلية ستة إحدى وسبعين وأربعمائة أيام الراضى بن المعتد سقرا صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازى ساه بكتابه الرايات ... وأما سائر النصارى الذين كانوا في المعازل المنيعه والجبال الشامخة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على أجزاء منها مع أداء الجزية في أرض الثرة وأرض الزرع ، على ما فعله خير من اقتضى به صلى الله عليه وسلم يهود خيبر في تخليطهم وأرضهم ... » - الرسالة الشريفة ص ١٩٩ .

و « الرسالة الشريفة » مخطوط صغير عثر عليه غليان ريبيرا ونشره ذيبلا على « تاريخ افتتاح =

ثم يعود محمد بن مزين فيوضح ما قاله بعض الشيء ويقول : « فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسياقهم وتصيَّرت ملكا لهم الا قسم موسى بن نصير بينهم أراضيها الا ثلاثة بلاد هي شتريين وقلنبرية في الغرب وشية (Xea) في الشرق ، وسائر البلاد خُمِّست وقسمت بحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير » أى أن هذا التقسيم لم ينطبق الا على النواحي التي فتحت بالسيف (عدا النواحي الثلاث المذكورة) . أما ما فتح صلحا فقد تركه بيد أصحابه على أن يؤدوا الجزية ، ويعود فيناقض نفسه ويقول : « فقال بعض علماء السلف بأرض الأندلس ان أكثرها انما فتح صلحا الا الأقل من مواضع معروفة ، وأنه لما هزم لذريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد الا أذعنوا الى الصلح ، وكذلك بقى الروم فيها على أرضهم وأموالهم يبيعون ويبيع منهم » أى أن الذى فتح عنوة وخمس وقسم باقيه بين الفاتحين كان قليلا جدا ، وأما بقية المفتوح من أرض الأندلس فقد ترك لأصحابه من أهل البلاد يفعلون به ما يشاءون على أن يؤدوا عنه الخراج ، وكذلك كان حال بعض أرض الشمال التي صالح عليها أهلها .

ثم يذكر بعد ذلك أن النواحي التي فتحت صلحا وتركت بيد أهلها توارثها أصحابها ، وأن المسلمين صالحوهم على أرضهم وشجرهم فقط لا سائر أموالهم ، فهذه لم يمسها المسلمون بشيء .

= الأندلس لابن القوطية (مدرید ١٩٥٦) ، ص ١٨٩ وما يليها تحت عنوان «نبذة من أخبار فتح الأندلس ، وهي مأخوذة من الرسالة الشريفة إلى الأقطار الأندلسية» ، ثم تبين في بعد أن هذه الرسالة هي الكتاب المعروف باسم « رحلة الوزير لافتكاك الأسير » لمحمد بن عبد الوهاب البستاني (وزير مولاي إسماعيل وسفيره إلى كارلس الثاني ملك إسبانيا عام ١١٠٢ / ١٦٩٠-١٦٩١ م . توفي في زقة الرطل من فاس القرويين عام ١١١٩-١٧٠٨) . نشرها الفريد البستاني في تطوان سنة ١٩٥١ . وتعرف هذه أيضاً بالرسالة الشريفة ، والجزء الذى نشره ريبيرا منها يبدأ في ص ١٠٧ من طبعة الفريد البستاني .

ويقول محمد بن مزين بعد ذلك : « ولما وصل خير فتحها الى أمير المؤمنين الوليد ووفد عليه موسى وجماعة من المستفتحين للأندلس معه يستأذنونهم في اخلائها والرحيل عنها الى أوطانهم ، قربهم وأتسهم وأقطعهم الاقطاعات فيها ، وأقرهم على [بياض بالأصل] ^(١) ولم يجعل لهم سبيلا الى الخروج منها ، ولا أوسعهم عذرا في اخلائها وردهم اليها والى جيرانهم ^(٢) بجوابه » . وطبعي أن هؤلاء الذين عادوا الى المشرق وأرادوا ترك الأندلس كانوا من العرب ، زهدوا في البلاد بعدها عن أوطانهم ، فاستمالهم الوليد الى البقاء باقطاعهم الاقطاعات ، وطبعي كذلك أن هذه الاقطاعات الجديدة كانت من أرض الخمس التي تخص بيت المال .

فلما كانت أيام عمر بن عبد العزيز ، وواله على الأندلس السمع ابن مالك ، أقبلت معه جماعة من العرب من وجوه افريقية ، ولم يكن عددهم عظيما لأن المراجع تحددهم بأربعمائة فقط ، « فأراد (أى جند السمع) النزول معهم في أموالهم ومشاركتهم فيما بأيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا اليه ذلك ، ورغبوا اليه في الرجوع الى بلادهم وادلتهم بمن ورد مع السمع ، فمنعهم من ذلك وأتسهم وعقد لهم ، وأشهد في عقدهم على اقرارهم في أموالهم ، وأقطع الواردين مع السمع اقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية لولا اقطاعات عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجند فيها لم يسدها ، فكيف بتلك

(١) بياض في النسخ الثلاث ، ولكننا نفهم من بقية النص أن الكلمة الناقصة هي : أرضهم .

(٢) هذه الكلمة قلقة هنا ، وقد وردت على هذه الصورة في النسخ المطبوعة الثلاث . وربما

كانت صحة قراءتها : حيزانهم ، أى ما حازوه من أرض .

الناحية ؟ فانا نستخير الله في اجلاء المسلمين عنها . ثم انه لم ينفذ ذلك ليلين الكتاب أجله » ^(١) .

ونستنتج من هذه العبارة ما يلي :

١ — أن عرب الأندلس الذين كانوا قد استقروا بها قبل سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ م كانوا أحرص ما يكونون على ما أصابوا من أرض ، وان مجرد تفكير السمع في اشرائه أربعمائة فقط من العرب الجدد معهم في اقطاعاتهم كان كافيا لدفعهم الى تقرير العودة الى بلادهم وترك الأندلس جملة ، وهذه ملاحظة هامة تلقى ضوءا على طبيعة عرب الأندلس في ذلك الحين ، ومقدار حرصهم على هذا البلد الكبير .

٢ — أن تفكير عمر بن عبد العزيز في اخلاء الأندلس كان راجعا الى شكوى هؤلاء العرب وتهديدهم بتركها .

٣ — وأن هؤلاء العرب كانوا قد استقروا فيما استقروا فيه من أرض على اعتبار أنها اقطاعات لهم ، وسنشرح فيما بعد طبيعة هذه الاقطاعات الأندلسية .

٤ — وأن عمر بن عبد العزيز اضطر الى ارضاء العرب الجدد بمنحهم اقطاعات جديدة من أرض الخمس .

٥ — وأن هذا الاجراء كان كفيلا باقناع العرب بالبقاء في البلاد .

أى أن أرض الخمس أخذت تتناقص شيئا فشيئا وتتحول الى اقطاعات للعرب ، وسنرى أنها ستتلاشى تماما .

وفهم من بقية حديث محمد بن مزين أن موسى كان قد بدأ بتخسيس

(١) دوزي : نفس المصدر ، ص ٥ .

ورحلة الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني ، ص ١١٣-١١٤ .

أرض الأندلس ، « وأعجلته حركته منها وارسال أمير المؤمنين الوليد فيه عن استيفاء ذلك » . وكان قد قسم الأخماس التي استطاع تحديدها بين من أقبل معه من العرب ، وكتب لهم سجلات بهذه الاقطاعات وأقر الوليد ذلك ، فلما أراد السمع بن مالك أن ينزل من معه من العرب « مع الأولين والمشاركة معهم في ربايعهم وأموالهم ، فشخصت منهم طائفة الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وأخبروه بما صنع موسى بن نصير من قسم الأرض بعد اخراج الخمس ، واقرار الوليد لهم على ذلك ، واستظهروا بسجلاته التي سجلها لهم ، فأقرهم أمير المؤمنين رضى الله عنه على ما أقرهم عليه الوليد بن عبد الملك ، وعلى ما قسمه بينهم موسى بن نصير ، وأمضى لهم ذلك من أمره وسجل لهم بمثله ، وكتب لهم الى السمع ابن مالك بالوقوف عند عهده وامضاء ما أمر لهم به ، وانصرفوا الى ما تخطفوه مسرورين ومبشرين بما لقوه من فضله وعدله ، وكتب الى السمع أن يدخل الجند الذين دخلوا معه من الأخماس » (١) .

وربما كان هذا هو الدافع لعمر بن عبد العزيز وواليه الى انهوض لاتمام ما كان موسى بن نصير قد بدأ به من تنظيم أرض الأندلس وتخميسها ، لكي يجد لبيت المال أرضا غير التي استنفدتا اقطاعات العرب ، ولكي يجد أرضا يقطعها للذين يقبلون منهم .

واستطاع السمع بن مالك أن يقوم بجزء من ذلك العمل ، وبدأ بإقليم قرطبة فأخرج خمسة فجعل جزءا منه جباية للمسلمين ، ولا نعرف ان كان قد أقطع الباقي للعرب أو تركه ملكا لبيت المال . ولم يفعل السمع أكثر من ذلك ، لأن مدته لم تطل ، وهكذا ظلت أرض الأندلس

(١) محمد بن مزين ، أبحاث دوزى ، ج ١ ، ملحق ١ ، ص ٦ ، ورحلة الوزير للصفاف ص ١١٤ .

وأموالها دون تحديد أو تنظيم ، ولم يفعل أحد بعد ذلك شيئا حتى قيام الدولة الأموية .

٢٩٠ - رأى ونخرج من ذلك كله بأن أرض الأندلس لم تخضع في تقسيمها لابن حزم لما خضعت له بقية بلاد الدولة الإسلامية من تحديد أرض الصلح والعنوة وتقرير حكم كل منهما من ناحية الوضع القانوني أو الجبايات ، ويؤيد ذلك نص لابن حزم على أعظم جانب من الأهمية لموضوعنا ، نوره فيما يلي مقسما الى فقرات زيادة في البيان :

١ - « هذا مع ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة موجب للعلم الضروري أن الأندلس لم تخمس وتقسّم كما فعل رسول الله فيما فتح ، ولا استطيت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضى الله عنه فيما فتح ، بل نفذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت ٢ - ووقعت فيها غلبة بعد غلبة : البربر والأفارقة والمصريون ، فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة .

٣ - ثم دخل الشاميون في طاعة بلج بن بشر بن عياض القشيري ، فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم ، كما ترون الآن من فعل البربر ، ولا فرق ، وقد فشا في المواشي ما ترون من الغارات وفي ثمار الزيتون ما تشاهدون من استيلاء البربر والمتغلبين على ما بأيديهم الا القليل النافه... ظلم بظلم » (١)

وكلام ابن حزم هذا يقطع كل شك ، ويؤيد ما تراءى لنا في النصوص

(١) MIGUEL ASIN PALACIOS, *Un códice inexplorado del Cordobés*

Ibn Hazm. Al-Andalus, vol. II, 1934 fasc. I pp. 1-56.

والمخطوط المشار إليه هو رقم ٢٧٠٤ بمكتبة جامع فاتح بالاستانة ، وقد نشر آسین پالاسیوس تحلیلا ودراسة له مع قطع من ذلك المخطوط ، والنص الذي أوردها في ص ٣٦ من المقال المذكور .

التي سبق إيرادها ، فقد غلب الفاتحون الأول على ما وقع لهم من أرض ، سواء أكانوا عرباً أو بربراً أو أفارقة (أى من أهل السواحل الأفريقية) ثم جاء عرب الطالعة الثانية وغلّبوا البلديين ، وانتزعوا منهم ما قدروا على انتزاعه من الأرض ، وقامت الفتنة بسبب ذلك حتى جاء أبو الخطار ونصحه أرطباس بتفريق عرب الطالعة الثانية على نواح معينة ، وانزلهم على أرض أصحابها من أهل البلاد على أن يكون لهم ثلثها طعمة ، أى ملكاً ، في مقابل الخدمة العسكرية كما بينا آنفاً .

أما ما يقوله محمد بن مزين من التخميس فأمر لم يصح ، ومن الطبيعي أن يكون موسى بن نصير قد شرع بعد الفتح في إخضاع أرض الأندلس لشروط الشرع ، أو بدأ في التخميس ، ولكن الظروف لم تسمح له بالاستمرار ، ومضى إلى المشرق ، وحاول نفس الأمر بعض من أتوا بعده فلم يوفقوا ، وظلت الأرض في أيدي من غلبوا عليها ومضى الأمر على ذلك .

وقد اعتبر العرب الفاتحون ما وقع لهم من الأرض غنيمة ، ٢٩١ - رأى وهذا واضح من قول ابن الخطيب في العبارة التي رواها ابن الخطيب عن ابن حيان والرازي : « وبقي العرب البلديون والبربر شركاؤهم ، وسكنوا واغتبطوا وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه في الفتوح على غنائمهم لم يتعرض لهم في شيء منها » (١)

أما السبب في ترك الفاتحين يستولون على ما استقروا فيه من أرض كأنه غنيمة ، فيفسره قول محمد بن مزين : « فلما ولي أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه الخلافة زاد اعتناؤه بها ، وأنزلها (كذا ،

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

وربما كانت صحتها : وأزالها) عن عمال إفريقية ، وأفرد لها عاملاً ، فبعث إليها السمح بن مالك عاملاً ، فوردها في جند سوى جندها الأول ، فأرادوا النزول معهم في أموالهم ومشاركتهم فيها بين أيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا إليه ذلك ، ورغبوا إليه الرجوع إلى بلادهم ، وادلتهم بمن ورد معه (أى مع السمح) ، فمنعهم من ذلك وأتسهم وعقد لهم ، وأشهد في عقدهم على إقرارهم في أموالهم ، وأقطع الواردين مع [السمح] أقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية لولا أقطاعات عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجند فيها لم يسددها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فانا نستخير الله في إجلاء المسلمين عنها ، ثم انه لم ينفذ ذلك ليلبغ الكتاب أجله » (١) .

٢٩٢ - الخلافة واذن فقد اعتبر عمر بن عبد العزيز أرض الأندلس ثغراً تعتبر الأندلس مثل الثغور الهندية التي أقطع عمر بن الخطاب أرضها ثغراً لجندها ، وبناء على ذلك فقد أعطى العرب الأول سجلات بما وضعوا أيديهم عليه من أرض على أنها أقطاعات ، بل أقطع جند السمح أقطاعات أخرى ، وأصبحت هذه قاعدة مقررة . وهذا يفسر لنا ما يقوله محمد بن مزين من أنه « حين تم افتتاح المسلمين [الأندلس] قسمها موسى بن نصير البكرى التابعى بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سبيها ومتاعها وسائر مغائنها وأخرج من أرضها ورباعها

(١) رواه محمد بن عبد الوهاب الفسافي في «رحلة الوزير» طبعة الفريد البستاني ، تطوان ١٩٥١ ، ص ١١٣ . وقد نشر نفس النص خليان ريبيرا فيما نشر من ذلك الكتاب تحت عنوان «الرسالة الشريفة» ذيلاً على تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ص ٢٠١ .

الخمس ، كما أخرجه من سببها ومتاعها ، واختار من خيار السبى وصغاره مائة ألف وحملهم الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من كبل (صحتها كبار) السبى ووخش الرقيق في الخمس من الأرضين يعمرونها ليلث مال المسلمين ، وهم أهل البسائط ، وكانوا يعرفون بالأخماس وأولادهم بنو الأخماس » (١) .

٢٩٣ - اعتبار وواضح أن موسى لم يخمس الا جزءا قليلا من أرض أراضي الجنوب الأندلس ، وهو أرض البسائط في الجنوب ، ربما جنوبي إقطاعات لمن الوادي الكبير ، فاستولى المسلمون الفاتحون على أربعة استولوا عليها أخماسه واعتبروها غنيمة واعتبرتها الدولة إقطاعات ، وبقي الخمس ملكا للدولة فأطلقت فيه السبى يزرعونه للدولة ، ويؤدون من أمواله الثلث (ليلث مال المسلمين) وقد اعتبر هؤلاء زراع أرض الدولة وأطلق عليهم اسم الأخماس ، وأولادهم أولاد الأخماس .

ويتفق هذا الذي قلناه مع واقع الأحداث التاريخية ، فإن الجنوب بالفعل هو الذي فتحه المسلمون عنوة ، فقد قاتلوا في أقصى الجنوب (واقعة وادي لكه) وفتحوا استجة وقرطبة عنوة ، فاعتبروا كل ما يقع جنوبي الوادي الكبير أرض عنوة وقسموه على النحو الذي قلناه . ولما كان المسلمون قد فتحوا ناحية ماردة عنوة فقد انسحب هذا الحكم على ما يقع بين الوادي الكبير ووادي آنة ، وما بين هذا النهر والمحيط ، فيما عدا شنترين وقلنبرية فقد استسلم أهلها وعقد المسلمون معهم عهدا فاستثنوا من ذلك الحكم . وكذلك مدينة صغيرة في الجنوب الشرقي تسمى شية (Xea) فقد صالح أهلها . ولم يجر على إقليمها حكم العنوة.

وقد اعتبرت أراضي الجنوب والغرب التي تقاسمها العرب إقطاعات ملكا لأصحابها يتوارثها الأبناء عن الآباء .

٢٩٤ - بقية وأما بقية أرض الأندلس فقد اعتبرت أرض صالح أرض الأندلس عليها أهلها ، قال محمد بن مزين : « وأما سائر النصارى أرض صالح الذين كانوا في المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها (أى على أداء جزء من غلتها) مع أداء الجزية في أرض الثمرة وأرض الزرع ، على ما فعله خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم يهود خيبر في نخيلهم وأرضهم » (١) .

وقد رجحنا أن المراد بأرض الشمال هنا ، ما يقع شمالي الوادي الكبير من شبه الجزيرة ، وهذا معقول ، فقد فتحت تلك النواحي كلها صلحا ، وأخذ أهل كل ناحية لأنفسهم عهدا ، وهذا العهد يقرر ما عليهم من مال للدولة ، وواضح أن نصوص هذه المعاهدات لم تكن كلها واحدة فقد اختلفت بحسب الظروف ، قال محمد بن مزين : « فلما أكمل السمع ما أراد (أى اكمال تخميس أرض الجنوب) خاطب أمير المؤمنين بما عمله في أرض العنوة وأرض الشمال وهي التي فتحت صلحا ، فإن أهلها صولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض (أى من غلة الأرض) مثالثة ومراعاة كيفما كان طيب الأرض وغلتها ، حسبما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيبر » (٢) .

وظاهر أن ما يقوله محمد بن مزين من أن أهل بلاد الشمال « صولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض مثالثة ومراعبة ... حسبما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في خير » إنما هو اجتهد منه ، فإن الرسول لم يترك أرض خير لليهود على أن يؤدوا الثلث أو الربع بل النصف ^(١) ، وقد وجد الفقهاء أنفسهم أمام اتفاقات أقرها حكام المسلمين وخلقاً وهم تبيع لأهل بعض نواحي الأندلس التي فتحت صلحا أن يؤدوا الثلث أو الربع ، فحاولوا إعطاء ذلك صبغة شرعية ، فقال بعضهم إن الذي جرى فيها كان قياساً على ما صنع بخير وفدك بعد ذلك وأنكره آخرون إنكاراً تاماً ، فقالوا إن أرض الأندلس لم يجر عليها حكم الشرع كما رأينا في كلام ابن حزم الذي أتينا به ، وكما قال فقيه آخر هو أبو جعفر أحمد بن نصر الداوودي فقد قال : « وأما أرض الأندلس فقد طعن فيها بعض الناس . وزعم أنها أو أكثرها فتحت عنوة ، وأنها لم تخمس ولم تقسم ، غير أن كل قوم وثب على طائفة منها من غير إقطاع من الأمام » ^(٢) .

(١) قال الطبري في كلامه عن غزوة خير : « فلما نزل أهل خير على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم بالأموال على النصف ، وقالوا : نول أعلم بها منكم وأمرنا . فصاحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف ، على أننا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم . وصالحه أهل فدك على مثل ذلك ... » - تاريخ الأمم والملوك . القاهرة ١٩٣٩ ، ج ٢ . ص ٣٠٢ .

وقال أبو يوسف (كتاب الخراج . القاهرة ١٣٥٢ . ص ٥٠) : « حدثنا مسلم الخزامي (أو الحرابي أو الخزامي) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفع خير إلى اليهود مساقاة بالنصف . وعن الحجاج بن أرطاة عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفع خير إلى أهل خير بالنصف » ، ويقول في ص ٨٥ : « أولا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح خير عنوة ، ولم يجعل عليها خراجاً ودفعها إلى اليهود مساقاة بالنصف ؟ » . بل إنه ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كره المزارعة على الثلث والربع . قال أبو يوسف : « وكانوا يحتجون أيضاً في المزارعة بالثلث والربع بحديث جابر عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره المزارعة بالثلث والربع » - كتاب الخراج ص ٨٩ .

(٢) رواه سيمونيت في « تاريخ المستعربين » ص ٦٨ نقلاً عن مخطوطة الإسكندرية رقم ١١٦٠ .

وإذن فقد اعتبرت أراضي الجنوب أرض عنوة ، واعتبرها من فتحوها غنيمة وتقاسموها بعد إخراج الخمس منها ، وأيدت الدولة ذلك ، فسجل الوليد بن عبد الملك لمن استولى عليها من المسلمين وأعطاهم سجلات بذلك ، ثم جاء عمر بن عبد العزيز فأيد ذلك الحكم واعتبر ما استولى عليه المسلمون من الأراضي إقطاعات ، وسأوى بينها وبين ما فتح المسلمون من أرض الهند ، فاعتبرها ثغراً يجوز للامام أن يقطع أرضها لمن فتحوها ومن يقومون على حمايتها ، فإذا كانت في الشرق ثغور هندية ، ففي الغرب ثغور أندلسية . أما أرض الشمال مما فتح صلحا فقد اعتبرت أرض صلح ، تجري عليها أحكام الصلح التي عقدها المسلمون مع أهلها . وهذا الذي حدث في الأندلس يشبه تماماً ما حدث في المشرق ، فقد اعتبر المسلمون أرض السواد أرض عنوة ، وأرادوا تقاسمها ، فحال عمر بينهم وبين ذلك ، ولم يسمح لهم باعتبار الأرض غنيمة لهم ، بل غنيمة لجماعة المسلمين ، وتركها لأهلها على أن يؤدوا للمسلمين جزءاً من غلتها ، أي صارت أرض فيء . أما ما يلي ذلك شرقاً ، فقد اعتبر أرض صلح ، إذ لم يفتحها المسلمون بحد السيف . وقد روى يحيى بن آدم خبراً يصور ذلك أحسن تصوير فقال : « أخبرنا اسماعيل ، قال : حدثنا الحسن ، قال : حدثنا يحيى ، قال : سمعت حسن بن صالح يقول : كنا نسمع أن مادون الجبل من سوادنا فهو فيء ، وما وراء الجبل فهو صلح ، قال حسن : فمن كان منهم صلحا فعليهم الذي صولحوا عليه ، فيخلى بينهم وبين أرضهم ، ولا يوضع عليها شيء ما أقاموا بصلحهم يؤدونه للمسلمين » ^(١) .

(١) يحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج (بتحقيق أحمد محمد شاكر) القاهرة ١٣٤٧ ،

٢٩٥ - نزول أما من استقر من العرب في ريف بعض نواحي الشمال ، العرب في بعض فالأغلب أنهم نزلوا مواضع لم تكن مأهولة أو في أرض نواحي الشمال الصوافي التي حددها أبو يوسف فيما يتصل بسواد العراق بقوله : « أصفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أهل السواد عشرة أصناف : أرض من قُتِلَ في الحرب ، وأرض من هرب ، وكل أرض كانت لكسرى ، وكل أرض كانت لأجد من أهله ، وكل مغيض ماء ، وكل دير بريد »^(١) أى أنه ذكر ستة وترك أربعة . وأضاف إليها في رواية أخرى أرض الآجام ، ونضيف نحن فيما يتصل بالأندلس أملاك الملوك وأهل بيتهم وأملاك الكنائس ، وكان الموجود في الأندلس من كل صنف من أصناف هذه الأرض كثيرا فتبجح فيها من شاء الاستقرار في الأرض من العرب ، ووجدت لهذا جماعات منهم في كل ناحية تقريبا . وكانت هذه الأرضون كلها بمنزلة القطائع ، يؤخذ عليها العشر في الغالب ، ومنها في المشرق ما كان يؤدى عشرين ، وللامام أن يصيرها أرض خراج إذا كانت تسقى من أنهار الخراج^(٢) . ولما كنا لا نعرف ما كانت تؤديه في الأندلس ، فأسلم الآراء أن يقال أنها كانت تؤدى الحد الأدنى وهو العشر ، خاصة وأن العشر كان هو القاعدة السارية على من تملك الأرض من البلديين والبربر^(٣) ، وأما عرب الشام فقد ذكرنا حكم ما كان في أيديهم ، ومن

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٥٧-٥٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) جاء في كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٨٠-٨١) : « أخبرنا إسماعيل ، قال : حدثنا الحسن ، قال : حدثنا يحيى ، قال : حدثنا قيس بن بشر بن أبي الدلاء عن مكحول ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جعل رزق هذه الأمة في سنابك خيلها وأزجة (نصال) رماحها ما لم يزرعوا ، فإذا زرعوا كانوا من الناس » .

وكانت القاعدة العامة ألا تترك أرض دون أن يعمرها أحد ، قال أبو يوسف : « ولا أرى =

البديهى أن يكون زراع أهل البلد قد خضعت أراضيهم لأحكام الخراج عامة .

بهذا تتقرر الأسس العامة التي جرت عليها شئون الأموال في الأندلس على نحو مفهوم . ولا تعيننا المراجع التي بين أيدينا على التدقيق أكثر من ذلك ، ولهذا فأننا نحجم عن محاولة تقدير أموال الأندلس في هذه الفترة ، خاصة وأن الاضطرابات الكثيرة التي وقعت بين العرب والبربر من ناحية ، وبين اليمينية والشامية من ناحية أخرى ، جعلت الواصل الى بيت المال دائما قليلا . وقد أشرنا من قبل الى ما ذكره صاحب « الأخبار المجموعة » من نقصان الخراج أثناء الفتنة الكبيرة التي وقعت بين العرب والبربر^(١) ، ولم يتحسن الحال عندما انتصر العرب بفضل جند طالعة بلج فقد قطع البلديون الخراج ، وكان معظمهم من اليمينيين ، اذ عز عليهم أن يؤدوا الضريبة للشاميين الغالين ، وزاد الأمر سوءا توالى سنوات القحط ، ودام ذلك حتى دخول عبد الرحمن بن معاوية ، فلم تقع في أيام الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى سنة رخاء الا في النادر ، فلاعجب أن كان بيت المال خاويا أو يكاد خلال هذه السنوات .

ومهما كان المال الذى يصل الى العمال في قرطبة ، فلا بد ٢٩٦-التصرف أن نسأل : ماذا كانوا يفعلون به ؟ هل كانوا ينفقونه في أموال الجباية الوجوه التي تقررت له من عمارة البلاد والقيام بشئونها وأداء الرواتب لأصحابها ثم ارسال الباقي الى دمشق ؟ هنا نجد أنفسنا

= أن يترك [الإمام] أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام ، فإن ذلك أضر للأرض وأكثر للخراج » ، ص ٦١ .

(١) انظر : « الأخبار المجموعة » ، ص ٦٢ .

أمام حالة فريدة في بابها في أخبار تلك الأيام : ليس لدينا نص واحد صريح يدل على أن شيئا من مال الأندلس كان يرسل الى المغرب أو المشرق ، وليس لدينا من أخبار التعمير الا ما ذكرناه من اعادة بناء قنطرة قرطبة وانشاء جباية للمسلمين . بل ليس لدينا نص يشير الى مطالبة عمال المغرب أو الخلفاء بأموال الأندلس كما كان الحال مع مصر مثلا ، اذ كان خراج مصر موضوعا هاما تسهب المراجع في تفاصيله وذكر مقاديره ، بل تذكر المكاتبات التي دارت بين عمر بن الخطاب وعمر بن العاص بشأنه ، وكيف أن الخراج كان السبب في عزل ابن العاص واستبدال عبد الله ابن سعد بن أبي السرح به . وصمت المراجع عن هذه الناحية صمتا تاما يبدو في نظرنا أمرا غريبا ، خاصة وأن الذين أرخوا لهذه الفترة — كصاحب «الأخبار المجموعة» وابن القوطية وأحمد بن محمد الرازي وابن حيان — ومن تقل عن هؤلاء جميعا من متأخري المؤرخين ، كانوا جميعا ذوي عناية بشئون المال والخراج ، ومنهم من كان من كتاب الدولة . ولا يعلل هذا الصمت الا بأن ولاية الأندلس لم يكونوا يرسلون الى إفريقية أو الى المشرق شيئا من المال ، وأن الخلافة كانت يائسة من أمر الأندلس لا تنتظر منه مالا ، حتى فكر عمر بن عبد العزيز في استرجاع العرب منه وتركه جبلة . والراجح أن معظم ما كان يصل الى عمال الأندلس كان يضيع بين أرزاق الجند وأعطياتهم وثققات الجهاد فيما وراء جبال البرت واستكمال فتح شبه الجزيرة نفسها . ثم ان الأندلس لم يل أموره خلال هذه الفترة كلها الا خمسة ولاية من الطراز الذي يرجى منه أن يقرر شئون الأندلس الخراجية على وجه الاحكام والضبط ، وهم : موسى بن نصير وابنه عبد العزيز بن موسى ، والسمح بن مالك الخولاني ،

وعبد الرحمن العافقي ، وعقبة بن الحجاج السلولى (١) . أما الباقيون فكانت أشخاصهم من الضعف أو البعد عن التنظيم والميل الى القوضى بحيث نستبعد أن يكونوا قد استطاعوا أو اهتموا بأن يضعوا للبلاد ديوانا ماليا منتظما . ومن الغريب أن هؤلاء الخمسة قد عاقبتهم ظروفهم عن أن يقوموا بشيء ايجابي في هذه الناحية ، لأن موسى أعجله الوليد عن أن يفعل شيئا ثم حاسبه بعد ذلك حسابا عسيرا جدا ، وعبد العزيز كان في شبه خروج على الدولة طوال مدة ولايته ، وقد رأينا ما فعل السمع في هذه الناحية ، وأما عبد الرحمن العافقي وعقبة بن الحجاج فكانت لهما حروب طويلة تستنفد كل ما عسى أن يكونا جمعا . ثم ان أمر الأندلس كان خلال معظم هذه الفترة الى عمال إفريقية ، ولم يكونوا هم الآخرون منظمين ممتازين ، ولم تكن ذمم الكثير منهم بعيدة عن النهم ، وشغلتهم الى جانب هذا كله حروب مع البربر استنفدت مالا كثيرا جدا ، فلعل ولاية الأندلس كانوا يعيشون بأموالهم الى عمال إفريقية ، ولم يعن هؤلاء بفصلها عن أموال ولايتهم ، فلم يستطع الرواة العثور على شيء يحددها لهم ، ومن هنا كان اغفالهم الاشارة اليها (٢) .

وبين أيدينا نصوص كثيرة تؤيد القول بأن شئون الأندلس المالية

(١) وحتى هؤلاء الخمسة لم تغل تصرفاتهم من أخطاء ومخالفات أثارت غضب الخلفاء

انظر : فتح الأندلس ، ص ١٩ .

(٢) ولم تكن أحوال إفريقية من هذه الناحية بأحسن من أحوال الأندلس ، قال ابن القوطية مشيرا إلى هزيمة كلثوم بن عياض القشيري أمام البربر في موقعة الأشراف : « فلما بلغ هشام ابن عبد الملك النكة الدائرة على كلثوم وما اتصل بذلك من فساد إفريقية والأندلس شاور العباس ابن الوليد أخاه ، وكان أحله في الشورى محل أخيه مسلمة بعد في هذا الأمر ، فقال له : يا أمير المؤمنين . ليس يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، فاصرف نظرك وحسن رأيك إلى هذه القحطانية ... » .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

خلال هذه الفترة لم تضبط على الأسبس الشرعية التي جرى العمل بها في الولايات الإسلامية إذ ذاك ، فقد اتهم موسى بن نصير صراحة بأنه لم يكن يخرج الخمس مما وقع في يده من الغنائم ، وكان هذا سببا من أسباب نكبته^(١) ، بل إن سليمان بن عبد الملك « أخذ موسى ومن كان معه من عمال المغرب لما بلغه من اقطاعاتهم الأخماس فغرموا ، وغرم موسى مائة ألف »^(٢) ، وهي رواية تدل على أن موسى بن نصير نفسه مد يده إلى أخماس الغنائم ، وقد رأينا كيف تفرقت أرض الأخماس في قبائل العرب اقطاعات ، أما ما كان يرد من أموال الخراج فقد كان جانب منه يؤدي إلى جند العرب كما رأينا ، والباقي — وكان قليلا — كان يتصرف فيه العمال .

٢٩٧ - ثروات والدلائل كثيرة على أن العمال وكبار العرب كانوا على العرب الأول في غنى عريض ، فقد كان الصميل بن حاتم يمتلك دارا كبيرة الأندلس « بعدوة النهر بقبلى قرطبة » ، وخلف داره كانت عقدة الزيتون المشهورة ، « كانت كلها له ، وكانت مائة صف في كل صف ألف أصل وسقى عظيم من عين هناك »^(٣) ، أى أن هذا الشيخ البدوى كان يملك غابة واسعة من أشجار الزيتون فيها مائة ألف شجرة ، وكانت خزائنه عامرة بالمال ، حتى لقد وجد في بيته تابوت « فيه عشرة آلاف دينار دراهم »^(٤) . وكان عامر بن عدى من أشرف بني عبد الدار بالأندلس يملك منية واسعة بغربى قرطبة ، وكانت تسمى « قناة

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص ٢١١ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٠ .

(٣) فتح الأندلس ، ص ٣٨ .

(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٩ .

عامر » ، وقد بلغ من سعتها أنه حينما استشعر الخوف من يوسف الفهري وأراد التحرز منه « أغلق غلقة عظيمة هم أن يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتنى بها بنيانا ينضم إليه ويغاور يوسف حتى يأتيه امداد اليمن »^(١) .

وأقطعت جماعة من بنى غافق قرية كاملة بشرف اشبيلية نسبت اليهم بعد ذلك ، وهي مرانة الغافقيين ، ومنهم كان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد في بلاط الشهداء .

وكان الكثيرون من رؤساء عرب الأندلس في هذه الفترة يملكون ضياعا واسعة فيها قصور كبيرة ، وكانوا يسكنون القصر والضيعة المحيطة به « البلاط » من (Palatum) اللاتينية حتى انهم سمو قرطبة كلها « بلاط لدرىق »^(٢) لأنها كانت ملكا له . ومن أمثلة هذه البلاطات « بلاط الحر » بن عبد الرحمن^(٣) و « بلاط مغيث » الرومى ، وكانت دارا شريفة ذات سقى وزيتون وثمار يقال لها « اليسانة » كانت للملك الذى أسره (مغيث) وكان له فيها بلاط منيف شريف ، فهى تسمى بالأندلس « بلاط مغيث »^(٤) ، وكان عبد الله بن خالد من كبار موالى بني أمية يملك معظم قرية الفتين ، حتى ليقول ابن القوطية انها كانت « منزل عبد الله بن خالد »^(٥) ، وكذلك كان أبو عثمان شيخ موالى بني أمية يملك اقطاعا كبيرا بقرية طرش من كورة قرطبة^(٦) ، بل كان يعدد

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

(٢) المقرئ ، ج ١ ، ص ١٦٠ ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٢١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٦) نفس المرجع والصفحة .

أن تترك كورة كاملة لرجل واحد ، كما ترك يوسف الفهرى كورة ربه لمنافسه يحيى بن حريث ليسكت عنه ^(١) ، بل كانت قبائل عربية تملك كورا كاملة ، فقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة أن «الشعر كان لليمن» ^(٢) والمراد هنا ثغر سرقسطة ، وكان رجال مثل الصميل ينفقون عن سعة تدل على مال عريض ، قال صاحب الأخبار المجموعة يتحدث عن الصميل عندما سار الى سرقسطة : «فأتى في مائتي رجل من قرش ومن كان معه من غلمان وحشمه ومواليه ، فنال بها ملكا وغنى ، ووفد عليه محاويع الناس ، فأعطاهم الأموال والرقيق ، ولم يأتته صديق ولا عدو فخرمه ، فازداد سؤدا» ^(٣) . وقد رويناه خبر دخول نفر من كبار العرب والموالي على أرطباس واعطائه إياهم الضياع ، قال ابن القوطية : «فوهبهم مائة ضيعة صار لكل واحد منهم عشر ضياع ، منها طرش لأبى عثمان ، والفتين لعبد الله بن خالد وعقدة الزيتون بالمدور للصميل بن حاتم» ^(٤) . وقد رويناه في نفس الخبر كيف أن أرطباس وهب ميمونا العابد «المجشر الذى على وادى شوش وما فيه من البقر والغنم والعيبد والقلعة (أى ضيعة القلعة) بجيان وهى المعروفة بقلعة حزم فملكها ..» ^(٥) . أما الرجال الذين مثل أبى الصباح اليحصبي وحيوة بن ملامس — وكانا يوصفان بأنهما «سيدا الغرب» — فقد كانوا على ثراء واسع ^(٦) .

(١) نفس المصدر ، ص ٢٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٣ .

(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

(٦) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٥ .

وهذه أمثلة قليلة تعيننا على تصور ثروات عرب الأندلس فى ذلك الحين ، فقد كانوا جميعاً بين مقطعين يملكون أرضاً كثيرة أو قليلة ، أو نازلين فى نواح يأخذون نسبة عالية من غلتها ، وكانت لهم الى ذلك الأعطيات والأرزاق ، وقد أوجد فيهم ذلك الرخاء الذى كانوا فيه نوعاً من الأنانية جعلهم يتصورون أن الأندلس كلها طعمة لهم أو غنيمة وقعت فى أيديهم لا يملك أحد أن يشاركهم فيها ، فقد ابوا على عرب الطالعة الثانية نزول بلادهم وتركوهم محصورين فى ناحية سبته حتى كاد يهلكهم الجوع ، وكانوا يقولون : «ان بلدنا لا يحملنا وإياهم» . نعم ، شبه الجزيرة الايبيرية كله لا يتسع لبضعة آلاف من العرب ! وعندما وفد نحو ٤٠٠ عربى مع السمع بن مالك وطلبوا الى عرب الأندلس أن يوسعوا لهم فى جانبهم ضاقوا بهم وبلغ بهم الأمر أن ذهبوا يشكون الى الخليفة فى دمشق .

وإذا استثنينا بعض كبار الرؤساء الذين كانوا يملكون تملك إقطاعاتها ضياعاً أو بلاطات لهم خاصة ، فالظاهر من النصوص أن ملكاً جماعياً حقوق العرب على النواحي التى نزلوا فيها كانت حقوقاً جماعية ، أى أن «الاقطاعات» كانت بيد رؤساء القبائل ، وهم الذين يتولون توزيع الحصص على أفرادها . وبغير هذا لا نستطيع تفسير قول المؤرخين ان «الشعر كان لليمن» ، أو أن أبا الصباح وحيوة بن ملامس كانا «سيدي الغرب» ^(١) ، بل لا يمكننا تفسير نزول أجناد الشاميين بالكور : كل جند بكورة يكون لهم ثلث أموالها الا على هذا الأساس ، أى أن «الجند» بأسره كان ينزل الكورة ويعتبر رئيسه صاحب الأمر

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٤ .

فيها ، وقد كان الأساس أول الأمر أن ينزل الجند في الكورة دون أن يدعى أفرادهم من الحق أكثر من ثلث المحصول ، ولكن اضطراب الأحوال في أواخر أيام الولاية جعل الأجناد ملاكاً للنواحي وأصحاب الأمر فيها . وحيث أننا لا نسمع ولو مرة واحدة عن عمال لكور الأندلس في هذه الفترة ، فأقرب الأمور إلى الصحة هو القول بأن العرب النازلين فيها — مقطعين أو مقيمين فقط — كانوا بالفعل أصحاب الأمر فيها . وقد أصبح الإمران سراء مع الزمن كما رأينا ، فيقوم بالأمر رئيس القبيلة أو شيخ مجموع القبائل أو صاحب لواء الجند ، فيجمع الأموال بمعاونة رؤسائها من أهل الذمة ، ويقتطع ثلثها ويؤدى الثلثين لبيت المال إن كان رئيس جند نازل أو يؤدى عشرها فقط إن كان مقطعا ، وعليه لقاء ذلك أن يكون مستعدا برجال قبيلته للخروج إلى الحرب عندما يدعوه العامل حسب النظام الذى أوردناه . أى أن أرض الجنوب قسمت بين فاتحيها والمقبلين إليها من العرب والبربر ، لكل قبيلة ناحية هى صاحبة الأمر فيها ، لا يربطها بالحكومة المركزية إلا أداء ما ينبغى عليها من المال والاشتراك في الحرب لقاء الرزق والعطاء . وكان لكل قبيلة أو جماعة من القبائل « سجل » من عامل الأندلس أو من الخليفة نفسه ، تؤيد به حقها في ناحيتها . أى أن نواحي الأندلس الجنوبية كانت معتبرة ثغورا أو ولايات حدود تقيم فيها « أجناد » تتصرف بجزء كبير من محصولها نظير ما تقوم به من خدمة عسكرية دائمة .

على هذا الأساس نستطيع أن نقدر قدرة عرب الأندلس وبربرها الأولين على القتال واستمرارهم فيه : مع النصارى الأسبان في الشمال ، ومع نصارى غالة في أول الأمر ، ثم فيما بينهم وبين أنفسهم بعد ذلك ، لأنهم كانوا جميعا جنودا لا عمل لهم إلا القتال ، ولو كانوا توزعوا

الأرض قطعاً صغيرة فيما بينهم واشتغلوا بالزراعة لأصبح من الصعب اقتلاعهم منها وإرسالهم للحرب كما حدث للكثير من عرب مصر ، مثلاً : ممن زرعوا واندرجوا في غمار الناس ، أما عرب الأندلس فلم يكن أحد منهم ليملك أرضاً لنفسه ، وإنما الأرض ملك القبيلة كلها ورئيسها يوزعها على أفرادها كما يرى ، فإذا ناداهم إلى الحرب لم يسعهم إلا التلبية ، والا ضاع حقهم في العطاء في آخر الغزاة . وبهذا نستطيع أن نضرب سهولة تداعيهم للحرب وخروج قبائلهم لها ، فإذا أهين شيخ قبيلة خرجت القبيلة للحرب ، وإذا استنجد رئيس عدد من القبائل بنى عمومته خفت قبائل بأسرها لعونه ، لأن رؤساء القبائل وأصحاب الأولوية المعهود لهم كانوا يوجهون الأفراد كما شاءوا ، وكان ذلك من أشد ما آذى عرب الأندلس وعجل بزوال السلطة من أيديهم وانتقالها إلى عبد الرحمن الأموى .

والنتيجة الطبيعية لهذا النظام هو فقر الإدارة المركزية وعجزها عن إدارة البلاد كلها إدارة موحدة ، وهبوط أمر ولاية الأندلس وإجراء أجناد العرب في النواحي عليهم . فلم تكن الأندلس في واقع الأمر ولاية واحدة بل عدة ولايات تنفرد بالأمر في كل منها قبيلة أو عدة قبائل يجمعها لواء واحد ، ولم يرزق الله الأندلس خلال هذه الفترة بوال واحد تجرد من نزعات العصبية وطالت مدته حتى يقرر الأمور فيها على قاعدة تؤكد وحدة الولاية وتنزع من قلوب العرب ميول العصبية ونزعات الأنانية التى غلبت عليهم ، ثم إن الخلافة كانت أبعد من أن تستطيع القبض على شئون الأندلس وإخضاعها للنظم الإدارية الإسلامية المقررة ، فتركوها لعمال إفريقية ، ولم يكن هؤلاء من طراز المنظمين ذوي الشخصيات القوية الممتازة ، وشغلهم إلى جانب ذلك شئون المغرب ،

وما كان أكثرها ؛ فسارت الأمور في الأندلس خلال هذه الفترة سيرا ارتجاليا لا يكاد يخضع لنظام مقرر أو قاعدة ثابتة ، فاستبد بكل ناحية أصحابها ، وثارَت بينهم المنازعات .

ولعل أغرب ظواهر هذا الاضطراب هو أننا لا نجد ذكرا في مراجعنا لخراج هذا القطر الفسيح ، كأنه كان لا يغل شيئا : لا نملك نصا واحدا يذكر أن خراج الأندلس أرسل الى إفريقية أو الى المشرق ، بل لا نجد شيئا يدل على أن الولاة كانوا يجمعون خراجا منتظما مقررا ، اللهم الا اشارات متناثرة كقولهم ان عقبة بن الحجاج « عدل في الخراج » أو أن الخراج « ضعف » في أوائل ولاية يوسف الفهري ، وهى اشارات لا نستطيع الاعتماد عليها في تكوين فكرة صحيحة عن هذه الناحية الهامة.

* * *

واذ كان الأمر كذلك فاننا لا نستطيع تصوير الادارة ٢٩٩ - بعض الاسلامية في الأندلس خلال هذه الفترة : لا نعرف أى الوظائف العامة الادارات وجد وأيها لم يوجد ، وكل ما لدينا أسماء بعض أشخاص يحتلون وظائف ادارية وردت من غير تحديد اختصاص ، كأبى عثمان بن عبد الله صاحب أزمة الأرض والخراج^(١) ، وعامر بن أبى عدى قائد الصوائف^(٢) ، ويحيى بن يحيى التجبى قاضى هشام بن عبد الملك على الشاميين^(٣) ، وجد بنى سليمان القرائين وكان صاحب الصلاة^(٤) ،

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٤ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨ .

ويحيى بن أبى زيد التجبى قاضى الجند^(١) ، وعيسى بن عبد الله الطويل وكان على المغانم^(٢) وهذا هو كل ما لدينا ، وهو لا يعيننا على تكوين فكرة عن الادارة العامة في هذا العهد ، وربما كان الأحجى أن ندع بحث هذه الناحية حتى تتجمع لدينا معلومات أوفى .

بيد أن هناك وظيفة كبيرة لدينا عنها من المعلومات ما يمكننا من الكلام عنها في أمان ، هى وظيفة القضاء في الأندلس ، وكان لها في عصر الولاة أهمية كبرى .

كانت للقضاء أهمية خاصة في الأندلس ، وربما لم يبلغ ٣٠٠ - القضاء القضاء في بلد من بلاد الاسلام ما بلغوه من علو المكانة ووفرة السلطان وبعد الجاه في الأندلس والمغرب ، ولدينا لتاريخ القضاء في الأندلس كتابان أحدهما لمحمد بن الحارث بن أسد الخشنى^(٣) ، والثانى لأبى الحسن النباهى^(٤) ، وأورد ابن سعيد في « المغرب » تاريخا لقضاء الأندلس يكاد يكون كاملا ، ومعظم من نجد أسماءهم في تراجم علماء الأندلس انما كانوا قضاة أو لهم بالقضاء صلة كالحسبة والمشاورة وما الى ذلك ، وأورد المقرئ في كتابيه « نفع الطيب » و« أزهار الرياض » فصولا وتراجم ضافية للقضاة ، واختص ابن حيان مشاهيرهم بتراجم مطولة ، أى أن المادة عن قضاء الأندلس وقضاة وفيرة لمن يشاء أن

(١) فتح الأندلس ، ص ٤٣ ، ويرجح أن صحة الاسم « يحيى بن يزيد » .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١١ .

(٣) كتاب القضاء بقرطبة ، الحافظ العالم أبى عبد الله محمد بن حارث الخشنى القروى ، نشره خليان ريبيرا ، مدريد ١٩١٤ .

(٤) تاريخ قضاة الأندلس المسمى «كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» لأبى الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى المالئى الأندلسى . نشره إ. لىي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

يدرس . وكان قاضي الجماعة في قرطبة شخصية لها أهميتها في مجالات العلم والسياسة في الأندلس ، بحيث لا يمكن التأريخ للأندلس تأريخا صحيحا الا اذا ألم الانسان بتاريخ قضائه وتنبه للأهمية الكبرى التي كانت لهم في المجتمع الأندلسي ^(١) .

٣٠١ - مسألة وكما كان موضوع قضاة الأندلس موضع اهتمام القدماء قضاة الأندلس فقد كان موضع اهتمام المحققين ، فكتب فيه دوزي الأول ريريرو وآسين پلاثيوس وليشي پروفنسالي وغيرهم ، وأثاروا مشاكل كثيرة يهمننا هنا موضوع قضاة الأندلس الثلاثة الأول ، فقد كان موضع درس وآراء ومناقشات . وأصل المشكلة أن أقدم تاريخ لقضاة الأندلس ، وهو كتاب « تاريخ قضاة الأندلس » الذي ألفه محمد بن الحارث بن أسد الخشني ، وهو مغربي من تونس أورد أسماء ثلاثة رجال ذكر أنهم من قدماء قضاة قرطبة ، وهم مهدي بن مسلم وعنترة بن فلاح ومهاجر بن نوفل القرشي ^(٢) ، وذكر أنهم كانوا قضاة أيام الولاة أي قبل قيام الدولة الأموية الأندلسية ، وذكرهم أيضا أبو الحسن النباهي ^(٣) ، وفيما عدا ذلك لم يرد لهؤلاء الثلاثة ذكر في حوليات الأندلس ، ولم يشر اليهم أحد من أصحاب كتب التراجم ، حتى ابن الفرضي ، وكانت عنايته بشؤون القضاة عظيمة ، ومعظم أخبارهم عند الخشني منسوبة الى أحمد بن فرج بن منتيل ، وهو شخصية قلقة من شخصيات التاريخ الأندلسي ، فقد ذكر ابن الفرضي أنه « كان ينسب

(١) انظر عن هذه الناحية كتابنا *Essai sur la Chute du Califat Umayyade de Cordoue* (Le Caire, 1948) pp. 66-69.

(٢) أورد الخشني تراجمهم ابتداء من ص ١٨ حتى ص ٣٠ .

(٣) النباهي : قضاة الأندلس ، ص ٤٢-٤٣ .

الى اعتقاد مذهب ابن مسرة ^(١) ، وكان المسيرون يعتبرون في عداد الزنادقة عند فقهاء الأندلس ، وأخبار ابن منتيل لهذا مشكوك فيها لا يوثق في صحتها .

وكان أول من قال بذلك دوزي في حديثه عن المراجع العربية لفتح العرب للأندلس ، وقد ذهب في ذلك المقال الى أن الكثير من أخبار الأندلس في عصوره الأولى قد وضعها المشارقة والمصريون بنوع خاص ، وضرب لذلك مثلا بمحمد بن الحارث بن أسد الخشني الذي يسند الكثير من أخباره الى رجال لا يوثق في صحة نقلهم ^(٢) مثل ابن منتيل هذا ومحمد بن وليد ^(٣) وعلى بن شيبة ^(٤) وعثمان بن محمد ^(٥) ، وهؤلاء أخذوا بدورهم عن أصول مشرقية ، فابن منتيل مثلا في حديثه عن مهدي بن مسلم يروي عن رجل يسمى أبا العباس أحمد بن عيسى ابن محمد المقرئ ، وأن هذا الرجل قد حدثه بحديث مهدي في مدينة تنيس (بالمغرب) ، وبعد أن يورد نص عهد الوالي عقبة بن الحجاج الى مهدي بن مسلم بولاية القضاء (وسنعرض له بعد قليل) يقول : « قال محمد (بن الحارث بن أسد الخشني) قال أحمد بن فرج ، فقلت لأحمد ابن عيسى : لقد عظمتم همتك اذ حفظت مثل هذا وشبهه من الأخبار

(١) ابن الفرضي : علماء الأندلس : ترجمة ١٢٧ .

(٢) DOZY, *Etudes sur la conquête de l'Espagne par les Arabes dans Recherches* (3e. éd 1881) I p. 1 sqq.

والفقرة الخاصة بمحمد بن الحارث بن أسد الخشني في ص ٣٤-٣٦ .

(٣) انظر ترجمته عند ابن الفرضي ، ترجمة ١١٧٨ .

(٤) ابن الفرضي ، ترجمة ٩١٨ .

(٥) ابن الفرضي ، ترجمة ٩٠٠ .

القديمة ، فقال : حفظت هذا زمن الصبا عن جد لي عمر نحو عمرى ، وكان من أحفظ الناس لأخبار المغرب وافتتاحه وأخبار بنى أمية عندكم ، ولقد كان عندي من كتبه أخبار حسان غريبة ، فذهبت بحريق كان في منزلى ، ولقد بلغنى أن بعض من عندكم من بنى الأغلب أو غيرهم من الشيعة ادعى هذا العهد ، وكتب به نصا الى بعض ولاة القضاة ، وما هو الا لمهدى بن مسلم هذا عندي [كنت] قديما أحفظه زمن الصبا عن جدى ، فهل عندكم له ذكر ؟ فقلت له : ما سمعت به عندنا ولا باسم مهدى هذا . فقال : قد سألت غيرك من أهل بلدك ، فلم يكن يعرفه ، فيأعجبى (١) ! كيف درس خبره عندكم ؟ لكنى أظنه لم يعقب . فاضمحج خبره بالفتن التى دارت فى بلدكم » (٢) ، وهو خبر طويل مفصل يلتمى شكاً على ولاية مهدى بن مسلم ، ولكنه يدل على تدقيق أحمد بن فرج ابن منتيل .

وعندما يروى الخشنى أخبار القاضى الثانى عنتر بن فلاح يبدؤه بقوله : « حدثنى أحمد بن فرج بن منتيل ، قال : حدثنى أبو محمد مسلمة بن زرعة بن روح بالعريش بالشام ، وكان شيخا كبيرا قد نيف على المائة فيما ذكر لى ، وأدرك حرمة صاحب الشافعى ، وحدثنى عنه وعن أمثاله ، وذكر لى أنه من موالى بنى أمية ، وكان ذا علم بأخبارهم القديمة والحديثة محبا لهم متشيعا فيهم » (٣) .

وما يورده الخشنى من أخبار القاضى الثالث مهاجر بن نوفل القرشى منسوب أيضا الى أحمد بن فرج بن منتيل عن أبى محمد مسلمة

(١) وردت فى النص المطبوع : « يا عجبى » ورجحنا تصويبها هكذا .

(٢) الخشنى : قضاة ، ص ٢٣-٢٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٤-٢٥ .

ابن زرعة هذا . أى أن أخبار القضاة الثلاثة مصدرها أحمد بن فرج عن راويتين أحدهما مغربى من تنيس والثانى مشرقى من العريش ، ولهذا فقد رفض دوزى أخبار هؤلاء القضاة الثلاثة ووصف الخشنى بقله التدقيق وإيراده الأخبار دون تمحيص (١) .

وتناول آسبن پلاثيوس هذا الموضوع واتجه به اتجاها آخر ، ففى بحثه عن محمد بن مسرة ومدرسته قال ان أحمد بن فرج بن منتيل قد اخترع أخبار هؤلاء القضاة اختراعا ليؤيد بذلك مذهبه ومذهب أستاذه محمد بن مسرة ، وهذا المذهب فى نظر آسبن لم يكن مذهبا فلسفيا بقدر ما كان اتجاها دينيا سياسيا يرمى الى مناهضة الفقهاء وسلطانهم المطلق فى الأندلس يؤيدهم البيت الأموى وما يسميه بالأرستقراطية العربية ، وهو يصف المسريين بأنهم اسبان قوميون (٢) ، ومضى يحلل أسماء القضاة الثلاثة فقال ان الأول ، مهدى بن مسلم ، لابد أن يكون لاسبانى نصرانى اعتنق الاسلام ، وترجمه هكذا : un mesias hijo de un converso orenegado ، وهو فى رأيه ليس علما على شخص بل رمزا لاتجاه ، أراد به أحمد بن فرج بن منتيل أن يقول ان الاسبان تولوا القضاء فى الأندلس من أقدم العصور ، وفعل آسبن

(١) دوزى : نفس المصدر ، ص ٣٥-٣٦ .

MIGUEL ASIN PALACIOS, *Aben Masarra y su Escuela, Origenes* (٢)
de la Filosofía Hispano Musulmana (1914)

ويلاحظ أنه ترجم الأسماء على أنها رموز ، فعنتر عنده رمز على رجل شجاع ، وترجمها

بلفظ intrépido ، ونوفل رمز أيضاً ومعناه المصيبة calamidad ، وقد قرأ عنتر بن فلاح ،

عنتر بن فلاح وترجمها labrador .

بالبثاني كما فعل بالأول وترجم اسمه un intrépido hijo de un labrador uno de la tribu de Coraix de los que salieron de la Meca hijo de una calamidad أي أن اسميهما أيضا مؤلفان كاسم الأول ، وقد وضعها المبريون رموزا على معان عندهم . وقد أيد خليان زبيرا هذا القول في مقدمته لتاريخ قضاة قرطبة للخشني ، ولكنه عارض دوزي فيما ذهب إليه من أن الخشني لا يوثق فيه ، وأنه حاطب ليل لا يدقق فيما ينقل ^(١) ؛ غير أنه أسرف في التفسير والاستنتاج حتى خرج بالموضوع الى مجال التصورات والأوهام .

وعندما نشر ليثي يروفسال تاريخ قضاة الأندلس للنباهي وجد أن هذا الأخير يذكر أسماء القضاة المشتبه في أمرهم ، فذهب الى أن أخبار القضاة الثلاثة صحيحة ، وأغلب الظن انه لم يقل ذلك استنادا الى حجج جديدة ، بل لمجرد أن النباهي أيد الخشني في هذا الموضوع . ومن الطريف أن كل ناشر يود أن يؤكد أصالة النص الذي ينشره ، فزبيرا يتهم أحمد بن فرج بن منتيل بالكذب ، ولكنه يؤكد دقة الخشني وأصالة كلامه ، ويروفسال يتبنى كتاب النباهي ويدحض رأي دوزي ومن تابعه ، وهذه غلة لم يسلم منها الا القليلون من الناشرين .

وأيا كان نصيب أخبار أولئك القضاة الثلاثة من الصحة ، فمن الثابت أنه كان للأندلس على عهد الولاة قضاة ، وسواء أكانت أسماؤهم هي تلك التي ذكر بعضها الخشني أم لم تكن ، فقد قام في الأندلس قضاة . قال الخشني : « سمعت من أهل العلم سماعا فاشيا أن

(١) المقدمة الإسبانية لترجمة كتاب القضاة للخشني : ص ١٢ وما يليها .

عبد الرحمن بن معاوية الامام دخل قرطبة وقام بالامامة والقاضي يومئذ يحيى بن يزيد التجيبي ، فأثبتته على القضاء ولم يعزله ، وكان من قبل ذلك يقال له وللقضاة قبله « فلان قاضي الجند » ، فلما امتنع الفهرى (يريد يوسف الفهرى) بغرناطة واضطره الأمير عبد الرحمن رحمه الله الى النزول ، واشترط (أن يكون التنازل) بحضور القاضي يحيى ، فحضر وكتب في كتاب المتأخرات : « وذلك بحضور يحيى بن يزيد قاضي الجماعة » ^(١) .

٣٠٢ - قاضي واذن فقد كان القضاة في الأندلس يسمون قضاة الجند الجند وقاضي حتى أتى عبد الرحمن الداخل ، فأصبح القاضي يسمى الجماعة قاضي الجماعة ، وكان أول قاض للجماعة يحيى بن يزيد هذا ، ثم تلاح معاوية بن صالح ، وكان يلقب رسميا بقاضي الجماعة . وهذا التطور معقول ؛ ففي فترة الولاة كان المسلمون هم الجند . ولهذا كان القاضي قاضيهم ، فلما قامت الدولة الأموية واجتمع حولها الناس ، وكان الاسلام قد انتشر . أصبح القاضي يسمى قاضي الجماعة . وهذا التطور شبيه بما حدث في بلاد اسلامية أخرى ، مثل مصر . غير أننا ينبغي أن نفرق بين قاضي الجند وقاضي العسكر ، فان وظيفه قاضي العسكر نشأت بعد تسمية قاضي الجند بقاضي الجماعة ، واضطراره الى الاستقرار في العاصمة ، ومست الحاجة الى اقامة قاض خاص بالعسكر ، يخرج مع الجيش ويعود معه . وفيما يتصل بالأندلس لدينا مرحلة انتقالية ، فقد كان يحيى بن يزيد قاضيا للجند ثم صار قاضيا للجماعة مع احتفاظه بقضاء الجند ، فكان يخرج مع الأمير في الغزوات ،

(١) الخشني : قضاة ، ص ٢٨-٢٩ .

واستمر ذلك أثناء قضاء معاوية بن صالح ، ثم اختص قاضي الجماعة بالحاضرة ، وأصبح أشبه بقاضي القضاة ، وأتاب عنه قاضيا آخر للعسكر . وما دنا لم تنته الى رأى فى موضوع القضاة الثلاثة الأول ، فلا بأس من أن نلم بذكرهم معتمدين على ما أورده الخشنى والنباهى من أخبارهم .

يبدو أن حق تولية قاضي الأندلس لم يتقرر على وجهه ٣٠٢ - عهد محدد فى فترة الولاة ، فقد كان عامل الأندلس يوليه أحيانا تولية القضاء كما ولى عقبة بن الحجاج السلولى القاضى لمهدي بن مسلم ، وهو أول قاض نسمع به فى تاريخ الأندلس ، ويبدو أن العامل كان يقوم بالقضاء بين الجند بنفسه قبل ذلك ، يفهم هذا من قول الخشنى : « وكان - أى عقبة بن الحجاج - قد اتخذ بالأندلس مقرا مدينة يقال لها أربونة ، وكان قد عرف مهدي بن مسلم بالعلم والدين والورع ، فكان قد استخلفه على قرطبة وأمره بالقضاء بين أهلها » . أى أنه تركه قاضيا فى قرطبة وخرج بالجند ليقوم بقضائهم بنفسه ، وهذا أمر لا يستبعد على عقبة بن الحجاج ، فقد كان رجلا دينا فاضلا عالما ، ذكر الخشنى - رواية عن أحمد بن فرج بن متيل - أنه كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة فى نكاية المشركين ، وكان اذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الاسلام حينما ويرغبه فيه ويصره بفضله ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل ألفا رجل » (١) .

ويذكر الخشنى والنباهى أن عقبة بن الحجاج أمر مهدي بن مسلم

(١) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٩ .

ان يكتب عنه « عهدا لنفسه » أى أمر تعيين ، وقد أجاد مهدي كتابة ذلك العهد ، حتى أصبح أقرب الى دستور للقضاة ، وقد رأينا فيما سبق كيف أن أحد ولاية افريقية نقل نصح وأصدر به أمرا بتولية أحد قضااته ، مما يدل على مكانة هذا العهد واحكامه ، وقد وصفه النباهى تقلا عن الخشنى بأنه : « أصل من الأصول فى العهد بالقضاء » (١) .

ويقول الخشنى : « وكان [عقبة] قد عرف مع ذلك بالبلاغة والبيان ، فلما أراد توليته قال له : اكتب عهدك عنى لنفسك ، فكتب مهدي بن مسلم الكتاب على أنه صادر عن عقبة بن الحجاج الى القاضى (٢) ، فبدأ بنصحها بما هو معروف من ضرورة الطهارة والنقاء واتباع الكتاب والسنة والتشرب الى الله « بأجراء الحدود مجاريها على من وجبت عليه واعطاء الحقوق من وجبت له . . . وأن يحاسب نفسه فى يومه وغده فيما تقلد من الأمانة الثقيل حملها الباهظ عبئها ، فانه محاسب وموعد وموعود » ، ثم يقرر بعد ذلك القواعد القضائية الآتية :

١ - التلطف مع الخصوم والاستماع لكل ما يقولون والانتباه له والصبر على عيبى اللسان ناقص البيان ، وملاحظة أن بعض الخصوم « ألحن بحجته وأبلغ فى منطقته وأسرع فى بلوغ المطلب وألطف حيلة فى المذهب وان كان غير الصواب مرماه » .

٢ - أن يتخير القاضى وزراءه وأهل مشورته والمعينين له من أهل العلم والأمانة . ولم نشر الى هذه الطوائف الثلاث ممن يستعين بهم القاضى استعانة خاصة فى أداء عمله الا لأنها ستتطور الى وظائف ثابتة

(١) النباهى : المرقبة العليا ، ص ٤٢ . وانظر : أبحاث دوزى ، ج ١ ، ص ٣٤-٣٥ .

(٢) الخشنى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٩ وما يليها .

فيما بعد هي وظائف الفتيا والمشورة وأعوان القاضى ، وينص الكتاب نصا خاصا على مسألة الشورى فى الأحكام .

٣ - يجعل الكتاب القاضى مسئولا عن حجابہ وأعوانه وكل ما يفعلونه ، « فان أفعالهم منسوبة اليه ومنوطة بيديه ، فاذا أصلح ذلك لم يلحقه عيب ولم يعلق به ريب » .

٤ - وأن « يديم » الجلوس للناس بالمسجد والعودة للمتقاضين لا يسأم ولا يتبرم ، وأن يكون صبورا عطوفا على « الضعيف عن التودد والزمن الثقيل » وأن يكون غنيفا مع أهل « التلدد والتفحم فى ملتبسات الأمور » .

٥ - ويشير الكتاب الى طائفتين أخريين من المعاوين للقاضى على أداء مهمته ، وهما طائفتا الشهود والمزكين . فأما الشهود فمهمتهم معروفة ، وأما المزكون فيوضح الكتاب مهمتهم بأنهم كانوا يزكون حجج الخصوم ويبيناتهم ، وقد أصبح الشهود فيما بعد هيئة ثابتة معروفة للقاضى وهو مسئول عنهم ، فى حين كان المزكون غير ثابتين : لكل خصم الحق فى أن يأتى معه بمن يزكى حججه ويؤيده فيما يدعيه .

٦ - وفى الكتاب أمر للقاضى بأن يستشير القاضى ابراهيم بن حرب فى كل ما أشكل عليه من المهمات ، « ليرد عليه منه ما يعمل به ويمثله ويقتصر عليه ويصير اليه » . وليست لدينا أى معلومات عن ابراهيم ابن حرب ، ولكن هذا النص يدلنا على أنه كان معتبرا كصاحب الفتيا فيما بعد ، وهو لهذا يضع أصبعنا على منشأ وظيفة كبيرة سيكون لها فى تطور نظام الحكم فى الأندلس أثر عظيم ^(١) .

(١) انظر نص الكتاب عند الخفنى ، ص ٢٣-١٩ ، وربما كانت بعض عبارات قد أضيفت إلى الكتاب فيما بعد ، ولكننا لا نستطيع القطع بذلك .

والكتاب مصوغ فى أسلوب رصين بليغ ، يدلنا على أن مهديا كان عالما فاضلا بليغا ، ويصفه الخشنى بقوله انه كان من « أبناء المسألة من أهل الدين والعلم والورع » ، ولسنا نعرف بالضبط ما عناه بقوله « المسألة » : لقد حكم عقبة بن الحجاج بين سنتى ١١٦ و١٢٣ هـ / ٧٣٤ و ٧٤١ م أى أن مهدي بن مسلم كان رجلا ناضجا ممن يعهد اليهم فى القضاء بعد نزول العرب الأندلس بنحو ثلاثين سنة ، ولا يعقل أن يكون أبوه قد أسلم وأنجبه وبلغ هو مبلغ النضج وسن القضاء فى هذه الفترة ، فلا بد أن يكون مهدي من أبناء مسألة افريقية .

ولا نزاع فى أن مهدي بن مسلم سار على القواعد التى قررها هو بنفسه فى كتاب عهده ، أى أن نظام القضاء قد تقرر على أصول منظمة من أول الأمر ، ولم تدخل فيه بعد ذلك الا تعديلات طفيفة ، وهذه الحقيقة تقرر لنا ناحية ايجابية جدية بالاعجاب لعهد الولاة فى الأندلس ، ففى ذلك العهد كان قضاة افريقية يجرون فى أعمالهم على وجه مرتجل غير منظم .

٣٠ - عنترة وربما كان هذا البدء الحسن هو السبب فيما تمتع به قضاة ابن فلاح الأندلس بعد ذلك من عظيم المكانة . فقد كان القاضى الذى أتى بعد مهدي - وهو عنترة بن فلاح - حريصا على مصالح الناس لا يقصر عن التضحية فى سبيلهم : حدث أن أصاب الناس محتل ، فقام يخطب مستسقيا ، فقام اليه رجل وقال : « أيها القاضى الواعظ ، قد حسن ظاهرك فحسن الله باطنك .. » .

- آمين لنا أجمعين ، فهل أضمرت شيئا يا ابن أخى ؟

- نعم ، بتفريغ أهرائك يكمل استسقاؤك ..

— اللهم انى أشهدك أن جميع ما حواه ملكى من المأكول صدقة لوجهك ..

وقد كان ، ووزع القاضى ما فى أهوائه على الناس . ويصور لنا هذا الحديث جانبا من طبائع الأندلسيين الصريحة التى لا تردد فى مجابهة الحكام وطلب الحق منهم ، وفيه كذلك تعريض لاذع بالقاضى (١) . وكان الأندلسيون من أقدر خلق الله على هذا التعريض اللاذع الذى لا يخلو من عمق ...

وكان غثرة لا يحسن الارتجال . حتى ليقال أنه كان اذا قام خطيبا أسدل على وجهه نقابا ويقول : « متى لحظت الناس لم أصل كلاما » . ولكن سخرية الأندلسيين أبت الا أن تزعم « أن خطبته كانت مكتوبة فى صحيفة مشبكة فى الثوب المسدول على وجهه .. » .

وكان ثالث قضاة الأندلس مهاجر بن نوفل القرشى رجلا ٣٠٥ - مهاجر ورعا تقيا لا أكثر ، اذا تخاصم الناس أمامه لم يزل يعظمه ابن نوفل القرشى ويخوفهم ويتحسر على نفسه ويبكى حتى ينصرفوا من عنده « باكين وقد تعاطوا الحقوق بينهم » (٢) .

وكان آخر قضاة هذه الفترة يحيى بن يزيد التجيبي ، وهو ٣٠٦ - يحيى بن أول من تسمى بقاضى الجماعة كما قلنا ، وحينما دخل عبد الرحمن بن معاوية قرطبة ثبته فى مكانه . ولم يكن قيام يحيى بالقضاء من لدن أحد عمال الأندلس بل كان الذى أقامه قاضيا حنظلة بن صفوان عامل إفريقية وبعثه إليها مع أبى الخطار ، وكان قوى

(١) الخشنى : قضاة ، ص ٢٤-٢٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧ .

الشخصية لا يكاد يهاب أحدا ، فقد حدث أن يوسف الفهرى فجأ قرطبة فى غياب عبد الرحمن الداخل وظفر بجاريتين لعبد الرحمن فتعرض له القاضى وقال له : « يالئيم ! عبد الرحمن ظفر بيناتك وكراميك ، فتلوهم عليهن حتى تقلن الى دارك ، وأنت ظفرت بجاريتين له لم يستحقا منه حرمة فأخذتهما ! » فتذمم الفهرى وقال : « والله ما رأيت لواحدة منهما وجهها ! فاقبضهما » وبرىء بهما اليه . وحينما دخل عبد الرحمن الأندلس وقامت الحرب بينه وبين الفهرى وأنصاره اعتزل يحيى الجند ولم يغمس يده فى الدماء ، فلما قامت البيعة لعبد الرحمن أجاب إليها طائعا (١) .

وكان يحيى بن يزيد مشاركا فى السياسة ، فقد أخذ جانب ٣٠٧ - معاوية بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل وتصدى ليوسف الفهرى صالح الحضرمي كما رأينا ، وكذلك كان القاضى الذى جاء بعده وهو معاوية بن صالح الحضرمي ، ولم يكن من قضاة عصر الولاة ، ولكنه دخل الأندلس فى ذلك العصر ، وكان طبقة عالية فى العلم حتى ليعد أعلم من دخل الأندلس اذ ذاك ، قال الخشنى : « وكان من جلة أهل العلم ورواة الحديث ، شرك مالك بن أنس فى بعض رجاله : يحيى بن سعيد وغيره ، وروى عن معاوية بن صالح جملة من أئمة أهل العلم ، منهم سفيان الثورى وسفيان بن عيينة والليث [بن سعد] وذمكر أن مالك بن أنس روى عنه حديثا واحدا ، وذمكر أنه أتاه يوما الى داره ، فانصرف عنه دون أن يصل اليه . قال محمد [بن حارث بن أسد الخشنى] وذكر محمد بن وضاح قال : قال لى يحيى بن معين : جمعتم حديث معاوية ابن صالح ؟ قلت : لا ! قال : وما منعكم من ذلك ؟ قلت : قدم بلدا

(١) الخشنى : قضاة ، ص ٢٨ .

لم يكن أهله يومئذ أهل علم .. قال : أضعتم والله علما عظيما «^(١) وذكر الخشنى بعد ذلك مكانة معاوية بن صالح بين محدثي ذلك العصر في المشرق وقال : « قال لي محمد بن أحمد بن أبي خيشمة : لوددت أن أدخل الأندلس حتى أفتش عن أصول كتب معاوية بن صالح ! قال ابن أيمن : فلما انصرفت إلى الأندلس طلبت أمهاته وكتبه ، فوجدتها قد ضاعت بسقوط همم أصحابها »^(٢) .

وكان معاوية بن صالح من أهل الشام من موضع قرب حمص يسمى غناة عيس ، وقد دخل الأندلس قبل دخول عبد الرحمن الداخل فنزل اشبيلية ، وقد ظهر قدره عندما أتى عبد الرحمن فاستقضاه ، واتخذة من رجال رأيه وثقته ، وندبه إلى المشرق ليأتي بخته أم الأصبع . فرحل إلى المشرق ولم يوفق في مهمته لأن أم الأصبع كانت قد كبرت سنها ولم تشأ الرحلة إلى الأندلس . وفي هذه الرحلة سمع من العلماء وسمعوا عنه ، وعاد إلى الأندلس وقد علا صيته وثبتت قدمه ، وهو من غير شك أول هذه السلسلة الطويلة الجليلة من فقهاء الأندلس^(٣) .

* * *

٣٠٨ - اتجاه وظاهر أن معاوية بن صالح كان من السائرين في طريق الأندلس نحو مالك بن أنس ، ولكنه لم يكن مالكيًا ، لأن المدرسة مذهب مالك المالكية لم تكن قد تكونت وانتظم أمرها بعد ، صحيح أن مالكا وضع مذهبه كاملا ، وصاغه على أسلوب يدل على أنه كان

(١) الخشنى : قضاة ، ص ٣٠-٣١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣١ . وانظر أيضاً النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٤٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

واعيا إلى أنه ينشئ تشريعا كاملا ، بخلاف أبي حنيفة الذي لم يكتمل مذهبه إلا على أيدي تلميذه محمد بن عبد الرحمن الشيباني وأبي يوسف القاضي ، وبخلاف الشافعي الذي يبدو أنه لم يكن واعيا أول الأمر إلى أنه يضع تشريعا ، بدليل أن أصول مذهبه كما وضعها في الحجاز تختلف عن أصوله كما تحددت في صورتها النهائية في مصر . ولكن تكون المذهب لا يعنى قيام المدرسة ، لأن هذه تقوم بالاتباع والتلاميذ ، وقد كان مالك أكثر أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى تنبها إلى أهمية تكوين المدرسة ، فكان شديد العناية بتلاميذه وأصحابه ، بل أننا نلمح في علاقته بأولئك أنه كان حريصا على أن يكون له في كل قطر جماعة منهم ، وهذا ظاهر جدا فيما يتصل بالمغرب والأندلس ، وقد ذكر المالكي في « رياض النفوس » عددا عظيما من أهل المغرب وقال أنهم من تلاميذ مالك وأصحابه ، وحرص أهل الأندلس على أن يزيدوا في عدد تلاميذ مالك المباشرين من أهل بلدهم ، ولكن البحث الصحيح أثبت أن جانبا عظيما من هذه المعلومات مخترع في عصور متأخرة ، وقد دفعت إلى الاختراع الرغبة في تعظيم أمر المالكية في الأندلس^(١) .

وكل ما نستطيع أن نقوله فيما يتصل بمعاوية بن صالح ومعاصريه أنه من الممكن أن يكونوا قد تتلمذوا لمالك فعلا ، وأخذوا عنه وأخذ عنهم ، ولكنهم كانوا جميعا محدثين ، ولم يتنبهوا إلا إلى ناحية الحديث

(١) بحث هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً الدكتور محمود علي مكي في بحثه الذي وضعه بالاسبانية

وعنوانه : *Estudio sobre las aportaciones orientales en la España Musulmana y su importancia en la formación de la cultura hispano - musulmana.*

وهو دراسة عظيمة القيمة نرجو أن تطبع وترجم إلى العربية ليفيد منها الدارسون . والجزء الخاص بموضوعنا ، ص ١٣٣ وما يليها ، وقد اعتمدنا عليه في هذا الجزء من كتابنا .

عند مالك : سمعوا منه ونقلوا عنه على أنه فقيه محدث ، ودخلوا الأندلس فقهاء محدثين ، وهذه هي الصفة الحقيقية لمعاوية بن صالح ومن عاصره أو تقدم عليه أو تأخر عنه قليلا ، من أمثال سعيد بن أبي هند ومحمد ابن يحيى السبأى ودأود بن جعفر ومحمد بن ابراهيم بن مزين وشبظون ابن عبد الله الطليطلى ومحمد بن بشير القاضى وعبد الرحمن بن موسى الهوارى ^(١) ، فهؤلاء جميعا كانوا فقهاء محدثين وهم الذين وضعوا أسس الدراسات الفقهية في الأندلس ، ولكنهم لم يكونوا من مؤسسى المالكية الأندلسية .

٢٠٠ - نقطة ولكن حياة معاوية بن صالح تضع أيدينا على نقطة البدء للمالكية للمالكية الأندلسية ، فقد أصهر اليه أحد تلاميذه وهو الأندلسية زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبظون ، وهو واحد من ثلاثة من الثابت أنهم مؤسسو المذهب في الأندلس ، وهم الذين أدخلوا الموطأ ونشروه بين الناس ، وعلى أيديهم أصبحت المالكية المذهب الغالب ، بل الرسمى لأهل الأندلس ، أولهم الغازى بن قيس وثانيهم زياد بن عبد الرحمن هذا وثالثهم يحيى بن يحيى الليثى .

وقد كان من الممكن أن نتبع الكلام عن القضاة بالكلام عن الفقه والعلم في الأندلس خلال هذه الفترة ، ولكننا رأينا أن بحث هذا الموضوع في هذه الفترة لا يعدو أن يكون مقدمة لما سيظهر في عصور تالية ، ثم ان الأمر يتطلب دراسة الثقافة المحلية التى وجدها المسلمون في الأندلس وأخذوا منها وتأثروا بها ، أى الرجوع بالموضوع الى أصوله البعيدة أيام الرومان والقوط ، فقد كانت اسبانيا بلد علم وعلماء على أيام هؤلاء ، وكانت

(١) أورد تراجمهم جميعاً ابن الفرضى في تاريخ علماء الأندلس ؛ انظر الفهرس .

لمؤلفاتهم وآرائهم آثار بعيدة في تكوين العلم الأندلسى فى شتى فروعها ، ثم اننا اذا قدمنا هذه المقدمات الطويلة لم نستطع الوقوف بالبحث عند حدود الفترة التى نتحدث عنها ، لأن الثمرات كلها لم تظهر الا بعدها ، فى عصور تالية ؛ ولهذا فقد رأينا أن نكتفى بهذه الاشارة ، حتى اذا أتاحت لنا الظروف دراسة العصر التالى عرضنا الموضوع كاملا بمقدماته ونتائجه .

الفصل الثاني عشر
قيام الدولة الأموية

الدولة الأموية في المشرق من الوجود ، وأعقبت ذلك مذبحة كبرى أنزلها العباسيون بالأمويين حتى لم يفلتوا منهم رجلا عثروا له على أثر ، واستمرت المذابح بعد ذلك سنوات حتى لم ينج من بنى أمية الا أفراد شردوا في الآفاق .

٣١٠ - فرار - وكان بيت معاوية بن هشام بن عبد الملك من أحفل بيوت عبد الرحمن إلى بنى أمية بالمصيبة ، فقد خلف معاوية هذا عقبا وافرا المغرب يذكر المؤرخون منهم أربعة ذكور وبتين ، أما أولهم فهو أبان ، وقد وقع في يد العباسيين فقطعوا يده ورجله وطافوا به في قرى الشام على ظهر حمار ومن خلفه مناد يصيح ، واستمر على هذه المحنة حتى هلك . ولما أعلن أبو العباس أمانه المشهور واحتال به على الايقاع بأكثر من سبعين أمويا في دير الجماجم ، كان من ضحايا هذا الأمان ابن ثان لمعاوية هو يحيى ، ولم يفلت أخوه عبد الرحمن الا بأعجوبة ، اذ كان قد خرج في صيد له فلم يفجأه جند العباسيين ، ولم يكده يعلم بما جرى لأخيه حتى استتر بالليل وفر الى قرية كانت تقيم فيها أختاه أم الأصبغ وأمة الرحمن وابن صغير له وأخ صبي له في الثالثة عشرة من عمره ، ولم يكده عبد الرحمن يستقر في القرية ويشعر بشيء من الاطمئنان حتى رمدت عيناه ، فأقام حبيسا في حجرة خوفا من رجال العباسيين وطلبوا لشفاء عينيه .

فاذا كان في حجرته تلك يوما فقد فاجأه العباسيون بقوة كبيرة وأقبلوا يحاصرون القرية ، وشاءت المقادير أن ينجو مرة أخرى ، لأن ابنا صغيرا له روعته خيل العباسيين وراياتهم السود فدخل عليه معولا ، فكان هذا نذير الخطر ، ونهض عبد الرحمن معجلا ، فأخذ ما استطاع أخذه من المال وودع أخته وابنه ، وطلب اليهما أن تبعثا اليه مولاه بدرا

انتهى عصر الولاة على يد عبد الرحمن بن معاوية الداخل باقامته الدولة الأموية الأندلسية ، وكان من الممكن أن ندع الكلام على قيام هذه الدولة لبحث خاص عن العصر الذي تلا عصر الولاة ، ولكن عبد الرحمن دخل الأندلس على أيام يوسف الفهري والصميل بن حاتم ، ودارت بينه وبينهما رحى صراع ضويل انتهى بانتصاره عليهما وزوال أمرهما وزوال المعالم التي ميزت الفترة التي ندرسها ، فلم يكن هناك بد من الالمام بسيرة عبد الرحمن ودخوله الأندلس واقامته دولته فيه ، حتى نصل بعصر الولاة الى نهايته ، ولهذا فإذ حديثنا عنه يعتبر ختاماً لتاريخ عصر الولاة وبداية لتاريخ الامارة الأموية القرطبية ، ولم نر بدا من ذلك ، حتى تتجمع أطراف البحث ، وحتى تكون أمامنا صورة كاملة لعصر عظيم الأهمية كما رأينا ، وان كان قصيرا في عدد سنواته . فاذا تقرر هذا فلا بد أن ندرس سيرة عبد الرحمن من أولها .

ولدت الدولة العباسية في الكوفة في ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ / يونيو ٧٤٩ م في اليوم الذي يبيع فيه لأبى العباس عبد الله بن محمد بعد دخول قائده أبى سلمة الخلال الكوفة قبل ذلك بأسابيع ، ولم تنقض أشهر حتى رفرت رايات العباسيين على دمشق ، وفر مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية بمن معه من الجند ، ولحق بهم عبد الله بن علي عم السفاح وأوقع بهم هزيمة كبيرة على نهر الزاب أحد فروع دجلة ، وفر مروان وطارده عبد الله بن علي حتى قتله في قرية بوصير بمصر ، وبذلك زالت

في مكان عينه لهما في غابة قريبة من القرية ، ثم استصحب أخاه الصبي ومضى لا يلوى على شيء بعد السلامة . وانتظر عبد الرحمن وأخوه في مكان مجاور للقرية حتى وافاهما بدر مولاه بشيء من المال ، فمضوا حتى أتوا موضعا على الفرات . فظاب عبد الرحمن رجلا يعرفه وأعطاه مالا ليشتري له خيلا وطعاما ، ومضى الرجل يصحبه بدر مولى عبد الرحمن الأمين ؛ وكان من سوء حظ عبد الرحمن وأخيه أن عبدا لهذا الرجل علم بالخبر فأسرع به إلى عمال العباسيين . فأسرعوا إلى الغابة وحاصروها ، وبيع الأخوان فأسرعا يعدوان حتى اختبأ في حديقة على ضفاف الفرات . وأقبل العباسيون يحاصرونهما وضيقوا عليهما حتى كادا يقعان في أيديهم ، ولم يبق أمامهما إلا أن يلقيا بنفسيهما في عباب النهر ويسبحا إلى الضفة الأخرى ، وقد فعلا ، فإذا قطعنا من الشوط جانبا فقد تعب الصبي وترامى إلى سبعة نداء رجال العباسيين يعدونه بالأمان إذا عاد ، فانقلب الصبي راجعا ، ولم يكده يخضو على الشط حتى تقاسمته السيوف وأخوه يراه بعينه فيشتد في سباحته . ووصل إلى بر الأمان سالما ، ثم مضى ينهب الأرض حتى أدرك مكانا من فلسطين كان قد ذكره لأخته ، وهناك أدركه مولاه بدر وسالم مولى أخته بمال وجوهر ليستعين بهما في محنته . ومضى الثلاثة معجلين فعبروا بسر وأفضوا إلى إفريقية حيث كان الحال مضطربا ثائرا ، فأمنوا برهة في وديان المغرب وشعباه وبين قبائله وأهله الذين فرقهم الثورات وصرفتهم عن الالتفات إلى دعوة العباسيين (١) .

(١) انظر : الأخبار المجهولة ، ص ٤٦-٤٧ ، ٦٩-٧٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

ابن الأبار : الحلة السراء ، ص ٣٣ .

المقرى : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

=

كانت سنة عشرين سنة (١) حينما أقبل إلى إفريقية ، ولم يكن يؤمل إذ ذاك إلا في النجاة من رجال العباسيين الذين كانوا يتتبعون كل أموي يعثرون له على أثر ، ولم تكن الظروف في إفريقية لتغذى فيه أى أمل في تحسن الحال ، لأن بربر إفريقية كانوا قد كرهوا العرب كراهة عميقة بعد الذي كان من عسفهم بالبربر وثورة هؤلاء عليهم هذه الثورة العنيفة التي تحدثنا عنها ، وكان دعاة الخارجية وأعداء بنى أمية الهاربون قد ملأوا نفوس أهل البلاد كراهة للأمويين وسخطا عليهم ، فلم يكن للفتى على ذلك بعد السلامة مطمع .

وكانت أمور إفريقية قد انتهت على ما ذكرنا إلى عبد الرحمن ٣١١ - المغرب في فترة الانتقال ابن حبيب بن عقبة بن نافع القهري ، وكان فهريا من عرب من الأمويين إلى إفريقية ، وكان واسع المضامع عظيم النشاط حارب البربر العباسيين في جيش كلثوم بن عياض . فلما انهزم كلثوم وفر ابن أخيه بلج بن بشرى نفر من القيسيين إلى سبتة ، تركهم عبد الرحمن ومضى إلى الأندلس ليلقى قريبه عبد الملك بن قطن القهري ، وجعل يخرضه على القيسيين ، ثم سارت الأمور في الأندلس على عكس ما رجا وصار الأمر إلى بلج ثم إلى ثوابة ففر عبد الرحمن بن حبيب عائدا إلى إفريقية ،

= عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١١ .

التويرى : نهاية الأرب ، ص ١٥٤ .

(١) ولد عبد الرحمن سنة ١١٣ هـ (٧٣١م) في دبر حمص سنة أو دبر حمص سنة على مقربة من دمشق .

انظر ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

ابن الأبار : الحلة السراء ، ص ٣٣ .

حيث جمع نفرا من عرب افريقية اليميني واستطاع أن يطرد حنظلة بن صفوان وجنده من البلاد ويستقر في القيروان حاكما بأمره (١).

ولكن باله لم يهدأ رغم استقرار الأمر له ورغم اضطراب الأمر على بنى أمية في المشرق ، لأن جنده كان قليلا ، ولأن قلوب البربر من أهل البلاد لم تكن معه ، لأنه كان في واقع الأمر مغامرا كثير التقلب لا يكاد يتصد الا لخير نفسه وحدها ، واضطربت البلاد عليه وتناوبتها الأوبئة ، « ثم ثار عليه عروة بن الزبير الصدي واستولى على تونس ، ثم ثار عليه عرب الساحل ، وقام عليه ابن عطف الأزدي حتى نزل بطشينا ، وثار البربر من الجبال ، وثار ثابت الصنهاجي بباجة فأخذها ، وخرج بناحية طرابلس رجالان يقال لأحدهما عبد الجبار والآخر الحارث ، وهما من البربر على مذهب الخوارج ، فقاتل عبد الرحمن بن حبيب كل من خرج عليه طائفة بعد أخرى . حتى دوخ المغرب كله ، وأذل من به من القبائل ، ولم ينهزم له عسكر ولا ردت له راية ، وخافه جميع أهل المغرب » (٢) . وأراد أن يؤيد سلطانه ، فكتب الى مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بنى أمية ، وحصل منه على ولاية المغرب والأندلس جميعا . ثم قامت الدولة العباسية ، فعجل عبد الرحمن بالكتابة الى أبي العباس بطاعته ، ثم كتب الى المنصور كذلك وأهدى اليه شيئا رجاء أن يشبهه في البلاد ، وخشى أن يرهقه المنصور بالمطالب ، فكتب يؤكد له أن افريقية أصبحت اسلاما كلها ، وأنه لن يستطيع ارسال سبائا اليه ، فأغضب كتابه المنصور ، ووقع الفرة بينهما ، فخلع طاعة المنصور وأحرق

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣-٢٢٤ .

التويري : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٨ وما بعدها .

(٢) التويري : نهاية الأرب ، ص ٣٩ .

الخلع التي كان هذا قد أرسلها اليه ، « وأمر كاتبه خالد بن ربيعة أن يكتب كتابا بخلعه ويقرأ على المناير في سائر بلاد المغرب » ، وبهذا خرج هذا الرجل عن طاعة الدولة وازداد مركزه في البلاد حرجا (١) .

وطبيعي بعد ذلك أن يظل متربصا يتخوف على سلطانه من كل أحد ومن كل طارئ ، وتذهب الروايات الاسلامية الى أن يهوديا أخذ علم النجوم عن مسلمة بن عبد الملك حذره من أموى اسمه عبد الرحمن يقيم ملكا في الأندلس ، وطبيعي أن هذه أسطورة ابتدعها مؤرخو الأمويين في الأندلس مبالغة منهم في تصوير حياة عبد الرحمن منسوبة دواتهم ، والواقع أن عبد الرحمن بن حبيب كان متخوفا مترقبا لكل أمير أموى هارب يصل الى بلاده سواء أكان اسمه عبد الرحمن أم لم يكن . وكان نفر من بنى أمية هؤلاء قد وفدوا عليه لاجئين ، فتزوج هو وأخوه الياس من حريمهم ، ثم بدا له بعد ذلك أنهم يدبرون عليه قتل منهم اثنين ، وكانت لهما أخت تزوجها الياس أخو عبد الرحمن بن حبيب فلم تزل تغريه بأخيه حتى دفعته الى قتله ، ولم يصف لالياس الأمر بعد قتله أخاه ، لأن حبيب بن عبد الرحمن ثار به ووقعت بينهما فتنة طويلة .

* * *

٣١٢-عبد الرحمن وصل عبد الرحمن بن معاوية الى افريقية أيام عبد الرحمن ابن معاوية في ابن حبيب ، ومن الطبيعي أن يتخوفه على نفسه ، ولو قد المغرب كان هذا الأموى الشارد خامل النفس قنوعا للجا الى عبد الرحمن بن حبيب وعاش في ظله عيشة خمول لا تخلو من الاستمتاع كما كان غيره من أمراء بنى أمية يفعلون ، ولكنه كان مغامرا بطبعه جرىء القلب ، ففضل أن يعيش بين البربر حياة قلق واضطراب .

(١) نفس المصدر ، ص ٤٠ .

وتحدثنا المراجع أنه تقلب في نواحي إفريقية كلها دون أن يغادر منها ناحية لم يجرب فيها حظه : أقام ببرقة حيناً ، ثم مضى إلى تاهرت حيث استظل برعاية بنى رستم حيناً ... ثم اختفى في قبائل مكناسة ، ثم قضى ردحا في صبرة ، وانتهى به الأمر بعد خمس سنوات من الهرب والتجوال والمغامرة إلى قبائل نفزة على مقربة من طنجة . وكانت أمه من سيهم ، والظاهر أنه استطاع كسب ودهم لأن كثيرا منهم عطف عليه وقام برعايته . والظاهر كذلك أنه لم يقنع بحياة الخمول ، فجعل يدبر على عبد الرحمن ابن حبيب . واتصل أمره بهذا الأخير ، فبعث من يبحث عنه ؛ وكان الطلب عليه شديدا حتى أن امرأة أحد شيوخ نفزة اضطرت إلى إخفائه تحت ثيابها حتى لا يقع في أيدي عمال عبد الرحمن بن حبيب ، وكان يرافقه في هذه المغامرات كلها مولاد بدر ومولى أخته سالم ، وكان عبد الرحمن عنيقا على مولييه هذين لميل إلى الاستبداد كان فيه ، فأما سالم فقد غضب مرة وفارقه بعد أن احتمل شدته وحياة الشقاء معه زمنا طويلا (١) ، وأما بدر فقد أقدم معه مخلصا له ، وقد قدر له أن يكون أخلص معاوينه في بناء مجدد .

أقام عبد الرحمن عند قبائل مغيلة من ساحل طنجة في كنف شيخها أبي قررة ، ولا شك أن شيئا كثيرا من أخبار الأندلس وما كانت فيه من الاضطراب قد اتصل به ، ويغلب أن استقراره عند مغيلة هؤلاء كان حوالى سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣ م) لأن المراجع تحدثنا بأن أمر الأندلس إذ ذاك كان قد استتب ليوسف الفهري والصميل بن حاتم ، وكان سالم مولى أخته قد حدثه بشيء عن خير الأندلس إذ كان قد قدمها مع

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٥ (وهو يذكر أن كنية سالم كانت أباشجاع) .

موسى بن نصير ، فتطلعت نفس هذا الفتى المغامر إلى هذا البلد الواسع الغنى الذى أقصد الاضطراب أمره (١) .

٣١٣ - تفكير . ولسنا نعلم كيف نشأت الإطماع في ولاية الأندلس في عبد الرحمن في أمر نفس عبد الرحمن ، والثابت على كل حال أنه لم يحاول الأندلس أن يبنى لنفسه ملكا في أى مكان من إفريقية ، وأن الطمع في الامارة نشأ في نفسه وهو مقيم بين مغيلة عند طنجة ، وربما نشأت في نفسه هذه الإطماع حينما علم أن في الأندلس جماعة لا بأس بها من الأموية تعيش في ناحيتي البيرة وحيان مشطورة بين جندى دمشق وقسرين ، ولم تكن أحوالهم بالآمنة ولا المستقرة لأن أكثرية عرب الأندلس من اليمانيين كانت تنفس عليهم مكانهم وثروتهم ، وكانت كذلك لا ترضى عن تأييدهم ليوسف الفهري وصاحبه الصميل ، ولا بد كذلك أنه تسامع بأن هؤلاء الأمويين في حاجة إلى شخصية قوية تجمع أمرهم وتقوى صفوفهم ، لا بد أنه تسامع بذلك والا لما بعث إليهم مولاد بدرا برسالة خطيرة يعرض عليهم فيها رياسته ، وهو لم يفعل ذلك في إفريقية أبدا ، مع أن إفريقية لم تخل من جماعات من موالى بنى أمية وأنصارهم ، وكان مستظيما تجريب حظه معهم ، لو كانت المسألة مجرد تجريب حظ ، بل قد كان أولى به أن يحاول في إفريقية لأن عرب نواحيها لم يكن فيهم من يقارب الصميل أو يوسف الفهري أو غيرهما من كبار العرب الذين تحدثنا عنهم .

ثم إن بدرا وموالى بنى أمية لم يكادوا يعرضون الأمر على الصميل

(١) ابن هنادى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٢-٤٣ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٣٨ .

البكرى : وصف إفريقية (طبعة دى سلين ، الجزائر ١٩١١) ، ص ١٢٣ .

حتى قبل ، مع علمه بأن هذا القبول يعنى ضياع سلطانه ، بل اننا نتساءل : لماذا قصدوا الصميل ولم يقصدوا يوسف وهو أضعف من الصميل وأكثر لنا ؟

هناك حلقة مفقودة تجعل السياق كله قلقا غير منسجم . وليس لدينا في ذلك الصدد الا أربع أو خمس روايات لا تكاد احداها تزيد على الأخباريات شيئا ذا بال . وربما أعاننا على استجلاء هذا الأمر أن نقرر أنه كان هناك تفاهم واتفاق بين الصميل بن حاتم وجماعة موالى بنى أمية وزعمائهم من أمثال أبي عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف ابن بخت . ولنا ندرى كيف تم هذا التقرب على الرغم مما تؤكد المراجع من أن موالى بنى أمية كانوا معتبرين موالى يوسف الفهرى من يوم زالت الدولة الأموية في المشرق ، فقد اعتبر هذا الرجل نفسه وارث كل ما كان للأُمويين في الأندلس ، بما في ذلك الموالى ^(١) ، وربما يكون هذا قد ساء هؤلاء الموالى فسعوا الى الانضمام الى الصميل بن حاتم للتخلص من سلطان يوسف . وسلاحظ أن هذا الأخير لم يظن الى ذلك ومضى يعتبر موالى بنى أمية مواليه وأخصاءه ، وكان ذلك من أخطائه الكبرى . ولا يبعد أن يكون الصميل قد قربهم الى نفسه ليفيد منهم وقت الحاجة .

ولم تكن العلاقات بين الصميل ويوسف طيبة على كل حال ، فقد كان يوسف منكرا للسيطرة التي يفرضها عليه الصميل ، وقد رأيناه يسعى للتخلص منه فيبعثه الى سرقسطة وكان كل أهلها يمينين لا يطيعون هذا القيسى الجافى ، وقد ثاروا عليه وكاد يهلك على أيديهم كما رأينا ،

(١) انظر الأخبار المجموعة ، ص ٧١ سطر ٥ وبتية السياق .

ثم لم يكد الصميل ينجو حتى عاد يوسف يفكر في بعثه الى الثغر ، وسيكون ذلك دافعا بالصميل الى القاء يده الى عبد الرحمن والدخول في دعوته . ولنلاحظ كذلك أن موالى بنى أمية في الأندلس لم يكونوا قليلين ، فقد كانوا موزعين بين جندين ، ولم يكن عددهم أربعمئة أو خمسمئة كما يظن ^(١) ، بل كانوا أكثر من ذلك بكثير ، ولم يكن يربطهم الى يوسف الفهرى والقيسين الا الصميل ، فلما تخلى عنهم الصميل تخلوا عن القيسية ومالوا الى اليمينية . على أساس هذه الملاحظات نستطيع أن نمضى في رواية الأحداث التي انتهت بإنشاء الإمارة الأموية الأندلسية على يد عبد الرحمن .

من الواضح أن عبد الرحمن حينما أرسل مولاه بدرا ليبدأ العمل في الأندلس في ربيع سنة ١٣٦ هـ كان قد كون لنفسه فكرة واضحة عن الأحوال في البلاد ورسم لبدر خطة العمل . ودليلنا على ذلك أنه أعلاه خطابا مكتوبا يعرض فيه على موالى بنى أمية أمره ويسألهم تأييده ، ولا شك في أنه عرض عليهم ترشيح نفسه أميرا على الأندلس مكان يوسف والصميل لكي يستطيع أن يضع حدا للفوضى الضاربة أطنابها ولكي يقيم أمر بنى أمية في البلاد من جديد ، وقد توجه عبد الرحمن بكتابه الى جماعته موالى بنى أمية في البيرة وجيان . ونقول انه حدثهم في أمر ترشيحه لولاية الأندلس ، لأننا سنرى من اجتهادهم في الأمر والحاحهم في اتقائه أن المسألة لم تكن مجرد طلب أمان ، ولو كان قد سألهم ايواء فقط لما احتاج الأمر الى هذا العناء كله . ولم يضع بدر وقته سدى ،

(١) تذكر المراجع أن عددهم كان حوالى ٤٠٠ .

انظر الأخبار المجموعة ، ص ٧١ و ٧٢ .

بل اتجه الى رؤساء موالى بنى أمية الثلاثة الذين ذكرناهم وأسلم اليهم خطاب مولاه ، واجتهد في اقناعهم ، ولم يلق صعوبة في ذلك ، لأنهم كانوا رغم اطمئنانهم الى الصميل لا يكادون يطمنون الى بقية القيسيين . فلم يكذب أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت يستوثقون من أمر بدر وسيدته حتى نهضوا يخاطبون فيه الصميل ، ولو لم يكونوا أخصاء وأصدقاء لما خاطروا بمثل ذلك ، ولكنهم ذهبوا وهم واثقون من أن الرجل موغر الصدر من يوسف ، وأنهم لا يكادون يعرضون عليه الأمر حتى يجيبهم اليه . راجيا لنفسه من ورائه خيرا كثيرا . وكان موالى بنى أمية يعرفون الصميل وما به من نزوع الى السلطان ، فتلطف رسولاهم في عرض الأمر عليه . « وذكراه بيادى بنى أمية عنده وعند سلفه » ، وقالوا له : ان عبد الرحمن بن معاوية نجا الى بلد البربر وهو مستتر فيه خايف على نفسه ، وأتت وصيته يسأل الأمان في نفسه ، ويتوسل اليك بما قد علمته ، وأنت ذاكر له . فقال : نعم وكرامة ! ونضم يوسف هذا الى أن يزوجه ابنته ويشركه في سلطانه ، والا ضربنا صلته بالسيف » مما يدل على أن مولاي بنى أمية عرضا عليه الأمر كانه طلب أمان فقط ، ولو كانا حدثاه في أن يصبح عبد الرحمن صاحب الأندلس لما قال انه مستعد لارغام يوسف على اشراكه معه في الأمر فقط (١) .

ولنلاحظ كذلك أن الأمويين لقوا الصميل في لحظة كانت نفسه متفتحة فيها لقبوله ، فقد كانت نفسه راضية عن خلاصه مما كان اليمينيون يريدونه به ، وكان لفرط سروره بفرق الأموال في الناس من غير حساب ، ولما كان موالى بنى أمية من أكبر الناس فضلا في خلاصه

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٣ .

فقد كانت نفسه متفتحة لقبول أى رأى يتوجهون اليه به . وكانت الأحوال العامة قد تحسنت ، اذ انجابت المجاعة « وأربع الناس وحملت الأرض » (١) ، ولم ينتظروا حتى يستقر الرجل في قرطبة بل كلموه في الأمر وهو في طريق العودة من سرقسطة . عرضوا عليه أمر عبد الرحمن وما يطلب من القدوم الى الأندلس والاستعانة بأهلها ، ويبدو أن عبد الرحمن تلطف في خطابه فلم يتحدث عن اماره أو ملك وانما عرض سوء حاله لكي يعطف القلوب على نفسه ، ولا نزاع في أن الصميل حسبه شابا مسكينا لا يضع في أكثر من أن يكون من رجال الصميل وأنصاره وفي أن يشتد به ساعد القيسيين لانتسابه الى بيت أمية ، على هذا الأساس وحده نستطيع تفسير قبول الصميل للدعوة وعدم نفوره منها على الأقل ، فسأل الرسولين فترة يروى فيها أمره . فعجلا وجمعا بدرا . فاستقبله الرجل استقبالا طيبا وأعطاه عشرة دنانير وثقة خز (٢) .

واستقر الصميل في قرطبة فلم يطمئن يوسف الى ذلك ، فبدأ يلح عليه في العودة الى الثغر ، لأن اليمينيين انتهزوا فرصة عودة الصميل الى قرطبة وانقضوا على سرقسطة يقودهم زعماءهم عامر وابنه وهب والحباب وتحصنوا بها وأعلنوا خروجهم على يوسف ، وتطلب الأمر القضاء عليهم . وأخذ يوسف يلح على الصميل والصيل يسوف ، علما منه أن يوسف لا يرمى الا الى ابعاده عن قرطبة والتخلص من سلطانه .

وكان يوسف الفهري قد اعتبر موالى بنى أمية مواليه هو بعد زوال أمر مواليه بنى أمية في المشرق كما قلنا ، فلما يئس من الصميل بعث الى

(١) الأخبار المجيعة ، ص ٧٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

رؤسائهم وأمرهم بأن يجمعوا رجالهم ويسيروا بهم نحو سرقسطة ، ولم يكونوا بالطبع راغبين في هذا المسير ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رفض الأمر ، فجعل رؤسائهم يتعلمون بأن رجالهم لا يستطيعون النهوض إذا أن « كل من كان فيه منهض قد نهض إلى أبي جوشن ، فتنطعوا وأهلكهم الشتاء والسفر مع ما نال الناس من الجهد » ، فصدقهم الرجل وأعطاهم ألف دينار ليتقوا بها على النهوض ، فاتتهزوا فرصة غفلته وحاولوا أن يكسبوا منه أكثر من ذلك ، وقالوا : « هم خمسمائة مدوئن ، وأين تبلغ هذه منهم ؟ » ، فلم يزد . فانصرفوا من عنده وقد قرروا فيما بين أنفسهم أن يستخدموا هذا المال في تحقيق ما كانوا يدبرونه مع بدر والصميل (١) .

وقرر يوسف الرحيل بنفسه بعد أن ائتمن إلى أن موالي بني أمية موافقه ، فرحل في ذي قعدة سنة ١٣٧ هـ وخرج معه الصميل تلياً ؛ فلما بلغ جيان نزل « بمخاضة الفتح » على مقربة منها حيث أقبل عليه بعض جنده ، ففرق فيهم الأعطيات ، وجعل ينتظر موالي بني أمية ؛ فلما أبطأوا عليه استدعى أباً عثمان عبيد الله بن عثمان ، وسأله عنهم ، فتعلل مرء أخرى ، وأكد له أنهم لاحتقون به قبل أن يدرك طليظلة ، وانما هم منتظرون حتى يجمعوا شعيرهم ليستقوا به . فلم يشك الرجل في كلامه ، وأمره بالعودة إليهم والضغط عليهم في المسير .

ولكن عبيد الله لم يسر إلى البيرة ؛ بل عرج على الصميل في مؤخرة العسكر ، فلما خلا به ذكره بأمر عبد الرحمن وسأله عما استقر عليه أمره ، ويبدو أن الصميل لم يكن فكر ولا رؤى وانما فاجأه عبيد الله بذلك

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٠ . ويلاحظ أن عدد ٥٠٠ هو عدد المدونين منهم فقط ، لا شك أنه كان هناك عدد كبير من غير المدونين .

وهو على شرابه وقد رضيت نفسه ، فقال له : « أما أنى ما أغفلت ذلك ، ولقد رويت فيه واستخرت الله وكنت الأمر فما شاورت فيه قريبا ولا بعيدا ، وفاء بما جعلته لكما من ستره ، وقد رأيت أنه حقيق بنصرى حقيق بالأمر ، فاكثبا إليه على بركة الله ، فان [أن] هذا الأصلم (يريد يوسف) على أن يتخلى لى عن هذا الأمر ، وأزوجه من أم موسى (يريد ابنته أم موسى ، وكانت قد أرملت تلك الأيام من زوجها قطن بن عبد الملك) على أن يكون واحدا منا ، فان فعل قبلنا منه وعرفنا حقه ومنته ويده ، وان كره هان علينا أن تفرع صلته بسيوفنا ! » (١)

وخرج الأمويون من عنده وقد ملأ البشر والتفاؤل نفوسهم .

ولم يكادوا يخرجون من حضرته وينطلقون بالبشرى إلى قومهم حتى بدأ الصميل يفكر في الأمر ويأخذه مأخذ الجد ، وهنا فقط أدرك خطورة الأمر وأحسن أن اقبال عبد الرحمن قد يعنى ضياع أمره ، فعجل بأرسال رسول يستوقف رسل موالي بني أمية في الطريق ، ثم لحق بهم على ظهر فرسه « الكوكب » مما يفهم منه أن الأمر روعه ، وقال لهما في أسلوبه الطريف في الكلام : « انى منذ أتيتما نى برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل في إدارة ، فاستحسنتم ما دعوتما إليه ، ثم كان منى اليكما ما كان ، فلما فارقتكما رويت فيه ، فوجدته من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بواه . وهذا (يعنى يوسف) رجل قد حكمنا عليه مع ما له في أعناقنا . والله لو بلغتما بيوتكما ، ثم رأيتما هذا لظننت ألا أقصر حتى أرجع اليكما لئلا أغركما ، وانما أعلمكما

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٣ .

أن أول سيف يسلم عليه سيفي ! فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما» (١) فأسقط في أيديهما وعلمنا أن الرجل جاد فيما يقول ، وإن لا رجاء لهما فيه بعد ذلك . وهكذا اتبته هذا الرجل لأمر نفسه في آخر لحظة ، وعاد الى بيته وهو لا يشك في أن أمر ابن معاوية هذا قد انتهى ، وكان قد أحب استرضاء أبي عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد فأكد لهما أنه يعطف على مولاها ، وأنه على استعداد ليعطف قلب يوسف عليه فيزوجه من بيته ويكرمه اذا تخلى عن طلب السلطان .

أراد الصميل شيئا وأراد الله شيئا آخر . أراد أن يقضى على آمال عبد الرحمن وموالي بني أمية في السلطان في الأندلس ، فكانت ارادته تلك فتحا لباب الأمل أمام وجوههم . فقد فكروا بعد ياسهم من المضرين المعدين في الاستعانة بالكليبيين اليمنيين ، فجعلوا في طريق عودتهم الى البيرة لا يكادون يملكون بمنزل يمنية الا حدثوا أشياءها في الأمر ، وكانوا في ذلك أسعد حظا من يوم توجهوا بآمالهم الى الصميل والمضرية ، لأن اليمنيين كانوا منذ هزيمة شقندة ومنذ فشل ثورتهم في سرقسطة ينتظرون بفارغ الصبر فرصة ينتصفون لأنفسهم فيها من أعدائهم المضربين ، فجعلوا ينضمون الى دعوة عبد الرحمن جماعة بعد جماعة ، ولم يصل زعماء بني أمية الى البيرة حتى كانوا قد ملأوا أيديهم من أطباء اليم ، وقرروا الاسراع باستدعاء عبد الرحمن والبدء في العمل قبل أن يفرغ يوسف والصميل من أمر سرقسطة ويعود الى قرطبة .

عجل موالي بني أمية فندبوا أحد عشر رجلا منهم فيهم تمام بن علقمة الثقفي الذي شارك في الفتح وكان له فيه جهد مشكور ، وشارك موالي

هشام ، وأعطينا تماما خمسمائة دينار للنفقة منها ولاقتداء عبد الرحمن من بربر مغيلة الذين كان يعيش عند شيخهم أبي قرة المغيلي . وكانت هذه الخمسمائة دينار هي كل ما كان قد بقي لهم من الألف دينار التي أخذوها من يوسف الفهري ليفرقوها فيما بينهم استعدادا للسير معه ، كانوا قد أعطوا كل جندي أموى عشرة دنانير . . . أما الباقي فقد أراد الله أن يكون من نصيب عبد الرحمن هذا الذي سيكون على يديه زوال أمر يوسف والصميل معا .

واشتري تمام وشارك وبدر من المال مركبا وعبروا وتسعة آخرون للقاء عبد الرحمن الذي كان ينتظرهم بفارغ الصبر (١) .

* * *

٢١٤ - وصول
اقترح رسل موالي بني أمية بمركبهم من شاطئ افريقية وفد موالي بني في إحدى أمسيات ربيع الآخر سنة ١٣٨ (سبتمبر ٧٥٥)
أمية واليمنيين إلى وكان عبد الرحمن قائما يصلي المغرب ، فلما أبصرهم أسرع عبد الرحمن اليهم وقفز بدر الى الماء لكي يسرع الى مولاة بالبشرى ، ولم تكد الوجوه تتلاقى بعد طول انتظار حتى أفضى اليه بجلية الأمر وأنباء بتوفيقه مع موالي بني أمية واليمنيين ، وبأن جماعات قوية من هؤلاء تنتظر لتسير في ركابه مؤيدة ، ثم أقبل تمام بن علقمة ، فلم يكذب عبد الرحمن يسأله عن اسمه وكنيته (أبو غالب) حتى استبشر به وعول على الاسراع في الرحيل . وأقبل برابر مغيلة يحاولون منعه من الرحيل الا اذا اقتدى نفسه منهم ، ففرق عليهم تمام من المال الذي كان معه ، ولم يخلص عبد الرحمن مع ذلك منهم الا بصعوبة ، واستوى هذا الفتى

الموفق في القارب فانطلق به نحو الأندلس بعد ساعات قليلة من وصول البشرى اليه . ووطئت قدمه شاطئ الأندلس عند المَشَكَب في أخريات ربيع الثاني سنة ١٣٨ . نزل الأندلس لا تكاد تصاحبه غير آماله ، وتريد المقادير أن تكون ساعة نزوله تلك بدءا لعصر جديد في تاريخ الأندلس بل في تاريخ الاسلام عامة .

٣١٥ - دخول لم يرح عبد الرحمن في المنكب ، بل سار منها رأسا الى مد الرمح طرئش حيث أراح في دار لأبي الحجاج يوسف بن بخت الأندلس (شيخ جند قنرين) وأحد كبار موالى بنى أمية على ما ذكرنا : « وهناك جاءتة الأموية كلها وجاءه جداد (كذا والأرجح جدار) ابن عمرو المذحجي من أهل ريثه الذي كان بعد ذلك قاضيه في العسكر ، وجاءه عاصم بن مسلم الثقفي وأبو عبدة حسان فاستوزره ، وجاء أبو بكر بن الطفيل ، واختلف الناس اليه » . وهكذا أخذ معسكر عبد الرحمن يغنى بالمؤيدين والأنصار وبدأت طلائع النصر تهب عليه . فحرص منذ اللحظة الأولى على تنظيم أتباعه هؤلاء واعدادهم للصراع في سبيل الأمر العظيم الذي يطلبه ، وتناقل أهل الأندلس كلهم خبره^(١) .

في هذه الأثناء كان يوسف والصميل قد وصلا سرقسطة وحاصرا اليمنين والقرشيين الذين كانوا قد دخلوها وأعلنوا الثورة فيها يقودهم عامر بن عمرو القرشي وابنه وهب والحجاب بن رواحة بن عبد الله الزهرى الكلابي ، وكان يوسف ينتظر مجيء أبى عثمان عبيد الله وابن خالد بفارغ الصبر على ما وعده ، ولم يكن يخطر له على بال ما أحكما تديره من الأمر أو ما كانت تخبئه له صروف الأيام .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٦-٧٧ .

وفي أثناء هذا الانتظار استطاع الصميل أن يرغم اليمنين الثائرين على التسليم ، فنزلوا له عن سرقسطة على أمان ، واستسلم قوادهم عامر وابنه وهب والحجاب وأقاموا عند الصميل كرهائن ، ولو كان الأمر كله في ذلك ليوسف والصميل لقتلهم ، ولكن نقرا من القرشيين في معسكرهما على رأسهم سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن حالوا بينهما وبين ذلك . فلما فرغ يوسف من أمر سرقسطة فكر في وسيلة يتخلص بها من سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن وغيرهما من زعماء القرشية ، فانتهاز فرصة انتفاض البشكنس فجمع جمعا صغيرا من جنده ورماهم به وجعل على رأسه سليمان بن شهاب والحصين وأصبحهما خيار القرشية « وبعثهم في ضعف ولم يكره عظيمهم »^(١) . فلم يكادوا يفضون الى دار الحرب ويلقون البشكنس حتى انقض عليهم هؤلاء ومزقوهم وقتلوا معظمهم وفيهم ابن شهاب ، وأسرع الحصين بفلمهم الى سرقسطة وقلبه موغر على يوسف والصميل اللذين أرسلوا قومه الى الهلكة ، وأقام عند أبى زيد عبد الرحمن بن يوسف ، وكان يوسف قد خلفه وراءه عاملا على سرقسطة .

في هذه اللحظة تحركت في نفس الصميل عوامل القسوة التي عرفناها فيه في مناسبات كثيرة ، فمال الى قتل رهائن القرشيين الثلاثة بعد أن قتل حاميتهم سليمان بن شهاب وهلك معظم أنصارهم في بعث البشكنس ، وجعل يزين الأمر ليوسف ويؤكد له أنه ان فعل هذا خلصت الأندلس له ولولده ، وكان يوسف مقيما اذ ذاك بمكان يقال له وادى شربنة ، فاستجاب له يوسف وضرب أعناق عامر بن عمرو القرشي

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٧ .

وابنه وهب والحباب بن رواحة على رغبة ، واطمان الصميل بعد أن شفى أحقاد نفسه من هؤلاء اليمنيين والقرشيين الذين كادوا يهلكونه أثناء حصارهم إياه بسرقسطة ، اطمأنت نفسه واستراح باله ، فمضى الى خبائه — وكان فيه ابتلاء — ليقيل ، فلم يكد جفنه يهدأ حتى طرقت سمعه خطوات رسول يوسف يحمل اليه نبأ عبد الرحمن واجتماع الناس اليه بطرش ، فكان المقادير أرادت أن لا يهدأ له بال لحظة بعد هذه الجريمة البشعة التي ارتكبها منذ لحظات (١) .

٣١٦ - بدء - لم يكد يوسف يقرأ الخطاب حتى بعث يستدعى الصميل ، الصراع بين عبد وانتبه الصميل لخطورة الأمر وأشار على يوسف بأن يعجل الرحمن ويوسف بالسير الى عبد الرحمن بمن معه قبل أن يجتمع اليه الناس الفهري والصميل ويشدد أمره ، فلم يكد يوسف يتحدث الى الجند في هذا حتى عارض فيه أكثرهم ، وكانوا متعينين من أثر هذه الحملة المشؤومة التي قاموا بها في بلاد البشكنس ، ثم ان الكثيرين منهم كانوا ساخطين على الصميل ويوسف بسبب ما فعلا باخوانهم القرشيين ، إذ ألقى ببعضهم الى الهلكة وغدر بالباقيين ، لهذا لم يجبه منهم الا نحو عشرة كانوا هم حملة ألوية القبائل ، ولو أمكنهم التقاعس لتقاعسوا ، أما الباقيون فقد طال الشوق بهم الى بيوتهم فتسللوا الى أهليهم وتركوا يوسف والصميل وحدهما ، واستحال عليهما الذهاب ، وانقضى الوقت وأقبل الشتاء وهطلت الأمطار وحملت الأنهار ، فلم يجد الرجال بدا من السير بمن معهما الى قرطبة . وجعل الناس يهونون أمر عبد الرحمن على يوسف ، وقال بعضهم انه لا يطلب ملكا وانما يطلب العيش الرغد ، فان كفاه يوسف

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٧-٧٨ .

ذاك وزوجه من بيته رضى وقنع وزال خطرهم ، واطمان الرجل الى ذلك طيلة الشتاء كارها .

في ذلك الحين كان عبد الرحمن جادا في توثيق أمره في طرش في دار أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ، كانت جماعات موالى بنى أمية قد توافدت عليه حتى اكتمل عقدها تحت لوائه ، وتسارع اليه اليمنيون لا يشكون في أنه منتصف لهم من القيسيين وقائديهم العاتيين ، بل انضم اليه نفر من القيسيين أنفسهم يتزعمهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحسين بن الدجن ، وكانت قلوبهم موغرة على الصميل لما فعل بأصحابهم في حملة البشكنس ولضربه رقاب من نجا منهم بعد ذلك ، وانضم اليه من ثقيف ثلاثة نفر سيكون لهم في مجرى الحوادث أثر عظيم ، هم تمام بن علقمة الثقفي الذي ذكرناه وعاصم العريان وأخوه عمران ، وانضم اليه كذلك كثير من البربر لم تعطنا المراجع عنهم أى تفصيل ، ولكن معظم البربر كانوا على أى حال يأمنون اليمنيين وينضمون اليهم ، وكان هؤلاء قد تقربوا اليهم بعد هزيمة شقندة . هكذا قوى معسكر عبد الرحمن . فأخذ ينظم صفوف أنصاره استعدادا للصراع الحاسم اذا انقضى الشتاء .

فلما أقبل الربيع بدأت بطون مضر تتوافد الى الصميل ويوسف حتى اكتمل جمعهم عندهما في قرطبة ، ويبدو أن عدد من اجتمع من القيسيين كان عظيما . لأن الأمويين واليمنيين المجتمعين الى عبد الرحمن لم يلبثوا أن استبانوا قلة أعدادهم ونصحوا عبد الرحمن بالمرور على بقية منازل اليمنية في نواحيها لكي يصطبج منهم من يستطيع ضمه ، وهذا يدلنا على أن اليمنيين رغم كثرة عددهم في الأندلس كان معظمهم منصرفا الى شؤون العيش في النواحي التي نزلوا بها ، فلم يكن ينهض منهم

للقِتال إلا أعداد قليلة ، وربما كان هذا هو سبب تفوق القيسيين عليهم في ميادين الحرب ، فقد كان معظم القيسيين جددا على البلاد أقبلوا مع بلج ، لم تثبت بعد أقدامهم في النواحي التي كان أبو الخطار قد فرقهم فيها ، فكانوا إذا دعا داعي الحرب لبي معظمهم وأسرعوا إلى الميدان ، ومن دلائل ذلك أن يوسف والصميل لم يكادا يدعوان الجند بعد انقضاء الشتاء حتى توافد عليهما معظم القيسية ، في حين كان لابد أن يمر عبد الرحمن على اليمنين في منازلهم ليحشد أكبر عدد منهم للصراع المقبل .

وجعل نفر من رجال يوسف يوهمه بأن عبد الرحمن لم يأت للملك ، وإنما يكفيه شيء من الخير وحسن المكانة عند يوسف كما قلنا . ففكر هذا في أن يبعث إليه بشيء من الهدايا مع وفد من أنصاره يعرضون عليه الصلح والمصاهرة ، وتخبر يوسف ثلاثة من خيرة أنصاره هم عبيد الله ابن علي شيخ قيس وخالد بن زيد كاتبه الأثير عنده وعيسى بن عبد الرحمن وكان من موالي بني أمية ، ولكنه ثبت إلى جانب يوسف . لأنه كان على أرزاق الجند وحشم يوسف ، وبعث معهم بكتاب يبلغ كتبه خالد بن زيد وأرسل كذلك كسي وفسرين وبغلين ووصيفين وآلف دينار ، فسار الرسل حتى بلغوا أرش من كورة ريه ، فبدأ عيسى بن عبد الرحمن أن يبقى هو بالهدايا في هذا الموضع ، ويذهب زميلاه بالكتاب ليريا أن كان عبد الرحمن يقبل الصلح أو لا يقبله ، فلما وصلا إلى معسكر عبد الرحمن وجداه عامرا بالناس تتوارد عليه الوفود من اجناد دمشق والأردن وقسرين وفدا بعد وفد ، وحدثاه بالذي يعرضه يوسف من الصلح والمصاهرة والسلام ، ومالت قلوب نفر من أنصار عبد الرحمن إلى قبول ذلك ، ثم أخرج خالد بن زيد الكتاب وناولوه لعبد الرحمن ،

فناولوه هذا لصاحبه أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ليرد عليه بما يشاء ، وهم أبو عثمان باملأء الجواب ، فملك الزهو خالدا وقال : « يا أبا عبد الرحمن ، لتعرقن ابطك قبل أن تجد فيه جوابا ! » فنالت هذه العبارة الجافية من نفس أبي عثمان ، وكان — كغيره من كبار عرب الأندلس — يكره خالدا ولا يرتاح إليه ، إذ كان خالد مولى أندلسيا اصطنعه يوسف وصعد بمكانه ، وكان فيه هذا الغرور الذي سنعرفه في الكثيرين من الأندلسيين ، فأنار بغروره نفوس العرب حتى كرهوه وحسدوه على هذه المكانة التي أصابها من نفس سيدهم ، وهو بعد مولى أندلسي أو « علج » كما كانوا يسمونه . أصابت هذه العبارة نفس أبي عثمان فاستطاره الغضب فضرب بالكتاب وجه خالد وسبه سبا قبيحا وأمر به فكل بالحديد ، وحاول عبيد الله بن علي أن يتدخل لاقضاه فلم يفلح . وهكذا فشلت هذه السفارة بسبب هذه العبارة التافهة التي صدرت عن هذا المولى الأندلسي دون أن يقدر موضعها ، وعاد عبيد الله خائب السعي إلى أرش ليجد صاحبه عيسى بن عبد الرحمن قد أسرع عائدا بالهدايا إلى يوسف ، إذ بلغه أن أنصار عبد الرحمن بن معاوية علموا بأمره وأمر الهدايا التي معه . وقد انضم عيسى فيما بعد إلى عبد الرحمن ، وصفح عنه هذا وجعله من مواليه ، إلا أنه لم ينس له فعلته هذه أبدا (١) .

سار عبد الرحمن بمن معه إلى شذونة حيث كان جند الأردن ، فانضم إلى جيشه كل من كان بها من اليمنين وقضاة وقليل من جند الأردن أنفسهم ، وتحمس لعبد الرحمن شيخ عرب الأردن جدار بن عمر القيسي جد بني عقيل ، وصادف دخول عبد الرحمن شذونة يوم الفطر

سنة ١٣٨ (٨ مارس ٧٥٦) فأمر جدار خطيب المسجد أن يسقط الخطبة ليوسف ويجعلها لعبد الرحمن^(١)، فكانت هذه أول خطبة لعبد الرحمن على منابر الأندلس، وساعفه المقدار فانضم إليه قبيل من البربر يعرفون ببني الخليع كانوا يقيمون بناحية تاركنا وكانوا موالى يزيد بن عبد الملك، فأصبحوا في ولاء عبد الرحمن واشتد بهم ساعده، «بهذا كان مقام عبد الرحمن بشذونة مقاما سعيدا على قصره: كسب فيه بضع مئات من الأنصار وسمع بنفسه أول خطيب يدعو له. ثم نزل بمنازل جند فلسطين عند طرف شذونة فانضم إليه سراة القوم وحماة الجند الأبنى كنانة، إذ كان شيخهم كنانة بن كنانة قد انضم بقومه إلى يوسف وسار إليه، فرعى عبد الرحمن حرمة هذا الشيخ ولم يمس أبناءه أو حرمة بضر، ثم سار إلى اشبيلية حيث جند حمص، «فخرج إليه خيارهم من اليمن شاميها وبلديها. وبهذا قوى جمع عبد الرحمن بمن انضم إليه من هذه الأجناد الثلاثة، وزاد حماسه وحماس من معه حتى نظر أحد رؤساء الجند فإذا جند الأردن سائرون بلوائهم وجند فلسطين بلوائهم وجند حمص بلوائهم وعبد الرحمن في مواليه من غير لواء، فقال: سبحان الله، ما أشد خلاف أمرنا! نحن بالوية وصاحبنا بلا لواء! فأقبل أبو الصباح بن فلان اليحصبي بقناة وعمامة، والقناة والعمامة لرجل من حضرموت لا أسميه، ثم دعوا رجلا من الأنصار لا أسميه تقاءلوا باسمه ونسبه، فعمد له بقرية قلنبيرة من إقليم طشانة من كورة اشبيلية» فأراد الله أن يكون هذا اللواء المتواضع المرتجل لواء النصر اجنود المسلمين في الأندلس حتى اماره عبد الرحمن الأوسط، وظل يرفرف على هامات المسلمين حتى خلق وبلى، وألقى به عبد الرحمن بن غانم

قائد الأمير عبد الرحمن بن محمد واستبدل به غيره فتشام بذلك جهور القائد وبحث عن اللواء الخلق فلم يجده، واختفى من ذلك التاريخ بأحدى نواحي ماردة^(١).

٣١٧ - موقعة وتعجل يوسف والصميل السير من المدور شمالي قرطبة المصارة وانحدرا بمن معهما إلى ناحية مقابلة لطشانة Tocina على الشاطئ الغربي للوادي الكبير، وكان الوقت شتاء والوادي الكبير فياض بالماء، فامتنع على العسكرين أن يعبر أحدهما إلى الآخر، ولبثا على ذلك حيناً، ثم أراد عبد الرحمن أن يلتبس غرة من يوسف ويمضى بعسكره إلى قبالة قرطبة ثم يعبر إليها فيدخلها، فأوقد نار معسكره بليل، ثم ترك النار موقدة ومضى بعسكره، وكادت تنجح الحيلة، لولا أن تنبه لها يوسف وصاحبه فأسرعا عائدين إلى قرطبة، فكانا مع جيش عبد الرحمن في سباق، ووقف الجيشان مرة أخرى ينظر أحدهما إلى الآخر عند المصارة على مقربة من قرطبة، وكانت كفة يوسف أرجح، لأنه كان مقيما مع قومه في ناحية زرع وخير، في حين كان مقام عبد الرحمن في غابات لا مزارع فيها، فأقام جنده في محل لا يقتاتون إلا ببعض الفول الأخضر أصابوه مما حولهم، وكانوا يرجون أن يدخل بهم صاحبهم قرطبة ليقبضوا أنفسهم بما فيها من الخير، ولكنهم لم يستطيعوا^(٢).

ثم أقبل يوم الخميس التاسع من ذي الحجة سنة ١٣٨ (١٣ مايو ٧٥٦)

(١) الأخبار المجمع، ص ٨٤.

ابن القوطية: افتتاح، ص ٢٦.

(٢) الأخبار المجمع، ص ٨٦.

فاستبشر به عبد الرحمن لأنه يقابل اليوم الذى وقعت في غده معركة مرج راهط وانتصر فيها أموى آخر هو مروان بن الحكم على فهري آخر هو الضحاك بن قيس ، فقرر أن يخوض المعركة الحاسمة مع يوسف الفهري يوم الجمعة التالى ، ومن ثم أمر جنده أن يستعدوا ليوم الفصل (١) .

وفي صباح يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ (١٤ مايو ٧٥٦) صف عبد الرحمن جيوشه في ترتيب واحكام ، ولم يكونوا ليزيدوا في العدد عن خصومهم ولكنهم كانوا أشد تلهفا على القتال ، ولم يكن معظمهم متحمسا لتفضية عبد الرحمن بقدر ما كان راغبا في ادراك ثأره من القيسيين وشيخيه الصميل ويوسف ، وكان عبد الرحمن يعرف هذا ويشعر به ، فمضى يدبر الأمر في حرص وحذر وحكمة : ظل يتظاهر بأن الأمر كله لأبى عثمان عبيد الله بن عثمان شيخ الموالى ، فلا يبرم أمرا بدون رأيه ، ولكنه كان يعرف كيف يسيطر على هذا الرجل ويسيره في الطريق الذى يريده في كياسة وحكمة ، ومن دلائل ذلك أنه أحب قبل المعركة أن يشحذ همم اليمينين فسألهم في شئ من الذكاء : « انا لم نجىء للمقام ، وقد دعانا هذا الرجل الى ما علمتم ، وعرض ما سمعتم ، ورأى لرايكم تبع ، فان كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافحة فأعلموني ، وان كان فيكم جنوح الى السلم والصلح فأعلموني » (٢) . قال هذا الكلام وهو يعلم أثره في نفوسهم ، فلم يكذب يفرغ منه حتى

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٦-٢٧ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

(٢) الأخبار الميومة ، ص ٦٧ .

ابن القوطية ، ص ٢٨

أصفقوا على القتال جميعا وزاد حماسهم ، فمضى يعين القواد : فأقام عبد الرحمن بن تميم الكلبى على أهل الشام ، وأقام على رجالة بنى أمية وجماعة البربر عاصم العريان ، وكان من كبار الأموية ، وقد بلغ من حماسه لعبد الرحمن أن خلع سراويله قبل المعركة ليكون ذلك أعون له على القتال فسمى العريان . وجعل على خيل بنى أمية حبيب بن عبد الملك القرشى ، وجعل على خيل البربر ابراهيم بن شجرة الأودى وكان من كبارهم ، وأعطى لواء جيشه كله لأبى عثمان عبيد الله بن عثمان . ووقف هو وسط خيل بنى أمية على فرس أشقر مسكا بقوسه . وعلى هذا النظام عبر الوادى الكبير وأفضى الى الضفة المقابلة دون أن يعرض له يوسف أو أحد من رجاله ، ويبدو أنه كان يؤمل في الصلح مايزال ، وعلى ذلك كان كثير من أنصاره ، لم يخوضوا المعركة الا بعد أن وضعهم عبد الرحمن أمام الأمر الواقع ، فلم يجدوا عن القتال مندوحة .

ورتب يوسف جيشه : فجعل على خيل الشام ومضر كلها عبيد الله ابن على ، وعلى الرجالة كنانة بن كنانة وجوشن بن الصميل وعبد الله ابن يوسف الفهري ، وجعل على خيل غلمانه وصنائعه من البربر غلامه خالدا سكوندى .

وأخذت جماعات من مسلمى قرطبة تنضم الى عبد الرحمن قبيل المعركة : رآن عددا عظيما من موالى خلفاء بنى أمية وعماهم كانوا قد سكنوها منذ زمن طويل ، فصار جيشه بهذا أكثر عددا وان كان جيش خصمه أكثر انسجاما ، وقد لاحظ عبد الرحمن أن نفرا من أنصاره اليمينيين يتحدثون عن فرسه الأشقر ، ويخشون أن يكون قد تخيره خاصة ليهرب به اذا دارت الدائرة عليه ، بل كلمه جماعة منهم في ذلك صراحة ، فلم يكن منه الا أن رجا أبا عثمان عبيد الله أن يعطيه بغلته ،

محتجا بأن فرسه الأشقر لا يثبت تحته ، وهو انما يريد مركبا ثابتا
ليستطيع أن يرمى بقوسه على ظهره ، فقبل أبو عثمان وطابت أنفاس
اليمن ، وهذا يدلنا على أن اليمينيين كانوا يخشون القيسية بعد ما لقوا
من الهزائم على أيدي رجالها ، ولو لم يكن فيهم هذا القتلى عبد الرحمن
لدارت الدائرة عليهم ، بل لما تهضوا للقتال أصلا ^(١) .

دارت المعركة على مقربة من المصارة من أرباض قرطبة ، وقد بدأ
القتال بهجوم عنيف قامت به خيل عبد الرحمن على قلب جيش يوسف
والصميل ، فلم يمض الا قليل حتى قتل عبد الله بن يوسف وجوشن بن
الصميل ، فلم يصبر الرجلان على القتال بعد ذلك ووليا الفرار بمن
معهما ، وثبتت خيل قيس يقودها عبيد الله بن علي القرشي ، فلم يزل
عبد الرحمن بن ثعيم وعاصم العريان ومن معهما من الفرسان يشتدون
في الهجوم حتى قتلوا عبيد الله بن علي ونفرا من كبار القيسية ، فانقرط
عقد من بقي وولوا مدبرين ، وكسب عبد الرحمن ذلك اليوم الخامس
الذي كتب فيه للأندلس بل للغرب الاسلامي كله تاريخ جديد ، وسار
عبد الرحمن ودخل قصر قرطبة ، وكان من غرائب المقادير أنه ورجاله
أكلوا من نفس الطعام الذي كان يوسف قد أعدده لنفسه ولأصحابه اذا
فرغوا من المعركة ^(٢) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٩

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٨ .

الأخبار المجموعة ، ص ٨٩-٩٠ .

ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٨-٤٩ .

فتح الأندلس ، ص ٥٥-٥٦ .

DOZY, Mus. d'Esp. I pp. 222-223.

LÉVI-PROVENÇAL, Hist. de l'Esp. Mus. I. p. 73-74.

فلما انتصرت اليمينية وقعوا فيما كانوا يقعون فيه عقب كل نصر حازوه
في تاريخهم : ملكهم الجشع في المغانم وكادوا يضيعون ثمرة النصر بسوء
التصرف وقلة الكياسة ، ذلك أن جماعة منهم غرهم هذا النصر فحسبوا
أنهم يحسنون صنعا اذا اقبلوا على عبد الرحمن وموالي بني أمية
لكي يصبح النصر خالصا لليمن . لأن عبد الرحمن ومواليه كانوا من
مضر أيضا ، وقد دعا الى ذلك رجال من جذام وخاطبوا فيه قضاة ،
فأبت قضاة . واختلف الحيان فلم يفلح التدبير ونجا عبد الرحمن ومواليه ،
وقد علم عبد الرحمن بهذا الأمر اذ أنهاه اليه جذامى يسمى ثعلبة بن عبيد
فاحترس لنفسه وضم مواليه ، واحترس من أبي الصباح الداعى الى
هذا الأمر الخضير ، وأنشأ لنفسه شرطة جعل عليها عبد الرحمن بن ثعيم ،
وهذا أول منصب رسمى ينشأ على عهد هذه الدولة الجديدة ^(١) .

وتسمرت اليمينية بما عرف عنها من الجشع في الغنائم والأسراف
في ذلك ، وأسرع رجالان من طييء فانتها دار الصميل بن حاتم بشقنفة ،
والرجل ينظر اليهما من قمة تل مجاور كان قد هرب اليه على طريق جيان
مشرف على قرية شبلا ، فملا نفسه الألم وتمثل قائلا :

ألا ان مالى عند طيى وديعة ولا بد يوما أن ترد الودائع

وكان فيما انتهباه صندوق فيه عشرة آلاف دينار دراهم ، مما يدلنا
على عظم الثروة التى كان هذا الصميل يحتجتها ويختص بها نفسه .
ولم يستطع عبد الرحمن أن يكف اليمينيين عن النهب الا فى مشقة ،
وقد أبدى من النبل كرما عظيما ، اذ تعفف عن حريم يوسف وضم

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٠ .

الأخبار المجموعة ، ص ٩٠ .

زوجته وابنته الى أهله ، وأهدت اليه زوج يوسف الجارية «حلل» التي ستكون أم ولده وولى عهده هشام . وأقر صاحب صلاة يوسف الفهرى على عمله ، وكان فهريا ، وسيدرك عقبه في ظلال الدولة الأموية نباهة وذكرنا ، وكذلك أقر يحيى بن يزيد قاضى يوسف على عمله .

ولم يرض اليمينيون من عبد الرحمن هذا التعفف أو ذلك الكرم ، ويبدو أنهم لم يكونوا ليحسبوا الا أنه سيكون دائما طوع بناتهم فيصرفون الأمر كما يشاءون ، ففاجأهم عبد الرحمن بعد انتصاره بوضع يده على الأمر كله ، فبدأت نفوسهم تتغير عليه ، ومن ذلك الحين تبدأ مؤامراتهم وثوراتهم عليه ^(١) .

٣١٨ - قيام ثم دخل عبد الرحمن المسجد الجامع وصلى بالناس الدولة الأسوية وخطبهم من منبر قرطبة لأول مرة ، فوعدهم بالعدل الأندلسية والاحسان ، ونستطيع أن نقول ان الدولة الأموية الأندلسية قد قامت فعلا من هذا اليوم ، وبدأ في تاريخ الأندلس عصر جديد ^(٢) ، وكان ذلك يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ ١٤ مايو ٧٥٦

٣١٩ - مصير وحاول يوسف الفهرى والصميل بن حاتم أن يستعيدا يوسف الفهرى ما ضاع من أمرهما على غير طائل : ذهب يوسف الى والصميل بن حاتم طليطلة ليجمع نفرا من أنصاره ، وذهب الصميل الى جيان ليستنفر من فيها من معكدة ، ثم التقيا واستوليا على جيان وطردا الحصين

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٩٠ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٩ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩-٥٠ .

ابن الدجنن عاملها لعبد الرحمن ، ثم مشيا الى البيرة ففر عاملها جابر ابن العلاء بن شهاب ، ووجد عبد الرحمن أن لا مندوحة له عن السير نحوهما ، فلم يكد يغادر قرطبة حتى فاجأها أبو زيد أحد أبناء يوسف الفهرى بنفر من أنصاره أقبلوا معه من ماردة ، فعاد عبد الرحمن اليها ، ووجد أن لا مفر من أن يقيم على حراستها رجلا يثق فيه فعهد في ذلك الى عامر بن على جد بنى فهر الرصافيين ، واستوثق من أمره ثم مضى نحو خصمه . ولم يكد عبد الرحمن يصل بسن معه من الجند الى البيرة حتى أحس الصميل ويوسف أنهما لن يستطيعا له حربا ، فعرضا الصلح على أن يدع لهما عبد الرحمن ما كان لهما من الأموال والأموال ، وأجابهما عبد الرحمن الى ذلك على أن يستودعه يوسف الفهرى ابنه أبا زيد عبد الرحمن وأبا الأسود مجمل ، واتفق يوسف وعبد الرحمن كذلك على تبادل الأسرى : فكان من غرائب التقادير أن عبد الرحمن رد الى يوسف خالد بن زيد كاتبه المولى الأسباني في نظير أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ، وكان عبيد الله هو الذى ضرب وجه خالد وأمر بتكيله يوم تحداه خالد أن يكتب ردا لخطابه على ما رويناه ^(١) .

وعاد عبد الرحمن الى قرطبة وقد دانت له الأندلس جميعها ، عاد وفي ركابه يوسف والصميل ، فمن لطيف ما يحكى أن عبد الرحمن استبان امتياز الصميل . ولا غرابة فالرجل من الأرومة العربية فى أعلى مكان ، قال عبد الرحمن : « لله بلاده . لقد صحبني من البيرة الى قرطبة ما مست ركبتى ركبتى ولا تقدم رأس بغله رأس بغلى ، ولا استقهنى فى حديث ، ولا افتتح حديثا بغير أن أسأله عنه » ، ثم يقول صاحب « الأخبار المجموعة » بعد ذلك : « ولا يذكر — أى عبد الرحمن —

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٩٣-٩٤ .

مثل ذلك عن يوسف ..»^(١) ، وهى ملاحظة لها معناها ، واستقر الرجال على كرامة وتوسعة . وأقبل كثير من الناس يطالبانها بحقوق لهم عندهما من أيام ولايتهما ، فأحالهم عبد الرحمن الى القاضى يحيى ابن يزيد التجيبى ، وكان الناس يحسبون أن القاضى ينتهز هذه الفرصة ليشفى نفسه من هذين الرجلين اللذين ألحقا يقوم اليمينيين شر الأذى ، ولكن القاضى امتلك نفسه ، فلم يقض فى أمرهما الا بالحق ، وغل الرجال على ما أنزلهما عبد الرحمن عليه من الاكرام^(٢)

بيد أن يوسف لم يطمئن الى أمان عبد الرحمن ، وظلت المخاوف تساوره من ناحيته ، فلم يزل يتحين الفرصة حتى فر من قرطبة ، وحاول أن يستميل الصليل والشامية الى جانبه فلم يوفق ، فمضى الى جماعات من البلديين فى لقت وماردة وطيطة ، وما زال بهم حتى أغراهم بالانضمام اليه ، فثاروا بعد الرحمن فى هذه النواحي ، واستبعد عبد الرحمن أن يكون يوسف قد قام بهذا العمل من تلقاء نفسه ، واتهم الصليل بالتدبير عليه ، وعبثا حاول الرجل تبرئة نفسه ، وانتهى أمره بأن ألقى به فى السجن ، وسجن معه ابنى يوسف وكانا عنده رهيتين .

واستطاع يوسف أن يضم جماعات من البلديين ، فسار بهم من لقت الى اشبيلية ، ومن غريب الأمر أن معظم البلديين — بل والشاميين — فى هذه الناحية انضموا اليه ، مما يدل على أن عرب الأندلس كانوا الى ذلك الحين أميل الى الفوضى والاضطراب ، وأبعد عن فهم قيمة

(١) نفس المصدر ، ص ٩٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٩٤-٩٥ .

استقرار الأمور وعودة السلام . جمع يوسف نحو عشرين ألف عربى حاصر بهم عامل اشبيلية لعبد الرحمن ، وكان مروانيا يسمى عمر بن مروان قدم على عبد الرحمن منذ قليل فى صحبة نفر من الأمويين نذكر منهم جترى بن عبد العزيز بن مروان بعد أن استقرت قدم عبد الرحمن فى الأندلس ، ولم يكن لدى عبد الملك الا نفر قليل من القيسيين . وبدا ليوسف أن يعجل بالسير الى قرطبة قبل أن يستطيع عبد الرحمن جمع قواته والسير اليه ، ولكن الحظ لم يساعفه ، إذ أن عبد الرحمن استطاع أن يجمع جمعا عظيما من أنصاره ويسير بهم نحو اشبيلية ، ولم يكد يوسف يتحرك نحو قرطبة حتى جمع عامل مورور لعبد الرحمن — وهو عبد الملك بن عبد الله — من كان عنده من القيسية ثم انضمت اليه جماعة أخرى وسار بهم خلف يوسف وعجلوا يريدون مهاجمة عسكر يوسف من خلف . فتخوف يوسف أن يقع بين الفريقين ، فعاد نحو اشبيلية يريد أن يعجل بالقضاء على عبد الملك ومن معه قبل وصول عبد الرحمن ، واشتبك القتال بين الجيشين وانهمز يوسف هزيمة قاصمة . ومضى يوسف نحو طليطلة ليلجأ الى صديق له يسمى أبا عروة لا يصاحبه غير مولى فارسى يسمى سابقا ووصيف واحد ، فلما صار على عشرة أميال من طليطلة مر بعبد الله بن عمر الأنصارى ، وهو بقرية من قرى طليطلة — « قتل له : هذا يوسف منهزما ! فقال لأصحابه : ويحكم ! اخرج بنا نقتله ونريح الدنيا منه ونريحه من الدنيا ونريح الناس من شره ، فقد صار رجلا ناجشا للحرب ، فخرج حتى لحقه وليس بينه وبين مدينة طليطلة الا أربعة أميال ، وليس معه الا سابق الفارسى مولى لبنى تميم ومن يجهله يقول مولى يوسف ، وبقيته بسرقة ، ووصيف واحد فقط

وقد ماتوا من شدة الرخص ، وليس معهم منعة ولا مدفع ، فقتل عبد الله يوسف الفهرى ، وقتل سابق وهرب الغلام حتى دخل قرطبة » ، وأقبل عبد الله على عبد الرحمن الداخل برأس يوسف فعجل هذا بقتل أبى زيد ابن يوسف وأبقى على أخيه أبى الأسود لصغر سنه ، ولما أقبل الليل بعث الى الصميل من خنقه ليستريح من أمره جملة (١) .

٣٢٠ - نهاية هكذا صفا الجو لعبد الرحمن وصار له أمر الأندلس كله عصر الولاة غير منازع ، وانتهى على يديه العصر الأول من عصر الأندلس الاسلامية وهو عصر الولاة . اختفى من الميدان آخر رجلين كانا يمثلان هذا العصر « الجاهلي » فى تاريخ الأندلس ، اختفيا حاملين معها ثارات العصبية وأوضار القبلية ، وخلقنا الأندلس لتقوم فيه دولة اسلامية واحدة تقيم شأن الأندلس الاسلامى بعد أن كاد ينهار . وكان من حظ الأندلس أن اختفى هذا العصر المضطرب ، ولو استمر لكان فى ذلك بوار أمر الأندلس الاسلامى جملة ، ولو لم تطأ قدم عبد الرحمن أرض هذه البلاد لصار تاريخ الاسلام فيها الى ما سيصير اليه تاريخ الاسلام فى صقلية بعد ذلك بنيف وثلاثة قرون : اختلاف وتفرق وحروب بين المسلمين ، ثم يكتسحهم أعداؤهم وينتهى أمر الاسلام فى الجزيرة .

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٠ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٠٠-١٠١ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٥١-٥٢ .

مَرَاجِعُ الْكِتَابِ

أ - مَرَاجِعُ عَرَبِيَّة

ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي : اخلة السيرة ، طبعة دوزى .

ابن الأثير الجزرى : أسد الغابة فى معرفة الصحابة . القاهرة ١٢٨٠ هـ .
- : الكامل فى التاريخ ، طبعة نورنبيرج ، لايدن ١٨٦٧ - ٧٦ .
وطبعة القاهرة ١٩٤٩ .

ابن حزم القرطبي : جمهرة أنساب العرب ، طبعة ليثى بروكسسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

ابن حوقل ، أبو القاسم محمد البغدادي الموصلى : صورة الأرض ، الطبعة الثانية بإشراف كرامرز ، لايدن ١٩٣٨ .

ابن حيان ، حيان بن خلف : المختصر فى تاريخ رجال الأندلس ، طبعة أنتونيا . باريس ١٩٣٧ .

ابن الخطيب ، لسان الدين : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، طبعة محمد عبد الله عنان . الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦ .

- : أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يجز ذلك من شجون الكلام ، نشره ليثى بروكسسال ، الرباط ١٩٣٤ ، ثم أعاد طبعه فى بيروت ونشره بعنوان « تاريخ اسبانيا الإسلامية » سنة ١٩٥٦ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة ، طبعة لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٨ . وترجمة فرنسية بقلم البارون دى سلان ، باريس ١٨٦٨ .

- : كتاب العبر ، بولاق ١٢٨٤/١٨٦٧ (٧ أجزاء) .

— : أخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجباهم ، وما كان بديار المغرب خاصة من الملوك والدول ، وهو الكتاب الثالث من « العبر وديوان المبتدا والخبر » وقد نشره دى سنان وطبعة في الجزائر ١٨٥١/١٢٦٧ بعنوان « تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب » ، ثم ترجمه إلى الفرنسية ونشر الترجمة باسم « تاريخ البربر » سنة ١٨٦٠ ، وأعيد نشره حديثاً بإشراف المستشرق كازانوفا في باريس سنتي ١٩٣٨ — ١٩٤٠ .

ابن عبد الحكيم ، عبد الرحمن : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة شارل توري ، مطبعة جامعة بيل ١٩٢٢ .

ابن عندارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، طبعة دوزي الجزءان ١ و ٢ ، لايدن ١٨٤٨ — ١٨٥١ ، والجزء الثالث نشره ليثي بروفنسال في باريس سنة ١٩٣٠ . ثم أعاد بروفنسال وكولان نشر الجزئين الأول والثاني في لايدن سنة ١٩٥١ — ١٩٥٢ .

ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٩٠ — ١٨٩٢ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، القاهرة ١٩٠٤ .

ابن القوطية ، أبو بكر : تاريخ افتتاح الأندلس ، أعاده للنشر جايانجوس ونشره خيليان ريبيرا ١٩٢٦ .

أبو زكريا : تاريخ أبي زكريا ، ترجمه وعلق عليه Emile Masqueray الجزائر ١٨٧٨ .

أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، صدر منه ١١ جزءاً ابتداء من سنة ١٩٢٨ .

أبو يوسف : كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٥٢ .

أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس : نشره وترجمه وعلق عليه لافونتي إي ألكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .

الإدريسى ، الشريف : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . نشر الجزء الخاص بالأندلس والمغرب دوزي ودى خويه في لايدن تحت عنوان Description de l'Afrique et de l'Espagne

الاصطخرى ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي : مسالك الممالك ، طبعة دى خويه لايدن ١٨٦٦ — ١٨٧٠ ثم أعيد طبعه سنة ١٩٢٧ .

البغدادى ، عبد القادر بن طاهر : الفرق بين الفرق ، القاهرة ١٩١٠ .

البكرى ، أبو عبيد الله بن عبد العزيز : صفة إفريقية ، مستخرجة من كتاب المسالك والممالك ، نشرها البارون دى سنان في الجزائر ١٩١٠ ، ثم ترجمها إلى الفرنسية ونشرها في الجزائر ١٩١٣ .

البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان . القاهرة ١٣١٨ . جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام . القاهرة (طبعة ١٩٥٧ ، راجعها وعلق عليها حسين مؤنس) .

الحميرى ، ابن عبد المنعم : الروض المعطار في خبر الأقطار . نشره مع ترجمة فرنسية وتعليقات ليثي بروفنسال في لايدن ١٩٣٦ .

الحشنى ، محمد بن الحارث بن أسد : تاريخ قضاة قرطبة ، نشر مع ترجمة إسبانية لريبيرا ، مدريد ١٩١٤ .

الخوارزمى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب : كتاب مفاتيح العلوم ، لايدن ١٨٩٥ والقاهرة ١٣٤٤ .

الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى : معالم الإيمان (٤ أجزاء) تونس ١٩٠٢/١٣٢٠ .

الدينورى ، أبو حنيفة : الأخبار الطوال ، القاهرة ١٣٣٠/١٩١١ .

السلامى ، أحمد بن خالد الناصرى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢ .

السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، القاهرة ١٣٥١ .

الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل ، طبعة و . كيورتون ، لندن ١٨٤٢ ، والقاهرة ١٣١٧ .

الضبي : بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، طبعة ريبيرا ، مدريد ١٨٨٤ - ١٨٨٥ .

الطبرى . أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٨٨١ وما بعدها . وطبعة القاهرة ١٩٣٩ .

العذرى ، أحمد بن عمر بن أنس : نظام المرجان في المسالك والممالك والبلدان (مخطوط يعده للنشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى) .

عنان ، محمد عبد الله : دولة الإسلام في الأندلس - العصر الأول ، القاهرة ١٩٤٣ .

الغصانى ، محمد بن عبد الوهاب : رحلة الوزير في فتكاك الأسير ، طبعة الفريد البستانى . العرائش ١٩٤٠ .

قدامة بن جعفر ، أبو الفرج : كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، لايدن ١٨٨٩ .

القرشى ، يحيى بن آدم : كتاب الخراج ، بتحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٤٧ .

الكتانى ، عبد الحى : فهرس الفهارس ، فاس ١٣٤٦ .

المالكي ، أبو بكر : رياض النفوس (الجزء الأول) نشر وتحقيق

حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ .

المراكشى ، عبد الواحد : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، طبعة دوزى ، لايدن ١٨٨١ ؛ وطبعة محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٨ .

المسعودى : مروج الذهب . طبعة باربييه دى مينار وباقيه دى كورتى ، باريس ١٨٦١ - ١٨٧٦ .

المقدسى ، شمس الدين : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٩٠٦ .

المقرئ . أبو العباس أحمد : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب . طبعة دوزى ودوجا وكريل ورايت ، لايدن ١٨٥٥ - ٦١ . وطبعة الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

— : تاريخ الدول الإسلامية في إسبانيا . ترجمة إنجليزية جزئية لنفع الطيب مع تعليقات بقلم ب . دجايانجوس . لندن ١٨٤٠ - ١٨٤٣ .

المقرئ . تقي الدين أحمد بن على : البيان والإسراب عما برز مصر من الأعراب . طبعة فستفيلد تحت عنوان : Abhandlung ueber die in Aegypten eingewanderten Arabische Staemme Goettingen, 1847 .

— : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . طبعة القاهرة ١٩٠٦ - ١٩٠٨ .

مؤنس ، حسين : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

النباهى . أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن : تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره ليلى بروفانسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب ، طبعة دار الكتب المصرية . وطبعة جسار ريمبرو (الجزء ٢٢ و ٢٣ الخاصان بالمغرب والأندلس) . مدريد ١٩١٧ .

ياقوت . شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى : معجم البلدان ، طبعة السامى ، القاهرة ١٩٠٦ .

اليقوتى : كتاب البلدان . طبعة دى خويه ، لايدن ١٨٩٢ .

De Lagoy, M. *Description de quelques médailles inédites de Massilia.* Aix, 1834.

Dozy, Reinhardt Peter-Anne. *Etudes sur la conquête de l'Espagne par les Arabes*, dans *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge.* Lyde, 1881.

— *Histoire des Musulmans d'Espagne* (2 e. édition révisée par **Lévi-Provençal**) Leyde, 1932.

— *Script. Ar. Loc. de Abbab.* Lyde, 1846-1863.

Dubler, César E. *Sobre la Cronica Arabigo-Bizantina de 741 y la Influencia Bizantina en la Peninsula Iberica* (Al-Andalus, Vol. XI fasc. 2, Madrid-Granada, 1956).

— *Ueber Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel*, in *Festschrift J. Jud.* Zurich, 1943.

Elias Teres. *Linajes Arabes en Al-Andalus*, según la "Jamhara" de **Ibn Hasam**, Al-Andalus, Vol. XXII fasc. 1-2.

Fernández y Gonzalez, Francisco. *Estado social y político de los Mudejares de Castilla.* Madrid, 1866.

Floresta de leyendas heroicas espanolas. Rodrigo, el último godo. Compil. por **Ramon Menéndez Pidal.** Madril, 1925.

Fournel, Henri. *Les Berbères, étude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes*, 2 Vols. Paris, 1875.

Gautier, E.F. *Le passé de l'Afrique du Nord.* Paris, 1937.

Gayangos, Pascual. *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain*, 2 Vols. London, 1840-1843.

— *Memoria sobre la Autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis*; *Memorias de la Real Academia de la Historia.* Madrid, 1852.

Guerra, A. Fernandez. *Caida y Ruina del Imperio Visigótico-espanol.* Madrid, 1883.

Herculano, Alejandro. *Historia de Portugal.* Lisboa, 1863.

Huici Miranda, Ambrosio. *Las Crónicas Latinas de la Reconquista.* Valencia, 1913. 2 Vols :

ب - مراجع غير عربية

Aguado Bleye, Pedro. *Manual de Historia de Espana*, 2 vols. Madrid, 1947-1950.

Asin Palacios, Miguel. *Abenmasarra y su escuela, origines de la filosofia hispano musulmana.* Madrid, 1914.

Baer, Fritz. *Die Juden in christlichen Spanien*, VI. Teil, Urkunden und Regesten. Berlin, 1928.

Ballesteros, Antonio y Beretta. *Historia de Espana y su influencia en la historia universal.* Madrid, 1943.

Ballesteros, Rafael. *Histoire d'Espagne des origines à nos jours.* Paris, 1938.

Barrau-Dihigo, L. *Recherches sur l'histoire politique du Royaume Asturien*, dans *Revue Hispanique* LII, 1921.

Becker, C.H. *Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam*, 2 Hefte.

— *Die Entstehung von Ussr und kharagland in Aegypten in Zeitschrift der Assyriologie*, XVIII (1904-1905).

— *Papyri Schott Reinhardt*, I. Heidelberg, 1906.

Bolufer, José Alemany. *La geografia de la Peninsula Iberica en los escritores árabes*, (Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino) tomo IX, 1919.

Cirot, G. *Etudes sur l'historiographie espagnole.* Bordeaux, 1904.

Codera, F. *Estudios criticos de historia árabe espanola.* Madrid, 1917.

Condé, José Antonio. *Historia de los Arabes en Espana.* Madrid, 1820.

Condeminas, Francisco y Luis Visintin. *Atlas Histórico de Espana.*

Cronica Mozárabe de 754. (Atribucda a Isidoro Pacence por el P. Florez. Publicada por Mommsen bajo el titulo de *Continuatio Hispana en 1885*).

Llanos, Estansilao Rendueles. *Historia de la villa de Gijón desde tiempos mas remotos hasta nuestros días.* Gijón, 1867.

Lot, Ferdinand. *La fin du monde antique et le début du moyen-âge.* Paris, 1927.

Lucas de Tuy. *Cronicon Mundi*, Vol. IV de Hisp. Ilustrada dirigida por Mariane. pp. 1-116.

Masdeu, J.F. *Historia Crítica de España.* Madrid, 1805.

Menéndez Pidal, Ramón. *Historia de España.* Madrid, 1940.

— *La España del Cid.* Madrid, 1929.

— *Orígenes del Español.* Madrid, 1950.

Menéndez y Pelayo, Marcelino. *Historia de los Heterodoxos Españoles.* Madrid, 1946.

Miguel de la Luna. *Historia Verdadera del Rey Rodrigo.*

Mommsen, Theodora. *Auctorum Antiquissimorum*, tomus XI, *Cronica Minora* (Seec IV, V, VI, VII). Berolini, 1893.

Moncaut, Cenat. *Histoire des peuples et des Etats pérenniens* (3e. éd. 1873).

Monés, Hussain. *Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue.* Le Caire, 1947.

Neuman, Abraham A. *The Jewsin Spain* (Philadelphia. The Jewish Publication Society of America) 2 volumes, 1948.

Perles, J. *Rabbi Saloma ibn Abraham ibn Aderth.* Breslau, 1863.

Primera Cronica General de España (ed. Menéndez Pidal). Madrid, 1906.

Ribera, Julian y Tarrago. *Disertaciones y Opusculos.* Madrid, 1928.

Rodericos Toletanus (Jiménez de Rada, Rodrigo, arzobispo de Toledo). *Rerum in Hispania gestarum chronicon* en Hisp. Illustr. II. pp. 25-194.

Saavedra, Eduardo. *Estudio sobre la invasión de los Arabes en España.* Madrid, 1882.

Vol. I, *Cronicones burgense, complutense, compostulano, del cerratense, de Don Juan Manuel, albeldense, de Sebastian, de Sampiro, de Pelayo y de Cardena, y Anales complutenses, compostelanos y toledanos,*

Vol. II, *Cronicon del Silense y Cronicon de Alfonso el Emperador.*

Irving, Washington. *Legends of the Conquest of Spain.*

Isidoro de las Cagigas. *Los Mozárabes.* Madrid, 1947-1949.

— *Los Mudejares*, 2 Vols. Madrid, 1948.

Isidoro Hispalense (San Isidoro Arzobispo de Sevilla). *Divi Isidori ... Historia de Regibus ... Suevorum.* Esp. Sagr. III, IV.

Isidoro Pacence. *Vease Crónica.*

وقد رجعنا إلى القطعة التي نشرها لأنورثي الكاترا ذيل على ترجمته الاسبانية للأخبار المجموعة.

Jacob. *Sources of Spanish-Jewish History.* New-York, 1894.

Lafuente y Alcántara. *Ajbar Machmua.* Madrid, 1867.

— *Cronologia de los gobernadores de España.* Apéndice III de *Ajbar Machmua.*

Lafuente y Zamalloa, Modesto. *Historia general de España desde los tiempos primitivos hasta nuestros días.* 30 Vols. Madrid, 1850-1867.

Lammens, H. *Etude sur le règne du calife umayyade Mu'awiyah 1er.* Beyrouth, 1908.

— *Le Califat de Yazid 1er.* Beyrouth, 1921.

— *Etudes sur le siècle des Umayyades.* Beyrouth, 1930.

Legendre, Maurice. *Nouvelle histoire d'Espagne.* Paris, 1938.

Lembke. *Geschichte von Spanien.* Gotha, 1833.

Lévi-Provençal, E. *Histoire de l'Espagne Musulmane.* Paris, 1951.

— *L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle.* Paris, 1932.

— *La Péninsule Ibérique.* Leyde, 1938.

— *Islam d'occident* (Etudes d'histoire médiévale). Paris, 1948.

كشاف

٣٨٦٠٣٦٤٠٣٦٣٠٣٦١٠٣٦٠٠٣٥٩
 ٠٥٩٧٠٥٩٦٠٥١٦٠٥١٣٠٥١١٠٤٠٠
 ٦٧٨٠٦٥٠٠٦١٤٠٦٠٩٠٦٠٨
 أبو زرعة طريف بن ملوك : ٦٨٠٦٧٠٦٦
 ٦٠٤٠٣٩٠٠١٤٧٠٧٢
 أبو ريد بن يوسف الفهري : ٦٩٠٠٦٧٥
 أبو سلمة الخلال : ٦٥٨
 أبو عاصم بن محمد الأخر بن طريف : ٥٠٨
 أبو العباس عبد الله بن محمد : ٦٥٩٠٦٥٨
 أبو عثمان عبيد الله بن عثمان : ٤٠٣٠٢٣٧
 ٦٧٤٠٦٧٢٠٦٧٠٠٦٦٨٠٦٦٦٠٥٨٨
 ٦٨٧٠٦٨٣٠٦٨٢٠٦٧٩٠٦٧٧
 أبو القاسم سمكو : ١٨٧٠١٨٦
 أبو قائم الخليل : ١١٥
 أبو قرة المغيرة : ١٩٢٠١٧٧٠١٧٦
 أبو كريب جميل بن كريب : ١٨٣
 أبو المهاجر دينار : ٤١٠٤٠٠٣٧
 أبو يوسف القاضي : ٦٥٣
 أبو يوسف الخوارى : ١٧٦٠١٧٥
 أبو روق : ٢٠٦
 أبيط : ٥٢٠٠٥١٦٠١٠٥
 أجدة : ٢٩٣٠٢٨٩٠٢٨٣
 أجيلونا : انظر أيلونا
 أحمد بن فرج بن منبيل : ٦٤٣٠٦٤٢٠٦٤٠
 ٦٤٦٠٦٤٤
 أحمد بن محمد بن عبد الحميد : ٥٣٠
 أخيل (وقله) : ٦٥٠٠١٦٠١٥٠١٤٠١٣
 ١٠٠٠٨٤٠٧٦

١٠

آل : ٢٧٨٠٢٦٥٥٥
 آسيا الصغرى : ٢٩٣٠١٢٢
 الأمان : ٢٦٨٠٣٠٢
 الأباضية : ١٨٥٠١٨٢٠١٤٩٠١٤٨
 ٢٩١٠١٨٩
 ألفة : ٥٤٣٠٥٤٢
 إبراهيم بن الأغلب : ١٨٦
 إبراهيم بن حرب : ٦٤٨
 إبراهيم بن شجرة : ٦٨٣٠٣٨٠
 الأبره ، نهر : ٢٤٣٠٢٠٧٠٠٤٠١٠٢
 ٢٨٥٠٣٨١٠٣٧١٠٣٧٠٠٣٥٠٠٣٤٩
 ٥٨٤٠٥٦٧
 أبله : ٥١٩٠٥١٧٠٣٨٢٠٣٤٩
 أبنون : ٢٩٤٠٢٨١٠٢٧٨٠٢٤٢
 أبه : ٣٢٣٠٣٢٢٠١٠٠٠٧٣٠١٩٠١٥
 أبو الأسود بن يوسف الفهري : ٦٩٠
 أبو بكر بن طفيل : ٦٧٤
 أبو بكر بن هلال العبدي : ٦٧٧
 أبو جعفر أحمد بن محمد بن مغيث : ٤٢٢
 أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي : ٦٢٦
 أبو جعفر المنصور : ٢٣٦٠١٨١
 أبو الحزم بن جهور : ٤٠٩
 أبو حنيفة : ٦٥٣
 أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي : ٢٠٥
 ٢٢٦٠٢٢٤٠٢٢٣٠٢٢٢٠٢٢١-٢١٩
 ٣٢٦٠٣٢٥٠٢٣١٠٢٣٠٠٢٢٩٠٢٢٨
 ٣٤٨٠٣٣٥٠٢٣٣٠٢٣١٠٢٣٠٠٢٢٨

— Pelayo, Conferencia histórica. Madrid, 1906.

Saint-Saud, Le Conte. Monographie des Picos de Europa, Etudes et Voyages. Paris, 1923.

Sala, Julio Samozá García. Gijón en la historia general de Asturias.

Sánchez-Albornoz. Fuentes de la historia hispano-musulmana del siglo VIII. Mendoza, 1942.

Schacht, Joseph. The Origins of Muhammedan Jurisprudence. Oxford, 1953.

Schevenkow, Rudolf. Kritische Betrachtungen ueber die latein-geschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber, 1894.

Simonet, Francisco Javier. Historia de los Mozárabes de España. Madrid, 1897-1903.

Thomas, W. Arnold. The Preaching of Islam. London, 1935.

Viardot, Louis. Histoire des Arabes et des Mores d'Espagne. Paris, 1833.

Von Kremer, Alfred. Einnahmebudget des Abbassiden Reiches.

Weil, G. Geschichte der Islamischen Voelker. Stuttgart, 1866.

Wellhausen, Julius. Das Arabische Reich und Sein Sturtz.

ترجمه إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة بعنوان « تاريخ الدولة العربية إلى نهاية العصر الأموي » ونشر في القاهرة سنة ١٩٥٨ .

Wuestenfeld. Die Statthalter von Aegypten zur Zeit der Chalifen. Goettingen, 1875.

Yver, George. Euric, roi des Visigoths, dans Etudes d'histoire du moyen-âge dédiées à Gabriel Monod. Paris, 1896.

أذفونش الأول ابن بطره (ألفونسو الأول) :
 ٣٤٣٠٣٩٩٠٣٢٧٠٣٢٠٣١٠٠٢٠٦
 ٣٥٢٠٣٥١٠٣٥٠٣٤٨٠٣٤٧٠٣٤٥
 ٥١٨٠٥١٧
 أربونة : ٢٢٢٠٢١٧٠٢١٥٠١٩٦٠١٥٤
 ٢٧٠٠٢٦١٠٢٦٠٢٢٩٠٢٤٤٠٢٤٢
 ٢٨٤-٢٨٣٠٢٨٢٠٢٧٩٠٢٧٨٠٢٧٥
 ٣٠٢٠٢٩٩٠٢٩٨٠٢٩٣٠٢٩٢-٢٨٩
 ٦٤٦٠٥٧٠٠٥٢٢٠٢٩٣٠٣٥٧
 الأردن : ٦٧٨٠٥٩٨٠٥٥٥٠٣٦٠٢٢٢٠٢٧٩
 أرض : ٦٧٩٠٦٧٨٠٥٤٣
 أوطاس بن غبطة (أوطيان ، أوردست ،
 أوطافازدس) : ٢٢٢٠٢١٠٠٨٤٠١٥
 ٥٠٣٠٤٥٩٠٤٤٠٣٩٨٠٣٥٩٠٣١٩
 ٦٣٤٠٥٩٧٠٥١٦٠٥١٣٠٥١٢
 أرغون : ٥١٩٠٢٩٥٠٢٧٦
 استجة : ٣٧٣٠٢٢٦٠١١٢٠٩٢٠٨٤٠٧٦
 ٥٧١٠٥٥٦٠٥٤٣٠٥٤٢٠٣٨٨٠٣٧٥
 ٦٢٤٠٥٩٠٥٧٢
 الاسترامادورا : انظر الجوف
 استرقة : ١٩٦٠١٠٦٠١٠٥٠١٠٤٠٧٩
 ٣٢٥٠٢٠٦٠٢٠٥٠٢٠٣٠١٩٨٠١٩٧
 ٥٤٠٠٤٣٩٠٣٤٨٠٣٣٥٠٣٢٦٠٣٢٥
 ٥٤٢
 الاسكندرية : ٤٧٦٠٤٦٧
 أسلم بن عبد العزيز بن هاشم : ٤٠٥
 إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد : ٤٠٥
 إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب : ١٣٦
 ١٦٨٠١٦٧٠١٦٦٠١٦٢٠١٥٧٠١٤٢
 إسماعيل بن القاسم بن عبلون : ٤٠٥
 أشبونة : ٤٥٣٠٣٦٧٠١١٨

أشبيلية (هسباليس ، سبيليا) : ٨٤٠١٩٠٤٠
 ٤١٠٦٠١٠٠٠٩٧٠٩٦٠٩٥٠٩٢٠٩٠
 ٤١٣٧٠١٣٤٠١٣٣٠١٣٠٠١٢٦٠٢١١
 ٤٣٧١٠٣٦٣٠٣٦٢٠٣٥٥٠٢٢٩٠٢٢٢
 ٤٤٢٨٠٤٢٢٠٤٠٧٠٣٧٦٠٣٧٥٠٣٧٢
 ٤٤٨٨٠٤٧٩٠٤٧١٠٤٤٠٠٤٣٤٠٤٢٩
 ٤٥٦٩٠٥٤٥٠٥٤٣٠٥٤٢٠٥١٧٠٥٠٤
 ٤٥٨٩٠٥٨٧٠٥٧٧٠٥٧٤٠٥٧٢٠٥٧٠
 ٦٥٢٠٦٣٣٠٦٠٤٤٠٥٩٤٠٥٩٢٠٥٩٠
 ٦٨٩٠٦٨٠
 أشتريس (أشتورياس) : ١٣٣٠١٠٦٠٨٠٣
 ٤١٢٠٣١٠٠٢٨٠٠٢٠٦٠١٩٨٠١٥٤
 ٤٣٢٦٠٣٢٣٠٣٢٢٠٣٢٠٣١٨٠٣١٥
 ٤٣٣٥٠٣٣٤٠٣٣٢٠٣٢٨٠٣٢٧٠٣٢٦
 ٤٣٥٠٣٤٨٠٣٤٥٠٣٤٣٠٣٤١٠٣٣٦
 ٤٢٩٥٠٤٨٥٠٤٧٣٠٣٩٠٠٣٥٢٠٣٥١
 ٥٥٤٥٠٥٣٨٠٥٣٧٠٥١١
 الأشراف ، موقعة : ١٧٦-١٦٨
 ٣٩٧٠٣٥٦٠٢٧٢٠٢٠٠٠١٩١٠١٧٩
 أشونة : ٥٤٣٠٣٨٩
 الأصنام ، موقعة : ١٧٩
 أسيلا : ٢٨١٠٣٤٨٠٢٣٤٠٢٠٥
 أطاولف : ٤٠٣
 الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي :
 ١٨٤٠١٨١
 أفرغة : ٤٨٨٠٣٤٩٠٢٠٦
 أقطانية (أكويتين) : ٢٥٠٠٢٤٩٠٢٤٥
 ٢٢٧٩٠٢٦٧٠٢٦٥٠٢٦٤٠٢٥٨٠٢٥٣
 ٣١٥٠٢٩٩٠٢٩٤٠٢٨٨
 أقوه برطورة ، موقعة : ٢١٧-٢١٩
 ٣٥٨٠٢١٩٠٢١٧
 أكشونة : ٤٥٤٣٠٣٦٠٢٢٢٠٩٦٠٩٢
 ٥٩٤

الأوراس-جبال : ٤٤٠٤٣٠٤١٠٤٠٠٤١٤
 أوربة ، قبيلة : ٤١٤٤٠
 أوريط : ٥٥٦٠٥٤٣٠٥٤١
 أوريولة : ٤٧٩٠١١٥٠١١٢٠٨٤٠٧٧
 ٥٤٣٠٥١٢
 الأوزاعي : ٤٥٥
 أوزة : ٢٤٧
 الأوس : ٣٧٥٠٣٧٠
 أوسيه ، حين : ٣٣٥٠٣٢٥٠٣٢٢
 أوستراسيا : ٢٨٨٠٢٨١
 أوسيا : ٣٤٩٠٢٠٦
 أوكا : ٥١٧٠٣٤٩٠٢٠٧
 أوسطس ، القديس : ٣٠٠٢٩٠٢٨
 أوليه : ٣٧٥٠٣٧٣٠٣٧١
 أوياد بن قزاق ، قبيلة : ١٣٤
 الإيبيريون الرومان : ٣١٢٠٣٠٩٠٨٠٠٢٩
 ٣٥٢٠٣٤٧٠٣٤٦٠٣٣٤٠٣١٤٠٣١٣
 ٤٧٩٠٤٦٢٠٤٢٠
 أيطاليا : ٢٨١٠٢٤٩٠٤٥٠٤٠٣٠٢٢
 ٥٠٧٠٢٩٥
 أيلونا (أيله : أجيلونا ، أم عاصم) : ١٣٠
 ١٣٣
 أيوب بن حبيب اللخمي : ١٣٣٠١٣٢
 ٦٠٦٠٦٠٤٠٥٠٤٠٣٧٨٠٢٤٤٠١٣٥
 ٦١٢
« ب »
 باجة : ٣٦٠٠٢٢٢٠١٨٢٠٩٦٠٩٥٠٩٢
 ٥٢٠٠٥١٧٠٤٧٩٠٣٧٥٠٣٧٣٠٣٧١
 ٥٩١٠٥٧٧٠٥٧٤٠٥٧٢٠٥٧١٠٥٤٣
 ٦٦٢٠٥٩٨
 باولوس أوروذويس ، القس : ٢٥٠١١
 ٢١٣٠٠
 الأريك : ٢٤٠١٠٠٢
 البيرة : ٣٧٥٠٣٧٢٠٣٦٠٠٢٣٧٠٢٢٢
 ٥٥٧٧٠٥٥٦٠٥٤٣٠٥٤٢٠٥٢١٠٣٨٧
 ٦٧٢٠٦٧٠٠٦٦٧٠٦٦٥٠٥٩٨٠٥٩١
 ٦٨٧
 ألفونسو الأول : نظر أذفونش الأول ابن بطره
 ألفونسو السابع : ٤٢٦
 ألفونسو العاشر معروف بالعالم : ٣١٩
 ٣٣٣٠٣٣١
 ألمانيا : ٥٢٧٠٥٢٦٠٥٠٧
 المرية : ٥٩٣٠٥٩٩٠٣٧١
 ألمند بن غبطة : ٤٢٢٠١٠٠٠٨٤٠١٥
 ألباس بن حبيب : ١٨٢٠١٨١
 البساقة : ٥٢١٠١٣٤
 الألبية : ٢٦٥
 أم عاصم : انظر أيلونا
 أمايا : ٥٤٢٠٥٤١٠٣٠٨٤٠١٠٤٠٧٩
 الأمويون (بنو أمية ، الدولة الأموية) : ٤٦
 ٤١٣٦٠١٣٥٠١٣٢٠١٢٥٠١٢٢٠٤٧
 ٤١٦٠٤١٥٨٠١٥٠٠٤١٤٨٠١٤٥٠١٤٢
 ٤٢١١٠٢٠١٠١٨١٠١٨٠٠١٦٥٠١٦٤
 ٤٣٦٥٠٣٥٥٠٤٨٦٠٤٤٨٠٣٩٦٠٢٣٧
 ٤٠٨٠٤٠٣٠٤٠٠٠٣٩٨٠٣٨٣٠٣٦٩
 ٦٩٠٠٦٥٨٠٦٣٣٠٥٧١٠٤١٠
 أمية بن عبد الملك بن قطن : ٢٢٠٠٢١٥
 ٣٩٩٠٣٩٣٠٣٥٧٠٢٨٧
 أمية بن يزيد : ٤٠٠
 الأنبار : ٥٧٩
 الإنجيل : ٢٩٠٢٨
 الأنصار : ٣٦٩
 أودو ، دوق أقطانية : ٢٥٠-٢٥٣
 ٣١٧٠٣١٥٠٢٩٥٠٢٨٨٠٢٧٧٠٢٦٧

- تلمير (مربية) : ٢٤٣٠٢٢٢٠٢١٤٠١٢٦ : ٢٦٨٠١١٠
٥٠١٣٠٤٧٩٠٣٧٥٠٣٧١٠٣٦٠
٥٩٨٠٥٩١٠٥٨٩٠٥٧٤٠٥٧٤٠٥٥٦
تراجونا : انظر طركونه
تطيلة : ٥٤٢٠٥٤٠٠٣٥٠٠٣٠٨٠٢٠٧ : ٥٧٩٠٥٧٦٠٥٧٤٠٥٦٧
تلمسان : ١٩١٠١٨٦٠١٦٨٠١٦٧٠٤٠ : ١٩٢
تمام بن علقمة : ٦٧٧٠٦٧٣٠٦٧٢٠٤٠٠ : ٩٩
تماس : ٩٩
تميم ، قبيلة : ٣٢٩
تودة : ٣٣٣
تور : ٢٩٤٠٢٧٠٠٢٦٦ : ١٨٥
تورنه : ١٨٥
تولوز : انظر طولوشه
تونس : ١٩١٠١٨٢٠٤٥٠٤٤٠٤٠٠٣٩ : ٦٦٢٠٦٤٠٥٩٣٠٣٨١٠١٩٢
تهودة : ٢٧٢٠٤٩٠٤١ : ٩٨
التيتار ، نهر : ٩٨
تيود فريلو ، دوق قرطبة : ١٩٠١٤
« ث »
ثابت الصنهاجي : ٦٦٢٠١٨٢
ثعلبة بن سلامة العامل : ٢٢١ : ٢١٩٠٢١٨ : ٦١٤٠٦٠٨٠٣٨٦٠٣٦٠٣٥٨٠٣٥٧
ثعلبة بن عبيد الجذامي : ٦٨٥٠٥٠٤٠٤٢٢ : ٣٨١٠١٠٤
ثوبان بن سلامة العامل : ٢٣٨-٢٢٦٠٢٠٥ : ٣٤٨٠٣٣٣٠٣٢٠
« ج »
جابر بن الغلاء بن شهاب : ٦٨٧٠٦٧٧
جاوديوسا : ٣٤٢٠٣١٨
- جبل طارق : ٤٩١٠٨٩٠٨٤٠٧٠٠٦٩ : ٢٦٨٠١١٠
جذام ، قبيلة : ٢٣٣٠٢٣٨٠٢٢٧٠٢٢٦ : ٣٦٢
الجرمان : ٤٥٩٠٤٥٧٠٣٠٤٠٢٩٠٠٢٨٥ : ٥٥٢٠٥٢٧٠٥٢١
جرندة : ٥٤٢
جريتوبل : ٢٩٢
جزى بن عبد العزيز بن مروان : ٦٨٩
الجزيرة الخضراء : ٨٩٠٨٥٠٨٤٠٧٦٠٦٩ : ٢٠٢٠٢٠١٠١٩٩٠١٢٦٠٩٤٠٩٢٠٩١
٢٣٧٠٣٧٣٠٣٧١٠٣٥٥٠٢١٦٠٢١٤ : ٦٠٤٠٥٩١٠٥٧٤٠٥٤٣٠٣٧٦
جزيرة طريف : ٧١٠٦٧
جسنتيان ، الإمبراطور : ٨
چكر ، نهر : انظر شقر
جلق ، نهر : ٥٩١٠٣٧١
جلولاء : ٣٩
جليقية : ١٠٦٠٩٣٠٢٦٠١٩٠٤٨٠٧٠٣ : ٢٠٨٠٢٠٦٠٢٠٥٠٢٠٣٠١٩٨٠١٩٧
٣٣٠٠٣١٥٠٣١٣٠٣٠٩٠٣٠٨٠٢٤٣ : ٣٣١٠٣٣٠٠٣٢٧٠٣٢٦٠٣٢٥٠٣٢٤
٠٣٤٦٠٣٤٥٠٣٤٣٠٣٣٩٠٣٣٤٠٣٣٣ : ٣٩٠٠٣٨٥٠٣٨٢٠٣٥٠٠٣٤٨-٣٤٧
٥٥٦٩٠٥٥٥٠٥٤٠٠٥٣٨٠٥٣٧٠٥٢٠ : ٥٧٠
جوادا لبي : انظر بكة
جوش بن الصميل : ٦٨٤٠٦٨٣
الجوف (استرامادورا) : ١١٨٠٩٧٠٩٦٠٨ : ٥٦٩٠٣٢٠
جيان : ٣٨٠٠٣٧٥٠٣٧٣٠٣٦٠٠٢٢٢ : ٥٦٦٠٥٥٦٠٥٤٣٠٥٤٢٠٤٢٠٠٣٨٧

- الحقة ، نهر : ٣٧١
حمر ، قبيلة : ٣٦٤٠٢٣٠
حنش بن عبد الله الصنعاني : ١١١٠١٠٣
حنظلة بن صفوان : ١٧٧٠١٧٦٠١٥٩ : ٣٥٩٠٢٢٠٠٢١٩٠١٨٠٠١٧٩٠١٧٨
٦٦٢٠٦٥٠٠٦٠٩٠٦٠٨ : ٥٠٤٠٤٢٢
حيوة بن ملامس المدحجي : ٥٠٤٠٤٢٢
« ح »
خالد بن حبيب الفهري : ١٦٧٠١٦٦
خالد بن حميد الزناتي : ١٧٠٠١٦٧٠١٦٦ : ٣٩٠٠١٧٤٠١٧٢
خالد بن ربيعة : ٦٦٣
خالد بن عبد الله القشيري : ١٤٣
خالد بن يزيد : ٦٨٧٠٦٧٨٠٢٣١ : ٦٨٣
خالد سودي : ٦٨٣
خراسان : ١٨١٠١٧٤٠١٤٤٠١٤٣٠١٢٨ : ٥٧٩٠٥٥٩٠٥٥٨٠٢١٢
الخزرج : ٣٧٥٠٣٧٠٠٣٦٩ : ٢٧١
الخنق ، موقعة : ٢٧١
الحوارج : ١٨٤٠١٨٢٠١٥٠٠١٤٩٠١٤٨ : ١٩١٠١٩٠٠١٨٩٠١٨٨٠١٨٧٠١٨٥
٦٦٢٠٦٦١٠١٩٢ : ١٣٤
خولان ، قبيلة : ١٣٤
خيبر : ٦٦٢٠٦٢٥
خيخون : ٣٣٣٠٣١٩٠٣٠٨ : ١٠٦٠١٠٥ : ٣٣٤
« د »
دانس بن صويجة : ٢٨٠
دانية : ٥٤٣
داهية بنت ماتي بن تيفان : ٤٣
داود بن جعفر : ٦٥٤
- ٥٩٨٠٥٩٢٠٥٩١٠٥٧٧٠٥٧٤٠٥٧١ : ٦٨٦٠٦٨٥٠٦٧٠٠٦٦٧٠٦٦٥٠٦٣٤
« ح »
الحباب بن رواحة : ٦٧٦٠٦٧٤
حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري : ١٦٥٠١٣٢٠١٣١٠١٣٠٠١٢٩٠١١٥ : ١٧٩٠١٧٥٠١٧٣٠١٧٢٠١٧٠٠١٦٦ : ٤٢١
حبيب بن عبد الرحمن : ١٨٣٠١٨١
حبيب بن عبد الملك القرشي : ٦٨٣
حبيب بن ميمون : ١٧٢٠١٧٠
الحجاز : ٦٥٣٠١٢٨
الحجاج بن يوسف الثقفي : ١٤٥٠١٤٢ : ١٥٩
حذيفة بن الأحوص القيسي : ٦٠٧٠١٥٣ : ٦١٣
الحر بن عبد الرحمن بن يوسف : ١٦٠٠١٣٥ : ٣٥٦٠٣٥٥٠٣٣٣٠٣٢٧٠٣٢٠٠٢٩٦ : ٦٠٦٠٦٠٤٠٥٠٦٥٠٠٤٠٣٧٨٠٣٦٥ : ٦١٢
الحر بن مالك : ٢٤٤
حريث بن أبي سعد : ٤٠٥
حسان بن أبي عبيدة : ٤٠٩
حسان بن النعمان : ٤٦٠٤٥٠٤٤٠٤٢٠١٤ : ٢٦٣٠١٥٦٠١٣٨٠٤٨٠٤٧
حسن بن عبيد الله بن محمد : ٤٠٦
الحصين بن الدجن العقيلي : ٢٣٧٠٢١٨ : ٦٨٦٠٦٧٧٠٦٧٥
حفص بن أبيه : ٥٠٧
الحكم بن هشام المعروف بالريضي : ٣٦٦ : ٤٨٧٠٣٧١
حمص : ٥٥٥٠٣٦٢٠٢٢٢

٥٥٠٤٠٤٩٦٠٤٨٨٠٤٨٦٠٤٧٩٠٤٢٨
٥٦٦٠٥٤٣٠٥٤١٠٥٢٠٠٥١٦٠٥٠٥
٥٥٩١٠٥٧٤٠٥٧١٠٥٧٠٠٥٦٩٠٥٦٨
٦٨٩٠٦٧٠٠٥٩٤
طنجة : ١٤٩٠١٣١٠٦١٠٥٤٠٥٢٠٤٩٠
١٧١٠١٧٠٠١٦٩٠١٦٧-١٦٤٠١٦٢
١٩١٠١٧٧٠١٧٦٠١٧٥٠١٧٣٠١٧٢
٣٧٩٠٣٤٨٠٣٣٤٠٣٠٥٠٣٠٢٠١٩٢
٦٦٥٠٦٦٤٠٥٥٥٠٣٩٧٠٣٩٦
طولوشة (تولوز) : ٢٤٩٠٢٤٥٠٠٦٠٣
٢٩٤٠٢٩٣٠٢٦١٠٢٥٢٠٢٥٠
طيرة : قبيلة : ٣٧٦

ع

عاصم العريان : ٦٨٤٠٦٨٣٠٦٧٧
عاصم بن مسلم الثقفي : ٦٧٤
عامر بن علي : ٦٨٧
عامر بن عمرو القرشي : ٦٧٥٠٦٧٤
عامر بن هاشم : ٢٣٦٠٢٣٥
العباسيون : ٥٣٤٠١٨٦٠١٨٥٠١٨٠
٦٦١٠٦٦٠٠٦٥٩٠٦٥٨
عبد الأعلى بن جريج الافريقي : ١٦٦٠١٦٢
عبد الرحمن الأوسط : ٥٨٩٠٤١٠٠٣٦٦
عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة : ١٧٣٠١٧٠
١٩١٠١٨٤٠١٨٢٠١٨٠-١٧٩٠١٧٥
٦٦٣٠٦٦٢٠٦٦١٠٣٥٧٠٢١٣٠٢٠٠
٦٦٤
عبد الرحمن بن رسم : ١٨٥
عبد الرحمن بن زياد الأحمري : ٢٠٠
عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي : ١٥٥٠١٥٤
٢٥٩٠٢٥٦٠٢٥٥٠٢٥١٠٢٤٥٠١٩٣
٢٧٩٠٢٧٤٠٢٧١٠٢٦٩٠٢٦٥-٢٦١
٣٣٤٠٣١٥٠٣٠٤٠٢٩٦٠٢٩٤٠٢٨٠

ط

طارق بن زياد : ٥٥٧٠٥٥٠٥٤٠٥٢٠٤٩٠
٧٢٠٧١٠٦٩٠٦٧٠٦٥٠٦١٠٥٩٠٥٨
٨٥٠٨٤٠٨٣٠٨٢٠٧٩٠٧٧٠٧٦٠٧٥
١٠١٠٩٩٠٩٧٠٩٠٠٨٩٠٨٨٠٨٧٠٨٦
١١٤٠١١٠٠١٠٧٠١٠٥٠١٠٤٠١٠٢
١٤٧٠١٢٨٠١٢٧٠١١٩٠١١٨٠١١٧
٣٢٨٠٣١٥٠٣٠٨٠٢٤٣٠٢٤٢٠١٩٦
٤٤١٠٣٩٠٠٣٨٧٠٣٧٩٠٣٧١٠٣٥٥
٦١٢٠٦٠٤٠٥٩٣٠٤٧٩
طينة : ١٩٢٠١٨٦٠١٧٧٠١٧٦
طيناس : ٦٦٢٠١٨٢
طرابلس : ١٧٩٠١٧٢-١٧١٠١٧٠٠١٦٨
٣٧٩٠١٩٢٠١٩١٠١٨٥٠١٨٢
طرسية : ٣٨٥٠٢٦١٠٢٥٤٠١٤٠٠١٣٩
٥٨٨٠٥٦٦٠٥٤٢٠٥٤١
طرسيل : ٨٠
طرش : ٦٧٧٠٦٧٦
طرسية : ٥٥٧٦٠٥٧٢٠٥٦٥٠٥٤٢٠٥٤٠
٥٨٤
طركينة (تراجونا) : ١١٨٠١٠٣٠٨٠٧
٥٥٤٥٠٥٤٣٠٥٤٢٠٥٤٠٠٦٠٤٨٨٠٣٨١
٥٧٠٠٥٦٩
طشافة : ٦٨١٠٦٨٠
طليعة : ٢٠٧٠٢٠٣٠١٩٨٠٨٧٠٨٥
٣٨٤٠٣٧٤٠٣٧١٠٣٥٠
طليطلة : ٥٩٠٢٣٠١٧٠١٦٠٩٠٨٠٧
٨٩٠٨٥٠٨٤٠٧٩٠٧٨٠٧٧٠٧٦٠٦٢
١٠٤٠١٠٢٠١٠٠٠٩٩٠٩٧٠٩٢٠٩٠
٢٣٨٠٢٠٧٠٢٠٣٠١٩٩٠١٣٣٠١٠٦
٣٦٩٠٣٥٠٠٢٤٣٠٢٣٣٠٣١٨٠٢٤٢
٤٢٧٠٤٢٦٠٢٨٨٠٣٨٤٠٣٧٣٠٣٧١

شنداشتو، ملك : ٢٤٠١٧٠١٠
شليل، نهر : ٣٧١٠٧٦

ص

صخرة پلاي : ٣٢٤٠٣١٥-٣١٣٠١٠٥
٣٣٥٠٣٣٥٠٣٣٢٠٣٢٩٠٣٢٨٠٣٢٥
٣٣٩
الصفرية : ١٧٢٠١٦٥٠١٤٩٠١٤٨
١٨٩٠١٨١٠١٨٥٠١٨٤٠١٨٣٠١٧٩
٣٩١
صفوان بن مالك : ١٧٢٠١٧٠
صفين : ٢٣٢٠٢٣١
صفليان، بطريق قرطاجنة : ١٨٩٠١٨٨
مقلية : ١٩٤٠١٦٥٠٤٩٠٤٥٠٤٣٠٣٩
٢٩٢
صمورة : ٥٤٤٠٥٤٣٠٥٤١
الصمصيل بن حاتم : ٢٢٣ - ٢٢٥
٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨ - ٢٢٣، ٢٢٤
٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨
٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥
٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١
٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧
٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣
٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩
٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥
٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١
٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧
٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣
٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩
٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥
٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١
٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧
٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣
٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩
٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥
٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١
٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧
٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣
٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩
٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥
٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١
٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧
٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣
٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩
٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥
٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١
٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧
٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣
٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩
٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥
٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١
٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧
٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣
٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩
٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥
٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١
٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧
٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣
٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩
٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥
٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١
٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧
٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣
٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩
٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥
٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١
٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧
٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣
٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩
٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥
٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١
٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧
٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣
٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩
٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥
٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١
٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧
٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣
٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩
٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥
٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١
٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧
٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣
٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩
٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥
٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١
٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧
٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣
٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩
٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥
٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١
٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧
٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣
٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩
٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥
٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١
٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧
٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣
٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩
٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥
٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١
٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧
٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣
٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩
٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥
٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١
٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧
٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣
٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩
٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥
٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١
٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧
٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣
٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩
٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥
٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١
٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧
٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣
٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩
٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥
٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١
٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧
٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣
٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩
٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥
٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١
٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧
٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣
٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩
٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥
٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١
٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧
٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣
٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩
٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥
٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١
٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧
٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣
٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩
٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥
٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١
٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧
٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣
٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩
٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥
٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١
١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦
١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١
١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦
١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١
١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦
١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١
١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦
١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١
١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦
١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١
١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦
١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١
١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦
١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١
١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦
١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١
١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦
١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١
١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦
١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١
١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦
١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١
١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦
١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١
١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦
١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١
١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦
١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١
١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦
١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١
١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦
١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١
١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦
١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١
١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦
١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١
١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦
١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١
١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦
١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١
١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦
١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١
١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦
١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١
١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦
١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١
١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦
١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١
١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦
١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١
١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦
١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١
١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦
١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١
١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦
١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١
١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦
١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١
١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦
١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١
١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦
١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١
١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦
١٣١٧، ١٣١٨،

٦١٣٠٦١٢٠٦٠٨٠٦٠٧٠٥٠٧٠٤٠٧
٦٣٣٠٦٣١
عبد الرحمن بن عبيد الله بن الحبحاب : ١٦٢
عبد الرحمن بن عقبة الغفاري : ١٧١٠١٧٠
عبد الرحمن بن كثير اللخمي : ٦١٤
عبد الرحمن بن علقمة اللخمي : ٢١٦٠٢١٥
٤٠٠٠٣٩٩٠٣٨٦٠٣٥٧٠٢٨٧٠٢١٧
عبد الرحمن بن معاوية الداخل : ١٢٥٠١٠٠
٢٤٣٠٢٣٩٠٢٣٣٠٢١٩٠٢١٣٠١٣٩
٣٥٢٠٣٥١٠٣٥٠٠٢٩٠٠٢٨٩٠٢٥٢
٣٩٠٠٣٨٠٠٣٦٨٠٣٦٦٠٣٦٥٠٣٦١
٤٠٥٠٤٠١٠٤٠٠٠٣٩٥٠٣٩٤٠٣٩٣
٤٦٠٠٤٤٥٠٤٢٢٠٤١٢٠٤٠٩٠٤٠٧
٦٠٩٠٥٧٧٠٥١٦٠٥٠٤٠٥٠٢٠٤٩٢
٦٤٥٠٦٣٧٠٦٢٩٠٦١٤٠٦١١٠٦١٠
٦٩٠٠٦٥٩٠٦٥٨٠٦٥٢٠٦٥١٠٦٥٠
عبد الرحمن بن موسى الهواري : ٦٥٤
عبد الرحمن الناصر : ٤٠٩٠٣٦٦
عبد الرحمن بن نعيم الكلبي : ٦٨٣٠٣٦٣
٦٨٥٠٦٨٤
عبد الرحمن بن يوسف الفهري : ٢٨٨
عبد العزيز بن مروان : ٤٠٦٠٨٨٠٤٧٠٤٦
عبد العزيز بن موسى بن نصير : ٩٥٠٨٨٠٧٧
١١٥٠١١٤٠١١٣٠١١٢٠١١١٠٩٦
١٣٤٠١٣٣٠١٢٩٠١١٩٠١١٧٠١١٦
٥٠٢٠٤٢٢٠٤٢٠٣٧٨٠٢٤٣٠١٣٥
٦٣٠٠٦١٢٠٦٠٦٠٤٠٥١٢٠٥٠٨
عبد الله بن خالد : ٦٣٣٠٥١٤٠٣٩٨٠٢٣٧
٦٧٢٠٦٦٨٠٦٦٦٠٦٣٤
عبد الله بن الزبير بن العوام : ١٢٨٠٣٩٠٣٨
عبد الله بن سعد بن أبي السرح : ٣٨٠٣٧
٦٣٠٠٤٤٤٠٧٦

عبد الله بن سقرديد : ١٨٢
عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٤٢٨٠٣٨
٦٨٩
عبد الله بن موسى بن نصير : ١٥٦٠١٢٩
١٦٠٠١٥٩٠١٥١
عبد الله بن ميسرة الفهري : ١١٥
عبد الله بن يوسف الفهري : ٦٨٤٠٦٨٣
عبد الملك بن أبي عامر الغفاري : ٦٩٠٦٨
عبد الملك بن قطن الفهري : ١٩٣٠١٧٩
٢٠٣٠٢٠١٠٢٠٠٠١٩٩٠١٩٧٠١٩٥
٢٧٦٠٢١٩٠٢١٦٠٢١٥٠٢١٤٠٢١٣
٣٣٥٠٢٩٦٠٢٨٧٠٢٨٠٠٢٧٩٠٢٧٧
٣٨٥٠٣٥٧٠٣٥٦٠٣٤٦٠٣٤٣٠٣٤٢
٤٥٠٧٠٤٠٠٠٣٩٩٠٣٩٣٠٣٨٦
٦٦١٠٦١٤٠٦١٣٠٦٠٨٠٥١١٠٥٠٨
عبد الملك بن مروان : ٤٤٧٠٤٤٠٤٣٠٣٨
٤٠٥٠١٠٠
عبد الملك بن موسى بن نصير : ١٥٦
عبد الملك بن وهب : ١٤٩
عبد المؤمن بن علي : ١٢
عبد الواحد بن يزيد الهواري : ١٧٧٠١٧٦
١٧٨
عبد الله بن الحبحاب : ١٦١٠١٥٦٠٤٥
١٩٤٠١٦٨٠١٦٧٠١٦٦٠١٦٥٠١٦٤
٦٠٨٠٢٨٠٠١٩٥
عبد الله بن الحجاج السلمي : ١٥٤
عبد الله بن علي القرشي : ٦٧٨٠٦٥٨٠٢٣٧
٦٨٤٠٦٨٣٠٦٧٩
عبد الله بن يزيد القرشي : ١٣١
عبيدة بن عبد الرحمن السلمي : ٦٥٣٠١٤٣
١٩٣٠١٦٨٠١٦١٠١٦٠٠١٥٦٠١٥٥
٦٠٨٠٦٠٧٠٣٤٢٠٢٧٦٠٢٦٢

عبيدة بن عقبة بن نافع : ١٧٣
عثمان بن أبي عبيدة القرشي : ١١٥
عثمان بن أبي نسعة اللخمي : ٢١٩٠١٥٣
٦١٣٠٦٠٧٠٣٦٠
عثمان بن عفان : ٤١٢٠٤٠٥٠٣٧
عثمان بن عقبة بن نافع : ٤٩
عدنان ، قبيلة : ٣٧٢٠٣٧١٠٣٦٣٠٢١٠
٣٧٤٠٣٧٣
عذرة بن عبد الله الفهري : ٢٥٤٠١٥١
٦١٢٠٦٠٧٠٢٦١
العراق : ١٤٨٠١٤٥٠١٤٣٠١٢٨٠١٢٢
٦٢٨٠٥٧٩٠٤٨٣٠٤١٧٠٢٩٣٠١٥٩
عروة بن الزبير الصدقي : ٦٦٢
عروة بن الوليد الصدقي : ١٧٠١٨٢
العقاب ، موقعة : ٢٧١
عقبة بن الحجاج السلوي : ١٦٦٠١٦٢
٢٨٧٠٢٨٥٠٢٨٢٠٢٨٠٠١٩٥٠١٩٤
٣٣٠٠٣٢٩٠٣٢٨٠٣١٥٠٢٩٦٠٢٩٤
٣٤٩٠٣٤٤٠٣٤٢٠٣٣٥٠٣٣٤٠٣٣١
٦٠٨٠٥١٣٠٥٠٩٠٤٢٣٠٤٠٠٠٣٥٢
٦٤٦٠٦٤١٠٦٣٨٠٦٣١٠٦١٣٠٦١١
٦٤٩٠٦٤٧
عقبة بن نافع الفهري : ٣٩٠٣٧٠٣٦٠٣٤
١٨٠٥٤٠٥٢٠٤٨٠٤٢٠٤١٠٤٠
٤٠٧٠٣٩٠٠٣٣٢٠٢٦٣٠١٧٠٠١٢٩
عقدة الزيتون : ٢٢٦
عكاشة بن أيوب الفزاري : ١٧٦٠١٧١
١٧٨٠١٧٧
علقمة اللخمي : ٣٣٥٠٦٨
علي بن أبي طالب : ١٨٩
علي بن رباح : ١١١٠١٠١
علي بن عيسى : ٥٣١
عمر بن حفص : ١٩٢
عمر بن الخطاب : ٤٤٥٠٤٤٣٠٢٩٨
٦٣٠٠٦٢٨٠٦٢٣٠٦١٨
عمر بن عبد العزيز : ١٣٧٠١٣٦٠١٣٥
٤٢٤٠٢٩٨٠٢٤٥٠١٤٢٠١٣٩٠١٣٨
٦٣٠٠٦١٩٠٦١٨٠٦١١٠٦٠٧٠٦٠٥
٦٢٧٠٦٢٣٠٦٢٢
عمر بن عبد الله المرادي : ١٦٦٠١٦٥٠١٦٢
عمر بن مروان : ٦٨٩
عمرو بن ثوبة : ٣٦٣
عمرو بن العاص : ٤٤٤٠٤١٠٣٨٠٣٦
٦٣٠
عمرو بن عبد الله بن الليث : ٤٠٨
عمير بن سعيد اللخمي : ٥٠٤٠٤٢٢
عتيبة بن نعيم : ١٦٠٠١٥٥٠١٥٤٠١٥١
٢٥٥٠٢٥٥٠٢٥٣٠٢٥٢٠٢٥٠٠٢٤٦
٢٩٦٠٢٩٠٢٦٤٠٢٦٣٠٢٥٩٠٢٥٦
٣٣٢٠٣٢٩٠٣٢٨٠٣٢٧٠٣٢٦٠٣٢٤
٦١٢٠٦٠٧٠٥٠٦٠٣٩١٠٣٤٠
عترة بن فلاح : ٦٤٩٠٦٤٠
عياش بن أخيل : ٦٨٠٤٧
عياض بن عقبة بن نافع : ٤٩
عيسى بن عبد الرحمن : ٦١٩٠٦٧٨
عيسى بن عبد الله الطويل : ٦٣٩
عيسى بن مزاحم : ١٥٥٠٥٠٣٠٤٥٥٠٤٢٢
عيسى بن يزيد الأسود : ١٨٧
دع
الغازي بن قيس : ٦٥٤
غالة : ١٣٦٠١٣٣٠١٠٢٠٢٨٠٦٠٥٠٣
٣١٨٠٣١٥٠٣٠٨٠٣٠٥٠٢٤٢٠١٥٥
٣٩٣٠٣٩١٠٣٨٥٠٣٧٩٠٣٧٨
٦٣٦٠٥٥١٠٥٤٥٠٥٢٠٥١٠

قلمرية : ٣٥٠٠٢٩٩٠٢٠٧٠١١٨٠١١١ :
٥٩١٠٥٦٥٠٥٤٣٠٥٤١٠٥٠٨٠٣٦٧
قطنيرة : ٦٨٠٠٦٢٤٠٦١٧٠٣٨٤٠٣٨٠ :
قلهرة : ٥٥٤٢٠٥٤١٠٥٢٠٠٥١٩٠٣٠٨ :
٥٦٧

قمرنية : ٣٩٠٣٨ :

قنسرين : ٣٦١٠٣٦٠٠٢٣٧٠٢٢٢٠٢١٨ :
٦٧٨٠٦٧٤٠٦٦٥٠٥٥٥

قورية : ٢٠٧٠٢٠٦٠٢٠٥٢٠٣٠١٩٨ :
٣٤٩٠٣٤٨٠٣٤٣٠٣٢٧٠٣٢٦٠٢٣٤ :
٥٤٣٠٣٨٤٠٣٥٠

القيروان : ٥٥٤٠٤٩٠٤٨٠٤٥٠٤١٠٣٩ :
١٧١٠١٧٠٠١٦٥٠١٦٤٠١٣٢٠٦٧٠٦٥ :
٠١٨١٠١٨٠٠١٧٩٠١٧٧٠١٧٦٠١٧٢ :
٠١٩١٠١٨٦٠١٨٥٠١٨٤٠١٨٣٠١٨٢ :
٦٦٢٠٥٥٩٠٣٨١٠١٩٢

قيس ، قبيلة : ٣٦٣٠٣٦٢٠٣٥٨٠٢٢٦ :

ك

كانجاس : ٣٢١٠٣١٩ :
الكاهنة : ١٣٨٠٤٤٠٤٣٠١٤ :
كتامة : ٣٨٢٠٤٩٠٤٨ :
كرتاجونوفا : انظر قرطاجنة
كسييلة بن لمزم الأوربي : ٤٢٠٤١٠٤٠ :
كلاب ، قبيلة : ٢٣٧٠٢٣٦ :
كلب ، قبيلة : ٣٦٣٠٣٥٧ :
الكلت : ٥٤٢٠٣١٣ :
كلثوم بن عياض الشيرى : ١٦٩٠١٦٨ :
٢٠١٠١٩٥٠١٧٥٠١٧٤٠١٧٢٠١٧١ :
٦٦١٠٤٠٠٠٣٩٨ :
كنتيرية : ٣١٣٠٣١٢٠٣٠٨٠٢٨٨٠١٠٤ :
٣٤٥٠٣٣٤٠٣٣٣٠٣١٩٠٣١٥٠٣١٤ :
٥١١٠٤٨٥

٤٤٣٤٠٤٠٩٠٤٠٨٠٤٠٠٣٧٧٠٣٧٦ :
٥٥٤٣٠٥٤٢٠٥١٣٠٤٩٥٠٤٨٦٠٤٧٩ :
٥٥٧٤٠٥٧٣٠٥٦٩٠٥٦٨٠٥٦٤٠٥٦٠ :
٦١٠٠٦٠٤٠٥٩٢٠٥٩٠٠٥٨٥٠٥٨٠ :
٦٤٥٠٦٤٠٠٦٣٣٠٦٣٢٠٦٢٤٠٦١١ :
٦٨١٠٦٧٢٠٦٦٩٠٦٥١٠٦٥٠٠٦٤٦ :
٦٨٩٠٦٨٨٠٦٨٧٠٦٨٦٠٦٨٤٠٦٨٣ :
٦٩٠

قرقشوة : ٢٦٠٠٢٥٢٠٢٥٠٠٢٤٩٠٢٤٦ :
٥٤٢٠٥٣٩

قرونة : ٥٥٦٠٥٤٣٠٥٤٢٠٣٧٥٠٩٢ :
٥٩٠٠٥٧٢٠٥٧١

القرن ، موقعة : ٠١٧٨٠١٧٧٠١٧٦٠٣٨ :
١٩١٠١٧٩

قريش ، قبيلة : ٠٣٦٣٠٢٢٨٠١٨٥٠٣٨ :
٦٣٤٠٤٠٩٠٣٦٩

قسطونة : ٥٦٨٠٥٤٣٠٣٨١٠٤٧ :
القسططينية : ٤٨٤٠٤٧٧٠١٥٦٠١٠٢ :
قسطينية : ٤٤ :

قشالة : ٠١٣٣٠١١٨٠١٠٤٠٩٧٠٩٦٠٨ :
٥٢٥٠٤٩٨٠٣٢٠

قضاة ، قبيلة : ٠٣٦٤٠٣٦٣٠٣٦٢٠٢٣٠ :
٦٨٥٠٦٧٩٠٣٨٠

قطلونية : ٣٨٨٠٢٩٢ :
قطن بن عبد الملك بن قطن : ٠٢١٧٠٢١٦ :
٦٧١٠٣٩٩٠٣٩٣٠٣٥٧٠٢٨٧٠٢٢٠

قلسة أيوب : ٥٥٧٩٠٥٦٦٠٣٧١٠٢٤٤ :
٥٩٠٠٥٨٧

قلعة بني سعيد (قلعة بحصب) : ٣٧٦ :
قلعة خولان : ٣٧٦ :

قلعة رباح : ٥٩٠٠٥٥٦٠٣٧٤٠٣٧١ :
قلعة هنارس : ٧٩ :

الغاليون الرومان : ٣٠٣٠٦٠٥ :
غرناطة : ٣٧٦٠٣٧٢٠١١٧٠١١٢٠٧٧ :
٥٧٤

غسقونية : ٢٦٥ :
غطفان ، قبيلة : ٣٦٢٠٢٣٧٠٢٢٧٠٢٢٦ :
غمارة : ٣٨٢٠١٦٤٠٧٣٠٥٣٠٤٩ :
غيطشة : ٠١٨٠١٧٠١٥٠١٤٠١٣٠١٢ :
٠٦١٠٥٧٠٥٦٠٥٥٠٥٤٠٢١٠٢٠٠١٩ :
٠٧٥٠٧٣٠٦٧٠٦٦٠٦٥٠٦٤٠٦٣٠٦٢ :
٠١١٣٠١١٢٠١٠٠٠٩٤٠٨٤٠٨٣٠٧٧ :
٠٤٨٢٠٤٧٦٠٤٧٥٠٤٣١٠٣٣٣٠٣١٩ :
٥٩٣٠٥٠٦

ف

فارس : ٠١٤٥٠١٢٣٠١٢٢٠١٠٨٠٨٨ :
٢٩٨

فاس : ٤٣٢ :
الفاطميون : ١٨٧ :

فايفلا بن بلاي ، دوق كنتيرية : ٣١٩ :
٣٤٤٠٣٤٣٠٣٤٢

فالانس : ٢٨٠٠٢٤٧ :
فالوفا : انظر فيج موسى

فاليادوليد : انظر بلد الوليد
فايفر بن أودو : ٢٨٨ :

فيج موسى (فالوفا) : ١٠٦٠٩٨ :
الفرنجية : ٠٢٦٠٠٢٥٨٠١٥٦٠٢١٠٦ :
٠٢٧٧٠٢٧٥٠٢٧٤٠٢٧٠٠٢٦٧٠٢٦٤ :
٠٢٩٥٠٢٩١٠٢٩٠٠٢٨٩٠٢٨٥٠٢٨٤ :
٣٠٥٠٣٠٣٠٣٠٠

فرنسا : ٢٧٧٠٢٦٠٠٢٤٩٠٢٤٢٠٤٥٠٢١ :
فزان : ٣٧ :

القساط : ٥٧٩ :
فلسطين : ٦٨٠٠٦٦٠٠٥٥٥٠٥٢١٠٢٢٢ :

فهر : ٣٦٢ :

الفولجا : ٥٢١ :

فيزيو : ٣٤٩٠٢٠٦٠٩٩ :

ق

قابس : ١٨٣٠١٧٢٠١٧٠ :

قادش (جادس ، جوادكس) : ٤ :

قارله (شارل مارتل) : ٠٢٦٧٠٢٦١٠٢٥٣ :

٠٢٨١٠٢٧٩٠٢٧٧٠٢٧٥٠٢٧٤٠٢٦٨ :

٣٠٤٠٣٠١٠٢٨٦٠٢٨٤٠٢٨٣٠٢٨٢ :

قاليقلا : ٤٠٥ :

قبرة : ٠٥٤٤٠٥٤٣٠٥٤٢٠٣٨٩٠٣٧٥ :

٥٩٠٠٥٥٦ :

قنتلة : ٥٨٤ :

قنطان ، قبيلة : ٠٣٧٢٠٣٧١٠٣٦٣٠٢١٠ :
٣٧٤٠٣٧٣

القرآن : ٠٤١٨٠٣٠٥٠٢٢٥٠١٩٢٠١٦٤ :
٠٤٨٦٠٤٤٨٠٤٤٤

قرصقة : ٢٩٢ :

قرطاجنة (كرتاجونوفا) : ٠٣٩٠٣٨٠٥٠٤ :

٠٤٨٣٠١٨٨٠٤٥٠٤٤٠٤٣٠٤٢٠٤٠ :

٥٧٠٠٥٤٥٠٤٨٨ :

قرطاية : ٦٩ :

قرطبة (كوردوبا ، كوردفا) : ٠١٧٠٨٠٧٤٤ :

٠٨٤٠٨٢٠٧٧٠٧٦٠٧٥٠٧٢٠٧١٠٧٠ :

٠١٠١٠١٠٠٠٩٧٠٩٢٠٨٩٠٨٨ : ٨٧

٠١٣٩٠١٣٧٠١٣٣٠١٢٦٠١٠٦٠١٠٤ :

٠٢١٤٠٢٠٣٠٢٠٢٠٢٠١٠١٩٩٠١٤٠ :

٠٢٢٣٠٢٢١٠٢١٩٠٢١٨٠٢١٧٠٢١٦ :

٠٢٣٤٠٢٣٢٠٢٣١٠٢٣٠٠٢٢٧٠٢٢٦ :

٠٢٨٧٠٢٦٩٠٢٤٨٠٢٤٣٠٢٣٦٠٢٣٥ :

٠٣٤٠٠٣٣٤٠٣٢٨٠٣٢٧٠٣٢٠٠٣١٠ :

٠٣٧٥٠٣٧١٠٣٦٨٠٣٥٦٠٣٥٥٠٣٤٦ :

كندة ، قبيلة : ٣٧١٠٣٦٤٠٢٣٠
كهلان ، قبيلة : ١٥٥
كوفادونجا : ٥٠٣٠٣٤٣-٣٢١
الكوفة : ٦٥٨٠٥٧٩

«ل»

لاخاند (بحيرة الخندق) : ٧١
لاردة : ٣٨٤٠٣٨١٠٣٠٨٠١٩٦٠١٠٣
٥٧١٠٥٦٥٠٥٤٢٠٥٤٠
لانجدوك : ٢٧٦
لانجر : ٢٤٧
لبلة : ٣٧٥٠٣٧٣٠٣٧١٠٩٦٠٩٥٠٩٢
٥٩١٠٥٧٢٠٥٧١٠٥٤٣
لحم ، قبيلة : ٣٦٣٠٢٢٧٠٢٢٦٠٢٠٠
لديا : ٣٤٩٠٢٠٦
لذريق ، ملك القوط (رودريجو ، رودريك .
رودريكو) : ١٧٠١٦-١٧٠١٦
٠٥٣٠٢٧٠٢١-١٧٠١٦
٠٦٦٠٦٥٠٦٤٠٦٣٠٦٢٠٥٩٠٥٦٠٥٥
٠٨٠٠٧٧٠٧٦٠٧٤٠٧٣٠٧٢٠٧١٠٧٠
٠١٠٠٠٩٩٠٩٨٠٩٧٠٩٦٠٩٤٠٩٣٠٨٣
٠٤٣١٠٣٣٣٠٣١٨٠٣١٤٠١٣٠٠١١٤
٦١٧٠٥٠٢٠٤٤١٠٤٤٠
لشونة : ٥٩١٠٥٦٥
لشدانية (لوزيتانيا) : انظر البرتغال
لقت : ٥٧١٠٣٧١٠١١٥٠٩٢
لواقة ، قبيلة : ١٤٦٠٣٧٠٣٦
الوار ، نهر : ٢٦٧٠٢٦٦٠٢٦٥٠٢٤٧
٢٧٢٠٢٧٠٠٢٦٨
لورقة : ١١٥
لوزيتانيا (لشدانية) : انظر البرتغال
الومبارد : ٢٨١
لويتيراند : ٢٨١

ليبانا : ٣٥٢٠٣٥٠٠٣٤٢٠٣٣٥٠٣٢٢
ليون (لودون) : ٢٤٢٠٢٠٦٠١٠٦٠١٠٤
٢٢٣٠٢٩٣٠٢٧٧٠٢٥٧٠٢٤٨٠٢٤٧
٠٥١٧٠٤٩٨٠٢٩٥٠٣٥٠٣٤٩٠٣٣٥
٥٢٥

«م»

ماردة : ٩٦٠٩٥٠٩٤٠٩٣٠٨٧٠٢٨٠٢٦٠٢٦
٠٢٠٣٠١٩٨٠١٣٧٠١٠٢٠٩٨٠٩٧
٠٣٣٤٠٣٢٧٠٣٢٦٠٢١٥٠٢٠٦٠٢٠٥
٠٤٨٨٠٤٤٢٠٣٨٤٠٣٥٧٠٣٤٩٠٣٤٨
٠٥٧١٠٥٧٠٠٥٦٩٠٥٦١٠٣٤٥٠٥٤٣
٦٨٧٠٥٩١
ماكون : ٢٥٧٠٢٤٧
مالقة : ٢٢٢٠١١٨٠١١٧٠١١٢٠٧٧
٠٥٧٢٠٣٨٧٠٣٧٥٠٣٧٤٠٣٧٣٠٣٧١
٥٧٤
مالك بن أنس : ٦٥٥-٦٥٢٠٦٥١٠٤٥٤
ماورلت : دوق مرسيلية : ٢٧٨٠٢٧١
٣٠٠٠٢٨٦
مجانة : ١٧٦
محرط : ٥٨٩
مجلونة : ٢٩٣٠٢٨٩٠٢٨٨٠٢٨٣
مجمع أفيوس : ٤٧٧٠٤٧٦
مجمع خلقيدونية : ٤٧٧
مجمع طليطلة : ٤٤٨٠٠٤٧٣٠٤٧١٠٤٦٩
٥٢٣٠٥٢٢٠٥٢١٠٤٩٧٠٤٤٨٢
مجمع نيقية : ٤٧٦
معارب ، قبيلة : ٣٦٩٠٣٦٣٠٢٣٧
محمد بن الأشعث : ١٩١٠١٨٥٠١٨٤٠١٨١
محمد بن أوس الأنصاري : ١٤٦٠٩١
محمد بن بشير القاضي : ٦٥٤٠٤٥٥
محمد بن زياد اللخمي : ٤٥٢

محمد بن عبد الرحمن الشيباني : ٦٥٣
محمد بن عبد الله الأشجعي : ٦٠٧٠١٥٣
٦١٣
محمد بن عبيد الله بن الحجاب : ٢٧١
محمد بن مسرة : ٦٤٣
محمد بن رمضان : ٦٥١
محمد بن يحيى السباي : ٦٥٤
محمد بن يزيد مولى قريش : ١٣٢٠١٣١
٦٠٤٠١٥٧٠١٣٥
الخيف الأخضر : ٣٥٠
الخيف الأطلسي : ٣٧٩٠٣٤٣٠١٢٣٠٣٤
المدائن التي خلف الدروب : ١٩٧٠١٩٦
٣٤٦٠١٩٨
مدينة سالم : ٥٧٩٠٥٧٤٠٣٨٤
منحج ، قبيلة : ٣٦٤٠٢٣٠
مراد ، قبيلة : ١٣٤
مرج راهط : ٦٨٢٠١٥١٠١٤٣
مرسيليا (ماسيليا ، ميسيلية) : ٢٨٠٦٠٥
٣٠٠
مرسية (مورجي : مورثيا) : ١١٢٠٤٤
٠٥٧١٠٥٠٨٠٣٧٦٠٣٧٤٠٣٧٠٠٣٥٥
٥٩٣٠٥٨٩٠٥٧٩٠٥٧٢
مروان بن الحكم : ٦٨٢٠٤٠٩٠١٢٨
مروان بن محمد : ٦٦٢٠٦٥٨٠١٨١
مروان بن موسى بن نصير : ٥٠٩٠١٢٩٠٩٩
مسلمة بن سودة القرشي : ١٧٢٠١٧١٠١٧٠
مسلمة بن عبد الملك : ٦٦٣٠١٥٦
المسيح عليه السلام : ٥١٥٠٤٧٨٠٤١٩
المصاراة ، مرقعة : ٣٥٩٠٢٨٨٠٢١٩
٦٨٦-٦٨١
مصر : ٤٠٠٣٩٠٣٨٠٣٧٠٣٦٠٣٤٠٢٦
١٢٥٠١٢٣٠١٢٢٠١٠٧٠٧٦٠٥٨٠٤٦

٠١٦٨٠١٦٣٠١٦١٠١٥٩٠١٥٦٠١٢٨
٠٢٩٦٠٢٩٣٠٢٥٨٠٢٠٨٠١٨١٠١٧٦
٠٤٧٦٠٤٤٤٠٤١٨٠٢٧٩٠٣٦٠٠٢٩٨
٠٥١٢٠٥٠٠٤٩٢٠٤٨٣٠٤٧٨٠٤٧٧
٠٥٨٣٠٥٧٩٠٥٧٧٠٥٦٣٠٥٣٤٠٥٣١
٠٦٤٥٠٦٣٧٠٦٣٠٠٦٠٤٠٦٠٢٠٥٩٨
٦٦٠٠٦٥٨
مضر ، قبيلة : ٢٣٠٠٢١٢٠٢٣٠٠٢٣٤٠٣٥٧
٦٨٥٠٦٨٣٠٤٠٢٠٣٦٩
مطقرة : ٣٧٩٠١٦٥
معاوية بن أبي سفيان : ٣٨٠٠٣٨٠٠٣٨٠٠٤٠
٤٠٦
معاوية بن حديج : ١٦٨٠٣٩٠٣٨٠٣٦
١٧٠
معاوية بن صالح الحضرمي : ٦٥٣٠٦٥١
٦٥٤
معاوية بن هشام : ٦٥٩٠١٧٣
مغيث الرومي : ٨٢٠٨١٠٨٠٠٧٧٠٦٨
٠١٠٦٠١٠٤٠١٠١٠٨٨٠٨٧٠٨٦٠٨٥
١٧٤٠١٧٣٠١٣٤٠١١٠٠١٠٨٠١٠٧
٤١٢٠١٧٥
المذيرة بن أبي بردة : ١٥٩٠٦٨٠٤٧
مغيلة ، قبيلة : ٦٦٥٠٦٦٤٠٣٧٩٠١٩٢
٦٧٣
مكتناسة : ٢٧٩٠١٨٦٠١٦٥٠١٦٤
٦٦٤٠٣٨١٠٣٨٠
المنصور بن أبي عامر : ٢٧٥٠٣٣٦٠٣١٠
٤٠٩
المثور ، نهر : ٣٨٥٠٣٤٣٠٢٠٦
مهاجر بن نوفل القرشي : ٦٥٠٠٦٤٠
مهدي بن مسلم : ٦٤٢٠٦٤١٠٦٤٠٠٤٤٩
٦٤٩٠٦٤٧٠٦٤٦٠٦٤٣

لِلْمُؤَلِّفِ

مؤلفات :

١ - تاريخ :

- ١ - الشرق الإسلامي في العصر الحديث : الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٨ .
- ٢ - فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ (الطبعة الثانية في المطبعة) .
- ٣ - Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue .
Le Caire, 1948.
- ٤ - صور من البطولة (طبعتان : القاهرة ١٩٤٩ و ١٩٥٦) .
- ٥ - مصر ورسالتها (طبعتان : القاهرة ١٩٥٥ و ١٩٥٦) .
- ٦ - Historical Atlas of the Muslim Peoples (in collaboration
with R. Roolvink and Others). Amsterdam, 1957.
- ٧ - مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإخشيديين - فصل في كتاب
« تاريخ الحضارة المصرية » الذي تنشره وزارة الثقافة والإرشاد .
- ٨ - نور الدين محمود ، الطبعة الثالثة ، جدة ١٩٨٥ .

ب - أدب :

- ١ - حكايات خيرستان .
- ٢ - أهلا وسهلا .

أبحاث :

- ١ - عقد بيعة بولاية العهد لأبي عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر
الموحدي ، نشر في الجزء الثاني من المجلد الثاني عشر من مجلة كلية
الآداب بجامعة القاهرة .
- ٢ - تطور العمارة الإسلامية في الأندلس ، نشر في المجلد الأول من حوليات
كلية الآداب بجامعة عين شمس .

- ٣ - وثائق عن مهدي السودان ، نشر في العدد الثاني من المجلد الثاني من
حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .
- ٤ - غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ و ٢٤٥ هـ / ٨٤٤
و ٩٥٨ م ، نشر في العدد الأول من المجلد الثاني من مجلة الجمعية
المصرية للدراسات التاريخية .
- ٥ - السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين : نشر بالعدد الأول من المجلد
الثالث من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- ٦ - المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية :
نشر في العدد الأول من المجلد الرابع من مجلة الجمعية المصرية للدراسات
التاريخية .
- ٧ - المجتمع في الدستور ، بحث نشر في كتاب « روح الدستور » وهو
رقم ٢٥ من سلسلة « اخترنا لك » .
- ٨ - لكي لا ننسى .. هذا صوت التاريخ : بحث نشر في كتاب « قناة
السويس - حقائق ووثائق » وهو رقم ٢٩ من سلسلة « اخترنا لك » .
- ٩ - سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين . صحيفة المعهد المصري للدراسات
الإسلامية في مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .
- ١٠ - De nuevo sobre las fuentes árabes de la historia del Cid
صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد . مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .
- ١١ - Egipto y el Mediterraneo فصل نشر بالإسبانية والفرنسية في كتاب
Panorama del Mundo Árabe ، الذي نشره معهد العلوم السياسية
في مدريد سنة ١٩٥٤ .
- ١٢ - نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين . صحيفة
المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٣ سنة ١٩٥٥ .
- ١٣ - أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ،

للوشرى . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٥
سنة ١٩٥٧ .

١٤- La division politico - administrativa de la España musulmana
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .

١٥- الفولكلور ، تاريخه ومدارسه ومناهجه . صحيفة « المجلة » العدد ٢٣
سنة ١٩٥٨ .

نشر وتحقيق :

١ - رياض النفوس لأبي بكر المالكي ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥١ .

ترجمة :

١ - الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز (ترجمة عن الإنجليزية بالاشتراك
مع الدكتور محمود يوسف زايد) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧ .

٢ - الشعر الأندلسي لغربية غومس (عن الإسبانية) طبعتان بالقاهرة
١٩٥٢ و ١٩٥٧ .

٣ - تاريخ الفكر الأندلسي لجونزالد بالثيا (عن الإسبانية) القاهرة ١٩٥٥ .

٤ - ثم غاب القمر - مسرحية في ثمانية مناظر مقتبسة من قصة The Moon is
Down لجون شتاينيك ، القاهرة ١٩٥٦ .

فهرس

صفحة

المقدمة

الفصل الاول : اسبانيا قبيل الفتح الاسلامي

٢	القوط الغربيون في أواخر أيامهم
٥	دولة القوط في اسبانيا...
١٧	لذريق ..
٢١	نظرة في أحوال اسبانيا تحت حكم القوط
٢٣	مجلس طليطلة...
٢٤	المجمع الاسباني أيام القوط
٢٨	الحالة الثقافية.

الفصل الثاني : فتح المغرب

٣٤	فتح المغرب ...
٣٩	اختطاط القيروان
٤٥	اختطاط تونس
٤٥	تنظيم ولاية افريقية ...
٤٦	موسى بن نصير يتولى أمور المغرب

الفصل الثالث : فتح الاندلس

٥٢	مقدمات الفتح
٥٢	يليان
٥٧	فتح الاندلس ..
٦٥	بدء الفتح
٦٧	أبو زرعة طريف يقود بهما استطلاعي
٦٧	محنة طارق بن زياد
٧٣	معركة وادي البرباط
٧٨	احتلال طليطلة ..

صفحة

فتح قرطبة	٨٠
✕ عبور موسى إلى الأندلس	٨٤
فتح اشبيلية	٩٢
فتح ماردة	٩٣
✕ أول حملة إسلامية في الأندلس	١٠٠
السير نحو الشمال	١٠٢
أقصى ما وصلت إليه فتوح المسلمين في إسبانيا	١٠٤
عودة موسى وطارق إلى المشرق	١٠٧
استكمال الفتح	١١٠
تدمير	١١٢

الفصل الرابع : عصر الولاة

لم تشكلت الخلافة جهداً خاصاً في سبيل فتح الأندلس	١٢٢
لم تنعم الخلافة منه شيئاً مادياً	١٢٣
هجرة العرب إلى الأندلس	١٢٦
ولاية عبد العزيز بن موسى	١٢٩
مقتل عبد العزيز بن موسى	١٢٩
أيوب بن حبيب المخفي	١٣٢
نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة	١٣٣
عامل إفريقية يولي آخر بن عبد الرحمن الفلق على الأندلس	١٣٥
ولاية السمع بن مالك الخولاني	١٣٥
عمر بن عبد العزيز يفكر في إخلاء الأندلس من العرب	١٣٦
ضبط المال وتنظيم البلاد	١٣٧

الفصل الخامس : صراع العرب والبربر

خلافات العصبية	١٤٣
فترة سيادة الكلبين البنيين في المغرب والأندلس	١٤٥
مستولية الخلفاء عن أعمال عمالهم في المغرب	١٤٥
توتر نفوس البربر - زفانة	١٤٦
الأفارقة	١٤٨
دعاة الخارجية في المغرب	١٤٨

صفحة

العصبية العربية في الأندلس	١٥١
مصاعب الحكم في المغرب بعد موسى بن نصير	١٥٦
المغرب أثناء خلافة هشام بن عبد الملك	١٦١
عبيد الله بن الحبحاب	١٦١
ميسرة وبدء الثورة في إقليم طنجة	١٦٤
هزيمة الأشراف	١٦٧
كلثوم بن عياض القشيري	١٦٨
✕ العرب الإفريقيون	١٦٩
✕ ثورة البربر على العرب في الأندلس	١٧١
الخلاف بين العرب الأفارقة وكلثوم بن عياض ومن معه من القيسية	١٧٢
هزيمة العرب عند بقدورة	١٧٤
جيوش الخلافة تتدخل	١٧٦
ظهور أمر عبد الرحمن بن حبيب	١٧٩
عبد الرحمن بن حبيب يحتل القيروان	١٨٠
ختم النزاع بين القيسية والبنية في إفريقية	١٨٠
البربر يستقلون بنواحيهم	١٨٢
دولة بني مدرار في تلمسانة	١٨٦
✕ رأي جوتييه في ثورات البربر	١٨٧
التونانية والحارجية	١٩٠
أي فريق من البربر نهض بعبء الحركة	١٩١
الأحوال في الأندلس	١٩٣
عبد الملك بن قطن الفهري	١٩٣
انتقال الثورة من إفريقية إلى الأندلس	١٩٥
مقدمات ثورة بربر الأندلس	١٩٦
✕ ثورة البربر في الأندلس	١٩٧
بلج بن بشر ومن معه محاصرون في سبتة	٢٠٠
✕ طالعة بلج	٢٠١
طالعة بلج تقضي على ثورة البربر في الأندلس	٢٠٢
معركة وادي سليط	٢٠٣
✕ المجاعة وهجرة البربر إلى إفريقية	٢٠٤
زحف نصاري إسبانيا نحو الجنوب	٢٠٦

صفحة

٢٠٧	العرب يخسرون ربع الجزيرة ..
٢٠٧	الخصية بين العرب والبربر ..

الفصل السادس : القيسية واليمينية

٢١٠	مؤرخو الأندلس والعداء بين القيسية واليمينية ..
٢١٣	القيسية تستبد بأمور الأندلس ..
٢١٤	بلج بن بشر يلى أمور الأندلس ..
٢١٧	موقعة أفوة برطورة ..
٢١٩	محمى أبي الخطار بن الحسام الكلبي ..
٢٢١	إخراج الشاميين من قرطبة إلى الكور ..
٢٢٣	ظهور الصميل بن حاتم ..
٢٢٦	هزيمة أبي الخطار وولاية ثوابة بن سلامة العامل ..
٢٢٨	الصليل بن حاتم يهد الطريق ليويسف الفهري ..
٢٣٠	موقعة شقندة سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م ..
٢٣٢	مأساة أسرى شقندة ..
٢٣٢	المهاجرة تحتاج الأندلس ..
٢٣٥	اليمينيون يشعرون على الصميل في سرقسطة ..
٢٣٧	الحرب بين القيسية والكلبية في سرقسطة ..

الفصل السابع : فتوح المسلمين في غالة

٢٤٤	بدء الغزوات فيما وراء جبال البرت ..
٢٤٥	السبح بن مالك يصل إلى طرسونة . استشهاده عند طولوشة ..
٢٤٦	عنيسة بن سحيم وحملته الكبرى ..
٢٤٩	لماذا اتجه عنيسة نحو حوض الرون ..
٢٥٠	الدوق أودو وعلاقته مع المسلمين ..
٢٥٤	وفاة عنيسة ..
٢٥٤	عذرة بن عبد الله الفهري يواصل الغزو ..
٢٦١	عبد الرحمن العافق ..
٢٦٣	خروج عبد الرحمن للغزو ، أوائل سنة ١١٤ هـ / ربيع سنة ٧٣٢ م ..
٢٦٥	فتح آزل ..
٢٦٦	الاستيلاء على بردال (بورديو) ..

صفحة

٢٦٧	أودو يستنجد بشارل مارتل ..
٢٦٨	المعسكر الإسلامي قبيل المعركة ..
٢٧٠	مكان المعركة ..
٢٧١	معركة بلاط الشهداء ..
٢٧٤	المعركة ..
٢٧٥	بعد المعركة ..
٢٧٦	عبد الملك بن قطن الفهري يسير إلى غالة ..
٢٧٨	المسلمون يستعيدون آزل ..
٢٧٩	إخضاع إمارات البرت ..
٢٨٠	عقبة بن الحجاج السلوي يجدد نشاط الفتوح في غالة ..
٢٨١	إعادة فتح بورجونيا ..
٢٨٣	قارله يفشل في الاستيلاء على أربونة ..
٢٨٥	العرب وأهل غالة ..
٢٨٧	عبد الرحمن بن علقمة اللخمي ينصرف عن غالة بمجده ..
٢٨٩	بنيين الثاني يهاجم أربونة ..
٢٩٠	سقوط أربونة ..
٢٩١	بقايا المسلمين في غالة ..
٢٩٢	نتائج سقوط أربونة ..
٢٩٣	أحوال جنوبي غالة تحت الحكم الإسلامي ..
٢٩٤	لماذا لم يوفق المسلمون إلى البقاء في غالة ؟ ..
٢٩٨	طبيعة الحكم الإسلامي في غالة ..
٢٩٩	المسلمون يعتبرون غالة إقليماً ثغوريا ..
٣٠٠	نظام الحكم في جنوب غالة ..
٣٠١	موقف المسلمين من المسيحية في غالة ..
٣٠٣	مقارنة بين المسلمين والفرنجة في غالة ..

الفصل الثامن : قيام حركة المقاومة النصرانية

٣٠٩	انصراف العرب إلى المنازعات عن صيانة دولتهم ..
٣١٠	الريكونكيستا ..
٣١٢	الإيبيريون للرومان ..
٣١٣	محيرة بلدي ..

صفحة

٣١٥	مودونة...
٣١٨	بلاى...
٣٢١	كوفادونجها...
٣٣٦	أهمية كوفادونجها...
٣٤٣	أدقونش بن بطره (ألفونسو الأول)...
٣٤٥	المسلمون يخلون الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة...
٣٤٦	هجرة أعداد كبيرة من البربر إلى إفريقيا...
٣٤٧	المهاجرة تحتاج شبه الجزيرة...
٣٤٧	إخراج المسلمين من جليقية وما يجاورها...
٣٤٨	حدود دولة الإسلام تتراجع إلى نهر دويره...
٣٥٠	ما بين نهري المهبو والدويره منطقة فراغ...
٣٥٢	آراء المؤرخين في أدقونش...

الفصل التاسع : المجتمع الأندلسى - (١) العرب والبربر والموالى

أ- العَرَبُ

٣٥٥	طالعة مويى...
٣٥٦	طالعة بلنج...
٣٥٦	البلديون...
٣٥٦	الشاميون...
٣٥٧	النزاع بين البلديين والشاميين...
٣٥٨	سيادة الشاميين على الأندلس وأثرها...
٣٥٩	تفريغ الشامية في النواحي...
٣٦٠	خصوصية القيسية واليمينية تعود...
٣٦١	تحول الصراع من القبلية إلى الحزبية...
٣٦٥	تكاثر العرب في الأندلس...
٣٦٧	مراجعتنا عن منازل العرب بالأندلس...
٣٦٩	القحطانيون...
٣٧٠	ملاحظات عن منازل العرب في الأندلس...
٣٧١	استقرار العرب على طول خطوط الفتح...
٣٧٢	منازل العرب في الأندلس...

صفحة

ب - البربر

٣٧٨	تيار الهجرة البربرية إلى الأندلس...
٣٧٩	جماعات البربر الأولى...
٣٨٣	البربر في الثغور...
٣٨٧	هل اختص العرب أنفسهم بأحسن نواحي الأندلس ؟...
٣٨٩	تحول البربر إلى بلديين وأثره...
٣٩٠	غلبة الزناتيين على البربر الأولى في الأندلس...
٣٩١	البربر والفتوح في غالة...
٣٩٣	البربر والعرب البلديون...
٣٩٥	جماعات السودان في الأندلس...
٣٩٥	تأثير البربر بالبيئة المحلية...

ج - الموالى

٣٩٦	موالى بنى أمية...
٣٩٧	تكوين كتلة الموالى في الأندلس...
٣٩٩	الموقف السياسى للموالى...
٤٠١	الموالى وقيام الدولة الأموية...
٤٠٣	موالى من أصول إسبانية...
٤٠٤	طبيعة ولاء الأندلسيين...
٤٠٦	موالى الاصطناع...
٤٠٨	أهمية الموالى في تاريخ الأندلس...
٤١١	آراء حول أصل ولاء الاصطناع...
٤١٢	ملاحظات أخيرة على الموالى في الأندلس...

الفصل العاشر : المجتمع الأندلسى - (٢) أوليون والمستعربون

٤١٦	إسبانيا في النطاق الغربى قبل دخول العرب...
٤١٧	طبيعة حركة الامتداد الإسلامى...
٤٢٠	العرب وأهل البلاد...
٤٢١	التزاوج بين العرب وأهل البلاد...
٤٢٤	عجم الأندلس...
٤٢٥	خطأ تسميتهم بالمستعربين...

صفحة	
٤٢٩	المسألة والمؤلفون
٤٣٠	رأى بروفنسال ..
٤٣٢	آراء في أجناس سكان الأندلس ..
٤٣٦	خطأ هذه الآراء والأحكام ..
٤٣٧	هل كان العرب أرسقراطية مترقمة عن غيرها في الأندلس ..
٤٣٨	أهل الذمة ..
٤٤٠	وضع النصارى في المجتمع الأندلسي خلال هذه الفترة ..
٤٤٢	عهود المسلمين للتواحي ..
٤٤٣	تطور النظم الإسلامية ..
٤٤٦	المسلمون يدعون أهل الذمة أحراراً ..
٤٤٦	النصارى يتقاضون بقانونهم ..
٤٤٧	الجماعات النصرانية تنظم نفسها ..
٤٤٨	التشريع الإسلامي والقانون القوطي ..
٤٥٥	عمل قرطبة ..
٤٥٧	اختلاف نظم القضاء في الأندلس عن مثيلاتها في المشرق ..
٤٥٩	العرب يحترمون نظم البلديات ..
٤٥٩	قوس الأندلس ..
٤٦٠	العرب يتركبن لأهل الذمة حرية اختيار رؤسائها ..
٤٦١	الوظائف القوطية تدخل في النظام العربي العام ..
٤٦٢	قاضى الصبح ..
٤٦٣	صاحب المدينة ..
٤٦٣	المشرف ..
٤٦٣	مستخرج الخراج ..
٤٦٤	صاحب الشرطة ..
٤٦٤	الأمين ..
٤٦٤	العريف ..
٤٦٥	الزراع ..
٤٦٦	المسلمون والكنيسة ..
٤٦٧	المسيحية في إسبانيا القوطية ..
٤٦٨	الكنيسة والدولة أيام القوط ..
٤٧٠	رأى راينهارت دوزي ..

صفحة	
٤٧٤	الحالة العامة بعد اتحاد الكنيسة والدولة ..
٤٧٦	الخلافتان الدينية والفتح الإسلامي ..
٤٧٩	رأى في الخلافتان الدينية المسيحية ..
٤٨٣	الإسلام يضع حداً للاضطهادات الدينية المسيحية في الأندلس ..
٤٨٦	أثر الإسلام في نصرانية الأندلس ..
٤٨٧	المسلمون والكنيسة الإسبانية ..
٤٩٥	انتقال مركز المسيحية الأندلسية إلى قرطبة ..
٤٩٦	الكنيسة الأندلسية في النطاق الشرقي ..
٤٩٧	الطقوس القوطية الكنسية ..
٤٩٧	البابوية والطقوس القوطية ..
٥٠٠	وظائف الكنيسة ..
٥٠١	المسلمون وأملأه الكنيسة ..
٥٠٢	سياسة أمراء المسلمين تجاه أهل الذمة ..
٥٠٣	بيوت فقهاء مسلمون ونصارى ..
٥٠٤	خلفاء عبد العزيز بن موسى وأهل الذمة ..
٥٠٦	ثورة أكويدا واستسلامه ..
٥٠٧	نصارى الأندلس يحجون إلى بيت المقدس ..
٥٠٧	عبد الرحمن الغافق وأهل الذمة ..
٥٠٨	موقف عبد الملك بن قطن من أهل الذمة ..
٥٠٨	المسلمون ونصارى قلمرية ..
٥٠٩	عقبة بن الحجاج وأهل الذمة ..
٥١٣	أرطياس ..
٥١٦	المطران سيشيليا ..
٥١٧	النصارى يعصرون بعض البلاد الحالية ..
٥١٨	تعمير شقوبية ..
٥١٩	ميلاد إمارات شبرب وأرغون ونبره ..
٥٢٠	اليهود في إسبانيا قبل الفتح ..
٥٢١	اضطهاد القوط لليهود ..
٥٢٣	المسلمون واليهود ..
٥٢٤	تنظيم جماعات اليهود ..
٥٢٥	حكومة الجماعات اليهودية ..

الفصل الحادى عشر : الادارة والمال

صفحة	
٥٣٠	قلة المراجع عن شؤون الإدارة والمال
٥٣٢	التقسيم الإدارى
٥٣٣	كتاب الأندلس وتقسيمه الإدارى
٥٣٦	أصول التقسيم الإدارى الإسلامى والأندلس
٥٣٧	تقسيم دقلديانوس المعروف بقسمه قسطنطين
٥٣٩	قسم قسطنطين كما يعرضها البكرى
٥٤٤	التقسيم الكنسى الإدارى
٥٤٦	المدينة أساس للتقسيم الرومانى
٥٥٠	القوط والتقسيم الرومانى
٥٥٢	إضمحلال المدن خلال العصر القوطى
٥٥٣	الكنيسة تحتفظ بالتقسيم الرومانى
٥٥٤	الاتجاه العربى فى التقسيم الإدارى
٥٥٥	الأجناد
٥٥٨	المقدس والتنظيم الإدارى للأندلس
٥٦١	نصوص جديدة
٥٦١	ترجمة كاملة لجغرافية طرازى
٥٦٢	تعليق منتق من «فرحة الألفس» لابن غالب
٥٦٣	قطعة من جغرافية العذرى
٥٦٥	التقسيم إلى مدن وكور
٥٧٠	المدينة كقسم إدارى
٥٧٦	ظهور مصطلح الكورة
٥٧٨	التقسيمات الفرعية : الإقليم
٥٨٥	الجزء
٥٨٨	المدينة الأم
٥٨٩	الحصون والمعاقل
٥٩١	تقسيم بحارى الأنهار
٥٩٢	المراسى
٥٩٣	الضياح
٥٩٤	الفحص
٥٩٥	المشيخة والكوردا

صفحة	
٥٩٧	انفصال العرب عن أهل البلاد أول الأمر
٦٠٢	اشتراك أهل البلاد فى الجيوش
٦٠٢	التقليد الشامى
٦٠٢	الإدارة المركزية
٦٠٣	نظام الولاية
٦٠٥	تفكير الخلافة فى إخلاء الأندلس
٦١١	ثبت بولاة الأندلس
٦١٤	الناحية المالية
٦١٥	أسس النظام المالى فى الأندلس برواية محمد بن مزير
٦٢١	رأى ابن حزم
٦٢٢	رأى ابن الخطيب
٦٢٣	الخلافة تعتبر الأندلس ثغراً
٦٢٤	اعتبار أراضى الجنوب إقطاعات لمن استولوا عليها
٦٢٥	بقية أرض الأندلس أرض صلح
٦٢٨	نزول العرب فى بعض نواحي الشمال
٦٢٩	التصرف فى أموال الجباية
٦٣٢	ثروات العرب الأول فى الأندلس
٦٣٥	القبائل تملك إقطاعاتها منكا جماعياً
٦٣٨	بعض الوظائف العامة
٦٣٩	القضاء
٦٤٠	مسألة قضاء الأندلس الأول
٦٤٥	قاضى الجند وقاضى الجماعة
٦٤٦	عهد تولية القضاء لمهدى بن مسلم
٦٤٩	عنترة بن فلاح
٦٥٠	مهاجر بن نوفل القرشى
٦٥٠	يحيى بن يزيد التجيبى
٦٥١	معاوية بن صالح الحضرمى
٦٥٢	اتجاه الأندلس نحو مذهب مالك
٦٥٤	نقطة البدء للملكية الأندلسية
الفصل الثانى عشر : قيام الدولة الأموية	
٦٥٩	فرار عبد الرحمن إلى المغرب

THE DAWN OF AL-ANDALUS

A Study of the history of Muslim Spain from the
Arab conquest in 711 A.D. till the rise of the
Umayyad Emirate of Cordova in 756 A.D.

BY
HUSSAIN MONÉS

Professor at the university of Cairo



SAUDI PUBLISHING
& DISTRIBUTING HOUSE

1985